ابراهيم الكوني

Twitter: @alqareah
12.4.2015

السَّحَرَة

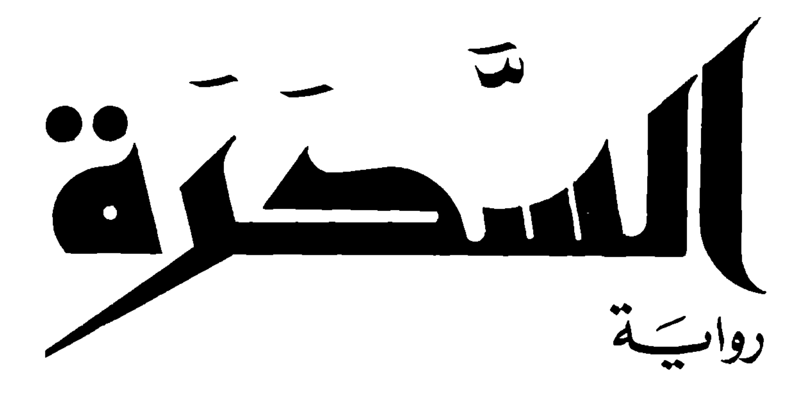
روايــة

الجزء الاول



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

ابراهيم الكوني



رواية

الجزء الاول



Twitter: @alqareah

إلى "آزجر" :

فردوس الاسلاف ،

مملكة الجنّ ،

وطن الآلهة والرّؤى السماوية .

Twitter: @alqareah

حقوق الطبع محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية
برج الكارلتون ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ١/٨٠٧٩٠٠
تلكس : LE / DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع : عمان
ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف : ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى
١٩٩٤

Twitter: @alqareah

« كل ظاهرة فوق الأرض رمز . وكل رمز هو بوابة تلجها كل روح اكتسبت قابلية التسلل في أحشاء العالم ، حيث، أصبح أنا وأنت ، النهار والليل ، كلاًّ واحدا . يتصادف هنا أو هناك ، في طريق الحياة ، أن تعترض الانسان بوابة مشرعة ، كما يحدث أن تراود الانسان فكرة أن كل شئ جليّ هو رمز . وفي مكان ما وراء هذا الرمز تقيم الروح والحياة الأبدية . ولكن قليلين جداً اولئك الذين يلجون هذه البوابة ليرفضوا الجليّ الجميل في سبيل واقع الاحشاء الشفّاف » .

هرمان هيسّة

« زهرة السّوسن »

* * *

« نحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى ، بل إلى التي لا تُرى . لأنّ التي تُرى وقتيّة ، وأمّا التي لا تُرى ، فأبديّة » .

رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس

Twitter: @alqareah

القسم الأوّل

Twitter: @alqareah

١- بورو

« .. وأما من كان معاشهم في الابل فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا ، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لايستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب في فصل الشتاء في نواحيه فرارا من أذى البرد الى دفء هوائه ، وطلبا لماخض النتاج في رماله، اذ الابل اصعب الحيوان فصالا ومخاضا واحوجها في ذلك الى الدفء ، فاضطروا الى ابعاد النجعة ، وربما زادتهم الحامية عن التلول ايضا فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم ، فكانوا لذلك أشدّ الناس توحشا » .

ابن خلدون

« المقدمة »

Twitter: @alqareah

(١)

عندما لاح في الأفق ، يعتلي ألسنة السّراب الزرقاء ، بدا عملاقا مثل مارد ينوي أن يشقّ الفضاء ، أو جبل عمودي سقط من السماء وغاص في مياه تفيض بها الصّحراء كلّما حلّت القيلولة . استمات الشّبح . جاهد الغلالات الزرقاء . عاند لعبور المستنقع الفاجع. حاول التخلّص من فخّ لم يكتب لعابر أن ينجو منه يوما . ولكن المسافر لا بد أن يمضي اذا أراد أن يعبر المتاهة ، وما على الصّحراء إلاّ أن تتدفّق بألسنتها الناريّة الزرقاء ، وتدفع في وجهه بأمواج بحر كاذب ، فاجع ، هو أقسى وأقدر على الغدر من كل البحار العظيمة التي تناقلت سيرتها ألسنة الرواة ، وردّدها أهل الصحراء في الأساطير .

أبتسم وهو يقف تحت الطلحة ، ويراقب عراك الشّبح مع السّراب . تندفع الأمواج اللئيمة وتنتزع ضحيتها من يد الصّحراء ، تعبث بها قليلا . تهدهدها بكفّ شيطاني ، انثوي ، لعوب ، فيستجيب الجسد البائس بالرقص . ترفعه الى أعلى . تلقي به في الهواء فيتلوّى ويستطيل في قامة خرافيّة ، كأنه ينوي اختراق الفضاء . ولكن الكائن اللّعوب ينتقل الى دور جديد في لعبته . يقصم ظهر الشبح نصفين . يلوّح بالنصف العلوي في الفضاء ، ويلقي بالنصف السفلي الى اليمّ . يضيع النصف العلوي في المتاهة العليا ، ويغرق النصف السفلي في فيض

Twitter: @alqareah

الموج . يقهقه الكائن اللعوب ، يستلقي الى الوراء منتشيا بالعبث ، متباهيا باللّعب ، يتوقف فجأة ، ويبدأ في لَمْلَمَة الأسمال الشقية كأنه تلقى أمرا صارما من السماء . يعيد تركيب الجسد . يبدأ الخلق بضجر . يبعثر الأعضاء في الهواء . يأتي بالذراع اليمنى ويلصقها بالمنكب الأيسر ، ويضع الذراع اليسرى في المنكب الأيمن . يتسم بدهاء قبل أن يعكس الخِلْقَة : يتوّج المنكبين بالرجلين ، ويأخذ الرأس ليضعه أسفل الجسد ، ليقوم بدور القدمين ، فيحصل الشقيّ على مخلوق مقلوب ! تنتهره السماء مرّة أخرى فيكف . يكتئب قبل أن يعيد الأعضاء الى الأصل . هنا ، فقط ، يستعيد المسافر البائس جسده ورأسه وروحه وخلقته البشريّة.

فكّر بورو ، وهو يرى المهاجر يستعيد ملامح المخلوقات الأرضيّة ، أن المسافر لم ينتصر في العراك فقط ، ولكن لا بد وأن يكون قد اقترب أيضا .

قفز الى عرف الطلحة ، وفكّ الخيط الجلدي الذي يربطه بالقربة. تناول وعاءه النحاسي الأثير ، المطلي من الدّاخل بطبقة القصدير، وترك فم القربة يدلق الماء في قعر الوعاء السّاحر بلقلقة نبيلة ، غامضة ، ذكّرته برقرقة مياه الينابيع في تاسيلي ، وهي تندفع من قمم خفيّة في أعلى الجبال ، وتهوي بشقاوة عبر دروب حجرية صعبة . ولكن السائل العجيب يعرف دائما كيف يتحايل ، ويتمايل ، ويدور ،

Twitter: @alqareah

ليجد الطريق الى الأرض الظمأى . ويحدث أن يحفر جحوراً في الأرض الجبلية الأخرى ، ويتدلّى ، من فوق ، في خيوط جذّابة ، طويلة، تظل تلمع تحت أشعة الشمس ، وهي تلغو وتثرثر بلغتها المبهمة ، لتحاور الحجارة في رحلة العبور . الآن ينطق الماء في فم القربة بنفس الرطانة الغامضة وهو يهوي في القصدير . الماء كائن عاشق ، يندفع شوقا كي يقبل القصدير . القصدير قرين الماء في اللّون . للماء لون القصدير ، وللقصدير لون الماء . لكليهما نفس اللّون ، لأن لا لون لكليهما . لونهما هو لون الكائن اللّعوب ايضا . الكائن الذي يحوم حوله ، ويستبدّ بالصحراء بمجرّد أن تحل القيلولة . وهو لا يريد الآن أن يذكر اسمه حتى لا يفتك بالمسافر المسكين ! نعم . الكائن اللعوب أيضا لا لون له . ولكنه يعرف أيضا أنه يشارك الرفاق الثلاث هذا اللون العجيب . هو أيضا لا لون له مثله مثل الماء الرقراق ، والقصدير الراقد في قعر الوعاء الأثير ، و... اللّسان الشرّه الذي يستبد بالخلق ولا يشبع من تمزيق أجساد العابرين . وبشرته التي تشبه بشرة القرناء الثلاث ، البشرة التي لا لون لها، كثيرا ما أثارت ضحك الرعاة وقرناء الإنس . بل أنها أثارت حتى أهل الخفاء . فقد نزل ضيفا على نجع هائل مع الغسق . ونحرت له هذه القبيلة النبيلة الذبائح بسخاء لم يعرفه في أهل الصحراء . وتناول أطعمة لم يذق لمثيلها طعما . ثم جاء الشيوخ ذوو البشرة القصديرية المجيدة وسامروه حتى اقترب الفجر . وعندما استيقظ في الصباح وجد نفسه

Twitter: @alqareah

وحيدا في العراء . بحث عن القبيلة الهائلة ، السخية ، التي لرجالها لون القصدير ، فلم يجدها . تفقّد الآثار ، بحث عن رماد نيران البارحة ، فلم يعثر على أثر لمخلوق ، ولم يجد حفنة من رماد النّار . قرأ تعويذة قديمة ، وقام بجهد بطولي كي يمنع جسده من الاستسلام للقشعريرة التي تستولى على أبدان الجبناء . فهم بحدس مجهول أنه نزل ضيفا على قبائل الجنّ ، وتذكّر كيف تحدّث معهم عن الأنساب والاعراق فتأمّله شيخ وقور قبل أن ينطق بقول غامض :

« كلّنا أقرباء . كلّنا أبناء طينة واحدة . أنظر الى يدك ! أليس لون بشرتك دليلاً على انتمائك الى هذه الأرض ؟ لون البشرة من لون الارض . أنت ابننا ! ونحن أبناء هذه الأرض ! فما حاجتكم الى المحاججة والعناد ؟ » . يستطيع أن يفهم أنه ابن الأرض ، ولكن هل هو ابن من سلالة الجنّ مثل بوشا ؟ أم أن الأمر هو مزحة من الشيخ الجليل ؟ ولكن .. متى كان شيوخ الجن يمزحون؟. واذا كان الشيخ المجهول قد تكلّم بالحق فلماذا لم يحدّثه أحد بهذا النسب؟ كتم سرّه عملا بحكمة سمعها من عرّاف تقول : « اذا استقبلك الجنّ بينهم فقد أختاروك بين آلاف المخلوقات . أكتم السر اذا شئت ألاّ يصيبوك بأذى» ولكنهم كافأوه على السكوت ، فجاءه اليقين على لسان أحد الرعاة عندما قال في احدى امسيات الصيف أن الجن هم الشعب الصحراوي الوحيد الذي يتجنّب اضافة الملح في الطعام . في تلك الساعة استولت عليه

Twitter: @alqareah

تلك القشعريرة التي نجح يوما في دفعها عن بدنه بكفاح الأبطال . تذكّر أنهم أطعموه ألذ طعام كتب له أن يذوقه في حياته ، ولكنهم نسوا الملح. لم يضيفوا للطعام ذرّة ملح واحدة . فكيف كان الطعام لذيذا الى هذا الحدّ دون ملح ؟ أم أن سرّ اللّذة في غياب الملح ؟ اذن انقطع الشك، واليقين أنه كان في ضيافة الجنّ . واذا كان هذا الشعب الخفي هو الوحيد الذي لا يكذب أبدا ، فلا مفر من أن يصدّق الشيخ الوقور الذي أخبره بنبوءة لم يكن له أن يعرفها الاّ من قبائل جاءت من وطن النّبوءة . الجن اذن أيضا بلون القصدير الرّاقد في قعر الوعاء النحاسي ، بلون الماء الثرثار المتدفق من القمم ، بلون كائن لعوب يجوس في الآفاق ويغوي المهاجرين ، بلون بدن لا لون له الاّ لون الأرض التي أنجبت معدن القصدير كما انجبت جنينا يحمل نفس الملامح ويدب على قدمين . الأرض التي لا لون لها ، لأنها كانت أمّا أنجبت كل الألوان . صنعت الماء الثرثار من لعابها ، ونسجت ألسنة الكائن اللّعوب من أنفاسها ، وصهرت القصدير في موقدها ، وطهت الجان والانسان في قدر واحدة، ولم تخرجهما الى النّور الأبوي الرّحيم الا بعد أن حشرت الانس في وعاء أعدّته من طين ، وحررّت الجن من الوزر ، فطار عبر الصّحراء ، يرى ويسمع ، يرقص ويغني ، يحيا ويموت ، يسيح في الأفق، ويستعير وعاء الانسان عندما يريد أن يتبدّى ليرهب قرينه الانسان.

Twitter: @alqareah

وضع الوعاء علي صدر الارض محاذرا أن يدلق قطرة واحدة ، ثم أنهمك يربط فم القربة بخيط الجلد بعناية . التفت نحو الأفق . فاز المسافر بالنجاة . تحرّر من قبضة السّراب وتبدّى بخلقته الصحراوية . نعم . السّراب . الآن يستطيع أن يسمّيه باسمه الحقيقي .

الآن يستطيع أن يجسر ويغنّي :

نك آمان

نك آلهين

نك تزوليت

نك آمضال

نك ، كيو نان ، ايلل *

انحنى وتناول الوعاء . كان مليئا حتى حافته بماء لعوب أيضا مثل السّراب اللعين . رأى كم هو مستحيل السير بأناء ملئ الى هذا الحدّ . لامس الوعاء بشفتين مرتجفتين ورشف من الماء جرعتين كبيرتين . وعندما تحرّك وخرج من ظلّ الطلحة أحسّ بخجل لم يعرف له سببا . لم

---

* أنا الماء !

أنا الجان !

أنا المعدن!

أنا التّراب !

أنا ، أنت ، أيها السّراب ! (تماهق) .

Twitter: @alqareah

يتجرّع من الماء خوفا من اضاعة السائل النفيس ، ولكن لأنه لم يقدر أن يقاوم اغراء الماء . فلم يحدث أن رفع وعاء مليئا بالماء دون أن يشعر برعشة خفية ، ورغبة جنونية في رشفة . وكان يفعل ذلك دائما برغم أنه يعرف أن ندما غامضا سوف يعقب شراهته .

سار في عراء يشتعل بنار القيلولة ، مغطّى بحشائش شاحبة ، نهبت منها الشمس النضارة ، فاستجارت بالحجارة ، والارض الظمأى ، والهواء المصهور بالقيظ ، وعندما يئست ، تراجعت ، وانكفأت بفجيعة، باحثة في نفسها ، في جوفها ، عن الخلاص .

مضى لاستقبال المهاجر ، يتعثّر في خطوه ، يمسك الوعاء بحرص من يحمل كنزا . يستجيب السائل اللّعوب لمداعبات شمس القيلولة بغنج ووميض وشقاوة . يرتجف قلبه مع رقص الماء في الوعاء ، ولكن الرجفة لا تعرف الطريق الى اليدين .

(٢)

ترجّل المسافر عن السرج بقفزة الفرسان . الظّمأ غلب فترنّح وركع . جاهد وعاند بكبرياء الأبطال . وقف على قدميه . انتصب بقامته . انتصر الانسان ، ولكن بورو شاهد في عينيه انكسارا خفيّا . ليس تعب المسافة ، وليس حزن التّيه ، وانما شئ آخر أكبر من الاتعاب ، وأعمق من الاحزان . فهل هو فجيعة الهزيمة ؟ يجمع حكماء الصّحراء

Twitter: @alqareah

أن لا شيءَ يقهر الرجل النّبيل مثل الهزيمة . فهل تكلمت عيناه بالشقاء لأنه لم ينجح في أن يعبر الصّحراء دون أن يتذوّق ذلّ الظمأ ؟

شيّع الوعاء بخشوع ، فتلألأ الألق النبيل نكاية بالشمس . ارتفعت بينهما بحيرة صامتة ، تتلاعب بالشعاع برغم لونها الصارم ، الكئيب ، الذى يشبه لون القصدير . الطلاء الغامض الذي لا لون له . لأنه من الأرض خرج مثل كل الكنوز الصحراوية .مثل الذهب والحديد والماء والترفاس . استخرجه الحدّادون السّحرة من نفس النّبع . من نفس المجهول ليطلوا به أوعية النحاس كي يعطوا السائل النّبيل لون المجهول الذي لا لون له ، لأنّ الحدّادين سحرة . والسّاحر لا بد أن يبحث عن المعدن في بطن الأرض . لأن السّاحر وحده يعرف أن الأرض لا بد أن تعطي لونها لكنوزها ، لأنها تملك كل الألوان ولا لون واحد لها . فهي حمراء وصفراء وسوداء وشهباء وبيضاء . وعندما تجتمع هذه الألوان في لون واحد فان البهاء يتضاعف ، والألوان تختفي ، تنكفئ حول نفسها كالقنفذ ، تتراجع الى مكان ما في الخفاء ، فيخلّف المزيج المدهش لونا جديدا لا لون له هو لون الماء والجنّ والودّان والرّيح والسّراب والقصدير الذي يطلي به السحرة أواني يشتريها المهاجرون الأبديون . تعطي الأرض لأجنّتها من لونها المعتم ، الغامض ، النّبيل ، الفاجع . نعم . لونها لا لون له لأن فيه كل الألوان النبيلة ، ولكنه فاجع . فاجع . فاجع .وقد سمع هؤلاء السّحرة يقولون أن لون الماء من لون الاناء حتى يغروا امثاله،

Twitter: @alqareah

الذين يغويهم لون الأرض الحزين لأنهم يعرفون انه لونهم أيضا ، كي يشتروا أوانيهم المطلية بلون الكنوز الخفيّة .

والآن ها هو الماء الذي نزل من الينابيع الخفية ككنز آخر ، وجرى بشقاوة عبر المنحدرات ، يحاور الحجارة ، يثرثر مع ارواح الأسلاف المحفورة في الصخور ، يمسح عن وجوههم الغبار ، يغنّي الموّال الذي لقّنه لكل المخلوقات فأبدع الحياة . ها هو يحمل كلمة السّر التي تلقفها من مسكنه المجهول ، وجاء مرحاً يتباهى ليبوح بها لأشعة الشمس . ها هو توأمه الذي مرّ في مسيرته الطويلة واختبأ داخل قربته يخرج له لسانه اللامع مداعبا ليدخل في جوف آخر يعيد له الحياة . ها هو يودعه قائلا : « سأمضي عاجلا كي أجعل لك من الخلائق توائم . سأمضي أنا ليكون لك المسافر توأما . كنت منذ قليل توأما لي . والآن أنت توأم المسافر . أنا هو المسافر ، والمسافر هو أنت ! » . تنهّد بورو وابتسم بغموض . سحب الوعاء بيده اليمنى ودفع المسافر عن الماء . تراجع الرّجل وبرق في مقلتيه شقاء الظمآن . ولكن بورو حمل الوعاء ومضى الي الطلحة ، يقود دابة الضيف من رسن ناعم مفتول من شعر الماعز . احترق بدن الأرض ، وتوجّع التّراب . في العراء تسكّع اللّهب . اشتعل الأفق . خلفه توأمه اللئيم وانتزع الطلحة من جذورها . رفعها في الفضاء بيد لا لون لها وبدأ معها لعبته اللئيمة . يطوّح بها في الهواء ، ثم يتلقفها مقلوبة . يشطرها نصفين بلسان النار ، ويرمي بها في الهواء ، ثم يتلقفها مقلوبة . يشطرها نصفين بلسان النار ، ويرمي بها في اللهب . يستعيدها من الجحيم

Twitter: @alqareah

ليمزقها ويصنع منها حطبا. ثم يعود لتجميع الأطراف والأعراف ليعيدها شجرة ، تنفيذا لأمر صارم من السماء . يثبت الجذع ، تنزل الجذور الى المجهول ،ترتفع الهامة الى أعلى . تستعيد الطلحة فروتها ، وتحمد السماء على النجاة .

راقب اللعبة دون أن تفارق الابتسامة شفتيه .

خلفه مشى المسافر حائرا ، ولكن الخوف من العار جعله لا يترنح.

(٣)

صنع له وسادة من التراب عند الجذع ، ولكن المسافر هجع في الظلّ ، بجوار الامتعة ، متّخذا من ذراعه اليمنى وسادة . تنفّس الجنوب بنسمة قاسية منذرة بهبوب القبلي . في فروة الطلح دبّ القلق . هرعت الوريقات الخضراء لتحتمي بالأشواك الفضية ، فانتصبت الأشواك بقساوة السكاكين لتدافع عن الحياة في الوريقات الصغيرة الوديعة التي انهكها ظمأ الازل ، ولكنها مصممة على مقاومة الجدب الى الأبد.

أنصت بورو لمناورات القبلي في دغل الفروة . أبتسم وهو يسمع مشاورات الاوراق مع الاشواك الفضيّة في شأن التدابير ضد الرّيح .

Twitter: @alqareah

هزّه الحوار . فتذكّر صوصوة فراخ الطير في العش عندما يحوم في الفضاء شبح صقر . تتنادى الاحراش كلها ، تنفخ الأبواق ،تقرع طبول الخطر ، ويهرع كل طير الى وكره ، لا رغبة من الطائر الأم أو الأب في أن يقاسم فراخه المصير ، أو يهلك دفاعا عن الذريّة ، ولكن لأن الطائر الطليق ، العابر ، الذي لا يعرف له ارضا أو مستقرّاً ، كان قد أتخذ لنفسه وطنا منذ حكم عليه الاقتران أن يتتني عشّاً يضع فيه قلبه مع بيضه. تسافر الطيور من أبعد الأحراش ، وترمي بنفسها للهلاك بمجرّد أن يظهر الخطر ، وتحلّق في الفضاء ظلال الصقور . الطيور ، وقتها ، تتكلّم بلغة أوضح من لغة الجنّ في الكهوف . أوضح من الفاظ الرّعاة المتعبين الذين قطعوا بقوافلهم متاهة « تينيري » * ليرطنوا كأنهم نسوا لغة الانس من طول السكوت . يتحوّل الحوار اليومي الحكيم الي عويل . نواح . ضجيج غاضب ، واوامر صارمة . تتنازل أرق المخلوقات عن أرق الاصوات لتستعير حناجر المردة ، ولهجة الجبابرة الذين يهرولون بين النجوع لتجميع المقاتلين وتحريض الأبطال على النهوض لمقاومة العدو .

تنتقل العدوى الى الجِمَال فتستجيب الحيوانات للاستنفار . تنتقل اليه العدوى أيضا ، فيرتجف القلب اولا ، ثم يشعر بتلك القشعريرة التي تنتابه عندما يباغته فحيح الحيّة فجأة . يأخذ عصاته ، أو يهرع الى أقرب

* تينيري : (حرفيا) الصّحراء . وهي المتاهة الصحراوية العظيمة التي تفصل الصحراء الليبية عن صحراء آير في اقصى الجنوب .

Twitter: @alqareah

شجرة ، ينتزع منها حطبة . يجري عبر الوادي . يلاحق العدو المعلّق في السماء ، يرميه بالحطبة ، أو العصى ، أو الحجارة ، دون أن يصيبه . وهو يعرف أنه لن يستطيع أن يصيب عدوّاً محلّقاً على ذلك الارتفاع حتى لو وهبته الصحراء قامة الجنّ ، ولكن الوهج الغامض الذي يدفعه لهذا العمل الأخرق لا يكف عن الاشتعال . بل يتضاعف وتزداد الجذوة اشتعالا . ولا يتوقف عن المقاومة الا اذا اختفى الشّبح ، وعاد السلام الى الوادي . يهدأ تحريض الطيور ،تنحني الابل على أعشابها ، وتستعيد الأرض سكونها الجليل . يستلقي تحت شجرة أو صخرة ويتابع لهاثه الجنوني . يبتسم ، وقد يضحك بصوت عال . يضحك دهشة من حماسه الطفولي . ويقول لنفسه أن الرعاة سيصفونه بالجنون اذا رأوه يقاتل صقرا معلقا في السماء .ولكن زقزقة الطيور التي استعادت السكينة تعزيه وتغني له مواويلا شجنية تسمعها الجِمال بخشوع وتطرب لها رؤوس الجبال . نعم . أغصان الطلح تدق طبول الخطر وتناديه كي ينصرها في حربها مع القبلي . يستطيع أن يهرع لمقاومة الصقور لأنه يقدر أن يرميها بحجر أو عِصا ، أو حطبة ، ولكن كيف يحارب القبلى دون أن يعرف تعاويذ السّحرة ؟

تقلّب المسافر واستلقى على ظهره . اقترب منه خطوات ، وقف فوق رأسه . تفقّد جسده النحيل الممدود على الأرض . نثر على وجهه قطرات من الماء . تبلّل لثامه الرمادي وتفتّحت العين عن مقلة جاحظة غاب فيها السّواد . وضع الاناء وعاد الى الدّابة . شدّ الرّسن الناعم

Twitter: @alqareah

فانهار الحيوان كأنه انتظر هذه الدعوة . أراح الأمتعة وحلّ عقدة السرج. تناول قربة بائسة ، تتدلّى من السّرج . تحسّسها فوجد انها ليست فارغة فقط ، ولكنها يابسة أيضا . حمل السّرج والامتعة الى الظّل وعاد لتحرير الجمل . فكّ اللجام من الخطم وطبطب على الرقبة اشارة الخلاص . رفع الجمل نصفه الأمامي ، قبل أن يبذل جهدا مهولا ليقف على قدميه من جديد . أفلت منه أنين موجع ، وسمعه بورو يقول له أنه يفضّل أن يركن الى الأرض ويستكين الى الأبد على أن يدب في العراء الفاجع ليفتّش عن الكلأ الميّت . في تلك الومضة اكتشف بورو الشئ الذي أثاره وأنساه الآهة الأليمة : فالجمل الرشيق ، المسرّج بالسرج الأنيق لم يكن جملا . لقد جاء الفارس النّبيل الى آزجر ممتطيا ظهر ناقة! أفلتت منه ضحكة . حاول أن يكتم الضحك بلثامه ، ولكن صدره مضى يعلو بالهأهأة . ثم .. ثم سمع وراءه العبارة القاسية التي كتب له القدر ألا ينساها أبدا :

– لن اغفر لك ! لن اغفر !

بورو لم يجب . كأنه لم يسمع . كأنه سمع ثرثرات الجنّ التي تعلّم ألا يعيرها اهتماما عملا بوصيّة عرّاف عجوز قال له أنهم لا يتمادون الاّ اذا شدّوا الانتباه ، فاذا انتبهت رجموك بالحجارة ! تعمّد الآن أن يتجاهل الصوت حتى لا يشتد الأمر. كوّم الحطب، جاء بالقشّ. وضع أعواد القش في الأرة . ذهب الى امتعته وعاد بقطعة الزّند .

Twitter: @alqareah

مزّق خرقة من لثامه الأسود . وبدأ يقدح . قدح زنده طويلا ، ولكن السّقط لم يستطعم الخرقة . رفع نظره الي ضيفه خلسة فوجده يرقد كالطفل : عيناه مغمضتان . يداه النحاسيتان النحيلتان تتلامسان على صدره . انفاسه منتظمة ، ونسيم القبلى يعبث بطرف لثامه . كأنه ليس هو من تكلّم منذ قليل . كأنّه لم يقل شيئا . لم يتكلّم أبداً . على صدره نامت قلادة كبيرة من التمائم المحفوظة في حرز الجلد . كل قطعة تلقت وسما دقيقا من النقوش . رأى رموزا محفورة بالنّار على قطع الجلد المربعة . وقف واقترب من الجسد المسّجي برشاقة مولا – مولا * . تفحّص الرسوم فوجد خمس قطع مربعة حظت بالرموز واحتلّت وسط القلادة ، وحوصر الحصن بقطعتين مثلّثتين ، آه . مثلث تانيت ** . يحمي الاسم من الجهتين . انحنى ليتفحص . قرأ من اليمين اولا . فوجد أن اللفظ بلا معنى : |-ⵅ-O-Θ-ⴷ̈ *** أو هو اسم من أسماء الجنّ . قرأ تعويذة سرّية ، وحاول أن يجرّب القراءة من الجهة اليسـرى : ⴷ̈ΘOⵅ| ! جبريـن ، أم

---

* مولا – مولا : طائر صحراوي أبقع صغير يتفاءل به ويرد كثيرا في أساطير الطوارق .

** تانّيت : (أو « تينّت » أو « تانّس ») الهة الحبّ والخصوبة عند قدماء الليبيين .

*** نيربج : تكتب أبجدية الطوارق من اليمين الى اليسار ، والعكس ، ومن فوق الى اسفل والعكس ، وحتى بشكل دائري .

Twitter: @alqareah

جبارين* . نعم .لا بد أن يكون جبارين هو الذي يرقد الآن بين يدي الإلاهة تانيت. هئ – هئ– هئ ..

تململ النائم ورقد على جنبه الأيسر . أنهار الحصن المهيب وتكوّمت القطع حتى لامست التّراب .

عاد بورو الى الموقد وواصل معاندة الزّند . يهوى بالقطعة الحجرية السحرية المعتمة فوق حافة قطعة معتمة أخرى تلبس لثاما معتما أيضا استقطعه من عمامته السوداء . يردد مع كل ضربة رمزاً من الرموز المحفورة في الحصن : |-ⵣ-0-θ-ⵜ̈ . أو يعكس الحروف ويقرأها بالمقلوب : ⵜ̈-θ-0-ⵣ-| . وكان يروق له أن يتمتم بالتعاويذ عندما يبدأ شعائر استدعاء النّار . يرتّل اسم غزال ، أو ودّان أو الأرنب المشؤوم** مفتتا الاسم الى حروف . لأنه يعرف أن الاسم لا يستعير القدرة الاّ اذا تشتّت الى أجزاء صغيرة . والاجزاء الصغيرة تسافر الى المجهول . تمضي الى الجهات الأربع ، وتطير الى السماوات . تتجسّس على الآلهة في أوطانها وتسرق منها السّر . تزور القمر المطفأ . الغامض ، الحزين ، لتستعير منه الشرارة . تخرق الأرض المطفأة ، الغامضة ، الحزينة ، وتدفن فيها السّر كي يتحوّل الى وهج ،

---

* تخلو ابجدية الطوارق – كالفرعونية وأكثر اللغات القديمة –من الحروف المتحركة

** تتشاءم كل الشعوب القديمة من الأرنب ، وتحمّلها مسئولية اخراج الانسان من الفردوس. أمّا الطوارق فقد بلغ تشاؤمهم حدّاً جعلهم يحرمّون ذكرها بالاسم ، لأن النطق بالاسم استدعاء. ويصرّون أن يذكروها بأسماء مستعارة ، وهي كثيرة .

Twitter: @alqareah

جذوة ، شعلة . تخرج من الظلمات حاملة الوميض الذي يصنع السّحر ويشعل النّار في طرف الخرقة .

خيط الدخان ينبثق من الخرقة . النّار تستطيب خرقة القماش المستقطعة من اللثام الأسود . الحروف الخمسة المحروسة بمثلثين من مثلثات تانّيت نجحت في استجلاب النّار من قعر المجهول . جبارين حقّا تحرسه تانّيت بنفسها والاّ من أين جاءت النّار ؟

وضع الخرقة في عشّ القش . تناول أعواد الحطب ، وشرع يبني فوق الأرة كوخا . تصاعد الدخان . تولّى القبلى نفخ الدخان . رتّل القبلى تميمة أخرى . تمتم بأسماء سحرية أخرى . تمادى الدخان وتكاثف . استمرّ القبلى يتلو تعاويذه الخفيّة القديمة . أقدم تعويذة عرفتها الصّحراء . فهرعت اليه الآلهة بالسرّ . وتنادى لنجدته الجنّ . اتخذ الجن من الريح مطية ، وجاءوا بالوميض الالهي . رموه في الأرة فاشتعل الكوخ بلسان سرّي يستمد وميضه وغموضه واستبداده من مواقد الأسلاف المنسية في الكهوف . ارتفع اللسان الجليل ، اللسان المقدّس ، ليلتهم حطب الكوخ . رقص في الفضاء . امتزج بقرينه اللّعوب ليصبحا كائنا واحدا ، يتسكّع في المدى ويغمر الأفق بالفيض المدهش الذي لم يعرف له أحد لونا ، كما لم يفهم له أحد سرّا . لأنه لون مأخوذ من لون القمر المطفأ، الغامض ، الحزين ، ولأنه لون معار من الارض المطفأة ، الغامضة ، الحزينة . وسرّه مأخوذ من القمر المطفأ ، الغامض ، الحزين ،

Twitter: @alqareah

كما استعير من الارض المطفأة ، الغامضة ، الحزينة . واذا أعطى القمر شيئا نفيسا أخذ اسمه ليصبح سرّاً . واذا وهبت الأرض كنزا حصّنته بالطلسم ليصبح سرّاً جاء . الرعاة البلهاء ليسمّوا الوهج المقدس : «تيمسي » ، ولعاب الآلهة اللّعوب : « إيلل » دون يعلموا أن التوأمين سرّ الآلهة ، وروح الأسلاف ، وثمرة أنجبها تزاوج الأرض والقمر ليتدفأ في الليالي الشتوية الباردة ، ونسوا أنها يمكن أن تحرق الصحراء في أيام الصيف . فهذا توأم آخر . توأمه الجليل ، القديم الذي يسمّيه الرعاة «تيمسي » . وما الشرارة الحارّة المقدسة التي تخرج من صدره مع كل نفس الاّ قطعة من ذلك السرّ .

سيعجن الدقيق من جسده ، ويدفنه في ملّة خلّفها الوهج . ستحتويه الأرض لينضج بحرارة الشعلة . وسيطعم المسافر من جسده خبزا لأنه صمّم أن يمتزج بالمسافر البائس منذ هرع اليه ، وسقاه من دمه ، من مائه ، من نفسه . سيقوم كوز الطين ويتبادل الوعاء مع المهاجر بعد أن يستأذن الأرض . والأرض، أرض آزجر ، لا بدّ أن تباركه . فهو لم يسمع أنها منعت بركتها عن مخلوق أراد أن يهرع ،ممدود اليدين ، كي يرمي بنفسه في حضن مخلوق اخر ليبنيا ، معا ، كوزا واحدا من الطّين . آه ، آه، يا آزجر ، ما أسعد الرّاعي اذا وجد عابر سبيل يتوق ، مثله ، للارتماء في أحضان عابر آخر ، كي يصنعا معا ، بالماء والطعام والكلام ، كائنا واحدا . وكان يقول لنفسه دائما أن هذا كل ما يستطيع أن يعمله

Twitter: @alqareah

كي يحاكي السّحرة العظام الذين لايعجزون في أن يصنعوا بالأخلاط الغريبة حديدا ونحاسا وقصديرا ، ويحوّلوا التّراب الى كنوز من ذهب وفضّة ونحاس . لا يستطيع أن ينافسهم في المواهب ، ولكن صنع كائن من كائنين ، ودمج مخلوق في مخلوقين اصعب من صنع كائن واحد ، مخلوق واحد. فقد لاحظ أن الخنافس تعرف كيف تصنع الكائن ، وتعرف الطريق الى المجهول الذي تأتي منه بمخلوق جدير بأن يثير اعجاب السّحرة ، ولكنها لا تستطيع أن تدخل مخلوقها في مخلوق اخر لتبني بالاثنين مخلوقا واحدا . ولكنه هو ، بورو ، استطاع ان يحاكي السّحرة الدهاة ، ويدمج وعاء الطين في وعاء الطين ، في وعاء آخر ، في وعاء المسافر ، ليخرج منهما بمخلوق جديد . استطاع أن يبني كائنا جديدا ليس لانه عرف كيف يجاري السحرة الدّهاة في عملهم ، ولكن لأنه عرف سرّ الطين ، مرونة الطين الذي يفوق كل أخلاط السحرة سحرا ومرونة ، وعرف سرّ الوهج الذي جاء به الرّيح من الكهوف وتلقاه هبة من الاسلاف كي يدفئ به الكوز المارد ليسعى به ، ويدب، ويتسكّع . عرف أيضا ان الدّم الذي يجري في العروق هو نفسه الماء الثرثار ، المشاكس ، الذي لا يمل محاورة الحجارة والشجيرات برطانة ، حاملا اليها سرّ المنابع والآلهة . ولأنه عرف أيضا وأيضا أن الجنّ قرناؤه ، ليس لانه سمع حكيمهم يلقنه الوصية عندما استضافته قبيلتهم في تلك الليلة ، وانما عرف ذلك في اليوم الذي اعترف فيه لنفسه بكفاءات الأرض التي انجبت كل الألوان . صنعت الماء الثرثار

Twitter: @alqareah

من لعابها . ونسجت الكائن اللعوب من انفاسها ، وصهرت القصدير في موقدها ، وطهت الجان والانسان في ماعون واحد ، ولم تخرجهما الى النّور الأبوي الرحيم الا بعد أن حشرته هو في بدن أعدّته من طين وحرّرت قرينه الجنّ من الوزر ،فطار عبر الصحراء . ولا يستعير الوعاء القاسي ، الوزر الثقيل ، الاّ عندما يريد أن يتشبّه بالانس . هذا هو سرّ العجنة الخفيّة :

نك آمان

نك الهين

نك تزوليت

نك آمضال

نك ، كيّو نان ، ايلل !

توجّع عود يابس وتشكّى بين فكّي وحش يملك فكّين لامعين مصنوعين من وميض البروق ، ووهج التميمة المقدسة المستعارة من روح الأسلاف . بكى عرف آخر وشرع ينزف ويرتجف . سمع بورو الاستغاثة ففهم فورا . تفحص الموقد ، وراقب الكوخ الرشيق الذي أقامه منذ قليل ، فوجده ينهار ويتآكل ويتحوّل طعاما معتما يختلط بلون الأرض المطفأ ، الغامض ، الحزين . جاءت الشرارة الخفية لتنحر قربانها وتقدم اضحيتها من عظام الأشجار . أخذت نصيبها وتركت رمادا

Twitter: @alqareah

معتما، غامضا ، حزينا ،تضيفه الى الارض ، تثري به الصحراء،ليبقى أثرا من الآثار المهجورة التي يروق للجن أن يتخذوها وطنا . استمّر العرف ينزف ويرتجف ويستغيث . وجده بورو يئن بين عودين كبيرين يابسين . مضى ينوح ويولول . ينزف الدّم ويستنجد . دسّ يده بين الحطب المشتعل وأخرج العود الجريح . القى به جانبا وأهال عليه التراب . فاضت مقلتاه بالدموع وهو يرى كيف أسودّ العود الأخضر الى منتصفه. مسح دمه بيده وتفقّده بين اصابعه . كان دما أحمر ، متخثر ، وساخن ، مثل دمه عندما يصيبه خدش وينزف . نعم . هذا دمه . دم العود الأخضر دمه . لقد حرق توأما آخر ، قرينا حيّا ، فكيف سيكفّر عن هذه الخطيئة ؟ هل يكفي أن يطعم المسافر من لحمه أيضا بعد أن سقاه من دمه ؟

ذهب الى امتعته في الطرف الآخر من الطلحة . أخرج جرابا جلديا مدسوسا في جراب جلدي أكبر منه حجما . القى في الوعاء المطلي بالقصدير بضع قبضات من الدقيق . الماء الذي خلّفه الضيف في قعر الوعاء أحاط بكوم الدقيق . أبتسم بورو وقال لنفسه أنه سيخبز للضيف لحمه ممزوجا بجرعة الدّم التي تبقّت من السائل الذي صنع منهما كائنا واحدا ، ليثبتا معا بنوّتهم للارض، للصحراء ، للريح ، للسراب ، للشجر ، للحجر ، للطير ، للودان ، لكل الكائنات الأخرى. نعم . الذي سيعجنه لضيفه هو لحمه . رآه يخرج من جوف البعير مع

Twitter: @alqareah

البعر منذ كان طفلا يرعى الجمال في الصحاري . تسقط عليه الأمطار فينبت ويورق ويتطاول . يتفتح عن سنبلة تنوء بعبء حبّات أخرى فيتسابق اليها الكبار ليحصدوها . في البداية لم يصدق ثم حلِ الجدب وسادت المجاعة ، فرأى كيف تجمع النساء البعر وتكدّسه في أكوام كبيرة لتستخرج منه حبّا تطحنه بين ضلفتي حجر لتصنع للأولاد الجياع خبزا أو عصيدا أو فطائر . هو نفسه ذاق هذا الطعام كخبز وعصيد وفطائر وأيقن أنه ألذ طعاما وامتع مذاقا . ولم يكن صعبا عليه أن يدرك السبب. « لأنه خرج من جوف قريني البعير » . فهو ادرك سرّا آخر برغم صغر سنّه .فهم دون أن يستعين بعقول الكبار أن الجمل ، أو الحوار الصغير ، هو قرينة أيضا . اكتشاف السرّ بدأ بكلام غامض سمعه من العقلاء عندما يتسامرون في الامسيات : « ماذا نساوي بدون ابلنا ؟ الابل هي الحياة : بها نتعيّش ، وهي نركب ، وبها نستعين » . وتلصّص مرة ليستمع الى حديث خطير في خباء الشيوخ . رأي الزعيم أن يبخس في ثمن الدقيق الذي يقايضه برؤوس الابل من تجار القوافل العابرة فرفع الأكابر الدّهاة الذين يعرفون كيف يفاوضون التجّار الخبثاء فسمعهم يقولون : « نحن مثل ابلنا : نفكّر مثلها ، ولا نعرف أكثر مما تعرف » . ضحك يومها في زاوية الخباء . حاول أن يكتم ضحكته ، ولكنها غلبته فانكشف أمره . التفت اليه أقرب شيخ ورجمه بحجر . قفز الى الخلاء وجرى وهو يكركر. لم يندم على ضحكته لأن الولد الذي فتح عينيه فوجد نفسه بين

Twitter: @alqareah

الجمال وهو ما يزال يتسلّى برضع سبابته يعرف أنه لا يوجد في الصحراء كلها كائن واحد يستطيع أن يفوق الابل في الذكاء والدهاء والخبث . وكان عليه أن يعاشرها زمنا آخر حتى يعرف أن كل الحيل التي يتباهى بها امام الأقران مستعارة من الابل . كرّر لنفسه يومها بصوت مسموع : « الأكابر دهاة . الأكابر أدهى من التجّار . اذا كنت أعرف طبع البعير فسوف يخسر التجّار حتما ..» . وكان أن انفضّ الاجتماع في آخر الليل ، فانتشر في الصباح الخبر : قيل أن الوجهاء الدهاة ربحوا الصفقة ، وخسر التجّار ، فابتهج بالبشارة ليس لأن القبيلة ربحت الصفقة ، ولكن لأن عقل البعير أنتصر .

في تلك السنوات تعلّم أن يتسلّى بالغناء في المراعي ، لأنه كان قد عشق الاشعار كما عشق الجمال . يجاهد طويلا ، ويتلوّى كالمجذوب قبل أن يصطاد اللفظ ويقوّم الاوزان في نسق ألحان « هلى - هلى » . يروّض النغم ويرفع صوته :

بورو آغزّارام

بورو ايمستغ

بورو آغرارام

بورو آبسغ

بورو آوارا

Twitter: @alqareah

بورو آوارا *

ويظل يعيد « بورو آوارا » بأعلى صوته ، يخرجها من نسق : «هلى – هلى » ليدخلها في لحن « اساهغ » . يتمايل يمينا ويسارا فتدمع عيناه ، يستعر الوهج الغامض في صدره وتستولي عليه القشعريرة . يشتعل الجسد وينتفض القلب . يتخلّص من عمود الطين ويهرع الي الضياء . يتحول ضوءا يدخل في الضياء . يتدفق في العراء . يسيح في السراب . يلعب ، يتلوّى ، ينساب كالحية، ويلتف حول سيقان الحوار . يتوقف الحوار حائرا ، ويستنجد بأمّه النّاقة . ولكن الناقة تلتهم العشب الوفير ولا تنتبه لـ « بورو » الذي انساب كالثعبان والتفت حول سيقان الحُوار . يتسلق الحوار . يدخل في جوف الحوار ليصبحا كائنا واحداً . تنتقل الحمّى الي الحوار ، فيركض ، ويرقص، ويجدب ، و.. يبكي ، رأى ، في هذا الحال ، الحوار المسكين يبكي مرارا . تشتعل عيناه بالوميض اولا . يحترق فيه البدن . يغيب في المجهول . يخرج من الصحراء مثله . يمتزج بالسراب ، ويرقص فوق العراء مثله . يسمعه يغني

---

* بورو ضبّ
بورو سنونو
بورو عشبة
بورو طلحة
بورو حُوار
بورو حُوار

Twitter: @alqareah

معه الموّال المدهش ، الأليم ، الذي يحرق النشوة لينثر هباء المخلوق في الصحراء :

بورو آغزارام

بورور ايمستغ

بورو آغرارام

بورو آبسغ

بورو آوارا

بورو آوارا

يدوران معا . يشعر أنه يتلاشى في الحوار ، والحوار يصير بورو . يشتد الايقاع . يتصاعد الموّال الخفي ، الفاجع . يهجر الوعاء الثاني ، ويسافران معا في الضوء . يتواصلان في اشعة الشمس ، تغيب الصحراء وتغيب . تحط نقطة الضوء فوق كواكب أخرى مهجورة ، وتنزل أخرى مسكونة بالأسلاف . يتلقى منهم السرّ قبل أن يهوي مع قطرة المطر ، وينفصل عن قرينه الحوار ، ليعود كل منهما ليحشر نفسه في بدن الطين المسّجى فوق العراء . يستيقظ من الغيبوبة فينسى السر . يضيق عليه البدن ، يخنقه الحشر ، فتخونه الذاكرة . وقد التقطه الوالد مرات كثيرة وعاد به الى المضارب . يبقى محموما أياما أخرى ، يزوره الأقران ويرمقونه بعجب ، ولكنه لا يبوح لهم بالرحلة، ولا يحدّثهم بالسرّ الذي تلقّاه من الأسلاف ونسيه . « بورو محموم » ، يقول الوالد للأولاد .

Twitter: @alqareah

يضيف : « هذا موسم الحمّى » . ولكن الخروج بالغناء تواصل في فصل الشتاء ، فعاد به الوالد وخبأه في الخباء . لم يجد ما يقوله للأولاد فطردهم ومنعهم من زيارته . ثم .. ثم سعى وراءه وتجسّس عليه . في ذلك الاوان ابتدع لعبة أخرى مع الحوار الذي كبر وأصبح ثنياً مهيب القامة . يجلس اليه ويبدأ الموّال الخفيّ . يتمايل الثنيّ . تلمع عيناه توقا للسفر .تدمع عيناه شجنا وحنينا للمجهول .تومض دموعه تحت شعاعات الشمس . تمتص الاهداب القطرات فتتلألأ مثل حبّات كبيرة من النّدى . يشتعل جسم البعير وتضيق به الأرض . يركع على ركبتيه الاماميتين ، ثم ينهض . يهوي ببدنه على الارض ويبرك فجأة . يزداد الحريق فيقفز واقفا . يشيّع رجله الامامية ويستبدلها بالأخرى كمن يمشي على فراش من الجمر .هنا يسكت بورو . يتوقف عن الغناء متعمدا . لأنه يريد أن يجرّب ما سيحدث عندما ينقطع الحبل بالمريد . ورأى مرارا أن المريد يهوى . يتلاشى . الارض لا تسعه ، لأنه خرج منها ، والسماء لا تقبله ،لأنه لم يصلها. يبدأ عذاب الثنّي .يمشي وراءه وهو يحترق . يهرب منه عمدا . يرى في عينيه ضراعة فاجعة . ولكنه لايستجيب للرجاء . يتضاعف الشقاء في عينيه ، فيصرّ بورو أن يمضي الى النهاية . يتكوّر قلبه شفقة ،ولكنه يدوس على قلبه ليرى ، ليفهم ، ليعرف ... يتركه أياما على هذا الحال ، ليشاهد كيف يتضاءل المخلوق ، ويتلاشى شوقاً . يبكي بدموع حقيقية ، ولا يكفّ عن مطاردته حتى في الليل ، يقف فوق رأسه في مرقده ،يمد رقبته ، ويتحسس

Twitter: @alqareah

وجهه بخطمه . يلعقه بشفتيه المتدليتين ، الخشنتين ، المدببتين مثل اشواك الطلح . يبكي قلبه دما ولا يستجيب . ثم .. ثم بدأ الحيوان يذوب حتى أتى عليه الحزن . نعم . مات الثنّي في اليوم التاسع من بداية الشجن . في نفس اليوم رأى انسانا آخر يحل في وعاء الوالد . هدّده بسبابته في المرعى ثلاث مرّات دون أن ينطق بكلمة . وصلا البيوت فقيّد يديه ورجليه ورماه في العراء مشدودا الى وتد . أخرج من كمّه سوطا فظيعا. لوّح به في الهواء وبدأ . استمرّ يلسعه بلسان النّار حتى هدّه التعب . لم يتدخل أحد . ربما لأنه لم يبك. كان مغسولا بالدّم ، ولكنه لم يبك أبدا . النزيف في قلبه أقوى من نزيف البدن . اكتشف أن ثمن التجربة هو الفقد وفراق الحبيب ، فعرف الحزن والفجيعة والضياع قبل أن يتركه الوالد ويموت بعد تلك الحادثة بسنتين .

(٤)

قبل أن يصير حوارا كان « تيرزازت » * .

كان اصغر سنّا ، ولكن اكبر خيالا . أكثر طفولة وأعظم أحلاما . يستمع الى قصص جارتهم العجوز الحدباء عن الساحرة الشريرة فيشتعل رأسه بالرؤى ، ويضيق صدره بمخلوقات لا رؤوس لها ، وأخرى تمشي بالمقلوب حتى تدخل « آغرم نودادن » ** المكان المخيف الذي يتجنبه

---

* تيرزازت : أحد الأسماء المستعارة التى يطلقها الطوارق على الارنب .

** « آغرم نودادن » : مملكة الودّان (تماهق) .

Twitter: @alqareah

المسافرون ، ولا يقترب منه الرعاة . يجرى وراءها حتى يقف على اعتاب الغابة الحجرية حيث تتكاثف الظلمات . يستيقظ قبل أن يتمكن من الدخول ، لأن امرأة أبيه تكون قد دلقت على رأسه وعاء الماء البارد ليجري وراء مخلوقات أخرى أقل بشاعة، ولكنها أكثر شقاوة .

يطارد الجداء في المراعي مرددا تعويذة العجوز الحدباء : « من نطق باسم تيرزازت في الصباح أكلت الذئاب اغنامه ، واصاب ابله الجرب » . يعود متعبا في الليل ، ولكنه لايذهب الى النّوم الاّ اذا ذهب واستعطف العجوز الحدباء لتحدّثه عمّا فعله أمغار * الحكيم بالساحرة الشقية تيرزازت . تدق العجوز قطعة النطرون بين حجرين . تهرس بين راحتي يديها ورقة تبغ . تلقي بها في فمها الخالي من الأسنان .تلحق بها مسحوق النطرون .تبصق اللعاب في أرة صغيرة . تهيل التراب . تتطلع الى البدر المطفأ ، الغامض ، الحزين . يعود البريق الى عينيها الكابيتين . تخبره كيف حوّل آمغار الحكيم الساحرة الشريرة الى أرنب : « .. في ذلك الزمان ، عندما كانت الحجارة ما زالت طينا طريّا ، وكان النّاس يعيشون مع الجنّ ، ويتكلمون مع الودّان والغزال ومولا – مولا ، كانت الساحرة تيرزازت هي الوحيدة التي تستطيع أن تزور « آغرم نودادن » وتعود من هناك دون أن تصاب بأذى . وفي أحد الأيام دعاها آمغار العظيم وطلب منها أن تبلّغ بشارة الي أهل الصحراء تقول : « لقد كتب عليكم أن تعيشوا الى الأبد سعداء . واذا متّم فستكون رحلتكم حلما

---

* آمغار : الأب . الجدّ . الزّعيم . الحكيم . الأب الرّوحي . كبير القبيلة . العجوز (تماهق) .

Twitter: @alqareah

جميلا الي « آغرم نودادن » تعودون بعدها الى صحرائكم، ابشركم بأنكم ستعيشون خالدين مثلنا في « آغرم نودادن » ، فلا تخافوا الموت ».
ولكن الساحرة الشريرة غلبها الحقد ، واستيقظ في قلبها حسد الساحرات ،فنقلت الوصية مقلوبة . قالت لأهل الصحراء : « آمغار ينبئكم أنكم لن تعيشوا الي الأبد أيها الاشقياء ، واذا متّم ، فسوف تدخلون « آغرم نودادن » ولن تخرجوا منه أبدا . فلا خلود لكم ولا نجاة من الموت » . أقام أهل الصّحراء المناحات ، ونحروا الذبائح قربانا للحكيم وطمعا في أن يليّنوا قلبه الكبير . جاء الريح ورفع لأمغار في وطنه الخفي في « آغرم نودادن » الخبر . حمل له رائحة النيران المضمّخة بروائح القرابين . وما أن اشتم آمغار الرائحة حتى فهم مكيدة تيرزازت . دمعت عيناه وبكى شفقة على أهل الصحراء ، وحزنا على المصير الذي ينتظرهم. اشتعل بالغضب وأمر جندا له من الجنّ أن يأتوا له بالساحرة . جاء بها المردة في غمضة ، والقوا بها عند قدمي امغار . ضربها على وجهها فشق شفتيها ، ولعنها بأعلى صوته حتي تسمع لعنته كل الكائنات، ثم مسخها الى أرنب ، وكتب عليها أن تكون أجبن المخلوقات». تبصق العجوز الحدباء لعاب المضغة .تهيل عليه التراب ، تتطلع الى البدر المطفأ ، الغامض ، الحزين ، وتختم روايتها العجيبة : «..فأياكم أن تأتوا على سيرة تيرزازت الساحرة التي حرمتنا من دخول

Twitter: @alqareah

« آغرم نودادن » والعودة منه . سمّوها «تيمروَلت »* لأن آمغار نفسه هو الذي كتب لها الجبن . سمّوها : « تانتمزوجين » ** لأن من ذكرها بالاسم في الصباح أكلت الذئاب اغنامه ، وأصاب الجرب ابله » . أعطى العجوز صرّة من تبغ سرقه من زوجة أبيه ، وتسكّع في العراء .

سمع قمم الجبال وهي تتهامس مع البدر ، ورأى الجنيّات يتراكضن ويتراشقن بالحجارة .

اعترضه مارد ، ولكنه لم يبال لأن الحنين حرق قلبه فصمّم أن يسافر الى « أغرم نودادن » كي يمثل بين يدي أمغار العظيم . لم ينم ليلتها ، وفي الفجر جلس في مواجهة زوجة الأب حول موقد النّار ، وتفوّه بنداء استنكرته الآلهة : « تيرزازت . تيرزازت . تيرزازت » . بهتت زوجة الأب . سقطت من يدها شكوة الحليب.شحبت وهرب الدم من وجهها . ازدادت الغضون في جبينها عمقا وقبحا . في عينيها طاف مزيج من الغضب والدهشة والاستنكار . بدأ جسمها يرتجف . تحصّنت بالتعاويذ . ولكنه لم يرحمها . صرخ بنفس النبرة التي لن تحتملها الآلهة داعيا الساحرة الكريهة بالاسماء الملعونة : «تيرزازت . تيمرولت . تانتمزوجين ! » .

---

* تيمرولت : الجبانة (أحد اسماء الارنب) .

** تانتمزوّجين : ذات الآذان (اسم آخر للأرنب) .

Twitter: @alqareah

غطت وجهها براحتيها . نطقت بتعاويذ قديمة مبهمة . اعانتها التعاويذ فتحررت قليلا . عادت الحياة الى اطرافها المشلولة فزحفت في نية للخروج من الخباء . سمعها تنتحب في الخارج . خرج الى المرعى . في الطريق لم يتوقف عن ترديد الأسماء . لم يكف عن التمتمة : « أنا تيرزازت . أنا تيمرولت . أنا تانتمروجين » حتى وصل الوديان . جلس في كهف مهجور ، كئيب ، موسوم الجدران برجال يلبسون جلد ودّان، وواصل القراءة : « أنا تيرزازت ، أنا تيمرولت . أنا تانتمزوجين ». ازدادت العتمة كثافة ، بدا أن الشمس لا تنوي أن تطلع أبدا . استمرّ يتمتم . تحوّلت العتمة الى ظلمة . عاد النهار على عقبيه فأعقبه الليل . رفرف فوق رأسه طائر .تزلزلت اركان الكهف ، نزل من الجدران الرجال الذين استبدلوا رؤوسهم برؤوس الودّان . خرج برفقتهم فرأى الذئاب وهي تفتك بالجداء الشقية . نظر الى المذبحة باستخفاف وهرول. انظمّ الى قطيع الودّان . انطلقت المسيرة الطويلة الى الارض التي يتحاشاها المسافرون ، ولا يقترب منها الرعاة لأن الساحرة تيرزازت حرّمت على أهل الصحراء دخولها منذ نقلت وصية أمغار مقلوبة . ولم يكتب دخولها الاّ لمن آلى على نفسه ألاّ يعود ، أو من وجد في نفسه الشجاعة كي يتحوّل الى الساحرة تيرزازت . فتح « آغرم نودادن » بابا مزروعا بغابة من الحجارة . تكاثف الضباب . دخل ادغالا اخرى تجري فيها انهار خرساء ، صوت الماء فيها لا يسمع ، ولا يروي من ظمأ. من

Twitter: @alqareah

الاشجار الحجرية تتدلّى ثمار مدهشة ، ولكنّها لا تطعم من جوع ، لأنها حجريّة . استوقفه العسس فاستجدى المثول بين يدي أمغار العظيم . طافوا به عبر الظلمات طويلا قبل أن يجد نفسه يقف في فم مغارة ظلماء. أحسّ أنه يقف في المعبد . ركع وتوسّل : « آمغار المبجل العظيم، انت القادر على كل شئ : أعد لي أمّي » فسمع الصوت الجليل : «آليت على نفسي ألا أرأف بحال من ارتضى لنفسه أن يتخفّى في جلد تيرزازت . يحين الاوان ، وتجئ للاقامة في « آغرام نودادن » ، سأعيد لك أمك ، ولكن الاوان لم يحن بعد ، فأذهب وعد من حيث أتيت » . بكى وتضرّع : « اقبلني يا مولاي للاقامة في وطنكم الحجري ، فأنا لا أريد أن أعود بدون أمي ! » ، ولكن آمغار تكلّم بلغة الحكمة والغموض والأكابر: « أمامك طريق ستقطعه في غمضة عين بقياس الزمان ، وستجد نفسك عاجلا في مملكتنا . اذهب وأنس أنك وقفت بين يدي أمغار محشورا في جلد تيرزازت اذا شئت ألا اغضب . لان عليّ أن أنسى مثولك بين يدي . فالنّاموس يقضي ألا يمثل بين يديّ مخلوق مرتين. ومن دخل غابة الحجارة لم يجد ، الى الأبد ، طريقا يعود به الى الصحراء » .

عثروا عليه في كهف بعد بحث استمرّ ثلاثة أيام. وعندما أفاق من الغيبوبة وسأل عن حال القطيع الشقي أجابه أحد الأقران :

Twitter: @alqareah

« فتكت به الذئاب ! » .ثم أضاف آخر : « تتلفظ باسماء الشريرة في الفجر ولا تدري ما ستفعله الذئاب بالجديان ؟ كل العقلاء قالوا أن المشئومة أخذتك الي « آغرم نودادن » ويئسوا من عودتك» . لا أحد يدري أنه تمنّى ألا يعود أبدا اذا كان ذلك سيعيده الى أمّه التي فقدها منذ زمن لا يكاد يعي منه غير مشاجراتها مع أبيه . ويبدو أن ثلاثتهم عاشوا متنقلين في عزلة عن قبائل الرّحل. فهو لا يذكر أنه رأى مخلوقا من سلالة الانس غير الأم والأب . ولكن الجراب العجيب الذي يحمله فوق رأسه لم يحفظ له من حياة الوالدين غير الشجار . يتقاتلون في الصباح ، في القيلولة ، في العشية ، وفي آخر الليل قبيل النّوم . وكانت الأم تبكي دائما الي حد أنه لم يحتفظ بصورة لوجهها الاّ وهي تبكي. تبكي وتذرف الدموع حتى وهي تبتسم له ، حتى وهي تضحك . يضحك وجهها وتنفرج شفتاها عن بسمة لا تنسى ،ولكنّ العينين لا تكفان عن البكاء . فيتمنىّ ان تضمّه اليها وتأخذه الى حضنها حتى لا يرى دموعها وعينيها الباكيتين ، ولكنها لم تحقق له هذا الحلم الحميم . سافرت دون أن يهنأ بهذا العش الذي سينسيه الشجار والدموع وأهوال الصحراء ويحجب عنه رؤية الوجه الباكي . نهض في يوم كئيب تنفّس فيه القبلى ومضى عبر العراء يدحرج كرات صنعها من الاعشاب اليابسة . وجد الوالد يجلس وحيدا حول موقد النّار ، والأم اختفت من الخباء . قال له أنها خرجت الى الكهوف وراء القطيع ، ولكنها لم تعد . مضت أيام

Twitter: @alqareah

أخرى قبل أن يعرف أنها لم تختف من الخباء وانما اختفت من الصحراء كلها . اندهش كثيرا ، لانه لم يستطيع أن يتخيّل كيف تسافر أم في الصحراء دون أن تضم وليدها الى صدرها ، دون أن تأخذه الى حضنها حتى لا يرى في عينيها الدموع . ولكنها مضت وتركت له وجها يفيض بالدموع . اخذتها تيرزازت الى « آغرم نودادن » وحرمته من الاطمئنان في حضن ينسيه دموع العينين . وكان يحلم دائما باليوم الذي يعود فيه الى الام الضائعة كي يمحو فجيعتها عندما يغيب في حضنها. وحتى عندما تلفّظ بالاسماء واستدعى تيرزازت لينفّذ نيتّه المبيّتة لم يخطر بباله أن يعود خائبا لمجرّد أن النّاموس اقوى من نيته ومن كل شئ . أقوى حتى من أمغار العظيم . وكان عليه أن يعرف أن تيرزازت التي دخلت به الى مملكة الظلمة هي التي حالت دون عودته الى أمّه يوم غلبها الغضب واستيقظ في نفسها حقد الساحرات لتنقل الوصيّة الي أهل الصحراء مقلوبة : « آمغار ينبئكم أنكم لن تعيشوا الى الأبد أيها الاشقياء ، واذا متم فسوف تدخلون « آغرم نودادن » ولن تخرجوا منه ابدا . فلا خلود ، ولا نجاة لكم من الموت » . فوضعت بكذبتها النّاموس الفاجع الذي قضى على الصحراويين ان يدخلوا المملكة ليمثلوا بين يدي أمغار مرّة واحدة وأخيرة .

Twitter: @alqareah

ولا ينسى كيف تولّى الساحر أمره بعد مغامرته تلك . هرعت زوجة الأب وعادت بساحر القبيلة الأعمى . جلس فوق رأسه وقال بلغة أهل الخفاء : «اين الجنّي الصغير الذي يريد أن يعود الى أمّه قبل أن تأذن الصّحراء ؟» . تحسّسه بأصابع نحيلة ، قاسية ، كقطع الحطب ،ثم اضاف: « ستعود ، أيها الشقي ، الى أِمّك . كلنا سنعود الى الأم يوما . لا يأتي الانسان الى الصحراء إلاّ كي يعود الى جوفها . تلد الترتوت ثم تعيده الى بطنها . تلد الترفاس في بداية الربيع ، ثم تستعيده قبل حلول الصيف . انتظر حتى يأتي الصيف . صيفنا . الكائنات مثل النباتات تعود الى هناك ، تبتعلها الصحراء عندما يحل الصيف». حرق على رأسه خرقة سوداء . رشق حول رأسه سكينا ومدية وقطعة من حديد . أذاب نطروناً ممزوجا بحفنة من الملح في وعاء مليئ بالماء . طرحه في الوعاء زمنا . وعندما تخلص من جلد الساحرة تيرزازت لفّه السّاحر في خرق كأنها قماط . أعاده الى الفراش المحصن بالمدية والسكين وقطعة الحديد ، وعاد وليدا جديدا . وليد رضيع حقاً حتى أنه نسي . نسي تيرزازت ، وحنينه لملاقاة الام ، ورحلته الخفية الى مملكة الودّان ، ولكنه لم ينس ما قاله السّاحر عن التبدّل عندما يحل الصيف . يتنفس الجنوب بالقبلى . تذبل نضارة الاعشاب وتشحب الاوراق في رؤوس الطّلح . يختفي الفرح مع اختفاء الزهور وتبدأ الأغصان في الشحوب والتساقط . تتوقف الطيور عن الغناء وترتفع في السماء في أسراب مثلّثة كأنّها

Twitter: @alqareah

تتضرّع لـ « تانيت »* أن تبارك مسيرتها قبل ان تهاجر. تصعد وراءها ذيول العجاج الذي يتناقل حبّات البذار . التنقّل بالبذور قدر الرّيح . الرّيح هو الكائن الوحيد الذي يعرف أن لا شيء يبقى من النبات الزائل غير البذور .

البذور هي آخر ما يمكث في الأرض عندما يحل الصيف .

(٥)

ولكن القبيلة سكتت على سرّ مخيف ، يتهامس به الكبار ، ويرميه في وجهه الأقران الاشقياء عند الشّجار . يتهمونه بأنّه جنّي بسبعة ارواح . تشاجر مع اخ مزعوم فقتله ودفنه فاحيته الأرض وخرج من القبر بعد موت دام أياماً . وكان يطيب للأشرار أن يقولوا أنه لم يولد من جوف أمه الانسية ، ولكن الأرض هي التي حملته في بطنها كما تحمل الأم الجنين ، وانجبته كما تنجب امثاله من أبناء أهل الخفاء . وعندما بدأ مغامرته مع ترزازت وجدوا البرهان علي زعمهم فقالوا أن المخلوق لابد ان يأخذه الحنين ويعود يوما الى وطنه ، والساحرة تيرزازت كانت رسول امغار كي يعيد بورو الضال الى أمه الاولى ، الى الارض السفلى في « آغرم نودادن » . وكثيرا ما عيرّه الاشقياء بنعوت لم تجرحه قسوتها

* المثلث هو رمز الالهة تانّيت وكذلك التقاطع .

Twitter: @alqareah

مثل ما حيره غموضها مثل : «ابن الحفرة .. » أو « ربيب الجن وحبيب الأرض السفلى » واوصاف اخرى لايذكرها . وعندما اشتكى للأم ، وسألها عن معنى الآلغاز غزا وجهها الشحوب ، وتوقفت عن رتق الثوب المكّوم في حجرها ، وأجابت بأن كل الناس أبناء الأرض ، كل المخلوقات انجبتها الصّحراء النبيلة ، وعليه أن يتباهى أمام الاقران الاشقياء بأمومة الأرض له وبنوّته لها ، لان الأرض الصحراوية هي أم كل الصحراويين . واذا انكر الاقران هذا الانتماء فقد اعترفوا بالشرّ إلها ، واصبحوا من أتباع وانتهيط اللئيم . لم يقتنع بالجواب فأراد أن يعرف من هو وانتهيط الذي تسبّه العجائز مع مطلع كل صباح ، وتخشاه القبيلة أكثر مما تخشى الساحرة تيرزازت ، فرآها وهي تنكفئ على الثوب ، تترنم بلحن شجني قبل ان تخبره بسرّ وانتهيط : « يأتي الى الصحراء ممتطيا حمارة بيضاء . يلوّح للخلق بالمقتنيات اللماعة التي لها بريق التّبر كي يسحر النّاس ويأخذهم بالبريق فيتدافع الاغبياء وتركض وراءه الاجيال . تجري وراءه الأمم وتتبعه القبائل مأخوذة بالبريق ، مسحورة بالتّبر ، الى أن يرميهم في الهاوية . عندها ستنوح الصحراء وتبكي ضياع الابناء ..» . عادت الى اللحن الحزين ، وترنمت بمرثية الضياع . ضياع الابناء وفناء الأجيال من الصحراء . تغنّت بموّال الفجيعه الذي سترثى به الصّحراء زوال الابناء . ولكنه كان شقيّا وصغيرا ولم يفهم حرارة الفجيعة في مواويل الصحراء ، لأنه قاطع الأم ليعرف سرّ

Twitter: @alqareah

الأخ المزعوم الذي شجّ رأسه ليدفع به الى الحفرة . توقفت عن الاغنية الشجنية القاسية فأحسّ بالفراغ ، بالعزلة ، بالضياع ، باغتراب خفيّ عرف فيما بعد أنه قدر مكتوب على جبين كل صحراوي . ادرك كم هو أحمق اذ أوقف تدفق الموّال بالسؤال حول خرافات الاقران الاشقياء عن الأخ المزعوم . استعار النغم النبيل ، وايقظ في صدره الصغير الرؤى والاحلام والاعاجيب ، فأحسّ أن النغم لم يتوقف . مضى مع اللحن بعيدا فلم يستمع لرواية الأم حول أخوّة الكائنات ووحدة كل الاشياء في الصحراء . مضى بعيدا . سافر الى أرض أعلى من مقام الزعيم في آزجر، وأبعد من ملكوت « آغرم نودادن » . اللحن اشعل فيه حريقاً لم ينطفئ منذ ذلك اليوم ، وأيقظ فيه حنينا لم تسعه الصحراء الكبرى كلها. لقد تلقّى الالهام الذي وهبه تلك العبقرية الفريدة . عبقرية الاختراق والاتحاد والتلاشي والميلاد . اختراق الاشياء ، الاتحاد بالكائنات ، التلاشي المدهش الذي يتبعه الميلاد في عرف السراب ، أو لسان السيل ، أو جلد تيرزازت ، أو بدن الحوار . استلقى على ظهره وتأمل السماء الزرقاء فوجد أنه ليس جزءا من السماء ، ولكنه هو السماء . وجد أنه مسكون بالأرض التي يلتصق بها ، والأرض أيضا تسكنه . ادرك بحسّ الطفولة المبهم كيف يسير الانسان الى الاشياء ، وكيف تسير اليه الأشياء. كيف يسرى في الأشياء وكيف تسري فيه الأشياء . تابع كيف تحدث الاعجوبة . كيف يتشتت ويتبدّد في الصحراء الكبرى التي لا

Twitter: @alqareah

وجود لأرض ، ،ولا لوجود ، سواها . سافر الى المجهول مع اللّحن ، وعندما عاد وجد نفسه يبكي . ويبكي . ويبكي . بكى طويلا في ذلك اليوم.

سبّب الوجع للأم التي ظنت أنه تلقى صفعة من جنّ ، فهرعت الى الخباء ، وحرقت حفنة الشّيح ، وسقته ماء النّطرون ، وقرأت على رأسه تعاويذ المجوس وتمائم السّحرة . أكتأب لأنه افزعها ، ولكنه لم يبح لها بسرّ الرحلة . لم يقل لها أنه بكى فرحا ، ولم يطلب منها أن تعيد جوابها عن الأخ الذي حاول قتله ، لأن رغبته في سماع مرثية الصحراء عندما تفقد الابناء كانت أقوى الى حدّ تحوّل فيه كل شئ غير الغناء الى باطل : سرّ الكبار وهم يتهامسون ، تُهَم الأقران الاشقياء عند الشجار ، النّعوت الغامضة عن الأصل السفليّ . وسيرة الأخ الذي دفنه في الحفرة. الرغبة في العودة الى الملحمة جَبّ كل هذه الاهوال وحوّلها الى اوهام وأضغاث احلام ، فوجد نفسه ينهض ، يستند بمرفقيه على الارض، ليلقي نظرة على الصحراء البكر وهي تعوم في أشعة الغسق كأنه يراها لأول مرّة . لم لا ؟ ألم يولد من جديد ؟ ألم يطف الأكوان برفقة النغم ؟ ألا يحق له الآن أن يترجّى الأم أن تسمعه سيرة الأم ؟ ألا يحق له أن يسمع من الأرض سرّ شقاء الأرض ؟

تابع الخلاء الموجع ، الغامض ، المغمور بأشعة الغروب ، وتوسّل الأم ان تسمعه مرّة أخرى اغنية الصحراء عندما تنعى الذرية ، وترثي

Twitter: @alqareah

أبناء فقدتهم لأنهم تنكروا لها واختاروا أن يصيروا أتباعا لـ «و انتهيط» .

(٦)

فرغ من عجن الدقيق ، صنع من العجنة قرصا مدوراً ، سميكا ، نثر فوقه حفنة من الدقيق . كساه بطبقة الدقيق بعناية ليمنع الجمر النهم من نهش جلدة القرص . داعب العجين المنفوش بكلتا يديه . اختبر سطح القرص فوجده صلبا تعلوه طبقة ناعمة مثل شرشف لميس . تناول من كوم الحطب عودا. أخرج من كُمّه مدية نحاسية مدسوسة في غمد جلدي مطفأ بلون الأرض . شذّب العود وأعد منه مِسْعراً .أزاح الجمر المتوحش جانبا .خلّف الجمر رمادا مطفأ ، غامضا ، حزينا ، مثل الأرض ،مثل القمر ، مثل كل كائنات الصحراء. هرش الرماد بالمسعر فاستعر الملال وتململ بمرونة تلك الأخلاط العجيبة التي يصنعها الحدداون السّحرة في الواحات عندما يحمون الأتربة والأخلاط بالنّار فتتحول الى نحاس وحديد وقصدير . حفر بالمسعر في الرّماد المتململ ، الرائب ، الرجراج ، مفسحا المجال للرغيف . أخرج كنزه من الوعاء . داعبه بين يديه في الهواء . وضعه في مأواه الجديد . أهال عليه الرماد المتململ ، الآسر ، الرجراج . تدفق فوق القرص الابيض ، المحصّن داخل شرنقة رهيفة من هباء الشعير ، مادّاً لسانا شرها كلسان ثعبان

Twitter: @alqareah

غاضب . أبتلع الفم الشره بدن القرص . استسلم البدن النّبيل لويلات جهنّم . أحسّ بالرماد يحتويه . يسيل علي بدنه . يجاهد رذاذ الشعير ، تستميت التميمة لحمايته ، ولكن المخلوق الذي جاد ببدنه لا بد أن يحتمل النّار ، ويذوق طعم الجحيم ، اذا أراد ان يطعم مخلوقا آخر ، ويصنع منه توأما ، أخا ، قرينا . أنحنى فوق التّراب المعتم . تابع رجفة الرماد وتلذذ بدفء مجهول نفثته ذرّات الرّمل وامتصّه البدن المدفون في جوف الأرض . سرى الدفء في العروق ، ومضى يتسلل ليغمر الجسم كلّه . وكلّما انتشر فيه الدفء تصاعد الانتشاء واقترب ميعاد الخروج . ذلك الخروج الخفي الذي أحسّ به عندما تحوّل الى حوار ، وتمتّع به وهو يطوف في الغابة الحجرية متخفيّاً في جلد تيرزازت ،وعرفه وهو يتجوّل في « تانوت ملّت » ليغيب في أعراف السّراب حتى يتلاشى ، ثم يجد نفسه عائدا في هبّة ريح ، وقطرة مطر سقطت في أعالي الجبال لتندفع الى الوديان في ألسنة شقية تثرثر وترطن وتعارك الحجارة . الخروج الذي تصنعه أغنية شجية . الخروج . الخروج . ماذا كان سيفعل لو حرم من نشوة الخروج ؟ كيف سيحتمل الشمس والظّمأ وألسنة الرماد المشتعل ؟ ها هو شرر السرّ يتراجع . ها هي جذوة الحنين تخبو، ها هي نار العشق تهدأ وتنطفئ . ها هو بورو يولد ، ويولد، من جديد.

أخرج ثمرة الأرض بحركة من المسعر . تناولها بين يديه .

Twitter: @alqareah

هدهدها لينفض عنها حبّات الرمل القاتمة . لوّح بها في الهواء وتلقفها كأنه أمّ تداعب طفلها الوليد . فاح الرغيف بمزيج الرّوائح . رائحة الارض الصّحراوية وهي ترتوي بالمطر . رائحة النّار وهي تتلذّذ بأكل الحطب اليابس . شذى الزهور الاولى التي يجود بها ربيع مبكّر . رائحة الأخلاط في مواقد الحدّادين السّحرة. رائحة الثمرة السرّية التي تنجبها الحمادة من المجهول عندما تعقد السّماء مع التربة الحمراء زواجا بأمطار سخيّة في فصل الخريف . و ... رائحة الجسم البشري المتعب ، جسمه هو ، عندما يركض خلف الابل أياما ، ليهجع في القيلولة ، يتنفّس ، فتفزّ منه خيوط العرق . ظلّ يقلّب القطعة المطفأة ، بين يديه، محاولا أن يستعيد الزّمن المفقود الذي ملأ فيه رئتيه بهذا العطر الأليف كأنه أغنية شجن .

أصاب عراك الافلاك الشمس في عرشها فكفت عن المقاومة وتنازلت عن الكبرياء وعن العرش . انسحبت غربا في انكسار ، فابتهجت الطلحة بالبشارة . هلّل الظلّ وخرج من كتلته . تمدّد بارتياح واستطال . سعى في قامة رفيعة في الاتجاه المعاكس .تابع بورو فرحته وزحفه ، وفكّر كيف كان بائسا ، يائسا ، مكوّما حول نفسه مثل القنفذ منذ قليل ، يستجيرمن عذاب النّار عندما كانت سلطانة السماء تستبدّ بالصحراء . ولكنه يطلع لها الآن لسانه ساخراً من هزيمتها . حتى الظلال تخرج من عزلتها ،وتتمدّد ، وتتمطّى شماتة ، واستفزازا ، واحتفاء

Twitter: @alqareah

بسقوط الطاغية . ها هو ظل الطلحة يتمرد ويتجاسر ويتحرّك مستمتعا بتحرّره ، ليتركه في العراء لأشعة شمس العشية . تابع اللسان المطفأ ، الغامض ، وهو يتمدّد ليزف بشارة الغروب لكائنات الصحراء . وكانت « مولا – مولا » أول من استجاب . رآها تقف فوق حجر مرفوع على مسافة بضع خطوات . ظهرت فجأة كأن الحجر المرفوع هو الذي أنجبها. ركعت مرتين فانحنى بورو الي الأمام ردّا لتحية طائر البشارة . خاطبها بصوت مسموع :

– خبزنا هو دمنا ولحمنا وماؤنا . ولن نبخل بالماء والدم واللّحم على مولا – مولا كما فعلت أمّ ضرّة تانس الشقية* .

كسر قطعة من الرغيف فتمادى العطر وفاح بكل الروائح الشجيّة التي تجود بها الصّحراء . ألقى بالقطعة نحو الطائر فشكرته مولا – مولا بانحناءتين متتاليتين قبل أن تتقدم نحو العطية في قفزتين جريئتين . رفعت اليه نظرة حذرة قبل أن تنحني فوق القطعة وتغرس منقارها الصغير في الشّق بحثا عن الجزء الرّطب في القطعة التي تخشّنت جلدتها في التراب لأن الأرض جاهدت ان تردّها الي الأصل ، كما تفعل مع الكائنات الصحراوية ، فاخفت الرغيف في صَدَفَة لها صلابة الحجر . تراجعت الى الوراء وانحنت مرّة أخرى . رأى بورو البقعة

---

* ضرّة تانّس الشقيّة : رفضت أمّ الضرّة في اسطورة تانسّ الشهيرة أن تعطي قطعة اللحم لـ « مولا – مولا » فبشّرها الطائر أن اللحم الذي أكلته انما هو لحم أبنتها !

Twitter: @alqareah

الناصعة التي تتوّج رأسها وتتوسّط لباسا كئيبا في سواد الفحم ، كأنه البدر يبدّد ظلمة الليل . قال لنفسه أن هذه البقعة البيضاء سرّ تعلّق الصحراويين بمولا - مولا وسبب تفاؤلهم بها . فبدن الطائر ليل كئيب ، والبقعة هي الضوء. ولكن في مولا - مولا سرّ آخر أكبر من سحر البقعة، وأكثر غموضاً من الاشياء المطفأة . فتقول العجائز الحكيمات ، بلغتهن الغامضة ، أن البدن المظلم هو الدهليز ، دهليز الحياة ، أم دهليز «ايدينان» * المجهول ، والتاج الأبيض هو علامة المتاهة ، بقعة الضوء ، اشارة الأمل في العتمة . فلم تضع قافلة خرج في طريقها طائر العجب . لم تفتك ذئاب بقطيع نال ركعة من البدن الأبقع . لم تحل مجاعة في نجع حامت فوقه مولا - مولا . ولم تعرف القبائل وباء ما استضافت المخلوق الوديع في ربوعها. كما لم يحدث أن تاه رسول ، او عابر سبيل، وفقد الطريق الى الآبار اذا تلقّى البشارة من دليل المسافرين . عكس الصرّد المشئوم الذي لا يظهر في نجع إلاّ وحلّ فيه الوباء ، ولا ينزل أرض الآ نالتها المجاعة ، ولا يوقوق على مسمع قبيلة الا هاجمها الغزاة ، أو مات فيها الزعماء والحكماء والأكابر . واذا مات الزعماء والحكماء والأكابر فذلك نذير الخراب والزوال ، وبداية انقطاع في نسل القبيلة . ولذلك يتشاءم المسافرون الى آير من مفازة « تينيري » ، لا لأنها أرض تنتقطع فيها

---

* ايدينان : جبل خرافي يقع في قلب الصحراء الكبرى الوسطى وتقول أساطير الطوارق أنّه وطن الجنّ (راجع رواية « المجوس ») .

Twitter: @alqareah

آبار المياه لمسافة تزيد على الشهر ، ولكن لان مولا – مولا هجرتها في قديم الزمان ، بعد ان رفض أهلها البخلاء أن يقتسموا معها طعاماً أعطته لهم أمّهم ، وأمّها أيضا ، الأرض السخيّة، النبيلة التي اعطت الجميع ، ولم تبخل بخيراتها حتى علي الأغراب ، بل منحت بسخاء حتى الغزاة الذين بيّتوا لها الشرّ ، وجاءوا ليسببوا لها الأذى، وهي التي علّمت مولا – مولا النّبل ، والتسامح ، والسخاء ، لتأخذ منها الوصية القديمة وتتحصّن بها كتميمة سرّيّة ، تصنع منها بشارة للأشقياء . مولا – مولا ... أنت رسول الصحراء . روح الصحراء . سرّ الصحراء.

كان من حق بورو أن ينعم بالسعادة ، لأن الأرض التي هو جزء منها ، قد باركت خبزه ، فأرسلت روحها الذي يسكن طائرالبشارة ، ليكون اول من يأخذ نصيبه من الثمرة المطفأة مثل الصحراء ، الغامضة مثل الصحراء ،الحزينة مثل الصحراء ، التي امتزجت فيها روائح الارض، انفاس الأرض، بألوان كائنات الأرض ،ببشرة الأرض . الأرض قالت له بلسان مولا –مولا أنها اعطته لا ليأخذ ، وانما ليعطي ، لأن الابن لن يكونَ ابنا ان لم يتحلّ بأخلاق الأمّ . والأم لم تبخل على الغرباء . لم تبخل حتى على الاعداء . ما عليه أن يتعلّمه هو هذا السحر الجديد ، القاسي ، الذي يرى أن المخلوق الذي يريد أن يتباهى بالانتماء للأم العظيمة ، لا بد له أن يبلغ من التسامح مقاما يجعله قادرا أن يقتطع نصيبا

Twitter: @alqareah

من خيرات الارض ، يغدق به حتى على أعداء الارض . فهم ابناء الأرض ، وان ضلّوا السبيل ، وساروا وارء السّاحر « وانتهيط » .

فأي سرّ تخبئه الصّحراء في حلمها الخفيّ ، وتسامحها القاسي ، ونبلها الحكيم ؟ ولكن بورو فهم دائما . فهم لغتها ، لأنه أمتثل لتعاليمها عندما لقّنته أول الدّروس . وما عليه الاّ أن يستنفر قواه ، ويستفز الذاكرة ليسترجع المسيرة . ففي السيرة القديمة يستطيع أن يستعيد الوصايا ، ويفهم الاشارة ، ويفكّ ما غاب عن باله كما يفكّ رموز « تيفيناغ » السريّة التي تركها له الأسلاف محفورة على ألواح الحجارة .

هناك ، في رحاب الماضي المجيد ، حيث ينطبع الأجداد بقامات المردة على صدور الصخور المطفأة ، ويستعير الصيّادون العظماء ليس اقنعة الودّان فقط ، أو قرونها ، أو أجسامها الجليلة . وانما هيبتها أيضا ، وغموضها ، والسرّ المبهم في عيونها الكحلاء . هناك ، في رحاب الصخور المطفأة كبشرة الأرض، هناك ، في هذا السّفر الغامض ، المكتوب بصور اقتطعها الأسلاف من أرواحهم ، يستطيع بورو أن يجد سرّ قرينته مولا – مولا ، ويقرأ سيرتها الأولى.

(٧)

تحرر الظل فعرّى هروبه الى الشرق الضيف من الفئ فأدركته الشمس باشعة مكسورة ، أشعة العشيّة . ولكن الانكسار ومشوار

Twitter: @alqareah

الافول لم ينزعا النّار من رُسل القرص المستبدّ . فرأى كيف تململ جبارين عندما سلط الطاغية خيوط الشعاع فوق نحره الذي انحسر عنه اللثام . هبّ بورو الى امتعته التي انحسر عنها الظلّ أيضا وتركها لسطان الشعاعاتِ المستميتة . تناول برنسه الأزرق الذي التهمته نفس الاشعة الخالدة ولحست لونه فبدأ يبهت ويشحب ويبيضّ . رماه في الهواء ، فوق رأس الطلحة .تلقفه الشوك ، وتشبثت به الفروة . كأنّها كانت تنتظر العطية .فزعت مولا – مولا فرفرفت . طارت صوب المرتفعات الجنوبية وحطّت على طلحة بائسة تقف عند المنعطف حيث يزداد الوادي عمقا وينحرف ، بحدّة ، ليدور الى الغرب في طريقه الازلي نحو آلون العظيم .هناك تقف ناقة المسافر ايضا ، تنحني فوق شجرة حلفاء ، وتنتظر زوال الشمس . أما الطلحة فتمسكت بالحجاب لتحمي رأسها من سيل النّار المحتضر ، فتدلّى البرنس في الفضاء ليستر نحر المسافر من الفيض الذي استمرّ يتدفق من عين الطاغية . الشمس لاتريد أن تستسلم حتى وهي تحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة . اقترب من بدن القرين . سجد فوقه فسمع أنفاسه المجهدة . رأى صدره يعلو ويهبط مستجيبا لحرارة الأنفاس المدهشة وهي تتسرب الى وعاء الطين ، عبر دروب خفيّة ، حاملة السرّ المقدّس ، لتصنع السّحر ، وتمدّ الينبوع بالغذاء ، فينبض كوم الطين ، ويستجيب العجين لوجيب الحياة . أنسدل طرف اللثام العلوي حتى لامس العينين المسبلتين . فوق الجفن الأيمن سال

Twitter: @alqareah

خيط شقي من العرق . انبجس من الجبين المستور باللثام ، وسار عبر الغضون بشقاوة المياه في المسالك الجبلية ، حتي أصاب الاهداب الكسولة بالبلل ، فبدا كأنّ العين المسبلة هي التي فاضت بالنداوة . ففي شق بين الجفنين كشفت عين النائم عن بياض المقلة . في البياض لمع وميض طفولي يخفي سؤالا قاسيا . انحنى بورو حتى كاد طرف لثامه يلامس لثام النائم . تأمل الشقّ . كان ضيّقاً الى حدّ غاب فيه السواد تماما، ولم يسمح الا لخطّ البياض بالتبدّي . خط يشبه القبس الفجري البكر الذي يتولى الأمر ، امتثالا لأمر اعظم ، ويعطي اشارة تقلع بدن السماء عن جسد الأرض ، منبئا الخلق عن نهاية العرس ، واقتراب ميعاد الانفصال . خيط فاجع ، لأنه يحمل بشارة الفراق برغم استمرار طقوس القران . ولا يعرف بورو لماذا رأى في البياض المنبثق من الشقّ الضّيق ، بين العينين المسبلتين ، فجيعة قبس الفجر ، كأنه ، البياض ، يخترق غيهب الغيب ليكشف خفايا الزمان ، على طريقة العرافين السّحرة ، ملوّحا بنبؤة لا تقل فجيعة .

تراجع الى الوراء . تقدّم الى امتعة المسافر . أمسك السرج من رأسه . من شعار تانيت المجسم * والقى به على منكبه مقلوبا رأسا على عقب . كأن السرج هو الذي يمتطي منكبه ، والشعار المهيب منكس الى

* شعار تانّيت المجسّم : تقاطع على هيئة صليب ، وهو حرف+ « التا » - بأبجدية « تيفيناغ » الحرف الأول من اسم الالهة « تانّيت» .

Twitter: @alqareah

اسفل ، كأنه يركع للارض ، ويصلّي لتراب آزجر المقدس، بعد ان كان مكابرا ، مرفوعا الى السماوات في فلوات الحمادة الحمراء . حركة عفوية ، صغيرة غير متعمدة من بورو جعلت معبودة صحاري الشمال تركع في صحراء آزجر العظمى ، لتتحوّل الي عابد ينحني براسه الى اسفل ، يقبّل الأرض ،ويصلى للتراب ، ويعبد آلهة أخرى ، أنبل ، وأعظم ، وأكبر ، الي حدّ أنهم لا يكتفون بالخلق الزائل عبيدا ، ويأبون الا أن يتخدوا من الهة الاغراب عبّادا .

صعد المرتفعات المهيبة . ودخل مغارات جليلة . اخفى السّرج المتوّج بعلامة تانّيت كمايخفي الجنّ كنوزهم في اقبية الحجارة ، ليعقبهم اليها الكنّازون السّحرة الذين تلقوا تحريضا من « وانتهيط » اللئيم ، فأصابهم بالمسّ لينبشوا قبور الاسلاف المقدّسة ، فتتزلزل الجبال سخطا ، وتتوجع الارض غضبا،ويخرج التراب اثقاله وحممه انتقاما .

عاد من المخبأ بوعاء من الفخار . وعاء محروق باللون المطفأ ، الغامض ،الحزين . أتى بثلاثة احجار ، أقام منها نصبا مثلث الزوايا فوق النّار ، وضع فوقها الوعاء بعد أن دلق فيه الماء . بدأ في اعداد الحساء . جرّ بضع قطع من الجمر بالمسعر وكوّمها جانبا .

وضع فوقها وعاء آخر ملأه بالماء وحفنة من الأعشاب . تململ جبارين . رفع رأسه . اسند جسمه بمرفقيه . راقب الخلاء . رأى فيه الفرح الطفولي البكر الذي تستقبل به الصحراء غياب الشمس .الفرحة

Twitter: @alqareah

الوحيدة التي تستبدّ بكائن يؤدي شعائر الوداع . راقبه بورو بفضول قبل أن يمدّ له بكسرة الرغيف . جلس جبارين . تربّع .تناول القطعة بكلتا يديه. تناولها بجلال من يعرف قداسة العطاء ، ويبجّل القرص الذي استعار لونه المطفأ ، الخفي ، من تراب الصحراء . تأملها بين يديه . رفعها الى اللثام . حرر انفه من اللثام بسبابة يده اليسرى . دارت عيناه في محجريهما وغاب فيهما السّواد وهو يسحب العطر السرّي من القطعة . تمتم بتعويذة مجهولة قبل أن يعرّي فمه ويلامس بشفتيه الرغيف المعطر بانفاس النّبات الصحراوي . نباتات كل الفصول، وكائنات كل الدّهور . هذه الانفاس التي تعطيه مذاقا خاصّا ، وتفجّر فيه شذى يثير شجنا لا يقارن الاّ بشجن الأشعار والأغاني .

أبتسم بورو . ابتسم لأنه استطاع أن يعطي ما للأرض ، ويطعم عابرا ليصنع منه قرينا .

كان جبارين ثاني مخلوق يأكل من الرغيف بعد مولا – مولا .

(٨)

بعد الحساء تكلّم بورو لأول مرّة :

– تقاسمنا نعمة الأرض ، وأكلنا خير الصّحراء . أنت ، منذ الآن قريني!

تكلّم جبارين لأوّل مرّة أيضا :

– قرينك ؟

Twitter: @alqareah

تفقد بورو وعاء الاعشاب فوق الجمر. أوضح :

– توأمي ان شئت . ألم نولد من هذه البطن ؟

هدهد التراب براحة يده وأضاف :

– ألم نرضع من نفس الثدي ؟ ألم تطعمنا الأم نفس الطعام ، ومن نفس اليد ؟

حصّن جبارين وجهه بلثامه . التفت الى الأفق البعيد حيث تنحني السماء لتقبل جبين الأرض ، فرأى كيف تكتب الشمس وصية الوداع برموز غامضة . سأل ببرود :

– هل انت ساحر ؟!

سكت بورو حتي ظن جبارين أنه لن يجيب ، ثم قال بذلك الاسترخاء الذي يجعل من البرود لغة تخص الحكماء :

– كلّنا سحرة !

احتضن جبارين ركبتيه بذراعيه . ضمّ قلادة أحجبته المهيبة في حضنه، اخفاها بين ركبتيه . راقب طقوس الغروب في الأفق ، يقرأ أسرار الصحراء ، وخفايا الزمان . سرّ الرحلة القصيرة التي تبدأ بالشروق ، وتنتهي بالغروب . تبدأ بالميلاد ، تنتهي بالزوال . ولا يستطيع أي لوح أن يأتي بتفسير لهذا السّفر الغامض . الافق ، وقت الغروب ، وحده يستطيع أن يكتب سيرة الرحلة الفاجعة ، ويبوح بسرّها . لقد اكتشف هذه الموهبة السحريّة في أفق الحمادة منذ زمن بعيد ، وتعلم أن

Twitter: @alqareah

يجلس بخشوع ليقرأها مع كل غروب .

قال بورو بنفس نبرة الاسترخاء :

– اخبرني عراف عجوز أن ابناء الصحراء هم احفاد الجنّ ! وكل من رفض ان ينزح للاقامة في الواحات ، وآثر ان يهيم مع الاشباح في الخلاء ، يهّب مع الريح في مواسم القبلي، يتسكع في الفلوات مع ألسنة السّراب ، يردد المواويل الحزينة مع الجنيّات في الامسيات المقمرة ، كل من أختار أن يكون طيفا من الاطياف ، خيالا في «آغرم نودادن» ، هو جنّي أبن جنّي ، وساحر ابن ساحر !

قطع جبارين قراءته لنبوة الزوال في صحائف الأفق ، وسأل :

– هل كان عرّافا من كانو أم من تينبكتو ؟

ولكن بورو لم يجب على سؤاله . انتزع وعاء الأعشاب . ووضعه على التراب الرملي . وواصل روايته :

– .. لقد رافقني الى تادرارت ، وقال أنه يريد ان يعلمني كيف استخرج الكنوز من مخابئ الجنّ . ولكني تركتّه حتى نام وهربت !

– هربت ؟

– نعم . أنا أخاف الكنوز ولا انوي أن اتحرّش بالجنّ !

– حسنا فعلت !

– هل توافقني في أن هروبي كان فعلا حسنا ؟

– نعم .

– لماذا تظن أن ذلك عمل حسن ؟

Twitter: @alqareah

– لأن العرّاف لم يكن عرّافا حقيقيّا !

– قال انه عرّاف ،ولكني نسيت أن أسأله لأي ملّة ينتمي : ملّة كانو أم ملّة تينبكتو .

– وانتهيط اللّعين !

– ماذا يقول جبارين ؟

– جبارين يقول أن العرّاف كان وانتهيط اللئيم !

– وانتهيط ؟ نعم . العرّاف كان مزيفا . وانتهيط يتخفّى في جلود العرّافين ، في كل الجلود . وانتهيط ساحر كبير . كبير السّحرة .

– . . .

– أحد الرعاة الحكماء اخبرني أنه يتنكّر حتى في جلود الافاعي والحيّات !

– . . .

– ولكن هل سبق لجبارين أن قابل وانتهيط في حياته ؟

– نعم . مرّة واحدة .

- ظننت أن وانتهيط لا وجود له في مملكة الحمادة.

– وانتهيط موجود في كل مكان . وانتهيط موجود أينما وجد الانسان.

– هل لـ « وانتهيط » الذي قابلته في الحمادة قرون التيوس ؟

Twitter: @alqareah

تكاثفت غلالات العتمة في المدى ، فاحتجبت الرموز في لوح الأفق .
تحرّر جبارين من أسر القراءة فهب واقفا . سأل :

– ولكني لا أرى سرجي . أين السرج ؟ أنا لا أقدر أن أنام دون أتوسّد سرجي !

هأهأ بورو في ضحكة ماكرة . نفس الضحكة التي سمعها جبارين في غيبوبته وانبأه بأنه لا ينوى أن يغفر له . تكلم بورو :

– لقد رأى الجن أن ينقذوك من هجاء الشاعرات فاخفوا السرج حتى لا ينتشر غدا نبأ بين القبائل يقول أن فارسا أقبل من مملكة الحمادة ، يجلس في سرج مثبت على ظهر ناقة ! هئ– هئ – هئ ..

جلس جبارين في مواجهته . سأل :

– هل اخفيت السرج ؟

– رأيت أن سمعة قريني من سمعتي ، فتحالفت مع الجنّ حرصا على سمعتي . أنا لا أريد أن تتناول سيرتك الشاعرات . يحس بك أن تعلم أنهن موهوبات ، واذا ورد اسم فارس في قصائدهن مرّة ، فلن يتركنه جتى يهلك نفسه بيده كما فعل خبدا المسكين !

– خبدّا ؟

– جنّ من العار . جنّنه الشعر .

– حدثني عن خبدّا .

Twitter: @alqareah

– لا بد أن الانباء بلغتكم عندما حرّم الزعيم تارات عقب هطول أمطار الصيف حتى لا تفسد الابل المراعي قبل أن يكتمل نضج النّبات في الربيع . ولم يكتف الزعيم بالتحريم ، كما جرت العادة ، ولكنه أقام عسسا في افواه الوديان التي تصب في تارات . ولا أحد يعلم كيف تسلل خبدّا بابله الى السهل الأخضر وانتهك الحرم . ولا أحد يدري كيف انفضح ، لأن العسس لم يكتشفوه . ويقول الرعاة أن رسل الزعيم كانوا أوّل من رآه . وروى آخرون أن الزعيم ، الذي لا تخفي عليه خافية في مملكته ، هو الذي رآه من مقامه المعلّق في رؤوس الجبال ، بين السماء والأرض ، فأصدر أمره الذي لا مرد له يا قريني جبارين .

سكت . رفع نظرة غامضة الى جليسه ، ثم سأل :

– هل يدري محبوب الرُبة تانس ما هوالعقاب الذي أنزله زعيم آزجر بخبدّا الذي انتهك الحرم ، ودنس السهل المقدّس قبل الميعاد الذي حدّده الزعيم في شريعته ؟

تلألأت مقلتاه بلآلئ مفاجئة لاحظها جبارين برغم العتمة ، ثم نكس رأسه قبل أن ينطق بالقصاص الفاجع :

–إيغايغان * .

ردّد جبارين بذهول :

---

* ايغايغان : أقسى أساليب التعذيب لدى قدماء الطوارق .

Twitter: @alqareah

- ايغايغان ؟

- ...

- هل كان خبداّ مملوكا من قبائل العبيد ؟

- في آزخر كلنا مماليك . كل من دخل أرض آزخر فهو مملوك من المماليك ، وعبد في خدمة الزعيم ، قريني جبارين ، الآن ، أيضا مملوك ، وعبد من العبيد .

ردّد جبارين بنفس الذهول:

- عبد من العبيد ؟

- هكذا قضت الشريعة منذ زمن لا يذكره أحد .

- ...

- في آزجرعليك أن تنسى تانيت ، ويجب عليك أن تتعلّم كيف تسبح بحمد الزعيم ، لأن القبائل تتطلّع للربيع ، والربيع بين يديه . كل المياه التي تجود بها سماء آزجر تصبّ في سهول الزعيم .

- ولكن ايغايغان ..

قاطعه بورو:

- .. وبرغم قساوة الاحكام الأ انه رحيم بالقبائل ، غفار للخطايا.

- لا أفهم .

Twitter: @alqareah

– يقال أنه يقسو في القصاص كي يجعل من تارات فردوسا تنعم فيه القبائل بالحياة .

– – في الحمادة لا يعاقب الرجل بـ« ايغايغان » الاّ اذا كان عبدا مملوكا أرتكب جرما أكبر من ادخال الابل الي المرعى في زمن التحريم.

– في شريعة آزجر لا يوجد جرم أكبر من ادخال الابل الي المرعى في مواسم التحريم .

– ...

–طاف به عبيد الزعيم الوديان لتتفرج عليه قبائل الجنّ والانس . رأسه حاسر ، محاط بعمودين هائلين من سدر مملكتكم ، من سدر الحمادة . رأيتهما بنفسي . كانا مثل قرني الودّان . ورأيت عبدا ماردا في قامة الجنّ يهوي بعصا من السدر على العمودين فيفقد خبداً المسكين صوابه . يحترق المخّ في راسه بنار الوجع ، فيطير في الفضاء كما يطير البهلول بوشا وراء جدّه الودّان الكبير آمغار . على قريني ألاّ يسئ بي الظن فيقول في نفسه أني أعيد ما لم أره ، وأقول ما لم أسمعه مثل نساء النجوع . الحق أقول أني رأيته بعينين خلقتا لتكونا خبزا للتراب في القريب . رأيته عندما وصلوا به « تانوت ملّت » ، كان شقيا ، فمه ينثر الزّبد مثل الجمل القريع ، عيناه حمراوان ، خرجتا من محجريهما حتى قلت لنفسي أنهما لن تعودا الى مكانهما أبدا . ولم يخطئ بورو الذي تكلّم في صدري ، لأن خبداً جنّ بعد ذلك !

Twitter: @alqareah

ظل يحرث الأرض بسبابته طوال الرواية . يرفع رأسه ليتابع زحف العتمة على العراء . يرفع رأسه من حين الى آخر ليتجسس على الساحرات السّماويات وهنّ ينهمكن في اعداد المكيدة . فهو يعرف أن النجوم عندما تخرج من مخابئها بعد انسحاب الشمس الى النّوم ، تتحاور بلغة الضوء الذي تعلّم كيف يفكّ رموزها ، ليس ابتهاجا بمملكة الليل ، ولكن لأنها تدبّر حيلة تقلب نظام السماء ، وتخلّ بناموس الأشياء. تريد أن تقتل الشمس لتستولي على عرش السماء . وساحرات السماوات هنّ أوّل من أخبر النجوم الحسان انهن لن يملكن السماء ، ولن يستطعن التباهي بحسنهن في رحاب الكون الا اذا جعلن الليل خالدا . وذلك عجب لن يحدث الا اذا قتلن الشمس . وكان ينصت لحوارهن الاجرامي كل ليلة عندما تذهب الشمس لتغط في نوم عميق ، وتذهب الكائنات في آلون العظيم لتهجع في مخابئها . ينطفئ كل شيء مع انطفاء الشمس ولا يبقى في الكون غير السكون . سكون . سكون. سكون . يستلقي على قفاه فينصت لحوار الساحرات . يسمعهن بوضوح. يتمتمن، يتهامسن، يرسمن المكيدة باشارات الضوء، يراهن يتزاورن ، يتبادلن الشهب رسلا، يسمع تمائم سحريّة مخيفة ، تمائم مقلوبة الحروف ، مثل « تيفيناغ » السرية التى يتعمّد الدهاة أن يخلطوا حروفها ليظلّلوا القراء البلهاء ، تمائم مجهولة المعنى ، هي أقرب الى لغة الجنّ . هي لغة الجن ، لغة السحر، هي لغة أهل الخفاء . يقشعر

Twitter: @alqareah

بدنه ، يشعر أن الميعاد أقترب ، الأجل حان ، ستنفذ النجوم مشيئة الساحرات ، وسوف تقتل الشمس ليصبح الليل خالدا مثل الصحراء ، مثل زعيم أزجر . لن يرى الشمس بعد اليوم . تسعى اليه ساحرة لئيمة من ساحرات النجوم . تقترب حتى تكاد تلامس قمم آلون المهيبة . يسمعها تقول : « الشمس لعنة الارض ، وقدر الصحراء أيها البهلول ! الشمس هي التي خلقت من الصحراء ارضا جرداء . لولا الشمس لما كانت الصحراء صحراء . ألا تريد أن تتخلص من الطاغية المسلّط على رقبة الصحراء ؟ ألا تريد ان تتحول الارض وتخرج الصحراء من الصحراء ؟ » . انسحبت الساحرة وسافرت في رحلة الى الافلاك . بقي له الوسواس . فكّر فيما لو تحققت النبوءة ، وغابت الشمس الى الأبد . الساحرة قالت أنه سيجد نفسه في أرض أخرى ليست صحراء . واذا تحوّلت الارض ، وخرجت الصحراء من الصحراء ، فسوف يختفي آلون العظيم ، وتهرب تادرارت ،وتتلاشى تاسيلي ، ويندثر أزجر كلّه . ليس آزجروحده ، وانما آهجار أيضا ، والحمادة ، وآير ، وآضاغ ، سيختفي الكون ليأتي كون جديد ، لا سكون فيه ، ولا خلاء . لا مولا - مولا ولا آمغار .لن يسمع فيه ثرثرة النّبع العجيب المنحدر من مكان مجهول في قمم تاسيلي ، ولن يخاطب فيه السراب ، لأن لا وجود للمخلوق اللعوب خارج حدود الصحراء . كون يبطل فيه سحر الغناء ، ولن ينتظر فيه الرعاة الأفراح عندما يأمر الزعيم بفكّ الحرم ويأذن

Twitter: @alqareah

بدخول مراعي الجنّة في تارات . كون لن يستطيع فيه أن يتحول الى سراب أو ماء أو يتخذ له قرناء ، أو يستعير جلد تيرزازت ، ليدخل «آغرم نودادن » ، لأنه سيعجز عن الغناء ، ولأن الصحراء كلها ستنزل الى الأسافل ، وتصبح جزءا من « آغرم نودادن » اذا غابت الشمس . اذا اغتالت الساحرات الشمس . وكان يهبّ كجنّي ، ويجري بين الجبال ، يصرخ بأعلى صوته ، يستنجد بالقمر ، بالاشباح ، بقرنائه الجان . فيهب الجان لنجدته . لنجدة الشمس . لنجدة الصحراء .لنجدة الحياة . تهسهس الابل في الوديان وتهمهم غمّا، تتململ الطيور في اعشاشها وتخرج من اوكارها فزعا . تتنادى الذئاب في القمم وتتناقل الاشارة . يهرع الجنّ لينقلوا الخبر الى تيرزازت . تقفز تيرزازت لتخبر آمغار في آغرم نودادن ، ولكنها تجد البهلول بوشا قد سبقها الى جده وأخبره بالخطر . يهرع آمغار الى الزعيم . لأنه لا أحد يستطيع أن يبلغ مأوى الزعيم ، المعلق في قمم بين الارض والسحاب ، غير الودان العظيم . يبعث الزعيم برسله ليحذروا الشمس ويبطلوا المكيدة . والآن ، عندما رفع بورو رأسه ، وشاهد سرب « أثيت ناهظ » يتزاحمن في حلقة لئيمة تذكّر مكائد السّاحرات ، واستنجد سرّا بالقمر ، نسي وعاء الاعشاب ، وتوقّف عن رواية خبدا الذي جُنّ ، وبدأ يرتعد خوفا من مكائد الساحرات السّماويات . ولم يكمل رواية خبدا إلا بعد أن قرأ البشارة في الافق . جاء القبس منذرا بالعلامة التي ستفسد عمل

Twitter: @alqareah

بعد أن تيقن بورو أن القمر سيخرب السّحر ، وسيخطر سيدة الكَواكب بمكيدة الساحرات ، واطمأن الى أن الصحراء لن تهرب من الصحراء ، عاد الي سيرة خبدّاً :

– .. قبل أن يجن جاءني في آلون ، وقال لي أن الشاعرات رجمنه بأشعار الهجاء ، رأيت الاحمرار في عينيه ، وضحك كثيرا وهو يردّد ابياتا من أشعار الهجاء . سمعت في ضحكته نوايا مريبة ، ولم تدهشني « تيرزازت » عندما جاءتني بعد زيارته بأيام وقالت لي أنه استعار منها جلدها ليفر به الى « آغرم نودادن » فركضت الى جملي في الوادي . قفزت الى سنامه دون سرج . وصلت تارات فوجدت الرعاة وقد تزاحموا على وعاء الطين الذي استبدله بجلد تيرزازت ، وتركه في اسفل الصخرة العالية . كان الوعاء كوما مشوها ، مزقته الحجارة ، وأكلته الصخور عندما تدحرج من رأس الجبل . بعد أيّام خرج من «آغرم نودادن » وجاءني في لسان السّراب .

تمادى القبس في الأفق الشرقي . انشغل العراء بطقوس الميلاد . تأهبت الصحراء لاستقبال كوكب الخلاص الذي سيحمي الشمس من مكيدة الساحرات السماويات ، لتطمئن الكائنات أن الصحراء ستبقى صحراء .

تطلع بورو الى القبس بخشوع أكبر من الامتنان ، بخشوع

Twitter: @alqareah

العاشق لفتنة القمر . دفن كلتا يديه في التراب . واصل روايته :

– قريني جبارين يعرف أن من دخل « آغرم نودادن » لا يخرج من هناك الا في جلد تيرزازت الساحرة ، أو لسان السراب الذي يفوقها سحرا . طلع في القيلولة وأسمعني اغنية شجنية شجية قبل أن يخبرني بسر . أغنية لم أسمع بمثلها أبدا . آه ، يا قريني جبارين ، ما أبهجها . جعلتني ارتجف وأبكي طول الليل ..

رأى جبارين كيف لمعت عيناه بلؤلؤتين في ضوء البدر الوليد ، ووجد نفسه يقاطعه كي يمحو من رأسه ذكرى الغناء ، ليعرف السرّ. كان جبارين ، مثل كل الصحراويين ، يتوق أن يعرف السر في كل رواية :

– .. ولكنك قلت أنه قال لك سرّاً ..

– .. السرّ . نعم . كدت أنسى السّرّ . الحق أن أغنيته جديرة بأن تنسي كل الأسرار ، لأنها هي السر يا قريني الجليل جبارين . الأغنية ..

– القرين جبارين يرى أن تحدّثه عن السّر ..

– السرّ . ماذا قال ؟ .. فلتحم السماء رؤوسنا من وباء النسيان . آه ، تذكرت . قال أنه لم يجرؤ على اقتحام الحرم بقطيع الأبل بأمر نفسه، لأنه لم يكن الا راعيا مثل كل الرعاة ، ولا يملك من القطيع سوى ناقة واحدة يتبعها حوار رضيع . ولكن صاحب القطيع (وهو أقرب

Twitter: @alqareah

النبلاء الي قلب الزعيم) بعث له برسول أخبره بأنه نال له اذنا من الزعيم بدخول المرعى . وعندما أنفضح الامر ، وشاع الخبر في آزجر انكر النبيل ، واختفى الرسول من الصحراء كلها.

– ألا يظن قريني أنها مكيدة مدبرة من وانتهيط القديم ؟

– أنا أيضا ظننت ذلك . لقد احترف الفتن منذ اختلف مع الزعيم.

– هل قلت انه اختلف مع الزعيم ؟

– كل آزجرتعرف أنهما كانا صديقين . ولا يتخذ الزعيم قرارا الاّ اذا استشار في أمره وانتهيط ، ولكنّهما اختلفا في أمر غامض ظل مجهولا حتى على النبلاء والحاشية ، فطرده الزعيم ، فتحداه وانتهيط واقسم أن يخرب مملكته . هذا ما يقال في ازجر منذ قديم الزمان . ولكن اليقين الذي يعرفه الجميع ، وعاشه حتى الرّعاة ، أن وانتهيط كان وراء مكائد كثيرة حيكت في الصحراء ،منها تلك المكيدة البشعة التي دبرها هذا الدّاهية ليغوي ابن الزعيم الوحيد ويفتن بينه وبين أبيه ..

– هل قلت فتن بين الزعيم وابنه ؟

– آرجر كله يعرف ذلك . عجيب ألا يصل خبر هذه الفتنة مملكة الحمادة .

– يخجلني أن أقول أن أمر هذه الفتنة لم يصل ربوع الحمادة

Twitter: @alqareah

- ولكن هذه رواية طويلة سيسرّني أن ارويها لك في ليلة طويلة. ولكن السرّ هو أن خبدّا كان ضحية مكيدة أخرى من مكائد خصم الزعيم القديم « وانتهيط » .

- ألم يقف الزعيم على الحقيقة قبل أن يصدر حكما قاسيا كـ« ايغايغان » ضد راع مسكين ؟

- الزعيم يرى أن من وقع ضحية كذبة من أكاذيب « وانتهيط» يستحق عقابا أقسى من « ايغايغان » لأنه حذّر رعيته من شرّه عندما لعنه في مجلس الأعيان وتبرأ منه أثر خلافهما الغامض . وبعث رسله الى كل القبائل لينذرهم بالبيان الشهير : « لتعلم قبائل الجنّ والانس منذ اليوم أن الخصومة قد قامت بيني وبين « وانتهيط » ، فلا أنامنه ولا هو مني ، ومن أفعاله أعلن أني برئ . واذا خدع احدكم وجاءني يشتكي فلا سلوى له عندي ولا مواساة ، وانما هوالعذاب المبين » . ولم يكن الزعيم يظن أن الساحر الكبير سيعرف كيف يتسلل الي بيته ليفتن بينه وبين أبنه!

- يا له من داهية !

- فكيف تريده أن يرحم لخبدّا خطيئته ؟

- يقول حكماء الحمادة أن الرحمة من أخلاق الزعماء !

- إلا في ضحايا كبير السّحرة ، فالويل لهم من « وانتهيط» ، والويل لهم من الزعيم . عقاب يتلقونه في السهول السفلى ، وعقاب

Twitter: @alqareah

أشدّ يأتيهم من المقام المعلّق في أعالي الجبال .

– هل تظن ان خبدّا تخلّى عن وعائه واستعار جلد تيرزازت بسبب عار ايغايغان أم عار الأشعار ؟

– لا ادري . ولكن الصدق أقول لك : الرجال في آزجر يخافون اشعار الشاعرات أكثر مما يخافون شرائع الزعيم .

– من منا لا يهاب الرجم بالأشعار ولا يضع الحساب لشرائع الحسان ؟

– أنا !

– انت ؟

– أنا لا أطرب لمديحهن ، ولا اشعر بالعار اذا رجمنني بالأشعار !

–يا للعار !

– هئ – هئ – هئ .. احترس ! من خاف شريعتهن وقع في غرامهن ، ومن وقع في غرامهن وضع رقبته في وهق أقسى سبع مرّات من عذاب ايغايغان !

تطلع الي مولد البدر في وهج القبس واعترف :

– ولكن لا انكر عشقى لأصوات المغنيات اللآئي يتقن ترنيم المواويل الشجنية . مواويل الشجن وحدها تعين على الخروج .

– الخروج ؟

Twitter: @alqareah

– نعم ، الخروج من الوعاء . من الصحراء . من أي مكان ، والدخول في أي شئ ، وفي أي مكان .

– الحقّ أني لم أفهم .

– ألم تجرب الدخول في جلد الساحرة تيرزازت ؟

– الساحرة تيرزازت ؟

– أو زيارة آمغار في « آغرم نودادن » ؟

– آغرم نودادن ؟

– أو .. الصعود مع الريح والنزول مع الماء من قمم تاسيلي ؟

– ...

– أو السباحة في السراب وقت القيلولة ؟

تابع جبارين وميضا ظل يلمع في عيني الجليس تحت ضوء البدر الوليد . التفت اليه بورو وقدّم وعاء الأعشاب . قال بغموض :

– ما دمت تخشى اشعار الشاعرات فعليك أن تغفر لي وتشكرني لأني خبأت السرج .. هئ – هئ – هئ ...

في العراء أكتمل ميلاد البدر .

من الشمال هبّت نسمة باردة ، كأن الحمادة أرادت أن تلاحقه برسالة مكتوبة بانفاس البحر الشمالي البعيد ، فسمع مسامه يتفتح ، يتنفس ،ينفث بخارا تشبّع به في رحلته القاسية ، واحتبس فيه ، تشربه في

الأوعية والعروق ، اختنق به . والآن ، عندماهبّت النسمة البحرية المشحونة بندى الشمال ورائحة البحر ، تحرّق البدن شوقا ، وفزّ لالتقاطها . هبّ اليها مرتجفا ، كما يهب الفرخ العاجز عندما يحسّ بعودة الأم الى الكُنّ، فيهرع اليها مصوصواً ، مادّاً رقبة راجفة ، فاتحا شقي منقاريه علي اتساعهما، يستجدي القوت ، ويتوسّل الحياة . جسده الآن يرتجف أيضا ، يتفتّح مثل برعم زهرة الرتم الضئيل ، المكّوم حول نفسه كالقنفذ خلال الليل ، ولا يتبسّم الاّ اذا تدفقت خيوط الضوء الاولى في اشعة الشروق . يستيقظ من سباته في الحال . يكشف ببسمته عن ثغر يسطع بالبياض ، تتراجع أصابع الشرنقة البنفسجية التي يتخذها لباسا ، يندفع بمس العشاق لالتقاط بصيص الضوء البكر المتولد في أفق الحمادة العاري . فالبدن الذي تنفّس الصّهد طوال السّفر الطويل ، واستنشق الزفير القاسي ، زفير القبلي ، من رئتي الجنوب ، لا يملك الاّ أن يسترخي ، ويتفتح على طريقة برعمة الرتمة، ليتلقّف هبّة الهواء الشمالي، ليس لأن فيها نَفس الحياة ، ولكن لأنها حملت مع نفس الحياة روحا من الحمادة . الحمادة التي جعلتها المسافة حلما مستحيلا ، وامنية بعيدة . تململ في صدره حنين ، حتى أنه التقط عطر زهرة الرتم في النسمة ، برغم أنه يعرف أن المسافة التي جعلت من الوطن حلما مستحيلا ، سوف تجعل من الاحتفاظ بعطر الزهرة في النسمة عملا أكثر استحالة .

Twitter: @alqareah

(٩)

بعد يومين تولّى بورو محو الأثر بحماس . قال أن عين المخلوق هي أصل الشرّ الذي ابتليت به المخلوقات ، واذا لاحظ الرّعاة أثر السرج على الدّابة فلن يعرف النوم طريقا الى عيونهم الشريرة الآّ اذا تأكدوا أن الأثر محفور على ظهر جمل . أماّ اذا وجدوا أنها ناقة فسيتندّرون بذلك في مجالسهم تحت ضوء القمر. من هناك سيتنقّل الخبر بافواه الجنّ ليصل الى كل القبائل في آزجر ، فتتلقفه الشاعرات . ولن تمضي أيام اخرى حتى تعود الفضيحة الى جبارين في أشعار العار . وقال أيضا أن الأمر سيكون أسوأ بعد أن عرف أن توأمه الذي جاء من مملكة الحمادة يعشق الحسان ، ويخاف الهجاء في اشعار الشاعرات . هذا جعله يخشى عليه من مصير كمصير خبدّا الذي أسرّ له أنّ احساسا مجهولا أخبره بأن خبدّا فعل بنفسه ما فعل ليس انتقاما من نفسه كرجل خدعه وانتهيط ونكّل به الزعيم ، ولكن لأن في نفسه كبرياء الرجال الذين يعشقون الحسان ولا يخشون شيئا مثل ما يخشون العار . وعندما سأله جبارين لماذا أخفى عنه هذا الاحساس المجهول في حديثهما الطيب عشية وصوله، لمعت عينا بورو بذلك الالق المطفأ ، الغامض ، الذي رآه جبارين مرارا في عيون المجذوبين المأخوذين بالغناء في اللحظة التي تسبق سقوطهم في النوبة . ثم مال عليه وقال: « هل تظن أنّي استطيع أن أعلم بكل شئ مرة واحدة ؟ أنا أقول ما أعرفه ، وما أعرفه لا يأتي به الجنّ

Twitter: @alqareah

دائما في الوقت الذي أريد . أنهم يأتون به متى شاءوا هم كما تعوّدوا أن يفعلوا مع كل السّحرة .الساحر أيضا لا يعلم الغيب عندما يريد أن يعلم يا توأمي جبارين .. هئ – هئ – هئ ..». قفز الى امتعته وأتى بوعاء مصنوع من جلد الجمل ، له شكل القرع الذي ينمو في حقول الواحات ويتخذ منه الفلاحون قللا يحفظون فيها مياه الشرب . كان الوعاء مسدودا بغطاء جلدي ايضا ، منمنما برسوم مختلفة الألوان . من الرقبة تدلّت كتلة من سيور دقيقة ،ناعمة، اقتطعت من جلد الغزال . نزع الغطاء فتوقع جبارين أن يشم العطور السحرية التي تتقن عجائز آضاغ وآير صناعتها من المراهم المستحضرة من روح الاعشاب البريّة . اسدل طرف لثامه على فمه وحرر انفه ليتمتع بعطر الرّتم ، ولكن بخارا حادّا ، كريه الرّائحة ، رائحة لا تطاق ،اندفع في خياشيمه وشعر به يصعد الى رأسه ، يتسلل عبر الاوردة ، فارتج المخ ، وتصدّع الرأس ، وجاشت النّفس بالغثيان . ترنّح ، تراجع الى الوراء ، استعان بيديه مبتعدا . بدأ يتقيأ، في حين مضى بورو الى النّاقة مهأهئا ، كأنّما ضحكة خالدة تسكن صدره : « هئ – هئ – هئ .. هل ظننت أن علاج الآثار عمل سهل ؟ هئ – هئ .. عمل الآثار عمل سهل حقا ، سهل مثل الاقتران بالمرأة ، ولكن الهمّ ما يترتب على ذلك من همّ .فهل تريد أن تمحو الهمّ بالعطور كالتي تفوح من أبدان الحسان ؟ » . هرش عمامته بسبابته مشيراً الى رأسه وأضاف : « اذا اقترن هذا برأي رديء فلا بد أن يلد ورطة . هئ

Twitter: @alqareah

- هئ .. » .

بعد أن فرغ من مداواة النّاقة اطلق سراح البعير ومضى يهشّه عبر الوادي . يضع عصاته وراء ظهره ، بموازاة منكبيه ، ويعلّق يديه من طرفيها . وعندما استقام سير الدّابة ولزمت عمق الوادي الذي بدأ يزداد عمقا كلما توغّل جنوبا ، توقّف بورو وانتظره مسندا ظهره الى جلمود جليل يهجع في المجرى .

ارتفع قرص السلطانة وأنذر بالطغيان . تطلع بورو الي خيوط النّار التي سكبها القرص في العراء فهمس له الجنّ أن الشمس لن تتوقف عن غزو الصحراء ابداً ، واضاف الجنّ قائلا بوضوح الانس : « مكائد الساحرات الشريرات سوف تنكشف مع مطلع كل صبح ، والاخفاق قرين لها خالد » . ابتسم وهو يرى مارد الجنّ يذوب في ألسنة سراب مبكّر دون أن يصدّق نبوءته . وصل جبارين فسأل بورو عن حال مملكة الشمال .

سارا متجاورين . رفع جبارين عصاته الى منكبيه أيضا . أمسك بها من طرفيها فتدلّت يداه مثل بورو فبدوا ، عن بعد ، توأمين حقيقيين : جسمان نحيلان تجعلهما الملابس الفضفاضة ، منفوشين وكأنهما يميلان الى البدانة . قامتان متعادلتان . وبشرة ذات لون مطفأ ، غامض ، حزين ، مثل بشرة الأرض ،مثل بشرة جلاميد تادرارت العمودية التي ترفع الى السماء رؤوسا حزينة ، تفتّش عن اله مجهول تخلّى عنها يوما ، ولم يعد

Twitter: @alqareah

الى الابد .

زفر جبارين صهدا كانفاس القبلي ليخبر رفيقه عن المصاب الفاجع الذي نزل على رأس مملكة الشمال : « الجدب ، الجدب . الجدب . » . لم يشك أن البلاء الذي حلّ بالحمادة قد بلغ آزجر ، واجتازه مع قوافل التجّار ليصل آهجار واير وآضاغ ، لأنه يعرف أن الجدب هوالخبر الوحيد الذي يصل الى كل الممالك الصحراوية بسرعة القبلي . فاضطّر أن يكرر لفظة « الجدب » المشئومة ثلاث مرّآت حتى ينقل للسائل حجم الفجيعة . ولم يتيقن من النجاح الا عندما سمع بورو يهمهم بتميمة تبطل مفعول التكرار الذي يستدعي الشرّ ويقرّب الجدب. ازداد حجم الجلاميد الصخرية التي تتشبث بالسفوح ، وتشرف على الوادي . بعضها تدحرج وسجد عند الحضيض ، فحام حوله الأسلاف ، وجعلوا منه حرما بمقابرهم ذات الشكل المستدير .

ازداد الوادي عمقا . رأى جبارين قامة الناقة وهي تغيب في شجيرات جعلت منها السيول الأخيرة أحراشا كثيفة . في العمق حتى اشجار الطلح اعتمرت طرابيش أكثر نضارة ، فعرف جبارين ان العمق حبس الماء ،ولسان السيل لم يسلك الوادي الفرعي المنشق عن « آلون العظيم » ، والمتجه إلى « تانوت ملّت » . السّيل العرمرم مضى عبر العمق، وسافر الى تارات ،ليصبّ ، ككل أودية آزجر ، في الحرم المنيع الذي يحرسه عسس الزعيم ، هناك ، في اقصى الغرب ، تنتصب قمم

Twitter: @alqareah

مهيبة ، منيعة تحتجب وراء غلالات رقيقة ، زرقاء ،تزيد القمم مهابة وغموضا ومناعة ، تلّوح بالوعد ، وتخفي ربيعا تتطلّع اليه الامم والقبائل . قطعا مشوارا آخر ، فعاد بورو الي البلاء : « هل أكلت النّجوع الشّعير في البعر ؟ » ومضت عينا جبارين ببريق امتزج فيه الاستخفاف بالكآبة : « الشعير في البعر انقرض في زمن المجاعات الاولى » . ولكن بورو الذي يستبعد اختفاء حبات الشعير في بعر البعير أقترح : « هناك دائما قوافل التجّار الاغنياء . في ابل التجار الاغنياء وجدت الشعير دائما في البعر ». فاضطّر جبارين أن يفجعه حتي في الشعير المخبأ في بعر القوافل : «التجّار تجنّبوا المرور من طرق الحمادة منذ اشتدت المجاعة ، لأن بورو يعرف أن في زمن المجاعة ينشط قطّاع الطرق ويكثر اللصوص » . رفع اليه بورو نظرة تحمل سؤالا ، ولكنه اشاح بوجهه واسرع الخطو . ابتعد خطوات ليقرأ تميمة أخرى . سمع جبارين التمتمة السرية ، ولكنه لم يتسم . تراءت له المملكة الشقية سهولا قاسية ، عارية ، موجعة ، احترقت فيها الاشجار ، ووقف السدر والبطم والرتم هياكل بائسة من أعواد الحطب ، فتبدو ، عن بعد ، امتداداً لحجارة شواها الحريق ، وكساها القيظ الخالد بطبقة من العتمة والسواد . أماّ الاعشاب الصغرى التي تفرش الأرض ، في المواسم المطيرة ، بكليم أخضر يتبدّى ، على امتداد البصر ، أفخم من الكليم الذي يأتي به التجّار من « توات » ، ويفوقه كثافة وبهاء ، هذه الاعشاب التي ظنّ دائما أنها لن تندثر ولن

Twitter: @alqareah

تفنى من الصحراء عندما رآها تكسو السهول ، وراقب الماشية وهي تضيع فيها حتى تختفي عن البصر تماما، فقد انطرحت على الارض الآن، بعد حلول الجفاف ، مستجيرة بالعراء الظامئ من فضاء يتنفّس الصّهد ، وهواء يشتعل بالنّار . فيشتعل العراء الظّامئ ، الشقيّ ، المكشوف أيضا ، فيدبّ اليأس الى عروق النبات ، لأنه يدرك انه استجار من النّار بالنّار ، فينكفئ حول نفسه ، ينكمش كالقنفذ ، يبحث عن الخلاص في مكان ما في الاعماق العطشى ، ولكن زفير القبلى يرميه بأمواج الغبار بلا توقف . يكوم فوقه الأتربة ، يدفنه ، يصنع له قبرا . يقاوم النبات ، يبحث في جذوره البعيدة عن العزاء ، ولكن القبلى يستشرس ، ويندفع بموجات اعنف فيتسلل النّبت الى الاسفل . في الأسافل يجد أن الأمل تبخّر مع نداوة سبقته اليها الرمضاء ، وامتصتها ، فيوثر الانسحاب الى المجهول، الى الفناء . تزحف الى رأسه الأتربة ، ويكوّم العجاج فوق رأسه المزيد من التراب . فيترأى الكوم مثل « ادبني » * ، ذلك القبر المستدير ، الجليل ، المنسي ، من قبور الاسلاف الاوائل .

ولكن هل تفنى العشبة وتتلاشى ؟

لقد عرف أن زوالها مناورة ، لأنها اخفت في كوم التراب سرّها الذي ستبعث فيه نفسها يوما . دفنت سرّ الحياة في البذرة . سمع الشيوخ

---

* ادبنى : مقابر الطوارق القدماء ذات الشكل الهندسي المستدير

Twitter: @alqareah

الحكماء يقولون أن البذرة هي الكنز الخفي الذي يتحدى به العشب جنون الجفاف حتى لو أستمر مائة عام . وسمع رعاة قدماء يؤكدون أن البذار اذا اندست في الأرض ، فانها تمكث هناك ، في السرّ أجيالا كما تمكث الكنوز . تنتظر بشارة تعرف أن صروف الزمان سوف تأتي بها . لأن نوائب الدهر ستبدّل الحال وتضرب غول الجدب يوما . فاذا جاءت الساعة ، وتجهمت السماء بالسحاب ، ولمع الأفق بوميض البشارة، وقعقع الفضاء برعود القيامة قبل أن يسقط أول الغيث ، عندها يتململ السرّ في الكنز ، فيولد لُعاع الأمل من غول الزوال . تبعث الحياة من كوم الترّاب . رأى بنفسه كيف تحدث هذه المعجزة في أكثر خلوات الحمادة فجيعة وقساوة وعراء . شاهد هذا العجب في أرض مرْتٍ لم يترك الجدب فيها حتى الاعواد الميتة . لم يترك فيها سوى صخور مكويّة بنار الدّهر، تحترق بلهب يتسكع في ألسنة السرّاب . لهب شرس يشتعل في ابدانها بنهم وعناد . لهب مدهش يجعل من حجارة العراء طعاما للسراب ، حطبا شهيّا لنيران السرّاب . ولو لم تجد نيران السرّاب أن الحجارة شهيّة للأكل لما التهمتها بهذه الشراهة وهذا العناد . وبرغم ذلك فان البذار يطلع والحياة تولد في هذا الحريق الفاجع كلّما حلّ الميعاد وشاء الزمان الحكيم أن يبدّل من أمر الدنيا ، كأنه يبشّر الكائنات قائلا أن البذر لا يندثر اذا ذرت الريح هياكل النّبات اليابسة ، والحياة لا تتبدد ولاتزول مهما تلذذت الشمس الوحشية بالتهام الحجارة .

Twitter: @alqareah

واذا كان الزمان ، الذي يروق للشيوخ الحكماء أن يسمّوه حكيما ، قد اصدق القول وأبّر الوعد دائما ، فانه عايش فواجع الجدب في النجوع ، ورأى كيف يقترف الجوع في القبائل فظائع تفوق في وحشيتها تلذذ الشمس بقطع الحجارة ، واستطعام ألسنة السراب لطين الحمادة الأحمر .

(١٠)

كلما رأى الأرض تتشقق ، والسراب يشتعل في كسور الطين باللهّب الازرق ،عاودته رجفة الذكريات . ولكن بورو استعار مسلك الصبيان الاشقياء الذين يلاحقون العجائز الحكيمات المقوّسات كي يحدثنهم عن قصص الجان والغيلان ومغامرات السّاحرةتيرزازت . فاذا تنازلت عجوز منهن وتفرغت للرواية وقفت شعور الصبيان وفرّوا من وجهها فزعا من الغيلان ، وخوفا من اسحار العجوز تيرزازت .فهم يقبلون ويلحّون ، فان نالوا الغاية ادبروا وهربوا . بورو أيضا يقبل ويدبر . يتقدّم منه سائلا : « حدثني عن الجدب .. » ، فان تهيأ للرواية أدبر بورو في احراش « اشلك مقرن » * كأنه صبي يفرّ من أخبار الشريرة تيرزازت.

وكان اذا هرب جانبا سمعه يردد التمائم المجهولة ابعادا للوباء

* « آشلك مقرّن » : مصطلح صحراوي يطلق على النباتات البرية التي لها خاصيات الاشجار الصحراوية ، ولكنها لا تقاوم العطش طويلا مثل هذه الاشجار .

Twitter: @alqareah

واتقاء لشرّه . ولكنه يطلع له من وراء صخرة ، أو يخرج من شجرة حلفاء بعد أن يكونا قد قطعا مسافة طويلة في الوادي الجليل ، ويكون جبارين قد أبعد هاجس الجدب ، واستسلم لسكينة السكون . ولكن بورو يظهر فجأة . يدخل مغامرة سريّة فيستبدله اصدقاوه الجن هناك ببورو آخر . الجنّ يستبدلون ابناء الانس دائما عندما يولدون ويبقون مدة طويلة مجردين من الشيح أو السكاكين أو تمائم السّحرة . يأتي الجن ويسرقونهم من الامهات ، ويضعون لهن اطفالا من ملّتهم لا يختلفون في مظهرهم عن أولادهن . ولكن مواهبهم السرية تتكشف عندما يكبرون . ما أكثر اولاد الانس الذين خطفهم الجن في المهد ، وما أكثر الأمهات الصحراويات اللائي ابتلين بتربيه ذرية الجنّ . بورو أيضا يعود من الخفاء مستبدلا . يعود صبيا في شقاوة الجان ليلح : « توأمي جبارين : حدثني عن الجدب .. » ، فيتهيأ جبارين . يستعيد شمسا تتلذذ بالتهام الحجارة ، وسرابا يمضغ جلدة الارض ، يأكل بانياب زرقاء كسور الطين، و....

يستعير لهجة العجائز الحكيمات ليبدأ الراوية .

ولكن بورو يتشجّع ، يصمد ، يتشوّق للرواية ، وكلما التفت وجده يمشى الي جواره ، فتيقّن جبارين مرة اخرى أن الجن اشجع من الانس ، لأن بورو لم يتوقف عن الصبينة ، والاقبال والادبار ، الا بعد أن أستبدل ، وجاءه في بدن الجن .

Twitter: @alqareah

٢– الطيرّ

« توعّدوا السماء باللعنات

كفروا بالأصل البشري ، باليوم ، بالساعة ،

باليد ، بالنطفة التي خلقتهم »

دانتي

الكوميديا الالهية

كتاب « الجحيم »

×××

« بعد هذا فتح أيوب فاه وسبّ يومه واخذ ايوب يتكلّم فقال : ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه ، والليل الذي قال قد حبل برجل . ليكن ذلك اليوم ظلاماً . لا يعتن به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار . ليملكه الظّلام وظلّ الموت . ليحلّ عليه سحاب . لترعبه كاسفات النّهار . أما ذلك الليل فليمسكه الدّجى ولا يفرح بين أيام السنة ولا يدخلنّ في عدد الشهور . هو ذا ذلك الليل ليكن عامرا . لا يسمع فيه هتاف . ليلعنه لاعنو اليوم المستعدون لا يقاظ التنّين . لتظلم نجوم عشائه . لينتظر النّور

Twitter: @alqareah

ولا يكن ولا يرهدب الصّبح لأنه لم يغلق أبواب بطن أمى ولم يستر الشقاوة عن عيني . لم لم أمت في الرحم ؟ عندما خرجت من البطن لم لم اسلم الرّوح ؟ لماذا اعانتني الرّكب ؟ ولم الثدي حتّى ارضع لأني قد كنت مضجعا ساكنا . حينئذ كنت نمت مستريحاً مع ملوك ومشيري الارض الذين بنوا اهراماً لانفسهم ، او مع روساء لهم ذهب المالئين بيوتهم فضّة . أو كسقط مطمور فلم أكن كأجنّة لم يروا نوراً .هناك يكف المنافقون عن الشغب . وهنا يستريح المتعبون . الاسرى يطمئنون جميعا . لا يسمعون صوت المسخّر . الصغير كما الكبير هناك والعبد حرّ من سيّده » .

سفر ايوب

١٧,١:٣

(١)

عليه أن يعترف ، كما يعترف أكابر القبائل وزعماؤها في الحمادة، أن البلوى لا تنزل أبدا بدون انذار . يستطيع أن يستعيد متابعة العرافين والعلماء والسّحرة لأسراب الطيور المهاجرة ، يخرجون للمراعي لمراقبتها ، ويسافرون في أثرها عندما تطير وتهاجر الى مراعي النجوع المجاورة .كثيرا ما يغيبون أياما وأسابيع .وعندما يعودون يستقبلهم أكابر القبيلة في خباء الزعيم حيث يجتمع الأعيان ، تنحر على شرفهم الذبائح كأنهم ضيوف نبلاء جاءوا من ممالك الصحراء البعيدة ، مثل آزجر ، أو آهجار ، أو آير ، أو حتي آضاع . ولا يعرف لماذا كان لتلك المراسم الخفية جلال لا يقاس الا بجلال الموت : يحل السكون المخيف ، تنتقل النسوة بين المضارب بوجوه كئيبة تخفي سرّاً ، يجرجرن اطفالهن وراءهن ، حتى اذا تجاسر الطفل ورفع صوتا اسكتنه بحيلة كأن يتلقى منهن حبة تمر ، أو قطعة سكّر ، فان فشلت العطايا في شراء سكوته ، لأن الحمّى الموسمية أو السقم الباطني الذي ألم به كان أقوى من حبّة التمر أو قطعة السكر ، فانهن يدللنه يحتضنّه ويغدقن عليه بالمواويل التي تجلب النوم .يفعلن ذلك دون أن يفارق السر وجوههن . أما الصبيان فيسكتنهم بالاشارات الصارمة ، فان لم تنفع ، فانهم يتلقون انتهارات اقسى من القصاص الذي يتلقاه الاشقياء منهم بصب سائل الفلفل في خياشيمهم ، فاذا لم يجد الانتهار، تلقوا وعيدا بالاشارات هو

Twitter: @alqareah

أسوأ من كل عقاب .

كانت النساء تجتمع في خباء احدى العجائز للتعاون في تحضير الطعام للسحرة العائدين من مطاردة الطيور ، يتهامسن بأصوات مريبة ، خافتة ، تزيد في غموض الوليمة ، وتعطي للمراسم قداسة الموت ، تومض عيونهن بفضول قاتل . وكان الرجال دائما أقل فضولا وأكثر هدوءا .وربما رجع الفضل الى اقنعتهم المهيبة في اخفاء ما فشلت وجوه النساء السافرات في اخفائه . ولكن الانتظار لا يطول . فلا يلبث الخبر ، الذي عاد به سحرة القبيلة من رحلتهم وراء الطيور ، أن يخرج من خباء الشيوخ لينتشر في كل الصحراء : الجدب ! الجدب ! الجدب !

لم يكن الخبر يخرج من الخباء بهذه العبارة الفاجعة التي يتجنّب الحكماء التلفّظ بها ،وانما اللؤماء الذين دأبوا على تسمية الاشياء باسمائها الحقيقية ، وتفوّقوا في فك رموز لغة السحرة الغامضة ونقلها الى لغة العوام القاسية ، هم الذين استعاروا دور النذير في النجع ، فتجاسروا دائما أن ينطقوا بكلمة : «منّا» * الصغيرة ، المركّبة من ثلاثة أحرف ، التي قضت شريعة الحكماء ، شريعة آنهى الضائع ، شريعة الأسلاف الأوائل ، ان تضعها في معجم السر المحرم مثلها مثل : « ايبيجي » ** وتيرزازت المشئومة ، فاخترعوا لها استعارات لغوية اخرى كثيرة حتى

* منّا : الجدب (تماهق) .

** ايبجي : الذئب .

Twitter: @alqareah

كادت الكلمة الاصلية أن تنقرض . ولولا هؤلاء الاشقياء الدهماء الذين يتعمّدون أن يسمّوا الاشياء باسمائها بمجرد أن يبتعدوا عن المضارب (ربما كي يستفزوا السّحرة والحكماء الاسلاف معا ، وربما رغبة منهم في ركوب الخطر واكتشاف مجهول مثير أجمع القوم أن يضعوا عليه ختم التحريم ، كما وضعه عليه آباؤهم واجدادهم من قبلهم) لاندثرت الفاظ كثيرة وانمحت من ذاكرة الأجيال .

وكان سحرة القبيلة وعرّافوها يستعينون بعظام الذبائح على قراءة النبوءة التي رأوها في أسراب الطيور المهاجرة . أو هكذا ظن في ذلك السّن المبكر . فكان عليه أن يعيش اهوالا كثيرة حتى يعرف ان الذبائح لم تنحر على شرف السّحرة ، أو من باب الاحتفاء بالعرافين العائدين بالنبوءة ، ولكنها قرابين ضرورية لاستكمال شعائر النبوءة ، ومفتاح سحري لا غنى عنه لفكّ الرموز التي رسمت الطيور اشارتها في سماء الغيب . وكثيرا ما احتدم الجدل في خباء الحكماء وعلت اصوات الأكابر المجللين بالوقار واقنعة الكبرياء ، مهدّدة بتمزيق الوقار والاقنعة معا. وكان الاختلاف لا يحسم الآ اذا اذن الزعيم بنحر أضحية أخرى . وكثيرا ما تردد في ربوع القبيلة أن الدّهاة الذين غلبهم القرم الى اللحم هم من اخترع هذه الحيلة ، وبرغم أن الشاعرات قلن اشعارا هجائية ممتعة في هذه الفضائح ، الاّ ان الحق بقي سرّا ، لأن لا أحد يجرؤ علي الطعن في صدق السّحرة أو التشكيك في نواياهم دون أن يكون ذلك

طعنا في النبوءة نفسها . وآنهي يخبر أن الطعن في النبوءة ، والتشكيك بالاشارة ، هو استفزاز للغيب ، وتسفيه للاسلاف ،وتجديف منكر بحق الآلهة . فاذا لم تتكشف الحقيقة في عظام الذبيحة الجديدة ، وازدادت النبوءة ابهاما ، دارت رؤوس السّحرة بالعناد ، وتناطحوا بألسنة مجندة بالجن ، مسلّحة بارادة المردة . لا ينفض المجلس في القيلولة الآّ ليعود الى الانعقاد بحلول العشية . واذا لم تتوصل الأطراف المتعاندة الى اجماع في حل الرموز حتى اخر الليل ، أعطى الزعيم الاذن بالاستمرار حتى صباح اليوم التالي . فان استعصت القراءة ، وأبت الرموز الانتقال الي لغة البشر (لأن جدل القوم كان دائما في طريقة القراءة واعطاء تفسير بشري للنبوءة) ، وقتها لم يجد المجلس الجليل بدّاً من الاحتكام الى المعقل الأخير : قبور الاسلاف ! فقد عاش في قلوب الصحراويين يقين يقول أن الاسلاف وحدهم لم يخيبّوا ظنّهم يوماً ، وحسموا الأمر دائما، وجاءوا بالخبر الذي تخفيه الصحراء تحت لثام مزاجها المتقلب . ويبدو أن هذا اليقين لم يكن مقنعا الى الحد الذي يجعلهم يكفون عن التجادل، لأن الحماس للنقاش لم يتوقف حتى رأى أحد الأسلاف الحكماء أن يكشف لهم حميفتهم عندما خاطبهم بلغة بشرية واضحة في احدى النبوءات الممتعة : « سيتنازل الصحراوي ويترك الجدل يوم يدخل الجمل في سّم الابرة » . وقال آخر بنفس اللغة : « العناد قدر الصحراوي ، والجدل لعنته » . ولكن هذا لم يجبرهم على التخلّى عن الجدل . بل أن

Twitter: @alqareah

كبار السّحرة حرضوهم دائما على التجادل وممارسة الخلاف ، وقالوا بلغتهم الغامضة المستعارة من دنيا النبوءة : « حياتنا في خلافنا، وموتنا في وفاقنا » .

في المرة الأخيرة التي رأوا فيها البلاء عاد السّحرة من سفر خلف الطيور استمر ثلاثة أسابيع . عادوا بأقنعة كدّسها الغبار فوق اقنعتهم القماشية ، في حين تزملّت نظراتهم أيضا ،واختفت خلف اقنعة أخرى من الوجوم. أمر الزعيم بنصب خباء الى جوار خبائه وبدأوا في نحر القرابين . نحروا الذبائح ثلاثة ايام ، ولكن سيل الدم لم يطفئ لهب الجدل حول النبوءة الرهيبة ، بل كان الخلاف يزداد والاصوات تعلو مع كل دفقة دم تنهمر من نحر الذبيحة الجديدة . تجاوز عدد الذبائح السبعين رأسا وهو رقم خرافي لم تعرفه القبيلة في المذابح السابقة خلال ثلاثة أيام ، فتوقّع العقلاء أن يأمر الزعيم بوقف المذبحة ويأذن بالاحتكام الى المعقل الأخير، المعقل الوحيد الذي يملك الكلمة التي ستضع حدّاً للخلاف : قبور الاسلاف ! ولكن الزعيم ظل يبتسم بغموض في زاوية الخباء ويعطي الاشارات بمواصلة المجزرة ، فاستمر نحر الانعام حتى تحولت قراءة النبوءة في ذلك الموسم الى وليمة سخيّة لم تعرف القبيلة لها مثيلا .

اكل الكبار والصغار اللحم بشراهة انتهت بأولئك الذين حرمتهم السماء نعمة الاعتدال الى السّقم والأوجاع . وتجاوزت خيرات تلك

Twitter: @alqareah

الوليمة تخوم النجع ، ووصلت أكداس اللحوم الي القبائل المجاورة ، ومضت حتى وصلت الى الرعاة في المراتع النائية . ويذكر جبارين أنه تلقى قصعة خشبية كثيبة عامرة بقطع كبيرة من اللحوم . فعاد بعد يومين من المراعي ليشهد المراسم الختامية لتلك الملحمة التي شاء لها القدر أن تكون فاصلة وتاريخية ليس في حياة القبيلة فحسب ، وانما في حياة الحمادة كلّها . فسمع بنفسه ما تردد في اوساط العوام (هذا الوسط الذي يصرّ الوجهاء أن يسمّوه وسط السّفهاء) من شائعات فظيعة طعنت في كفاءة الزعيم ورجمته بالحمق لأنه أباد قطعان القبيلة متعمدا بدل أن يعجّل بنقل النزاع الى اعتاب الاسلاف . ثم انضم الى همس السفهاء كثير من عقلاء المجلس نفسه ، وبلغ بهم الحنق حداً جعلهم يجردون الزعيم من الحكمة ، ويشككون في قواه العقلية .ولولا هذا الطعن الذي خرج من خباء الزعيم نفسه لما تململت الألسن بالأقاويل في حق الزعيم، ولما تجاسرت الساحرات على التعرض لتلك السرية بالأشعار السرية ، ولما أحسّ كل فرد بالخطر . فالجميع يعرف أن تجريد الحكمة من الزعيم في السر هو زلزال ينذر بتجريد الزعامة منه في العلن .

ولكن النبوءة التي دشنها الزعيم بتلك القرابين ، ولم يبخل عليها بسيول الدم ، تلك النبوءة التي لم تتأخر ، لم تعد له الاعتبار فحسب ، ولكنها صنعت له مجدا تجاوز ثغور الحمادة كلّها . لانه رأى ، في ذلك اليوم ، في زاوية الخباء ، ما لم يره السحرة في عظام الأنعام . قرأ ما غاب

Twitter: @alqareah

عن العرافين في أسراب الطيور المهاجرة ، وسبق الاسلاف في تفسير النبوءة الفاجعة . ويروي أن سحرة الحمادة تنادوا واجتمعوا عندما حلت أول اعوام الجدب ، وبدأت النبوءة تتحقق، فاشادوا بكفاءة الزعيم ووصفوا بصيرته بالصفاء ، واوردوا صفات سحرية أخرى لم يفهم لها أحد معنى قبل أن ينعتوه باللقب الأجل : « كبير السّحرة » . ونقل عنهم الفضوليون انهم دعوا ، في نداء بعثوا به الى الأقران ، كي يتعلّموا منه السرّ . جاءت النبوءة بالموت الى الصحراء ، ولكنها أعادت الحياة الى الزعيم .

(٢)

قبل أن يجري الزمان بما خبأه القدر في الغيب قام الزعيم برفع الأمر الى المقابر . في ذلك اليوم فقط استطاعت القبيلة ان تجاهر باليقين القائل أن الزعيم أذن باستطلاع رأي الاجداد ليس لحسم الخلاف ، او تعطّشا لمعرفة يقين النبوءة ، ولكن لأن الحكمة تقضي أن يمضي في الشعائر ، وألا يخالف وصية السلف حتى لو تمتع ببصيرة كبير السّحرة . أعطى الأذن في المساء ، فهرع الخلق ، وجرت مراسم استنطاق اولئك الذين هجعوا منذ آلاف الأعوام ، ولم يعد يهمهم من الأمرسوى إخلاص الاخلاف . وكان اللجوء الى أكوام اضرحتهم هو البرهان الوحيد على استمرار العلاقة بين الاحفاد واجدادهم القدماء . فكان يروق للاسلاف أن يداعبوهم في اجاباتهم الشعرية على جهة الشوق ،

Twitter: @alqareah

كماحدث في شعائر المرّة الأخيرة، أو يلجأوا للاستفزاز اذا كانت الطالبة العذراء شريرة ، أو بها عيب في الخلق ، أو مس في العقل ، أو سرّ آخر لا يعلمه سواهم . أما اذا لم تكن الفتاة ،التي وقع عليها الاختيار، ورضيت الدخول الى عالمهم الخفى ، عذراء ، فانهم لا يكتفون بالاستفزاز اللفظي ، ولا الرجم الليلي بالحجارة ، ولكن على القبيلة أن تتوقع غضبة مجوسية قاسية ، وقصاصا يليق بمنزلتهم . فالغشّ لا يشترى الأ بسيل من دم القرابين . وتدخّل السّحرة قد يستمر شهورا حتى يتمكنوا من اعادة السّلم بينهم وبين الاحفاد . والشعيرة الأخيرة لم تخل من الدعابة ، برغم خلوّها من الاستفزاز الذي يستثير اللعنة فبعد أن تلقت القبيلة أمر الزعيم بالاحتكام للحرم ، هرع العقلاء لاختيار من سيتولى الامر ، ليجد نفسه عضوا في جماعة الأخيار . انقسموا الي فريقين : فريق ذهب لينصب خيمة فوق القبر تقي العذراء شمس القيلولة (الشريعة جرت بأن تتم المراسم نهارا) ، وفريق اجتمع في العراء ليبحث في أمر العذراء المرشحة لتنفيذ المشيئة . وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما اكتشفوا أن ليس في النجع كلّه عذراء واحدة . تندروا ، تفكهوا ، تضاحكوا طويلا قبل أن ينقلوا البلاغ الى مندوب الزعيم . ولكن مجمع السّحرة في خباء الاجتماع لم يندهش ، ولم يضحكه الخبر ، ربما لأن الوقار غلب ، وربما لأن الهول الذي لاح لهم في النبوءة وتجادلوا في أمر قراءته اياما ، هو السبب . اقترح أحد النبلاء

Twitter: @alqareah

صبية لا تقل عن السادسة عشرة سوى أسابيع قليلة ، فانتهره مجمع السحرة ورفضوا العرض بصرامة . تمسكوا بالشروط : عذراء . بلغت السادسة عشرة ، سبق لها أن توجت بـ « ايكرهي » * في حفل التدشين. مجرّدة من الحلى والسكاكين واخلاط المعادن . وقالوا أنهم لا ينوون أن يخالفوا الشرع ، لأنهم لا يريدون أن يستفزوا الاجداد اتقاء للعنة . المعمرون أزدادوا وجوما، واعتبروا مجرّد خلوّ القبيلة من الحسناء البكر لعنة وفأل سوء.

وعندما جاهر أحدهم بهذا الشؤم علّق الزعيم مداعبا : « سأتيكم بالعذارى يوم تكفون عن الاقتران بالفتيات الابكار فلا يبلغ الرجل منكم من العمر عتياً حتى يبدأ في تسلية شيخوخته بالعذارى . لا اخفي عليكم أن الشبان يشتكون ويقولون أن العرق النبيل أشرف على الزوال ، لأنكم لا تتركون لهم الا بنات الرعاة» . لم يضحك أحد ، ولكن أحد المعمرين تصدّى للدعابة بروح لم يفقدها شبح الجدب ، شجاعة تحلّى بها المعمرون دائما : « ماذا يبقى للمعمر الصحراوي غير العذراء تسلي شيخوخته وتزين ما تبقى له من أيام الباطل ؟ اينوي الزعيم أن ينتزع منا هذا العزاء أيضا ؟» . ابتسم كبير السحرة ولكن الوجوم ابتلع دعابة المعمّر أيضا ، وبدا واضحا أن المجلس لن ينعم براحة البال الآّ اذا وجد الزعيم مخرجا في شأن العذراء . البحث عن مخرج مسئولية الزعيم

---

* ايكرهي : قطعة قماش مشبعة بالنّيلة الزرقاء يتوج بها رأس الفتاة في جفلات البلوغ . وهي تماثل اللثام عند الشبان الذين يجري لهم حفل مماثل .

Twitter: @alqareah

وحده . وكان الزعيم يجد هذا المخرج دائما . اقترح : « ابعثوا الى زعيم اوراغن كي يعيرنا عذراء من قبيلته » .

عاد نفس المعمّر الحكيم الذي علّمته الصحراء الاّ يفقد روح الدعابة حتي وهو يقف على باب الفجيعة . علّق : « أخشى أن يكون في هذه القبيلة معمّرون أكثر شهوة وعشقا للعذراوات من معمرينا » . انفجر المجلس بالضحك أخيرا . لم يتأخر أحد . ولكنها الضحكة التي قال عنهاحكماء الصحراء القدامى أنها اذا ملأت بها فمك اليوم فتوقّع أن تملأه بالدموع غدا . ولكنهم ضحكوا ، ولم يبالوا . خالفوا شعائر الوقار ، وكفروا في حضرة النبوءة . وضحكوا . لم يبالوا ، لانهم رأوا الهول في طيران الطير ، وقرأوا الفاجعة في عظام القرابين ،واقتنعوا ، بينهم وبين انفسهم ، أن النبوءة ستنزل سواء ناموا فوق أضرحة السلّف أم لم يناموا ، وجدوا الرّسولة العذراء أم لم يجدوا ، فحاكوا الذئب الحكيم الذي لا يضحك الاّ اذا جاع وحلّ موسم الجدب ، لانه يعلم أن الجوع سيليه شبع ، فان شبع بكى ، لأنه على يقين أن الشبع سيعقبه جوع . فمن احقهم بالضحك ، الآن ، في اليوم الذي وقفوا فيه في مواجهة اقسى مجاعة ستعرفها الصحراء في تاريخها ؟ ضحكوا كأن السحرة الاجلاّء عرفوا أن الضحكة لحظة الحزن هي اللحظة الوحيدة المسروقة من القدر .

Twitter: @alqareah

(٣)

سافر وفد الفرسان لاستعارة العذراء من قبائل اوراغن . وكان زعيم القبيلة يعسكر على مسيرة ثلاثة أيام بالمهارى . ولكن الشريعة قضت أن ترافق الوفد عجوز نبيلة تركب هودجا مهيبا يليق بالبكر المعارة . والى جوار العجوز جلست شاعرة حسناء ظلت تعزف على «امزاد» * طوال المسير لتسلي العذراء بالأشعار والأغاني في طريق العودة. فاستغرقت الرحلة في الذهاب والأياب سبعة عشر يوما . عاد الوفد بعذراء حسناء ، تتمتع بمواهب يندر أن تجتمع في فتاة . فالى جانب الحسن والبكارة امتلكت الفتاة المعارة خصالا أخرى . كاتقان الغناء ، وتأليف الأشعار العاطفية وملاحم البطولات الحربية . وكانت ، فوق ذلك كله ، كريمة زعيم قبائل اوراغن كلها من زوجته الآهجارية . فلم تفز بالنبل من جهة الأب وحده ، ولكنها نالت أصالة السلالة من ناحية الأم . وقد رأى زعيم اوراغن أن يدعم أواصر التحالف بين القبيلتين فلم يجد حيلة أنسب من هذه المناسبة . فقال في ابيات شعرية مجازية بعث بها إلى الزعيم ما يبرهن على تكامل علامات الفضيلة في ابنته ، وحذّر في بيت أخير غامض من عيب وحيد. احتار الزعيم كثيرا قبل أن يجد له تفسيراً. واضطر أن يستعين بشاعر عجوز تخصص في شبابه بتأليف الالغاز والا حاجي الشعرية ، فقال الدّاهية في تفسير البيت الغامض :

---

* امزاد : آلة ذات وتر واحد تشبه الكمنجا .

Twitter: @alqareah

« زعيم اوراغن أراد أن يخبرك أن ابنته مثال في كل شيء ، الاّ في غرابة الاطوار » . سكت الزعيم طويلا قبل أن يتساءل : « وهل غرابة الاطوار عيب من العيوب ،أو سرّ من الأسرار التي يرفضها الاسلاف ؟ » ولماّ كانت عبارة « غرابة الاطوار » غامضة في كل لغة ، غامضة حتى في المعاجم السحرية نفسها، فقد سكت السّحرة جميعا . ولم يجد أحد تفسيرا لسكوتهم في ذلك اليوم .

(٤)

بدأت مراسم الزفاف . تحلقت الحسان حول « تهيجالت » * . وامتدت الأنامل الساحرة لتداعب الوتر الصحراوي الحزين . توجّع امزاد بأنشودة التيه القديم ،فرقص المهارى في العراء ،يعتليهم فرسان زرق يتبدّون في الافق المغمور بشموس الضحى مثل اشباح حقيقية من قبائل الجن . فوق الرابية تحلق السحرة حول الزعيم ، وفي جوار حلقة الحسان تجمّع عشاق الوجد والاشجان في طابور مهيب . ولم يمض وقت طويل على انطلاق الغناء حتى استجابوا للنداء، لأن السحرة الحقيقيين الذين يحرق الشعر قلوبهم ويذهب النغم الخفي بعقولهم ، يسبقون دائما . يهاجرون الى « واو » ، الى الوطن الأول ، ليدخلوا الى حصن الاسلاف الاوائل من بوابة لن يقدر غيرهم على دخولها . السحرة الحكماء الذين يتحلقون حول الزعيم ويستجدون الرؤيا من

---

* تهيجالت : طبل محبوك من جلد الجمل يستعمل في مناسبات الزفاف

Twitter: @alqareah

المقابر ، يعرفون ان الرجال الذين يجوس الشعر في صدورهم ، ويخطف الشجن عقولهم هم أجدر بدخول الحرم القديم ، لأنهم وحدهم من يستطيع ان يخرج من وعاء البدن في لحظة الشوق العظيم ليخترقوا المكان ، ويهاجروا في الزمان . يعايشون الاجداد ، ويعيشون الرؤيا في سورة الأبد . سحرة القبيلة يعرفون أن الشاعر اذا سقط في «آجولل» * فانه يتحوّل الى ساحر يفوق اعتى السحرة في الصفاء ووضوح الرؤية ، يتفوقون حتى على كبير السحرة الذي ادخل السرّ الى الصحراء ليصبح تميمة خلقت لتعالج كل اوجاع الصحراء .ولكن السحرة الكبار يعرفون أيضا أن ومضة الصفاء ضائعة ،لأن الاسلاف الذين اخترعوا السحر ليداووا جراح الصحراء ، أبوا الاّ أن يأخذوا معهم السّر . سرّ الوميض وسر الرحلة .

وفي الوقت الذي فتح فيه الغناء طريق الهجرة وسقط عدد من الفتيان بابدانهم على الارض يتاوون ، ويرتجفون ، ويتقيأون اللعاب والزّبد ، ليسافروا في الزمان البكر الذي لم يعرف الزوال الى سدنته طريقا ليقسّمه الى الثالوث الفاجع : الماضي ، الحاضر ، المستقبل ، سافروا ليسبقوا الى اعتاب الأسلاف . الفرسان وحدهم يتسابقون لنقل البشارة . مضوا ليقولوا للاوائل أن عروسهم الحسناء عذراء ،تجري في عروقها دماء النبالة والزعامة والأشعار التي تغني موّال الولاء للتّيه الخالد.

---

*آجولل : حالة وجدية شامانية يؤدي اليها الغناء .

Twitter: @alqareah

سبقوا ليخبروا أهل السّر الذين أخذوا معهم سرّ الومضة ، وسرّ الرحلة ، وسرّ النبوءة بأن عروسهم :

وتزغشّم انكتماس

وتررزي ايغسان دغماس

وتفرين تمارت ايتيس

وتنزيف تيغريت اينغاس *

في تراتيل الغناء تخفّى توسّل ، صلاة ، حنين ، فجيعة .هرع جبابرة الى الأسرى الذين يرتجفون شوقا للسفر بالبشارة . مررّ الجبابرة على أجسادهم مدى صنعها سحرة الواحات من اخلاط المعادن السحرية . نحروا الجن ومزقوا عن المجذوبين الاغلال .

قامت أوعية التّراب لتتمايل على النغم الحزين ، في حين غابت الشعلة في سماء الاسلاف . بلغت النعيم المستحيل واوصلت البلاغ . رددّت العجائز تراتيل الاشارةبنفس الرّوح الفاجعة ، روح الحنين والبكارة والصلاة ، دون أن تتوقف أيديهن الخبيرة ، العجفاء ، عن مداعبة جسد العذراء العاري ، البكر ، المسبوك كحجارة الصوّان .

---

* لم تخجل الخال
لم تكسر عظما في بطن الأمّ
لم تكشف لثاما عن رأس الأب
لم ترفع صوتا في حضور الأخ .

Twitter: @alqareah

حولهن تتراكض الخادمات الزنجيات ،يدلقن الماء ليساعدن في تحميم الصبية العارية ، أو يلقين الى الجمر بحفنات من اخلاط كريهة الرائحة جلبنها معهن من بلاد الادغال ، وقلن أنها تمائم تبطل سحر العين الشريرة . وكن يرفعن ايديهن الى افواههن لحجب السنتهن عندما يلعلعن بالزغاريد . يتمايلن على انغام اغنية اخرى يرددنها بلغة «الهوسا» مشاركة منهن في زف العذراء الى قرينها المجهول لتعود من رحاب النبوءة بيقين يدفع عن القبيلة الهول المنتظر. خرجت العروس الى قرين هجع منذ عشرة الاف عام، وعادت في العشية بجواب غامض ما لبث أن أثارِ البلبلة في القبيلة :

« الملف اد تونتي – آسغون اد تيغسي * »

القت الرسولة بيت الشعر الى جمهرة النساء وانهمرت في البكاء. ركض رسول وابلغ الزعيم . خرج الزعيم من الخباء تحيط به كوكبة من السحرة والحكماء . هرع الى خباء العرس . وقف خارجا وأمر أن يأتوا بالعجائز . خرج اليه وفد العجائز تتقدمه معمرّة جنيّة امتلكت أسرار الآخرة الى جانب اسرار الدنيا . قرّعهن الزعيم مردّدا البيت الشعري المهين : « الملف ادى تونتي . آسغون اد تيغسي . ما أبشع هذا . ما أسخف هذا ! ». ابتسمت المعمرة الجنيّة وقالت له بهدوء السّاحرات: « فليتحل الزعيم بالتسامح كما عودنا دائما ، فما الجواب الا

---

* القطيفة على جسد حسناء مثل عقال في ساقي معزة !

Twitter: @alqareah

دعابة من دعابات القدماء » ، انتهرها الزعيم ملوحا بعصاه في الهواء : «دعابة ؟ ما الذي يحمّلك على هذا الظن ؟ ». أجابت المعمّرة بحلم الصحراويات الحكيمات : « مضى ، يا جلالة الزعيم ، زمن طويل لم نبعث أليهم برسلنا » . تمشى الزعيم في العراء بحثاً عن الدعم في وجوه الحاشية ، ثم تردّد قبل أن يوجه الى الجنيّة هذا السؤال : « ألا يمكن أن يكون في الأمر غش ؟ ألا يمكن أن تكون كريمة الزعيم ثيبا ؟ » . تبادل سحرة الحاشية نظرات غامضة .نزل سكون . ولولت احدى العجائز فانتهرتها الجنية المعمّرة بحركة صارمة . قالت بخشونة المعمرات : «وكيف لي أن أتجاسر وأختبر عذرية سليلة الأغراب يا جلالة الزعيم ؟ » هنا تدخلت احدى المرَافقات : « وجدناها ترتدي قميصا من القطيف تحت الرفيغت * يا مولانا الزعيم » . هتف الزعيم « قطيفة في هذه النّار ؟ فتاة غريبة الأطوار حقا ! أنا لا استطيع أن ألوم الأجداد على دعابتهم » . ضحك باستخفاف ثم أضاف : « بل أنهم على حق . أقسم أنهم كانوا على حق دائما » .تدخل أحد السحرة : « ألم يحذركم ابوها المبجّل من غرابة أطوارها ؟ » ضرب الزعيم كفا بكف وهتف : « لم أتوقع أن يكون السّر في القطيف . نعم. غرابة الاطوار في تعلق البنية بالمخمل صيفا . أحمدوا الآلهة تانيت التي عصمتنا من الغش . اعيدوها في الغد قرينة لـ « ادبني » ** . عادت العذراء للاقتران بالمجهول فجاءت في

---

* الرفيغت : جلباب فضفاض من القماش الأبيض .

** ادبني : القبر.

Twitter: @alqareah

الظهيرة بالتفسير المنتظر : كوديد ألآنت فلاس

تكونت داغ اد تاس * .

(٥)

صدق النبأ لم يتأخر . لأن قطرة واحدة من المطر لم تسقط في مملكة الحمادة منذ ذلك اليوم .

في الماضي كان السّحرة يقرأون آيات الجدب في عظام الأضاحي أيضا ، وكان الخلاف حول صحتها ينشب ، وكثيرا ما بلغ الخلاف حداً تنابزوا فيه بالألقاب وتراشقوا بالعظام ، ولكن القبيلة وجدت الأمل وقرأت السّر في صلب الخلاف . كان العقلاء يعيدون حكمة السحرة أنفسهم : « الحياة في الخلاف ، ولكن احترسوا من الوفاق ففيه يتخفى الموت ! »، فيحل الجدب في تلك السنوات أيضا ، ولكن الحمادة صحراء واسعة ورحمة السماء اوسع . فان عانت المملكة من الجدب في العموم ، فإن السحب العابرة لا بد أن تخترق الحمادة هنا ، أو تمر هناك . فيسافر الرعاة ،وحتى رسل النبلاء ، لاستطلاع المطر وتفقد الكلأ والنبات . يتناقلون اخبار الربيع ولا يخلو حديث من تتبّع انباء السحب العابرة . وكان أهل الحمادة يطاردون هذه السحب

* اذا كان ما زال هنالك صدق
فان نبأ الهول سوف يصدق .

Twitter: @alqareah

مسافات طويلة طلبا للربيع العابر . ويطيب لهم ، اثناء البحث ، أن يثنوا علي اختلاف السحرة في تفاسير الآيات ، ويشكروا الالهة « تانيت » وينحروا لها القرابين . أما الوجوم الذي نزل على رؤوس المجمع بعد الجواب الأخير فانه كان اجماعا على الاتفاق . ويبدو أن أمل السحرة قد خاب لأنهم لم يجدوا في ردّ الاسلاف رمزا يستوجب الجدل أو التأويل ، فتعلقوا بالصمت . والسكوت ، في لغة الصحراء ، دائما علامة الموافقة . فرأوا الخطر في اتفاق دبّره القدر ، واحتموا بالاُكتئاب . واكتئاب السحرة اشارة الهول.

لم يتأخر الهول .

ففي ذلك العام لم تصعد سحابة في سماء الحمادة ، وكذلك في السنوات التالية . وكان على مجمع الحكمة أن يتقدم باستفسار لجلالة الزعيم في العام التالي لحلول المجاعة كأنه أراد أن يختبر مواهبه السحرية: « ولكن كيف استطاع جلالتكم أن يرى الرؤيا قبل أن تنزل في طبائع الطير ، وقبل أن تتثبت في بياض عظمة الكتف ، وقبل أن تجيب بها شفاه الأجداد ؟ » . فأتى جوابه أكثر غرابة من الموهبة : « رأيت ما رأيت بهذا». وأشار بسبابته الى قلبه . ثم أضاف يوصي الأجيال : « اعلموا أن الساحر لن يكون حكيما ما لم يقرأ الغيب بقلبه . فان استطاع الى ذلك سبيلا جاز له أن يستعين بعظام الانعام ، وطيران الطير ، واختطاف ردود

Twitter: @alqareah

الأسلاف من أفواه العذارى » . وروى لهم كيف أمر بنحر المعز لأنه رأى اليوم الذي سيبيد فيه الهول القطعان ، ويقضي الجدب على المواشي الى الحدّ الذي ستعاف فيه لحمها الذئاب الجائعة ، فآثر أن يقدّم الاغنام قربانا لـ « تانيت » علّها تشفع وتخفف البلاء . واتّضح فيما بعد أن المجمع لم يمنحه لقب « كبير السحرة » لأنه سبقهم الى المجهول ، ورأى في زاوية الخباء ، ما عجزوا عن رؤيته ، ولكن الزعيم استحق البطولة لأنه كان أول من استقبل المصير البائس وعمل بالحكمة الصحراوية القديمة :

« آيرن تا مولي يامتيت » * . كان أول من واتته الشجاعة وتوارى في خيمته وأعلن في القبيلة الصيام الأبدي . فكان ذلك الصيام السر الذي بنى للزعيم مجدا لن يمحوه الزمان من ذاكرة الصحراء . لأن الشريعة تقول أن الزعيم الحكيم ليس من قاد القبيلة الي فردوس الفضيلة ، وانما من سبق قبيلته الى الموت عندما يعم الجدب .

(٦)

قبل أن يبدأ الصيام توقّف عن الكلام . جاء الحكماء وتحلّق حوله السّحرة . تسامروا بجواره تحت ضوء القمر ، استعادوا زمانا كانت تصدق فيه النبوءات وتكذب . ورووا خرافات آخرى عن ازمنة تكذب فيها النبوءات حتى لو صدقت . وانتهوا الى أن السحاب لن يهرب من

---

* من اراد أن يفوز بالمجد فليمت (مثل للطوارق) .

Twitter: @alqareah

الصحراء الى الأبد ، وآنهى الذي جرفه السيل يوما يؤكد أن وديان المملكة السماوية لابد أن تعربد بالسيول في القريب . ولكن السحاب لم يأت ، والمطر لم يسقط حتى في العام التالي ، واستمر الزعيم يتشبّث بصومه عن الكلام . قام مجمع الحكمة بمحاولة أخرى . جاءوا بمهرج من قبائل « كيل أولي » * ليرفه عن جلالته بالحكم والاشعار والأغاني وقصص الزمان القديم .تحدث الراعي العجوز مع مغرب الشمس ، واستمر حتى طلعت في الغد . غنى المواويل ، ولحّن اللّحون ، وروى الخرافات ومواقف العشق و .. قصصا عن احوال الزنوج في بلدان الادغال ، حتي انتهى الى الفضائح . تلوى المجلس بالضحك ، ودمعت عيون السّحرة ، ولكن الزعيم لم يبتسم . في ذلك اليوم فهم مجمع الحكمة أن جلالته قد مضى بعيدا ، فلم يندهشوا عندما بدأ شعائر الصيام. اسدل على نفسه اطراف الخيمة ، وحرّم عليهم أن يخاطبوه الآ من وراء حجاب . ولكنهم كانوا يخاطبونه دون أن يطمعوا في تلقى الرّد . اضطرّ المجمع أن يسيّر أمور القبيلة ، في حين استمرت القطعان في الهلاك . ماتت الجداء ، ثم المعز ، وتبعتها الجمال . لم ييأس بعض السّحرة ، فطافوا حول الخباء وتوسّلوا الزعيم أن يرد على رسائلهم . يدفعون اليه بأوعية الماء ، ولكنهم لا يتلقون الرّد ولا الاوعية . استمر هذا الحال زمنا .

---

* كيل أولّي : الرعاة .

Twitter: @alqareah

انتظروا الاشارة . انتظروا أن تفوح الجثة بالرائحة ، ولكن ذلك لم يحدث . انتظروا أياما . أسابيع . شهورا . حولا . عقدوا اجتماعا للمجمع لاتخاذ قرار الكشف . كشفوا اطراف الخباء واقتحموا الخيمة . كان الخباء خاليا . انهار السحرة وركعوا . قبلوا الأرض التي رقد عليها الزعيم يوما ، وخرجوا الى القبيلة ليقولوا أن الموت لايكفي لمن أراد أن يفوز بالمجد ، ولكن عليه أن يطير الى السماء أيضا . ومن رفض أن يحوز قبرا على الأرض ، فان الفوز بلقب « كبيرالسحرة » أقل ما يمكن أن يفوز به ، والقدر هو الذي قضى ألا ينال الانسان مجدا الا اذا تخلّى عن الحياة .

في تلك المرثية عرفت القبيلة كلها أن السّحرة انما ينعون أنفسهم أكثر مما يعلقون وسام « كبير السحرة » في رقبة الزعيم ، لأن الدور ادركهم كي يبدأوا شعائر الاحتجاب .

(٧)

بعد الزعيم جاء دور السّحرة . احتجبوا واحدا تلو الآخر . احتجبوا مع أسرهم خوفا من أن يعرف الضعف الانساني نحو الحياة طريقه الى قلوب ابنائهم فترتكب ذريتهم العار من بعدهم ، لأن الساحر لن يكون الا ساحراً مزيفا اذا غفل عن الوسواس الذي يجعل نار الآباء تتحوّل الى رماد في الابناء ، فتحلو الحياة في عيونهم ولا يرون عارا اذا قايضوها بذل السؤال . يهرعون الى القوافل العابرة ليتسوّلوا منها حفنة

Twitter: @alqareah

شعير أو بضع حبات من التمر . وقد رأى النّبلاء أن يتبعوهم ، ويتخذوا من عملهم ، ومن عمل زعيمهم الذي علّمهم السّحر من قبلهم ، درسا يصلح للاتباع . دفنوا أنفسهم وذويهم في بيوتهم حتى الموت . فانقطع بذلك أصل الحكماء في القبيلة . اندثر الشيوخ ، وجاء اليوم الذي تحققت فيه نبوءة آنهي المفقود : « آسخركن امغارن نسن ، ادخركن ايبراضن نسن » * ، ووجدت القبيلة نفسها وجهاً لوجه أمام مكيدة جديدة من مكائد الزمان : التيّه . فاستعادوا وصلية السحرة التي تقول أن هناك حيلة واحدة لقهر الزمان هي : الغناء . فزغردت النساء . وعزفت الشاعرة مواويل الفجيعة على الوتر الوحيد المسحور ، وسقط الشجعان في « آجولل » ولم يعودوا منه أبدا . أما من تبقى منهم فقد تسابق لتحويل البيوت ، كل البيوت ، الى مقابر جماعية . بدأ الاحتجاب الأكبر . احتجاب القبيلة عن الصحراء وعن الحياة . أسدلت كل عائلة أطراف خبائها على نفسها وبدأت الصيام الكبير ، الصيام الأخير .

كانت العائلات التي خلت بيوتها من الماء ، أو شارفت القرب على الانتهاء ، أوفر حظا ، اذا غلبتها الغيبوبة ، وقضى عليها الظّمأ قبل أن تتعذّب بالغياب الفاجع ، الطويل ، الذي يأتي بالجوع . فتمنى أهل القبيلة لأول مرة في حياتهم ،تمنى الخلق لأول مرة ، وآخر مرة ، في تاريخ الصحراء ، أن يستنزفوا الماء ، أن يختفي الماء ، أن يتبدّد ويتبخّر

* اذا ضاع شيوخهم (حكماؤهم) ضاع ابناؤهم (امثال الطوارق) .

Twitter: @alqareah

من القرب كما تبدّد في فضاء الحمادة ، وتبخّر في حلمة السماء .
ولكن كل من امتلك طفلا يومها فاق في العذاب من امتلك الماء .

جاء اليوم الوحيد الذي تمنىّ فيه الخلق لو لم ينجبوا اطفالا كما تمنّوا قبلها لو نضب الماء من القِرب ، فلعنوا اليوم الذي رزقوا فيه بالذريّة. انقلبت الاشياء ، وتبدلت الحكمة ، وتحولت النعمة الى نقمة . صدق آنهي الذي قال أن الانسان لا يستطيع ان يميز بين النعمة والنقمة ، النافع والضار ، الأصيل والمزيف ، الحقيقة والوهم ، الاّ في تلك الومضة التي يمثل فيها بين يدي الفناء . الاشياء لا تتغير ، ولا تعود لها معانيها الحقيقية الا عندما يتأهب المخلوق الشقي للعودة الى الأرض ، للتراب ، ليصبح ، طال الزمان أم قصر ، ذرة من غبار . فيكتشف من ظن نفسه بالأمس أسعد المخلوقات ، لأنه رزق بأولاد يستعين بهم على قساوة الصحراء ، أنه أتعس المخلوقات ساعة الحساب ، لأن عليه أن يقتلهم جوعا اذا أراد ألا يلطخوا اسمه بعده بالعار . يكتشف أيضا أن قتلهم لا يكفي . عليه أن يتحمّل صراخهم وشكواهم وهم يموتون أمامه ببطء .يموتون في كل رمشة ، مع كل غمضة ، ليبتلى هو بميتات لا تحصي في اليوم الواحد .

كان يستطيع ان يخالف الشريعة القديمة ويسبقهم بأن يضع حدّاً لحياته حتى لا يموت مع كل صرخة ، ويفز من قلبه الدّم الحار مع كل أنّة أو آهة أو توجّع . ولكنه يعلم أن أمهم سوف تبقيهم على قيد الحياة . حياة ذليلة ستلاحقه بالعار . ستشحذ لهم حفنة من الشعير أو حبّة تمر من

Twitter: @alqareah

قوافل التجار . ستبيعهم لتجّار القوافل مقابل أن تراهم أحياء . ستقايضهم بالعبودية مقابل أن تبقيهم على قيد الحياة ، هذا هو منطق الأم . منطق الامهات . شريعة الأمهات . الشريعة التي زرعتها الصحراء في صدور الأمهات الصحراويات كي تجعل منهانقيضا لشريعة آنهى القاسية التي تضع الموت في مرتبة أعلى من الحياة عندما يكون خلاصا من الذلّ ، ونجاة من العبودية . كأن الصحراء أرادت ، بهذا العمل ، أن تدافع عن مبدأ الحياة ، عن البقاء ، بأي ثمن ، حتى لو كان المقابل ذُلاً وعبودية وعارا ، لأن الحياة في دفاعها عن قداسة المبدأ ، قادرة أن تشتري نفسها من الذل ، وتتطهر من العبودية ، وتغسل نفسها من ادران العار يوما، اذا استطاعت أن تتغلّب على الكبرياء ، وتنتصر على منطق آنهي الموجع.

يستيقظ خوف . الخوف من أن يحل الأجل فينتصر منطق الأم . الأجل الذي تمنّاه الأب منذ قليل غولا يقف خارج الخباء . ينتظر اختفاءه ليجرّعائلته الى الذلّ ،الى تجّار القوافل . يبيعها هناك للأشرار الذين يشترون اولاد الصحراء مقابل الشّعير أو التّمر ليأخذوهم معهم الى ممالكهم المخيفة في الشمال . هناك يبيعونهم الى اشباح تبني بيوتا فوق صحارٍ من المياه الفاسدة ، يصبحون عبيدا للاشباح التي تسكن فوق المياه المسمومة . فيتمنّى أن يستمر نزيف الدم في قلبه الى الأبد شريطة ألا ينطفئ القلب قبل أن يطمئن علي مصير الذرية . يتمني أن يظل يتقلب في قلب النار مقابل أن يسبقوه الى الخلاص ، الى الحرية الابدية .

فيعلو الانين الفاجع ، الموجع ، الذي لا يحتمل ، فيتمنى لأول مرة أنه لم يولد ، لم يعش ، لم يكن ، ولم يتنفس هـواء الصحـراء يومـا . يلعن أمّه وأباه ويقول لهما بصوت يظنه مسموعا : « لماذا جعلتماني ضحية لمتعتكما ؟ لماذا استسلمتما للحظة صغيرة لتنجبا نطفة الشقاء الكبيرة ؟ » ينسى الى الأبد أنه تلذذ بطعم الترفاس ، وترنّح كالمأخوذ بنشوى الالحان عندما تنفّس عطر الرّتم . ينسى بأنه تمايل طربا وهو يتصنّت لـ« مولا – مولا» الصغير ، وهي تغني في أحراش الربيع . ينسى بأن الحياة حياة ، ويلعن الآباء ، والأجداد ، ولحظة الميلاد . و .. يشقى ، يشقى لأنه يتذكر أنه ضاع ، ووضع قدمه في صراط التيه في اللحظة التي تعلق فيها بمخلوق آخر . عندما سمح لنفسه بأن يعشق . عشق مخلوقا يسعى ، فانزل قلبه من رحاب السماء ، من جنائن الرتم ، من شذى الترفاس ، من دنيا الربيع ، من غناء مولا – مولا ، ووضعه علي الارض . قدّمه مهرا للمخلوقة ، فباع نفسه وخان الحياة . قايض عطيّة وطن الرؤى السماوية التي لا تقدر بثمن مقابل أن يتلذذ بلحظة سيلعنها الابن كما يلعنها هو الآن في لذة أبويه ، لأنهما صنعاه بنطفة شقية . انزل قلبه من السماء وجعله يدب على الأرض . وعليه أن يدفع ثمن هذا الحمق . عليه أن يتحمّل نتيجة اللعنة . اللعنة التي يتلقاها كل من رضي أن يمتلك بيتا . امرأة . ولدا . ذرية . إسما . عرف أنه خرج من الصحراء ، من وطن الرؤى السماوية ، من وطن المولى نفسه ، الى المنفى الخالد ، عندما اختار أن يتعلق . يعشق . ويهب قلبه للمعشوق . تبدّد الفردوس وبدأ التّيه .

Twitter: @alqareah

سكتت مولا – مولا عن الغناء ، توقفت شجرة الرتم عن الازدهار ، اصيبت ارض الحمادة بالعقم ولم تنجب ترفاسه واحدة منذ ذلك التاريخ. فكيف لا يسب يوم الميلاد الآن بعد أن عرف السّر ؟ كيف لا يتمنى لو لم يبدأ هذا السفر اذ ادرك ان الشقاء قدر السلالة ما دامت لا تستطيع أن تعرف أن المنفى هو المنفى الاّ اذا سارت في هذا الطريق ؟ واذا سارت في هذا الطريق فان اللعنة المنزّلة لن تقبل التوبة ، ولن تسمح للسلالة الشقية بالبدء الى الخلف ، والعودة الى وطن الرؤى السماوية من جديد ؟ فاستحالة العودة الى الحرم القديم هي التي تبيح الكفر ، وتجعل من سبّ يوم الميلاد أمرا جائزا، تجعل حتى سب الوالدين أمرا مباحا . فالسلالة الشقية ، لا تقدر أن تسب يوم الميلاد ، وتجرؤ أن تلعن الابوين ، اذا لم تكفر بالمنبت . بالحياة . بمبدأ الحياة .

(٨)

ولكن ارادة الحياة عرفت دائما كيف تنتصر ، فغلبت الامهات تدابير الآباء . وقد سمع جبارين السحرة أنفسهم يثنون على هذه الارادة الغامضة سرّا، ويعترفون أن اهل الصحراء مدينون لهاعبر الدهور بالبقاء على قيد الحياة . ولولا الاعتراف بالفضل القديم لما عبد الصحراويون المرأة ، ولما جعلوها وريثة لهم في النسب والاسم والميراث من دون كل الأم الأخرى . هذه الارادة التي جعلت منها مخلوقا مقدّسا في الماضي هي التي ساعدتها في أن تجد حيلة تقاوم بها أهوال الجدب ، وتغلب

Twitter: @alqareah

الجوع وكبرياء الآباء . هذه الارادة هي التي أجبرتها أن تكتشف السّر الذي يقهر الموت . فقيل أن بعضهن تعلمن الدهاء من الثعالب ، فاحتضنّ اولادهن ،وحبسن انفاسهن حتى بردت أطرافهن ، حتى اذا تفحصهن الأقران تهيأ لهم أنهن قد سبقن . قدمُتْنَ ، فيلتفتوا الى الزاوية الأخرى من الخباء ليتمتموا بحمد الإلهة « تانّيت» قبل أن يشهقوا ، ويلفظوا النفس الأخير . عندها تنسل الأم ، وتزحف خارج الخباء ، تترنّح عبر الخلاء ، تحمل كنزها في حجرها لتبيعه لتجار القوافل العابرة مقابل قبضة من دقيق الشعير ، أو بضع حبّات من التمر . فاذا ماكسها التّجار أعطتهم الهيكل العظمى الصغير الملفوف في خرق القماط بلا مقابل . بل بمقابل . مقابل أكبر من كل كنوز الصحراء ،ومن كل أحمال الشعير والتمر والذّرة التي تزرعها بلاد السود . مقابل أن يعطى التجار الحياة . ويروي أحد التّجار أن امرأة من « كيل اولّى» باعت له طفلها مقابل كسرة من خبز الشعير . ولكنها لم تذق من الكسرة سوى قطعة صغيرة . وأعطت الكسرة للوليد . وعندما بدأت القافلة تبتعد لحقت بهم لتعرض أن يأخذوها أسيرة الى البلاد التي قالوا لها في الأساطير أنها تبنى بيوتا من جذوع الشجر لتسكن فوق صحارٍ من المياه المسمومة . عرضت أن تذهب عبدة لتربي ابنها . ولكنه رفض عرضها لأنه لم يجد لها مكانا فوق جماله المحمّلة بالبضائع . بعد شهور ادركته قافلة اخرى ليخبره التجار بأمرها .قالوا له أنها مشت وراء القافلة مسافة طويلة .

Twitter: @alqareah

وعندما غلبها الجوع والظمأ حاصرتها الذئاب الجائعة . تناولت حجرا واستعانت به لتكتب وصيتها لابنها على صخرة عند حضيض جبل نفوسة : « تكشيد تيرفاس، يقل كي آضو نتيلوت تفسايت ، تسليد اي مولا – مولا ، مهيتكّد اي تينيري ؟ » * . وقال التاجر أن نبوءة تلك العرافة تحققت . فما أن كبر الولد وربّى العضل ، وتهيأ لبيعه لنصارى بحر الروم حتي اختفى . هرب الى الصحراء . قيل له أنه شوهد برفقة قافلة متجهة الي غدامس . وروى تجّار آخرون كيف استحال عليهم أن يخلقوا من ابناء الصحراء الاشقياء عبيدا . فما أن يشبّوا حتى يفرّوا من وجوه الأسياد . واذا تعذّر عليهم الفرار لجأوا الى الخيار الوحيد الذي لم يقدر انسان أن يمنعه عن انسان آخر حتى لو كان عبدا مملوكا : الانتحار!

كانوا يشنقون انفسهم ، أو يقفزون من شرفات المنازل ، أو يرمون باجسامهم على السيوف أو السكاكين ، أو يشقون رؤوسهم بالفؤوس . وقد ذاع صيتهم الي حدّ أن تجّار الروم اطلقوا عليهم أسم « الجنّ » ورووا عنهم الأساطير ، وقالوا أنهم يجلبون النّحس . وتطيّروا منهم وتشاءموا . تحدّثوا عن السفن التي غرقت في بحر الرّوم ووجدوا أنها كانت محمّلة بعبيد من مملكة الصحراء . فحرّم ربان السفن حملهم قبل ان يمتنع التّجار عن شرائهم ، مفضلين الأحباش وجبابرة الادغال . فكان أن بارت تجارتهم ، ورفض تجار القوافل مقايضتهم بحبّات التمر او بذار

---

* أكلت الترفاس ، استنشقت عطر زهرة الرتم ، سمعت غناء مولا – مولا . ويلك ، أين ستفرّ من الصحراء ؟

Twitter: @alqareah

الشعير في المواسم التي يعم فيها الجدب وتبدأ المجاعات . وتناقلوا اقوالا مشهورة تفيد بأن أهل الصحراء سحرة ، يتزوجون الجنيّات وينجبون منهن اولادا ، يدسونهم للتّجار حتى يفسدوا بضائعهم ، ويحوّلوا التّبر النفيس الى أكوام من رماد . وما أن يخطفوا الكنز حتى يطيروا به ويعيدوه الى الصّحراء ، تاركين وراءهم أجسادا استعاروها للتمويه . وأكّد الرواة أنهم رأوا بعيونهم كيف يؤدي ابناء الجنّ هذه الطقوس السحرية . فيبدأوا بترتيل المواويل الصحراوية الحزينة حتى تحمر عيونهم، حتى يغيب منها السواد تماما . تنتابهم رعشة عنيفة تهتز لها ابدانهم كلّها. يطلقون صرخة جنونية ليقعوا صرعى . يسقطون من أعلى ارتفاع ، أو يغرسون انصال السكاكين في صدورهم . أو يضربون رؤوسهم بالفؤوس ، ليتركوا كوم التراب ، البدن المزيف ، في يد الأسياد ، ويطيروا الى الوطن . الى الصحراء . فاذا تفحّص المالك كنزه ، بعد هذه الشعائر ، فلا بد أن يجده وقد تحوّل الى رماد .

ادّعى التّجار أنهم تخلّوا عن عبور الحمادة ، وسلكوا طرقا أخرى أبعد ، مثل غدامس وزويلة ،تجنّبا لغارات قطاع الطرق ،ولكن الدهاة يعرفون أنهم اصبحوا يتحاشون عبور وطن الرؤى حتى لا يحملوا في امتعتهم الذرية المسكونة ، حتى لا يدسّ لهم سكان الصحراء السّحرة الوباء الذي يخطف تجارتهم ، ويحوّل كنوزهم الى هباء من رماد .

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

٣- الحُصن

« .. حتى الحصن بزواياه الرباعية

يبدو مستديرا عن بعد .. »

غاي بتروني (بترونيوس)

أبيات من قصيدة ضائعة

* * *

« اي حركة إنما تنتهي بدائرة . سواء أكان ذلك في المكان أم في الزمان»

توماس مانّ

« الجبل السحري»

Twitter: @alqareah

(١)

في المراعي استعار الشجر الحيل من السحرة القدامى . ابتنى لنفسه صروحا من رمل وعروشا من تراب . قال للجدب أنه أعدّ مثواه بنفسه ، حفر قبره بيده ، في حين اخفى في « ادبني » كنزه . طمر في التراب سرّه في غفلة من الريح ، والشمس ، والجدب . حاكى الحكماء الذين يدسّون ثرواتهم في قبور الأسلاف حتى لا تمتد اليها يد اللصوص والباحثين عن الكنوز . الرتم أيضا دفن في التراب سرّه وانتظر اليوم الذي سيتبدل فيه مزاج القدر فيجري الزمان بغير ما يشتهيه البلاء . يوم تقدم السماء شرر البشارة ، فيبدأ البعث . وتخرج الأرض من جوفها كنوزا في مطالع اللّعاع . ولكن الاشياء كلها تعود الى التراب ما ساد الجدب . تتحصّن بمجهول لا يعلمه الاّ الجنّ . الجنّ يحرس حبيبات البذور في مدافن الجذوع كما يحرس كنوز الأولين في المقابر القديمة . فوق المقابر يقف مردة يتخفون في جلود الحيات والافاعي ، وفوق نعوش الشجر يدب المردّة في أجساد النمل . تشق لنفسها دروبا على الدوام . تحفر المطامير والدهاليز والانفاق لتدس فيها بذور الحياة في مخابىء أكثر أمانا .

هجع جبارين بجوار كدس من الأكداس ليلا ليتخذه وسادة . استيقظ في الصباح فوجد نفسه محاصرا بجيوش الجنّ ، فبدأ يقرأ

Twitter: @alqareah

التعاويذ ويراقب تحركات العمالقة وهم يتخفّون في ابدان أصغر مخلوقات الصحراء . راقبهم وهم ينقلون كنوزهم ويشقون طرقا جديدة ليحكموا حوله الحصار . راقبهم دون أن يتوقف عن التمتمة بالتميمة . ارتفعت الشمس اشبارا فوق خط الأفق . استمرّ يتأمل حركة الذّر حتى تبدّت النبوءة . رأى في حرف + حفرته جيوش الجنّ على عرش التراب علامة غامضة . علامة بدت ،ككل الأشارات الغامضة ، أليفة ولجوجة ولعوب . تستعير خصال السراب . تقترب ، تشاكس ، تغمز بغنج الانثى ، فاذا استجاب للاغواء وأقدم انسلت وتلاشت . واذا يئس وتراجع عن ملاحقتها هرعت اليه مرة أخرى وحامت حوله بالحاح. و .. فجاة تذكر . رأى البارحة رؤيا . رأى العلامة في الرؤيا . في كف ربّ القافلة . كانت تزين صدره كقلادة مسبوكة ومجسّمة من الفضّة . متساوية الرؤوس . تساوي اطرافها زادها جلالا وجمالا وغموضا ، فلم يعرف لها رأسا من عقب ، طرفا ايسر من طرف أيمن . الطرف العلوي ينتهي في نقطة التقاطع ، ويعادل في طوله الجزء السفلي. والطرف الأيسر ينتهي في نقطة التقاطع ليتساوى مع الامتداد نحو الجهة اليمنى . ولاحظ بوضوح كيف تناولها ربّ القافلة المجهولة ليقلبهابين يديه ، ليداعبها بحنان ، فلمعت تحت اشعة الشمس ، وعكست نار الغسق ، ليتحوّل الرأس الى القدم ، يحتل الطرف الأيسر مكان الطرف المضاد . تبادلت النقائض الادوار واحتل الضدّ مكان

Twitter: @alqareah

الضد مثل رموز«تيفيناغ » . ولم يفهم أن ربّ القافلة تعمّد الحركة جوابا عن سؤاله الا عندما أُعاد العجوز الاشارة ثلاث مرات . كان ظامئا . هام أياما في الخلاء بحثا عن ناقته . ولا يعرف متى اهتدى الى القافلة . وجد نفسه يهجع أمام العجوز المجهول بعد أن شرب من يديه الماء وأكل خبز الشّعير . سأله أين يمكن ان يجد ناقته فأجابه الربّ المجهول بالاشارة . أخذ القلاّدة المتساوية الأطراف وقلّبها بين يديه ليشير بها الى الجهات الأربع . كان جوابا أكثر غموضا من السؤال ، لأنه يعرف أن ال+ المتساوية الزوايا لم تصبح رمزا للالهة « تانيت » لأنها تحمل الحرف الأول من اسمها ، ولكن لأنها تشير الى الجهات الأربع حيث تسكن الإلهة . ويعرف أيضا أنها لا تكتفي بالسكن في هذا الوطن . ولكنها تملك عليه السلطان المطلق . والناقة لا بد أن تكون في مكان ما ، في ركن ما ، من هذه المتاهة . في زاوية من زوايا مملكة « تانيت » ، لأنه لا وجود لجهة أخرى تستطيع الإلهة العظيمة أن تتسلط عليها خارج جهات الصحراء الأربع . ولذلك جاء الجواب أكثر غموضا من السؤال ، لأنه يقول : «الناقة في مكان ما في التيه . في احدى زوايا الجهات الأربع » . وهو يعرف أن الناقة لن تفرّ من مملكة « تانيت » حتى لو طارت بجناحين . لأن سيماء تانيت المطبوعة على افخاذ الناقة ، مثل تيفيناغ المزبورة على الصخور ، لا تشير في وقفتها المهيبة الى الأفق . لا تومئ الى الجهات المطروحة فوق العراء . ولكنها تنتصب في كبرياء الإلهة نفسها لتعلن أن

Twitter: @alqareah

وطنها السماء أيضا . تشير الى مقامها الأعلى ، في حين يركع طرفها المضاد ليقول أن الارض السفلى وطنها أيضا. فأين يمكن أن تهرب الناقة من هذه الدائرة المغلقة باحكام كأنها كرة من الحنظل؟ ولكن ربّ القافلة أكتفى بجوابه الغامض وتهيأ للرحيل . لحظتها أفاق بعد أن لسعته اشعة الشروق ليجد نفس العلامة محفورة بارجل النمل على وسادته . على الكدس الترابي الذي خبأت فيه شجرة الرتم الزائلة كنز الحياة . استيقظ جبارين يومها باحساس أكثر غموضا من جواب ربّ القافلة ، واعمق منه في الايحاء والجلال . احساس أكّد له أنه لن يجد ناقته أبدا. احساس اليأس الذي زرعه في صدره الجواب القاسي . النبوءة الفاجعة التي وجد تأكيدا لها في الطريقين المتقاطعين المرسومين فوق كوم التراب بدبيب النّمل. بأصابع العمالقة الذين يتخفّون في اصغر مخلوقات الصحراء ، ليس لأنهم يريدون أن يريحوا أبدانهم من جبروت الجبابرة ، ولكن لأن الجنّ أول من عرف الحقيقة السحرية التي تقول ان العملاق لن ينعم بالفردوس اذا لم يتحوّل الى نقيضه ، الى نملة. وهي حكمة ما لبث أن استعارها سحرة الادغال فسكنوا الظلال وهجروا أبدانهم وحوّلوها الى ظلال. وقيل أنهم فعلوا ذلك في البداية كي يتذوقوا النعيم، ولكن الحيلة راقت لهم عندما اكتشفوا أن التخفى في الظلال يحميهم من اخطار العدوان ، فقرروا أن يتخذوا الظلال حصنا دائما ويهجروا أجسامهم الى الأبد. وحدّثه شهود العيان الذين زاروا بلاد الادغال أن

Twitter: @alqareah

الحكماء يغرسون حرابهم المسمومة في الظلّ عندما يشتبكون مع السّحرة ليقينهم أن عدوّهم يتخفّى هناك . ولكن السّحرة الدهاة قطعوا في حرفتهم مشوارا أبعد فابتدعوا الاقامة في حواشي الظلال ، حتى اذا هوجموا بغته ، وتلقوا حربة في القلب ، انتقلوا من الحاشية ، واختبأوا في جسم نملة ،أو ذرّة غبار . ولما برعوا في فنون التخفّى ، وبلغوا هذا المقام اصبحت مهاجمتهم مجازفة كبيرة ، لأنهم يستطيعون أن يصيبوا عدوّهم، في حين يعجز عدوّهم عن النيل منهم . وأخبره أحد الرعاة أنهم استفادوا من حكمة تانيت التي وجدوها في الشّارة . استعاروا أسرار سحرهم من النقائض العجيبة التي تحملها هذه العلامة في تكوينها البسيط. وقال أيضا أن قبائل الجنّ أيضا استفادت من رموز الشارة عندما اخترعت الانتقال من مأوى في القمقم الصغير الى قامة تخترق الفضاء ، أو التنازل عن حجم العملوق ، والنزول للسكن في بدن نملة .

اختلطت في رأسه رؤى النوم واحلام اليقظة الى حدّ أيقن فيه أنه مايزال يجلس في مواجهة ربّ القافلة الذي يقلب في وجهه بالحرف الفضي الغامض المشدود الى رقبته بخيط مفتول من الجلد . ثم استمر يقلب الشارة المرسومة بحوافر النمل (التي هي حوافر الجنّ) فوق الكوم المقدّس . وكلما تمايلت العلامة المجهولة كلما اشتد احساسه بأنه لن يهتدي الى ناقته . وتواصل هذا الاحساس ، الذي تحوّل الى يقين خفى ، حتى بعد ان تأكد أن حلم الليل هو الذي تواصل في رؤيا النهار،

Twitter: @alqareah

لأن البرهان هو أن ناقته تبرك بجواره ، تجتر باسترخاء قبضات التّبن التي طرحها امامها البارحة قبل أن يهجع فوق الكدس المقدّس .

ادرك أن عليه الآن أن ينجو بناقته من الخطر ، كما ادرك البارحة، أو صباح اليوم ، قبل أن يصحو من النعاس ، أن عليه أن يفهم الزوايا المتساوية في تقاطع شارة تانيت ، اذا أراد أن يجد الناقة .

(٢)

في سهل يهجع عند حضيض الجبال الزرق وجد الرعاة يتحلقون حول بضع حبّات من التمر . تولّى القسمة راع مرح ظلّ يغالب الهول بالفكاهة والنكات . قدّم له شقّا واحدا من تمرة فرفضها جبارين بهزّة من رأسه . انتهز الراعي الفرصة فعلّق على الرفض بمرح : « انتظر . سوف تترجاني في الغد ان أعطيك النواة . من تكبّر اليوم على شقّ التمرة قبل غدا شقّ النّواة » . ثم أخذ النواة والقى بها في فمه . شرع يمتصها كأنه وجد فيها رحيقا من نخاع . تبادل جمع الرعاة ابتسامات ذات معنى . كشفوا عن شفاههم . وضعوا الانصاف في افواههم .لم يمضغ أحد . كأنهم كانوا على اتفاق .حاكوا زميلهم المرح وبدأوا يتلذذون بامتصاص الانصاف. واصل الراعي المرح سرد رواية لم يكمله: «..بقي بابا يدور حول خباء معشوقته كما تحوم الذئاب حول المضارب مع

Twitter: @alqareah

بداية العام الثاني للجدب . ولكن أمّها لم تعطه جثّتها الاّ بعد أن أيقنت أن الدم برد في عروقها والهواء لن ينفخ صدرها بالحياة أبدا . هل تدرون ماذا فعل الشقيّ بابّا بمعشوقته ؟ » انتبهوا . ومضت عيونهم بالاهتمام ، ولكنهم لم يتوقفوا عن امتصاص الرحيق من انصاف حبات التمر . واصل الراعي روايته : « أخذها بين ذراعيه واطعمها لذئب كان يحوم حول النجع طوال الوقت » . تبادل الرعاة نظرات الاستنكار ، ولكنهم لم يتوقفوا عن امتصاص الرحيق . أخرج الراعي نواة التمر من فمه . القى في فمه بنصف التمرة ، وبدأ يتلذذ بامتصاص الرحيق . ولكنه احتفظ بالنواة في قبضته . استمر يسرد روايته عن بابّا : « ثم صنع فخّا بديعا من الطلح .نصب الفخ في الوادي واصطاد الذئب . نحره وشواه وأكله . بوبو قال أنه أكل اللحم نيئا ، ولكني لم اصدقه . لأني أعرف أن بوبو نازعه يوما ما ، وتخاصما بسبب فتاة أخرى من « كيل أبادا » . ولكن بابّا أكل الذئب كله . لم يترك حتى العظام . دقّ العظام وأكلها . ثم .. ثم هام في وادي تاناروت ، وصعد آوال . هناك القى بنفسه من صخرة . هوى الى الارض فكانت الذئاب في انتظاره . لقد أكلته الذئاب » . انصت جبارين للرواية وهو يتكئ بمرفقه الى الارض . تابعها بخطوط على التراب .رسم لها مخططا عفويا على الرمل . كان يتابع القصة من فم الراعي ليسجلها في الخطوط . ولدهشته وجد نفسه يثبتها في خطين متقاطعين . تقاطع تانّيت . حفر بسبابته خطا يقف على نقيضه

Twitter: @alqareah

العاشقان . وعندما انتهى الراعى من روايته خرق الخط المستقيم بخط آخر يمثّل بابا والذئب ، فاتحدت الأطراف وأكتملت الدائرة . أتحد العاشقان في الذئب ، واتحد معهما الذئب في نقطة التقاطع . التقاطع يتحوّل الى دائرة . لأن الزوايا في تقاطع تانيت لا تتساوى الا اذا أستكمل الرسم وتخيّل الدائرة .

تذكر الشارة المقدسة التي عبث بها ربّ القافلة ربما كي يرسم له هذه الاستدارة . أبتسم باستخفاف قبل أن يمحو التقاطع بجمع يده . بدأ الرعاة حديثا جديدا حول أهوال الجدب ،حتى انتهوا الى أن المجاعة عمّت الصحراء كلها لأن قطرة واحدة لم تسقط في القارّة . مالت الشمس نحو الغروب واقترب الغسق . عاد ينحني فوق التّراب . أعاد حفر التقاطع على الارض . فكّر قبل أن يرسم قوسا فوق رأس التقاطع . اعتمرت العلامة ، الآن ، طربوشا فبدت مثل أكواخ الواحات المضفورة من جريد النخل . أو .. لماذا لا يكون خباء منسوجا من شعر المعز ؟ ابتسم مرة أخرى قبل أن يغلق الدائرة ويخنق العلامة الجليلة بأفق الصحراء الكبرى . بقوس ثان ، فحوصر التقاطع من كل الجهات ، وتواصل في كل الاتجاهات . الاركان الاربعة تتوحّد ، الآن ، وتتلاقى في الحلقة المجيدة التي صنعها الأفق . كل رأس من رؤوس التقاطع التائهة، المنسية ، تستطيع أن تتصل بالطرف المجاور ، وتمضي للتواصل في الأطراف الأبعد ، في الاركان التي جعل منها انتصاب العلامة القاسي

Twitter: @alqareah

نقيضا يستحيل الوصول اليه . دائرة الأفق المقدسة التي أعادت الأجزاء المتنافرة ،المتضادة ، المغتربة ،الى اصلها ، الى نقطة البدء المجهولة ، عجنت التقاطع المستحيل ، وجعلت منه كُلاً واحدا ، مستديرا ، مثل قبور الأسلاف . الاسلاف وجدوا حلا للغز بالافق المغلق فجعلوا من مثواهم الأخير دائرة تتصل أركانها بكل الأطراف : بالجهات الأربع ، وبالسماوات العليا ، وباعماق الارض السفلى . تعود الاركان القاسية ، الاعمدة المكابرة المرفوعة الى المجهول ، تعود من منفاها ، من لعنة التيه التي علقتها الآلهة في رقاب كائنات الصحراء ، لتتعانق في الجدول الحميم ، لتتحمّم في النّبع الأوّل ، لتصلى في نفس الحرم الذي خرجت منه يوما لتنطلق في سفر الضياع . استعاد الآن كيف كان في الطفولة يعاند كي يجعل العمودين المتقاطعين يلتقيان . الأب قال أن تانيت شاءت أن يتقاطعا كي لا يلتقيا ، لأن التقاطع هو محاكاة للكائنات في الصحراء التي لا تلتقي ابدا اذا انفصلت عن أصلها . وكان ينحني فوقه ويلوّح في وجهة بالمسعر : « هل تستطيع أن تعود الى بطن أمك ؟ » ، فكان يكتم السوال الفاجع : « لماذا لا استطيع أن أعود الى بطن أمّي ؟» ليس لأنه يخشى أن يستفز الأب ، ولكن لأنه يخشى أن يكون في السؤال عقوق في حق الوالدين . الأب كان يدرك السؤال ، فيجيبه مكافأة له لانه لم يعق الوالدين : « اذا سلكنا طريقين متعاكسين ، أحدهما يذهب الى الشمال والثاني الى الجنوب ، فهل نلتقي ؟ » . ولكنه لا يقتنع . يمضي

Twitter: @alqareah

الى المراعي وراء الجداء الشقيّة . يتفقد رموز الاجداد على الصخور . يشاهد الرسوم ويقف طويلا أمام حرف + الغامض . علامة « تانّيت » المقدسة . لغز الصحراء وشارة الصحراويين . التميمة التي يحمل شعارها فوق احجبته الجلدية ، وتزين بها النساء ارديتهن الوردية . يطبعها الرجال بالنار على افخاذ الابل ليحموها من الضياع أو الوقوع في يد اللصوص . تخيطها النساء على اللباس . ويجسدها الحدّادون السحرة في تقاطع مجسّم مهيب في رأس السرج تيمّنا وتبرّكا وطلبا للتوفيق . عمودان صغيران . أحدهما يهجع في امتداد الأفق ، في سكينة الأفق ، في تسليم الأفق . والثاني ينتصب بكبرياء الإلاهة تانيت ، يشق السماء بقامة عمالقة الجنّ ، لأنه يريد أن يخرق الارض ، ويبلغ الجبال . يجتاز الجبال ويطلب الآلهة في السماء. حاول أن يفهم سر العلامة دائما . حاول أن يجد طريقة تكسر قساوة التقاطع، بتغيير وضع الاركان الأربعة في خياله ، ولكن الزوايا تحتل مكان الزوايا ، والركن يشغل محل الركن في عناد بطولي يثير اليأس . وكلما جاهد في ايجاد وضع أكثر مرونة في التميمة ازداد التقاطع تحديا واستحالة . ويستطيع الأن أن يجزم أنه قام ، في خياله ، في ذلك الزمن البعيد ، بنفس المحاولة التي نفذها ربّ القافلة . الآن ادرك أن الشيخ كان يرسم حلقة حول التقاطع بادارة الشارة الفضية بتلك السرعة . تذكر أن ابناء الفلاحين في الواحات يصنعون من تقاطع السعف دائرة بمساعدة الرّيح . سرعة الريح تجعل التقاطع الجليل

Twitter: @alqareah

يدور حول نفسه حتى تتلاشى الاركان تماما، وتبقى الدائرة كتلة واحدة، تختفي فيها الحواف ، وتتلاحم الأركان ، وينتهي الضياع .

فهل كان هؤلاء السحرة الصغار يقدرون أن يكسروا كبرياء التقاطع السّحري لو لم يسخّروا سحر الريح ؟

دبّت العتمة في الوديان السفلى ، ولكن القمم العالية مضت تتحمم في قبضة ذهبية كثيفة من خيوط الغسق ، فتتحول رؤوس الجبال الى قطع ماردة ، مدببة ، من جمر تخلف عن حريق الظهيرة . نيران القيلولة تحرق الصحراء بألسنة من اللهيب الأزرق خلال النهار ، وعندما يجئ أوان الأفول ، وتستسلم الشمس للزوال ، يستميت الشعاع ويتمادى ، فيغمر المرتفعات والرؤوس الجبلية المكابرة بألسنة بلون النّار . ولكن الصحراء ، في علاقتها الخالدة بكوكب النّار ، عرفت مسلك الشمس . فاذا توعدت وانزلت على الارض سيلا أزرق ، استغاثت الصحراء وناحت بالفجيعة ، لأنها تعرف أن الشمس وقتها تتنفس نارا موقدة ، فاذا سكن القرص واحتضر وأرسل من منفاه في الأفق شعاعا بلون النّار ، ادركت الصحراء السرّ ، ورقصت فرحا ، لأنها تعرف أن الشعاع الذهبي هو نار مزيفة ، لأن تنين الأساطير القديمة لا ينفث نارا بلون النّار الا اذا ركع ويئس واصابه العجز . الشمس أيضا تستعير مسلك سكان الصحراء الاوائل الذين يسمّون الاشياء بنقائضها ، ويرسمون على الحجارة علامة تدل على الطريق المعاكس اذا شاءوا أن

Twitter: @alqareah

يضللّوا الأغراب في الوصول الى آبار المياه أو مواقع الكنوز . فاذا نفثت الشمس اشعة الذهب عرفت الصحراء أن خصمها يحتضر ، فتتعرّى ، وترقص ، وتغني ، وتتسلّى بالتحمّم في فيض النيران الذهبية المطفأة . رآها جبارين تتحمّم ، وقال لنفسه أنها تتأهب للتعرّى ، وسوف ترقص عندما تستيقظ حبيبات الرمل وتعود من منفاها في الفناء ، لتقرع لها الطبول وتغني مواويل الشجن والحنين والميلاد .

صعد الوادي . تمشى في العراء المفروش بكساء من الحجارة الأفقية السوداء . كأنها افحوص من النوع الذي تتقن الطيور البريّة بناءه في الخلاء وإن كانت حجارة الحضيض اكبر حجماً واكثر سواداً من الحجارة التي تستعملها الطيور في تشييد الافحوص .البساط الأسود تمدد شمالا مسافة طويلة، فاخترقته أخاديد متفاوتة العمق ، حفرتها بنات الأرض التي تتدفق عندما تتجمع المياه فوق فراش الحجارة ، في المواسم المطيرة ، لتفيض في النهاية، وتندفع الى الاسفل ، تتسلل عبر شقوق الفرش الحجري بشقاوة الطفولة، تتحايل على الحبوس التي تعترض طريقها، تتجنب الصخور القاسية ، باحثة عن مسالك سرية تقود الى منحنيات لا تراها العين ، ولا تعرفها الا الأرض العطشى . والمنحنيات تقود مستويات واعدة بالانخفاض . هنا تستعين المياه بمرونتها وشقاوتها واعجازها لتحفر بيدها أخاديدها التي يعتمد مستوى عمقها على مدى انخفاض الارض وتجاوبها في استقبال السلسبيل السماوي ، كي يصل

Twitter: @alqareah

الى الكنوز الدفينة في الاسافل من أقصر طريق . يتجمع في جداول ليلتقط الانفاس ويستجمع قواه ، ليندفع في خيوط تبدو بائسة للعين ، ولكنها نافذة الى اسفل ، الى خندق ينزل بها الي منحدر يقود الى الوادي العميق . في الوادي فقط يمكن مشاهدة المعجزة . فالقطرات المتباعدة الصغيرة ، البائسة ، التي تنزل على السّجاد الحجري الفاجع ، تتحول ، باستمرار الرذاذ ، الى سيل مارد يجرف في مسيرته الأنام والانعام ، يصرع الصخور ، ويطيح بأعتى الاشجار. تتحول القطرات التي يضرب بها الصحراويون المثل في الوهن الى مارد يضرب به الصحراويون المثل في الغدر والسلطان والجنون والقوة . تلك القوة المجهولة التي تجعل من الزّخات الكسولة ، المتراخية ، الواهية ، ساحرا آخر يفوق كل المخلوقات الصحراوية سحرا ولؤما وذكاء . هذا السرّ، هذه القدرة السحرية هي التي تنبت الارض الميتة عشبا ، وتبدع في الصحراء الحياة .

ولكن الرعاة الكسالى يصرّون على تعميم البلاء ، ويرددون في مجالسهم أن المطر خرافة انقطعت كما انقطعت خرافات كثيرة في الصحراء . فهل يصدقهم ؟ هل يقتنع بأكذوبة الجدب ويكذّب مسلكاً عرفه في الصحراء أكثر من رعاة كل الصحاري ؟ هل يركن الى التراب ويستسلم لليأس فيخالف وصية آنهي التي أخبرت الأجيال أن قدرها هو الرحيل ، والموت سيحل مع اليوم الذي يتوقف فيه عن السفر

Twitter: @alqareah

ليبني بيتا أو كوخا أو يركن الى أرض مكتفيا بالاسترخاء ، قانعا بامتصاص حبّات لنوى تلقاها صدقة من أرباب العبودية في الواحات ؟ عرف غزلانا عجيبة لها طبائع ذكرته بمسلك هؤلاء الرّعاة. تتجمع في قطعان ، تعتصم بوديان جدباء لتتخذ من الحشائش الميتة والعليق اليابس معاشا طوال مواسم الجفاف ظنّاً منها أن البلاء عمّ ، والجدب شمل الصحراء ، في حين ترتع قطعان أخرى في بساتين من العشب الأخضر ، في الوادي المجاور الذي فاض بسيول السحب العابرة مرارا خلال العام . لكن الغزلان التي تجهل مزاج الصحراء وسرّ المطر تهلك اذا لم تستكشف ولم تستطلع . وهي لن تستكشف ولن تستطلع اذا لم تهاجر. فاذا لم تهاجر خانت الوصية الأولى في الشرع ، وحكمت على نفسها بالموت . فمن آمن بالخمول واتخذ من الاستقرار إلها كفر بالناموس القديم ونال قصاص الصحراء . سحرة القبيلة نالوا هذا القصاص منذ أن جمعوا القبيلة في نجوع ، وانتظروا أن يأتيهم العابرون والاشباح بأخبار المنّ السّماوي . استسلموا للأرض وتوقعوا البشائر من الجن المتنكرين في ثياب المسافرين وتجار القوافل . استقرّوا ، فوجد الجنّ فرصتهم في الانتقام من الاعداء القدامى . نقلوا لهم الأخبار الكاذبة زاعمين ان الجدب عمّ ، والجفاف لعنة شملت كل الحمادة ،كل الصحراء . الاستقرار سمّم عقول السحرة كما سمّم ابدانهم ، فصدّقوا الأكذوبة ، وتجادلوا حول النبوءات ، وتراشقوا بصحائف العظام ، وكفروا بدين

Twitter: @alqareah

الهجرة، وخانوا العهد القديم .تخلت عنهم « تانيت » كما تخلّى عنهم الاسلاف من قبلها فاستولى عليهم « وانتهيط» وحده . ولم يكن صعبا على وانتهيط أ ن يقلب السّحر على السحرة ويحوّل هؤلاء المردة الى مخلوقات بائسة لا حول لها بعد أن زيّن لهم الخمول ورضوا بالاستقرار وطنا . استدرجهم كي يخونوا شريعة الاسلاف والصّحراء وتانيت . وانتهيط صنع الفتنة وقادهم الى الفخ ثم تخلىّ عنهم عندما جاء يوم الحساب وبدأ الاحتجاب .

فالسّحر الذي يتحصن به سحرة القبيلة ويستمدون منه قوّتهم وحكمتهم يتخلّى عنهم حالما يتخلّون عن شرع السّحر . واذا تخلّى السحر عن الساحر خسر الرّهان مهما أدّعى البطولة بعد ذلك بالذهاب للاحتجاب في الخباء . حاكوا الغزلان البلهاء وحبسوا أنفسهم في زاوية شقية من الصحراء الواسعة . رهنوا رقابهم في ركن مظلم من اركان التقاطع الأربعة ، ولم يجدوا في انفسهم الشجاعة كي يصنعوا من التميمة افقا الهياّ يحتوي الصّحراء كلها عندما يتحرّك ، بمشيئة الريح، ويسبح في فلك الملكوت الصحراوي الخالد .

(٣)

سافر جنوبا . بعد أيام نزل الواحة . ادرار . تتخفى خلف الجبال الزرق، تحتمي بالسلسلة الجليلة فزعا من بطش عدو ابدى استعان بالقبلى يوما كي يمسخ الفردوس الأول ، ويحوّل واو الكبرى الى صحراء

Twitter: @alqareah

كبرى : الرملة !

هذه الساحرة التي تهب من مكان مجهول في الجنوب الاقصى، بسرعة الجنّ ، ومرونة الحيّة ، وفتنة الانثى ، وسحر التّبر . تغوي الارض فتستسلم لها ، تغوي الجبال فتنحني وتركع ، تهدهد الكائنات بنعومة الحسناء، فاذا أطمأن الفردوس الوديع ، بدأت تبتدع الحيلة وتنسج خيوط المكيدة : تغمر الأنهار والآبار وعيون الماء بأكداس من حبيبات التّبر . تنزل الى الاعماق السفلى وتمتص النداوة وتمنع الحياة عن الجذور . تستغيث اشجار النخل وتولول حقول الحنطة والشعير . تصعد المرتفعات وتذفن الروابي وتتطاول الى الينابيع في الجبال . تقرع الطبول وتبتدع رقصة لعوباً . فاذا انخدعت الجبال النبيلة وأخذها الغناء ، وجدت الافعوان الذهبي يلتف حول رقبتها بمرونة الحيات وفتنة النساء . ولكن الجبال المأخوذة بسحر التّبر لا تقاوم طويلا . تنهار وتركع وتنسى الكبرياء . تتمرغ في الوحل وتختنق بالتراب والهباء . لحظتها تبتعد السماء عن الأرض رعبا ، وتأخذ معها أمطارها السخية .

بهذه المكيدة قضت الرملة على الفردوس الأول وابتلعت « واو الكبرى». واو التي نسيتها الأجيال ولم تعد تذكر من اسمها القديم سوى صفة بائسة ملحقة بالاسم الزائل : « الكبرى » . في حين احتلّت «الصحراء » الاسم كما استولت قبلها على الوطن المجيد نفسه . على انقاض هذه المملكة النبيلة ، على تخوم فردوس ما زال ينام في احشاء

Twitter: @alqareah

الارض ، قامت واحات هنا وهناك . تغذيها عيون تستمد مياهها من ينابيع واو الأصيلة ، يتكأكأ عليها الفلاحون كل عام ليحفروها ، ويعمّقوها ، ويزيحوا أكوام التّبر اللئيم ، خوفا من ان تنتصر الجبال الرملية التي تطوقها من جهات ثلاث (الجنوبية ، الغربية ، الشرقية) فتخنقها وتطمرها كما طمرت ينابيع واو القديمة . ولم يتنفس الأهالي البؤساء الا عندما دخلت النخلة طرفا في العراك مع الريح . اوقفت الشجرة النبيلة زحف العدو ، وساعدت الفلاحين في صدّ حملات الرملة ومنع ألسنتها الشرهة من الوصول الي العيون .

آدرار أيضا أنقذت عيون الحياة من الموت ، وزرعت النخيل والبقول والخضر وحقولا من الحنطة والشعير والذرة . ولم تكن خيرات الأرض وحدها سرّ ازدهار الواحة ، ولكن موقعها المتاخم لجبال الحمادة من الشمال جذب لها القوافل المتجهة الي بلدان الادغال طلبا للتّبر والعبيد ، وساق اليها التّجار العائدين الي ممالك الشمال محمّلين بقوافل الكنوز وجيوش من الأسرى المماليك . في آدرار يتزودون بزادهم من الماء والمؤن ، يتبادلون البضائع ، يقايضون العبيد بالسلع ، أو يشترون رؤوس الاغنام أو أكياس القمح أو أكيال التمر مقابل التّبر أو العاج أو رؤوس العبيد .

هذا السحر المتخفي في التبادل ، هذه المعجزة التي تبتدعها المقايضة ، هذه القدرة التي لم تخلقها حرفة مثل حرفة التجارة ، هي

Twitter: @alqareah

السر الذي صنع من ادرار ملتقي القوافل ، وجعل من واحة منفية ، مهدّدة بالرملة ، حتى أنها تبدو في ذلك الحضيض بلا أمل في النجاة ، حرما مقدّسا يتبرّك بزيارته كل من أراد أن يجرّب حظّه يوما وسلك طريق الصحراء بحثا عن الثروة وطلبا لكنوز الذهب . وحيثما انتعشت التجارة ،وعلا صيت المقايضة ، وفاحت رائحة الذهب ، هرع السحرة واقاموا لانفسهم سوقا لصهر الاخلاط واستخلاص المعادن ، وتقويم الحديد . كأنّ سوقهم شرط مكمّل للسوق التجاري الكبير ، سوق الحياة، حيث تباع ارواح النّاس وتمتلك ، كما تباع أكياس التّبن وتمتلك. ويقول الحدادون أن التجارة ستنتكس ، والافلاس سوف يصيب اغنى التجار ، والتّبر سيتفسخ الى رماد ، ويعود الى أصله ، اذا لم يتحصّن هذا النعيم بسوق آخر، بتميمة أخرى ، من أخلاط المعادن ، وقوة الحديد. والنّار التي يصهر بها الحدادون الحديد والنحاس والمعادن في الأفران هي التي تخيف الجن وتأكل المردة الذين يطاردون القوافل لاسترداد ثرواتهم المنهوبة .

أحد هؤلاء السحرة الخبثاء قال له أن التجار الحكماء وحدهم ادركوا سرّ المعدن ، واعترفوا بقدرته على حماية حمولات التّبر . فلا يشتروا الهباء الممسوس الا اذا أحاطوا الاكياس بسلاسل مخيفة من حديد الحدادين .ولم تصل حمولة من كنوز الصحاري والادغال الي ممالك الشمال اذا لم تتحصّن بحرز من سلاسل الحديد . أما التجّار

Twitter: @alqareah

البلهاء الذين يدخلون القارة بروح الغزاة معتمدين على مواهبهم ، متباهين بقواهم ، فانهم يقعون في الفخّ اذ يغفلون عن تحصين الذهب بأغلال الحديد ، فيسلّط عليهم الجنّ الحيات والافاعي ، أو يسخّر لهم مردة في لباس اللصوص ، أو قطاع الطرق ، ليقضوا على القافلة . وقد يتولى الجنّ الأمر بنفسه فيأتيهم في أمواج العجاج ، أو يعترض طريقهم برياح القبلي ، ليضيعوا ويموتوا عطشا . ولا يكف أهل الظلمات عن ابتداع الحيل حتي يصلوا الى ثروتهم ويستردوا كنوزهم . في النهاية ضحك الحداد السّاحر واضاف: «هؤلاء البلهاء يظنّون اننا نحرّض الجن لنروّج لبضاعتنا . أنا أعترف أني اخترع حيلا كثيرة كي أروج لبضاعتي أيضا . اذ من منّا لا يروج لبضاعته ؟ ولكن البلهاء لا يصدقوننا الا عندما يخسرون بضائعهم . عندها يكون الاوان قد فات ، لأن التاجر الذي فقد صفقة العمر لايجني التعب وحده ، ولكنه يخسر حياته أيضا مع بضاعته» . كان ساحرا ببشرة نحاسية في الأيام التي لا يقترب فيها من النّار ، ولكن بشرته تتشرب عتمة قاتمة ، وتستعير لون القصدير اذا خرج للتوّ من مغارته التي يخفي فيها فرنه السّحرى . استضافه في زيارته الأولى للواحة عندما كان يزاول الرعي في الحمادة ، وسافر مرارا للبحث عن الابل الضالّة ، وتزوّد من ادرار بالماء والتّمر والشعير . في زيارته الثانية جاء له من الحمادة بالترفاس المجفف وشاة غزال مقدّدة . وجاءه اليوم كي يساعده للحصول على الصحراء في الافق المستدير .

Twitter: @alqareah

جاءه كي يجعل من العلامة القاسية كرة طيّعة ، كي يجد حيلة تنهي اغتراب الاركان ، وتدمجها في كوكب له حنان الأفق في الحمادة ، ودفء الصحراء في وعدها بالماء . ضحك الساحر العجوز وداعبه : «لا أعرف ماذا كنتم ستفعلون لو لم نأخذ لكم من الارض سرّاً ، ارهبتم به عدوّكم ، ونصركم على سكّان الظلمات » . دخل الى كهفه المحفور في حضيض جبل يتوسط الواحة ، يتسلقه الاهالي بالبنيان ، ويتخذ الحدادّون اسافله أحافير لأفرانهم السّحرية . مكث في الدهليز ومضات، وعاد من هناك برواية المعدن الذي قهر الجنّ. غسل يديه في فم الكهف ، اشعل نارا ، أعدّ له كوبا من الاعشاب البرية ، ثم اشتكى طويلا من القيظ والذباب ووحشة الحياة في الواحات . ثم شاء أن يسليه على طريقة النبلاء الحكماء الذين يسامرون الضيوف الأكابر بأساطير الأولين ومغامرات القدماء . روى له كيف أحتار الأسلاف في مقاومة الجنّ قبل أكتشاف الحديد . كانوا يرعبونهم ويتبدّون لهم في أجسام الغيلان وأبدان السّعالي ، يفزعون قوافلهم ، ينهبون الابل من الرعاة ، يهشونها في غفلة من المسافرين ، ليتركوا اصحابها ضحايا تحت رحمة العطش في خلاء خال من الآبار . يتسللون الى البيوت ليخطفوا اولادهم ليتخذوا منهم عبيدا ، أو يسرقون بناتهم ليزفوهن للازواج المردة ، أو يهبوهن لملوكهم قربانا وزلفى ، ليجدن انفسهن محظيات بائسات في حريم من الجنيات الفاتنات . شنوا عليهم الغارات ، ونشبت

Twitter: @alqareah

بينهم الحروب . توقف الحداد عند الغزوات طويلا . وقال أن ليس هناك بلوى مثل أن تحارب عدواً مجهولا يحتمي بالخفاء . ومن حسن حظ الجنّ أن الهراوات والادوات الحجرية هي الأسلحة الوحيدة التي كانت تستعمل في قتال ذلك الزمان . لأن الاهتداء الى اختراع الأسلحة المصنوعة من النحاس أو الحديد أو أخلاط المعادن هوالذي ارهب الجنّ ووضع النهاية لسلطانهم على الصحراء . وعله من المدهش أن يتسبّب فنّ نبيل ولا غنى عنه لأهل الصحراء مثل الغناء في خسائر في الارواح فاقت تلك الخسائر التي كان الاجداد يمنون بها في ساحات القتال . تناقلت الأجيال أن لا نجاة لصحراوي ادركه « آجولل » . فما أن ترتفع الاصوات بالألحان الشجنية ، وتقرع الطبول التي تجاري الايقاع ، حتى تشتعل صدور الفتيان بنار الوجد ، ويتلبّس الكلّ الجنّ . يصابون بالبكم، تحرق ابدانهم الحمّى ، يرتجفون كالسعف ، تغيب أبصارهم وراء الأفق ، تفتش عن المجهول في الفراغ ، يظلون مشدوهين ، وحمرة مثل شفق المغيب تزحف على البياض في عيونهم ، تضيق أنفاسهم وتضيق ، تنحل عقد عماماتهم فينحسر اللثام عن الرؤوس ، عن الأنوف ، عن الشفاه المنفرجة التي يفز منها زبد كثيف كالجمال القريعة في موسم الربيع . في العيون يتبدّل الانشداه ويتحول الى ألم ، ففجيعة . تشتد الرجفة وتشتد، ثم .. يسقطون ارضا ، يتلوّون على التراب كالافاعي ، قبل أن تتخلى الشعلة المقدسة عن كوز الطين ، تفرّ الى الخفاء ، وتهجر مأواها

Twitter: @alqareah

الى الأبد . وكان كل من وقع في « آجوللل » من الفتيان النبلاء خسرته القبيلة وعدّته مفقودا . وبرغم عشق الشبان للغناء الا ان الجن سممّه وجعل من ارتياد حلقات السّمر الليلية مجازفة كبيرة . وكما رجع الفضل للسحرة في اكتشاف اسرار الحياة في الصحراء ، فانهم كانوا أول من صنع التميمة عندما اخترعوا سكينا من حديد . ويرُوى أن ذلك حدث بمحض المصادفة . اذ لاحظ كبير السحرة أن الشبان الممسوسين الذين يسقطون فوق حجارة الصوان يعاندون الموت زمنا أطول . بل أنهم لا يهجرون أوعيتهم الا في تلك الحالات التي يهبّ فيها الآخرون لابعاد الحجارة بقصد مساعدتهم . فما كان منهم الا أن جمعوا حجارة الجبال الزرق وحرقوها في مواقد هائلة ليستخلصوا منها السر الذي أرهب الجنّ . وقد جرّبوا التميمة على رقاب الشبان المصابين بمسّ جنّ جاءهم عن طريق الغناء ، فوجدوا أن جرّ المدية الحديدية على جسد المشدوه ينحر أهل الخفاء ، فيشفى المصاب ، ويقفز الى حلقة الغناء وهو يحجل ويرقص ويتمايل مع النغم . وانتهى صديقه الساحر، في ملحمة التّباهي بمهنته ، الى القول أن عليه أن يتخيل حياة الصحراء دون مدية ، أو سكين ، او رمح ، أو سيف ، حيث تستطيع أغنية شجية واحدة أن تسلّط عليه عددا من الجنّ يكفي ليأخذوه معهم الى الظلمات في غمضة عين . أخيرا ضحك كعادته واختتم ملحمته الشقية مداعبا : « عليك أن تحمد الإلهة تانيت التي حالت دون أن تولد في ذلك الزمان الذي كان

Twitter: @alqareah

فيه الشباب النبيل يتجنب أن يقترن بالحسناء التي تعشق الغناء خوفا على نفسه من المصير البائس » ، هنا وجد جبارين الوقت مناسبا كي يطرح عرضه على صديقه القديم . أخرج له مديته ووضع أمامه سيفه ، وطلب من الحدّاد الساحر أن يحيط شعار تانيت المتقاطع ، عند المقبض ، بحلقة من النحاس . وضع أمامه احجبته أيضا ليحفر على جلدها التميمة بنار السّحر . ثم طلب منه أن يعد له حصنا مربع الاركان محشورا في أفق مقفل . نفس الحصن الذي رآه في الحلم ، ووجده مرسوما في الصباح بدبيب النمل على كوم الرمل . ابتسم الساحر قبل أن يتمتم : « لا أعرف ماذا كنتم ستفعلون لو لم نأخذ لكم من الارض سرّاً ، ارهبتم به عدوكّم، ونصركم على سكان الظلمات » .

(٤)

اجتاز الحزام المخيف الذي أقامته الرملة لتطوق الواحة من الجنوب. في وادي الآجال أقام أمدا كافيا كي يعيد لناقته العجفاء عافيتها بكلأ غابات الطّلح . ففي الصحراء الوسطى حرقت نيران القبلى الارض منذ الازل ، ولم تغلبه سوى شجرتين: النخلة والطلحة . ويرجع الحكماء والسحرة القدماء سبب صمود الشجرتين الى مياه البحيرة السفلى التي قامت على ضفافها حضارة واو الكبرى ، وطمرها ريح الجنوب مستعينا بالرمل اللعوب . ولكن ارادة الصحراء، ارادة الحياة في الصحراء ، غالبت الرمل ، غلبت جنون القبلى ، واختارت أن تبقي الشجرتين على

Twitter: @alqareah

قيد الحياة ، لأن حكمة وطن الرؤى السماوية رأت ، بعقلها الخفي ، أن النخلة ليست مصدرا لرزق أهالي الواحات وحسب ، ولكنها شجرة على الأهالي أن يعبدوها ويعترفوا بقداستها لأنها العنصر الوحيد الذي يقاوم زحف الرملة ، ويحمي الواحات من غول الزوال . واذا كانت النخلة هي الشجرة التي اختارتها الصحراء وحمّلتها سرّ الحياة في الواحات ، فان الطلحة هي الشجرة التي نالت القدرة على التحمّل والصبر على العطش في المراعي ، فحمت القطعان من الهلاك وانقذت الرعاة من الموت جوعا . ولا تخلو ملحمة واحدة من الملاحم الشعرية الكثيرة التي تناقلتها أجيال الصحراويين منذ القدم من أبيات تمتدح الطلح وتمجّد النخل وتؤكد أن في الشجرتين يكمن سرّ الحياة في الصحراء . ولا يستطيع الصحراويون أن ينسوا ماتوارثوه ، منذ الازل ، من نبوءات تقول أن زوال النخل وانقطاع الطلح من القارة هو العلامة على قيام الساعة .

وعندما بلغ جبارين وادى الآجال ورأى الاقنعة الخضراء وهي تلف رؤوس الطلح أيقن أن الحياة لم تنقطع من الصحراء ، والهول الذي تحدث الرعاة عن شموله هو خرافة زينّها لهم « وانتهيط » اللعين كي يشدهم الى الفناء كما يشد الغباء الغزلان الشقية الى الوديان الجدباء . أيقن أيضا أن الأسلاف كانوا حكماء عندما سنّوا شريعة الهجرة وجعلوا من العبور عرفا لكل من آثر المقام في وطن الرؤى السماوية . وصدّق

Twitter: @alqareah

الأخبار التي يرددها الخبيرون بمسلك الرمل ، العليمون بطبيعة الصحراء، عندما نبّهوا الأمم الى قدرة الزمل في حماية النداوة ، وكفاءة الذرّات القدرية في الاحتفاظ بالماء مخزنا في الاعماق .

في الوادي المحشور بين الماردين المتعاديين ، الرملي من الغرب ، والجبلي من الشرق ، ترك الناقة ترتع في غابة ، جعلتها الأرض السخيّة ذخرا لكل من يئس وجاء طلبا للنجدة ، وتطاول في شريط جبلي حزين نبتت في سفوحه قبور الاولين كدمامل خرافية وامتدت يد المغامرين الاشقياء والطامعين فنبشتها بحثاً عن الكنوز ، فبقيت افواهها فاغرة ، تدين الطمع والطامعين ، وتشهد بحضارات نال منها الزمان فزالت ، ولم يبق منها سوى الدمامل الحجرية المفتوحة ، ورموز ب« تيفيناغ » اختطتها على الصخور أجيال ترفض الزوال وترى أن الانسان يقدر أن يقهر الموت ، اذا حفر اسمه على الجدار الصخري ، أو سطّر حكمة بجوار قطعان الودّان ، مقدّما ، بذلك برهاناً يثبت به للأجيال أنه عاش يوما، وارتكب الخطيئة باصطياد الودّان المقدس ، لأنه انسان . والانسان لا بد أن يأكل إلهه عندما يجوع .

في وادي الأجال والآجيال استقبل جبارين رُسل وانتهيط . جاء الجنّ المسخّرون متنكرين مرّة بثياب الرعاة ، ومرتين متنكرين في اثواب النبلاء . قالوا له أن « مساك ملّت » فازت بالسيول ، وكل الانظار تتجه الآن الى المشرق ، لأن السيول المزعومة ستجعل من تلك الارض جنة

Twitter: @alqareah

في القريب .ولكن جبارين لم يقع في الشرك الذي وقع فيه سحرة القبيلة عندما قبلوا أن يركنوا للأرض ويتسقّطوا أخبار المطر من العابرين المزيّفين ، من اشباح الجن المتنكرين في مسوح المهاجرين والتجار وعابري السبيل . ذهب الى ناقته وحدّثها طويلا عن حيل وانتهيط ومكائد الجنّ، ثم اخبرها أنه سيحتكم الى فراستها ، فهي أكثر علما من كل قبائل الجنّ، وكل سلالات الانس ، أين سقط المطر . حلّ الوثاق ، وحرر ساقيها من القيد . انطلقت غربا بدل أن تتجه شرقا . ابتسم وهو يراها تسلك الطريق المعاكس وأيقن أن خبر هطول الأمطار في « مساك» ما هو الاّ مكيدة من مكائد أهل الخفاء . تبعها على قدميه مسافة طويلة قبل أن يتأكّد أن الدابة الحكيمة جادّة في خيارها . لحق بها عند سفوح الرملة ، أحكم فيها اللجام وأعادها بالقوّة الى الموقع . أعاد التجربة ثلاث مرّات ، ولكن الناقة لم تختر اتجاها آخر ، ولم تتراجع . ثبّت عليها السّرج ، وحمّلها المتاع ، وارخى لها العنان . وقفت بكبرياء . تابعت امتداد الخلاء الموجع الذي يتوالد ويتواصل في أفق قاس يغمره السّراب . انصتت لسكون الظهيرة في وجوم المصلين ، تلتقط الوحي المقدس في أنين السكون . تفتش عن النداوة في هواء القيلولة الميّت . ولكن ركود نسيم القيلوله لم يخدعها ، لأنها تلقت النداء الخفي بحاسة اخرى ضربت صدرها بخفها كأنها تطرد الذباب اللّجوج ، ثم لبّت النّداء وتحرّكت غرباً ، نحو آزجر.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

٤- الوطن

« لقد كانت الصحراء دائما وطن الرؤى السماوية »

روبرت موزيل

« انسان بدون خصال »

Twitter: @alqareah

(١)

كانا يستلقيان باسترخاء تحت الطلحة . استرخاء يختلف عن الاسترخاء الذي يعقب التّعب ، أو الاسترخاء الذي يمليه الحر ، واعتاد الصحراويون ان يمارسوه في القيلولة ، ولكنهما استسلما لاسترخاء آخر لا يعرفه الأ من اعتزل في الخلاء طويلا ، وتعلّم أن يتصنّت في السكون ، ينزل ضيفا على قبائل الخفاء ليخاطب الرؤى السماوية بلغة المجهول . استرخاء السحرة عندما يجتازون البرازخ ، ليطوفوا السماوات والأرض . يخترقون أبدان الخلق ، يدخلون في الأشياء ، مستعينين بسلطان اللّحون .

جبارين رفض الالهام ، وكبت الغيبوبة ، الا أن حمّى الاستهلال، قشعريرة البدء ، وحدها تكفي لصرعه ، ورميه بالتعب أياما .

لم يواصلا المسير في العشية ، لأن اغنية بورو عن « الارض اذا تبسمت..» اختلست منهما الزمن ، أو جعلت الزمن يختلسهما من آلون، ومن الصحراء كلّها ، فهو وحده القادر على أن يطوف المجهول في رمشة ، بنفس الموهبة ، وبنفس السرعة ،التي يختطف بها الحياة من الظلال التي تتسكع في الصحراء وتثقل كاهل الارض . حتى اذا عادا (بورو وجبارين) الى نقطة الانطلاق ،الى آلون العظيم ،وجدا أن

Twitter: @alqareah

القيلولة قد مضت ، والعشية انقضت ، وميعاد الغذاء قد فات ، ولم يبق من اليوم سوى الغسق ، فقررا ، دون أن يتفاهما بلغة ، أن يقضيا ليلتهما تحت الطلحة . فهجعا، وتلذّذا بالاسترخاء ، وراقبا السماء العارية ، وانصتا للسكون الذي عجزت كل اللغات ، بما في ذلك لغة السحرة ، لغات الجن جيمعا ، أن تكشف سرّه ، أوتفك له رمزا ، لقد شاء الناموس أن يرفعه فوق لغة الخلق ويجعله خارج الكلام ، ليصبح التعبير عنه مستحيلا، وتفسيره اعجازا . فورد في ميراث الصحراويين (نقلا عن الكتاب الضائع) أن الصحراوي لا يملك ازاء السكون الا أن يتصنت ، ويشهق شجنا .

في هذا الوقت ، وقت الغسق الذي تخرج فيه أشرار الجنّ من الكهوف ، وتسعى في الصحراء ، سمع بورو الدمدمة ، في حين لم يسمع جبارين سوى الأنين المقدّس ، الموجع ، الذي ينزل الى الحضيض فيستحيل بكائية فاجعة ، ثم يعود فيسمو ويسمو ، ليتحوّل ، بالتدريج ، الى لحن شجى لن يصدر الاّ من حناجر أهل الرؤى . لم يكن يسيرا على من لم يعش في آزجر ، ولم يخبر شعاب « آلون » العظيم ، أن يلتقط النشاز في لحن الصمت ، في اغنية السكون المقدس. ولكن الخلل ، في موّال المولى ، لم يفت بورو ، فقفز جانبا كمن لدغته حيّة ، زحف على ركبتيه ويديه ، قبل أن ينكفئ على وجهه ، ويلصق أذنيه بالتراب . أغمض عينيه امعانا في التركيز ، وتسخيرا للحواس الأخرى،

Twitter: @alqareah

لتصير كلّها ، آذانا صاغية . تابعه جبارين وهو ينكفئ على وجهه لا ليلثم الصحراء كما تفعل السماء في نقطة التلاقي ، ولكن كي يعطيها أذنه ، ويسمع من فمها الخبر اليقين . فوق كفيه المغروستين في الرمل رأى النمل. كان الجند يتلاحقون في طابور عنيد ، بعد أن شقوا طريقا يتحلّق حول الطلحة ليصنع دائرة ذكّرت جبارين بقبيلة النمل التي وجد نفسه يتوسّدها في الحمادة قبيل النزوح الى الجنوب . حركة بورو اربكت طابور الجند ورأوا فيها عداوانا من قبائل العمالقة ، خرقت خطوطهم الامامية ، فتنادوا ، تراكضوا ، تصايحوا، وهم ينفخون مزامير الخطر ، ويقرعون طبول النفير . صعدوا كفّ العملاق ، عملوا فيها عضاً ونهشا، ليصدّوا المعتدي ، ويصلوا الفيالق الخلفية بالخطوط الامامية . ولكن العملاق واصل ركعته . ولم يرفع رأسه الا بعد أن سمع جبارين الدمدمة بالأذن المجردة . دمدمة مكتومة ، خفية ، تلوّح بوعد يهدد السكون ، يبتلع نداء الأبدية .لقد داست على القداسة ، وقهرت الجلال ، وهتكت السرّ، فولول السكون مودّعا . ناح قبل أن يتراجع الى وطن الغموض والحلم والرؤى .

اقتربت الدمدمة . اقبل الهدير ، وصل الجلمود الذي ساقه السّيل من أعالي الوادي . فأين تجمعت السّحب ؟ ومتى سقطت الامطار ؟ أيكون النسيم البحرى هو الذي أسال الأعالي الجبلية ؟ اتكون الصحراء قد احتكمت الى مسلكها القديم عندما يقرّر القدر أن يهلك بيدها

Twitter: @alqareah

القبائل ؟ ألم يرث أهل الصحراء التحذير من « آنهى » في النبوءة الضائعة التي تقول أن عليهم أن يحترسوا من غدر ثلاث : جمل هائج ، عبد حاقد ، وسيل لا يعرف متى موعده؟

هب جبارين واقفا .توثّب للانطلاق الى حاشية الوادي ، ولكن الخوف من العار جعله يتمهّل . رمق بورو فلم ير في عينيه تعبيرا ينذر بالسيل . في مقلتيه لمع تعبير آخر . قلق ؟ فضول ؟ وجْد الغيبوبة ؟ بلى . انه أقرب الى الوميض الذي يسبق سقوط المجذوبين الذين صرعتهم اللّحون ، ولكن في المقلتين لم يلمع الخطر يقينا . وقف بورو . التفت يمينا ، ثم يسارا . علا صوت الهدير. اقتربت الدمدمة أكثر . تكلّم بورو أخيرا :

– آمغار !

– ما تنّيد؟ *

– بوشا !

– لا أفهم ..

جاوبه بغمغمة ضاعت في الدمدمة . هبّت العجاجة في تلك الغمضة .لم تهب هبوب الريح ، ولكن ذيل المطيّة ، مطيّة الجن ، ومركوب اهل الخفاء، ارتفع الى السماء ، وحجب شعفة الجبل التي تمتد

---

* ماتنيد : ماذا قلت ؟ (تماهق) .

Twitter: @alqareah

طورا مستطيلا يحرس « آلون » من الجنوب . وفي جوفها،في جوف الغبار المارد ، تخفّى الرعد ، اختبأ غول حاول ان يكتم دمدمته . وفي نفس الومضة التي فز فيها جبارين ، ليتنحّى جانبا ، ويهرب من وجه المطيّة المشئومة ، أصيب بالعماء ، قبل أن يتلقّى الصدمة الموجعة التي صرعته ارضا. ويبدو أن الارتباك جعله يقفز في الاتجاه المعاكس ، نحو المركبة ،بدل أن يتنحى شمالا ، أو يستسلم للوادي ، ويجري شمالا مع المجرى كما فعل بورو ، فارتطم بجسم المارد الذي يقود المطية بسرعة الجن ، ويتسترّ بالغبار . في البداية استنشق حفنة من التراب ، من الغبار ، ثم انهالت عليه العجاجة بحبيبات الرمل فرأى نفسه في سحابة قانية . بعد الستار القاني نزلت في مقلتيه الظلمة والدمع ، و.. تلقّى الصدمة .

والحق أنه لم يتيقّن ، حتى بعد مضي سنوات على الحادث ، عمّا اذا كان قد تلقى صدمة حقا ، لأنه لم يعد يذكر شيئا منذ الومضة الصاعقة التي وجد فيها نفسه في الظلمة . بورو قال أنه لا بد أن يكون قد فقد الوعي ،لأنه لم يحدث لمخلوق في الصحراء أن شاهد آمغار دون أن يصاب قبلها بالغيبوبة .وقال أيضا أنها غيبوبة لا تختلف عن تلك التي يصاب بها عشاق الغناء عندما يمسّهم سلطان اللّحون . ولكن ما يذكره، ولن ينساه أبدا ،أنه أحسّ بسعادة عجز عن وصفها باللغة ، ولا يستطيع اذا استعاد ذكراها الا أن يرتجف ويفز من عينيه الدمع . أرجع السبب الى الجن . فلم يفت السحرة أن يوكدوا دائما أن الانسان لا يلاقي أهل

Twitter: @alqareah

الخفاء الا اذا استغفلوه في نوم أو أماتوه بصدمة يعود بعدها الى الوعي ، أو اغماءة ، او غيبوبة الوجد ، أو اذا تستّروا بلباس أهل الصحراء وتبدّوا بثياب الانس . وهم يفعلون ذلك شفقة على المخلوق من فزع ربما ذهب به الى الابد . كيف تحتمل الظلال الشقية التي تثقل كاهل الارض لقاء مخلوقات تصاب بالدوار والصداع والحمّى اذا اشتمت لها رائحة ، وتشتعل أبدانها بالقشعريرة اذا صادفتها في الطريق مجرد المصادفة ؟ كيف يحتمل الانسان لقاء الجان اذا لم يتبدّ ، ويتنكّر في اسمال الرعاة ، ومسوح العابرين ؟ فالانسان يلفظ انفاس الحياة اذا التقى الجان وجها لوجه ، مع توفر شرط العلم المسبق بصفته الرهيبة ، ليس لجبن في نفسه، ولكن لوهن زرعته الطبيعة في سلوكه وطبعه ، وذلك لسبب الاختلاف الحاصل بين النّار والطين .

هكذا يقول السحرة الاوائل .

ولكن السعادة الغامضة بقيت سرّاً لم يجد له جبارين تفسيرا حتى في وصايا السحرة القدامى. فآثر أن يخفيه حتى أصبح سرّاً من أسراره مع توالي الأيام ، فيسعد باستعادة الساعة المجيدة ما أن يخلو الى نفسه ويكتئب ، فلا يلبث أن يبتهج ويتمتّع ويتبدّل .

أصبح السرّ رقيّة لهامفعول المواويل الشجنية .

Twitter: @alqareah

(٢)

وبرغم أنه لم يشعر بالسقطة ، الاّ أن اليقين أيضا أنه لم يغب طويلا. فما أن عاد ، ووجد نفسه تحت أكمة أقامتها شجرة أثل هرمة ، حتى رأى العمود الرملي يزحف في دورة لولبية حثيثة عبر الوادي ، رأسه في السماء ، وذيله على الأرض ، وبورو يسبح في موج الغبار ، يغيب ، ثم يظهر ، كأن المارد المتخفّي في العجاجة يشدّه من يده ليأخذه بعيدا ، الى المجهول . بذل جهدابطوليا كي ينهض على قدميه . وبرغم أنه لم يفهم ما حدث حتى تلك اللحظة ، الا أن الدوار جعله يحس أنه لم ينج من الغيبوبة تماما . كان رأسه يتحطم بالصداع ، وفمه ملئ بحبيبات كبيرة ، خشنة ، قاسية ، من رمل العاصفة ، والوجع يمزق مقلتيه كأنه وخز الابر . و.. الغثيان . ترنّح وراء المطيّة خطوات ، ثم سقط وشرع يتقيأ بأعلى صوت . بعد ذلك غزاه الاعياء . لم يستسلم للاسترخاء ، للخدر الذي زحف على ركبتيه ويديه ، ولكن الموكب كان قد قطع مسافة طويلة عبر الوادي . وبرغم الألم في العينين الا أنه تابع أخر ذيول الغبار وهي تختفي في عمق «آلون» ، في المنعطف الذي ينكسر فيه الفجّ ، ليتراجع شرقا ، قبل أن يستدير مرة أخرى لييمّم صوب القمم التي يتخذها الزعيم وطنا .

حاول أن يتابع امتداد الوادي في المنحنى الذي يعود فيه الى الشمال ، ولكن البصر خذله. اشتد الوجع واحتد الوخز ، سال الدمع

Twitter: @alqareah

ونزلت العتمة .بعد احتجاب البصر اشتد الدوار ، وعادت نوبة الغثيان مرة اخرى .

ولكن شيئا استوقفه في تلك الغمضة . اذ تبدّى له ، وهو يغالب الدوار والغثيان والاوجاع ، شبح شاحب ، يرتدي أسمالا دكناء فضفاضة ، يتقنّع بلثام باهت بلون الترّاب ، يركض بأقصى سرعة ، وقد انحسر طرف لثامه السفلى عن فم مغمور بالزبد . ولا يستطيع جبارين أن ينسى تلك الومضة التي تباطأ فيها الشبح فجأة حتى كاد أن يتوقف عن الركض ، فالتقت عيناهما لقاء خاطفا ، ولكن كان كافيا كي يرى فيهما ذلك الخليط القاسي من الشقاء والألم والفواجع والعناد البطولي الطويل . لاح في النظرة تردد عابر ما لبث أن تلاشى في الألق القاسي، ليجد أن الجنّي قد انطلق ليلتحق بركب العجاجة التي جرفت قرينه بورو أيضا .

بعدها انكفا على وجهه ، ولم يعرف كم مضى من الوقت ، وعندما استيقظ وجد أن « آلون » كلّه يغيب في الظلمات .

(٣)

قبالته تربّع بورو حول نار خابية ، يخلط الاعشاب بين وعاءين . بجواره ، في التراب ، غاب نصل مدية نحاسية . حدس أن بورو جرّ فوق رقبته المدية لينحر الجنّ ، ثم سمعه يتمتم : « تماغس بعد أن يسواد ،

Twitter: @alqareah

وغداس نوفنا غادس » * . اختلس اليه نظرة . قال دون أن يتوقف عن خلط الاعشاب :

– هل رأيته ؟

كان رأسه ثقيلا ، ومزاجه في أسوأ حال ، كما يحدث في الأيام التي ينام فيها أكثر مما يجب . أعاد بورو سؤاله :

– هل رأيته ؟

استفهم ببصره فاوضح القرين :

– آمغار ! ألم تر آمغار ؟

رمقه بدهشة . سأل ببلاهة :

– هل تظن أن آمغار ..

قاطعه بورو وفي عينيه تلوح ابتسامة خبيثة ، الابتسامة التي تمتزج فيها شقاوة الصغار بلؤم السحرة الدهاة :

– لقد رأيته بنفسي ، بهاتين العينين . ولمسته بيدي ، بهاتين اليدين . ولكن .. ها – ها ... ولكن كيف يمكنك أن تراه اذا كان قد صرعك منذ البداية بضربة واحدة ؟

– هل تظن أنه ..

لم يكمل جملته . استدرك :

---

* رقية سحرية اعجمية اوردها ابن خلدون في « المقدّمة » .

Twitter: @alqareah

- حتى لو كان آمغار . حتى لو لم يكن آمغار ، فلم يكن بامكاني أن أراه !

استفهم بورو وهو يتناول رشفة من مشروب الاعشاب ، فاوضح جبارين :

- كيف يمكن رؤية مخلوق يتخفّى في عجاجة ؟

ضحك بورو . عاد يسأل بنفس الخبث :

- وبوشا ؟ ألم تر بوشا وهو يلاحق العجاج ؟

- رأيته . اعترف أنيّ رأيت شبحا لن يكون الاّ بوشا . شبحا يليق بهذا الاسم !

- ها - ها ..

ثم رفع سبابته أمام وجهه وهدّده :

- احترس ! فهو جنّي أيضا . جدّته كانت جنيّة !

- جنيّة ؟

- نعم . يقال أن آكّا * جدّه من أبيه كان ساحرا كبيرا . اختلس امرأة سيّده في « تادرارت » من جسدها واخفاها في جدار كهف . وعندما يئس قرينها الذي ظنّ أنها نزلت الى « آغرم نودادن » ، ذهب

---

* آكا : بطل « الربّة الحجريّة » ، راجع « الوقائع المفقودة في سيرة المجوس » للمؤلف .

Twitter: @alqareah

آكّا الساحر واختلى بها. اقترن بها وانجب منها ولدا وبنتا ..

قدّم له شراب الاعشاب ، واحتفظ لنفسه بالوعاء الثاني . تناول رشفة أخرى قبل ان يكمل :

– وبرغم جمال الجنيّة الذي ينافس البدر الصحراوي ، الاّ أن وباء الملل عرف الطريق الى نفسه فهرب بابنه الى آزجر وترك للجنيّة الابنة الانثى ، ولكن الجنيّة دبّرت له مكيدة جزاء الخيانة ..

قاطعه عواء ذئب بعيد فتوقف عن السّرد . تصنّت للشكوى الفاجعة . كفّ العواء فعمّ سكون . انتقل بورو من عواء الذئاب ، نداء الذئاب الغامض ، الى نداء المجهول ، نداء الاسلاف . أنصت لمحاورات الاوّلين ، واستجاب لمخاطبات السحرة القدامى بابتسامة ، ثم تجهّم وهو يعود الى « آلّون » . ترنّح على انغام لحن خفيّ . زفر الاشجان مع الانفاس . بدأ يروي سيرة الساحر آكّا كأنّه يحاكي شعراء القبائل أو شاعراتها عندما يطيب السهر في ليال يستوي فيها القمر ويتحوّل بدرا ، ليرووا للأجيال ملاحم البطولة في الأغاني الحزينة التي يرافقها « امزاد » بالنواح .

Twitter: @alqareah

٥- الكمين

« .. وزعموا أن التّناكح والتلاقح قد يقعان بين الجنّ والانس لقول اللّه تعالى « وشاركهم في الاموال والاولاد » ، لأن الجنيّات انما يعرضن لصرع الرجال من الانس على جهة العشق لهم وطلب السّفاد » .

ابو منصور الثعالبي

« فقه اللّغة » *

* * *

«يا ابني اصغ الى حكمتي . أمل أذنك الى فهمي لحفظ التدابير ، ولتحفظ شفتاك معرفة . لأن شفتي المرأة الاجنبية تقطران عسلا وحنكها أنعم من الزيت ، لكن عاقبتها مرّة كالأفسنتين ، حادّة كسيف ذي حدّين. قدماها تنحدران الى الموت . خطواتها تتمسك بالهاوية ، لئلاّ تتأمّل طريق الحياة تمايلت خطواتها ولا تشعر . والآن أيها البنون اسمعوا لي ولا ترتدّوا عن كلمات فمي . أبعد طريقك عنها ولا تقرب الى باب بيتها . لئلاّ تعطي زهرك لآخرين ،وسنينك للقاسي . لئلاّ تشبع الاغراب من قوّتك ، وتكون اتعابك في بيت غريب . فتنوح في اواخرك عند فناء لحمك وجسمك » .

سفر الامثال /(٥: ١.١١)٠

---

* اورد الثعالبي العبارة دون اشارة لأي مصدر ، في حين وردت بنفس النص عند الجاحظ في موسوعة « الحيوان » .

Twitter: @alqareah

(١)

يروي الرعاة في « تادرارت » أن الطفل والطفلة اللذين انجبهما آكّا من جنيّته الحسناء كانا توأمين . اختار للأنثى اسم « تانس » ، وللذكر اسم « اطلانطس » تيمّنا بالحبّ الاخوي الخالد الذي مجدّته الاسطورة الصحراوية القديمة *. كأنّ القدر الذي حشر الاخ والاخت في جوف واحد شاء لربطهما أن يتواصل ، وأبى إلا أن يستمر حتى بعد خروجهما من قمقم الأم الى قمقم الحياة برغم استنكار الشرائع التي ترى في مثل هذا الاقتران عدواناً على النّاموس ، ومخالفة منكرة لطبيعة الأشياء .

و .. لكن طبيعة الاشياء تقتضي أن ندع النهاية للنهاية ونبدأ السيرة من اولّها .

فبعد أن شبّ التوأمان ، وترعرعا في الصحراء ، وأدّى الأبوان واجبهما المقدّس ، لم يكن أمامها الا ان يعرفا طعم الشقاء بعد أن جربّا طعم الهناء . فجاء دور وباء الملل الذي لا يجد ارضا أكثر خصوبة من ساحة القران . آه .. القران هو القران . القران تابوت العشق . جلاّد متنكّر ، غول يتخفّى في ضياء المَلَك . شرك نصبه أعتى السحرة ليقتل الدفء الذي يغذي القلوب ويزود الافئدة بالآمال . قمقم يكتم انفاس العشاق ، ويختنق فيه أهل الوهم والحلم . القران فخ أتقن « وانتهيط »

---

* الاسطورة الصحراوية القديمة : هي اسطورة « تانّس » . راجع رواية « البتر » ، الرواية الاولى من رباعية « الخسوف » للمؤلف .

Twitter: @alqareah

صنعه ليستدرج البلهاء ، ليفوّت عليهم فرصة الحياة . فرصة العشق الحقيقي . وعندما يكتشف العاشق الخدعة القبيحة ، ويفزّ من مكمنه ، من كهف الظلمات ، يكون الاوان قد فات .

وليس المدهش أن يقع ساحر في دهاء آكّا في فخّ من افخاخ وانتهيط (وما أكثرها في الصحراء) . ولكن المدهش حقاً أن يكون آكّا هو الذي أعدّ لنفسه هذا الفخّ ليقبر نفسه مع معشوقته كل هذا الزمن ، حتى اذا تسلّل اليه السأم خرج من الكهف ليجد أن الحياة قد مضت في سبيل آخر ، وعليه أن يستحضر كل حيل الدهاة ، وكل مكائد السحرة، اذا أراد أن يلحق بالموكب الجليل ليستنشق الخلاص .

هذا ما أراد آكّا الدّاهية أن يفعله في ذلك اليوم الذي قصد فيه صديقه الحدّاد ليعدّ له العدّة التي رأى أنْ يستخدمها في خطة الفرار .

(٢)

في الطريق الى الحدّاد حاور نفسه مرة أخرى . تساءل عن السّر ، وخاطب نفسه بالقول أنه يعرف (كما يعرف ذلك كل الرجال العقلاء) أن أصل البلاء ليس في الشجار أو التنابز بالألقاب ، وليس لنيل الزمان من حسن المعشوقة أي دور في الأمر أيضا . كما أن الملل بريئ من دم العلاقة المنتحرة ، ولكن .. يقينا أن مبعث المصاب لن يكون إلاّ الاشمئزاز ، اشمئزاز ملأ صدره بالقرف والغثيان والبغضاء . بلى ، بلى.

Twitter: @alqareah

الاشمئزاز من الانثى يسبّب الاحساس الرذيل بالبغضاء . والبغضاء لا بدّ أن تدفع بالقرين يوما الى الفرار . ولكن .. هل الاشمئزاز سبب وحيد؟ أيكون الاشمئزاز سببا بائسا وليس نتيجة همجيّة ؟ عليه أن يعترف بشكوكه . عليه أن يتحلّى بالرجولة ويعترف أن السبب الحقيقي هو رغبة قديمة ومقدسة وسوس بها صدره منذ زمن بعيد . رغبة ظلّت تتململ وتهمس قائلة أن قدر الرجل الحقيقي ليس الانثى ، ولكنه الصحراء . قدر الرجل النّبيل ليس التقلّب في مخادع الحسان ، ولكن ساحته الخلاء . المدى . الحرية . نعم . الحرية . هذا بالضبط ما بحث عنه. بحث عن هذه الكلمة الفتّانة كقدّ الغزال ، اللّعوب كلسان السراب ، الصارمة كحد السّيف . ويبدو أن هذه الصرامة قد ابتلعت بقية الخصال، فتناساها ، تجاهلها ، وحاول أن يخدع نفسه ويميتها في قلبه طوال هذه السنوات . ولكن هيهات . فالحرية شعلة لا تنطفئ أبدا ، اذا قدح القدر شرارتها في وجدان مخلوق ، اشعلت في بدنه اللّهب ، ولن ينطفئ من فؤاده الحريق الا اذا خرج حاملها الى العراء الابدي ، وعقد اللقاء بالقبس . القبس السماوي الذي لا ينزل الى الصحراء الاّ في الفجر الأوّل ، وكتب على المخلوقات الضالّة الا ترى له ضياء ، الا اذا اكتشفت في نفسها قبسا مماثلا ، كنزا مماثلا ، شعلة سمّاها سحرة المجوس « شعلة الطّلب » ، وسمّاها الدّهماء : « الحرية » . وهو لن يتباهى الآن ويدّعي الحكمة لأنه ادرك أن الرجل لا يقترن بالأنثى (حتى لو كانت

Twitter: @alqareah

في بهاء ربّته الحجرية) دون أن يكون قد فقد عقله . ضحك حتى لامس بعمامته سنام المهري عندما تذكّر تلك السنوات التي اقترف فيها الحمق . عندما حام حول خباء «بوخا» باكيًا مستعطفا «تامدّورت» * أن تخرج الى العراء كي تضيء له الصحراء بوجهها حتى يتمكّن من حلب النّوق. واستعاد أيضا كيف ركع تحت قدميها الحافيتين عندما خرجت له في تلك الليلة التي ملأ فيها الصحراء عويلا ونواحا . ضحك مرّة أخرى وهو يستعيد هذه الخدعة السحرية . توقف عن الضحك . استقام في جلسته فوق السرج . رمق امتداد الخلاء بلؤم الدهاة . ثم ما لبث أن لعن نفسه بصوت مسموع .

(٣)

مكث في ضيافة صديقه الحدّاد ثلاثة أيام . زوّده بخريج من الانصال الفظيعة . سكاكين حديدية ، مدى نحاسية ، أمواس مطلية بطبقة من الفضّة ، وسيوف مختلفة الاحجام .و.. مدية موسومة بتعاويذ سحرية غامضة ، صغيرة الحجم ، مدسوسة في غمد محفور برموز أهل الادغال .قدّمها له الحدّاد قائلا أنها تميمة تصلح أن يضمّها الى قلادة الرقى المعلقة في رقبته ، لأنه لاحظ أن أحد الاحجبة قد سقط بالتقادم . ولكنه لم يضم المدية الشرسة إلى احجبة القلادة كما نصح الصديق ، وانما شدّها بخيط الجلد حول ذراعه ، واخفاها تحت كُمّ الثوب

---

* تامدّورت : بطلة « الربّة الحجرية » ، راجع « الوقائع المفقودة في سيرة المجوس» للمؤلف .

Twitter: @alqareah

الفضفاض .

ما أن غابت ظعون الحدّادين عن البصر حتى تبدّت في الأفق رؤوس أعمدة تادرارت ملفوفة في عمائم زرقاء كأنها زمائل جبابرة الخرافات . رفع عقيرته بموّال شجّي فاستجاب له السراب ورقص في الافق بقامة سماوية اللّون . هبّت نسمة شمالية انتعشت لها الصحراء ، فأزاح لثامه عن فمه وسحب نفسا من منّة النسيم البحرى . انتعش المزاج فرحا بالنهار المعتدل ، وامتلأ البدن بالحياة .الحياة التي هجرها جريا وراء العشق ، ووراء الحسن ، ووراء الوهم ، ووراء الفخّ الذي نصبه وانتهيط، ووراء الأنثى . الحياة التي أضاعها يوم وضع رقبته في فم الوهق المتوحش ، ورهن قلبه في قمقم صنعه بأهوائه وأوهامه ووساوسه . الحياة التي داسها بقدميه ودنّسها بغفلته وقايضها بالجاذبية الفارغة التي كان عليه أن يدفع حياته كلّها كي يكتشف اليوم أنها أكذوبة اختلقها « وانتهيط » اللّعين كي يقتل الوهج في النفوس ، ويطفئ «شعلة الطّلب » ، ويسرق من الصحراويين الحياة . ولكن الضائع لن يضيع اذا استدرك وعاد الى «آنهى » . آنهى هو الذي يحث على العودة من منتصف الطريق ، فيقول أن الضّال لن يكون ضالاً اذا استدرك وتخلّى عن الضلال في المنتصف. وها هو الوهج الجليل ، الشعلة التي تومض في كلّ صدر ، تستيقظ في نفسه وتدعوه للتراجع . وها هو يرى نفسه يسعى في الارض ليصلح الخطأ . ليتمرّد على القيد ، ليحطم السلسلة الوحشية وينجو بنفسه و . .

Twitter: @alqareah

بذريّته . بلى . بامكان الخلاص أن يكون أهون ، والخطّة أيسر ، والفرار أسهل ، لو لم تعترضه عقبة التوأمين . ففي سبيل الذريّة ، نطفة الاصل ، بذرة السلالة التي ستحمل الرسالة للأجيال ، أعد الخطّة ، وعرّض نفسه لخطر المواجهة ليس مع قرينته الجنّية وحدها ، ولكن مع قوى الخفاء التي ارتبطت بها تامدّورت بحكم الانتماء ، وبحكم الخدعة السحرية التي استخدمها عندما استولى عليها واختلسها من مخدع قرينها المخدوع . فالذريّة هي العزاء في محنة الاقتران . تانس واطلانتس هما البديل ، هما العصارة التي اخذها من الصفقة مقابل قربان جسيم اسمه الخلاص ، اسمه شعلة الطلب ، اسمه الحياة . تانّس واطلانتس في النتيجة هما الحياة نفسها ، هما حياته الضائعة ، لأن آنهى يعلّم أن الابناء فناء الآباء . وهو لن يستعيد الحياة الآن حتى لو حدثت معجزة ، لأن حياته ذبحها كشاة بكماء ، سفح دمها قربانا كي ينالا ، هما ، الحياة بدلا منه . حياته انتقلت اليهما وصنعت لهما الحياة . ولن يستعيدها الاّ اذا انقلبت النواميس ، وولّى الزمان ادباره ، واصيبت الاقدار العليا بالخلل ، ونال السماء عطب ووباء ، تنقلب بموجبه الاشياء ، وتختل الطبائع ، فتشرق الشمس من الغرب ، ويسير الزمان الى الوراء، تتناطح الكواكب ، وتتداخل البروج، ويستحيل الشيخ رضيعا ، ويتقهقر الرضيع ويعود نطفة في بطن الأم ، وتصير النطفة هباء ، والهباء يجبّه الفناء . ولّما كان انقلاب الموازين من هذا القبيل مرهوناً بقيام القيامة كما ورد في الوصايا،

Twitter: @alqareah

فانه لن يستطيع أن يحتكم الى رهان المستحيل ويطمع في استرداد حياة اقتضى النّاموس أن يورثها لذريّته طالما ارتكب الحمق ، وارتضى لنفسه القمقم يوما . هذا اليقين هو الذي جعله يعد الخطّة فرارا من مخلوقة جنيّة كي ينقذ نسله الانسيّ ، حياته التي اضاعها وانتقلت للذريّة حتّى لا يتبع الطفلان أمهما * ليظلاّ عبدين في ممالك الجنّ ، وربما خادمين لسلطان أهل الخفاء ، او تابعين ذليلين من اتباع المردة ذوي الخلقة السوداء كظلمة ليالي الشتاء . فأي عار سيلحقه اذا استهان بمواهب قرينته الجنيّة وسلّم للمخلوقة ، التي خُلقت بلا عقل ، ذريّته ، نسله ، حياته ، خلوده في الزمان الآتى ، ورسالته التي ستحمل للأجيال الوصيّة، وتحصّن الأصل من غول الزوال ؟. نعم . لا بد أن ينقذ الذريّة اذا أراد ألا تلعنه الصحراء ، لا بد أن يختلس الطفلين من كهف الغولة كما اختطفها يوما من احضان قرينها الأبله ، اذا أراد أن تباركه الأجيال فتخلّد ذكراه في الاشعار كما خلّدت مآثر الأبطال الاوائل في أساطير الملاحم وجدران الحجارة وحيطان الكهوف .

لم يتوقّف عند التفاصيل ، ولم يسمح للتفكير في الخطة أن يصيبه بالوجع . فسلطان السّحر ، سلطان العين التي استعان بها يوما لاخراج المعشوقة من بدنها . من بين يدي قرينها الأبله ، هرع لنجدته الآن أيضا ، فأوحى له بالتمائم المجوسيّة . القبس الغامض الذي يسمّيه البلهاء سحرا

---

* الطوارق مجتمع أمومي ، النسب فيه للاخوال ، والرجل يرثه ابن اخته لا ابنه .

Twitter: @alqareah

ألهمه بالتعاويذ التي ستحميه من شرّ الجنيّة . فمن غير السحرة يعرف السّر ؟ من غير السحرة يفهم ما يحويه التراب من كنوز انفس بما لا يقاس من كنوز التّبر ومعادن النّحس ؟ من غيره ، آكّا ، الذي لم ينفصل عن جلاميد تادرارت الخفيّة الاّ بعد أن تشرب جبلّة الأرض ، وتنفّس غبارها ، وخبر خفاياها، واطلعته على كنوز الأخلاط ، وسلطان المعادن، من غيره يستطيع ان يعرف ما يرهب الجنّ ، وما يخيف الانس؟ صمّم ان يتحصّن بالأنصال المعدّة من أخلاط الحديد والنحاس ومزيج المعادن المستخرجة من الأمّ التي تعلّمت منها كل المخلوقات السحر ، لأنه أدرك منذ زمن بعيد ، منذ كان نطفة تتقلّب بين الماء والطين ، سرّ الأخلاط في ارهاب الجنّ ، كما أدرك قدرة العين على استدراج النفس واختلاسها من مكمنها في قمقم الجسد .

(٤)

.. لم يندهش بعد العودة أن يتلقّى من تامدورت نظرة ارهاب قاسية أمتزج فيها وعيد السحرة ،ولؤم وانتهيط ، وقدرة ملك الجن على استشراف مجاهل الغيب ، انحنت فوق القدر ، اثناء اعداد طعام العشاء، وحدجته من تحت حاجبين معقودين بشكّ بلغ اليقين ، ورددّت نبوءة تليق بجنيّة :

– وراء الأكمة ما وراءها !

Twitter: @alqareah

لم يجبها . تابع التوأمين وهما يتسليان بلعبة التحوّلات . كانت الشقيّة « تانّس » تستحيل الي حيّة فظيعة ، تتلوّى في مدخل الكهف ، وتشهق بفحيح مخيف ، فيندفع « اطلانتس » الماكر ويتمدّد ،يزفر ، يخرج عينيه من محاجرهما ، يتمطّى ، حتى يتحول انفه الي منقار حادّ، معقوف ، ويستطيل الوجه في رأس عُقاب ، ينبت له الريش ، ويفرد يديه ليستحيلا جناحين هائلين . يهجم علي اخته ، على الحيّة ، في غارة خاطفة ، محاولا أن يدق رأس الحيّة بمنقاره البشع ، ولكن الاخت الداهية ، الحيّة الماكرة ، تشيح برأسها جانبا لتتقي الضربة ، فيرفرف العقاب ويطير الى الأعالي ، يحط على راس الصخرة هربا من عِقاب الحيّة ، من لدغة الانثى ، التي تتوعده في الاسفل ، ولا تكف عن الفحيح الكريه .

استجاب أكّا للمنازعة بضحكة ، ولكنه سمع نبوءة الجنيّة مرة أخرى:

– وراء الأكمة ما وراءها !

الحق أنه لم يشك في قدرتها علي قراءة النوايا ، لأن معرفة ما يجول في النفوس من أبسط الخصال في جبلّة الجنّ ، ولكن ظنّه أنه احتاط لهذا المأزق عندما نزع النيّة من رأسه في حضرتها انزلت في قلبه الاطمئنان وجعلته يحس بالامان، برغم علمه بغياب الأمان في رحاب الانثى ، أي انثى ، فكيف بها اذا كانت جنيّة شقيّة مثل تامدّورت ؟ أم أن

Twitter: @alqareah

اللئيمة اشتمت رائحة الأنصال ؟ لقد ظن أنه تدبّر هذا الأمر أيضا عندما حفر فجاً عميقا تحت صخرة تبعد مسافة طويلة ، واودعها كنزه الي حين تأزف ساعة الفراق . ساعة الفرار . ساعة يلبّي فيها النداء ، نداء الحياة ، نداء الصحراء التي خانها طوال هذه السنوات واستبدلها بقمقم قبيح سمّاه تارة « معشوقة » ، وتارة اخرى « ربّة حجرية » ، و« معبودتي الحسناء » تارات . ولكن ها هي تقتفي الأثر ، وتجسّ النّبض ، وتحسب عليه الانفاس ، وتنصب في طريقه الأشراك ، فأي هفوة ارتكب حتى تسلّل الى قلبها الارتياب ؟ هل هما العينان ؟ آه . العينان مرآة السّاحر وسرّ السحر . العينان لن تخفيا نيّة لمن اتخذهما سلاحا لغزو الأفئدة وانتزاع القلوب من القلوب ، واختلاس النفوس من الابدان. العينان سلاح ذو حدين فاحترس يا آكّا ! ثم احترس ! ولا تنس أنك خلقت هذه المخلوقة من إلهامك ،ومن وساوسك ، ومن ظنونك . خلقتها بسلطان عينيك وبقوّة قلبك ، وبموهبة الاخلاط التي عرفتها يوما عندما كنت نطفة ، نقطة بين الماء والطين . ثم مددتها بحرارة انفاسك وعجنتها بتراب الاسلاف ، بدم الأرض المخلوط بدمائهم ، بـ «تفتست» ، ذلك الكنز المقدّس الذي امدّك بالقدرة ، وامدّها ، هي ، بالدّم والحياة . ولولا هذه الشعائر القاسية ،الشعائر المستحيلة ،لما استطاع مخلوق أن يلتقط أمرأة خرجت من مخدع زوجها ، ومن مخـــدع روحهـــا ، من بدنها، حتـــى لو كانت في فتنة تامدورت وحسنهـــا . لأن السّاحر أول

Twitter: @alqareah

من يعــرف أن « ايمــان » * اذا أفلت من دنّ الطين طواه المجهول ، وسكن في مملكة النسيان، ولن يعيده الى وطن الرؤى السماوية الاّ تميمة الأرض ، سرّ الصحراء ، الذي اودعه الأسلاف « تفتست » ، ونفخت فيه الأرض روحها ، ومدّته بسرّ لا يعلمه إلاّ السحرة .ولولا علمه القديم بالأمر لما استطاع أن يعيدها من سفر النسيان ويودعها حجارة الكهوف . فلا تخفها ، يا آكّا ، ولا تسمح لها أن تأخذك بالسلاح الى اخذتها به يوما ، لأنك انت من سرى بها ليلا من مخدع قرينها الأبله بوخا ، وطاف بها ممالك السماوات ومهالك الأرض ، وعاد بها من « آغرم نودادن » ليبثها في الحجر ،ليبدع خلقتها في صدر الجدران ، ويزيدها بهاء على بهاء قبل أن يتخذها قرينة ووعاء لذريته !

كان يحدّق في وجهها وهو يستعيد آيات التكوين ، وآلاء الخلق الأول ، ولم يلحظ التبدّلات التي حدثت في الساعة الجليلة من الغسق المسحور. تركت القدر وتقهقرت خطوات. استمرّت تتراجع بلاتوقف. وكان آكّا يزحف نحوها على ركبتيه ويديه طوال الوقت . يزحف ، ويزحف ويزحف . وهي تتقهقر ، وتتقهقر ، وتتقهقر حتى التصقت بالجدار، بالمأوى، بالجوف الحجري الذي انجبها، الذي خرجت منه يوم البعث ، يوم استعادها من المجهول ، من الظلمات ، ليعيدها الى نور الصحراء ، الى تادرارت،ثم .. ندّت عنها آهة فاجعة. شكوى يائسة، مكتومة . أنين موجع ، عادت على أثره الى جوف الأم. الى الحجر .

---

* ايمان : النّفس (تماهق) .

Twitter: @alqareah

كفّ التوأمان عن لعبة التحوّلات . خرجت الانثى من بدن الحيةّ وهبط «اطلانتس » من أعالي العُقاب . رفعا عقيرتيهما بالبكاء في وقت واحد . ناحا طويلا ، لأنهما عرفا أن الشجار بين ابويهما قد نشب ، وهما اللذان تعلّما بالتجربة أن الشجار بينهما لا يتوقف الاّ اذا انتهى بحبس الأم في بدن الحجر . ناحا بفجيعة ، لأن التجربة علمتهما أيضا أن غيبة الأم في المعتقل الحجري سوف تطول !

(٥)

نادرا ما كانا يتشاجران . واذا تشاجرا فان البلاء لا يلحق الأم وحدها ، ولكن الأب أيضا . فما أن يشتعل الخصام ، وتستعر نار الشجار حتى تنتاب الأب الرجفة ، وتخرج عيناه من محجريهما . لا تخرجان قبل أن تضيعا في الفراغ ، ويغزوهما أحمرار مقيت . يتقدّم من الأم ويغمغم مأخوذا : « اسكني . اسكني . اسكني » . ويظل يردد التميمة الفظيعة وهو ينتفض ويستعر بالحمّى. يفزّ من فيه الزّبد . يتكاثف حول شفتيه ، يبلل طرف لثامه السفلي ، ولكنه لا يتوقف عن التمتمة بالتميمة. في ذلك الوقت تكون الأم قد انهارت على التراب . تترنّح يميناً ويسارا ، في عينيها يختفي العدوان ،وينزل الرجاء ، الضراعة ، التوسل ، الفجيعة. يزداد الوجع في عينيها كلما مضى الأب مردّدا التعويذة . ثم تبدأ مسيرة العودة الى الوراء .تتقهقر والأب يتقدم . تتراجع خطوة كلما تقدّم الأب خطوة ، حتى اذا بلغت الكهف ، واوقف تقهقرها الجدار ،

Twitter: @alqareah

ندّت عنها تلك الآهة الأليمة التي تتلاشى بعدها ، وتختفي في الرسّم المخطوط على الجدار ، فتبقى أصداء الآهة الفاجعة تتردّد في قمم تادرارت طويلا . تسكن في الحجر ، في الرّسم ، فتبدو نظرتها وهي ترمق القمم البعيدة موجعة ، حزينة ، غائبة ، معلقة في مجاهل المجهول .

أمّا الأب فيقع ، بعد الشعائر ، في الغيبوبة . يسقط على الارض ويتلوّى طويلا ، ثم يهدأ ويستسلم لسبات يستمر يوما وربما يومين . وعندما يصحو يبقى ذاهلا ، واجما ، منهكا ، مريضا ، أياما . الأم أيضا تغيب طويلا . تغيب أياما ، أسابيع ، وفي المرّات التي لا يرقّ فيها قلب الأب تبقى معلقة في حبسها شهورا . ولا يتنازل لاستعادتهامن المنفى إلاّ بعد أن يمل نواح التوأمين . ولكن استعادتها من الحبس تقتضي شعائر لا تقل عسرا وقساوة عن شعائر النّفي.

(٦)

تبقى الأم تتشبّت بالحجر ، معلّقة في الجلمود النحاسي القاسي . تحدّق في الفراغ ، تترصّد القمم التي يلفّها السراب بغلالته الزرقاء المستعارة من سعير الخفاء ، من ابخرة لم ير الصحراويون نظيرا لها الاّ فوق غابة الحجارة التي تحجب « آغرم نودادن » . تترصد شيئا أبعد من القمم ، تترصّد سرّاً يلوح في الافق الذي تنحني فيه السماء لتقبل جبين الصحراء ، تترصّد السرّ الذي لا تراه إلاّ أبصار من كتب عليهم القدر أن يعيشوا العزلة ، ويبقوا وحيدين ، تائهين ، منسيين ، منفيين ، الى الأبد.

Twitter: @alqareah

ولا يتوقّف الصغيران عن البكاء .

يدوران حول الكهف ، يحاولان تسلّق الجدار الصخرى الاملس في محاولات بطولية للوصول الى معتقل الأم. ولكن قلب الأب لايلين . يسرّج جمله ويسافر الى المراعي . يعدّ لهما ارغفة خبز الملاّل قبل أن ينطلق . ولا يعود الاّ بعد أيّام . فيهرع اليه الصغيران ليبدأ التمسّح بالمهرى . تانس من الجانب الأيمن ، واطلانتس من الجانب الأيسر . يتوسّلان ، يرفعان اصوات التوسّل كأنهما يبتهلان الى إله السماوات والارض : « آرا نغد تامغارت . ما سكيكما إيهود ؟ ما سكيكما ؟ ما سكيكما ؟ » * يترجل عن المهرى بقفزة الفرسان . يقود الجمل الى حضيض الجلمود النحاسي . يزيح عنه اثقال السفر ولا يجيب بكلمة . يحرّر الجمل ، يعقله ويتركه ليرتع في احراش الوادي المجاور . يخرج من الجراب الجلدي لحم الغزالة المجفّفة . يشعل النّار صامتا . يشوي اللّحم على الجمر الخابئ . يطرح لحم الطريدة على أعواد الحطب . يدعوهما باشارة صارمة من رأسه. ولكنهما لا يتقدمان . يحومان حول اللحم ، يستنشقان رائحة الشواء ، دون أن يتجاسرا على الاقتراب . تبرق عيناهما بوميض الجوع . وميض الشّره ، ولكنهما يخنقان الرغبة . يقتلان الجوع ، لأنهما دبرا مكيدة يحرقان بها قلبه . قرّرا في غيبته أن يرفضا الطعام ، أقسما ان يمتنعا عن الطعام ما لم يطلق سراح الأم . قرأ

---

* « ردّ لنا عجوزنا . ما ضرّك بربّك ؟ ما ضرّك ؟ ما ضرك ؟ » (تماهق) .

Twitter: @alqareah

المكيدة في عينيهما . لاحظ ارغفة الخبز التي تركها لهما قبل سفره وقد استحالت الى قطع من الحجارة ، ملقاة على خرقة في مدخل الخباء . فيا للشقاء!

انتحب اطلانتس نحيبا موجعا وزحف نحو اللحم . جذبته رائحة الشواء ، استجاب لنداء الجوع . من فمه سال لعاب . اقترب أكثر . انتحب أكثر . وكلما ازداد قربا من الشواء الشهيّ كلما ندّت عنه حشرجة ابتلعها النّواح، والنّواح استحال الى عواء أكثر فجيعة من عواء الذئاب . وفي اللحظة التي انحنى فيها فوق لحم الغزال ، فوق شرائح الشواء الشهيّ ، هجمت عليه أخته وشدته من شعر رأسه . جرجرته بوحشية فوق الحصى ، ومضت تجرّه فوق الأرض الى عمق الوادي . اختفت وراء أكمة ، من هناك سمع العواء وقد تحول الى صراخ وحشي. هرع الى الاحراش ، فوجد تانس تعض على شفتها السفلى بوحشية وتدق رأس شقيقها ، توأمها اطلانتس ، بحجر حادّ. امسك بيدها وحاول أن يزيحها عن الضحيّة ، فهجمت عليه وعضّته في معصمه حتى فزّ الدّم. هوى عليها بيده اليمنى ، ولكنها استماتت وخنقت اطلانتس بكلتا يديها. نزل على رأسها بقبضته فترنّحت . عاجلها بلكمة أخرى فارتخت يداها وبدأت تفقد الوعي .

قالت بعد أيام أنها فقدت صوابها لأن اطلانتس خالف الاتفاق وأراد أن يحنث بالوعد .

Twitter: @alqareah

شراسة طبع الصغيرة أفزع آكّا ، وخاف ان يغلب في جبلّتها عرق الجنّ، فشرع يثني على أهل الصحراء ، ويروي الملاحم عن حبّ تانس لأخيها أطلانتس شعرا . استغل غياب الأم في حبسها فشاء أن يزعزع ما زرعته فيهما الجنيّة من خرافات ، ويبذر فيهما حبّ الانس ، فتحدّث عن عراقة الانساب ونبل الصحراويين. تحدّث كثيرا ، وقرأ ملاحم شعرية كثيرة لدعم بطولات أهل الصحراء ، ولكن تانّس هبت فيه يوما : « لا تسقنا من معين الكذب ولا تخدعنا . أهل الصحراء أول من أدان للناموس الصحراوي . النّاموس على حق.شرع الصحراء يعلّم أن الأم هي الحق . الأب كذب لأنه يمكن للمرأة أن تنجب ذرية من جنّ أو شبح او ابن آوى ، او ودّان ، او حتى من ريح القبلى . الأم واحدة ، والأب مخلوقات كثيرة . الأم حقّ ، والأب باطل . باطل . باطل ! » .

ليلتها عرف آكّا أنه فقد تانس الي الأبد ، وتامدّورت استعانت بشريعة الصحراء في تسميم عقل الصغيرة .

(٧)

أخيرا حانت ساعة التحرر من الأسر . جاء الالهام بميعاد الخلاص ولم يبق له إلاّ أن يلبي النداء المقدّس الذي سيضع الحدّ للشجار ، والملل ، و.. الاشمئزاز .

نهض مع ميلاد القبس البتـول . سـرّج المهـرى . أخـرج

Twitter: @alqareah

حزمة الأنصال . لقية الحدادين ، سلاح السحرة وتميمتهم في مغالبة أهل الظلمات . حصّن الدّابة بالأنصال . علّق مديتين حول رقبة المهرى . وربط سكينا حادّة في ذيله . أحاط السرج بحزمة الاسلحة . سيف ومدية وسكين ، وجعل أنصالا أخرى تتدلّى على الجانبين . أيقظ أطلانطس أوّلا . أخذه بين يديه وثبّته بمسدٍ متينٍ قدّام السّرج . ثم تقدّم نحو الانثى الشقيّة .. فوجئ بعينيها المفتوحتين، الفظيعتين . كانتا تتابعانه بنظرة لئيمة تليق بسلالة الجنّ . همّ باحتوائها بين ذراعيه فاذا بها تنهشه باسنان وحشيّة كأنها حيّة . صفعها فصرخت . ولولت بأعلى صوت . استجاب لها التوأم فانتحب .نزل على وجهها بصفعة أخرى ، ثم أخرى، ثم .. ركلها بهمجية حتى خال أنها فقدت الوعي ، جرّها من شعرها فلدغته مرة أخرى . تركها ملقاة على الأرض، وأتى بحبل وحشي من المسد . ربط يديها وراء ظهرها ، وكمّم فمها بخرقة ، وألقى بها على ظهر المهرى ، وراء السرج ، خلف السنام . ثبتها فوق الدّابة بأمتن الحبال . قفز فوق المهرى وداس على رقبته بقدمه العارية من المداس، فأنطلق . زغردت الانصال حول بدنه فأجفل وجُنّ. طار كأنه ينوي أن يخرق الخلاء ، ويدرك السّراب ، ويبلغ مدى أبعد من آزجر ، ومن كل الصحراء . مضى مصمّما أن ينفّذ نيّة مولاه فيقطع مسافة أيام في يوم . هذه مزايا المهارى الأصيلة . المهارى النبيلة وحدها تقرأ نوايا الفرسان ، فتلتهم الارض بهمّة ، تعبر البيداء دون أن يحتاج للسع قدّها

Twitter: @alqareah

الفتّان بنيران السياط . المهارى النبيلة ، المهارى الأصيلة ، خلقت للنّوايا ، وليس للسّياط .

واليوم لا يريد الفارس أن يعبر الصحراء لحضور ميعاد تقيمه الحسان . اليوم لا ينوي آكّا أن يبلغ أقاصي الارض استجابة لهوى السبّاق. اليوم يفر من الخطر ، من القيد ،من هولة حبسته عمرا وسرقت منه الحياة . اليوم يهرب من غول امتصّ دمه وأراد أن يخطف منه ذريته ليسخّرها حاشية تخدم سلطان الظلمات . وصديقه القديم ، مهرية النبيل لا بد أن يقرأ النيّة ، ويقدّر جسامة الخطر . فأركض يا جملي ! فِرْ ، طِرْ ، اخرق الفضاء ، وانقذ ذريتي من الفناء ، فأنت تعرف أن لا ذكر لمن لم تعقبه ذريّة ، وسوف يبتلع الزوال كل من خالف ناموس الصحراء وسلم نسله لأم جنيّة . فانقذ ذكرى يا جملي المحبوب ! فأنت وحدك القادر على أن أبقى ، لأن من اختفى ولم يخلف لم يعش ، لم يكن ، لم يُخلق! فنجّ خلفي ، وإبق على ذكرى ، وأُعد لي حياة ضاعت ، وليس في مستطاع مخلوق أن يعيدها لي سواك !

بدأ المهرى يتصبب بالعروق . على رقبته فزّ زبد ، وما لبث أن تمادى وتكاثف ، ولكن بكائية مولاه ، صديقه القديم ، اصابته بالمسّ ، فطار ، وعبر ممالك الجنّ في تادرارت ، حتى لاح بحر الرمال الذي يفصل الأعمدة الجبلية الرهيبة عن وديان آزجر .

ولكن المارد ما لبث أن فكّ الوثاق ، وأبطل الطلسم ، وخرج من

Twitter: @alqareah

القمقم.

ادركته القرينة قبل أن يتوغل في الصحراء الوسطى ، وقد حوّلها الحقد الى « تامزا » * مهولة .

(٨)

ادركته بمطيّة الجنّ . بعجاجة رأسها في السماء وذيلها ينساب على الارض ، أخرجت من الزوبعة رأسا مشوّها : شعر أشعث ، أسنان ناتئة كانياب الوحوش ،وجه ممزّق بتجاعيد الغيلان . عينان تنزفان دما ، أنف ينزّ بالصديد ، فم مغضّن تتدلّى منه خيوط من قيح .

مدّت اليه يدا نبتت في أصابعها مخالب لم ير أبشع منها ولا أطول. لسعها بالسوط فندّت عنها قهقهة كريهة . جرّد سيفه من غمده ولوّح به في وجهها القبيح . تراجعت الى الوراء واخفت رأسها في الغبار . اقشعر بدن المهرى . تعلّقت بالذيّل فمزّق السكين يدها . صرخت بأعلى صوت . سقطت على الأرض . سمع الدمدمة ، التفت فرآها تلعق الدّم من يديها البشعتين . لحقت بالمهرى مرةً اخرى . تشبثت بأذيال المتاع اليسرى فنحرتها المدى والسيوف . صاحت صيحة طويلة استجابت لها الجنيّة المشدودة الى الوراء بغمغمة موحشة مخنوقة . اشتكى الجمل أيضا :

-آ-آ-آ-ع-ع-ع-ع ....

---

* تامزا : الهولة ، او الغولة (تماهق) .

Twitter: @alqareah

ولكنه لم يتوقف عن العدو ، ولم يخن العهد . سابق الزوبعة وسبقها . تامزا لم تتخلّف أيضا . ادركته بعد مسافة قصيرة . انشبت مخالبها الوحشية في لحم المهرى فتصدّت لها مدية مجوسيّة فظيعة . ذبحت كفّيها ، فرفعت عقيرتها بشكوى سمعتها كل الصحراء :

-آ-آ-آ-آ-آ....

التفت فرآها تلعق الدّم ، وتتيهأ للانقضاض من جديد . طارت مع الريح في الهواء ونزلت فوق رأسه . ولو لم ينزل الالهام مع نزولها لفتكت به في تلك الغارة المفاجئة . اختطف المدية المسكونة بالتمائم (صديقه الحدّاد قال له أنها تكفي لنحر قبيلة من جبابرة الجنّ) وطعنها . سقطت . لم تسقط . لم يند عنها صوت . ولكنها اختفت . تلاشت . فهل تخلّفت متأثرة بالجراح ؟ التفت فلم يرها . ظلّت مركبتها تتدحرج بمحاذاته . ولكنها لم تقترب . فأين الجنيّة ؟ هل أصابها بمقتل ؟ هل نجا من المطاردة ؟ هل يعقل أن تيأس أمٌّ سُرق منها اولادها غدرا ؟ هل يمكن أن تكون المدية بهذه القساوة بحيث تفتك بهولة في ضربة واحدة ؟ . توجّع المهرى مرّة أخرى :

-آ-آ-آ-ع-ع-ع....

في تلك اللحظة رأى ظل سحابة يحوم فوق رأسه . ليست سحابة . طائر بحجم خرافي . رفع رأسه فرآها تغير على رأسه ، مدّ

Twitter: @alqareah

المدية فصد الغارة . هوت الى اسفل ورآها تتمرّغ في التراب حقدا ووجعا واعياء . احسّ بسائل لزج يلصق ثوبه بظهره . التفت الى الوراء فهاله ما رأى : كانت الجنيّة الصغيرة قد تحررت من الكمّامة ، وشرعت تلتهم سنام الجمل . التهمت الطرف العلوي الذي يسند السرج ، ومضت تلعق الدماء بأنياب أبشع من الانياب التي رآها في فم أمها «تامزا» منذ قليل .عرف لماذا يتألم المهرى المسكين ففاضت نفسه بالغثيان. دسّ المدية بين وبر الدّابة ، وبين حبال المسد التي تشد الهولة الصغيرة الى ظهر الجمل . انقطع الرّباط وهوت الغولة الى الأرض . لاحظ كيف تلقتها أمها بين ذراعيها ، وضمتها الى صدرها . تناهى الى سمعه البكاء المرير .

واصل المهرى مسيرة الفرار برغم النزيف ، ولكن صدى البكاء ظلّ يطن في اذنه طويلا .

(٩)

في آزجر سبّ آكّا منبت النساء .

في الأيام الأولى تفرغ للاعتناء بالمهرى ، واستهان بالعضّة المسمومة التي تلقاها من اسنان ابنته الفظيعة . وعندما يئس من شفاء صديقه المسكين ، واستفحل فيه الدّاء ، تركه يحتضر وهرب للاقامة في أعالي آلّون . وجد نفسه وحيدا مع أمله الوحيد . كان اطلانتس يتبعه

Twitter: @alqareah

ضائعا ، جهما ، لا يتكلم الاّ اذا أجاب على سؤال . في كهوف الوادي العظيم اعتكف آكّا وعاد يشتم النساء . تضخّم الانتفاخ في الكفّ وتفاقمت الاوجاع . بدأ يهذي في الليل واستولت عليه الحمّى . ظل يقاتل مردة الجان ثلاث ليال متتالية . في اليوم الرّابع تحامل على نفسه ، وتطاول في الحجارة الجبلية . عاد بالأعشاب البرية . طبخها في القدر وأضاف اليها مسحوق النطرون . تراجعت الحمّى ، وبدأ يتماثل للشفاء. ادرك سبب عشق تانس لبدن الحيّات . فلا تلبّي نداء التوأم بلعبة الا اذا استدرجته للتحوّلات . الدخول في جسد الحيّة لعبتها المفضلة . فأي سرّ في تعلّق المرأة بالحيّة لو لم تكن حيّة هي نفسها ؟ نعم . الانثى حيّة تسعى حتى لو كانت جنّية ! وها هو البرهان ! لقد فقد صديقه بسببها . بلدغتها. وكاد يفقد حياته أيضا . الشرّيرة ! فكّر أن يقدّم قربانا للاله «آمناي » حمدا له على النجاة . وشكره جهارا لأنه خلّصه منها . لأول مرّة في تاريخ الصحراء يشكر مخلوق الآلهة ، لانهم جرّدوه من ذريّة ! ولكن هل كانت تلك الهولة ذريّة ؟ هل يمكن ان يتنازل المرء عن كبرياء الانس ويقبل أن تخلفه حيّة ؟ ولكن هذا ثمن يدفعه من تجاسر على استعادة المعشوقة من المجهول بعد أن خطفها بالعين من مخدع قرينها المسكين ! هذا قدر السّاحر . قدر السّاحر أن ينقلب السّحر على الساحر !

فيروى في الصحراء أن « وانتهيط » اللئيم هو الذي انقذ

Twitter: @alqareah

تامدّورت وحررّها من أسر الحجر ، كي يسلّطها على آكّا عقابا له لمخالفته شريعة السّحرة . فهذا الأحمق لم يعلم عندما مارس هذه الصنعة النبيلة أن الدخول الى هذا الملكوت ليس كالخروج منه . لأن من عرف الطريق الى السرّ بقي أسيرا له الى الأبد ، واضاع الطريق الى لغة الخلق وملكوت البشر .

فكّ « وانتهيط» وثاق تامدّورت ، ومسخها هولة مهولة لتسترد أبنتها. وعندما استعادت « تامزا » وليدتها رسم لها خطّة الانتقام ، ونسج خيوط المكيدة. أعاد للأم حسنها القديم فوجدت تامدّورت نفسها محشورة في وعاء كتب له القدر أن يكون فخّاً يستدرج الرجال ، وجوهرة تأخذ قلوبهم من أبدانهم، وبدرا بهيجا يذهب بعقولهم . بل ان البهاء فيها ازداد توهّجا، والقسمات فاقت عين الرّتم نضارة، كأن «وانتهيط» الرهيب كافأها على شراستها في استرداد تانس من يد الخائن.

رأت الحسناء حسنها في مياه الغدير الجبلي ، ولكنها كانت على استعداد أن تدفع كل هذا البهاء ، كل هذا السلطان الذي يخضع الممالك ويهلك السلاطين قربانا في سبيل تحقيق الرغبة الانثوية الوحشية في الانتقام . تلك الرغبة الفظيعة التي لم تعرف لها الصحراء مثيلا ، وخاف من هولها الانس والجن ، وقرأ لها « وانتهيط » نفسه الف حساب وحساب . لهذا السبب لم يندهش وهو يرى الحسناء تركع عند قدميه وتتوسّله أن يأخذ جمالها الفتّان ويهبه لمحبوبتها تانس .ضحك حتى

Twitter: @alqareah

دمعت عيناه ، ثم حاكاها في تعويذتها عندما ردد :

– وراء الأكمة ما وراءها !

ضحكت تامدّورت ضحكة عصبية حوّلها الحقد الى حشرجة ، الى فحيح كفحيح الحيّة ، لأن سلطان التحوّلات ما لبث أن حوّلها الى حيّة حقيقية عندما أينع السرّ الذي اودعه في قلبها ، وجرّدها من حسن لم تسمع به اذن ، ولم تره عين ، ليحيله الى وريثتها الشقيّة تانس . فالساحرلم يكن ليتجاسر على مخالفة شرائع الصحراء التي أبت ألاّ أن تجعل من الابناء ورثة للآباء ، فناء للآباء، فوجد نفسه ينفّذ المكيدة ، ويعيد تامدّورت خيالا حزينا ، بائسا ، مرسوما على صدر الحجر .

(١٠)

ولكن حتى وانتهيط ، بما وهب من دهاء ،لم يقرأ سريرة المرأة ، ولم يعدّ لها ما تستحقّه من حساب . غلب في تانس عرق الجان وتطبّعت بجبلّة الحيّات . تبوأت أعلى عمود صخري في تادرارت وأرادت أن تبتزّ سلطان الابتزاز . اعتلت شعفة الجبل المربّعة وهدّدت بافساد الخطّة. استعارت لغة الرواة ، وتكلمت بلهجة مغنّى الملاحم القديمة . جاوبت الأمير الذي صاح حين رأى وجهها الفتّان في ماء الغدير : « هذه الحسناء لي . سأقترن بهذه الحسناء حتى لو كانت حلما ، رؤيا ، ملكا نزل من السماء » * :

* المقطع مأخوذ من اسطورة تانّس واطلانتس ، والمحاورة التي تلت المقطع محاكاة لخطاب تانّس الموجّه للأمير الصحراوي . ـ راجع الأسطورة في رواية « البئر » ، الرواية الأولى في رباعية «الخسوف» .

Twitter: @alqareah

- لن تقترن تانس حتى يحصل اخوها اطلانتس على جمل أبيض، ضامر، وسيف من ذهب.

هنا أبتسم وانتهيط بخبث الدّهاة، وانحنى حتى لامس الارض بطرف عمامته، ثم رفع رأسه قليلا وأجاب شبح تانس والابتسامة الخبيثة ما تزال تلمع في عينيه:

- لك ما أردت يا مولاتي!

- لن تقترن تانس حتى يحصل حبيبها اطلانتس على السرج الموشى بخيوط الذّهب!

مضى وانتهيط يبتسم بلؤم، مسليا نفسه بدور الأمير الاسطوري:

- لك ما أردت يا مولاتي!

- لن تقترن تانس حتى يضع الأمير في يد اطلانتس مائة من العبيد، وعشرة من الاتباع.

- لك ما أردت يا مولاتي!

- لن تقترن تانس حتى يضع الأمير في يد اطلانتس قافلة من النوق وعدداً من الرعاة.

- لك ما أردت يا مولاتي!

- لن تقترن تانّس حتى يقسم لها الأمير أن اطلانتس الحبيب سيظل بجوارها الى الابد.

- لك ما أردت يا مولاتي!

Twitter: @alqareah

عندها نزلت تانس من الشعفة الجبلية المربعة. ولكن المحاورة لم تنته . ضحك وانتهيط حتى استلقى الى الوراء . تابعته تانس بابتسامة لئيمة استعارتها من وانتهيط . ثم قطع ضحكته ولمعت عيناه بالبريق . قال:

– جاء دوري كي أعلن لأميرتي الصغيرة أن الذهب صنعتي ، والتّبر لعنتي ، وكل ما يشتريه هذا المعدن الرهيب فهو تحت طائلتي ، حتى أن لعنته قد طالتني فلا ألمس ترابا الاّ استحال تبرا ، ولا أمسك بيدي حجرا الا وتحوّل سبيكة من سبائك الذهب ، ولا أقدر أن اتناول طعامي الاّ تحصّنت بالتعاويذ التي تحميه من التحوّل . فيا أميرتي ، سمعا وطاعة ، خذي منه ما شئت ، واشتري به ما شئت من الاتباع ، فالخلق كلهم اتباعه ، واقتني من العبيد ما أردت فالناس كلّهم عبيده . وأنا وحدي الشقي لأني جزء من تلك القوّة التي تريد الشرّ دائما ، ولكنها تفعل الخير دائما * ، لأنك لا تعلمين يا أميرتي الصغيرة أن سعادتي في غيابه .

نزع خاتما متوجا بفصّ مهيب . فركه بين يديه فضجّت الجبال المجاورة كلها . رأت تانس العجب : من ادبنان** خرج الاسلاف يحملون جرار الذهب . السفوح كلها ارتجّت وترجرجت ، وتدحرجت من قبورها الحجارة ، واقبل سكانها يحملون قلل المعدن النفيس .

---

* « .. أنا جزء من تلك القوة التي تريد الشّر دائما ، ولكنها تفعل الخير دائماً : غوته « فاوست » .

** ادبنان : جمع « ادبنى » ، وهي مقابر الأسلاف (تماهق) .

Twitter: @alqareah

فوق تادرارت نزلت العتمة .

طوقتهما الاشباح الجليلة . كان جمع الاسلاف يئنّ ويهمهم بلغة الجنّ . يلوحون بكنوز الصحراء فوق رؤوسهم في شعائر جماعية . الكنوز المدسوسة في قلل فخار غدر به الزمان فلوّحه بلون العتمة . هذه هي الكنوز التي جعلت من الصحراء أمل المغامرين والطامعين وجحافل الغزاة . هذه هي الكنوز المخيفة التي حلم بها الخلق وسعوا اليها من كل فجّ عميق . تقدم من وانتهيط ساحر جليل ، يطوّق رأسه بتاج من قطع الودع ، رفع اليه جرّة دكناء ، ولكن لها قدّ حسناء . لم يستلم وانتهيط قلة الفخار المعتم . اذ كان يحدق في وجه المريدة . حدّق في وجهها حتى غابت الارض . اختفت الصحراء . احتجبت الشعفة المربّعة . تلاشت الأشباح الجليلة أيضا ، ولم تر سوى .. سماء جديدة ، وارض جديدة ، لان السماء الاولى والارض الاولى مضتا * . أخرج من كمّ جلبابه مدية مجوسية . شقّ بها جسد الفتاة عند الصدر . أخرج من القفص طيراً ناصعا سرعان ما ذاب في الفضاء . في العتمة . ثم .. القى بجرّة الفخار الدكناء في الشقّ فغاصت بيسر مدهش . حدّق في الجسد المسّجي فدبّت فيه الحياة ، وانقلب البدن المرن ، بدن الحسناء ، الى حيّة تسعى . مضت الذاكرة أيضا. التحقت بالسماء التي مضت والارض التي مضت ، وحلّ نسيان.

---

* .. سماء جديدة وارض جديدة ، لأن السماء الاولى والارض الأولى مضتا : رؤيا يوحنّا اللاهوتي / الاصحاح ١/٢١ .

Twitter: @alqareah

نزلت « تامنوكالت » * على آزجر ، تحيط بها جموع العبيد والاتباع . دفعت الى وديان تارات قطعان إبل يهشّها رعاة ما لبثوا أن دنّسوا حرم السكون بالجعجعة والهرج والصياح . جاءت الأميرة تسبقها الأساطير ككل أميرة . قيل أنها أبنة أحد زعماء قبائل آير ، قُتِل أبواها في احدى غارات قبائل بني آوى . وقيل أنها حفيدة زعيم آهجّار من أم آزجرية ، ولّما مات ابوها بعد أمّها احتكم الزعيم الحكيم الى الاسلاف وبعث بها الى وطن الأم . وروى آخرون خرافة أخرى تقول أن الأميرة ما هي الاّ فتاة تنتمي أمها الى سكان تادرارت . وقد انجبتها من الافعوان الذي يعاشر النساء اللائي يبتن في العراء في الليالي التي يسطع فيها البدر ويصير سلطانا على السماء . وكان « آكّا » يهيم في الوديان ،يستقي الروايات عن الاميرة من شفاه الرعاة والاتباع والعبيد ، ليبتسم بغموض ، الى أن جاء اليوم الذي انتظرته النجوع طويلا. اليوم الذي أقبل فيه رسل الزعيم يمتطون ظهور المهارى ، يلوّحون في الهواء برقعة من الجلد ، قيل أن الزعيم سطّر فيها برموز « تيفيناغ » ، أمرا يسمح للقبائل بدخول الارض الحرام . استقبلت الصبايا الرسل بالزغاريد العاصفة . وتجمّعت الاقوام استعدادا لاقامة افراح طال انتظارها .

بدأت الشعائر باجتماع أكابر القبائل على القرعة . جاءوا من كل الوديان . يرتدون العمائم الزرقاء ، يلفون مناكبهم بقطع القماش الازرق

---

* تامنوكالت : الأميرة (تماهق) .

Twitter: @alqareah

أيضا . يحيطون بطونهم الضامرة بأحزمة الجلود الموسومة برموز السحرة. تتدلّى من رقابهم قلائد التمائم ، وتومض من أكمام ثيابهم الفضفاضة مقابض سيوف دسّت انصالها في أغماد من جلود الجمال . يخطون بكبرياء الطواويس ، وبطء السلاحف النهريّة ، ويدوسون الارض بحرص الصيادين واحتراسهم عندما يقتفون أثر طرائدهم . يبدون في عتمة المساء كأنهم كوكبة جليلة من زعماء الجنّ .

يجتمعون في العراء .

يأتون بأعواد القرعة في صمت مقدس . ينزل الصمت الجليل على العراء كلّه . على تارات كلّها . على أزجر كلّه . يترقّب الرجال من بعيد . تتلهّف النساء في مداخل أخبيتهن . يبتلع حتى الاطفال ألسنتهم ويخرسون . يتوقف الودّان المقدّس في المراتع عن الرعي . يكف عن اختلاس الاعشاب من شقوق الحجارة الجبلية ويتأهب . ينتظر. تزداد قمة الزعيم ، وطن الزعيم ، مهابة وقداسة وجلالاً وايغالا في الحزن والسكون . فكأنّ الزعيم نفسه يطل من صومعته السماوية ليرقب عن كثب وقائع الاجتماع .يستنفر جنوده في السهول قاطبة ليتسابقوا في ابلاغه بخبر القربان طمعاً في الفوز بالكراء . يتصنّت أمغار في مملكته السفلى ويرفع رأسه المتوّج بأطول قرنين في الصحراء ليستنشق الهواء ويتلذّذ برائحة دماء الاضاحي الشهيّ .

أما وانتهيط فيسخرّ رسلاً من الجنّ . يرتدون لباس الأكابر نفسه ،

Twitter: @alqareah

ويشاركون في القرعة عن كثب . ويقال أن الغلبة دائما لجماعته في مراسم القرعة ، حتى أن كثيرا من الحكماء جاهر برأي جسور دعا فيه الى الغاء هذا المبدأ ، لأن الحظ فيه لا يجري الا بما شاءه وانتهيط ، وذهبوا الي أبعد من ذلك، فأشاعوا في القبائل أن الزعيم قد أوكل لخصمه القديم أمر الصحراء ، ولن يحدث شئ الا بمشيئته . ولكن هذه البلبلة المفاجئة ما لبثت أن انطفأت بأنتفاء الاصوات الجريئة التي اطلقتها عندما قضى الحكماء نحبهم واحدا أثر آخر في ظروف غامضة استعصى أمرها على أعتى السحرة واشدّهم دهاء .

ثم ترتفع اصوات الأكابر ، يبدأ النزاع والعناد ، ثم الرّهان ، ثم القسم ثم .. ثم يعود السكون مرة أخرى . ولا تلبث الاصوات أن ترتفع للمرة الثانية لتمرّ بنفس الدرجات : العناد ، فالرهان ، فالقسم . ولا تعلن النتيجة الا في الجولة الثالثة . هنا يُستدعى النذير ، ويُعطي الاذن باذاعة البشارة وتعميم النبأ .

تنحر القرابين ليبدأ المهرجان .

جاء دور النساء ، فانسحب الأكابر وتنازلوا لهنّ عن العراء . يتقدمن بخطوات أبهى من خطو الغزالات ، يرفلن في أزياء مبرقشة أتت بها القوافل من سواحل الشمال . في اقدامهن المدسوسة في نعال « تمبا » تزركشت رموز خطتها العجائز الساحرات برحيق الحنّاء . في صدورهن تزقزق عصافير العشق. نهودهن تنفخ اللباس الفضفاض .

Twitter: @alqareah

تتمرّد فوقها حلمات راجفة تتلهف للغناء . تنتقل العدوى فيحرق الحنين قلوب الفرسان ، وتجيش صدورهم بالاشجان والاشواق وحمّى الوجد.

أنهن صبايا الصحراء . انهن حسان أزجر في موسم الفردوس .

بالأميرة احاطت صبايا . ثلاث على اليمين، وثلاث على اليسار . سارت بينهن تامنوكالت مثل عذراء تزفّ الى خباء يتربّع فيه العريس على عرش الرمل المهيب . ارتدت ثوبا ناصعا . تلحفت بـ« تابر كامت»* قانية بلون « تفتست » . تحت الرداء النّبيل ، فوق الرأس ، وضعت « ايكرهي » ** ازرق مشبعاً بنيلة يشع منها البريق . جرجرت «الرفيغت»*** على الارض ، ولكنّ قدما موسومة بدم الحنّاء تتبدّى ، مع كل خطوة ، حبيسة قفص « تمبا » . تحت شمس الغسق لمع في معصمها بريق . بريق اذهل رجال السّهل وانزل في صدور الحكماء غصّة حتى أنهم كذّبوا انفسهم وأرجعوا الأمر الى خداع البصر. ولكن البريق الاصفر عاد فومض على الصدر ، وفوق الاصابع أيضا . فكان على العقلاء أن يصدّقوا في النهاية أن السُّوار الذي لمع على معصم الأميرة مسبوك من معدن النّحس ، وقلادة التمائم التي تنام على صدرها ليست محفوظة في رقع الجلد أو قطع الفضّة وانما من نفس المعدن المشئوم . وحتى الخواتم، التي كانت تتغامز وتتلألأ على اصابعها ، كانت مصنوعة من العسجد . من الشرك الذي أطاح بالممالك وأورد الرجال المهالك .

---

* تابر كامت : رداء تتلحفه نساء الطوارق في المناسبات .

** ايكرهي : طرحة فاخرة مشبعة بالنيلة .

*** الرفيغت : جلباب فضفاض ابيض اللّون .

Twitter: @alqareah

من الهباء الغامض الذي استولى عليه وانتهيط وصنع منه سلاحا استعمله في حربه ضد الزعيم ، واستدرج به العشائر والقبائل ولم يجلب للصحراء الا المكائد والدسائس والبلبلة .ولا أحد يعلم الي أي منقلب كان يمكن أن ينقلب أهل الصحراء لو لم يصدر الزعيم مرسوما يقضي بتحريمه وانزال اشدّ القصاص بكل من تسوّل له نفسه أن يتعامل به . وهو مرسوم حكيم وقديم ذاع خبره ووصل أمره الى أسماع أقاصي الصحراء ، حتى أنه صار ناموسا وعرفا أعتمده الحكماء والسحرة واعتبروه من ضمن التعاليم المتوارثة عن « آنهي » . فكيف خطر ببال أميرة تنزل ضيفا على نجوع الصحراء أن تنتهك الحرم وتلبس حلياً مسبوكة من معدن النّحس في يوم الميعاد والفرح ؟. في تلك العشيّة اكتفى الشيوخ بتبادل النظرات الخفيّة . ولم يكن لمراعاة مراسم الضيافة دور في امتناعهم عن التعبير عن استنكارهم والمجاهرة بالرأي . توقّعوا شرّا ، ورأوا بيقين الحكماء أن أمرا جسيما سيحدث طالما لم يفعلوا شيئا يحول دون وميض هباء النّار في رحاب السّهل . ولأنّهم يعلمون أيضا أن التشاور سوف ينتهي الى رفع الأمر الى الزعيم، وسوف يمضي زمن طويل قبل أن يأتي الرّد . ولن يأتي الرّسل بالرّد الا بعد أن يكون الأذى قد لحق السهل . وها هو الهباء المسبوك يلمع بالشعاع المستعار من لهب النّار ، يتحدّى السهل بعين وانتهيط ، فيغمز بالخبث والدّهاء والتهكّم .

تابع الرجال الوفد السّباعي حتى بلغ الحلقة حيث تتجمّع النساء

Twitter: @alqareah

حول الطبول . ورأوا كيف ارسلت قلادة الأميرة الاشارة لتخرق السهل بالمسّ المجهول وتتواصل في حزمة الخيوط الذهبية المرسلة من قرص تخفىّ وراء القمم الجبلية المجاورة لمقام الزعيم .

شيّع العقلاء ،من موقعهم فوق الرابية ، حزمة الضوء بارتياب . ثم تبادلوا نظرات ذات معنى . اعقبوا النظرات بهزات متتوالية من رؤوسهم الملفوفة في عمامات كثيفة زرقاء .

(١٢)

صار البدر سلطاناً امتلك السماء ، ولم يكتفِ ، فامتلك الصحراء أيضا . ازدادت حمّى الغناء . وعندما غنّت الأميرة أنصت سلطان الصحاري والسماوات بجلال يليق برسول الأكوان المجهولة ، كما رفع جمع العقلاء رؤوسهم عن رقعة جلد رأوا أن يسموها بالتيفيناغ ويبعثوا بها للزعيم لأن الحمّى اشتعلت في صدورهم وأعادتهم الي زمن آخر كانت فيه الحياة تبدو خالدة فاكتأبوا ، ويئسوا ، وأحسّوا بالشقاء ، حتّى أن دموعا ساخنة فزّت من محاجر حجبتها الاطراف العلوية للعمامات .

في ذلك الوقت كان آكّا يرتجف في العراء . ولا يعرف أحد كيف زحف حتى وصل الى أكمة تجمّع فوقها الفتيان . استدعى فتى طويلا ، حاسر الرأس ، تشطر رأسه الحليق تسريحة تحاكي عرف الديك. همس له في اذنه قبل أن يضع في يده حبّة من التمر .تفحّصها الفتى تحت ضياء السلطان ، ثم جرى الى حلقة النساء كأنه يفرّ من

Twitter: @alqareah

ثعبان. ولا يعرف أحد ماذا فعل هناك ، ولكنه عاد راكضا أيضا حتى ركع فوق عمامة أكّا المحموم . ظلّ ينحني فوقه ومضات . ثم ابتعد وانضم الى الاقران . و .. فجأة ، انفجر «آكّا» بضحكة هادرة سمعها العقلاء في موقعهم فوق الرابية البعيدة . وعندما تقدّم منه بعض الفرسان قال لهم وهو يتلوّى على الارض : « هل سمعتم ؟ تعلمت الغناء من نواح الرياح في أفواه الكهوف ! هل سمعتم ؟ ها – ها – ها .. أميرة تتعلم الغناء من أفواه الكهوف ! هل سمعتم ؟ ها – ها .. » . ثم ارتجف ، وتشنّج ، وفزّ من فمه زبد كثيف قبل أن يترنّح ويسقط في الغيبوبة .

استلّ احد الفرسان مدية مجوسية موسومة بالتعاويذ وتقدم من الجنّ فوق جسده .

(١٣)

انحل الوثاق فجاء المجذوب الى حلقة الغناء زاحفا على ركبتيه . يترنح يمينا ويسارا ويغمغم بآهات موجعة ، مخنوقة . بلغ الحلقة . توقّف عن الزحف . ولكنه لم يكف عن الجذب . استمر يترنّح دون أن يقف على قدميه . وعندما توقفت الأميرة عن اغنيتها المذهلة التي هزّت السهل وقالت أنها تعلمتها من محاورات الريح في أفواه الكهوف ، هبّ آكّا واقفا كأن ماردا من قبائل الجنّ قد حلّ فيه . قفز الى الحلقة واندس بين الصبايا . ضرب « تهيجالت » * بيده حتى تمزّق الجلد . ثارت بلبلة ،

* تهيجالت : دُنّ من خشب ، فوهته مغطاة بجلد جمل ، ويستعمل كطبل في الأفراح .

Twitter: @alqareah

ولم يلحظ أحد أن فتاة شقية كانت تروّض لحنا بليدا استفزّ المجذوب .
جاء الرجال بـ« تهيجالت » أخرى وتواصل الغناء . جاء دور بنات الاتباع فغنّت صبيّة حسناء ألحان الرعاة ، ولكن المجذوب رفضه أيضا بهزات متتالية من رأسه . تهامست العجائز ، ثم أشرن للأميرة أن تروي فارسها العطشان. ابتسمت الحسناء وهي ترنو الى البدر . تلقت الوحي من سلطان الكواكب . فكافأته بابتسامة سالت لها دموع المجذوب . انفرجت شفتاها عن صفّة ناصعة من الاسنان تحت ضياء البدر ، لأنه بارك بسمتها . طأطأت خجلا قبل أن تنقر بأصابع تومض بخواتم المعدن المخيف ، وتروّض لحنا شجياً استجاب له آكّا بصرخة فاجعة . تبعتها جوقة الصبايا وردّدن اللّحن وراءها . نهض الفارس وبدأ يحجل حول الحلقة . قرعت العجائز على الطبل اللّحون السماوية التي تعيد الى الشيوخ الثقة بالحياة الزائلة ، وتخبرهم بأن الزوال ايضا مقدّس ، لأن الحياة حلقة في رحلة الزوال ، وليس الزوال حلقة في رحلة الحياة. والسحرة الحكماء الذين كانوا أول من اكتشف هذا السّر ، هم أول من وجد الدموع تفزّ من عينيّ آكّا . كان يغالب الشجن ، ويتمايل ، مردداً وراء الأميرة الساحرة لحن الزوال الخالد .

مضى يرقص ويتلوّى ويتوجّع مغمغماً بآهات مكتومة حتى تخلّى السلطان عن عرشه وهجع صوب المغيب .

Twitter: @alqareah

(١٤)

الغيبوبة أعقبها سبات استغرق ثلاثة أيام . وعندما استيقظ ، وعاد من رحلته ، هام في الصحراء . تنقّل بين النجوع وأخبية العشائر . قطع الوديان المجاورة وصعد المرتفعات والجبال . يستوقف السابلة والرعاة ليعيد على اسماعهم جملته البلهاء : « هل تدري ؟ تعلمت الغناء من نواح الريح في أفواه الكهوف ! ها- ها- ها- .. » . وكان العابرون يهزّون عماماتهم المهيبة باشفاق ، يخرجون من امتعتهم حبّات التمر ، أو قبضات من دقيق الشعير ، ليتصدّقوا بها عليه ظنّا منهم أنه أبله تلقّى غضبة سماوية حرّرته من عقال العقل.

ولكن آكّا أبتدع خرافة أخرى أضافها الى عبارته العتيدة . فكان يدور بين الخلق ويتشبّث بتلابيب المارّة يقرأ لهم السّر الجديد : « هل تدرون ؟ ما ضرّها لو قالت أنها تعلمت الغناء من همس الريح في خصلات الرّتم ؟ هل سبق لكم أن سمعتم آهات الريح عندما يعبث بخصلات الرّتم ؟ » .

وعندما ذكّرة بعض الاشقياء أن الأميرة لم يسبق لها أن رأت الرتّم ، لأنها لم تأت من الحمادة ، وانما من صحاري الجنوب ، اضطرّ آكّا أن يستبدل الرّتمة بالأثل . وقد شاء أحد هؤلاء الاشقياء أن يستفزّه فقال له أنه لا يرى فرقا بين صوت الريح وهو يعوي في أفواه المغاور وبين نواحه في أحراش النّبات . ولكن آكّا هبّ فيه مستنكرا : « ماذا أسمع ؟

Twitter: @alqareah

هل قلت لا ترى فرقا ؟ ألم تعترف أن الريح « يعوي » في المغاور و«ينوح» في شعيرات الرتم ؟ أم أن لسانك هو الذي خانك ؟ نعم . نعم . الريح يعوي في الكهوف ، ولكنه ينوح في رؤوس الرتم . ها – ها – ها.. لولا النّواح ، لولا اغنية النّواح ، لما اوقعتني الأميرة في الأسر ». ثم أطلق في السهل أشعارا تتغنّى بشجرة الرّتم ما لبثت أن رددتها الحسان ولحنتها المغنيات . ويقال أن هذه الاغاني استفزّت الاشقياء الذين نسوا ماضي آكّا السحري ولم يعودوا يرون فيه غير ابله فتنته الأميرة وأصابته بالخبل . وذهب الحسّاد فطعنوا في صدق الاشعار وادّعوا أن آكّا لم يذهب الى الحمادة، ولم ير في حياته رتمة واحدة ، وكل قصائده عن «الشّذى الذي يفتح الطريق الى واو » (كما وصف زهرة هذه الشجرة الخفيّة) هي أبيات مختلقة وملفّقة . ولكن آكا لم يتأخر عن الرّد . فما أن سعت اليه الشائعات حتى ترنّح واخفى عينيه بلثامه ووجد نفسه يبوح بذلك السّر الذي دافع به عن النفس وجلب له الشقاء .

قيل أنه قال وهو يترنّح : « اذا جاءت الغيبوبة انفتح الباب على الخفاء وتبدّى ما في الظلمات . اذا وقع المجذوب رأى ما لم تره عين ، وسمع ما لم تسمعه أذن . فكيف يتجاسر البلهاء ويستكثروا على المجدوب الخروج الى الحمادة والتمتّع بمشاهدة اشجار الرّتم وهي تتفتّح؟». زاره بعض الخبثاء ونقلوا له سؤالا ادّعوا أنه مرسل اليه من قبل الحكماء ،يقول : « هل خرجت الى واو أيضا؟ اذا كان الجواب

Twitter: @alqareah

بالايجاب فلا تتفوّه به أمام رسلنا قبل أن تضع يدك على « ادبني » وتقسم بجماجم الأجداد ثلاثا » . فما كان من آكّا الاّ أن ترنّح وانزل اللثام على عينيه ووضع يده على القبر القديم وأقسم بالسّر ثلاثا .

قيل أن السّحرة بحثوا أمر هذه الخطيئة طويلا ، ثم حكموا عليه بالجزاء.

(١٥)

اعتصم برؤوس الجبال ، واعتزل في بطون الكهوف حتى خشيت القبائل أن تكون المغنيات الساحرات قد استدرجنه الى آغرم نودادن . الرّعاة وعابرو السبيل أخبروا أنهم شاهدوه يهيم في الغيران هزيلا شاحبا ، واجما كأنه ممسوس . ولكن وحيه ظلّ حتى ذلك الوقت سرّا . لم يستطع أحد ان يعرف أن آكّا كان يجدّ في البحث عن دم التكوين ، تميمة الارض ، سرّ الاسلاف ، نداء السيرة الأولى . كما لم يدر أحد كم من الوقت مضى قبل أن يعثر العاشق على كنزه ، على دم مقدّس يجري في عروق الارض ، على .. «تفتست» .

بعد العثور على الكنز أختار أنبل صخرة ، وبدأ يخط على صدرها نقوش الخلق .

نحت ، وصقل ، وهيّأ للمعشوقة في الحجر وطنا تسكن اليه . أصيب بالحمّى ، وقاوم الدوار ، وتقيّأ كثيرا ، ولكنه لم يستسلم للسّقم . حاربه المردة وسلّطوا عليه الثعابين والحيّات والسّعالي ، ولكنه أفلح في

Twitter: @alqareah

شحذ الجلمود أخيرا . هام أيّاما أُخر قبل أن يواصل المرحلة الثانية في مشوار الابداع . أتى بحفنات من بعر البعير وطحنها جيّدا . أضاف اليها حليب النوق ومزج الخليط مع مسحوق « تفتتست » النفيس . قبل تنفيذ الشعائر كان قد استدرج عجوزا من خدم الأميرة ليعرف منه اسم سيّدته الحقيقي . ناور الدّاهية طويلا ، ولم يخبره أن اسمها هو « هابا » الا بعد أن دفع له قطعة نادرة من النطرون مقابل الاسم . هام في الوديان مرّة أخرى . سهر اللّيالي وحاور النجوم . أنصت لمخاطبات الجنّ في الغيران واستمدّ الالهام من جلال السكون . تطاول في شعاف الجبال . وراقب السهل من موقعه في القمم المعلقة بين السماء والصحراء. كان السرّ الذي لم يبح به لأحد يحرق صدره . يتململ ويخرق القلب . فلا يملك الاّ أن يتلوّى ويتقلّص وينزف . ظلّ ينزف منذ تلك الليلة التي تلقّى فيها الحربة المسمومة من العين . من عين الأميرة . رفع رأسه عندما ضرب الطبل احتجاجا على لحن غبىّ ترنّمت به فتاة غشيمة ، فالتقت نظرته بنظرتها .عينها لمعت ببريق عندما انعكست في مقلتها أشعة البدر . في المقلة ، في الحدقة ، في قلب العين ، في الجوف المجهول المحصّن بضلفتين جلديتين كأنهما صدفة القوقعة ، تاه . تاه لأنه وجد نفسه فجأة يدخل حرما مهيبا زاره في اسفار السرّ كثيرا دون أن يعرف أين كان ذلك ومتى.شرّع الحرم بابا موسوما بالرموز المقدّسة من ضلفتين ، وتبدّى خلفه، في العتمة ، وطن آخر .

Twitter: @alqareah

وجد نفسه في جوف العتمة دون أن يعرف كيف حدث ذلك أيضا . عبر ممرّا مستوراً بغلالات بلون الحليب ، أدّى الى ممرّ آخر محجوب باستار قانية كأنها الدّم . في الممر الثالث اغمض عينيه لأنه لم يقدر أن يحدّق في الهباء الأصفر الذي يشبه ذرّات التبّر ، كأنّه دخل دار الكنوز . وفي اللحظة التي أغمض فيها عينيه تلقىّ الحربة المسمومة . أحسّ بها وهي تخترق قفص الصدر ، وتغوص في اللحم . تغوص ، وتغوص ، وتغوص . خيّل اليه أنها غاصت طويلا قبل أن تبلغ نهاية المطاف وتستقر في قطعة الصميم المحصّنة بالاقفاص والعظام واللحوم والشحوم : في القلب . ندّت عنه آهة فاجعة ، وأحس بقطعة الصميم تنزف وتستغيث . ولم تتوقف القطعة النبيلة عن النزيف وعن الاستغاثة منذ تلك الليلة . لم يبح لأحد بالسرّ ، لأنه أراد أن يحمل حربته في صدره ويعالج جرحه بوحيه القديم . هام بين النجوع في الأسابيع الاولى طمعا في تلقي الالهام . ثم رجع عن المسعى وطلب الالهام في الخلوة . وما أن التهب بدنه بالحمّى حتى عرف أن الخلاص قريب ، وما عليه إلاّ ان يعدّ الفخ ويختار له وطنا . عثر على الكنز ولجأ الى أنبل جلمود في «آلون » العظيم . ردّد التمائم وتغنّى بالتعاويذ . استدرج الدّاهية واشترى منه الاسم بقطعة نادرة من النّطرون . ولكنه لم يفش سرّ الطعنة حتى آن أوان الخلق . نهض في منتصف الليل ودسّ اصبعه في المزيج المقدّس ولامس جسد الحجر بادئا السفر الجليل . بدأ يرتجف ويتمتم: « هابا .ايو.

Twitter: @alqareah

أزّغ » . * يرفع رأسه الى البدر الغامض ، يتلقّى من اشعته شحنة خفيّة فيعود الى الصخرة . يعيد : « هابا . ايو . أزّغ » بصوت راجف ، مهموس ، يفيض بالابتهال والتّوسل . ظلّ يداعب الحجر برأس أصبعه حتى انشقّ خط الافق عن قبس البشارة . في تلك اللحظة تزحزح رأس الحربة لأول مرّة وتخلّى عن لحمة الصّميم .

(١٦)

في تلك اللحظة أيضا سقطت الأميرة صريعة الحمّى .

بدأ السقم بالشحوب .ثم تصدّع الرأس بالدّوار . تلا ذلك رجفة في البدن ، وضعف في اللحمة المحصّنة بالقفص . في اليوم الثالث اشتعلت بالحمّى وأُصيبت بنوبة غثيان . لزمت الفراش واستدعت السّحرة . تجادلوا طويلا . عند الظهيرة تحوّل جدلهم الى معاندات مكابرة . في العشيّة تشاجروا وتنابزوا بأقبح الألقاب . في المساء طردتهم من الخباء واستدعت الدّاهية العجوز . كان نحيلا ، طويل القامة ، نحاسي البشرة ، يتخفّى وراء قناع من الكتان الأسود . من طرف اللثام العلوي يتبدّى شاربه الموشي بالشيب . انحنى في مدخل الخباء ، ثم سقط على ركبتيه وزحف حتى ركع عند قدمي الأميرة . استمرّ راكعا حتى تلقّى الإذن من الأميرة بأن يرفع رأسه . رفع رأسه فالتقت نظراتهما. شاهد البياض وهو يتبدّل الى سواد . والسواد ينتقل الى متاهة

---

* هابا ، تعالى . اسكني (تماهق) .

Twitter: @alqareah

من الغموض .والغموض يتحوّل الى دهليز مظلم . والدهليز يؤدي الى وطن السّرّ . حرم يخيّم عليه السكون . وقف أمام الباب المهيب المرسوم بالرموز المقدّسة ، المزبور بالختم المجهول . أنفتحت الضلفتان في آن واحد . مضى عبر الممر المستور بالغلالات الناصعة حتى افضى الى ممر آخر محجوب بأستار قانية . في الممر الثالث أغمض عينيه لأنه عجز أن يحدّق في ذرات الهباء الصفراء التي تتطاير في الهواء وكأنها نثار التّبر . هنا رأى الأميرة تجلس على لوح اصفر يحرسه أفعوان مهول . حدّقت فيه غاضبة وهددته بالحرس الذي يقف على رأسها ، بالثعبان ، ان لم يعترف . فهم ذلك دون ان تنطق الأميرة بكلمة ، ودون اشارة أيضا . رفع بصره الى الحرس فرأى كأنّ الافعوان يبتسم . كان يلتف حول عمود عجيب ينتصب فوق رأس الأميرة . له رأس في حجم رأس ابن آوى ، يتدلّى على صدره باسترخاء . جلده خشن ، تعلوه حراشف كأنها لحاء الطلح عندما يهرم . عيناه مغمضتان نصف اغماضة .ولكنه ما لبث أن فتحهما ببطء عندما أحالت عليه الأميرة أمره دون نطق . استمر يفتحهما ويفتحهما حتى رأى فيهما العجوز ما جعله يرتجف ، ويئن ، و.. يسقط مغشيا عليه .

عندما عاد من رحلته وجد نفسه يهجع عند قدمي الأميرة . في المدخل تلظّت السنة النّار فأيقن بنزول العتمة . كانت الأميرة تتكئ على وسادة الجلد المرسومة بالتمائم ، يغمر الضوء وجهها في غمزات

Twitter: @alqareah

متلاحقة ، ولكنها كانت كافية ليشاهد في بياض عينيها لؤم السحرة القدماء . أشاح بوجهه تجنّباً للعين ، تهيأ للأعتراف لو لم يسمعها تقول :

– سوف تذهب وتأتيني بقطعة من ثيابه !

عرف أنه لم يعد في حاجة للاعتراف ، وفكّر كم سيكون اعترافه سخيفا في ملكوت لا يعترف بالكلام لغة للتفاهم ، فركع وقبّل الكليم الذي يغطي العرش الترابي الجليل الذي تتخذه مخدعا . غمغم بألفاظ مبهمة قبل أن يزحف خارج الخباء .

(١٧)

لم يكن صعبا على عجوز داهية أن يعثر للسّاحر على اسمال بنفس القدر الذي لم يكن صعبا فيه على من خالف تعاليم « آنهي » واسترخى أن يرتكب الخطيئة التي ورد في الكتاب المفقود أنها لن تكون الاّ الخطأ الاول والأخير في حرفة قاتلة كالسّحر .

آكّا استرخى وتغافل واقترف الخطيئة .

ترك أمتعته معلقة في جدار كهف من كهوف « آلون » دون أن يطمرها بالحجارة ، فتعقبه الدّاهية وعرف اليها طريقا . أختار من لباسه لحافا قديما مشبعا بالعرق والاحلام والذكريات والرؤى . لحاف قاسم آكّا الحياة ، وشاطره الفرح والفجيعة . مثل هذا اللحاف يساوي ذهبا كثيرا عندما يكون صاحبه ساحرا محترفا . هذا ما تناقله الرواة نقلا عن معجم

Twitter: @alqareah

خفي من معاجم السحرة القديمة . والداهية العجوز سمع هذه الرواية من كهنة الادغال . ومن العرافين القادمين من مدن تهجع على سيوف البحر المحيط عند أعمدة هرقل . ورأى أن اللحاف سوف يكون هدية جديرة بأن تطفئ غضب الأميرة أوّلاً ، ويكفّر بها عن خطيئة في حضرة مولاته ما دامت ستعيد اليها العافية . فكّر أن يبكي بين يديها ويخبرها أن الأدمان هو الذي دفعه أن يفشي السّر .سيقول لها أن الحياة لا طعم لها ولا معنى بدون ملح النّطرون . وملح النّطرون لا وجود له الاّ عند سحرة مثل آكّا .ولكنها غفرت له دون أن يتكلّم . غفرت له دون أن يضطر للبكاء بين يديها . فما أن جاءها باللحاف النّفيس حتى لمعت مقلتاها الغائبتان بفرح طفولي مفاجئ . اضجعت على عرشها الترابي وأمرت الجارية أن تشعل النّار . مزّقت قطعة من اللحاف وهي تبتسم بغموض . لم تلق بالقطعة الى النآر كما توقّع ، ولكنها دلّتها فوق الموقد حتى تعلّق لسان اللهب النّهم بتلابيبها . استنشقت الدخان المنبعث من اللحاف المنسوج بالذكريات والرؤى والاحلام . اللحاف الذي تشرّب عرق البدن في أجل جعل منه الزمان حياة لمخلوق اسمه آكّا . ابتهجت . استعادت قسماتها حيويتها . برقت مقلتاها بالوهج . اختفى الشحوب وعادت للأميرة الحياة . سمعها تتلفّظ بالبشارة :

– لقد غفرت لك !

Twitter: @alqareah

(١٨)

قطع شوطا بعيدا في سفر الخلق . ملأ بدن الحجر باللّحم ، وصوّر العينين وبهاء الوجه، ثم تولّى أمر القدّ قبل أن يكمل رسم الرأس . أحسّ بالارتياح . تخلّصت لحمة الصميم من الرأس المسموم فتنفّس الصعداء لأول مرّة منذ تلقى الحربة القاتلة في الصدر . ولكنه لم يسمح لنفسه بالتوقف عن العمل الاّ بعد أن اتمّ التكوين في ستة أيام فرأى أن من حقّه أن يستريح في اليوم السابع . نام ثلاث ليال متتالية ، ثم ألقى نظرة أخيرة على المعبودة ونزل ليتفقد الأميرة في السهل .

هناك زلزلته الدهشة .

وجدها تتشمّس خارج الخباء مسلّمة شعرها الفاحم الكثيف في يد جارية حبشيّة . وما أن رأته حتى أبعدتها بحركة من يدها وسحبت لحافها القاني فوق الشعر السّخام . ابتسمت بغموض ومرح وعافية . أحسّ برأس الحربة يتلوّى ويتوعّد ويزحف نحو لحمة الصّميم . غمرته القشعريرة والخوف . فأين وقع الخطأ ؟ توقّع أن يرى الأميرة وعاء دون شعلة ، فاذا بها فرح وعافية وغموض . همس لنفسه عبارة المعبودة القديمة : « وراء الأكمة ما وراءها » وصمّم أن يبحث عن سبب الخطأ . تبادل مع الأميرة حديثا مقتضبا أخبرته فيه أنها افتقدته طويلا . تجاهل الاشارة وادّعى أنه سعى في طلب الابل الشاردة لادخالها الحرم قبل أن يفوت الاوان وتنتهك قطعان القبائل العشب البكر . ولكنه رأى في

Twitter: @alqareah

عينيها أنها لم تصدقه . فهل أخفق ؟ هل تدخّلت قوّة أقوى أبطلت مفعول الخلق ؟ هل تشكّكه صبيّة شقيّة في قواه السحريّة ؟ والآّ ما معنى بسمة الغموض في عينيها الخفيتين ؟ وراء الأُكمة ما وراءها . وراء الأُكمة ما وراءها . وراء الأُكمةما وراءها .

عاد الى الشعفة . تفقد الخِلْقة في الحجر . تأمل الحسناء . تأمّلها بخشوع من انتظر أن يرى الحياة تبعث في البدن الفتّان . ولكن المعجزة لم تحدث . اعجوبة الخلق لم تكتمل . وكأنّ الزلزال سوف يضرب الصحراء كلها ما بقيت الصورة صمّاء . انتظر الزلزال حقا لو لم يقرأ في الأبراج الليلة وَحْياً .

في اليوم التالي نزل الى تارات . الى الحرم . مشى الى البحيرات كأنه ممسوس . لم يتمتّع بمشاهدة الجنان والجنائن . لم يبصر احراش الأرض التي تبسّمت . لم يسمع نداءات الطيور في ادغال الرّبيع . ذهب آكّا الى البحيرات . قرأ الرموز الغامضة التي لمعت بها عين الماء . ظلّ يقرأ طويلاً قبل أن ينزع لباسه ويقفز في الماء . هناك ، في الأُسافل المجهولة ، حاور البطّ البرّى الحكيم وأخذ منه السّر الذي أبطل تميمة الخلق .

أجمع الرعاة وعشّاق الازهار المحترفون أنهم رأوا آكّا يخرج من البحيرة قبيل طلوع القمر . ارتدى ثوبه الفضفاض وركض حاسر الرأس متجها الى المنفذ المؤدي الى « آلون» العظيم . وأكّد رعاة آخرون أنهم

Twitter: @alqareah

شاهدوه يتسلّق الحجارة في شطارة ودّان يطارده صيّاد شقيّ . ولم يتوقّف عن الركض حتى دخل المغارة التي ترك فيها امتعته يوما . هناك اكتشف اختفاء اللّحاف فصرخ بأعلى صوت . ظلّت الجبال الليليّة المهيبة تردّد الصرخة الجنونية طوال الليل . من قمم الجبال انتقل أمرها الى عسس الجنّ الذين يحرسون الكنوز . من العسس انتقل الخبر الى الأنس . وعندما بلغ الأمر الانس هرعوا الى المكان ليجدوه مغشيا عليه وقد تدحرج من الجبل حتى سقط عند الحضيض .

في غيهب الغيبوبة غاب ثلاثة أيام .

(١٩)

ما أن استعاد العافية حتى استقبل رسولا من الأميرة زاره كي يزف له بشارة . قال أن الأميرة اوكلت له أن يبلّغه بأنها قبلت العرض . لم يصدّق ما سمع . أيعقل أنها قبلت العرض ؟ أيعقل أنها فكّت رموز السرّ في قلبه البائس؟ أليس هذا برهانا آخر على اتقانها لحرفة لم يظنّ أن في الصحراء مخلوقا واحدا أتقنها وادرك أسرارها مثله ؟ أليس هذا دليلاً أن آنهى لم يخطئ عندما قال أن ثمة عالماً فوق كل ذي عِلْم ؟ هرع الى السهل . ذهب الى خباء الأميرة . جاءها في امسية نصّب فيها البدر نفسه سلطانا على الأرض وسلطانا على السماوات . تقرفص قبالتها واثنى على استتباب الطقس كثيرا . ثم تحدّث عن الفردوس في الحرم ، وغنّى لها اشعارا قال أنه سمعها من الطيور الخفيّة التي تتخذ من احراش

Twitter: @alqareah

الحرم اعشاشا لها . انصتت الآميرة بجلال . واستضافته بابتسامة شهيّة من عينها المسكونة بالسّر والسحر والغموض . استجابت لحمة الصميم لبسمة الجنّ بالرقص والفزّ والقلق . قدّم له أحد عبيدها وعاء مليئا بحليب النّوق. وضع الوعاء قدّامه ، ولكنه لم يرتشف جرعة واحدة . غالت الأميرة في سخائها وبالغت . فما أن توقفت عن الابتسام حتى استبدلت العطية الاولى بعطية أخرى أحسن منها . قالت :

– قبلت عرضك !

هبّ واقفا . فزّت لحمة الصميم . ارتجف البدن . واصاب الرأس دوار . غمغم :

– حقاً ؟

ردّت بابتسامة . نفس الابتسامة التي صنعت منه أسيرها . مريدها. عبدها . قال وهو ما يزال يرتجف :

– ظننت أنني .. أنني اخفقت !

لم تجب فأضاف وهو يسقط ارضا :

– انت تعرفين ماذا يعني أن يخفق العاشق في نيل المعشوقة !

سلّط السلطان السماوي حزمة من ضوء على العين الباسلة .

تلقت العين الهبة فلمعت بالبريق القديم . البريق الأول . البريق الجذّاب الذي يمتد في خيوط تصنع نهايتها نصل الحربة . أصاب النصل فم اللحمة اذ نطقت بالسّر :

Twitter: @alqareah

- ولكن مخدع الأميرة لا يستقبل العشّاق دون شروط !

فزّت حول شفتيه قطع صغيرة من الزبد . سحب لثامه ليداريها فاصطكت اسنانه بشدّة . حكّ صدره بيسراه علّه يوقف النّصل قبل أن يتوغل في لحمة الحياة ، ولكن الضربة قصمت ظهره اذ سمعها تنطق بالهول :

- ستأتيني برأس آمغار !

فزّ مرّة أخرى لأن النصل الشرس كان قد اخترق البرزخ وأصاب الصميم . ردّد بذهول :

- رأس آمغار ؟

- رأس آمغار ثمن مناسب للفوز بمخدع الأميرة .

اشتعل جسده بالحمّى . حاول أن يحتّج . أن يعترض . أن يرفض. ولكن هيهات . النصل استقرّ في القلب . لحمة الحياة وقعت اسيرة في قبضة الأميرة . فأيقن أن شعائر التكوين قد اخفقت واللحاف الذي تهاون في اخفائه كان السبب . همهم :

- آمغار ؟

لم تجب . رآها تنهض كأنها طيف من أطياف الجن في تادرارت ، وتلج الخباء . قبل أن تختفي حانت منها التفاتة فرأى أن الغموض في العين قد استحال الى غضب . الى وعيد . الى خطر . تقلّصت لحمة الحياة وفزّ منها دم غزير . رفع رأسه الى أعلى فشاهد كيف أسودّ سلطان

Twitter: @alqareah

الأرض والسماء وتوارى خلف حجاب مفاجيء .

(٢٠)

عاد الى الأعالي . اعتصم بالغيران . اعتزل هناك أسابيع كاملة . يحترق بالحمّى ويعارك مردة الجان حتى يئس من الشفاء . نزل الى الوديان . هام طويلا قبل أن يذهب الى السهل لزيارة الأميرة . ولكن الحسناء رفضت استقباله . بعثت له برسول نقل له وصيّة منها تقول : « لن ترضى الأميرة أن تستقبل في مخدعها رجلا خلا من البطولة » . فرجع الى « آلون» . أشتدّ به السّقم فقصد تارات . قال الرعاة أنه ظلّ يردد اسم آمغار طوال الطريق . وعندما بلغ الحرم توقّف تحت طلحة وسطرّ رموزاً على رقعة جلد بعث بها الى اطلانتس الذي كان وقتها منشغلا برعي الأبل في مراتع الربيع . كان آكّا قد انتوى بمجيئه زيارة الابن . ولكنه تراجع عند مشارف الفردوس وآثر أن يحرّر مكتوبا . ويقال أن الرقعة أحتوت وصية وداع موجهة لاطلانتس . حذّره فيها آكّا أن يتجنّب النساء ، ويحترس من التورط في الاقتران مع بنات الأغراب . وروى رواة آخرون تفاصيل أخرى وردت في تلك الوصيّة الغامضة ، ولكن كثيرين رأوا أن تلك التفاصيل ما هي الاّ قصص اختلقها الفضوليون وهواة الملاحم ولا علاقة لها بنص الرقعة الأصلي .

آكّا عاد من منتصف الطريق . لم يجتمع باطلانتس ، تحت ظلال ادغال الشجر كما قضى العرف ، لم يحدّثه عن الجلّيّ والخفيّ في

Twitter: @alqareah

الصحراء كما يفعل سحرة الصحراء عندما تحين غمضة الفراق . آثر أن يخطّ كلمته الأخيرة على رقعة لأنه جبان . بلى . الأميرة على حقّ عندما قالت أنها لا تقبل أن تستقبل في مخدعها رجلا خلا من البطولة . الأميرة لم تخطيء . وهي أرجل منه وأنبل . وها هو يرتكب اليقين . ها هو يقدّم لنفسه البرهان على أنها لم تخطيء اذ رفضت استقباله . ولكن عزاؤه فيما انتوى . العزاء الآن في قراره بالنزول الى اسافل المملكة السفلى لا طمعا في نيل الأميرة ، ولكن كي يبرهن لنفسه أن ما زال فيه بقيّة من رجولة . كان آمغار ينتصب في وجهه منذ تلك الليلة التي سمع فيها الهول من شفتي الحسناء . يراه في الصحو وفي المنام . يرفع على رأسه قرنين هائلين . يقف بقامته الماردة ويحدّق فيه بعينيه الكحلاوين الغامضتين . يتخفّى في جلد الودّان المقدّس . يتنكّر في مسوح السّلف الأول صامتا . لا ينطق . لا يقضم العشب السّخيّ . لا يأتي بحركة . يتجلّى بوقار السّحرة الأوائل ويصرع الاعداء بالسـلاح القـديم . سـلاح يكمـن في جــلال السكينة الذي اكتسبه بالاعتزال والخلوة . وكان آكّا يتحاشى عينيــه . في المقلتين العميقتين ، في البئر التي لا قاع لها ، في مأوى السّر هذا ، رأى آكّا دائما خطراً . فكان يحتمي بالأسم كتميمة . يردّد « آمغار» ليتحصّن من العينين بالاسم ، ليهرب من آمغار الى آمغار ، ليحتمي من آمغار بآمغار . واذ ردّد الاسم مرارا في طريق العودة ، فانه ما لبث أن صار لغته الوحيدة عندما بلغ شعاف «آلون» .

Twitter: @alqareah

هناك اختار الحجر الذي هيّأه كشرك لسلطان مملكة الودّان . ذلك نصب يليق بآمغار . كان لوحاً عموديا رشيقا . صقيل الصّلد طويل القامة . بهيّ البدن . بدأ عمله مع مَيلاد القبس متمتما بالتميمة ، مغمغما بـ «آمغار . ايو . ازّع» ، ولم يتوقّف عن اداء الشعائر الاّ مع حلول الغسق. بدأ ينصب الكمين .

بدأ بالقناع . في القناع يخفي آمغار سرّه . اذا لم يفلح في تجسيد الرأس الملفوف بالقناع فلن يتمكن من استدراج السّلف المقدّس . اذا لم يتقن رسم القرنين المعقوفين الهائلين ، اذا لم يلتقط المنخار ، الخطم ، العينين ، فان آمغار سيظل طليقا في المغاور ، سيبقى خارج المصيدة ، خارج الكمين ، وسوف يخبره الطير ، مولا - مولا ، أو تيرزازت ، وسوف ينزل الى الأسافل . سيتوغل في « آغرم نودادن » ليتحصّن بالصخور السّفلى . اتقان الفخّ يعتمد على اتقان القناع . اتقان القناع يكفل اصطياد ما وراء القناع ، ما يخفيه القناع. ما يخفيه القناع هو المفتاح ، هو التعويذة ، هو الأصل ، هو السرّ . وعمله كله بحث عن هذا السرّ . السحرة الأوائل يؤكدون ذلك دائما . هذه القناعة جعلته يهب تجسيم القناع ثلاثة أيام كاملة . ولا يستطيع أن ينسى ما حدث عندما فرغ من القناع ولم يبق الاّ تكوين العينين . كان يجذب وينثر الزّبد، ويرتجف . يقترب من جدار اللّوح ويبتعد . يرقص حول النصب المقدّس طويلا كلما افلح في اصابة الحجر باشارة من اشارات تفتست :

Twitter: @alqareah

من اشارات التكوين ، من دم الأرض ، حتى اذا أكتملت الصورة ، ورأى العينين المقدستين ، اللتين تشبهان عين الماء في البئر ، ركع على ركبتيه . حدّق في وطن السّر مأخوذا . ماذا رأى هناك ؟ هل هو وعيد ؟ هل هو فجيعة ؟ هل هو علامة من علامات الفناء ؟ أم أنه رأى لنفسه النبؤة التي لم يكن منها بدّ ؟ لقد صاح بعد ذلك صيحة طويلة موجعة ، سمعها الرعاة وعابرو السبيل ، وتوسّل وهو يغطي وجهه بذراعه ، وعندما لم تستجب الحدقتان الخفيتان للتوّسل سقط على الأرض يتلوّى . ولم ينج من الخطر الا بعد أن غاب في الغيبوبة . وبرغم الانهاك الذي اعقب الرحلة الا أنه أكمل في اليوم التالي . غطّى القناع بوشاح قديم حتى يخفي الرؤى في العينين . استمرّ في العبادة . ينكبّ على النصب كالعاشق ، يغنّي له المواويل الشجنية ، ويرقص حوله رقصات المجذوبين المصابين بحمّى الوجد . ولم يسترح الاّ في اليوم السابع .

(٢١)

استراح ثلاثة أيام .

نزل الى السفوح وتلقّى حليب النوق من الرعيان ، وذاق طعم الطعام لأوّل مرّة منذ اسابيع . ولكنه لم يسهر ولم يقاسم الرعيان السّمر. تسكّع في الجوار ، قطع الوديان ، تسلّق السفوح ، زار أشجار الطلح ، وتمسّح بجلاميد «آلون» كأنه يستغفرها ويعانقها بوداع الأبد . وما أن دخل الصحراء ضياء وعاد الزمان بالبدر لينصّبه سلطانا على الخلاء ،

Twitter: @alqareah

حتى بكى . ظل يبكي ، يرمق البدر ، وينتقل في ارض مقدّسة بدا له كأنه يراها لأوّل مرّة . استعاد تعاليم الكتاب المفقود ، وتذكّر ما أورده الحكماء من أن الصحراوي لا يعرف معنى الصحراء التي اطعمته من جوع وآمنته من خوف الا عندما يحين الوقت ويتهيّأ لفراق الصحراء .

ذهب الى مغارة في سفح « آلّون» الغربي كان قد أخفى فيها متاعا منذ عامين . أزاح كوما من الحجارة واستخرج ترسا قاسيا مصنوعا من جلد البعير. نزل وسار في بطن الوادي مسافة طويلة . انحرف مع الوادي وتلوّى مرارا قبل أن يتوقّف ويتفقّد العلامة . رأى طير البومة الذي صنع له كمينا عابرا وثبّته في صخرة مميّزة ، مثلثة الاضلاع ، تهجع على شط الوادي الأيسر ، الشرقي . صعد خطوات . توقّف عند الصخرة . التفت . يمّم شطر المشرق . بدأ يقيس المسافة بخطوات واسعة ، وهو يتمتم مع كل خطوة : « ايّت – سناتت . كراضت . سموست . سضيست . أسّاهت » * .

في الخطوة السابعة توقف وركع فوق الارض . حفر بكلتا يديه . استخرج من الحفرة جلودا ملفوفة في أسمال من القماش فتكت بها الأرضة . قطع الجلد أيضاً فتكت بها الأرض ، ولكنه لم يبال . حملها في كيس وعاد الى الموقع . في الطريق عرّج على غار في الأعالي . مكث مع الجنّ في الظلمات، ساعة ، ثم خرج من هناك برأس ودّان .

---

* واحد ، اثنان ، ثلاث ، أربع ، خمس ، ست ، سبع . (تماهق) .

Twitter: @alqareah

كان متوّجا بقرنين هائلين معقوفين الى الوراء ، ثم الى الأمام . دسّ المتاع في غرارة منسوجة من شعر الماعز . توسدّها وهو يهجع في السفح .

تخلّى سلطان الضياء عن عرشه السّماوي . حلّت العتمة الكئيبة التي تعقب اختفاء القمر . حاول أن يغفو . لم يقدر . نهض . لملم متاعه. حمله على منكبيه وعاد الى النّصب . توقف الجنّ عن الثرثرة .

تصنّتت الصحراء ، تابعت أرتطام نعليه بحجارة السفوح .

(٢٢)

ما أن تدخّل القبس البتول واوقف عناق السماء والصحراء حتى أصبح متأهباً . تلحف بالجلود . نصّب فوق رأسه قناع الودّان فارتفع التّاج المهيب المكّون من قرنين معقوفين الى الوراء ، ثم الى الأمام مرة أخرى . تربّع في مواجهة الحجر . تابع الخطوط التي جسّمت الملامح وبعثت آمغار من منفاه في ظلمات آغرم نودادن . ولكنه لم يمزّق القناع . لم يمط لثام الكتّان عن البئر ، عن السّر ، عن الوطن الخفيّ ، لأنه آثر أن يتحصّن بقراءة التعاويذ .

تمتم طويلا حتى أنه لم يعرف متى استيقظت الحسناء الفتيّة من الظلمة وغزت الصحراء بأصابعها الارجوانية * . أنعكس الشعاع البكر على النصب الذي يماثل مسند السرج في كبريائه . تململ الزائر في جلسته . مدّ رأسه الى الأمام . تابع أصابع الحسناء وهي تزيل العتمة عن

* استيقظت الحسناء الفتيّة من الظلمة بأصابعها الارجوانية : هوميروس « الاوديسة » .

Twitter: @alqareah

ألوان الخلق . غمغم بصوت مبهم . ترنّح كالمجذوب . تمدّد بجسمه . ارتفع عن الارض اشبارا . ولكن القامة لم تنتصب تماما ، لأن البدن ظلّ مشدودا الى الارض في وضع أفقي . ظهره مقوّس ، وما كان أياديا وأرجلاً استحال الى قوائم أربع . تحوّل المخلوق المدهش الذي كان يدب على قدمين وزال مع الأرض التي مضت والسماء التي مضت . تنقّل حول النصب بحذر . ثم تقافز في الهواء بشقاوة الجداء . عاد يغمغم بصوت مجهول ، ثم دار وراء الحجر . تصنّت لحظات قبل أن ينهش الخرقة التي عصب بها عيني آمغار عندما كان مخلوقا يقطن الارض الأولى ، ويتقن الحِيَل . زفر الهواء بخياشيمه وقفز في الفضاء بمرح قبل أن يدور حول الحجر ويقف في مواجهة بحيرة الغموض والصمت والأشباح . حدّق في المياه الفضيّة ، تابع الألق المبهم ، ورأى مخلوقات مقطوعة الرؤوس ، وأخرى نبتت لها الرؤوس في الاقدام السفلى ، وحاول أن يستعيد علاقة لابد أن تكون حميمة، أقامها يوما مع هذه المخلوقات ، ولكنه نسي . لم يستطع أن يتذكر . وحتى عندما خرج وانتهيط من البحيرة واخبره بحقيقة المكيدة مقهقها على طريقته القديمة، لم يرف له جفن . ظلّ يتلوّى ضاحكاً ويتحدّث عن الكمين اللئيم . ولكن المخلوق المشدود الى الأرض بأربع لم يبال ، ولم يفهم ، ولم يستجب للاستفزاز حتى وقع وانتهيط في اليأس . ولم يكن وانتهيط ليعترف بهزيمته لو لم يعرف أن الصحراوي يدخل مملكة الودّان

Twitter: @alqareah

والاجداد الاوائل اذا فقد الذاكرة وتحلّى بالنسيان . واذا دخل ارض النسيان والأوائل فقد لغة التفاهم مع وانتهيط أيضاً . وفيما كان الرعيان يتابعون مخلوقا محشورا في جلد آخر ، على رأسه يقف قرنان معقوفان الى الوراء ، يتقافز على أربع ، يسلك طريقاً ترابط على رأسه المغنيات الساحرات ، يتحاشاه تجّار القوافل ويهرب منه الرعاة وعابرو السبيل ، كان وانتهيط ينتحب يومها بدموع حقيقية ، ويعيد حكمة غامضة يحلو له أن يعيدها دائما : « أنا جزء من تلك القوّة التي تريد الشر دائما ، ولكنها تفعل الخير دائماً ».

(٢٣)

لم تفتقد القبائل المرابطة في فم الحرم غيبة آكّا ، لأنها لم تتوقع للساحر أن يعود من كمين نصبه لنفسه . حتى اطلانطس لم يفتقد أباه اذ لم يره أحد معتصما باعتزال أو صمت أو حزن . وقيل في النجوع أنه دفن أباه يوم تلقّى منه تلك الرقعة الجلدية الخفيّة ، دون أن يجد نفسه مضطراً للالتزام بالوصايا . فما أن غاب الأب الذي حذّر الابن من التورّط في علاقة مع نساء الأغراب حتى قرعت في السهل طبول تنبيء القبائل باقتران اطلانطس بالأميرة .

كانت جنان الحرم قد ألهت النجوع لحدّ أنساها الفضول ، فلم تدر كيف قبل الأبن أن يرث حسناء يعرف أنها دبرت المكيدة ضد أبيه ، ولا كيف قبلت سلطانة المعدن المشئوم الارتباط بأبن رجل ساحر رأت

Twitter: @alqareah

فيه عدواً . ولكن قيل أن الأميرة لم تدبّر الكمين للأب الاّ كي تستولي على الأبن . وما أن غاب آكّا في غيهب المملكة السفلى حتى بعثت بعبدها العجوز ليخبر اطلانطس بوصيّة تقول فيها أن العرف جرى بأن تقترن الحسناء التي هلك رجلها سعيا وراء القربان بوريثه الذي بقي على قيد الحياة . وقالت أيضا أن الابن جدير بنيل حسناء رضي بأن يرى أباه يقدّم نفسه قربانا لها . ويقال أنها اشترت المؤن من القوافل العابرة ، واشعلت النّار في السهل استعدادا للفرح دون أن تنتظر جواب اطلانطس . فلم تعرف القبائل عما اذا كانت الثقة في النفس (التي تتحلّى بها كل حسان الأرض) هي سبب هذا اليقين ، أم أن هذا العمل هو تأكيد لما قيل بوجود علاقة خفيّة بين الاثنين يرجع عهدها الى الأيام الأولى التي نزلت فيها الأميرة ارض آزجر . ولم تكن العلاقة لتبقى خفيّة طوال هذا الزمان لو لم يرتكب آكّا الحماقة ويتدخّل لافساد العشق.

وفيما كان السهل يعج بالجموع ويضج بالصخب والغناء ودقات الطبول ، كان السّحرة يرسمون أقدار الحمقى ويعدّون للخلق خططا أخرى . ويقول الرعاة الحكماء أن الكمائن شريعة في الصحراء منذ الازل . فما أن يندفع البلهاء للرقص ويصيحون بالفرح حتى يهرع هؤلاء الآلهة المخيفون للاجتماع ليعدّوا للصحراويين مصيرا آخر . في ذلك اليوم أيضاً أعدّوا للعاشقين مصيرا آخر .

Twitter: @alqareah

الحقوا رقعتهم القديمة التي بعثوا بها للزعيم برقعة سرّية أخرى . وبرغم أن النّص بقي خفيّا الاّ أن التكهنات قالت أنهم ذكّروا الزعيم بخطورة السكوت على ادخال معدن النّحس الى مملكة آزجر . وحذّروا الزعيم أنه ان رضي بالكفر وسكت على الحنث بالوعد فانهم سيضطرون للهجرة ، لأنهم لا يريدون أن يدخلوا في عداوة مع الجّن . ويبدو أن التهديد بالتخلّي عن المملكة أربك الزعيم فجاء الرّد قبل أن تضع الأميرة مولودها الأول . كان ردّا يليق بزعيم آزجر . فلم ير أحد كيف تسلّقت الاشباح المحتجبة بالسواد المهيب سفوح «آلّون» العظيم مع نزول عتمة المساء ، ولم تتوقّف حتى بلغت جلموداً في الأعالي تلقّى يوما تميمة شاء لها وانتهيط الاّ تكتمل ، لأنه دبّر لمبدعها البائس مصيرا آخر . ولكن السّر الذي اخفاه وانتهيط وغاب عن الساحر لم يكن ليخفى عن الزعيم الذي تقاسم مع وانتهيط الماء والملح قبل أن يدب بينهما الخلاف . فبعث برسل قرأوا على الرسم اسم « تانّس» بدل الكنية المستعارة « هابا» .

تقدّم أحد الأشباح واشعل بجوار الجلمود نارا . أخرج الشبح الثاني من كمّه وعاء صغيرا ، مستديرا ، مصنوعا من جلد البعير . كشف الغطاء ودسّ سبابته النحيلة في السائل الأحمر . ارتجفت شفته السفلى كما تنوس اغصان الرّتم عندما يهب القبلى ، ولكن لم يلحظ ذلك أحد، لأن شفته السفلى كانت محتجبة خلف اللثام الأسود . جحظت عينا

Twitter: @alqareah

الشبح الثالث وهو يشيّع رأسه نحو السماء . في تلك اللحظة أنطفأت النجوم لأن سحبا مفاجئة ما لبثت أن غزتها . ردّدت الاشباح الثلاثة في صوت مفاجيء : « تانس ! » . خطف الجلمود النداء وردد بصوت أكثر جلالا : « تا – ا – ا – نس .. » . تناقلته القمم الأخرى ، ومضى يتردّد في الصحراء من قمة الى قمة ، ومن جلمود الى جلمود ، حتى نقلته الحجارة من لغة الانس الى لغة الجن ، ولم تطمئن قلوب السحرة الا بعد أن تلقته من جديد من أفواه أهل الخفاء فايقنوا أن السّر زال ، والتميمة انتهكت ، ولا بد أن يكون وانتهيط اللئيم قد أصيب بالسقم ، لأن مخلوقا في السهل سقط الآن . مخلوق السهل لم يسقط فحسب ، ولكنه أسقط جنينا لم يمض عليه في الاحشاء سوى سبعة أشهر . هرعت النساء الى مخدع الأميرة ، وهبّ اطلانطس الى الاخبية سعيا وراء العجائز . في شعفة الجبل لوّث الشّبح بدن الحجر بدم التكوين . استمّر يجرّ اصبعه على التكوين متمتما بالتمائم المبهمة ، حتى اذا امتصّ البا.ن الدم من الأصبع دس السبّابة في الوعاء وتزوّد بـ «تفتست» المخلوطة بحليب النوق وبعر البعائر .

استمرت الاشباح تمارس شعائر الخلق في رأس الجبل ، واستمّر المخلوق الارضي يتوجّع ويدفع بالجنين الى الحياة في السهل . وما أن ارتفع صوت الوليد بصرخة الاستهلال ، وتناقل سكان الخفاء نداء الميلاد، حتى توقفت الاشباح عن العمل . رفعوا رؤوسا سوداء الى

Twitter: @alqareah

السماء الظلماء وصاحوا بصوت واحد : «تانس» . مضت القمم تردد النداء في حين تناول أحد الأشباح الثلاثة قادوما مخيفا من الحديد هوى به على البدن . اهتز الجلمود . توجعت السماء ، سطّر المجهول شررا مبهما على قرطاس الظلمة ، كأنّ وانتهيط أراد أن يحرقهم انتقاما . بعد الشرر جعجع الرّعد ، كأنّ وانتهيط أراد أن يخسف بهم الأرض . ولكن.. السّر أنكشف ، والتميمة أُنتهكت ، وتانس لفظت انفاسها الأخيرة .

قيل أن اطلانطس أصيب بالمسّ في اللحظة التي هجرت فيها محبوبته السهل لتترك بين يديه الوليد . فخرج من الخباء وركض عبر الظلمة حاملا الطفل بين يديه . ويبدو أن صراخ الوليد هو الذي أعاد له العقل . ولكن ذلك لم يدم سوى ومضات . فما أن ألقى بالطفل بين يدي أول رجل ادركه ، حتى ابتلعه الليل الى الأبد .

لم يره أحد بعدها .

وبرغم اختلاف الروايات الا أن العقلاء أكّدوا أن اطلانطس لحق بأبيه ونزل آغرم نودادن . وتساءلوا : كيف ينجو من بئس المصير من خالف الناموس واستهان بوصايا الأب ؟

(٢٤)

نزل الاشباح الى السّهل في نفس الليلة وبدأوا في جمع الكنز .

Twitter: @alqareah

كانت الهرجة في ذروتها ، ولكن الرّسل لم يأبهوا لشيء أبدا . مضوا الى الاخبية اولا ، وأستخرجوا من الصناديق كل حلى الأميرة . جمعوها في غرائر ، ثم امتدت أيديهم الى صدر كل امرأة تلقت عطيّة ذهبية من أميرة الأغراب . وقد ظلت القبائل تروى لسنوات طويلة كيف لم تُخْفَ اصغر قطعة عن أيدي هذا الثالوث المخيف . وما زال الفضوليون يتندرون كيف ظنّ أحد الرعاة البلهاء أن حلقته الذهبية قد نجت من أيدي السّحرة لمجرّد أن عقله العبوديّ حدّثه بأنها ستكون في مأمن اذا اتخذها لجاما وثبتّها في خطم الجمل . ولكن أحد هؤلاء الجان غاب في الظلمة وأختار هذا الجمل من بين مئات الجمال الأخرى . أناخه أمام الخباء وحمّل عليه غرائر الكنز . اختفوا في الظلمة ، فلم يعرف أحد الى أين ذهبوا ، كما لم يعرف أحد قبلها من أين جاءوا . ولكن ما عرفه السهل هو أن الجمل عاد في اليوم التالي مجردا من اثقال البارحة ، وقد اختفت الحلقة الذهبية من خطمه.

قيل أن الثالوث ينتمي الى أهل الخفاء ، جاء الى السهل كي يسترد كنوز الأميرة ، بدعم مجمع السحرة ، في حين ابتسم السّحرة بغموض وابوا أن يعلّقوا عن مصير الكنز .

(٢٥)

ظنّ العبد العجوز أن مولاته هلكت لأنّه أذاع سرّها . ولم يدر المسكين يوما أن المرأة التي جاءت الى آزجر لتسترد نسل الأم من صلب

Twitter: @alqareah

الأخ لن يذاع لها سرّ حتى لو شاءت ، ليس لأن قلب الغريب هو كنز السّرّ في شريعة الصحراء ، ولكن لأن المجهول الذي بعثِ بها رسولا ، اودع فيها أسرارا كتب عليها ألا تعرفها هي نفسها . وعندما أراد العجوز أن يكفّر عن خطيئته المزعومة لم يجد غير الوليد الذي تيتّم في المهد يغدق عليه حنانا حرم منه . وقد حرص بنفسه أن يجعل له اسما يليق بمن تيتّم قبل أن يرضع حليبا من حلمة الأم ، فحمله بين يديه في اليوم السابع ، وغسله بأصابع الشمس الارجوانية ، وصرخ في أذنه باسم اعتادت قبائل الصحراء الجنوبية أن تطلقه على كل من تيتّم في قماط المهد : بوشا ! كان يحشو فمه في أذن الرضيع ويكرر : « كر – ر – ر – ر .. ايسمنك بوشا » * ثم يلوّح به في الهواء ، صوب الشمس ، بعد كل صيحة ، ليتغسّل بفيض الشروق .

ويقال أن سحرة القبيلة شاهدوه من مداخل أخبيتهم وهم يتبسمون . نفس البسمة الساخرة ، الغامضة ، الخالدة ، التي تنطبع على شفاههم وتلمع بها عيونهم عندما يطيب لهم أن يراقبوا افعال الخلق البلهاء الخالية من شرر السّر . ولأنهم يعرفون أن السّر مهنة السحرة فانهم لم يلبثوا أن تخاطبوا يومها بلغة التيفيناغ التي لا يتقنها سواهم . شرعوا يرطنون بحروف الأبجدية الملحونة ، وتبعوا الخطاب بهزات مهيبة من عماماتهم الزرقاء ، واصدروا أصواتا خفية بصدورهم ، ثمّ

---

* كرّ – ر – ر .. اسمك بوشا (نداء تصرخ به القابلة في أذن الوليد) .

Twitter: @alqareah

تقاطروا على خيمة الاجتماع . تجادلوا هناك طويلا ، وبعثت العجائز بالصبيان ليتجسّسوا عليهم ولكن السحرة الدهاة الذين عرفوا حيل العجائز توقّفوا عن التخاطب بلغة الصحراء ليعودوا الى اللغة السّرية كلما جاءوا على ذكر بوشا ، فلم يعد الصغار الى جدّاتهم الاّ بلفظتين بدتا أشد غموضا من ابجدية « تيفيناغ» نفسها هما : « المنفى » و«الشقاء». وكان على حكمة العجائز أن تجد لهما تفسيرا. ولكن ما نفع العجائز في الصحراء اذا عجزن عن ايجاد تفسير لرموز « آنهى » ، أو طلاسم الكنوز ، أو ما خفى عن العقول البلهاء في مخاطبات السّحرة ؟

بعد اجتهاد العجائز سارت في آزجر الروايات . تناقلت القبائل خبر بوشا فقالت أن السّحرة حكموا عليه بالمنفى لأن سلالته الشقيّة سوف ترمي السهل بما هو ألعن من نحس التّبر الذي أرادت به أمّه من قبله أن تهلك به أرضهم النبيلة . ولأن من سبقهم قد جرّبوا من قبلهم أن الأخت اذا أخذت النسل من صلب أخيها وأصبح الخال للابن أبا فسدت الأرض ، وحلّ الجدب ، وعمّ الخراب . واذا أرادت القبائل أن تبقى على الخير في ارض الحرم فليس أمامها الاّ أن تلحق الأبن بالأب ، بالسّلف . ولمّا لم يعرف أحد كيف السبيل الى ذلك رأى مجمع السحرة أن يتولّى الأمر بنفسه كما أعتاد أن يفعل في تلك المواقف التي تهدّد القبيلة بالزوال . تنادوا للاجتماع مرارا ، تبادلوا الهزّات برؤوسهم كثيرا ، وتخاطبوا باللغة السريّة طويلا قبل أن يخرجوا للملأ بالبشارة .

Twitter: @alqareah

قالوا أنهم أستطاعوا أن يلحقوا الخلف بالسلف دون أن يفهم أحد كيف حدث ذلك اذا كان بوشا ما يزال في تارات تحت رعاية العبد العجوز . وحتى العقلاء لم يفهموا اشارة السحرة الاّ بعد سنوات طويلة عندما ترعرع الولد وكبر وأصبح لا همّ له في الحياة الاّ أن يهرب من الخلق ويطارد الودّان في الجبال . حاول أهل الفضول أن يجدوا تفسيرا لهذا الطبع فلاحقوا العجوز بالسؤال ، ولكن العبد القديم الذي ظنّ يوما أنه أهلك مولاته لأنه أفشى سرّها للاغراب ما لبث أن مات حتى لا يجيب عن سؤال رأى فيه خطرا على حياة ذريتها .

لم يزد موت العجوز الأمر الا غموضا . والغموض هو الذي يغذّي روح الفضول في صدور أهل الصحراء . وعندما تمادى بوشا واتخذ من مطاردة آمغار حرفة له بحث العقلاء عن سرّ المنفى مرة أخرى . لم يطل بهم البحث هذه المرّة لأنهم اكتشفوا التعويذة فانتهى بهم الأمر الى أن السّحرة لم يلحقوا الخلف بالسلف جسدا ، ولكنهم فعلوا ذلك عندما ذهبوا بعقله . دبروا مكيدة وذهبوا بعقله . بلى . بلى . ما بوشا اليوم الاّ مخلوق أبله يسكن الشقوق ، يقتات نبات المرتفعات ، يلاحق الودّان ليلقى عليه سؤالا غامضا اختلف في أمره الرعاة ، واجتهد أهل الفضول كثيراً ليقفوا له على المعنى .

Twitter: @alqareah

٦ - الحية (أ)

« وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور ، ونقشاً في الحجارة ، وحلقة مركّبة في البنيان ، فربّما كان الكتاب هو النّاتيء ، وربما كان الكتاب هو الحفر إذا كان تاريخاً لأمر جسيم ، أو عهداً لأمر عظيم ، أو موعظة يرتجى نفعها ، أو إحياء شرف يريدون ذكره »

الجاحظ

« الحيوان »

* * *

« .. ربما سكنت بقرب ماء ، إمّا غدير ، وإمّا عين ، فتحمي ذلك الموضع »

ابو عثمان الجاحظ

« الحيوان »

* * *

« عندما ينعم الإنسان بالاكتفاء يصبح التوق للإبقاء على الذّكر هدفاً للتدليل على انه تواجد حقّاً يوماً ما . إننا نطبع هذه الادلّة على الاحجار والاشجار أو في مصائر البشر . هذا التوق يحيا عميقاً في كل منّا ، ابتداء من الصّبى الذي يختطّ الالفاظ البذيئة على جدران المراحيض العامة ، وانتهاء ببوذا الذي رسم لنفسه صورة في وعي شعوب كاملة . الحياة لا تبدو واقعية ، لهذا نشكّ عما إذا كنّا نعيش حقّاً في هذا الوجود ، فنبرهن ، بأي وسيلة ، لانفسنا، وللآخرين : نعم . نحن على قيد الحياة » .

جون شتاينبك

« مراعي الفردوس »

Twitter: @alqareah

(١)

كلما امتد الوادي الى الجنوب ، أزداد عمقاً وجلالاً وغموضاً . كان يتلوّى ، ويتعرّج ، وترتفع هامة الجبال على جانبيه فتنطق الحجارة التي حفظت في قلبها الشرائع الأولى ، واحتفظت ، على صدورها ، بأسفار « آنهي » الضائع . كان جبارين يتوقف ليقرأ الحكم المحفورة على بدن الصخور . أو يتباطأ ليشاهد رسوم الرجال المسلحين بالنبال ، متنكرين في جلود الودان ، يحومون حول الطرائد ، ويتشاورون ، قبل أن ينطلقوا لمطاردة الفرائس . قطعان من الودان والجاموس البرّي والثيران والغزلان ووحيد القرن .

نصوص كتبت على صخور تدحرجت إلى اسفل بالزلازل ، وجلاميد أخرى نهبتها السيول الماردة عن السفوح ، وجرفتها التيارات المجنونة في تلك المواسم النادرة التي تصاب فيها سماء الصحراء الجنوبية بالمسّ ، فبدت الرسوم والصور على جدرانها في حال بائس . لحست السنة السيول ألوانها فأصيبت الرموز ، تآكلت الخطوط ، تلاشت الأحافير ، بهتت الأصباغ والألوان المدوّنة بـ « تفتست » * ، وغطّتها رياح القبلي بطبقة من الأتربة والاملاح والأسباخ. أمّا الرسوم المثبّتة على الألواح بالنقش والنحت والحفر ، فبدت أكثر كفاءة في مقاومة الطبيعة ،

* تفتست : نوع من المغر استخدمه فنانو ما قبل التاريخ في رسم لوحاتهم الصخرية في جبال الصحراء الكبرى .

Twitter: @alqareah

وأكثر مناعة في محاربة الدّهر . كان جبارين يتسم وهو يتهجّى الجملة التقليدية التي تبدأ بها كل اسفار الصحراء الحجرية : « آوا ، نك، مندام.. » * ثم يتقدّم خطوات ، يتابع الكتاب المقدسّ ، كتاب الوصايا ، والشرائع ، والرموز . يتأمل تمائم السحرة في المخلوقات البشرية المدسوسة في جلود الودان ، المتوّجة بالقرون ، ويقرأ في الحكم الغامضة، المقتضبة ، ارثاً خفياً كان جزءً من حياة الأسلاف . في جلمود مهيب يتكئ في حافة الوادي قرأ وصيّة العاشق : « آوا ، نك ، بابّا . أهاضغ مسينغ واهيد يخلكن كود أكشيغ أدنيغ تميما » ** .

ضحك جبارين ، ولكنه كتم ضحكته عندما لاحظ رموزاً كتبت أسفل العبارة بخطوط متعرّجة ، بصبغة حمراء كأنها خُطت بدم قانٍ : «آسورمهياتن ألدّونت دغ آزجر ، إدمهيّاتن دغ آغرم نودادن . تميما ميهيتكّد دغ آغرم نودادن ؟ » . ***. ضحك جبارين بصوت عالٍ . انحلّت عقدة العمامة ، فانفلت اللثام ولامس طرفه الأرض . هرع إليه بورو . حدجه باستنكار قبل أن يتمتم بتميمة سحرية تطرد الشرّ . ولكن جبارين استمرّ يتلوّى ، ويوميء بعصاته إلى رسالة الوداع التي وجهّها العاشق اليائس إلى معشوقته القاسية . سمع بورو يقول : « يكفيه فخراً

---

* هذا أنا ، فلان . (تماهق) .

** هذا أنا بابا . أحلف بالمولى الذي خلقني ألاّ أذوق طعاماً قبل أن أنعم برؤية تميما . (تماهق) .

*** « إذا لم يلتف الخلق في آزجر ، فلا بد أن يلتقوا في مملكة الودّان . أين ستفرين مني يا تميما في مملكة الودّان ؟ » .

Twitter: @alqareah

أنه لم يحنث بالوعد . » . عجز أن يكف عن الضحك ، أوقفه بورو بالإرهاب . انحنى على حاشية الجلمود اليمنى ، دسّ رأسه في تجويف في الصخرة يشبه الكهف ، ثم التفت إليه ودعاه أن يقرأ رسالة رأى فيها، فيما بعد ، جواب الاسلاف على استخفافه بالعاشق الشقيّ ، وكفره بآيات النّاموس القديم :

·⁝ⵏⵏ⁖ ·ⴹⵜⵔⵣ: ·ⵣⵍ̈ⵏ ∴ⵛ ⁙ⵣⵜⵔ:ⵔⵊⵛ *
ⴹⵔⵣⵏ: ⴹ⁝ⵍ̈ⵏ ⴹⵜ:ⵔⵛⵣⵛ

بجوار العبارة يميناً ، حُفرت ، بخط أقدم ، كما يبدو من اللون المتآكل المعتم ، حكمة مستعارة من « آنهي » المفقود :

·ⵣⴹⵜ∴ⵏ ⵣⴹⵣ ⵜ·ⵌ· ⵜⵣⵜ∴ⵔⵣⴹⴹⵜ:ⵏ**

توقّف جبارين . مسح عرقاً فزّ من الجبين . أنحنى فوق الرّسم المطبوع . تهجّى الرموز بعناية . ردّد النبوءة ، لنفسه بصوت مسموع . خيّل له أنه سمع جنّاً يعيدها في جلاميد الجبل العليا .

نسى أن يعيد ربط العمامة ، فاستمرّ اللثام ينهمر ، مع كل حركة جديدة، حتى تكوّم على الارض ، بجوار الجلمود ، كأنه ثعبان .

---

* اليوم ضحكت كثيراً . فإن لم تغفر لي يا مولاي ، فماذا ينتظرني يا ترى ؟ » .

** « من ملأفمه بالضحك . سوف يملأه بالدّموع » .

Twitter: @alqareah

(٢)

كُلّما دعا قرينه لمشاهدة رسوم يبدو فيها الصيّادون الأوائل وقد توّجت رؤوسهم القرون المعقوفة كان بورو يعقّب بهمهمة غامضة : «إمغارن . هؤلاء إمغارن» . * . قبل أن يبلغا الجلمود المسجّى عند حضيض الجبل قال جبارين :

« يقال أن الأجداد كانوا يتشبّهون بالطريدة قبل الخروج للصيد طلباً للفوز . سمعت السحرة يقولون أنهم يتنكرون في قرون الودان لهذا السبب » . ولكن بورو ردّ بجفاء : « لا يستطيع السحرة أن يقولوا ذلك إلا إذا كانوا مزوّرين . كأن للأوائل قرونا حقيقية . قرون ودّان . وكانوا يدخلون إلى مملكة « آغرم نودادن » ، ولا أحد يعلم ما الذي ارتكبوه حتى حرّم آمغار دخولها على احفادهم . ولكنني تسللت مرّة هيء هيء إلى المملكة متخفياً في جلد الشريرة تيرزازت. هيء هيء..». كان بورو يخاف الضحك ، فإذا هاجمته نوبة سارع يكتمها بيده ، فإن لم يفلح حشا فمه بطرف لثامه الرمادي الكئيب . فشل هذه المرّة أيضاً ، فقفز جانباً ، وسدّ الفم بطرف اللثام . ولكن النوبة لم تتوقّف. ظلّ منكباه يرتجفان ، وينتفضان ، دون أن يفهم جبارين ما الذي يمكن أن يثير الضحك إذا استطاعت شقاوة الولد في صباه أن تهديه إلى

---

* إمغارن : جمع آمغار .

Twitter: @alqareah

حيلة سحرية صغيرة يدخل بها ملكوتاً موحشاً لا تسكنه إلا الغيلان وأشباح الجّن .

سارا مسافة أخرى .

قبل أن يصلا إلى المنعطف المفضي إلى جلمود الأسفار استفهم جبارين : « هل قابلت المغنيات الساحرات في المملكة ؟ يقال أنهنّ يتقنّ لحوناً تبثّ الانفاس في الحجارة ، وتجعلها تحجل وترقص وتغّني ». رمقه بورو بفضول . تمّهل قبل أن يجيب : « المغنيّات يقفن في المدخل لاستدراج المارّة البلهاء . أمّا أنا فدخلت متنكّراً . ما حاجة المغنّيات الساحرات لاستدراج الساحرة تيرزازت ؟» .

ثم كتم الضحك مرة أخرى .

(٣)

من طرف التجويف الأيسر ، في الجانب المطل على الوادي ، أزاح بورو أكوام الرمل بكلتا يديه . سجد على ركبتيه في مدخل المغارة، وغاب في جوف الجلمود بنصف جسمه الامامي فابتلعت الصخرة رأسه ومنكبيه ، ولكنه استمر يحفر بهمّة الفئران ، يزيح ألسنة الرمل ، ويرمي بأكوام التّراب في وجه جبارين الذي استمّر ينحني في فم الجوف ، يستند بيديه على ركبتيه ، وقطرات العرق تنزّ من جبينه

Twitter: @alqareah

العاري ، وتلمع تحت شعاع الشمس . كان رأسه حاسراً ولثامه مكوّم بجواره كثعبان . خرج بورو من جحره زاحفاً إلى الوراء على طريقة الضّب . تطلّع إلى رأس جبارين الحاسر فرأى أنه مكلّل بشعيرات فضيّة ومضت تحت الشمس . كان جبارين غائباً في زمان النبوءات ، زمان كان فيه الاسلاف الأوائل ينتقلون في الوديان بأجسام الودّان ، فلم يلحظ النظرة العجيبة التي رمقه بها بورو عندما رأى قرينه برأس حاسر لأوّل مرّة . نظرة امتزج فيها الحزن بالشفقة بالغموض . الغموض الذي تفيض به عيون المعتزلة وحدهم .

طأطأ بورو وتمتم :

– يحسن أن تستر رأسك !

انتفض جبارين كمن لدغته حيّة . قفز إلى ثعبانه بفزع من ادركته الصبايا وهو يقضي حاجته ، أو .. أو كمن ضبطته الصبايا برأس حاسر !

قرأ بورو أفكاره فتهكّم :

– ما يدريك أن الصبايا لا تتفرّج عليك الآن ؟

– الصبايا ؟

– نعم الصبايا الجنيّات الحسناوات في كل مكان .

– الجنيّات ؟

Twitter: @alqareah

– نعم . الجنيّات . ألا تخشى أن تظهر برأس حاسر أمام الحسناوات الجنيّات ؟ على الرجل الذي يعشق الحسان أن يخشى العار . الفارس الذي يخشى العار يجب أن يحرص ألا يظهر برأس عارٍ حتى لو كان وحيداً في الخلوة . لأن الجنيات في كل مكان .

– انت تمزح .

– أنا لا أمزح . أنا أعيد ما يقوله النّاموس .

بدأ جبارين يلف لثامه حول رأسه . أراد أن يمازح قرينه فقال :

– وأنتِ ؟ ألا تخشى العار ؟

أجاب بورو ببرود :

– أنا أخشى عاراً آخر . عاري يختلف عن عار العشّاق .

– وهل في الصحراء عار غير عار يرتكبه الفارس أمام الصبايا ؟

– هناك عار آخر لا يعرفه عشّاق الصبايا .

كتم جبارين ضحكة . سأل :

– يقتلني الفضول لأعرف هذا العار .

تطلع بورو إلى سفح الجبل . تسلّق الحجارة الجليلة . بلغ القمة التي تلامس السماء الزرقاء الصافية ، الغامضة . انتقل غموضها إلى مقلتيه . تمتم بهمس :

Twitter: @alqareah

- يقتلني الفضول أيضاً كي أعرفه .

- لا أفهم . هل هو سرّ ؟

- نعم سرّ .

- هل يخفي القرين سرّاً على قرين ؟

- كيف يبوح القرين بسرّ إذا عجز هو نفسه عن فهمه ؟

- هذه لغة الجّن . كل سكّان آزجر ينتمون بصلة قربى إلى قبائل الجنّ .

ابتسم بورو :

- صدق القرين جبارين . كل سكان آزجر فيهم عرق من الجنّ . كل سكان الصحراء فيهم عرق من جنّ .

ثم أكتأب فجأة قبل أن يقول :

- يحسن بك أن تملأ « آلوّن » عويلاً هذه الليلة .

التفت جبارين فالتقت نظراتهما . رأى جبارين في عيني قرينه الايماءة المدهشة فتلبسته قشعريرة افزعته . في الإيماءة ذلك التعبير الغامض . مزيج من الحزن والشفقة والخوف المجهول . فانتقل إليه الخوف أيضاً . انتقل مع القشعريرة الخفيّة . نكس بورو رأسه . احتضن ركبتيه بذراعيه وضمّهما إلى صدره . رفع رأسه إلى قمة الجبل ليقرأ فيها نبوءة

Twitter: @alqareah

السماء:

- لابد أن تبكي طويلاً حتى تكفّر عن الضحكة .

- أنت قرأت النبوءة . الرجل الحقيقي ، الرجل النبيل ليس من يخشى أن تضبطه الصبايا حاسر الرأس ، ولكنه من يخشى الناموس ولا يخالف الوصايا .

ابتسم باستخفاف ثم اضاف بدعابة :

- هب بحت لك بسّري ؟ هل تظّن أني اكتشفت السّر الذي غاب عنّي منذ قليل ؟

التقت نظراتهما . تبادلا نظرة طويلة . احسّ جبارين بالقشعريرة تتحوّل إلى رجفة . إلى حمّى .

قال بورو :

- هل تعدني بأن تنوح الليلة طويلاً ؟

ظلّ جبارين منتصباً . قاوم الرجفة . قاوم الحمّى . لم يعرف ماذا يفعل بيديه فرفعهما ليعدل من وضع اللثام فوق رأسه . حدج بورو . التقت نظراتهما مرة أخرى . حدّق كل منهما في وجه الآخر طويلاً . في النهاية هزّ جبارين عمامته علامة الموافقة . هزّها ببطء فلمعت مقلتا بورو فرحاً . أراد أن يكافيء قرينه لقاء الوعد فتقافز في الوادي على طريقة المعز . ثم عاد إلى جبارين وهتف:

Twitter: @alqareah

- إذا تمتّع الرجل بالخُلُق صار من حقه أن يأخذ الكراء . هكذا يقول حكماء آزجر . فهل تدري ما هو كراؤك ؟

استفهم جبارين بابتسامة وهو يتابع بورو يتقافز أمامه كالجدي الشقي . أوضح بورو :

- تنال الكراء . سادفع لك الكراء بشارة !

قفز فوق الحجارة المتناثرة في قعر الوادي . عاد إلى الموقع . وقف في مواجهة قرينه . أشار إلى الجلمود بسبابته وصاح :

- إقرأ !

لم يفهم جبارين فأعاد بورو مشيراً إلى فوهة الجلمود :

- لقد اكتشفت وصيّة أخرى في قعر الجدار الأيسر . إقرأ !

ركع جبارين وزحف ليلج جوف الصخر ، ولكن بورو قفز إلى الفوهة واعترضه . توسّل بروح الطفل :

- هل ستعدني بأنك لن تخلف الوعد ؟

رفع إليه جبارين عينين قرأ فيهما بورو آية الوعد . تنحّى جانبا وراقب قرينه وهو يحاكي الضّب . يتحوّل إلى ضّب . ولج الضّب جحره . تهجّى الوصيّة . تلقّى البشارة . استلم السّر من الجحر . منحه أمانة احتفظ بها قروناً وقروناً وقروناً . فتح قرطاس سفره الخالد وكشف

Twitter: @alqareah

للخلف ما سطّرته يد السلف بدم الأرض ، بمداد « تفتست » السّحري . المداد الوحيد المحصّن من غدر الزمان. ومزاج الصحراء المتقلّب . الحجر ، سفر الصحراء الخالد ، الذي قبل أن يكون كتاباً يلملم نتف آنهي المفقود ، الحجر ، السفر النّبيل الصبور ، الذي تحمّل المسئولية ، وتقبّل أن ينقل للأجيال البائسة وصايا الحكماء الأوائل .

يفتح قلبه للسحرة ليتلقّف من أفواههم السّر . ينقشه في قلبه . يخفيه في جوفه . يحفظه عن ظهر قلب . يخاتل الأيام ، يتحايل على الدّهر . يرفض البوح . لأنه يعرف أنه الوحيد الذي استطاع ، في الصحراء كلها أن ينتصر على نفسه ويكتم سرّاً . كل المخلوقات والكائنات عجزت . السحرة الحكماء اختبروا كل الموجودات في الصحراء الكبرى ، فلم يجدوا خيراً منه . وقد قال هؤلاء الدهاة حكمتهم الدهرية : « إذا أردت ألا تفقدني فلا تبح لي بسرّك » تصديقاً لضعف الكائنات أمام السّر ، وبرهاناً على عجزهم في أن يهتدوا لكائن أكثر وفاء وصبراً على السر يضاهي الحجر . إنه يرى السحرة الأوائل الآن . يراهم يهيمون في الخلاء بحثاً عن كنوز « تفتست » . يقطعون الفيافي ، يصعدون قمم الجبال ، وينبشون قبور اسلافهم طلباً للمداد السحري . حتى إذا حالفهم الحظ ، ومنّت عليهم الأرض بدمها المسحور ركعوا وقبلوها في جبينها ، ونحروا الذبائح ، وسقوها بدماء الأضاحي . ثم يتحلّقون حول الكنز ليرتّلوا الاناشيد الشجنية شكراً

Twitter: @alqareah

للآلهة ، ثم يهرعون للرقص . يرقصون حتى يشق قبس الفجر خط الأفق، لأنهم يريدون أن ينبئوا الأجيال بالرسالة ، ولأنهم يخافون الفناء ، ويعشقون الخلود . يعودون إلى الكهوف ليلقموا الصلد الوصايا . يفتح لهم الحجر قلبه ويقول لهم : « إطبعوا رموزكم ، وهاتوا وصاياكم . فأنا من عرف كيف يتحدّى الشرائع . ويقهر الزمان ، لأن في بدني عرقاً من سرّ الزمان » . ينقش الرُسل تعاليمهم ، يطبعون رموزهم ، يخطّون رؤاهم ، ويجسدون الحياة في الرّسوم . يقرأون التمائم على رؤوس الحجارة ، ويؤدون لها الشعائر التي ستحفظها في رحلتها الخالدة . كانوا يرتلون المراثي ، ويستعطفون السماء كي تحفظ الحجر النبيل من عدوّ أبدي خافوه دائماً أكثر مما خافوا النّار ، أكثر مما خافوا الأعاصير ، أكثر مما خافوا غارات الجّن . إنّه الحيّة التي تلدغ الأجيال بسمّ بطيء المفعول ، الحيّة التي ليس لها جسم يُرى ، ولا فحيح يسمع ، ولكن لدغتها قاتلة . إنه العدوّ المهول الذي استحال عليهم دائماً أن يخوضوا حرباً ضدّه لأنه خفيّ . إنه .. الزمان !

ولكن الحجر يقبّل التحدّي ، يتلقّى الرسالة ، ويبدأ حربه الرهيبة ضد الحيّة الخفيّة . ولو لم يحقق الحجر نصراً لما عثر اليوم على الكنز الذي تركه له السحرة . ولما زحف قرينه جبارين ، كما تزحف الضباب إلى جحورها ، ليقرأ الوصيّة في جوف الصخر ، في قلب الجلمود . فطوبى لمن طلب ، وبحث ، وفتّش ، وأحسن قراءة الوصايا ، وعرف

Twitter: @alqareah

كيف يفكّ الرموز . وبئس المصير لكل من خدعهم « وانتهيط » ، فاسترخوا ، واهملوا الحجارة ، وركضوا وراء البريق!

كان يعرف ما يحدث عندما يقترب من حجر يحمل له وصيّة . تنتابه رهبة خفيّة ، حتى أنه يعجز عن مواصلة السّير ، يحس بانجذاب مجهول نحو الصخرة المدوّنة . ثم تحل الألفة محل الانجذاب . ألفة غامضة نحو الحجر ، كأنه كان صديقاً قديماً نسيه . نسيه عقب كارثة افقدته الذاكرة . بعد الألفة يستيقظ الحنين . حنين مجهول ، قاسٍ ، ولذيذ . يستمر عذاب الحنين زمناً ، ولكنه يظل مسمّراً على الأرض . كأنه عمود مثّبت إلى التراب . أم ... أم أن الأرض تشارك في اللعبة ، وتتحالف مع الحجارة ليقهرا ، معاً ، في رأسه النسيان ؟ يستمر حريق الحنين الغامض حتى تستجيب مقلتاه للشعائر . تنبجس الدموع ، ولكنها تظل تتشبّث بأهداب العينين ، ولا تسقط على الأرض . يتمنّى لو تسقط الدموع حتى ينطفيء الحريق في صدره ، وفي عينيه ، ولكن هيهات . يبدأ الحريق ، يستمر ، يتمادى حريقاً في الصدر ، في القلب ، في الوجدان ، وفي المقلتين . يهمهم بأصوات غامضة . تفلت الأصوات رغماً عنه ، ولايفهم لها سبباً ، ولايدرك لها معنى . يتناهى إلى سمعه لحن شجي ، شجني بعيد . يسمع اللحن ، ولكنه يعجز عن تمييز الصوت . هل هي اغنية لصبيّة ؟ أم لجنيّات الكهوف ؟ أم لصوت سماوي ؟ أم أنه هو الذي يغنّي ؟ أم .. أم هو نداء الأسلاف ؟ بعدها يمتليء قلبه بالجلال .

Twitter: @alqareah

أطرافه ترتجف بالحمّى ، ويحل في قلبه الوجد . يتقدّم إلى الصخرة المقدّسة . يستعيد الذاكرة .في تلك اللحظة يشهد مصرع الغول . يموت الزمان . ويجد نفسه يعود إلى الوراء ، يقطع مسافة آلاف الأعوام بحساب الزمان دون أن يتحرّك في المكان . يقف بين يدي السحرة الأوائل ليخبروه بالكلّ . ليقولوا له أن الأصل لن يضيع ، والصحراوي لن يفقد الهوية ما بقى حجر واحد في الصحراء .

(٤)

زحف جبارين على طريقة الضّب . تمدّد وزحف إلى الأمام حتى لم يبق، خارج الكهف ، سوى قدميه . تفقّد الجدار الأيسر . بحث عن الرّموز . في العتمة ، عند الحافة الملاصقة للتراب ، تبيّن الخطوط المعتمة . على جدار الصّلد تناثرت حلقات خطّها الزمان بالملح وذرّات الرمل في محاولة لتخريب الخطّ ومحو الأثر . ولكن الخطوط القديمة ، المهيبة ، المعتمة ، الحزينة ، الغامضة غموض الصحراء ، انطبعت على الحجر الأمين بوضوح لم ينله الزمان :

·]̈O⋮+ +Σ∴||Σ:O<]̈[E<+I∴ + ⋯||< ·I||· *
∴OE+ +]̈O:< ·|:<]̈ O||O|| E|||

وفيما كان جبارين يتهجّى البشارة بصوت عالٍ في جوف الجحر

* « أجّ أسّاهت تيكّال إويسد جمّضد تفوك ، تقلّد آفلاّ كراضت . إتّجرود آنو داج أسلسل ملّن »
(إقطع مسافة سبع خطوات حيث تشرق الشمس ، إصعد إلى أعلى ثلاث خطوات . ستجد بئراً تحت لوح أبيض) .

Twitter: @alqareah

كان بورو يرتجف في الخارج فلم يعرف كيف زلزلت الأرض زلزالها ، ومتى نزلت السماء بالصاعقة ، فوجد الغموض يحل في القلب ، والحمّى تستولي على الجسد ، والدمع يحرق المقلتين ، والسمع ضجّ بسكون مخيف . السكون المقدّس الذي عرفه دائماً في تلك الومضات النادرة التي يثيرها الغناء ، وتسبق سقوطه في الوجد ، أو حلوله في جلد تيرزازت ، أو تحلّله في أسمال السّراب ، أو ... أو تسبق التحوّل الذي يلاقي فيه الاسلاف ليقرأوا له بشارة ، أو يلقنوه بوصيّة . فما إسم هذه الرمشة ؟ وما معنى هذا الحال ؟ إذا حلّت هذه الساعة يعرف شيئاً واحداً . يعرف أن الزمان يتعطّل ، والماضي يصبح حاضراً ، والحاضر يصبح غائباً ، والصحراء تختفي في السماء ، والوديان تنزل إلى «آغرم نودادن» و «واو الموعودة» تخرج من مدفنها القديم تحت كثبان الرمال ، ويسقط الزعيم العظيم من جبال تارات ليتجوّل مع الرعاة وابناء آزجر في وديان تاسيلي، ويخرج آمغار المهيب من مملكته الخفية ليتسكع في احراش الطلح ، ويشعر هو بأنه يتلاشى . يتلاشى ، ويتلاشى ، ليصبح مع « مولا – مولا» كائناً واحداً يطير به المجهول . ثم تتلاشى « مولا – مولا» أيضاً ليجد نفسه نسمة ريح تقطع الصحراء بسرعة الجنّ. فإذا تحرر من الوزر وحلّ في الرّيح تبدّى له كل شيء مرّة واحدة ولكنه ينسى ما رأى في كل مرّة يعود فيها إلى الأرض الموحشة . إلى القفص البشع . إلى الصندوق الطيني القبيح . يختنق ، يصيح ، يركض . يقطع

Twitter: @alqareah

الوديان ركضاً ، .. يبكي . يملأ الصحراء عويلاً . يختفي الصفاء المدهش، يتلاشى الارتياح الغامض ، ولا يبقى من التحوّل إلاّ خاطر مُبهم . حلم مجهول . فيستعر بالحنين . يشتعل بالشوق ، يحترق بالغضب ، لأنه لا يعجز عن استعادة الاحساس الذي تملّكه في الملكوت، ولكنه يعجز عن التذكّر ، ليصبح النسيان هو الشريعة . النسيان . النسيان . لعنة الزمان قدر الإنسان . كفن المخلوق إذ يرتضي الحشر ، ويختار المقام في قفص الطين الفاني .

تزحزحت القمم في الأعالي . تراقصت قبور « إيدبنان» على السفوح . تدحرجت الجلاميد من علّ ، فز لزلت الصحراء زلزالها . غاب جبارين في الجوف وخرست همهمته وهو يتهجّى رموز البشارة . اختفى حتى الجلمود نفسه ، ولكن الإشارة المذهلة المثبّتة على جداره الخارجي الأيمن ، المواجه للشموس الغاربة ، لم تختف باختفاء الجلمود ، ولم تسقط في جوف المجهول كما سقطت صحراء « آلّون » . وفي لحظة دبّت الحياة في الإشارة ، رأى الحيّة تومىء باللسان الشره ، وترفع هامتها إلى أعلى ، تومض عيناها بالإغواء تحت أشعة شمس الغسق . وجد نفسه مشدوداً إلى العينين ، فانقاد ، واقترب . استسلم ، وسلّم نفسه للإغواء ، تقدّم خطوة أخرى . واخرى . واخرى ، حتى وقف عند ذنبها المرتجف، واصبح في متناول فكّيها ، وسمع فحيحها بوضوح. غمرته القشعريرة ، لأنّه رأى في عينيها اللامعتين ، الغامضتين ، الخطر. رأى جرّة فخارية

Twitter: @alqareah

ذهبية اللّون . لها هامة الحسناء ، سموق الحسناء ، رشاقة الحسناء، قدّ الحسناء ، مرونة الحسناء . و.. سحر الحسناء . غنج الحسناء. وإغواء الحسناء . كانت تتمدّد في عين الحيّة اليمنى . رأسها يتجه نحو الغرب . يومض ويتلامع ويغمز تحت أشعة الغسق .

سقط بورو على الأرض . ركع على ركبتيه اسفل الحيّة . جدّ في الحفر. وجد نفسه يحفر الموقع بكلتا يديه . يحفر ، يحفر ، ويحفر . ازاح أكواماً من الرمل ، بلغ الطبقة الطينية الصلبة ، فاستعان بالأظافر ، قاوم الصلابة بالأظافر . نهش الطين اصابعه ، ولكنه وصل إلى التميمة السريّة .

في قدم الجلمود الخفي ، في طرف الصّلد السفلي ، وجد الإشارة التي رسمها الأوائل لتقود الاحفاد إلى مرقد الحسناء . إلى موقع سرّتقف الحيّة الخالدة فوق رأسه حرساً . أم أن « وانتهيط» هو من أودع السّر الارض ، ونصّب فوقه الداهية حرساً ، ليستدرج الممسوسين لمقام البريق ، لمرقد الحسناء ، لمدفن هباء يدفع بالتّيه الأبدي كل من صنع له في نفسه مقاماً ، وآثره على استنشاق عبير الرّتم ، أو استخراج الترفاس ، أو الإكتفاء بمراقبة الخلاء الخالد متصنّتاً لانفاس السكون ؟

توقف عن البحث . عن الحفر . رفع رأسه إلى الرّسم . مسح املاحاً تشبّثت بالخطوط . مسحها بيد راجفة ، ولكن بعناية . توضّحت الخطوط . تكشّف بدن الرموز . تبدّت الرسالة . قطعت مسافة آلاف

Twitter: @alqareah

الاعوام لتجد نفسها فجأة في زمن آخر . في قبضة قدر آخر ، ولكن المكان لم يتبّدل ، والشمس لم تتبّدل ، والسماء لم تتبّدل ، ونسمة الريح لم تتبّدل . خرجت من الظلمات إلى نفس النور الذي غابت عنه يوماً ، وادركت حكمة « آنهي » القائلة أن لا شيء يتبّدل في الصحراء . الشمس تشرق ثم تغرب ، ثم تشرق من جديد . الريح تذهب إلى الجنوب ، وتدور إلى الشمال . تذهب دائرة دوراناً وإلى مداراتها ترجع الريح *. والقمم التي تقف في الاعالي ما زالت نفس القمم ، وما زالت ترقب الدّمى التي تتحرك في الوديان بسخرية مريرة . فما الذي تبّدل في آلاف الاعوام ؟ تبّدلت الاشباح التي كانت تهيم في الوديان . تبّدلت الظّلال التي تثقل كاهل الأرض ** بسعيها المجنون وراء البريق . آه، لو امتلكت لساناً ، آه ، لو امتلكت نعمة النطق ، لصاحت بالحقيقة بأعلى صوت . لرمت بالبشارة القاسية في وجه الأبله الذي يركع فوق رأسها ، يرتجف ، وقد تمّلكه المسّ . لو امتلكت نطقاً لقالت له :

« إبتعد أيها الشقي ! ابتعد! ابتعد! » . ولكن هيهات . فاليد التي خطّتها راهنت على عاهتها الخرساء . وخطّت الفخّ لأنها تعرف أنها لن تملك لإذاعة السّر سبيلاً :

---

* سفر الجامعة .

** «ما نحن إلاّ ظلال تثقل كاهل الأرض» . الفيلسوف ديو جين (الكلبي) .

Twitter: @alqareah

استمرّ « الآن» يتقلب في « كان» ، وبقي « كان» أسيراً في «الآن» حتى طلع له من الكهف الكاهن الأكبر ، كبير السحرة . نحيل ، طويل، يرتدي ثوباً مركّباً من قطع جلد الودّان . تزيّن صدره قلادة من حبّات الودع . فوق رأسه قناع جليل متوّج بقرني ودّان . قرون آمغار . على وجهه ارتسمت طبقة من الغضون تشبه لحاء الطلح . يتوكأ على عصا مشذّبة مستقطعة من شجرة مجهولة لم يدرك لها هوية . وقف فوق رأسه . انحنى . مال نحوه برأسه المقدس حتى غزت انف بورو رائحة الكهوف . حدّق في عينيه . في عينيه رأى بورو العجب : رأى نفسه يركع فوق الكنز . يحتضن الوديعة بيدين محمومتين ، و .. فوق رأسه ، فوق رأسه هو ، بورو ، ينتصب «وانتهيط» ، يمتطي أتانه البيضاء ، ويبتسم بخبث من نجح في جرّ ضحيّة جديدة إلى مملكة البريق .

تابع المشهد فرأى « وانتهيط » يأخذه ليجلسه بجواره على ظهر الدّابة البيضاء . مضى به إلى أرض مجهولة لم يعرفها ، ولم يرها من قبل. هناك نثر في وجهه حفنة من الهباء الأصفر ، هباء التّبر ، فرأى نفسه مسجّى على الأرض. غطّ في السّبات . شمّر وانتهيط عن ساعديه واخرج من كمّ جلبابه مدية مجوسيّة فظيعة . لمع نصلها في الفضاء قبل أن يهوي بها على صدره بمهارة السحرة . غاصت بسهولة

Twitter: @alqareah

عجيبة . انشقّ الصدر إلى شطرين ، ولكن الجرح لم ينزف دماً . دسّ يده في جوفه وأخرج القلب . هل هو قلب ؟ لم يكن قلباً . أخرج طيراً ناصعاً كأنه قطعة من ضياء . طير صغير في حجم «مولا – مولا » . ولكن في عينيه رأى شقاء وذكاء . أخذه الساحر من جناحه وألقى به في الفضاء . لم يره وهو يرفرف بجناحيه ، وإنما تلاشى في الفضاء . استحال جزءاً من ضوء الفضاء . أصبح هو الفضاء .

واصل الساحر .

مدّ يده وتناول الجرّة . نفس الجّرة المدهشة التي لها ملامح حسناء وشاهدها في عين الحرس . القى الجّرة في الجوف . أدهشه أن يتسع صدره الصغير للجرّة ، كما ادهشته المرونة التي غابت بها الحسناء في الصدر . خيّل له أن «وانتهيط» أنهمك في قراءة التميمة . نكس رأسه بخشوع قبل أن تدبّ الحياة في الجسد المسجّى . وإذا به حيّة ، نصفها السفلي أنثى ، حسناء ، ورأسها ، حية رقطاء . لسانها مشطور إلى نصفين ، وفي عينها اليمنى تلمع الجرّة . وفي الجرّة يومض التّبر. زحفت في الحجر . ذهبت لتقف حرساً على القبر . فأين أنت يا بورو ؟ أيـ ... اغمض عينيه فتوارى الكاهن القديم . غطى وجهه بكلتا يديه وسقط على الأرض . صاح بصوت رددت صداه الجبال :

–آ–آ–آ–آ–آ ... أ .. أ .. أ ..

Twitter: @alqareah

في البداية انكفأ على قفاه ، ثم أهتز البدن برجف عنيف . غاب السواد من العينين الوديعتين وغزاهما البياض الشامل . انحسر اللثام عن شفتين راجفتين فزّ منهما زبد ناصع . ثم شرع يتلوّى ويتمرّغ في التّراب.

(٥)

عندما اخرج جبارين رأسه من دار الاسلاف ردّت إليه الجلاميد التي تحرس رؤوس الجبال صدى غامضاً . تصنّت للصدى الخفيّ زمناً . تابع الإبهام في الصدى . سافر مع الصوت إلى الوطن الذي مضى . وطن الرّؤى السماوية والظلال البعيدة . قرأ في الصوت المجهول نداء أنساه جسد بورو الذي أصابه الجنّ . ولو لم يقف على رأسه شبح مارد لما عاد إلى آزجر ، إلى آلّون العظيم ، إلى مجرى الوادي ، عند حضيض صخرة دسّ فيها الأوائل الوصايا والأسرار . كان الشبح المارد يرتجف أيضاً . في عينيه وميض قاسٍ . وميض المعتزلة الذين يسكنهم الجنّ دائماً . ثم ... ثم تلقّى وحياً استفزّه بسؤال مباغت : أين ومتى وفي أي ظرف رأى هذا الشبح العظيم ؟ لم يفكّر للإجابة على السؤال ، لأن المارد قفز إلى جدار الصخرة وطفق يهيل على الصلد التّراب . يلهث ، ويلهث ، ويغمر الجدار المكابر بأكداس الرّمل الممزوج بحبيبات الحصى . انحسر لثامه عن فمه فتدلّى طرفه العلوي إلى أسفل . تحت شعاع الغسق ومض

Twitter: @alqareah

خيط لعاب تدلّى بموازاة « اماوال » *. قبل أن ينتهي الشبح من طمر جدار الصّلد رأى رأس الحيّة فغمرت بدنه قشعريرة . ادرك ما حدث . نسى النداء الذي تلقّاه من الجلاميد التي تقف عسساً على رؤوس الجبال، ونسى السؤال المباغت برؤوسه الثلاث ، وقفز إلى جوار الجسد المحموم ، الراجف ، الذي استمرّ ينتفض فوق الكدس الرملي . أخرج من كمّه مدية موسومة بالرموز . اطلق صيحة جنونية استجاب لها عسس الجبال ورددّوها طويلاً : « غيّـ – يـ – يـ – يـ – ا – ا – ا». رفع المدية إلى السماء فلمع نصلها النحاسي تحت شعاع الشمس الحزينة المنكفئة نحو الغروب . سدّد طعنة إلى صدر العدوّ فتزلزلت الجبال بصرخة الجنّي الجريح . سمع الصرخة في دمدمة خفيّة ، ولكن مهولة ، ندّت عن القمة الغربية . لاحقه بطعنة أخرى ، أفقيّة ، فانهار الجسد الجبّار . سمعه يسقط بجوار جسد بورو ، لأن الأرض اهتزّت بعنف ، ومادت حتى ترنّح وكاد يسقط أرضاً . سمع الحجارة تتدحرج من السفوح على أثر سقطة المارد على الأرض . أحسّ بالبدن العملاق ينهار ناحية الوادي ، في البقعة التي تجاور قدم بورو اليسرى . قفز إليه ورفع المدية مرّة أخرى . ولكنه لم يستطع أن يوجّه الطعنة . انشلّت يده وبدأ تنفّسه يضيق ويختنق. ظلّت يده مرفوعة في الهواء وحنجرته تفح بالحشرجة . بعد معاندة شرسة استطاع أن يتخلّص من كفّ المارد التي تخنقه . ولا يعرف كيف صرخ بـ « بوشا – أ – أ – أ – أ » . العينان اللتان تفيضان

* أماوال : الطرف السفلي للثام .

Twitter: @alqareah

بالشقاء الأبدي القتا فيه الإلهام وأجابته عن الثالوث ، وانتزعت من فيه النداء بالإسم .

ما حدث بعدها كان برهانا على هذا الظّن .

هب بوشا من موقعه عند الجدار وقفز إلى المعركة . تناول المدية المنصوبة إلى أعلى ومرّرها على جسد جبارين . . نحر العدوّ الخفيّ فتحرّر البدن . انهار جبارين على الأرض وتمدّد . التفت بوشا إلى بورو ومرّر على جسده المدية ايضا . رسم بها تقاطعاً فوق الرأس . ثم نزل بها من الصدر حتى القدم اليمنى . رسم تقاطعاً آخر على الجسم كلّه . أحاط جسد بورو بدائرة . قطع إلى الخلف خطوات . التفت إلى جبارين . رسم حول بدنه الممدّد دائرة كبيرة . اقترب منه . حدّق في عينيه بمقلتين يفيض منهما الشقاء و .. رسم التقاطع على صدره بالمدية . تابعه جبارين باستسلام . وما أن تلقّى الرمز على صدره حتى اصاب القلب وميض . هتف :

– لقد أصبت الجنّي بعلامة « تانّيت» . نحرته بالعلامة . ولكن الدائرة . كيف أهتديت إلى الدائرة ؟

رمقه بوشا بغموض ، رآه جبارين استخفافاً . استفزّه الاستخفاف فحاول أن ينهض . لم يقدر فاكتفى بالاحتجاج :

– هذا سرّي . انت سرّقت كنزي . انت ..

جبارين لم يكمل ، وبوشا لم يرد .

Twitter: @alqareah

غرس نصل المدية في التراب ، بجوار رأسه . رمقه مرّة أخرى قبل أن يفرّ ويقفز نحو الجبل . صعد السفح راكضاً . تسلّق الصخور مستعيناً بيديه . دحرج حجارة قبل أن يتلعه غيهب الغسق .

(٦)

تقدّم الليل . فرض سلطاناً على الصحراء فدبّت الكائنات الليليّة . كانت الحيّة أول من انفصل عن لحمة الحجر . نزلت من منفاها الأزلي في الصّلد، وخرجت إلى رحاب السّهل . تفقدت الوادي ببصر اخترق صدور الحجارة ورأى ما تخفيه الجحور ، ثم زحفت نحو العراء المجاور حيث تمدّد كائنان غامضان . دارت حول الدائرة الأولى ، راقبت صدراً يعلو ويهبط . تصنّتت فسمعت همس الوسواس الغامض الذي لا يوسوس إلاّ في صدر ذلك المخلوق الذيْ جعل الخالق بينها وبينه عداوة منذ الازل الأوّل * . غزت انفها الرائحة فأجفلت واستنفرت بدنها للدفاع . رائحة المخلوق . انفاس الإنس . عفن البدن البشري . السّم الذي تخشاه الافاعي ، يصيبها بالدوار والغثيان والموت . عفن الإنسان سمّ الحيّة كما لعاب الحيّة سمّ للإنسان . ولكن هذا سّر لا يعرفه إلا الدّهاة، إلا السّحرة . فما أجهل الإنسان . جهله بهذا السّر برهان آخر على جهله القديم . يحفظ في بدنه سلاح الخطر . الرقيّة . التميمة ضد

---

* «فقال الرّب الإله للحية لأنك فعلت هذا : ملعونة انت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل ايام حياتك ، واضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك وانت تسحقين عقبيه» سفر التكوين : (٣) .

Twitter: @alqareah

العدّو الأزلي ، الدواء الذي يشفيه من اللدغ ، ويسافر إلى الاوقيانوس ، أو بحر الظلمات ، بحثاً عن دواء للسّم . ولكن هذه لعنة الحقها به الخالق منذ البدء إذ جعله غافلاً عن نفسه . غفلته عن نفسه هي سبب شقائه . فلو توقّف عن الركض مرّة ، والتفت إلى نفسه لوجد الكنز ، ونال الخلاص ، ودخل الفردوس. ولكن اللعنة قضت أن يحمل الخلاص في يده ويبحث عنه في ارض الواق واق، فما أغباه!.

احست بالدوار فغاصت برأسها في التراب . التراب يمنع الغزوة ، ويغسل رئة الحيّة من سمّ الأنفاس الإنسيّة . هذا سّر آخر ضيّعه المخلوق المكابر الذي يحمل الحقيقة في كفّة ويبحث عنها في بلاد الواق واق . فما أغباه ! زحفت إلى الأسفل ، إلى الجهة الأخرى حيث يهبّ نسيم رقيق . فهنا ستكون في مأمن من الأنفاس ، من العفن ، من السّموم . والريح سوف يأخذ الأبخرة الإنسية إلى الناحية الأخرى . سيذهب بها بعيداً ، إلى المخلوقات الغبيّة التي ستشتم روائح الأغذية في الأنفاس ، في السّم ، وسوف تهرع المخلوقات إلى الموقع ، إلى أرض الوليمة ، إلى الفّخ. وستجد نفسها في الكمين . ما أكثر المخلوقات الغبية في الصحراءَ. هجعت على بعد قفزة واحدة من عقب الإنسان . غاصت في التّراب ، اودعت جسد الحسناء في الارض ، وتركت الرأس خارجاً . راقبت الارض والسماء بعينين تخترقان الظلمات . سلّطت شعاع العينين على بطن القدم . كانت متشقّقة ، خشنة ، تعلوها طبقة سميكة من اللحم

Twitter: @alqareah

الميّت . طبقة كريهة في صلابة الصّلد الذي تحرّرت منه منذ قليل . هذه الطبقة المشئومة ، الميّتة ، العازلة ، هي التي ستحميه من اللدغة عندما تحين لحظة الانتقام . لن تتمكّن منه، ولن تصل إلى اللحم الحيّ حتى لو تزودت بأنياب في قوة الإبر . طبقة زوّدته بها الأرض لتحميه من انيابها كما زودتها هي بالتراب الذي يحميها من سمّ انفاسه الكريهة . القسمة كانت عادلة . هي ادركت سرّ الارض ، والمخلوق لم يدرك سّر نفسه ، فما اغباه !

إنّ غباءه يثير غيظها إلى حدّ لا تستطيع معه أن تشعر نحوه بأي شفقة . الانسان هو المخلوق الارضي الوحيد الذي لا يستحق الشفقة ، لأنه اغبى المخلوقات . ولكن هذه عادة جرى بها النّاموس : كل من رأى في نفسه ذكاء كابر ، وكل من كابر كان الأغبى . ولم يخطر لهم على بال أن يسألوا لماذا يعود كل شيء إلى التراب ، بما في ذلك هم انفسهم . لم يدروا أنه الأقوى لأنه الاضعف . يستمد قوته من ضعفه . من تسليمه واستسلامه وقبوله أن يداس بالأقدام . من بلغ في تواضعه ضعف التّراب كان في قوّة التّراب . من ركع وغسل من نفسه الكبر ، ونزل إلى مستوى تراب الأرض كان أقوى من كل شيء على الأرض . ولكن هيهات أن يدرك مخلوق معجون من ذرات التراب سّر التراب ! هيهات أن يعلم من يمسك الحقيقة في يده ويبحث عنها في جزائر واق الواق ، أن الركوع والقبول بالنزول إلى الأرض السفلى هو سّر الحيّة الأوّل .

Twitter: @alqareah

وسأظل ، أنا الحيّة ، الطرف الاقوى ما ظللت اسعى ورأسي في التراب . فحمداً للخالق الذي خصّني بالنعيم ولم يهدِ خلقه إلى سرّي ، وأبى إلاّ أن يبقيهم على كبرهم وضلالهم .

تململ البدن الممدود فتقلّب العقب الممزّق بالشقوق . انتفضت ورفعت رأساً يتحيّن الإنقضاض . في تلك اللحظة شعرت بالخطر في انتفاضتها. اجتازت خط الخطر في ومضة فأصابها المسّ الخفيّ . اخترقت الدائرة برأسها فتلقت مساًّ نارياًّ اشعل شرراً في بدنها . زحفت إلى الوراء اشباراً . ابتعدت عن الدائرة المسحورة وغاصت في الأرض مرّة أخرى . سرى فيها الدفء ، وبعثت ذرات الرمل في صلبها إحساساً مجهولاً بالأمان . ذلك الإحساس بالصفاء الذي لا يمنحه للكائن شيء سوى الأرض . الأرض . الأرض التي احتضنت الكائن ، واغدقت عليه من حنانٍ ، وهدهدته في مهدٍ كان فيه أسيراً في مملكة النسيان . داعبته على صدرها طويلاً ، وانزلت في قلبه بهجة لم تنلها لعنة الذاكرة . صنعت له بدناً من أحشائها ، من ذرّها * ، من ذرات رملها ، من حبّات الهباء ، وألبسته من نفسها ، وأرادت له أن يكون لها وليداً إلى الأبد . لم تبخل عليه بشيء من جسدها ليكون لها ابناً وحيداً ، مدلّلاً ، سعيداً في ملكوتها المسكون بالنعيم . بالنسيان . وكانت تخشى عليه من شجرة لئيمة اوقفت الحيّة حرساً على بابها . ولكنّها هي ، الحيّة ، ما لبثت أن

---

* الذّر : صغار النمل « فقه اللغة » للثعالبي .

Twitter: @alqareah

أكلت الغيرة قلبها عندما رأت المخلوق المدلّل الذي نال القرب ، وأحيط بطقوس إكبار لا يستحقه ، فدعته إلى وليمة . ساقته إلى الشجرة اللئيمة ليأكل من ثمرها المسموم . وما أن وقع في الشرك ، وذاق الطعم حتى خرج من مملكة النسيان ، ووقع في الذاكرة . انقلبت الحيّة من غضب الأرض فاستجارت بالأرض ، لأنها تعرف أن النّبل يجعل الأديم يغفر لكل من استجار به ، في حين عرف الإنسان فرفع رأسه عن الأرض ، امتد بقامته إلى السماء ، وكابر . تطاول إلى الأعالي ونسى الاسافل . نسى الارض وداسها بالاقدام ، وبصق عليها ، وتقيأ فوق وجهها ، وبال على ظهرها ، وظلّ يطلب في السّماء شيئاً مجهولاً فقده . قامت الأم وناحت بفجيعة . لعنته بصوت رددته كل جبال الصحراء ، واخذت من قرينها السماء عهداً بالا يكشف للإنسان عن سّره أبداً .

فأنا وحدي من ادرك السّر . ولو لم استجر بالأم لما نلت الغفران . أصبحت أثيرة الأم ، وأصبح الوليد المدلل منبوذاً ، تائهاً ، شقّياً . يطلب المستحيل في جزائر واق الواق ويدوس كنز الحقّ تحت قدميه . ولو تواضع مّرة ، والتفت إلى نفسه ، وتخلّى عن الكبرياء والتطاول في السماوات ، وركع ارضاً ، وقبّل جبين الأم التي اطعمته من جوع وآوته من خوف ، لأدرك السّر ، ووجد نفسه في مملكته القديمة التي اخرجته منها لعنة الذاكرة. لعنة الكبرياء . ولكنه يؤثر أن يصبّ اللعنات على الحيّة دون أن يتأمل مسلك الحيّة . يقاتلها بالتعاويذ ويتخذها عدوّاً أبديّاً

Twitter: @alqareah

دون أن يرى أن سرّ تفوقها في الزحف على بطنها . في التصاقها بلحمة الأديم الحميم . في علاقتها القديمة بالأم ، في حرصها على مجاورة النبع، والاعتصام بمملكة لم ترض أن تستبدلها بممالك الوهم ، أو جزائر السّراب . وستظل قدر الإنسان ماظلّت لصيقة بالمملكة ، بالأم ، بالأرض. ولن يجد المخلوق الأبله سبيلاً لقهرها ما ظلت على وفائها بالوعد.

هذا سرّ الحيّة . سرّ صغير ، ولكن الكشف عنه يقلب ناموس الصحراء، وينزل السماء إلى الأرض ، ويرفع الارض إلى مقام السماء . ولذا قامت وشقّت لسانها إلى نصفين ، إلى شطرين ، حتى تخرس ، حتى تكتم السرّ الصغير ، حتى تقطع الطريق في وجه النفس الامارة بالسوء . لأنها لن تكون حكيمة إذا لم تعرف أن المخلوق الارضي لابد أن يفتح فمه ويذيع سرّه ، مهما كان صغيراً ، ما لم يتحرّز للأمر ، ويشطر لسانه إلى شقين . ولو لم تجسر على شلّ اللسان لما فازت بإعجاب الأرض ، فرأت أن تجعل منها حرساً على كنوزها الخفيّة : كنوز التّبر التي يسعى في طلبها البلهاء ، وكنوز أخرى أشدّ خفاء وأبعد منالاً يسعى في طلبها أهل السّحر والسّرّ .

(٧)

الخنفس المقدّس أوّل من استجاب لنداء البدن وأقبل وراء الانفاس. راقبته الحيّة وهو يحرث الأرض بستة أرجل ، يتسكّع بتردد

Twitter: @alqareah

العميان ، مهتديا بقرون الاستشعار . ابتسمت وهي تستعيد سيرة الصفقة . فعندما أغوت أثير الأرض ، وقادته إلى الشجرة اللئيمة ، أصابتها الأم بالعماء جزاء لها وكان الخنفس الابلق يمشي على أربع ، ويتباهى ببصره الذي يخترق الظلمات ويرى البعوضة في أشد الليالي سواداً . تقدّمت منه واقنعته بصفقة أضحكت الأجيال . أعطته رجليها مقابل عينيه . تردّد وماطل طويلاً قبل أن تفلح في إقناعه . قال لها أنه يخشى أن يقع فريسة سهلة بين فكّيها إذا تخلّى لها عن عينيه ، ولكنها أجابته بيقين الحية : «كيف استطيع أن ابتلعك وأنا مقعدة كسيحة ، بلا رجلين؟ كيف يسقط من امتلك ستّة أرجل بين فكّي حبل مسكين ، ممدّد على التراب ؟ » . قهقه طويلاً ثم استجاب . تمّت المبادلة . نالت أقوى عينين ، وتخلّصت من ساقين كريهتين كانتا ترفعانها اشباراً فوق صدر الأم . ركعت وقبّلت التراب . لثمت جبين الأم . لبست جسد الأرض فنالت الغفران . ومنذ ذلك اليوم كانت تفحّ في وجه الخنفس الأبلق لتخيفه وتتسلّى بمشاهدته وهو يركض في كل الاتجاهات خوفاً وفزعاً ، ولكنها لم تفكّر يوماً أن تبتلعه .

لأن الخنفس جرّدها من الاداة التي كانت تبعدها عن الأرض . اداة تدوس بها التراب ، وتجعل لها شبهاً بالأنسان المكابر . صفقة الخنفس أبعدتها من السماء ، ولكنها قرّبتها إلى الأرض . ألغت المسافة القاسية التي كانت تفصلها عن الأرض . الآن تستطيع أن تزحف وهي تلاصق

الأم ، وتنام وهي تلاصق الأم ، وتقتل اعداءها وهي تعتصم بحرم الأرض، تتلبّس جلداً من الأرض . فإذا مّر بجوارها خنفس ، أو التقته في طريقها ، فحّت في وجهه من باب الدعابة كما فعلت منذ أوّل يوم في الأزل . فالحيّة أوفى مخلوق . الحيّة لا تغدر بمن هداها سواء السبيل . وهي أول من وهب الخنفس لقب القداسة الجليل . وهي تمجّده وتسبّح بحمده ليس لأنه منحها عينيه الخارقتين ، ولكن لأنه حرّرها من عكازين كانا سبب شقائها . فآهٍ لو تعرف المخلوقات سرّ الحيّة ! آه لو لم تقطع الحيّة لسانها إلى نصفين ! .

اقترب الخنفس . تحسّس الدائرة بقرونه . سار بمحاذاة الدائرة . ارتطم برأس الحيّة . هبّت في وجهه : « فـ – فـ – فـ – فـ .. » . فزّ راكضاً . جرى إلى الأمام ، ثم ولّى عائداً على عقبيه . ارتطم بخط الخطر المرسوم حول جسد جبارين فأصابه المسّ . تعثّر. تدحرج . هرول شمالاً ، ركض في المسافة الواقعة بين الدائرتين ، بين الخطّين ، حتى ارتطم بلسان المدية المغروسة في الرمل . توقّف . لامس النصل . احتمى بالمدية . اعتصم بالنصل وهو يلهث ، ويرتجف .

(٨)

من الشرق تبدّى وهج فضّي . تجدّدت الظلمة في فيض القبس المجيد فعرفت أن مسيرة الكوكب المسحور قد بدأت . في مكان مّا ، في أعالي الوادي ، عوى ذئب بنداء بعيد . الذئاب أيضاً اشتمّت انفاس

Twitter: @alqareah

الإنس المسجى فطالبت بنصيبها من الوليمة .

لا شيء يصلح كميناً للكائنات مثل بدن الإنسان . آه لو بقي هذان الجسدان ممدين هنا لاستدرجت بهما الف فأر ، والف يربوع ، وألف حيوان شهي آخر . آه لو رضي الإنسان بالتسليم ، وكفّ عن الركض وراء الأوهام ، ورقد هكذا في وداعة من لا قامة له ، إذن لاستحال إلى وليّ ستكون هي ، الحية الداهية ، أول من يعبده ، ويتخذ من بدنه ضريحاً يقدّم له القرابين . ستسيّل دماً غزيراً احتفالاً بزهد المخلوق المكابر . ستنحر آلاف الحيوانات الصغيرة احتفاء بعودة الإبن الضّال إلى الأرض ، إلى الأم . الإنسان لا يعرف أن في القامة يكمن سرّ الشقاء . لا يعرف أنه لو تشجّع مرّة وتخلّص من القامة ، وقبل أن يحيا راكعاً ، زاحفاً ، لصيقاً بالتراب ، لفاز بالبطولة ، وأصبح إلهاً ، ولعرف أن طلب الحق في جزائر واق الواق وهم ، واللعبة المسماة حياة ، عمل بسيط لا يستحق أن نركب في سبيله الخطر . ولكن المخلوق لن ينجو ، ولن يفوز ، ولن يصحو من الكابوس ، ما ظلّ يهبّ ، كل مرّة ، واقفاً على قدميه . يمدّ قامة كافرة إلى السماء ، ظاناً أنه يستطيع أن يخرق الأرض ، ويبلغ الجبال طولاً . وهي الحيّة ، لن تكشف السرّ أبداً . لقد قطعت لسانها نصفين ، لأنها ادركت أن قطع اللسان هو الحيلة الوحيدة التي يستطيع الكائن أن يحفظ بها سرّاً .

Twitter: @alqareah

(٩)

تصنّتت فصدّع رأسها زفير وشهيق الآدميين المصروعين على صدر الأمّ . هبّ النسيم من الطرف المعاكس فغزت أنفها الرائحة الكريهة . رائحة الاطعمة والأخلاط والمكابرة والكفر فأصابها الدّوار . استنجدت بالأرض . دسّت رأسها في احشاء الأم فانجدتها بحبيبات الرمل . تطهّرت بالغبار وتداوت بالتّراب . رفعت رأسها مرة أخرى . رأت كيف تتعارك عتمة الوادي مع قمر ينذرها بالزوال . اخترقت العتمة الزائلة بعين لم تعرف لها الصحراء مثيلاً ، العين المستعارة من رأس الخنفس المقدّس ، فرأت بدناً يحبو في ارتياب ويتجه نحو الموقع . نحو الكمين اللئيم الذي نصبه إبن آدم ببدنه واخلاطه وانفاسه الكريهة. ليس في الصحراء مصيدة أصلح من بدن الإنسان . لو بقي هامداً ، لصيقاً بالتراب ، لانقاذت إليه كل الكائنات . لو عرف فإن بدنه أنفس فخّ . به يستطيع أن يقتنص كل حيوانات الأرض . الجوارح والوحوش والزواحف وكل الانعام . بعضها يُقبل ليشبع فضولاً ، وبعضها يأتي لينهش قطعة من لحمه ، وبعضها يأتي لينتقم ، وحيوانات أخرى تسعى إليه لتقف على السّرّ . ولكنها هي ، الحيّة ، التي وقفت على السّر الأعظم ، فدانت لها أسرار الأرض والسماء، تعرف أنه مخلوق بائس لا يحمل أي سّر ، ولا يصلح إلاّ لأن يبقى مصيدة للفرائس ، وفخاً للدواب

Twitter: @alqareah

الغبيّة التي يدفعها الفضول لأن تسعى إلى حتفها . آه ! ها هي الفريسة تقترب . ها هي الدّابة الصغيرة التي تحبو في ارتياب ، قد بلغت الموقع ، الشرك . ها هي تقف فوق رأس المصيدة . تطل على فم الفّخ . فما الذي جذب الفأر الغبي إلى مكان يتمدد فيه ماردان إنسيّان إن لم يكن الفضول؟ الخلق لا يعلم أن الفضول اهلك من المخلوقات ما لم تهلكه النّار ، ولا السيول ، ولا الجفاف ، ولا الحروب . الحيّة وحدها تعرف أن الفضول أشدّ خطراً من النّار . اشياء كثيرة يجهلها الخلق وتعرفها الحيّة . ولو عرف الخلق ما تعرفه الحيّة لبلغوا حكمتها ، وإذا بلغوا حكمتها وقفوا على سرّها . ولكن هيهات أن يجدوا طريقاً إلى سرّها ! هي على يقين أنهم لن يجدوا طريقاً إلى سرّها ، لأنهم أكثر كبرياء من أن ينفذوا إلى الأرض . عليهم أن يقيموا دهوراً في باطن الأرض ، في الظلمات السّفلى ، إذا أرادوا أن يهتدوا إلى السرّ .

اقترب الفأر . سار بمحاذاة الدائرة . شمشم خط الخطر بخطمه المدبّب، الصغير . جرّ ذيلاً أزهر اللّون . رفع قائمتيه الخلفيتين إلى أعلى حتى بدا كأنه يريد أن يقفز في الرمل ويغوص في باطن الأرض . كأنّه يحذّر الحيّة ويقول لها ، بحركة جسده ، أنها دنت من الشرك الذي كان سبباً في إصابة الإنسان باللعنة، لأنها كفرت إذ ظنّت انها أدهى المخلوقات حقا * ، فهو أيضاً يستطيع أن ينافسها ، ويخترق بدن الأرض ،

* ورد في سفر التكوين : « وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البريّة .. » . الإصحاح الثالث: ١ .

Twitter: @alqareah

ويذهب في سفر المجهول إلى الظلمات ، وآغرم نودادن ، ويبلغ الممالك السّفلى . تلقّت الحيّة الإشارة فارتجفت وفزعت ، وقبّلت التراب . دسّت رأسها في الأرض ندماً ، وكان عليها أن تتمسّح طويلاً، وتركع كثيراً ، وتغيب في غيهب الظلمات مرّات ومرّات ، وتتمرّغ بأنفها وبدنها وكل اعضائها في التراب دهراً ، إذا شاءت أن تغسل من نفسها الخطيئة ، وتفوز بالغفران . قطعت على نفسها عهداً بأن تمارس الشعائر ، ولكنها تركت لنفسها حتى اختيار الوقت . أمّا الآن فعليها أن تنتهز الفرصة ، وتقتنص الفريسة التي استدرجها الكمين . عليها أن تؤدّي شعائر أخرى لا تقل جلالاً وقداسة عن شعائر الندم وطلب الغفران . فابتلاع مخلوق حمل لها الوحي ، والقى في قلبها بشرر الإشارة ، عمل أكثر متعة من ابتلاع الكائنات البلهاء ، والكائنات المسكونة بالفضول المميت ، الكائنات الجوفاء التي لا تحمل رسالة ، ولا تكتم سرّاً . فالمخلوق الذي يطيب ابتلاعه هو المخلوق الذي وضعت فيه الأرض سراً ، او حطت فيه السماءِ إلهاماً . الحية لا تحيا بالمخلوق وحده ، بالطعام وحده ، ولكنها تقتات وحياً مع اللقمة ، مع بدن المخلوق ، وتحيا بالسّر الذي يحمله في جوفه ، لأنها جرّبت كثيراً أن الفرائس الخالية من السّر ، خالية لا من الطعم فحسب ، ولكن من النفع أيضاً .

Twitter: @alqareah

٧ – الدّائرة (أ)

« كما السّماء بادية ، دائريّة في الصورة والحركة ، كذلك الذهب »

م. مايير

« الدائرة »

***

« قيل أنها لا تجوز أن تكون ذات زاوية فلا تكون إلاّ كرة ، لأن سائر ما لازاوية له من الاشكال البيضية والمفرطحة ، يكون فيها اختلاف امتداد عن المركز وتفاوت في الطول والعرض ، والطبيعة البسيطة لا توجب اختلافاً . فإذا صحّ وجود الكرة صحّ وجود الدائرة » .

الحسين أبي علي (إبن سينا)

« كتاب النجاة »

***

« إن الشكل واحد ، منه ينبعث كل شكل ، وهوالمدوّر ، والاشكال كلها مأخوذة منه لكثرة زواياه » .

أبو حيان التوحيدي

«المقابسات»

***

Twitter: @alqareah

(١)

أحسّت بفيض القشعريرة يسري في البدن . موجة من الأشواك غمرت جلدتها . تململت تحت التراب . قمعت في نفسها سموماً استفزّها الاستنفار والرغبة المحمومة في القفز إلى أعلى والتقاط السّر مع الضحيّة . سّر محشور في جوف المخلوق الصغير . المخلوق الذي جاء سعيا وراء الانفاس ، وراء الإنسان ، وراء الكمين . المخلوق الأبله الذي يرى فتاتاً حيثما حطّ إبن آدم رحالاً . اودع فيه اسلافه هذه الشريعة ، ولكنهم نسوا أن يحذّروه من الشرك . لم يقولوا له في وصاياهم أن الحيّة تقتفي أثر الإنسان وترابط فوق رأسه أينما حط رحالاً . لم يبلّغوا المسكين أن الحيّة قدر الإنسان ، تلدغ عقبه حيثما ذهب ، كما تلتهم كل من سوّلت له نفسه أن يعترض طريقها ، ويتعيّش على فتات مائدة الإنسان . تلتهمه لتستزيد من سّر الأعماق الخالد . من وهج الأسافل التي اعتاد الفأر أن يرتادها طلباً لكنوز لا يعرف أحد سواها لها سراً . لا يعرف أحد أنها كنوز لا لقاء بينها وبين تلك الكنوز المعدنية البلهاء التي يعبدها أهل الأرض ويظنّون أن الحيّة الحكيمة يمكن أن تتنازل وتفني حياتها وهي تقف حرساً عليها . ولا أحد يعلم أنها وهبت الخلود لا لأنها تبدّل لحمة جلدها في كل موسم ، ولكن لأنها تستمد السّر من النّبع ، لأنها تتزوّد من الأعماق بكنز أنفس بما لا يقاس بالمقارنة مع كنوز الأرض

Twitter: @alqareah

الغبيّة . كنوز أهل الأرض الاغبياء . و ..

وفجأة تلقت الإلهام . قدح الوحي في قلبها شرراً جعلها تتراجع، تتوقف ، تتريّث ، تتصبّر . فقد علّمتها الحياة ، علمتها الأرض ، علمتها شرائع الكنوز السفلى ، أن التسرّع مريد من اتباع الجشع ، وإطلاق الجشع وقوع محتّم في الأشراك . في افخاخ القدر ، في أفواه الكمائن المشرّعة أبد الدهر . كنوز الأسافل نحتت فيها تميمة أخرى من تمائم النّبع الأبدي . الأمتناع شرط الحياة ، قالت لها التميمة . الصبر شرط الفوز ، شرط الخلود ، قالت لها كنوز الأسافل. لأن الأرض إذا بعثت بفأر فلابد أن يظهر وراءه عدوّ يتخذ منه شركاً . من وراء الضفّة الجبليّة الشرقية فاضت في الوادي البشارة . انبثق خيط الضياء الفضّي فجأة ، وسقط على قمّة صخرة السّلف . الصخرة الجليلة التي آلت على نفسها أن تنقل الوصايا ، وتتحدّى السيول ، وتنافس في خلودها وصبرها الزمان . الصخرة التي تواجه الضريح القديم ، وتتخذها ، هي ، الحيّة الأبديّة ، وطناً. في امتداد الوادي الأسفل . خرج من الاحراش البريّة قنفذ . تدحرج عبر الأرض المغطاة بالحصى ونبات الحلفاء اليابس . يتفقّد الطريق بخطمه ، يستطلع المسافة ، يقتفي أثر الطعم الذي أرسله إلى موقع الوليمة منذ قليل . بلى . لم يتأخّر العدوّ . جاء الغول الذي لم تخف الحيّة غولاً سواه . لم تعرف عدوّاً أشرس منه منذ مليون عام . منذ الازل . منذ أنفصل الليل عن النهار ، ورُفعت السماء عن جسد

Twitter: @alqareah

الصحراء . ولولا التميمة الخالدة ، تميمة الينابيع السّفلى ، لسقطت في الفّخ ، لوقعت في فم المخلوق الرهيب ، المطّلع على السّر ، الوحيد القادر أن يحاكيها ، ويصنع من بدنه المدهش ، المحصّن ، دائرة مهولة الاشواك . المهول ليس طربوش الشوك ، ولكن الدائرة الخفيّة ، المقدّسة، المحكمة الإغلاق التي تحاكي دائرة الأرض ، ودائرة السماء . نعم . لولا ان القنفذ لم يستعر سرّاً من الأرض مثلها ، لو لم يأخذ من السماء رسم قبّتها ، لكان مخلوقاً بائساً ككل المخلوقات البلهاء التي تدب في الصحراء . ولكن التفوّق جاء بالدائرة وليس بالشوك كما يظن الخلق ، كما يظن ابن الإنسان الغبّي . لأن كل شيء استطاع أن يتكوّم ، ويضع ذيله بين فكّيه كما تفعل هي ، الحيّة ، كل مخلوق وجد في نفسه الكفاءة والمرونة كي يتكوّر جسداً وروحاً ، استطاع أن يحتوي الكون ، يحتضن الكنز . وقد عرفت قدرة هذا الكائن العجيب عندما قفز واختطف رأسها من الأرض مرّة . التقط رأسها بين اسنانه الشرسة و .. تكّور . حاولت أن تلجأ إلى الحيلة القديمة بالالتفاف حول العدوّ . لأن الكائنات التي اطلعت على السّر وربّت في روحها وبدنها القدرة على التكوّر والاستدارة ، لا تخلّص نفسها إلا بالدائرة ، بالالتفاف ، بمحاكاة كرة الأرض ، وتقليد قبّة السّماء . هذه الحركة هي التميمة ، هي السلاح السحري الذي يفتك بالعدوّ ، ويكفل الخلاص لأهل السّر . ولكن الكائن المهول ، القنفذ العجيب ، اجتهد فاضاف حيلة أخرى إذ

Twitter: @alqareah

تلبّس شوكاً فوق البدن . فما أن رسمت حول جسده الكرة السحريّة ، وبدأت تضغط بعضلاتها ، حتى لسعها الشوك وتدفّق من جلدها النزيف. استنفرت كل عضلة في بدنها ، وقامت بمحاولة بطولية أخرى لتحرير رأسها ، ولكن هيهات أن يتحرّر رأس مغمور في طوق من الشوك . بدأت تختنق ، وتتراخى ، وتشعر بالدوار لو لم تهرع السّماء لنجدتها . تزلزت الصحراء بالقعقعة السّماويّة ، وتمزق السّحاب بسياط من نار . تدفق المنّ وسقط على البدن الكروي الملبّس بعمامة الشوك . هنا حدثت المعجزة . تراخت قبضة العدّو على رأسها ، وبدأ الحيوان السّري يفك عن رقبتها الحصار. أنهار وتخلّى عن رأسها . فعرفت سّر العدوّ منذ ذلك اليوم . عرفت أن الماء هو المفتاح السحري لدائرة الشوك. كشفت لها الأرض ، بمعاونة السماء ، سّره ، فكفّ أن يكون عدوّاً إذ انكشف أمره . فعادت هي ابنة الأرض ، وريثة التّراب المدلّلة ، التي تعرف أسرار الكل ، التي عرفت أسرار كل المخلوقات ، في حين غاب سرّها عن كل المخلوقات .

(٢)

.. ولم تكن لتدرك سّر الدائرة لو لم تتأمّل أفق الصحراء دهراً . قوس الأفق يمتد ، يتمدّد ، يقطع مساحة الخلاء القاسي ، يلامس المجهول، ولا يتوقف عن التوغل حتى يقف على السّر في اللامنتهى . تتابع امتداده الفاجع ، تجري وراءه في البريّة الأبديّة ، تدور معه في مدارات الفراغ .

Twitter: @alqareah

تطارده في البرازخ السماوية ، تجد نفسها في الملكوت الأوّل . ثم الملكوت الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع ... تتقلّب في اكوان لا تحدّها المسافة ، ولا تقيم وزناً للزمان . في ذلك الوقت الذي تتابع فيه رحلة القوس وهو يدور حول نفسه تدور حول نفسها أيضاً . تدور حول جسدها المكوّم في الأسافل ، في الأرض ، في الضّد . تلتف حول نفسها، تعض ذنبها ، تصنع من نفسها ، من بدنها ، كتلة مستديرة ، مستعارة من الأفق الدوّار . تحسّ بالدفء ، تغوص في النقيض ، في تراب الأرض . وكلّما ازدادت تيهاً في الأفق ، وضياعاً في سماوات المجهول ، كلما غمرتها السكينة ، وفاض القلب بالسعادة . الدائرة علّمتها أن المخلوق لا يبلغ ملكوت السماوات إذا لم يتوغل في الأرض . إذا لم يسافر في الأسافل . لأن الناموس يقول أن المخلوق لا يجد نفسه إذا لم يفقدها ، والدائرة لم تكن لتصير محراباً لو لم تكن منفى . والبلهاء الذين يدوسون الأرض بأقدامهم ، يمدّون قامات الكبرياء ليبلغوا السماء طولاً لن يجدوا الصراط ، ولن يدخلوا الملكوت ما لم يزحفوا على الأرض ، ما لم يقبّلوا التراب ويغوصوا في الرمل . على جبين هؤلاء المكابرين سطّر القدر نبوءة الشقاء . لأنه لم يخبرهم أن المخلوق لا يبلغ القمة إذا لم يزحف على الحضيض ، ولا يدرك سّر الضدّ إذا لم يعرف الضدّ . ولا يدخل « واو» إذا لم يعبر دهليز الظلمات . ولا ينال الخلاص من صعب عليه طعم المنفى . وهي تفوّقت على إبن الإنسان ، وعلى كل

Twitter: @alqareah

المخلوقات ، وفازت بالخلود ، لا لأنها اختلست الشعلة الخفيّة ، ولكن لأنها فهمت سرّ الاضداد . وهيهات أن يفهم المخلوق الأبله أنها لا تحرس أكداس التّبر إلاّ للتمويه ، لأن التّبر ما هو إلا هباء يعمي ويضلّل ويصيب الخلق بالمسّ . التّبر قشرة البيض ، قيض البيضة ، الوهم الملعون بكل الألسن ، المهلك ، المقيت ، المميت . أمّا الذهب الحقيقي ، الذهب الآخر ، ذهب الخفاء ، ذهب السّر ، فهو في الخفاء ، في مكان مّا في الأعماق التي لا تدرك بغير التحوّل ، في المسافة المجاورة للخطر ، في البرزخ الأبعد من السماوات ، ومن الأرض . في برزخ الملكوت . في الدائرة !

(٣)

فلنقترب من الدائرتين المرسومتين حول الجسدين الإنسيين . فهنا يرقد مخلوق أبله ، وضع دائرة من نحاس صنعها بيد حدّاد ، احاط بها رقبته ، اخفاها وراء الثوب . حفظها بين الثوب واللحم ظانّاً أنه امتلك التميمة . ولكنه أبله لأنه ينتمي إلى فئة ترى التّبر في الهباء ، الفئة التي ترى الذهب في المعدن، الفئة التي لن تبلغ السماء لأنها أُخذت بالباديات. ولكن في الناحية الأخرى ، في الدائرة الأخرى ، يرقد بدن علّق تميمته في مكان أبعد . في اللّحون ، في رعشة المواويل ، في الجوف النائي ، مكان يتجاوز الصلب ، ويجاور دار الملكوت ، ويركض مع السراب . يدخل في الأفق ، يتقلب في المدارات . يعبر

Twitter: @alqareah

البرازخ ، يدور في الافلاك ، يسافر في البروج ، يحترق وجداً ، ويعرف الخطر . ومن عرف الخطر وقف على السّر ، ومن عرف السّر نال الكنز الآخر . الكنز الحقيقي . الكنز الأبعد الذي لم يخلق الخلق إلا ليعرفوه * . فهذا الكائن الصغير ، البائس ، الممّدد كخرقة خرقاء ، هو كائن الخطر .

(٤)

لا تتكّون الدائرة بمدارات الملكوت ، ولكن الأفق ينشدّ كقوسٍ قاسٍ . تبدأ الدورة . دورة التكوين وانتزاع الكنز . تضيق المسافة بين الضّدين . تضيق وتضيق بتميمة العناد . وعندما يتلامس طرفا المستحيل يولد الحجر في مركز الدائرة ، فيرقص الملك . تزغرد الحوريات ، وتهمهم الآلهة بالبشارة في الوادي . وأهل الغفلة وحدهم يظنون أن تلك الهمهمة ما هي إلا لغط اعتادوا أن يسمعوه من الجنّ . بعدها يغيب المعتقل في الاسافل . يتخفى في هاوية الظلمات ، ويتبدّى الوهج .

تتبدّل الجلود ، يبدأ موسم التحّول ، زمن الخطر . تختفي الاحجبة السفلى ، يقرأ الطلسم مقلوباً فيحل الضّد في الضّد . هذه علامة أخرى تضاف إلى الهمهمة المبهمة ، فتهبط من جديد وتتشبّه بينات الأرض اللائي اعتدن سرقة مياه الامطار من الوديان العليا ، لأنهن كن أكثر مقدرة عل خفض الهامة ونبذ الكبر . عقب الدرس تتوقف

---

* «كنت كنزاً مخفياً ، فخلقت الخلق ليعرفوني» حديث قدسي .

Twitter: @alqareah

الدورة وتجد نفسها تقف فوق رأس الكنز . كنز يسمّيه الدهاة سرّاً ، ويسميه البلهاء «واواً» .

ولكن هل تخون الحيّة عهداً وتمضي إلى أبعد من ذلك ؟ هل يتشبّه أدهى مخلوق أرضي بأبناء الجنس الزائل وهو الذى كوفىء على الدهاء بالخلود؟ هل تتنازل وترتضي إفشاء سر قطعت بسببه لسانها الى نصفين؟

(٥)

بلغ البدر عرشه . استسلمت الصحراء للفيض . انقطع عواء الذئاب . لم يبق في الصحراء سوى السكون يتجسّس على السكون . علت انفاس المخلوقين الممددين على كل الاصوات . علت لأن السكون عندما يتجسّس على السكون وعندما يستوي البدر المسحور على عرشه في الأعالي ، يصنع من الهمس ضجيجاً ، وينفخ في الانفاس ليعيرها نفيراً منفراً .

في الوادي تدفّق الفيض الفضّي .

عادت من سفر الظلمات . أخرجت رأسها لتتفحّص الساحة . لم تخرج رأسها كاملاً . اكتفت بتخليص العينين من ربقة التراب . دارت العينان في محجريهما بحذر . رأت الكائن المقدس وقد تحول الى فريسة. أدركه القنفذ في معقله عند نصل المدية ففتك به وافترسه .

Twitter: @alqareah

سمعت طقطقة الدرع الأبقع وهو يتحطم بين فكي القنفذ الجبّار. ضجّ الوادي بالطقطقة . طقطقة نفخ فيها السكون من روحه فأحالها الى رجيج كأنهيار الصخور من أعالي الجبل . ابتسمت بغموض الحيّات. لقد خلقت من الخنفس المسكين ضحيّة منذ سلبت من رأسه العينين . خسر المقايضة لأنه لم يفهم أن المخلوق لن يقدر أن يخرج من الظلمات إذا فقد العين حتى لو اكتسب الف قائمة . وقد عرفت منذ البداية أنه لا يملك إلا أن يكون ضحية أبد الدهر ، لأن القدر حكم عليه بالغباء ، بالقداسة . وإذا لم تسلب هي ، الحيّة ، الداهية ، عينيه ، فإن ثمة مخلوقاً آخر سوف يفعل ذلك نيابة عنها . وهي لا تملك أن تشفع لمن خلقوا ليكونوا ضحايا حتى لو أرادت ، حتى لو احتكمت للدهاء . ذلك أن الدهاء هو عينه ما يمنعها من التدخل في شئون قدر تحجم الآلهة نفسها عن التدخل في شئونه * . ولو لم يكن ضحية منذ الازل ، قربانا منذ سلبته البصر ، لما كان مقدّساً . فالعماء ثمن القداسة . التضحية ثمن القداسة . لا يكون المخلوق قدّيساً ما لم يقدّم نفسه قرباناً . وعلى المخلوق المكابر ، الزائل ، الذي يظن أنه يستطيع أن يفوز بالبلغة ، بالولاية ، بالقداسة ، دون أن يدفع نفسه ثمناً ، على هذا المخلوق الشقي أن يعي الدرس . وعليه أن يتأمّل الخنفس ، الولي الحقيقي ، إذا أراد أن يسلك طريق الولاية .

الآن ، وقد حان الميعاد ، تستطيع أن تخرج من القمقم ، وتتفرغ

---

* ورد في نبوءة إله دلفي : «هناك شيء واحد أقوى حتى من الآلهة : القدر !» تاريخ هيرودوت

Twitter: @alqareah

لفريستها أيضاً . الآن ، وقد كافأتها الأرض ، الأم ، على اعتصامها بالصبر ، والقمت القنفذ الجبار خنفساً مقدّساً يتلهّى به ويسكت به نداء الجوع ، تستطيع أن ترابط لضحيتها وتقتنص الفأر الذى استمر يحوم حول الكمين ، حول الدائرتين ، حول الجسدين الممددين فوق التراب . فالناموس يقضي أن يذهب القنفذ ويسترخي في مكان آمن بعد أن ملأ جوفه بالخنفس المقدس ، فكسبت الرهان مرتين : مرة عندما عقدت المقايضة واستبدلت قوائم الكفر بنعمة البصر ، ومرة عندما صنعت من البدن الأبلق طعماً أطعم القنفذ وأزاح من طريقها العدوّ . الآن خلا لها السبيل . الآن لن يباغتها الكائن الدائري الخارق ، المسلّح بفروة الشوك ، الذى كاد يفتك بها يوماً لولا رحمة السماء . الآن ستجني ثمار الصبر والانتظار والانحطاط الطويل في الأسافل البعيدة .

انسابت من الأرض بمرونة لم تقارن أبد الدهر إلا بمرونة الحيّة . المرونة التي جعلت من بدنها سرّاً قادراً على الالتفاف حول نفسه ، صانعاً دائرة تخبىء الكنز في المركز . المرونة التي جعلتها قادرة على مباغتة الفريسة ، الفأر الفضولي الشقي ، والإمساك به من رأسه . من جوفها تلقت الصحراء نداء شكواه : – صَوْ – صَوْ – صَوْ .

لم يهب لنجدته أحد . لأن ناموس الصحراء علّم الكائنات أن تحمل وزرها المقدّر ، فإن وقعت في مأزق فعليها ألا تنتظر النجدة من أحد . ولا أحد يعلم ماذا سيحل بالفأر الفضولي النّهم لو لم يدخل الساحر ارض الوادي .

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

٨ - الحجر (أ)

« .. وعقول العرب فوق الديانة بعبادة الاصنام والخشب المنجورة والحجر المنصوب والصخرة المنصوبة » .

الجاحظ

موسوعة «الحيوان»

* * *

« وشبام جبل عظيم منيع أيضاً ، فيه قرى ومزارع وسكان كثير ، وفيه جامع . وهو متميز من جبال اليمن ، ويرتفع منه العقيق والجزع والحجر المعروف بالجمست ، ويصيبها المطالبيون بالناحية غشيماً كسائر الحجارة ، فإذا عملت ظهر جوهرها بالنار والعمل ، و بلغني أنها تكون في صحاري فيها حصى ملون تلتقط فيه من بينها » .

ابن حوقل

«صورة الأرض»

* * *

Twitter: @alqareah

« .. فلما فرغ حسان من جديس دعا باليمامة بنت مرة ، وكانت إمراة زرقاء ، فأمر فنزعت عيناها فإذا في داخلها عروق سود ، فسألها عن ذلك ، فقالت : حجر أسود يقال له الأثمد كنت اكتحل به فنشب الى بصري»

المسعودي

«مروج الذهب»

* * *

«نحن نخطيء الى حد الجنون عندما نعتقد أن الانسان ، في حياته الحاضرة ، أو الآتية ، يعني في الكون شيئا أكبر من ألواح الوديان الحجرية التي يعاندها ويعاملها بالاحتقار ، رافضاً أن يرى فيها الرّوح ، لمجرد أنه لا يلاحظ حركة هذه الرّوح » .

ادجار آلان بو

«جزيرة الحوريات»

Twitter: @alqareah

(١)

أرادت أن تتوارى . أن تنزل إلى سابع ظلمة . أن تنفذ إلى المدار. أن تتحصن بالسّر . بالدائرة . ولكن الجوف الملعون قهرها ، فادركها الداهية الأوّل بمجرّد أن التقمت الثمرة . وكان عليها أن تتقيأها إذا أرادت النجاة . عليها أن تترك سبيل الضحيّة حتى لو لم تجد سبيلاً للنجاة . لأن الجوف يرتجف ، ويغمر البدن النّهم غثيان ، ما أن يحلّ الخطر . ما أن يقف على رأس الحيّة مولاها الأوّل الذي علمّها السّحر وزبر في قلبها أبجدية الدّهاء . الآن ستعتق القربان ، وستبحث عن باب الخروج إلى الظلمات ، وستتعلّم أن فوق كل ذي علم عليماً، والتّباهي أولى علامات الخَطر ، أولى آيات الكفر ببيّنات الأرض ، وستتعلّم أن الدرس يستمر ما استمرت الحياة ، والمخلوق الجاهل هو من لم يعلم أنه لم يؤت من العلم إلاّ قليلاً . وما المأزق الآن إلاّ برهان على شريعة توارثتها الأجيال في الصحراء تقول ان الواهم من ظنّ أنه يستطيع أن ينصب فخاً، أو يقيم كميناً دون أن يُنصب له فَخّ ، أو يقام له الكمين. والنّاموس الأول يروي أن من يحفر هوّة يقع فيها ، ومن ينقض جداراً تلدغه، هي ، الحيّة ، ومن يقلع حجارة يوجع بها ، ومن يشقق حطباً يكون في خطر منه * فكيف تكون عضواً في طابور الحكماء ، وتغفل تعاليم النّاموس ؟ كيف تسلب الزاهد الأبلق بصره وتتركه شركاً للعدوّ ،

---

* سفر الجامعة : ١٠ : ٨ ، ٩ .

Twitter: @alqareah

للقنفذ المارد ، لتختلي بفريستها ، بالفأر ؟ ولكن العزاء أنها تعلم أن في الصحراء ، إلى جوار ناموس الأوائل الصارم ، تقوم شريعة أخرى ، شريعة الضّد . ولولا اسفارها في مجاهل الظلمات ، لو لم تحترف الإسراء في المدارات ، لو لم تمتهن البحث وتتذوّق قساوة الطلب ، لما وقفت حرساً على الكنز ، ولما عرفت سرّ الدائرة ، ولما ادركت الشريعة الفاجعة : شريعة الضّد .

بصقت الطّعم . لفظت ثمرة صارت لها شركاً ، فصَوْ صَوَ الفأر بنبرةِ فرخِ طيرٍ مذعور . انسابت لتعتصم بالضريح ، ولكن السّاحر القديم سبقها ولوّح في الفضاء بعكاز موسوم برموز السّحر ، فاختفت الصحراء ، وغاب القمر . طارت الأرض ونزلت السماء . اجتازت انبرازخ والبروج وبدأت تدور مع الأفلاك . لم تروهجاً ، ولم تسمع همهمة . ولم تدخل محراب السّر .

(٢)

كان يسند عجيزته على العكاز على طريقة الرعيان إذا أنهكهم السفر الطويل . يسند عبء الجسد على العصا من الجانب الأيمن ، ويثني الساق الأيمن حول قرينة الأيسر . فوق رأسه ، بدل العمامة ، أبصر هالة من الفيض الفضّي . لم يبصر الهالة وحدها ، ولكنه شاهد فيضاً أرجوانيّاً آخر يحيط بدائرة الفتنة . بالحلقة الفضيّة البهيّة . وكان عليه أن ينتظر طويلاً ، حتى يفهم . عليه أن يقطع مشواره إلى الوراء ،

Twitter: @alqareah

ويستعيد أمراً كي يدرك أن الحلقة الفضية التي يعتمرها ما هي إلاّ الكوكب الصحراوي المسحور ، والهالة الأرجوانية لن تكون سوى ساهوره الجليل * . فجأة اعتدل في وقفته ، ولكن الشعار لم يتزحزح فوق رأسه . بقي يتلحّف بالبدر الريّان ، فابتلع ألقه المجيد التعابير في عيني الزائر . لوّح بالعكاز في الفضاء . شيّعه إلى أعلى ، فتبدّى له في هجعته، حيّة شرهة تتحيّن للإنقضاض . ثم .. ثم عاد وتبدّى له العكّاز ساحرة حسناء ليس في مثل حسنها وفتنتها إلا الجنيّات : هيفاء لعوب ، مديدة القدّ ، ضامرة عند الخصر . كان عكازاً غريباً عن الصحراء . تيقّن ، في ضوء الغمر الفضّي ، أنه مُعدّ من شجر يسّمية التجار خيزراناً . بلون معتم ، شذّبته الملامسة والمعاملة فتهذّب وأنصقل وأنصاع . ولا يعرف نفسه عما إذا كان قد استطاع أن يتبيّن هذه التفاصيل في ضوء الغمر ، أم أن جنّاً همس له بها . اليقين أنه رأى فيه مفاصل ناتئة ، مطوّقة بأعناق نحاسيّة موسومة برموز . يستطيع أن يجزم بشأن الاعناق النحاسيّة ، لأنها ومضت تحت شعاع الفيض ، ولكنه ليس على يقين أنه تبيّن الرموز .

أعتدل الزائر في وقفته ولكزه بالعكّاز . أومأله برأسه فترنّح القرص الفضّي المهيب . القرص الذي يتخذه الزائر لثاماً . رقص السّاهور أيضاً . نهض بورو بمساعدة مرفقيه . حاول أن يتبيّن ملامح الضيف فأعماه فيض الكواكب ودمعت عيناه . تمتم ببلاهة :

---

* السّاهور : هو غلاف القمر (عن « فقه اللّغة » لأبي منصور الثعالبي) .

Twitter: @alqareah

– ماذا تريد ؟

لم يجب . صمت طويلاً وعندما يئس بورو من جوابه سمعه يقول :

– أريغ إيهيتلكمد ! * .

لفظ العبارة المبتسرة بصوت مكتوم ، مغموم ، مزدوج النّبرة . كأنّه يأتي من بئر ، أو من مجاهل مغارة عميقة . أمّا اللكنة فلم تنتم للكنة أهل آزجر. لكنة غريبة ، غامضة ، ولكنها ، مع ذلك ، تتمتّع بسحر مجهول . لكنة قديمة ربما بقيت متداولة عند بعض العشائر في آير أو آضاغ أو .. أو لدى قبائل اهل الخفاء ! .

نهض بورو . اعتدل في جلسته . سأل مرّة أخرى :

– ماني سي ؟ **

هذه المرّة لم يجب الزائر أبداً . رمى بالعكاز فوق رأسه . رسم دائرة ارجوانية حول عمامته المنسوجة من خيوط القمر . ثم تحرّك نحو الجبل . رأى بورو أن رأس الضيف لم يتحرّر من قرص القمر ، فأيقن أن الزائر المجهول يتخذ من البدر قناعاً . قام بجهد بطولي حتى استطاع أن ينهض ويقف على قدميه . مشى وراء الهالة . لم يكد الزائر يبلغ موقع الخطر ، كوم الحجارة الذي وقفت الحيّة تحرسه أجيالاً ، حتى ادركه بورو .

---

* اريدك أن تتبعني : (تماهق) .

** إلى أين ؟

Twitter: @alqareah

(٣)

عندما يهجع المخلوق الصحراوي إلى جوار آبائه الأوّلين يأتي السّحرة . يفتحون له في الأرض شقاً . يدفنون كنوزه إلى جواره . ثم يأذنون للأرض أن تستعيد عطيّتها . يأذنون للريح أن تسترد النفس ، تستحيل العظام حجارة . الشّعر يصير إلى نبات . الدّم يجري في الماء . والجسد ينفي فى ذرّات التّراب . يقعُون في فم الأرض ، يردّدون التمائم السّحريّة القديمة ، ولا يهجرون إلاّ إذا تيقنوا أن ا لديدان قد بُعثت من عدم ، وأن الأمر قد آل إلى زوال ، وإنسان الأمس قد مضى .

ولكن السّحرة يعترفون أن ما يجعل مهمّتهم عصيبة ليس في إفناء المخلوق وإعادة الإنسان إلى أصله الصحراوي ،ولكن في حماية الحرم المقدّس من عبث الطمّاعين والباحثين عن كنوز الأرض . وقد مضى زمان طويل حتى اهتدى الدهاة منهم إلى تلك الحيلة التي اصبحت شريعة لا يعرف سرّها إلا الكهنة . كان الدهاة اول من أشار إلى جلب مقتنيات الموتى من الذهب ومصنوعات التّبر ودفنها إلى جوار الفانين حتى يضلّلوا اللصوص البلهاء ويعموا بصرهم عن رؤية الكنز الحقيقي . إذ جرّبوا أنه كلما دفنوا حفنة من المعدن الممسوس انساق لها الخلق وتبعوها وتركوا الكنز الآخر ، الكنز الحقيقي .

ولكن ما هو الكنز الحقيقي الذي حرص سحرة الصحراء على اخفائه في شقوق الأرض ؟.رفض الدهاة إذاعة السّر أجيالاً . ولكن

Twitter: @alqareah

الأسرار لا تبقى أسراراً إلى الأبد حتى لو رقدت في صدور الكهنة . فافشى الزمان السّر وقال أن الكنز هو الحيّة . والبلهاء حقّاً من ظنّوا أن الحيّة هي التي تحرس الكنز في حين أن كنز الذهب هو الذي يقف حرساً على الحيّة . لأن السّر في الحيّة . فما أن تستعيد الصحراء بدن الإنسان (يؤكّد السحرة) حتى يتسلل عصفور النّور ويدخل في بدن الحيّة . تتلقّى الحيّة السّر وتخفيه في جوفها بعيداً ، وتلج به أسافل الأرض. تخترق كل الأسافل وتبلغ « آغرم نودادن » . ويقال أنها تلج بسّرها أعماقاً أبعد حتى من « آغرم نودادن » . وبرغم رحلاتها في الملكوت الأرضي إلاّ أنها تظل تحوم حول « إدبني » . حول الشّق الأوّل، حول كوم الحجارة ، حول الضريح ، حول الظّل . بلى . السحرة يؤكدون أن الذهب ظلّ الحيّة ، لأنه يجذب الطامعين فتنجو الحيّة من كيد المعتدين . لأن المخلوق الزائل يرى الأشياء دائماً مقلوبة . يظنّ أن حقيقة الأشياء في الأشياء وينسى أن حقيقة الأشياء في ظلال الأشياء . يقوم إلى الحيّة ليقتلها وينسى أنها لم تسّم الحيّة حيّةً إلا لأنّها اختلست من الإنسان الحياة. في حين يؤثر كوماً شقيّاً من الغبار لا لشيء إلاّ لأنه لمع ببارق خداّع .

وبرغم أن الزمان اذاع السّر العظيم إلا أنه لم يجد اعترافاً من الخلق . ولم يكن هذا الأمر دالاً على حسن حظ الحيّة فحسب ، ولكن لحكمة دهرية ميّزتها عن سائر الكائنات * .

---

* سفر التكوين : « .. وكانت الحيّة أحيَل حيوانات البريّة » ٣ : ١ .

Twitter: @alqareah

(٤)

السّحرة الدّهاة وحدهم ادركوا السّر ، وحفظوا التميمة القديمة. نقشوا الوصيّة في الصدور ، وكشفوا لنفوسهم لغزا خفي على الخلق . كتبوا في التمائم المجوسيّة بالعبارة المبهمة : « الذهب ظلّ ، والحيّة أصل . التّبر ضياع ، والحيّة حياة . إسْعَ لنيل الحيّة واحترس أن تمد يدك إلى كنوز الأرض ، لأن التّبر شرك ، والذهب تراب ، والثراء لعنة ». منذ ذلك الزمان انقسم أهل الصحراء إلى شطرين . شطر لم يعلم لأنه لم يشأ أن يعلم فبقى في صف الذين لا يعلمون . وفئة قليلة ادركت سّر الظّلال ، فعلمت ، ووجدت نفسها في ملكوت السّحرة الذين لا تخفى عليهم خافية وهم بكل سّر عليمون .

ولم يتحّول زهد السحرة في الذهب إلى شريعة صحراوية إلاّ بعد أن مضى الزمان يتقلّب بالصحراء امداً طويلاً . غدر بالأثرياء ورفع المستضعفين إلى أعالي المجد والتّرف والثراء . أطاح بأمم طغت واستكبرت ، وصنع من الشعوب الوديعة قوماً أكابر . وقد أتخذ الزمان، في سيرورته ولعبه بالمصائر ، من الذهب فخاً وكميناً ووسيلة . ودلّل لكل من غفل عن حقيقته أنه بدن الأرض ، بدن الحياة الدنيا ، كما برهن لأولئك الذين ادركوا وعلموا أن جوهر الحياة وسّرها ، وروحها ، إنما تتخفّى في جلد الحيّة . وكان من الممكن أن تقدّم آيات الزمان (التي

Twitter: @alqareah

رآها الخلق تعجن مصائرهم وترتّب شئونهم) برهاناً للفريق الذي لم يعلم، ولكن هيهات . فالكفّة القديمة لم ترجح لصالح أي من الفريقين طوال العراك . وحتى عندما قام السّحرة وتنكّروا في ظلالهم مستعيرين الدرس من أحكم مخلوقات البريّة وأحيلها فإن الفئة الأخرى لم تقتنع بل رأت في الآية خدعة استعارها السحرة من دهاة « كانو » و « تينبكتو» ومجاهل الأدغال ، ومضت تصلّي في محراب الذهب ، وتجري وراء الوميض .

وهكذا بقي الذين لا يعلمون على دينهم ، وبقيت الفئة الأخرى على دينها .

(٥)

تابعه بورو وهو يطّوق رقبته بالعكّاز ، بعكفة العصا الرقطاء . عصا القصب التي تزداد شبهاً بالحيّة كلّما تأمّلها . رأس الحيّة يلتف حول رقبة الزائر. توقّف عند الجلمود الجليل ، في ذلك الجانب الواقع جهة الغروب، فتحرّرت الرقبة من الأسر، ركع بجوار الجلمود . نزلت الحيّة. وتسلّلت إلى مثواها في الحجر . استعاد رحلة قديمة ، قديمة . غامضة فأحسّ بالدوار . ترنّح وهمّ بأن يتنحّى جانباً ليتقيّأ الأمعاء الخاوية، ولكن ما حدث بعدها محا الذاكرة ، والغى الرحلة القديمة ، وانساه الغثيان وآلام الصداع . اختفت الدائرة القمريّة المهيبة التي كان الزائر يضعها

Twitter: @alqareah

فوق رأسه . تملّكت الصحراء الظلمة . ثم قعقع رعد . واعقبت القعقعة زلزلة . ظلّت الأرض تميد وتهتزّ فرقصت معها الصحراء كلها . سقط بورو على ركبتيه وتقيأ بصوت عالٍ . وبرغم انشغاله بإفراغ الأمعاء الفارغة إلاّ أنه لم يغب عن الصحراء تماماً . سمع حجارة الجبل وهي تتدحرج نحو الحضيض ، وكان يخشى أن تدهمه الجلاميد اثناء إنشغاله ولكنه لم يقدر أن يوقف القيء ، كما لم يستطع ان يمنع نفسه من الاستماع إلى الجّن وهم يتراطنون ويتنادون ويتوعّدون . سمع عواء الذئاب ، أشتعلت الظلمة بوميض النّار فرأى أسراباً من طيور مجهولة . ولا يعرف كم مضى من الوقت ، ولكنه أيقن أن الفيض السماوي انقطع، والبدر البتول توارى . ولم يبق في الصحراء غير شبح نحيل فقد قناعه المدهش المنسوج من خيوط القمر . كان يذرع المسافة الفاصلة بين الجلمود والكوم المحّرم . يردّد مع كل خطوة بصوت مسموع : « إيّن . أسّين . كراض ، أكّوز ، سمّوس . سضيس . أسّا » * . في الخطوة السابعة توقّف . لوّح بالعصا في الهواء ، نفس العصا الرقطاء المصنوعة من قصب الخيرزان ، المقسّمة إلى مفاصل ملساء صقلها الاستعمال . نفس العصا المعقوفة التي رآها منذ قليل حّية تتلوّى حول رقبته . لوّح له بالحيّة فرسمت دوائر أرجوانية آسرة . ولم يدرك أنه كان يشير له بتلك الحركة أن يتبعه إلاّ بعد أن كرّر الإشارة ثلاث مرّات . تقدّم خطوة ، وخطوة . وخطوة . توقّف إلى جوار الزائر . تفقّد الكون فغابت

---

* واحد . اثنان . ثلاث . أربع . خمس . ست . سبع (تماهق).

Twitter: @alqareah

الصحراء . عبر الصحراء ، واجتاز، ليجد نفسه تحت سماء أخرى ، فوق أرض أخرى . والسماء الأولى ، والأرض الأولى ، قد مضتا . لا زلزال في الأرض الجديدة ، لا رعود في السماء الجديدة . لا بروق في الفضاءات الجديدة . ولكن على الكون خيّم سلام ، وعلى الأرض الصفاء . سمع دليله يقرأ رقيّة مبهمة . ثم .. سقط ببصره إلى اسفل فتبدّى له الضريح . لم يكن من الاضرحة الفخمة التي اعتاد الأوّلون أن يقيموها للزعماء والأكابر وكبار السحرة ، ولكن تواضع الحجم لم يفقد الحرم جلاله وقداسته وهيبته . بل أنّه أحسّ أن تواضع البناء ، وصغر حجم الحجارة ، تخفي سرّاً أدهى إذا ما قورنت بالانطباع الذي تومىء به الجلاميد الصخرية ، والألواح الحجريّة العظمى التي تستر أبدان الزعماء والأكابر والكهنة . تأمّل التكوين فرأى أن المثوى لا ينهض فوق سطح الأرض بأكثر من شبرين . مدعّم بحجارة معتمة ، عموديّة ، متوسطة الحجم تطوّق المقام في حزام دائري . ارتسمت على بعض القطع مسحة غامضة من السواد . كأنّ يداً مجهولة شاءت أن تخاطب الأجيال رمزاً فحرقتها في موقد النّار قبل أن تجعل منها وسادة للسلف الزائل . كأنّ اليد المجهولة أرادت أن تزبر بها رسالة خفيّة إلى الخلف الشقي لتحذّرهم من غدر الزمان . كأنّ الحكماء القدماء أرادوا أن يقرّوا بعجز اللغة عن احتواء الخطاب ، وتقصير الرموز في نقل الوصايا ، فاستبدلوا اللغة بالعلامة ، والرموز بالبصمة . وقد تحوّل هذا الإحساس ،

Twitter: @alqareah

هذا الهاجس المبهم ، إلى يقين عندما فوجيء بالزائر يسقط على ركبتيه راكعاً . كان يرتجف ويبكي ويغمر الحجر المعتم بقبلات محمومة . ظلّ الزائر يتمسّح بالحجر الأسود ، يتراطن بتعاويذ المجوس ، يغمغم بتمائم السّحرة القدماء ، ويبكي بصوت تخنقه الدموع .

وجد نفسه يجثو بجواره ، يمد يداً راجفة ليصل إلى الحجر الأسود الموسوم ببصمة العتمة .

(٦)

الحجارة ، كالأمم ، اجناس وألوان وتصاوير وطبائع .

في الطفولة اذهلته خطوات العمالقة على الألواح التي تهجع في قيعان الوديان . يطارد الجديان ويتتبع آثار السحالي والضّباب والحيات على السيوف الرملية التي تستعيرها الحمادة من عجاج الجنوب لتذكّر الصحراء الشمالية بالنبوءة القديمة القائلة أن القبلي آتٍ لا ريب فيه ، وأن مآل الدنيا أن تصير يوماً إلى صحراء . يزحف على أربع فوق السيوف اللّميسة ويكشف في الالواح السّفلى عن أقدام الجبابرة . رقد أول مرّة في بطن وادٍ حرقه الجفاف ورأى القبلى أن يستولي عليه . صمّم أن يدفنه فغزاه بسيوف الرملة . شطرته السيوف الذهبية الآسرة في أكثر من موقع عبر امتداده المتعرّج الطويل . فوق أحد هذه العروق رقد ليتفقّد آثار الهوام ويتسلّى بمتابعة دبيبها فوق حبيبات دقيقة متنوعة الألوان . لم

Twitter: @alqareah

يكن يتسلّى تماماً لأنه سمع من السحرة ورعيان الإبل أن الهوام لا تدب على الأرض عبثاً ، ولكنها ترسم بأرجلها وأبدانها رموزاً ونبوءات وإشارات تستحق أن تقرأ . انحنى فوقها يومها محاولاً أن يقلّد العرّافين ويتعلّم قراءة الخطوط الغامضة . انحنى طويلاً فوق دبيب حيّة ، ولكنه لم يهتد لمعنى الرسم. تابع الأثر بسبابته . غاصت السبابة في التراب اللميس فبلغت الحجر السفلي بدل المعنى الباطن . ازاح التراب بغضب من عجز فوجد البصمة تحت الرملة . ازاح المزيد من التراب عن اللّوح المحفوظ في الأسفل فتوضحت صورة قدم هائل . لم تنكشف الصورة كلها في اليوم الأوّل لأن الغروب ادركه قبل أن يتمم الكشف . عاد في اليوم التالي ليواصل البحث . ازاح الرمل ، ولكن اللّوح الحجري اخفى سرّه ولم يكشف له عن أثر آخر غير احفورة القدم الهائل . في ذلك اليوم قاس القدم بذراعه فوجد انه يفوق قياس الذراع بشبرين . كشط تراباً تشبّث بقعره فازدادت اصابع القدم وضوحاً وعمقاً وبهاء . اخفى الأمر عن الأقران ، ولكن امطاراً نزلت على الحمادة فجرفت السيول أكوام الرمل من قيعان الوديان العليا لتسفّه عمل القبلي . تعرّى القدم المجيد وانكشف السرّ . لم يخبر الأقران بالأمر ، ولكنه سمع كبار الرعاة يقولون أن القدم تعود لعماليق من مردة الإنس وأصحاب قوّة وجبروت عاشوا في زمان كانت فيه الحجارة رطبة ، والطير ينطق ويتخاطب ، وأهل الصحراء يتعايشون مع أهل الخفاء ويتجاورون ، يتعشّق رجال

Twitter: @alqareah

الجن نساء الإنس ، ويتعشّق رجال الإنس حسان الجن، فيتصاهرون ، ويتزاوجون ، ويتناسلون حتى امتلأت الصحراء بجنس امتلك أجرام الإنس ونال خصال الجان ، يسعى في الفلوات ، يتبدّى متى شاء، ويتخفّى متى شاء . ويقول السحرة أن تلك الأقوام (التي ما زالت تظهر في الخلوات بأبدان الإنس ثم لا تلبث أن تتبدّد كسراب القيلولة) ما هي إلاّ بقايا من هذا الجنس الذي تركّب من تعايش أهل الصحراء مع أهل الخفاء في أزمنة كانت فيها الحجارة ما تزال رطبة ، والطير يمتلك لسان المنطق . والصحراويون (إذ يرون أن البرهان الوحيد على أن الحياة ليست خيالاً أو كابوساً هو وجود الأنثى) استغرقهم عشق الجنيّات لا لينالوا الدليل على أنهم أحياء ، ولكن لكي يجدوا العزاء وينسوا أنهم على قيد الحياة .

ففي الطفولة عرف الطريق إلى الحجارة قبل أن يجد السبيل إلى الإبل ، وتلقى الأسرار من قبور الأوائل قبل أن يتعلّم لغة الجداء والخرانق* وصغار المهاري . وعندما كانوا يقيمون في الحمادة المتاخمة للصحراء الوسطى عثر على حجر عجيب قيل أنه مكرّم . كان مكّعباً ، ممتلئاً ، بهيجاً ، في حجم يملأ كف اليد ، في جوفه تتلامع الوان وهّاجة ، ولكنها مخنوقة بعتمة غامضة . والعجائز أوّل من أكّد أنه حجر نفيس أتخذه الاسلاف حصناً يحمي من الجان . لم يصدّق أحد هذه الخرافة

* الخرانق : صغار الأرانب .

Twitter: @alqareah

عملاً بتعاليم نُسبت لآنهي تحذّر من أمتلاك أي جرم ارضي يدفع بوميضه إلى الخارج . وبرغم أن الحكمة كانت تخص المعادن إلا أن أهل الخبر برهنوا أن التحريم لم يستثن الحجارة . فما كان من اهل الصحراء إلا أن تجنّبوا الأحجار التي تفيض بالشعاع ، وتمنح وميضها إلى السماء ، وآثروا عليها الحجارة الميّتة ، التي لا لون لها ولا وميض ، عملاً بوصيّة أخرى نُسبت إلى «آنهي» أيضاً ، تقول أن الحجر الوحيد الذي يصلح تميمة هو الحجر الأخرس ، لأنه كالقنفذ ، يحمي الجوهر بالانكفاء على نفسه ، ولا يتباهى كالأكابر فيبدّد الوميض في الخلاء . وسمع روايات كثيرة تتحدّث عن سبب عبادة القدماء الحجارة «إدبنان» فتعيدها إلى اسباب غامضة تشابه هذه الأسباب . استعاد كيف تلهّى بتلك القطعة البهيّة . يحتضنها في راحة يده فتفيض اركانها وتبرز من بين اصابعه . الحق انه لا يرى بروز الاركان ولا يحسّ به ، ولكن الوميض ينبثق من اليد ما أن تتسلّل الشمس على الصحراء وتدفع بوميض مضاد إلى الكائنات . كان يحلو له كثيراً أن يتابع ميلاد الضياء من الكفّ المضمومة ، من مكان مّا في القبضة ، من جوف مجهول ابتدعه بنفسه وصنعه بيده ، بأصابعه الصغيرة ، من خفاء حوّله الانكفاء إلى ظلمات ومجاهل وادغال . من دنيا أخرى فقدت الصلة بدنيا الصحراء المكشوفة ، بدنيا الفضاء المفتوح على السّماء . دنيا تتوهج بالغموض وتحرق يديه لأنها احتوت ذلك المجهول الذي تضمّه قبور الأولين في الاسافل فصيّرته أقرب إلى ذلك

Twitter: @alqareah

الحال الذي يعتريه عندما يحسّ باقتراب الجنّ . يظل منبطحاً على بطنه في جوف الوادي ، أو عند حضيض المرتفعات ، يتابع المداعبة . تنبثق الشمس من قوس الأفق أولاً . تولد في المهد وعلى رأسها تاج منسوج من خيوط موشاة بهباء التّبر . تتدفق في الصحراء بقرون الاستشعار الصفراء ، تتقدّم حتى تلامس قبضته المرفوعة إلى السماء فتستجيب لها القطعة المخفيّة ، القطعة الشقيّة التي تفتح قلبها إلى خارجها ، ويبدأ الحوار المبهم . حوار البكارة والملاطفة والدعابة واللقاء الحميم ، العناق العذري الحميم . يتعّمد أن يبقي على يده معلقة في الهواء فتبدو يداً أخرى وهي مغمورة بذلك الفيض النّبيل . وكلّما تصبّر وأبقى على العناق الحميم امداً أطول كلما تمادت لعبة الضياء مع الضياء ، ولقاء نور النّار مع نور حجر استنزف نفسه ففاض بسرّه إلى الملأ . تستمر اللعبة حتى تتحّول يده إلى وهج ، إلى شعلة ، إلى قطعة مستعارة من الحريق . يشعر بالحريق يتنقل ويتسلل إليه ، فيستسلم ويهوي بيده إلى الأرض . يطلق قطعة العجب فتتألق بألوان أعجب : صفراء وخضراء وزرقاء وحمراء والوان أخرى لا يعرف لها إسماً . ولكن هذه الألوان لابد أن تتحد في النهاية في ذلك اللون الذي تتلوّن به السنة النّار عندما تطعمها أغصاناً حيّة ، الأغصان الخضراء المستقطعة من شجرة رتم لم يقض الجدب فيها على الحياة . وإذا تلوّنت القطعة بهذا اللّون المخيف فلابد أن يسترخي ويرمي بها إلى التراب ، لأن الستار يسدل ، وتسود الظلمات ، ويغشى البصر

Twitter: @alqareah

عماء ، ويخرج الجان من القمقم . يسمع القهقهة بأذنيه ، يغمض عينيه ويسدّ اذنيه بكلتا يديه . تتزلزل الارض او تتصدّع الجبال فيسمع الحجارة وهي تنكسر وتتدحرج عبر السفوح. تغيب الصحراء ، أو يغيب هو عن الصحراء زمناً . وكثيراً ما أفاق من غيبوبته بعد أن تكون الذئاب قد فتكت بقطيع الجداء في الوادي المجاور . ادهشته خصيلة الحجر ، ولكنه سمع عجوزاً تتحدّث عن حجارة لها خصال المعادن اللئيمة ، يسكنها الجن مثل التّبر ، تفضح سرّها وتسكب روحها في البريق .

لعنت الحجارة اللمّاعة طويلاً . وقالت أنها جوفاء لأنها شعّت بفيض الضوء ونورها ظهر . واثنت على الحجر المعتم ، واطلقت عليه لقب « حكيم»، لأنه يسدل لثامه على وجهه ، ويتحجّب بقناع الفتنة والكآبة والخفاء . ولم تكتف العجوز القديمة بكشف حيل الحجارة المثيلة للمعادن اللئيمة ، فجمعت صبيان المنتجع في ليلة صيفية امتلكها بدر الصحراء الخالد ، وروت لهم حكاية شيّقة عن حجر غامض ، مدلّل ، ومكرّم . يجلّه الحكماء ، ويسعى في طلبه دهاة السّحرة . يستطيع أن يحوّل الاشياء ، ويمسخ الكائنات ، يخفي ما ظهر ، ويظهر ما بطن . وانتهت إلى أن العثور عليه أمر يفوق العثور على بوابة « واو » الضائعة . وبرغم أنها روت لهم قصصاً عن خلق تمّ لهم الفوز ونالوه في الزمان الذي كانت فيه الحجارة ما تزال رطبة ، والطير يتخاطب بمنطق الأنس ، وأهل الصحراء يتخذون حسان الجنّ ازواجاً لهم ، إلاّ أنها نفت بشدّة

Twitter: @alqareah

الاساطير التي تدّعي بأن السحرة نالوه في زمان تقدر أن تبلغه الذاكرة . ولم يجسر أحد من الصبية أن يسأل العجوز الجنيّة عن سرّ اختفاء هذا الحجر النفيس، لأنهم سافروا إلى الزمان القديم ، ولم يبق منهم في العراء المغمور بفيض البدر الفضّي إلاّ أبداناً جوفاء .

ولكن لا السحرة الدهاة ، ولا العجائز الحكيمات استطاعت أن تبتدع حيلة تقضي على السأم الذي يتملّك قلوب الصغار ويدفعهم لتخريب مدن انفقوا في بنائها أياماً ، وتحطيم دمى كانت لهم بالأمس حياة .

هذا السأم الشقي ، هذه الحيّة الداهية ، هي التي سلّطته على الحجر المكعّب ليمحوه ويقطع أصله من ارض الحمادة . وما أدهشه ليس لعنة السأم (التي يراها الحكماء شريعة من الشرائع التي تدبّر الحياة في الصحراء) ، ولكن الرغبة الجنونيّة التي تملّكته لتحطيم الحجر . وقد استعاد فيما بعد كيف صار الشغف باللّقية عدواناً ، والاعجاب بالحجر كراهية ، والاندفاع المحموم للتملّك رغبة في التخلّص والخلاص . ولم يفكر على هذا النحو في ذلك الزمان البكر ، وكان عليه أن ينتظر طويلاً حتى يعرف أن الإنسان لا يكره إلا الكائنات التي أحبّها . وكلما كان عشقه لها في أول العهد أقوى كلما قابلها بكراهية أقوى عندما يحين الوقت .

ولم يكن في حاجة كي ينصت لتفسير كهنة المجوس عن حكمة

Twitter: @alqareah

الدهر ودهاء الزمان ، لأن الحياة علّمته بنفسها ، فيما بعد ، أن المخلوق يكره بقدر ما يعشق ليس غرابة في الاطوار أو تقلباً بليداً في المزاج ، ولكنه يفعل ذلك دفاعاً عن النفس . فإن استسلم وظلّ على عشقه تملّكه الكائن المعشوق وهلك فيه إلى الأبد . أمّا إذا اعتوره ما يسميه الدهماء جنوناً ، وقابل الكائن المحبوب بصنوف الكراهية وألوان العدوان فقد فاز لأنه نجا . الشريعة الخفيّة تقول أن المخلوق البائس ما امتلك شيئاً إلا امتلكه الشيء المملوك ، ولن ينجو من الفخّ إلاّ إذا تخلّق بمسلك المهاجرين الخالدين الذين لا يسمحون لأنفسهم بأن يعشقوا شيئاً غير شذى الترفاس أو زهرة الرّتم ، أو رموز الأوّلين . هذا الاحساس المبهم ، الخفّي ، سلّطه على الحجر . فآلى على نفسه أن يفنيه ويعيده إلى تراب . في اليوم الأول رماه على لوح حجري في صلابة الصوّان ، فأرتدّ إليه واصابه في صدره. ترنّح . تلوّى. هرش قفص الصدر بقبضته. حشره بين حجرين .ونزل عليهما بحجر ثالث . لم يدر كيف افلت الحجر الملعون من الحصار وأصابه في عظمة الرسغ . سقط على الأرض يتلوّى ويسّب الحجارة. هجع طويلاً. ثم نهض وبحث عن حجره اللّعوب . اطبق عليه قبضته فأحسّ بوخز أركانه المدبّبة في راحته. فاض نوره من القبضة وغمز لشعاع الشمس . لوّح بيده في الهواء ثلاث مرات قبل أن يلقي به بعيداً. رآه يومض في الضوء قبل أن يسقط في مدى مكسو بالحصى، فقال لنفسه ها هو يودّعه ، لآخر مرّة ، بابتسامة لئيمة، ساخرة ! .

Twitter: @alqareah

لم يمض على تخلّصه من الحجر الممسوس سوى أيام عندما قطعت السحب مسافة أخرى ، فحملوا امتعتهم وهاجروا وراءها . ولا يذكر كم مضى من الوقت قبل أن يستدعيه الأب ليمثل بين يدي ذلك السّاحر الجليل الذي أقبل طلباً للحجر الضّائع . في ذلك الزمان البعيد كان النهار مثل الأسابيع ، وكانت الأسابيع تعادل الأشهر طولاً ، وكانت الأشهر في طول السنين إذا قيست بأجل هذا الزمان . فما سرّ تباطؤ الزمان الأوّل وسحره وامتلائه وبهائه بالمقارنة مع زمن اليوم لو لم يصدق السحرة في نبوءاتهم القائلة أن الزمان ، مثل الخلق ، يتلف ويبيد ويهرم ويفسد كلما تقدّم به العمر ، كلما مضى إلى الأمام ، كلّما ابتعد عن مملكة الازل في طريقه إلى ملكوت الأبد ؟ .

(٧)

وقف أمام السّاحر يرتجف فأمره الأب :

– أخبره عن الحجر !

رفع بصره فوجد نفسه يقف أمام رجل ملثّم بقناع اسود امتصّت منه الشمس لون العتمة فبهت وشحب ومال إلى بياض . على صدره ترقد قلادة مهيبة من حبّات الودع . على رأسه ، حول العمامة البائسة ، طوق مخيف من قطع عرف فيما بعد أنها تعاويذ مستعارة من عظام الموتى . نحيل الصورة ، نحاسي البشرة ، في عينه وميض الجنّ وغموض

Twitter: @alqareah

القدامى . دس في جيب الجلباب يداً نحاسية ، نحيلة ، موسومة بعروق صارمة ، وأخرج صرّة من الكتّان البائد . فكّ رباطها دون أن يتوقف عن متابعته بالنظر الذي يبرق بوميض الجنّ . تناول حفنة من مسحوق التبغ واستلقى بظهره إلى الوراء وهو يلقي بها في فمه . حشرج الطوق الذي يتوّج رأسه حشرجة كئيبة ، ورأى في فم الساحر اسناناً سوداء مخيفة تليق بالسّحرة . تلذّذ بمضغ المسحوق . بصق اللعاب الأسود ، اللزج ، جانباً ، فلمع في ضياء الصّبح . ولا يعرف كيف وجده يمسك بمعصمه بتلك اليد الخشنة النحاسية ، الممزّقة بالعروق والتجاعيد . تسلّل باليد ، ليقبض على يده ، كما تتسلل الحيّة عندما تتأهب لاقتناص الفأر. قال بلهجة كالوعيد :

– هل حقاً ما سمعت ؟

لم ينتظر جوابه . اضاف وهو يبتسم فجأة :

– لن تصدّق يا صغيري أن الخبر ادركني في « مساك صبطفت» .

ضاقت عيناه الناريتان فجأة . حشرج في ضحكة مكتومة : «هيء – هيء – هيء .. » . ثم توقف فجأة أيضاً فاستعاد وقار السحرة. عاد الغموض إلى عينيه ، ولكن النّار أنطفأت . حلّ فيهما هدوء كالحزن. ولكن قبضة الساحر لم تتناسب مع التعبير المسالم الذي نطقت به مقلتاه . تكوّرت وتصلّبت وشدّدت حول معصمه الخناق . أحسّ

Twitter: @alqareah

بالألم ، ولكنه لم يشتك ، ولم يحاول أن يتملّص من القيد . أخيراً تكلّم الساحر :

– أنت لا تعلم يا صغيري ، أنه يظهر مرّة واحدة كل عشرة أجيال . هل تعرف ما معنى أن يظهر مرّة كل عشرة أجيال ؟

لم يجب . لم يفهم . فتطوّع الأب :

– الشيخ الجليل يريد أن يقول أنه لا يظهر في الصحراء إلاّ مرّة في مئات ومئات من السّنين .

ابتسم السّاحر . اضاف :

– اردت أن أقول ذلك كي تصدقني القول .

بصق اللعاب الاسود ، اللزج ، الكريه . مال إلى الأمام . انحنى فوق رأسه . تلاحقت انفاسه كفحيح الحيّة . سأل :

– أين أضعت الحجر الحكيم ؟

– اترك يدي !

– اصدقني القول وستلقى كراء !

– لقد قذفت به في الفضاء .

– سأجزل لك الكراء إذا اخبرتني أين سقط !

– يدك تؤلمني .

Twitter: @alqareah

- تفكّر . تفكّر . اهرش رأسك ولا تقل شيئاً حتى تتذكّر . أكره شيء للسحرة هو الثرثرة فتفكّر ، وتذكّر وعدي بالمكافأة .

- لا أريد مكافأة .

- ماذا تريد إذن ؟

- ان تترك يدي .

ولكن الساحر قال بإلحاح طفولي :

- لن ادعك حتى تخبرني .

دسّ يده في جيب مخبّأ في كُمّه وأخرج حفنة من التّمر . بسطها في راحته اليسرى ، في حين استّمر يقبض على يده باليمين . ضاقت عيناه حتى اختفى منهما بريق أهل الخفاء . حتى داهمهما الجفنان المتغضّنان . حشرج كالمختنق :

- إذا اخبرتني نلت الكراء . هيّا : صف لي الحجر !

- كان ملوّناً ..

اغمض عينيه تماماً . شيّع راحته اليمنى في الفضاء . غمغم كأنّه يتصيّد نبوءة في الظلمات :

- ملوّن . ملوّن .. صف لي الألوان .

- حمراء وصفراء وخضراء وزرقاء و ..

Twitter: @alqareah

- أكمل .. أكمل ..

- .. سوداء !

- هل قلت سوداء ؟

هرس معصمه فافلتت منه آهة أليمة . تابع اليد المعلقة بالتمر في الفضاء فنسي الألم . تمتم :

- نعم . سوداء كعتمة الغروب .

انهار الشيخ فجأة . القى بحبّات التّمر في حجره فتساقطت على الأرض المكسّوة بالحصى وحبيبات التّراب . ارخى قبضته وترك يده . رفع كلتا يديه على وجهه . ناح بأنين طويل ، فاجع ، أليم :

-آ-آ-آ-آ - ه ...

خيّل له أن الجنّ تلقفوا وجع السّاحر فرددوه وتنقلوا به في الصحراء طويلاً . بعدها انحنى على الأرض ليلتقط التّمر ، ولكنه رأى السّاحر يتلوّى على الأكمة ويتدحرج إلى اسفل . انحسر اللثام عن فمه فرأى زبداً فزّ من فمه . بدأ يرتجف وينتفض . هرع إليه الأب . اخرج من كمّه مدية نحاسية . . لمع نصلها تحت شعاعات الشمس عندما حرّرها من الغمد وشرع ينحر الجّن فوق بدن السّاحر . تفقّد معصمه فوجده موسوماً بأخدود كأنّه سوار من دمّ .

Twitter: @alqareah

(٨)

تناقل الرعاة في الحمادة أن السّاحر تنقّل في صحراء الشمال . نزل السهول وصعد الجبال . حرث الأرض وفتّش الحجارة ، تلوّى على تراب الاوائل ، وتمسّح بـ « إدبنان » حيث يرقد الاسلاف . تغنّى بالفناء في مواويل الاشجان ، ولكنه لم يفلح في العثور على الحجر الحكيم .

ويذكر ، الآن ، كيف عاد ونزل على منتجعهم بعد سنوات أخرى ، لكي يستنطقه عن مسلك الحجر . ولا يعرف حتى اليوم أيّ جنّ شرير أشار له أن يسخر منه كما سخر من الحوار المسكين بالغناء . في البداية هاله ما صارت إليه هيئة الساحر من هزال وبؤس الحال ، ولكنه ما لبث أن ركب رأسه . انتهى الضيف من تساؤلاته الملهوفة حول الحجر الفقيد فاستسلم لفورة خفيّة انطلقت من المجهول وملأت صدره بنار . نار الصدر فاضت وتغلغلت في البدن فبلغت رأسه وملأته بالوجد. قفز كما يقفز المجذوبون إذا دخل في ابدانهم الجّن ، ووجد نفسه يقف في وجه الساحر الجليل . مّد رقبته إلى الأمام فوجد رأسه يلامس عقد العظام الذي يطوّق رأس الزائر . في عينيه وميض مستعار من مملكة الخفاء. حاول الساحر أن يبتعد فتقهقر إلى الوراء ، ولكنه لاحقه برأسه وغمغم في وجهه :

Twitter: @alqareah

– كان حجراً لئيماً ، يغمز هكذا .. هكذا .. أردت أن أكسره بالحجر فضربني على صدري . حجر لئيم تسكنه قبيلة من الجّن !

ثم قفز خارج الخباء وشرع يحجل على رجل واحدة ، في حين استلقى الساحر على قفاه وناح بأنين طويل ، فاجع :

–آ–آ–آ–آ–ه ..

مضى يتقافز في الخلاء كجدي شقي . التفت فرأى نصل المدية النحاسية الفظيعة يومض في فيض الضياء ، فأدرك أن السّاحر قد وقع وتملكته النّوبة مرّة أخرى .

(٩)

قبل أن يعود المهاجر في المرّة الثانية اشعلت في صدره الفورة الخفيّة ناراً أخرى فسأل أباه :

– ألم يقولوا أن الحجر الحكيم معتم ، أظلم ، موحش ؟ ألم يقولوا أنّه ينكفيء على نوره كما يتكوّم القنفذ على نفسه ؟ ألم يقل السحرة أن الأشياء التي تفيض بالضياء وتكشف عن جوفها كاذبة ؟

كان يلهث ويرتجف ويكابد حريقاً مجهولاً . تابعة الأب بقلق. تفقّد مردة الجنّ في ظلمة الليل . تمتم بالتمائم القديمة والقى في النّار بحفنة من الشّيح . تبسّم بغموض إذ رآهم يختنقون بدخان الشيخ ويستجيرون من تعاويذ الأوائل بالخلاء . هرش احشاء النّار بالمسعر

Twitter: @alqareah

وأخرج من جوفها جمراً بهيجاً مثل سبائك الذهب . كوّمها جانبا ووضع فوقها وعاء مليئاً بخليط من الاعشاب . اضاف الماء إلى الوعاء . غرس المسعر في نتوء رملي بحدّ الأرة ، ثم قال :

- الأشياء المجهولة ، كالجنّ لها غرابة في الطبع ، وتقلّب في المزاج ، وتذبذب في المسلك . انظر إلى السّراب اللعوب كيف يلعب ويلهو ويعبث بكائنات الصحراء ! ألم تره كيف يرفع البعر التافه ، الضئيل ، فيصنع منه بنياناً من حجارة ، أو تلاّ لئيماً يدبّ على قدمين ؟ ألا ترى غرابة الطبع وتذبذب المزاج في مسلك المردة ؟ ألا يتخلّقون حيناً بأخلاق أفاضل الإنس واخيارهم ، ثم يفسدون بلا سبب ، فيداهمون اهل الصحراء برؤوس مقطوعة ، وهيئات مقلوبة وكأنهم اشقياء السحرة ؟

اعتدل في جلسته . عدّل وضع الوعاء فوق الجمر . أحكم رباط اللثام حول رأسه . رفع طرف اللثام السفلي وستر به انفه . غمغم بتعويذة أخرى قبل أن يتكلّم :

- فهل تعلم من أين يأتي السّراب ؟ أتدري أين يسكن المردة ؟

انتظر ومضة . تصنّت للسكون في الفلاة ، ثم استعار منها الجواب :

- هذا ما لم يقف عليه حتى الدّهاة . ولكن السحرة بلغوا أمر الحجر الخفّي فعرفوا أنّه قادر على تبديل الاشياء ، ومسخ الكائنات ،

Twitter: @alqareah

وإخفاء ما ظهر ، وكشف كل شيء بطن وتخفّى . وإذا كنت ترى عجباً في قولهم بفساد كل الاشياء التي تلمع وتومض فاعلم أن تذبذب المسلك ، وتقلّب المزاج ، وغرابة الطبع ، خصال في الحجر الحكيم ، وليست حيلاً طارئة يبغي من ورائها الشفاعة . فهو يومض ويومىء ويتلاعب من حيث هو كنز . والكنز حسناء لابد أن تكشف عن وجهها، وتتغنّج إذا أرادت أن تتباهى بحسنها . ولكن التلاعب يصيب حكمتها ويصير مميتاً إذا أصاب منها الصميم المبهم إذا لم تكشف عن وجهها وتتغنج وتغنّي لتومىء إليه .

سكت الأب طويلاً . نفد صبر الإبن فعجّل بالسؤال :

– الصميم المبهم ؟

– أجل . الكنز !

– الكنز ؟

– أجل . البكارة !

– البكارة ؟

– أجل . البكارة هي الكنز الذي تخفيه العذراء إذ تباهت ، وليس ملاحة الهيئة وحُسن القدّ .

سكت ومضة أخرى . اضاف :

– اردت أن أقول أن لا حرج على الحجر الحكيم إذا تباهى

Twitter: @alqareah

بحُسنه الخفي فغمز وومض وتلاعب بالضياء ، لأنه لا يفعل ذلك إلاّ كي يبعد الأشرار ويضلّل الباحثين عن الكنوز الظلماء !

– الكنوز الظلماء ؟!

– وهل ظننت أن كل الكنوز برّاقة غمّازة مثل التّبر ؟ كنوز الحكماء تبتلع وميضها في جوفها ، وتستعيد الضوء لتغذّي سرّها متى شاءت . والحجر الحكيم ينتمي إلى هذه العائلة . فاللّعب خصلة تتخذها كل الكنوز حيلة . ولكن الحجارة الحكيمة داهية ، لأنها وحدها تملك المقدرة على التلاعب فتفيض بنورها دون أن تدع الخلاء يسرقها ، فلا تلبث أن تتجهّم وتكتئب وتنكمش . إنها تستعير حيلة القنفذ التي تحدثت عنها إذا احسّ خطر الباحثين عن الكنوز الجوفاء .

– الكنوز الجوفاء ؟

– أجل . ما التّبر وسبائك الذهب سوى كنز أجوف ، ليس لأنه شقي يتلامع تحت الضوء ، ولكن لأنه ضلّ منذ زمن الأوائل فأبى أن يتخذ قناعاً ، وآثر أن يمضي في الصحراء حاسراً فكان أن امتلكه الجّن الذين اتخذهم «وانتهيط» جنوداً . فاعلم أن حكمة الاوائل تلعن كل مكشوف لم يتقّنع ، وترى من لم يتلثّم كائناً ممسوساً ، مسلوباً ، والذهب كنز ينتمي إلى هذه العائلة.

سحب وعاء الاعشاب خارج الأرة . انتقل سعير النّار إلى أصابعه نفض يده في الهواء كأنّ عقرباً علقت بها ولسعتها . حشا اصابعه في كوم الرمل ليطفيء في التراب سعيراً اخفق الهواء في إطفائه . اختتم

Twitter: @alqareah

الجواب :

- هل عرفت قليلاً عن لؤم الاشياء وحيل الكنوز ؟ هل فهمت قليلاً عن مسلك الكائنات المزيفّة وطبائع المعادن ؟ هل رأيت إلى أيّ حدّ تتشبّه اشياء الصحراء بأهل الصحراء ؟ هل رأيت أن طبائع المعادن لا تختلف عن طبائع الخلف ؟

التفت إليه فجأة . أمسك بمنكبيه بكلتا يديه . لمع في عينيه وميض المجهول عندما هزّه محذّراً :

- ليس في الصحراء كلها شيء أقسى من التمييز بين الأصيل والمزوّر ؟ هل تعلم لماذا ؟

لم يمنحه فرصة لجواب . مضى :

- لأن الوهم في الصحراء أكثر قدرة على التباس الحقّ . والحق في الصحراء أسرع للتخفيّ في مسوح الخيال . فإذا أردت أن تعرف الحقّ من الباطل احتجت لشجاعة السحرة الذين يخرجون للاشتباك مع الغيلان في الليالي . الباطل أقدر على التشبّه بالحقّ من ملازمة الحقّ للحقّ . فاحترس ، ثم احترس ، ثم احترس !

(١٠)

ولكن الساحر عاد ، بعد سنوات أخرى ، طيفاً بائساً . بشرته النحاسية صارت بلون القصدير ، وازدادت بُنيَته نحولاً وضموراً ، ولم يبق في خلقته سوى بريق يومض في عينين غارقتين في حبس المحجرين . في العينين أيضاً وقع تبدّل . فالوميض تخاذل وسار إلى انطفاء ،

Twitter: @alqareah

والغموض القديم نافسه الشّقاء والتسليم . لم يذق طعماً لشراب الاعشاب الذي وضعه بين يديه ، ولم يعر انتباهاً لأكابر القبيلة الذين تحلّقوا حوله يسألونه عن الأسفار . حدّق في الفراغ . انطفأ سلطان الكواكب فحدّقت فيه العتمة . رفع صوته بالآهة القديمة ، الأليمة ، الفاجعة . قبل أن ينبئ مجلس الأكابر :

– انتم لا تعلمون ما الذي جعل الحجر الحكيم يستعير لون الظلمة. انتم لا تعقلون أن ولدكم الشقّي هذا (واشار بسبابته النحيلة نحوه) عثر لكم على كنز فاق كل كنوز الصحراء ، ولكنكم تركتموه يقذف به في الخلاء فضاع . لقد رأيتم فيه خطراً ، لأنكم نسبتموه إلى عائلة التّبر ، ونسيتم أن ليس كل ما يلمع بذهب مشئوم !

قدّم له أحد العبيد وعاء مليئاً بـ « آلكوه »* . ولكنه رفض الوعاء بهزّة من رأسه . مضى :

– سوف تنوحون كثيراً عندما تعلمون أنكم فقدتم السّر الوحيد الذي يقود إلى « واو » .

كان يختبيء في زاوية الخباء عندما رآهم يتناطحون بالعمامات الجليلة . تهامسوا ، دسّوا الشفاه في الآذان المحتجبة ، فزّت العيون بالبريق، تلاقت الانظار ، وجلجلوا بالسؤال :

– واو ؟!

أعادوا السؤال مّرات . ثلاث مرّات ، وانتظروا . ولكن المهاجر

* آلكُوه : عصير التمر المخلوط بحليب الإبل .

Twitter: @alqareah

كان قد هاجر مرّة أخرى . زحف البياض وابتلع سواد المقلتين . حدق في الظلمة الفاجعة وناح :

- آ - آ - آ - آ - ه ...

حاولوا أن يستدرجوه ليخبر عن طبيعة الحجر إذا ضاع . فلم يسمعوا منه غير عبارة واحدة بقيت غامضة :

- اعلموا يا أكابر القوم ، ويا حكماء السّحرة ، أن الحجر الحكيم مثل الأزل ، مثل الزمان القديم ، مثل الحياة ، إذا اضعته مرّة امتلكه الفناء إلى الأبد .

هجع على قفاه . يذكر المجمع جيّداً كيف هجع الساحر المهاجر في تلك الليلة الظلماء ، كما يذكرون أيضاً كيف امتلكه الفناء في الصباح ليصبح جزءاً من الزمان الذي مضى . فُجعوا وأكتأبوا لا لأنهم فقدوا ضيفاً مدهشاً سخّر حياته لطلب حجر تافه ، ولكنهم فجعوا لأنهم لم يعرفوا من المهاجر السّر الذي يجعل الحجر دليلاً يقود إلى واو المفقودة .

تشاوروا ، تناطحوا بالعمامات ، تبادلوا حكم الأوائل المستعارة من «آنهي» الضائع ، ثم وثبوا كالسّباع وانتزعوه من زاوية الخباء . جرّدوه من اللباس، واوثقوه بحبل بشع مفتول من المسد . علّقوه في ركيزة الخباء من رجليه . ورأسه يتدلّى إلى أسفل . ضربوه على مؤخرته بمسعر النّار ، وقالوا أنهم لن يتركوه إلاّ إذا أخبرهم أين خبأ الحجر .

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

٩ - الظّلمة

« في البدء خلق الله السموات والأرض . وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظُلمة » .

سفر التكوين

(١ : ١، ٢)

***

« عند ذكر القدمة : قد قيل في الكتب العتيقة أن أوّل شيء وأقدمه الظّلمة التي ليست السّواد وإنما هي عدمٌ كحال النّائم » .

ابو الريحان البيروني

« في تحقيق ما للهند »

***

« إذا قويت الهيولى عليها ، لم تقو على وجدان الذي فينا ، إلا بطلب وفحص وسبح وغوص ، فإذاً استولينا على الهيولى ، وجدنا الشيء بأهون السّعي ، لأنّا نحن هو ، إذ كنّا نحن العقل الأوّل ، وكانت الاشياء فيه ، فهي هو فكيف يمكن أن نذّكر الاشياء ، والاشياء فينا ، والتذكّر إنما يكون في اثناء الوقت ، لأننا ننسى في وقت ونذكر في وقت آخر ، وهناك الدهر لا الوقت »

ابو حيان التوحيدي

« المقابسات »

***

« قادني وسيّرني في الظلام ، ولا نور »

مراثي إرميا

(٣ : ٢)

Twitter: @alqareah

(١)

ازاح السّاحر حجارة كثيرة ، ولكن الأرض زلزلت مرة أخرى ما أن لامس اللّوح الحجري المستطيل . تصدّع الجبل ، وتقاطرت الحجارة ، وتدحرجت عبر السفوح . استجابت السماء بالقعقعة والشّرر. جرجر السّاحر اللّوح جانباً ، ففغرت الأرض فاها ، وكشفت عن ظلمة مبهمة . تناول الساحر حجراً واسقطه في فم الأرض ، القمه فوهة الصحراء ، فاختفى . هوى، وهوى ، وهوى ، دون أن يبلغ للفم الأظلم قاعاً . سرت في بدنه رجفة ، ولكن الزائر الجليل أومأله أن يمضي. لم يمض . رأى تردّده فتقدّم نحو الفم الموحش خطوات . وقف فوق الفوهة . فوق الظلمة الجليلة . انحنى . انحنى حتى ظنّ أن الزائر انتوى أن يقفز في الهاوية برأسه . ولكنه اعتدل في وقفته مرّة أخرى. جلس فوق الحافة . تمتم بالتمائم القديمة . مدّ ساقيه فتدلّتا في الهاوية . أمسك بنتوء صخري على الحافة وبدأ ينزل . نزل في البئر اشباراً . غاب في الارض . ابتلعت الهاوية قامته حتى الصدر ، حتى المنكبين . طرف العمامة لامس الحافة ، كاد يختفي كلّه عندما سمع النداء النّبيل . نداء الأرض عندما تدعو ابن الأرض الضّال لأن يعود . نداء اشد هولاً من انتهاراتها ومن زجرها ليلاً . نداء تلفّظت به الصحراء ولم يتلفّظ به الساحر : « تعال ! » . تردّد مرة أخرى ، فسمع النداء يتكرر ثلاث مرّات. في المرّة الأخيرة سمع الصحراء تضيف إلى :« تعال » كلمة « لا

Twitter: @alqareah

تخف» بصوت عرف فيه صوتاً انتظره طويلاً ، صوتاً كاد الزمان أن يميته ويجعله طعاماً للنسيان . صوتاً امتزجت فيه الأصوات ، فصار خليطاً من هدير السيول المندفعة من الأعالي ، وشقشقة « مولا - مولا » عندما تتغنّى بالبشارة ، وهمهمات الجّن في خلوات الشتاء ، وأغاني الصبايا في ليالٍ ينصّب فيها البدر نفسه سلطاناً على الصحراء . المزيج الشجّي ، الصوت السرّي ، اللحن الذي يشعل الأشجان ، ويقدح زند الشوق هو ما أعطاه القوة للعبور ، وبلوغ الضفّة الأخرى ، ليعرف ، في النداء الغامض ، صوتاً كان مقدّراً ألاّ يكون سوى صوت مخلوق حزين فقده يوماً ، وتخفّى في جلد «تيرزازات » السّاحرة يوماً آخر كي ينزل إليه في « آغرم نودادن » . صوت : أُمّه!

(٢)

النسيان ..

ناموس سنّته «واو» ليصير لها شرطاً .

النسيان ..

لغة مجهولة خذلت من أتقنها ، ونسيها من ابتدعها . ونالت من كل من ظنّ أنه وقف لها على سرّ .

النسيان ..

زاد المهاجرين ، وقرين من اعتنق السفر .

Twitter: @alqareah

فتمّهل ، يقول النسيان للمهاجر الأبدي . تمهّل ، لأن الازل مملكتي ، والأبد فردوسي ، والطلب لن ينفع طالما امتلكت عليك كلا السّبيلين .

ففي مملكتي يصير الازل زوالاً ، الأبد فناء ، والوقت خيالاً . وما على الشقي الأبدي إلاّ التسليم إذا دخل مملكة فيها الزمان مملوكي ، والعماء شريعتي، والظلمة محرابي ، وعبورها ديانتي . فمن أقبل عليّ كافأته بحياة الميلاد ، ومن أدبر عنّي فقدته وناله منّي الخيال .

(٣)

قاده في مجاهل لها مهابة . ومجاهل لم ير لها مثيلاً في آزجر . مجاهل ليست من تارات ، ولا من آلّون ، ولا من تانوت ملّت . مجاهل كئيبة معتمة ، و لكنّها جليلة ، ونبيلة . مجاهل اودية عميقة ، تقف على شطآنها من الجانبين قمم لم ير لها مثيلاً إلاّ في « تادرارت » . وقد بلغ من تفاقم القمم ، وعلوّ شأنها ، أنها غابت في سماوات مستورة بسحاب كثيف . ومسيرة الوديان كانت غريبة أيضاً ، فتتلوّى يميناً مرّة ، ويساراً مرّة، وتستدير إلى الوراء مرّات كثيرة ، حتى يجزم سالك الدرب أن الصراط انسدّ ، وعاد على عقبيه . في قيعان الأودية نبتت أعشاب عجيبة . وما ادهشه في النبات ليس التكوين ، ولا المسلك ، ولكن

Twitter: @alqareah

اللّون. فأحراش العلّيق التي استجارت بالأسافل ، استعارت لون الرملة ، والاشجار الأخرى التي رأت أن تكابر ، اختارت لوناً معتماً كأنّه الرّماد أو معدن الحديد .

في مجاهل النّفق سأل بورو :

– من دخل المغارة ، أو أنزل بدنه في « إدبني» طمعاً في الكنز ، لاقى في الطريق ريحاً ...

جاوبه الدّليل بلغة الأوائل :

– لاشيء يقع قبل حلول الساعة !

قطعا مسافة أخرى ، ثم سأل بورو :

– من دخل المغارة ، أو انزل بدنه في « إدبني » طمعاً في الكنز ، لاقى في طريقه ناراً ..

جاوبه الدّليل بلغة الأوائل :

– لا شيء يقع قبل حلول الساعة !

قطعا مسافة أخرى ، ثم سأل بورو :

– من دخل المغارة ، أو انزل بدنه في « إدبني » طمعاً في الكنز ، لاقى في طريقه جنّاً .

جاوبه الدليل بلغة الاوائل :

– لاشئ يقع قبل حلول الساعة !

Twitter: @alqareah

قطعا مسافة أخرى ، ثم سأل بورو :

– من دخل المغارة ، أو أنزل بدنه في « إدبني» طمعاً في الكنز ، لاقى في طريقه حيّة ...

جاوبه الدّليل بلغة الأوائل :

– لا شيء يقع قبل حلول الساعة !

قطعا مسافة أخرى . اجتازا جلاميد من الحجارة السوداء ، عبرا كهوفاً ومغاور ، تمسحت السّحب الجهمة بالسّفوح ، ووطئت الأرض ، فعّمت العتمة، وازداد السبيل إظلاماً . سأل بورو :

– لِمَ اخترتني ؟

جاوبه الدّليل بلغة الأوائل :

– وهل يوجد في الصحراء مخلوق سواك ؟

سأل بورو :

– ألم تر أن قريني جبارين دوماً إلى جواري ؟

فجاوبه الدّليل بلغة الاوائل :

– مملكة الظلمات لا تقبل سوى المخلوق الذي لم يجتز الطفولة يوماً فهل ظننت أن « آغرم نودادن » يفتح بابه لك لو لم تبق طفلاً ؟

سأل بورو :

Twitter: @alqareah

– هل يرى مولاي الجليل في ّ الطفولة حقاً ؟

جاوبه الدّليل بوقار الاوائل :

– جئت بك كي تخرج من القمقم ، وتتذوّق طعم النعيم .

– حقاً ؟

– عليك أن تنحر المعزى السوداء إن شئت أن تخرج ...

– المعزى السوداء ؟

– نحر المعزى السوداء شرط الخروج ..

تباعد شقّا الوادي . تلاشت الجبال . افضت تعرّجات الوادي إلى خلاء موحش ، مكشوف ، عار من احراش التّراب وشجر الرّماد . اختفت الحجارة الحديديّة ، وابتلع سكون الخلاء سكون أكبر سلطاناً وأعظم شراسة . استعارت البيداء خصال الجبال فردّدت الصّدى وهي تنفخ في الحروف :

– نحر المعزى السوداء شرط الخروج !

(٤)

تمدّد خلاء الرماد . الأرض اكتستها أستار صارمة مثل ذرّات تخلّفت عن معدن الحديد . وصارت البيداء السوداء تقسو وتتوالد كلما تقدّما إلى الأمام.

Twitter: @alqareah

سارا مسافة أخرى . سارا وسارا حتى اسودّت في وجهيهما المفازة وزادت احتقاناً وعبوساً . سحب الأعالي أيضاً غاظت وتمادت في التلوّن بالسّواد . وبرغم الظلمات إلاّ أن السيوف التي اعترضتها تبدّت ، واضحة في المدى البعيد ، كما ارتسمت امامها في الافق عروق رملية ، ولكن بلون اسود كالرّماد أو نثار من مسحوق الحديد . وظلّت تعلو وتشتد وتكابر كلما تقدما إلى الأمام . على وجهها لاحت تموّجات شهيّة للعيون ، عرف فيها بورو تغضّنات ألفها في وجه الرملة ، ولكن أين ومتى ؟ .

قطعا مسافة قصيرة عندما تململت المتاهة وبدأت تذرّ تراباً من رماد . لم يطق بورو صبراً فهتف :

– هل جاء أوان الرّيح ؟

فجاوبه الدّليل الجليل بغموض العرّافين :

– إذا آن أوان السّاعة لم تتأخّر الواقعة .

أ – الرّيح

تمدّد العراء . تلاشت الجبال على الجانبين . تمادت الرمال السّوداء في الارتفاع ونافست الجبال طولاً وعرضاً . تمادى الريح أيضاً ، ومضى يصيح ويعوي . في البدء اكتفى بأنين مدهش ، غامض ، ثم صار يصفع بذرات الرّماد، وينهال بالتراب الاسود . الهواء أيضاً كان في اعتدالٍ ،

Twitter: @alqareah

فلم يستشعرا حرّاً ولا صقيعاً . ثم حدث التحوّل . اشتدّ الحّر كلّما تصاعد الريح وزفرت صحراء الظلمات بأنفاس القبلي . خاطبه الدّليل فجأةً :

– حسبت أن لك أمنية ؟

هرش بورو رأسه المعمم . تفكّر برهة . قال :

– علّ النسيان أخذها ..

– ركبت في سبيلها الاخطار ، وتنكرت في جلد الساحرة تيرزازت طلبا لها .

– علّ النسيان أخذها . .

– ألا تذكر شيئاً أبداً ؟

– لا يحضرني شيء .

– فإلى أين المسير أيها الشقّي ؟

– علّه إلى .

– ألم يسلب منك النسيان واو ؟

– واو هي الملاذ الذي لا يقدر حتى النسيان أن يسلبه من القلب.

– ياللبلهاء !

– ماذا ؟

Twitter: @alqareah

– اردت أن الفت منك الانتباه إلى اننا في طريقنا لطلب الكنز . هل نسيت ؟

–نسيت كل شيء ، ولكن لن يسلبني النسيان غاية رحلتنا !

– هل توافقني في إننا ماضون إلى الكنز ؟

– إلى واو !

– ها قد عدت إلى واو . ألم نتفق أن ...

– اتفقنا أيضاً بأن الكنز لن يكون في مكان إذا لم يكن في «واو».

– دعنا من واو وحدّثني عن الامنية .

– كل الأماني وهبتها للنسيان .

أخفى الدّليل ضحكته في كُمّ جلبابه . تساءل بخبث الدّهاة :

– وماذا ستفعل في واو ؟

أجاب بورو بحماس :

– يكفيني أن التحق بالأوائل .

تضاحك الدّليل مرة أخرى ، انزل طرف لثامه العلوي ليحمي عينيه من شراسة حبّات سوداء تتناقلها الرّيح . سأل :

– وهل تظن أن الأوائل هناك سعداء ؟

Twitter: @alqareah

فاجابه بورو بالحماس الطفولي :

– لا ادري عن حالهم شيئاً ، ولكني أعرف أني سأكون سعيداً بينهم.

– من أين لك بهذا اليقين ؟

– ألم تقل منذ قليل أنّي طفل ؟ اليقين هو ما يملكه الاطفال .

غمغم الدّليل :

– يجدربي ألا أحاور ، ولكن يحسن بك أن تستذكر أملاً ركبت في سبيله الاخطار .

صفعته الريح . ترنّح . نفخت في ثوبه الفضفاض . صار بشقشقة العدبس القريع اشبه . تراجع إلى الوراء . اصطدم ببورو . تراجع بورو . وقع على قفاه . ولكن العجاجة اهتاجت وازدادت وحشيّة . هبّت بموجة محمّلة بذرّات كبيرة ، قاسية ، سوداء ، من الحصى . استنجد الدّليل بعصاة الخيزران . شهرها في وجه الرّيح . انشقّت بها الموجة الجنونية . سقط جيش الجنّ من المركبة . انكفأت المطيّة وتبعثر الجند . ارتدّت دمدمة فلولها وهي تعبر العراء إلي المجهول . تبدّد السّواد الفاجع. تبدّت المفازة الابدية . اعتدل الدّليل في وقفته . قرأ تعويدة غامضة بلغة خفيّة . نهض بورو ووقف على قدميه . بصق حبّات التراب الأسود صوب عشبة رمادية كئيبة . زفر بإجهاد . تمتم :

Twitter: @alqareah

- ما أقسى السبيل !

الدّليل لم يجب . علّق العصا على منكبه الأيمن . قال :

- لو لم يخسف منك النسيان نِعمَ الذاكرة لما استضعفتنا الرّيح ..

ردّد بورو ساهماً :

- النسيان ..

- أتدري من الذي نزع من أهل الصحراء « آنهي» وتركهم للضياع ؟

لم ينتظر جواب بورو :

- النسيان ..

-النسيان؟

- ظنّوا أنه السيل ، وذهب بلهاء آخرون إلى أنّ الجّن هم من اختطفه فاحتكروا الحكمة ، ولكن العقلاء يعرفون أن السّرّ في النسيان .

تمتم بورو :

- ما أشقى أُمّة الصحراء !

- عليك أن تستعيد الأمل الفقيد حتى لو اضطررت أن تكسر رأسك على صخرة .

- الأمل !

Twitter: @alqareah

همهم باللفظ كما يهمهم بالتمائم القديمة . ثم غمغم بسؤال :

– ولكن كيف السبيل إلى استعادة الأمل ؟

– من طلب السبيل ولو بالسؤال فاز بناصية الأمل ولو بعد حين من الدّهر .

تباعدت السحب . ارتفعت إلى أعلى . ولكن العتمة لم تنجل . ألحق السؤال الأوّل بسؤال آخر :

– حدثني ، أيها الجليل ، عن الظلمة !

عوى الريح في المغارة . صفعهما بوابل من الحصى . تأهّب الدليل للاشتباك مع الجّن . أمسك بعقفة العصاولوّح في الهواء بالساق الموشومة بالاطواق . اجتنبته مطايا الجنّ وكفّ هبوب الرّيح . ولكن العواء تواصل في البيداء السوداء .

تحدّث الدّليل عن الظلمات :

– الظلمة : بيت الكائن المجهول ، ووطن أهل الخفاء . الظلمة : نبع الأصل ونواة التكوين . الظلمة : منها المبدأ وإليها المصير . الصحراء ظلّ والظلمة وحدها هي الأصل .

– والأمل ؟ هل الأمل أيضاً قدر مثل الظلمة ؟

– هل ستفعل ما به ستؤمر إذا اخبرتك ؟

– وهل يُعصى لدليلٍ أمر ؟

Twitter: @alqareah

– الأمل باب مغلق لا يفتحه إلاّ الدم !

– لا أفهم ..

– إنحر المعزى السّوداء !

تراجع بورو ، ولكن الدّليل ادركه ووضع في يده مدية نحاسية موسومة برموز السّحرة القدماء . لها نصل معتم ذو لسانين شرهين .

ارتجف بورو . همهم :

– ما أنا بذابح ..

هبّ فيه الدّليل :

– إذا لم تذبح هلكنا .

أعاد بورو وهو ما يزال يتراجع إلى الوراء :

– ما أنا بذابح ..

– إذا لم تستجب اهلكتنا الظلمة ، فافهم ، وتذكّر أنّك من قال : «وهل يعصى لدليل أمر ؟» .

– لِمَ لا يتولّى مولاي الأمر بنفسه وينحر المعزى ؟

– النسيان اهلك حقاً دعوتك للخروج من القمقم ، فنسيت . قلت لك في بداية الطريق أن نحر المعزى السوداء شرط الحياة ، فسيت. اخبرتك أن الظلمة لا تقبل القربان إلاّ من يد الطفولة ، فسيت . فاعلم أنّك لن تخرج ، ولن تطلب ، ولن تولد أبداً ما لم تفعل ما به تؤمر !

Twitter: @alqareah

هرول شمالاً ، قطع مسافة في العراء المستور بالعتمة ، وعاد على عقبيه . . هرع يميناً . اختفى وراء أكمة اعتلتها شجرة رمادية هرمة . غاب . في الصحراء المغمورة بالظلمة ، ساد السكون . مات الريح وانقطعت غزوات الجنّ . السكون تملّك الكون . السكون تصنّت وتجسّس على السكون . عاد الدّليل يجرّجر بدناً أسود اللون ، اشعث الشّعر ، حاول بورو أن يستعيد أين ومتى رآه . فكّر ، فتّش في ثنايا السيرة التي طواها النسيان ، ولكن الوهم ، الخيال القديم الذي يراه أهل الصحراء حياة ، ما لبث أن اشعل فيه الشرر . شرر الوحي ، وميض الإلهام ، فانتفض ، واشتعل بالحمّى .

لقد شاء يوماً أن يفرّ من نفسه لأنه أراد أن ينتهك الحرم ويرى أمّه في مملكة الودّان . كان يعرف أنه لن يفلح ما لم ينتهك حرماً آخر ، فصاح بالنداء قبل شروق الشمس . نادى الساحرة تيرزازت في الفجر فأفزع إمرأة أبيه وأصحاب القبيلة بالهول . ولو لم يستدع الساحرة فجراً لما وجد نفسه يتنكّر في جلدها ويدخل الحرم الجليل من أبواب أحد الكهوف . هناك ، في « أغرم نودادن » ، تسكّع طويلاً قبل أن .. ولكن هل يعقل أن يكون ذلك الكائن الجليل الذي التقاه في المملكة هو نفس المخلوق الرمادي المتوّج بقرنين معقوفين مثل مقبض عكاز الدّليل ؟ هل يستطيع الدّليل أن يجرّ أمغار العظيم من قرنيه المقدّسين ؟ هل يعقل .. اوه، ياسماوات الصحراء ! في عينيه وميض الغموض . في مقلتيه

Twitter: @alqareah

اللماعتين يبرق السّر . لا يعرف لماذا ادرك دائماً السّر في مقلة العين.لا يعرف من أين له هذه الخصلة ، ولكن يقينا أنه لم يخطيء . البريق هو الإشارة . وميض العين هو البرهان الذي خرق مساحات الزمان قبل أن يقطع مسافات المكان . الوميض وحده مزّق النسيان وحرق ظلمة الوادي . فكيف يريده الدليل (الذي وضع في يده مدية نحاسية فظيعة) أن يمدّ يده بالمدية لينحر الاضحية ؟

سمع الدّليل يقول :

– إذا لم تنحر فلن تعبر !

تراجع إلى الوراء . ارتطم بشجرة رمادية ذات اوراق غريبة ، مستطيلة، كئيبة . سقط . نهض . بدأ يرتجف . ازدادت الظلمة كثافة ، ولكنها لم تفلح في إخفاء الوميض السّري في عين أمغار . صاح الدّليل بالأمر القاطع :

– إنحر !

تراجع مرّة أخرى محاذراً أن يرتطم بشجرة أو بصخرة ، يمسك بيمينه المِدْية الفظيعة ، ويخفي يده اليسرى خلف ظهره ليتحسس بها السبيل الملفوف بالظلمات . وعندما أعاد الدّليل للمّرة الثالثة : « إذا لم تنحر فلن تعبر » كان قد القى بالمدية عند قدميه ، ورآها وهي تغوص في التراب الأسود .

Twitter: @alqareah

لا يعرف كيف اختفى من آلى على نفسه أن يتخفّى في جلد الودّان ، كما لم يعرف كيف افلت الشّبح من غيهب النسيان . غاب بنفس الفجاءة التي ظهر بها . في نفس الوقت تبّدى الشبح الذي التزم سيف الوادي ورافقهم طويلاً . شبح لم يظن أنه قادر أن يغفر لنفسه لو نسيه يوماً ، ولكن سلطان العتمة كان أدهى إذ جعله قاصراً عن إدراك نسيانه للمخلوق الجليل . كانت تجلس في قلب هودج مهيب . الهودج يعتلي هامة جمل درواس من النوع القريع . لم يلحظ في خطمه خزامة أو لجاماً ، ولكنه رأى كيف يزمجر ويرعد ويخرج من فيه شقشقة في حجم الشكوة . تتدلّى الشقشقة اولاً ، تتناثر قطع الزّبد الناصع على الأرض السوداء ، ليعقب تلك الإشارة بهدير كالزلزال . المخلوقة الوديعة، الشبح الذي يتربع في الهودج وحده لم يكن يبالي . يتابع الأفق الخفّي ، يدير بين يديه شكوة منفوشة بالحليب . يتمايل معها نحو اليمين ونحو اليسار في إيقاع صارم ، بطيء ، وقاسٍ ، ولكنه يوحي بالقداسة والخلود.

من المدهش ألاّ يتساءل طوال الرحلة كيف كانت تتبدّى الألوان والظلال والكائنات بذلك الوضوح العجيب رغم صرامة العتمة وتسلّط الظلمات . فكلّ الأشياء تُرى كما رآها دائماً ، كأنها وُجدت لتتحدّى الظلمة ، وتتمتّع بصورتها التي وُهبت لها يوماً . حتّى الصحراء الفاجعة كانت تسطع بفيض فضّي يحاكي ضياء البدر برغم انه لم ير لكواكب

Twitter: @alqareah

الليل وجهاً منذ بدأ السّفر . والآن ، عندما شاهد الهودج المهيب لأوّل مرّة ، ورأى شقشقة الجمل القريع تنضح بلون الشمس وهي تتهيأ للغروب ، تأمّل وجه المخلوق لأن النسيان كان قد أنزل السرّ وستره بحيلة من حيل الزمان . فأين ومتى عرف هذه الملامح النحاسية الغامضة؟ أين ومتى شاهد هذا الأنف الصغير الذي يرتفع إلى أعلى بشقاوة الجداء ، ثم يعود فينتكس ، عند الأرنبة ، ويتقاعس عن تطاوله إلى الاعالي ، كأنه آثر أن يتراجع عن شقاوته ويتخلّى عن تكبّره في آخر لحظة ؟ أين ومتى ألف هذه الجلسة المكابرة التي تبدأ قبل أن يشق الفجر البتول سبيله ليفصل جسد الصحراء عن جسد السماء ، ولا تنتهي إلاّ بعد الشروق بوقت طويل ؟. تتمايل خلالها مع الشكوة المقدّسة نحو اليمين ونحو اليسار ، تتعلّق ، ببصرها ، بقوس الأفق وهو يتمّخض عن بشارة القبس ، لا تنبس بكلام ولا تتمتم بتمائم ، لا تجيب عن سؤال ولا تلقي بسؤال ، تغيب في الصحراء وتغيب فيها الصحراء ، وكأنّ ما تؤدّيه هو الحكمة ، هو الصلاة ، وليس عملاً لصنع الزّبد تستطيع حتى بنات الرعاة أن تتقنه ؟ السّحرة الاوائل يولون تكوّن الزّبد في بطن الشكوة اهتماماً لا يقل عن اهتمامهم بتكوّن الجنين في جوف الأم، أو تشكّل التّبر في باطن الأرض ، أو نمو الحجر الحكيم في احشاء التّراب . ويذهب بعضهم إلى القول أنّ إبتداع الزّبد في الشكوة لا يقل إبداعاً عن إعجاز الخلق . ولا برهان على هذا اليقين يمكن ان يعادل ذلك البرهان

Twitter: @alqareah

الذي تضعه تلك المخلوقة الحكيمة ، الصبورة بين ايديهم . فمن يراها تنهمك في شعائر الصباح لابد أن يقتنع بأن تكوّن الزّبدة في بطن الشكوة لا يقل عناء وابداعاً وقداسة عن تكوين المخلوقات في اجواف الأمهات .

لم يتساءل ما الذي يجبرها أن تمخض الحليب وهي تجلس في جوف هودج يقع فوق هامة الجمل القريع ، كما لم يتساءل قبلها عن سرّ وادي الظلمات، ولون الأعشاب البّرية ، ومسلك الريح ، وقدرة عصا الدّليل التي تصيب الجّن في الخفاء ، وتطيح بمطاياهم وهي تركب الرّيح. كما لم يتساءل عن .. عن هويّة الدّليل نفسه . لم يتساءل ، ولم يندهش، ولم يكترث ، لأن المسافر إذا عبر وادي الظلمات لابد أن يعترف بناموس آخر ، ناموس النسيان عنوانه ، واللامبالاة شارته .

هبّ الرّيح من جديد .

وقتها شاهد في هيئة الدّليل الكآبة . لم تكن كآبة ، ولكن ما أصابه جعله يضعف في البُنيَة ، ويتضاءل في القامة ، وينحني في العود ، ويهرم في العمر . حدث هذا الإنقلاب في ومضة ، في مسافة الزمان الصغير الممتد بين سقوط المدية النحاسيّة الفظيعة واختفاء آمغار ، وظهور الهودج الذي تربعت فيه المخلوقة الخالدة . فما الذي أصاب الرفيق ؟ تنفّس الجنوب بموجة جديدة . طوّحت به إلى الوراء خطوات . ترنّح . سقط . تدحرج مسافة قصيرة . تشبّث بشجرة غريبة لها أعراف

Twitter: @alqareah

مستطيلة ، حرشاء ، رماديّة اللون . زعق الرّيح في الأعالي وتكلّمت فيه مِلَلَ الجنّ بالف لسان . واصل العواء . ظلّ يعوي طويلاً . تدفّق الوادي بالجنود . بعضهم ركض راجلاً ، وجلّهم أمتطى مركبات عاتّية : غزلان، وثعابين ، وتنانين وطيور هائلة لاوجود لمثلها إلاّ في ممالك الخفاء . رأى كيف تنفّس تنّين مارد ناراً . لفحه الصّهد في وجهه فدسّه في التّراب الأسود . كان تنيناً هائلاً يرتدي درعاً من حراشف تشبه حراشف الضّباب الهرمة . فوقه جلس مقاتل صارم يضع رأسه في صدره تضليلاً لفرسان الأعادي . ثم ... عبروا . مضوا عبر الوادي الفسيح يتنادون ، ويتصايحون ، ويملأون الدنيا بصرخات الويل والحماس . فعاد وحلّ سكون . زحف على أكمة الرماد مستعيناً بيديه ورجليه معاً ، ثم نهض . تفقّد الدّليل الجليل فوجده محشوراً في شقّ جلمود دحرجه زلزال من علّ فاستلقى عند الحضيض الجبلي . العاصفة أطاحت به . اختطفته وجرجرته على الرماد فتعلق بالصخرة . في عينيه الكابيتين ، المطفأتين ، رأى التعاسة . اختفى منهما التصميم القديم وغزاهما همّ واكتئاب وشقاء.

هرع إليه . مدّ له يد المساعدة . وقف على قدميه مستعيناً بساعده الأيمن ، لحظتها اكتشف بورو الحال الذي آل إليه الدّليل الذي كان مارداً، جليلاً ، منذ حين . كان قصيراً ، هزيلاً ، ضئيلاً ، بائساً ، في جسم طفل عليل . ربت على منكبه بإشفاق ، ولكن الدّليل سعى في

Twitter: @alqareah

الأرض بحثاً عن العكاز . سار منحنياً، رأسه يتدلّى حتى يكاد يلامس التّراب . يلوي يديه العليلتين وراء ظهره ، ويفتّش الاحراش طلبا للعصا الضائعة . تذكر قامته وهيئته عندما كان مارداً ، صارماً ، مهيباً يسطع القمر فوق رأسه فيتوّجه السّاهور مثل كل السحرة القدامى ، ففاض صدره شفقة عليه وحزناً .

هلّل عندما عثر على العكّاز . اغمض عينيه وغمغم بتميمة مُبهمة. تقدّم نحوه خطوات فبد في جسم أقزام الادغال . في حجم عكّاز الخيزران ،بل في حجم اصغر قامة من عكاز الخيزران . رفع إليه عينين شقيتين . تفحصه طويلاً كأنه يراه لأول مرّة .أخبره بكل شيء في تلك النظرة . قال له بلغة السّحرة أن الساحر لابد أن يتضاءل ويهزل ويهرم ويختفي إذا خالف ناموس السّحر وطلب كنزاً دون أن ينحر ذبيحة . أنتهى فأدبر . اشاح بوجهه وانطلق .

مشى وراءه . توغلا عبر الوادي .

توقفت غارات الجّن في مراكب العجاج ، وزغرد السكون في الآذان بلحون كنواح الذّباب . السّكون القديم الذي تتحاور فيه الكائنات بلغة أكثر غموضاً من مخاطبات الجّن في افواه المغاور ، وتتفاهم فيه المخلوقات بلا اصوات .

ضاق عنق الوادي مّرة أخرى .

Twitter: @alqareah

قامت على السّيف الأيمن قامات جبليّة . قامت بهامات قصيرة في البداية ، ثم بدأت تتطاول وتتكابر كلّما طال الصراط وامتدت بهما المسافة . الضفّة الأخرى ، اليسرى ، ظلّت تتردّد . ترفع على ظهرها عراقيب ومرتفعات وروابي متفاوتة الارتفاع والاحجام ، متباعدة في المكان ، ولكنها تتراجع كثيراً فتنفض عن ظهرها العبء ، وتتخلّص من ابدان الصّوان واثقال الصلصال . تعود فسيحة ، عارية ، بهيّة ، حسناء في زهدها وتجرّدها من الحجارة .

قطعا مسافة أخرى . شرع الوادي يتلوّى . انحرف يميناً هذه المرّة. في قيعانه تشققت الأرض الظمأى ، وناحت فيه الواح الطين . طين كئيب بلون الرّماد أيضاً . تجمّع في جداول استأثرت بالسيول ، واستبقت المياه لأمد اطول من بقية الأطراف . وعندما حدث التحوّل ، وطارت المياه في البحار ، استجارت الجداول العطشى بلحمة الوادي ، ولكن الأرض أسّرت لها بلغة الظمأ الازلي ، الظمأ الخالد ، وأخبرتها أن لا عاصم من نار الصحراء ، فناحت الجداول وولولت ، تشكّت وتبكّت ومزّقت الوجه فجيعةً . انكمشت وحاولت أن تحمي نفسها بالحيلة والاعتزال . تريّثت زماناً ، ثم رأت أن تشكو أمرها إلى الأعالي وتتضرّع. حاكت القنفذ ، ولكنها وقعت في نفس الفخّ الذي اهلك القنافذ . فالحيوان الذي وهبته الصحراء حصناً ليستخدمه للدّفاع عن النفس ضد المخلوقات الاقوى ، لا يلبث أن يفقد حكمته بمجرد أن يهطل

Twitter: @alqareah

المطر . يشرّع ابواب صومعته المحبوكة من الاشواك ، ويهرع لالتقاط حبّات المطر وقد نسي الخطر فيجد سكيناً غادراً في نحره . هذا حال الجداول أيضاً . فالسماء التي تتطلع نحوها طلباً للمنّ لا تلبث أن تلقى في وجهها بالخبر : لا عاصم من البلاء . فتموت الجداول وهي تتوسّل . تموت وهي ترفع ذراعيها إلى السماوات . ها هما يسمعان طقطقة عظامها وهي تتكسّر تحت اقدامهما . طقطقة خفيّة ، شقيّة ، تنطق بفجيعة الأزل ، وتحمل شكوى الاجداد . الاجداد الذين هجعوا فجعلوا من ابدانهم طعماً لها ، للطين ، منذ زمن قديم . ويعتقد الحكماء أن الأسلاف توالوا في توسّد التّراب عبر دهور الازل ، ووهبوا انفسهم للأرض النبيلة وفاء لدين تلقوه منها يوماً ، فوجد الزمان نفسه يبارك التلاحم ، ويجعل من الاجداث تراباً ، طيناً مقدّساً ، كما خلق من التّراب المقدس يوماً لحماً ، إنساناً .

ولكن ها هو التّراب يتعذّب ، ها هو الطين يتوجّع ، ها هي عظام الاجداد تتفجّع وتنوح وتشكو قحط الازل وجدب الأبد . ها هي ترفع رأسها نحو السماء وتستغيث دون أن يقدر هو ، بورو الذي عرف يوماً أن الأرض قرينه ، أن يمد لها يداً تزيل عنها جفاف الدهور ولعنة القدر . ها هو يمشي فوق البدن دون أن يستطيع أن يمسح عن وجهها الفجيعة . فهل تستجيب السماء للدّعاء إذا نحر الذبيحة ودسّ المدية في عنق الودّان كما اراد له دليله أن يفعل ؟ هل ترتضي الأم أن يُنحر الودّان ،

Twitter: @alqareah

إبنها آمغار ، ليقدّم قرباناً لآلهة السماء طلبا للكنز ، لكنز الكنوز ، للماء ؟ هل تأبى أن يسفح دم آمغار ، أو غير آمغار ، حتى لو ماتت عطشا ؟ بلى. بلى . هذا هو النّبل الذي لم تعرفه الأراضي ، ولم تتعلّمه السماوات في عليائها وكبريائها ولامبالاتها . هو النّبل الذي كان على المخلوقات أن تتعلّمه منها . فهي تموت ظمأ ، ولكنها لا تسمح بأن يسفح دم مخلوق تقرّباً لسماء تنقذها من الظّمأ . وها هي عظامها الجليلة تتوجع وتتكّسر تحت قدميه ، ولكنها ترفض الأضاحي .

تمخّضت المقلتان عن نداوة نقيّة سخيّة ، قاسية . تولّدت في مآقيه، وغمرت الحدقتين ، ومضت . فاضت بالعصارة العينان . ثم فزّت وتعلّقت بالاهداب . تعلّقت نثرات بالرموش العليا ، وانزلقت قطرات فتمسّكت بالاهداب السّفلى . وبرغم الظلمة إلاّ أن قبساً سماويّاً نزل عليها فومضت الحبيبات النقيّة ببريق . تلامعت بوميض غامض ، حاورت الأعالي والأسافل ، خاطبت الأكوان والكائنات ، قبل أن تنكسر وتسقط في فم الارض العطشى . فحّ التّراب الظّاميء بصوت الافاعي . ليس صوت الافاعي . ولكنه امتنان الجمر عندما يتلقّى جرعة ماء . الحبيبات النديّة التي سقطت من عيني بورو أيضاً القمت الجدب حجراً ، فأطفأت حريق القرون في قلب الأرض الظمأى . فكان الفحيح، الزفير الموجع الذي ندّ عنها عندما تلقّت الهبة ، برّاً وامتناناً . كان اللقاء ، لقاء النداوة والطين ، حميماً وقاسياً إلى حدّ استوقف الدّليل فوقف يتصنّت

Twitter: @alqareah

ويتفقّد الوادي . التفت يميناً نحو السّيف الجنوبي والتفت يساراً نحو السيف الشمالي . انحنى ودسّ انفه إلى اسفل حتى لامس طرف لثامه الواح الطين . ازداد ضموراً وقصراً وشحوباً . ركع على يديه اولاً ، ثم تبعهما بركبتيه . زحف على أربع فبدا ، من فرط ضآلته ، كأنه يزحف على بطنه . كأنّه حيّة تسعى بحثاً عن حيّة أخرى . ادركه بورو فرفع إليه عينين خفيتين ، شرستين ، تومضان بسيرة التّيه وشقاء المنفى . عينان زادهما اللثام غموضاً وجسارة ولعنة. عينان خلقتا لتندسّا في ذرات الرمل وتنطقا بوهج الإغواء الخالد . دارتا في محجريها ثلاث مرّات . دارتا بإصرار من يريد أن يبرهن أن الحيوان الذي يحملها في جبينه هو المخلوق الوحيد القادر أن يصنع بجسده دائرة . دارتا ودارتا ودارتا لتخفيا سرّاً توارى وراء اللثام . خيّل لبورو أنه رأى كيف انتفض الكتان ، قطعة اللثام ، لأن لساناً مشقوقاً إلى نصفين تحَرّك هناك ليظهر الدّليل على أنه لم يفشِ السّرّ . بعد ذلك تلوّى الحيوان الكريه على التراب . انساب بمرونة المخلوق الوحيد القادر أن يصنع من نفسه دائرة مقفلة ، وتلبّس الأديم حتى ظنّ بورو أن الكائن الذي كان منذ قليل رفيقاً له ودليلاً سوف يغوص في الأرض ويختفي . دخل في دغل الاحراش وغاب هناك زمناً . دار بورو حول الدغل الرمادي ، ولكنه لم يعثر على الكائن. اشتدّت حلكة الظلمة وناح الريح في الأعالي . ركع على ركبتيه ليتجنّب الجنّ في موجة الريح الجديدة . ولكن العاصفة لم تنزل الارض.

Twitter: @alqareah

ولولت في رؤوس الجبال ، وسمع بوضوح كيف تعالت صيحات جند الظلمات وهم يملأون أفواه الكهوف بزعيق الشجاعة واشعار الحماس . مضوا ، تدافعوا وابتلعهم الفراغ ، ولكن صدى هجومهم ظلّ معلقاً في الهواء فوق عنق الوادي . رفع بورو رأسه فوجد نفسه يواجه كائناً خرج من بطن الأرض . كائناً قبيحاً يرتدي عمامة بالية من الكتّان ، يعفّر التراب الأسود رأسه وعينيه . تراجع إلى الوراء زحفاً فتمدّد رأس الكائن وسار إليه . أغمض بورو عينيه ونطق بالتعويذة . قرأها بالكلمات ، ثم أعادها بالرموز كما يفعل السّحرة . دارت به الصحراء طويلاً قبل أن يهجع ويجد نفسه في واحة السّكون . فتح عيناً واحدة ففوجيء بشبح الدّليل يقف فوق رأسه . كان يداعب العصا بين يديه وقد استعاد قامة الاقزام . ابتسم من وراء اللثام وقال بخبث الاشقياء : « ظننت أنّي سمعت فحيح الحيّة » . لوّح بعكاز الخيزران في وجهه وسأل : « هل سمعت فحيح الحيّة ؟» . بورو لم يجب . والقزم لم ينتظر جواباً . تجهّم وتمتم وهو يطأطئ : « لن نعبر إذا لم تنحر . لماذا لم تنحر ؟» . لم ينتظر الجواب أيضاً . تحرّك . تقدّم من بورو خطوتين . ازاح لثامه عن فمه وابتسم في وجهه . لم يبتسم . تلك لم تكن ابتسامة . لقد كشف عن وجه ممزّق بغضون قبيحة . وكشّر عن اسنان ناتئة ، معقوفة ، كأنياب الحيّة . لم ير تجاعيد بهذا القبح ، ولم يعرف انياباً بهذه البشاعة . دارت مقلتاه في محجريهما بشراهة الزاحفة ، ونفخ في وجهه بضحكة كريهة

Twitter: @alqareah

كالفحيح : « هيء – هيء – هيء ..» ثم استدار على قفاه . رفع العصا فوق رأسه . لم يرفع العصا . ولكن قامته لم تعد تتناسب مع حجم العصا فارتفعت فوق رأسه شبراً ، وصنعت له من عقفتها تاجاً . مضى . هرول. اختفى في منعطف الوادي الذي انحرف جنوباً وعاد يتلوّى . ازداد عنقه ضيقاً فبدا كأنّه أنسدّ بالجبل وانتهى به المطاف . ارتفعت ضلفة أخرى من الجبال على الضفّة الشمالية ، وامتدّت لتعانق السلسلة الجنوبية، التقتا فانسدّ الامتداد ، وخنقتا فم الوادي . ولكن اختفاء الداهية، الذي تحوّل من دليل جليل إلى قزم ذليل ، جعله يمضي نحو الصّلد الصارم الذي ظلّ يتبدى في عتمة الظلمة . وقبل أن يرتطم بالجلمود وينقطع الطريق ، وجد المنفذ . لم يكن منفذاً مفتوحاً على السماء كالمنافذ التي عرفها في وديان « آلون» او « تادرارات» أو « تاسيلي» ، ولكنه فوهة مثل فوهات المغاور . مغمور بالظلمة وينبعث في نهايته ضوء ضئيل . همّ بالدخول فارتطم رأسه بالسقف . ركع على الأرض وزحف . وجد نفسه في جوف الكهف . في الخارج سمع الريح يعوي في هجوم جديد . في الجهة اليسرى ، الشمالية ، من الكهف علت همهمة محبوسة . مضى يزحف ويزحف ، ولكنه لم يبلغ نقطة الضوء . لم يتبدّل حجم البصيص ولم تتسع دائرته . كأنّ المسافة التي قطعها زاحفاً لم تقرّبه من الضوء شبراً واحداً .ولكنه مضى يزحف على ركبتيه ويديه معاً .

Twitter: @alqareah

يلامس بعر الودّان ، ويزيح من طريقه الحجارة . وفجأة نعقت البومة . نعقت في مكان مّا فوق رأسه ، وسمع ضحكة انثوية مكتومة . تناول حجراً ورماه إلى أعلى ، باتجاه الساحرة المشئومة . رفرفرف الطير، غمغمت الانثى الخفيّة بالسباب ، وعاد الحجر الذي رماه وسقط فوق رأسه . حمته العمامة من الإصابة ، ولكن رائحة كريهة غزت انفه . رائحة ذكّرته بتلك الأبخرة التي تحرقها الساحرات في القبيلة عندما يبدأن في تدبير المكيدة . انشغل بقراءة التميمة فلم يأبه لمشاكسات الجّن. دلقوا فوق رأسه سائلاً ساخناً فاح برائحة حادة كبول الإبل . وسلّطوا عليه خنفساً ظلّ يهاجمه ويهرش يده اليمنى بأرجله الموحشة . ينفضه بعيداً ، ولكنه لا يلبث أن يعود بعناد المردة . قضت التعويذة على الجنيّة المتخفيّة في بدن البومة فسلّطوا عليه مخلوقاً لا تصيبه التعاويذ ولا يناله السّحر . سمعهم يتهامسون في زوايا الكهف . يتخاطبون ويكتمون الضحكات المريبة . الضحكات التي تفضح مؤامرة . ولكنه سيسير. سيعبر ، ولن يعبأ بشقاواتهم . يكفيه أنّه لم يؤذهم ، ولم يرتكب في حقهم شراً . السحرة يجزمون أن أهل الخفاء لن يصيبوا بأذى مخلوقاً لم يبادرهم بأذى . أمّا الشقاوة فهي لعبتهم الأثيرة . الدعابة عشقهم . مشاكسة الانس من احب الالعاب إلى نفوسهم . فما ضرّه إذا صبر على الالعاب ؟ ما ضرّه لو تسلّى بمداعباتهم ؟ أليسوا ابناء الارض أيضاً ؟ ألم تنجبهم الصحراء أيضاً ؟ أليسوا قرناءه أيضاً ؟ ألا يسكنون الودّان

Twitter: @alqareah

والكهوف ومعادن التّراب ؟ ألا يسكنون السراب ؟ بل لماذا لا يعترف بأنهم أكثر ظرفاً ولطفا ووداعة من أهل الصحراء انفسهم ؟ يهرعون لإنقاذ المفقودين والتائهين ويفتحون لهم ابواب واو . يتبّدون في أبدان قبائل الإنس ليسقوا المسافرين الظامئين ماء سلسبيلاً . يطعمون الجياع بأغذية لم يذق لها أهل الخلاء طعماً . ويكفيهم فخراً أنهم لم يعيثوا في الأرض فساداً ، ولم يقترفوا شرّاً . لم ينهبوا قافلة ، ولم يظلموا مسكيناً. يستطيع أن يعترف أنه نال منهم خيرا كثيراً ، ولكنهم لم يخطئوا في حقّه يوماً . فأين أهل الخلاء من أهل الخفاء ؟ أمّا مداعباتهم فإنه يعرف انه لن يفقد شيئاً إذا صبر عليها كما لم يحدث أن أصابت شقاواتهم الصغيرة أحداً بسوء . أهل الصحراء لا يتخيّلون الحياة في الصحراء إذا خلت منها شقاوات جيرانهم القدماء . وكثيراً مارُويت احاديث شيّقة عن هذه الشقاوات . أحد الرعاة قال أنه نزل سهلا عاريا بعد سفر يوم شاق . لم يوقد ناراً ، ولم يتناول عشاء ، ولم يتحصّن بتعويذة . انهار على قفاه ونام كقطعة حجر . كان القمر قد فرّ من الخلاء ، فخلاالمجال للظلمات لتستبّد بالصحراء . فلم ير المسافر المنهك أنه يتوسد رماداً خلّفه الأولون واتخذت منه قبائل اهل الخفاء وطناً . كان يستغرق في النوم ، يستنشق ازاهير الرتم في الحمادة ، يقلع الترفاس ، ويقرص نهود الصبايا في مراعي الربيع ، عندما تلقى على وجهه صفعة قاسية فزّ لها واقفاً . اختفت اشجار الرّتم المجلّلة بالبياض ، وتبدّد مذاق الترفاس ، وسافرت

Twitter: @alqareah

الصبايا وتوقفن عن الغناء ، وهاجرت الحمادة من مملكة الصحراء . وجد نفسه يقف وحيداً في خلاء مسكون بالظلمة والسّكون . جمله يبرك بالجوار ، والصفعة ما زالت تحرق وجنته اليمنى . التفت يميناً وشمالاً وإلى كل الجهات فلم ير سوى الظلمة السّوداء . خيّل له أنه يتوهّم ، ولكن الصفعة ما زالت تحرق خدّه الأيمن . جلس على الأرض فاكتشف شبحاً يتشح باسمال سوداء يتربع في مواجهته . أدهشه كيف لم يتبيّن الضيف ، ولكن أمر الجنّ لم يخطر له على بال . تربّع في مواجهته فتكلّم الزائر :

– هل انت نبيل ؟

لم يجب الراعي على السؤال البليد ، ولكن الشبح أعاده بلسان صارم . همّ الراعي أن يطلق ضحكة ، ولكنه وجد نفسه يجيب :

– لا .

– هل انت زعيم قبيلة ؟

تلكّأ الراعي فتوعده الجليس بنفس اللسان القاطع . وجد نفسه يجيب :

–لا .

– هل انت ساحر ؟

تردّد الراعي مرة أخرى قبل أن يجيب بـ :

– لا .

Twitter: @alqareah

هنا نهض الضيف . لم ينهض . ولكنه فزّ . هبّ واقفاً ، كأنّه ينتوي أن يدعوه إلى مبارزة بالسيوف . توعّد بنفس اللهجة :

– أخرج !

– أخرج ؟

هبّ الراعي واقفاً أيضاً . في تلك الومضة وجد أن هامة الشبح بدأت تنمو وتتمّدد وتعلو . ظلّت تطول وتعلو حتى غابت في السماء الظلماء . لحظتها ادركته القشعريرة وفهم كل شيء . ولكن بعد فوات الأوان . لأن الجان رأى أن يداعبه قليلاً فجرّده من اللثام بضربة واحدة ، ثم أمسك بأذنه اليمنى وجرّه على الارض مسافة طويلة . اخرجه من الوطن بالقوّة ، وألقى به في ارض اخرى ، تتمدد فوقها سماء اخرى . وبرغم ان الراعي اقسم بكل الآلهة انه على يقين ان الوقت الذي استغرقه المارد في نفيه من الوطن لا يكفي لقراءة أقصر تميمة سحريّة إلاّ أنه امضى اربعة أسابيع كاملة حتى بلغ الأرض الاولى كي يستردّ جمله الضائع . هناك وجد مخلفات الرماد وآثار المقابر فأدرك كم كان ظالماً ومتهوّراً إذ نزل ارض الأغراب ، وهجع فوق أكوام الرماد دون أن يقرأ التعاويذ .

مهاجر آخر نزل وطنهم ليلاً فلم يدر أنه يبيت ليلته في أرض سالت فيها الدّماء في الزمان القديم ، وشهدت نزالاً دمويا بين قبائل

Twitter: @alqareah

الإنس . لم يرد المهاجر أن يقضي ليلته في ذلك الحرم جهلاً منه بأن المواقع الحربية الوطن المفضّل لقبائل الخفاء ، كما لم يفعل ذلك تعباً وإنهاكاً كما حدث مع الرّاعي البائس ، ولكن الظلمة هي السّبب . فرغم أنه اكتشف في الصباح أن المكان يخلو من نصب يشير إلى الموقعة كما اعتادت القبائل أن تفعل (ليس تخليداً لذكرى النّزال . ولا تمجيداً للأبطال الذين سقطوا ، ولكن للإشارة إلى نوايا الجّن الذين يعلمون أنهم سيتخذون من الموقع وطناً) ، ولكنه كان ينتمي إلى اولئك السحرة القلائل الذين لم يتلقوا علماً من أحد ، ولكنهم ، رغم ذلك ، لا يجارون في معرفة خفايا الكائنات الخفيّة ، وإدراك الأسرار الصحراوية . فلم يكن صعبا عليه أن يكتشف أين عليه أن يقضي ليلته لو لم يخنه القمر وتشتد عليه الظلمة . وقد صدّق ، منذ تلك الليلة ، ما يردّده أهل الصحراء أن ما سببته الظلمة من فواجع لأهل الخلاء يفوق ما سببته الاوبئة والافاعي والقبائل المعادية وسنون الجدب . تلك الليلة جعلته يسبّ الظلمة أيضاً ويعادي الظلمات . فما أن انزل لثامه على عينيه واعطى ظهره للأرض حتى أحسّ باجسام صغيرة ، كثيرة ، غريبة ، مرنة، ولكنها تنفث في قفاه انفاساً حارّة . لم يتحرّك . حبس انفاسه وتصنّت . لم يسمع صوتاً . لم يسمع سوى أنين السكون الخالد . ولكن الاجسام استمّرت تنفث الانفاس الحارّة . سكن . لم يتحرّك . ولكن الأنفاس تمادت فنفثت سائلاً لزجاً كأنّه المخاط . تحسّسه بيده فغرقت

Twitter: @alqareah

اصابعه في اللعاب المقزّز . تحت السائل اللزج كمنت الاجسام الصغيرة التي تشبه الانوف . انوف . أنوف . في كل مكان أنوف . نهض . اعتدل في جلسته ، تسلّح بالسّلاح الذي أرهب الجّن دائماً : الشجاعة . خاطبهم قائلاً : « تيهار . تيهار . تيهار . إد اضسغ إدجروغ تيهار».* سمع ضحكة مكتومة . ثم نطق المارد بالرّد شعراً : «ايطسن فول تميهار . آيضس اد يسيجرو تيهار » . ** ابتسم المسافر في الظلمة ، ادخل يده في كُمّه الأيسر ، أخرج من هناك مدية نحاسية نهمة اللسان شق نصلها الفظيع الظلمة إلى نصفين ، نزلت الفاجعة فوق رأس أهل الخفاء . هتف الرجل بنفس الحماس : «ليغ الموسي ناسفّنجار ، إيتاجهن جير إيمى إدتيهار ». *** . أطلق المخلوق الخفّي قهقهة إعجاب طويلة جداً . ثم صمت طويلاً جداً . تهيّأ للمسافر السّاحر أن الأمر حُسم والنّزاع انتهى. وقد نجح في هذا الحدس أيضاً ، ولكن مواهبه السّحريّة لم تهده لأبعد من ذلك حتى يتوقع ما حدث بعدها . فما أن توقّف الحوار، وهربت الصحراء وتخفّت في ثنايا الظلمة ، حتى استلقى الرجل وتهيّأ لأن يريح عظامه بالأرض . هنا تكلّم غريمه بالنبوءة فوق رأسه . قال بتسليم لا يحتمل قساوته سوى زعماء الجن وحكمائهم : « اعترف أنّك غلبتني . سأبرهن لك على ذلك بعطيّة صغيرة » . في الصباح وجد المسافر أنه

---

* انوف ، انوف ، انوف . حيثما أضع يدي أجد الأنوف . (تماهق) .

** من استهتر وهجع في مواقع السلّف ، حيثما وضع يده يعترضه أنف . (تماهق) .

*** يروق لمديتي المميتة أن تفصل ما بين الأفواه والانوف (تماهق) .

Twitter: @alqareah

كان يتوسّد قلّة فخارية قديمة مليئة بهباء التّبر .

مهاجر ثالث تعرّض لشقاوة أكثر طرافة . خرج للصحراء بحثاً عن إبله الضائعة . مكث في الخلاء أيّاماً . كان هذا المهاجر شاعراً موهوباً . وككل الشعراء الحقيقيين كان عاشقاً للصبايا ، مفتوناً بالحسان . وقبل أن ينطلق وراء الإبل المفقودة فاز بقلب أكثر عذارى القبيلة فتنة وحلاوة ولطفاً . لم يفز بقلبها فحسب ، ولكنه نال يدها أيضاً . وتمّ الإتفاق بأن يقيم مهرجان العرس حال عودته من سفره وراء الجمال الضائعة . لم يجد الجمال ، ولكنه وجد ما هو انفس بما لا يقاس . وجد الحكمة . ومن حسن حظّه أيضاً أنه لم يتلقّ هذه الحكمة من ادعياء الانس ، ولكن من حكماء الجّن . فبعد مسيرة ثلاثة أيام قطعها في تتبّع آثار الإبل وتسقّط اخبارها من العابرين والرعاة والرُّحل ، نزل الشاعر العاشق في ضيافة نجع مريب . وكما يحدث في أحوال الجنّ فإنه لم يلحظ ظلاً للريبة ، ولم يشك في هوية الخلق الذين خالطهم ، إلاّ في صباح اليوم التالي . في الليل نحروا له الذبائح ، وذاق من ايدي نسائهم طعاماً لم يعرفه في الصحراء ، ولم يذق لمثيله طعماً . بعد انتهاء العشاء ادخلوه في حلقة غناء فسمع لحوناً لم يسمع لها مثيلاً ، وتمتّع بأصوات مغنيات لن يسمعها حتى في «واو» الموعودة ، وردّد مع الحناجر الإلهية اشعاراً نظمتها الآلهة نفسها . ورأى نساء في جمال ربّات الحسن التي روت سيرتها أساطير الاولين . رقص وغنّى وجدب إذ أوقعه الشّجن في

Twitter: @alqareah

الوجد . سافر في السماوات الأخرى ، وطاف الصحاري الأخرى ، وداعب نهود الصبايا الإلهيات . بعد ذلك وجد نفسه يجلس على عرش سلاطين العرسان المعمول من ذرات التّراب الناعم . زفّوا له حوريّة الجنان ، وغنوا له حتى سكر وضاع ووقع في الوجد مرّة أخرى . صحا فوجد نفسه في احضان ربّة الحُسن الإلهي ، تدخنه بانفاسها ، وتطيّب اطرافه الخشنة المغمورة بطبقة كحراشف الضّباب ، بعرقها الذي ينافس زهرة الرّتم عطراً وأريجاً ، وتضمّه في جسدها الذي يفوق جسد الحيّة طراوة ومرونة وليونة . ادرك أنه لم يكن يطير في الحلم ولكن ما يحياه هو الحق ، هو الصدق، هو .. الحياة ! لا يدري كم استغرق الوقت الذي قضاه وهو ينهل من رضابها ويتمرّغ في احضانها . ولكنه لن ينسى إلى الأبد جلال ذلك الرهط من الحكماء الذي انتزعه من جنّته ، وانزله من أعالي الفردوس إلى اسافل الصحراء الفاجعة . تكلّم كبيرهم فعرف ، لا يعرف لماذا ، أنه كبير السحرة . استدرجه بإشارة من يده . خرج إليهم من مخدع العرس زاحفاً على قدميه ويديه معاً . كان حاسر الرأس . ولم يكتشف ذلك أيضاً إلا في اليوم التالي . أمام الخباء اقتعد الجمع الارض فجأة . نزلوا على الارض كما ينزل سرب الطيور المهاجرة عندما يأذن له قائد الرحلة . تكلّم زعيم السحرة بلغة السحرة . قال : « ما أعدل الآلهة إذ قسّمت الحُسن بين الخلق كما قسّمت بينها الرّزق . نالت الطيّبة عقلاً جميلاً، ونالت الخبيثة جسماً جميلاً . ولكن .. آه . آه .

Twitter: @alqareah

الحسن تأكله الايام من وجه الخبيثة فلا يبقى للرجل منها سوى البلادة والغباء والنوايا الشرّيرة . أمّا من نالت عقلاً وفقدت حُسن البدن ، فلم يخسر قرينها الرّهان . انظر ... » طقطق بأصابعه فخرجت العروس من المخدع . التفت المهاجر الشقيّ فوجد أمامه إمرأة أخرى ، مخلوقاً آخر ، جنيّة بشعة ، تيرزازت الملعونة ، أبشع من الجنية البشعة، وأقبح من تيرزازت الساحرة . كانت شعثاء ، حدباء ، هزيلة ، في عينيها إحمرار وخبث وشرّ ، تحمل عكّازاً قصيراً ، وتحمل الى جانب العكاز ، ملامح معبودته الربانية . ملامح لم توح بها قسمات وجهها ولاقامتها ، ولا التعبير في عينيها ، ولكنها ملامح زائلة ، عابرة ، مثل خاطر قديم ، قديم . مثل وهم مضى وانقضى . مثل تلك الومضات الخاطفة التي تغزو قلوب أهل الباطن لتلهمهم بأن ما يحدث امامهم الآن قد حدث يوماً مّا ، وتكشف لهم ، بنبؤة مستحيلة، سرّاً لم تعرفه إلاّ الآلهة ، ولم تسر به إلى الاقدار الخفيّة . هذا القبس ، هذا الايحاء، هو ما ذكّر المهاجر البائس أن زعيم السحرة لم يقل سوى صدق ، وهذه المرأة ، هذه الجنيّة العجوز التي تقف أمامه ، هي حقاً قرينته القديمة ، قرينته الحسناء بعد أن أكلت الحُسن منها الأيّام . فسقط على قفاه مغشيا عليه . وعندما أفاق في الصباح لم يجد اثراً لشيء . اختفت القبيلة السخية ، وطار خباء العرس، وتلاشى رهط الحكماء . لحظتها تذكّر الشاعر مكائد الجّن . ولكنه لم يتخلّ عن الحكمة وإنما تخلّى عن الطيش والعشق والحسان ،

Twitter: @alqareah

واقترن بأقبح فتاة في القبيلة . ويقال أنها لم لم تُبتل بذمامة الوجه ولم تفتقد الحُسن فحسب ، ولكنها كانت حدباء قليلاً ، عرجاء كثيراً ، بعينيها حولٌ واضح . ولكن الرواة اجمعوا أن الشاعر عاش كأسعد قرين عرفته الصحراء . وتحدثت العجائز الجنيّات عن الاعجوبة فقلن أن «آنهي» قد أخبر من قديم أن العرجاء ، أو الحدباء ، أو الحولاء ، لا تتفوّق في العشق وحده ، ولكنها لا تُبارى في مجال الحكمة أيضاً . ولو تخلّى الرجال عن ولعهم الاحمق بالغشاوة التي يسمّونها حُسناً وجمالاً ، لما عرفوا حياة الشقاء. ويبدو أن الجنّ لم يكشفوا لأهل الصحراء ما خفي من أمر الصحراء ، ولكنهم استطاعوا أن يكشفوا لهم ، بشقاواتهم ، ما خفي من أمر انفسهم أيضاً.

ب – الزّبد

توقّف أهل الخفاء عن المزاح .

تراجع المقهقهون عن الهأهآت ، وسكتت الجنيّات عن المشاكسات . أستبّد الصمت بالدهليز . لم يعد يسمع عويل الريح في الأعالي . لم يعد يسمع سوى صدره الذي مضى يعلو بالزفير ويهبط بالشهيق . زحف إلى الأمام . زحف وزحف وزحف . ولكن حفنة الضوء لم تتبدّل . لم تتضخّم ولم تتضاءل . ظلّت تحتفظ بنفس الحجم كأنها تحاكي مسلك النجم السماوي . كأنها لا تعبأ بالمسافة . كأن الطريق إليها لا يعترف بمقاييس المكان أو مسافات الارض . مضت ترسل

Twitter: @alqareah

وميضاً غامضاً لا ينزل الصحراء ولا يغمر الدهليز بالضياء . زحف مسافة أخرى . بدأ سقف النفق يرتفع ويعلو . ازداد اتساعاً أيضاً في الجانبين . قطع مسافة أخرى زحفاً قبل أن يكتشف أنه لم يعد في حاجة لأن يقطع الطريق زحفاً . نهض ومضى على قدميه . ولكنه ما لبث أن توقّف وأصاخ السمع . خيّل له أنه سمع صوتاً ذكّره بصوت أخذه منه النسيان. أقترب الصوت وازداد وضوحاً . ولكن أين ومتى سمع هذا الصوت ؟ . اقترب الصوت أكثر . ضجّ البعير بالهدير فتزعزعت أركان الدهليز وزلزلت الارض تحت قدميه . لفظت شقشقته المنفوشة قطعة زبد ناصعة. سقطت القطعة فوق يده اليمنى فلوّثت ذراعه . فوق رأسه ضجّ رعد آخر . رفع عينيه إلى اعلى فرآها . تتربع في نفس الهودج ، تتمايل مع نفس الشكوة ، وجهها ينطق بنفس التسليم . ظلّ الجمل العدبّس يهدر وينفث زبداً ، وظلّت تتمايل يميناً ويساراً . تتابع اندفاع الحليب في الشكوة ، فيدمدم في الجوف بإيقاع كقرع الطبول الخشبية المكمّمة بالجلود . تصنّت . سمع لحناً خفيّاً في الإيقاع . لحناً لم يسمعه في الصحراء كلّها . لحناً فشل حتى النسيان في إفساده . لم يدرك السّر . لم يعرف عّما إذا كان السّحر نابعاً من حركة السائل في الشكوة ، أم من هدير البعير ، أم من الوجه الذي لا يعرف لغة غير السكينة والتسليم ، أم من استجابة الصلد لهذه اللحون كلها . ما ادركه حقاً ، ولم ينجح سلطان النسيان في أن يمحوه من ذاكرته ، هو ما حدث بعد ذلك . فما

Twitter: @alqareah

أن هبّ وارتجف واستجاب للإيقاع، ورفرف عصفور النور المحبوس في الصدور ، وتهيّأ للأسفار وقطع المسافات ، حتى توقفت المعزوفة السماويّة . توقفت فجأة . فهوى . هوى ، هوى . ظلّ يهوي إلى اسفل حتى تعلّق بالابتسامة . بلى . بلى . الابتسامة . افتر ثغر التسليم والحزن والوجوم عن ابتسامة مريبة ، كانت سبباً منعه من السقوط إلى أسفل ، والإرتطام بأرض الصلّد . سرى في صدره شرر ، تملّكه انتشاء. وسكر بلحون مملكة الضياء . ضياء . ضياء . ضياء . الضياء غمر الدهليز ، واخترق الصلّد ، وفاض في كل الصحراء . لم تعد الصحراء صحراء، واختفت السماء من السماء . غابت الأرض في الاعالي ، وحلّت السماء في الصحراء . ثم .. ثم أخرجت من فم الشكوة زبداً . كان مدوّراً ، اسود اللون كأنه استقطع من الظلمة . انحنت دون أن تفارق ابتسامة النجاة شفتيها . مدّت له القطعة السوداء . زبد الشكوة . عمل السنين ، ابداع الدهور، تميمة الحياة ، ولبّ الخلق . لم تكن القطعة السوداء سوى ذلك الحجر الأسود . الحجر الذي تلقّاه يوماً هبة من يد القدر فاستعادته الصحراء . أنهار سلطان النسيان فتذكّر الساحر الذي قضى نحبه جريا وراء الحجر الأسود . هتف بأعلى صوت :

– الحجر ! الحجر الأسود !

ولكن يداً مزّقتها الغضون امتّدت وتلقفت الحجر من اليد الممدودة . التفت فرأى وجهاً ممزقاً أيضاً بالغضون القبيحة ، يكشّر عن

Twitter: @alqareah

انياب ناتئة، معقوفة ، كأنياب الحيّة . مقلتاه تدوران في محجريهما كعيني الزاحفة اللئيمة . على رأسه تنتصب عصاة الخيزران ذات الاطواق النحاسيّة . وعلى وجهه ترتسم ابتسامة الدّهاء . اختفت المخلوقة الوديعة من الصحراء ، وغابت ابتسامة التسليم والسكينة والنجاة إلى الأبد . غاب البعير كلّه . لم يسمع الهدير ، ولا إيقاع الشكوة ، ولا لحون العجب ، أبداً . استعاد الاحساس لأول مّرة . نبضت الحواس الخرساء بالحياة فذاق مرارة الخيبة ، وتجّرع الهزيمة ، واصابه الخواء . تملّكه اليأس ففزّ ووثب في رقبة الدّليل الكريه . حاول أن ينتزع العطيّة من يده، ولكن الكائن اللئيم هأهأ بطريقته القبيحة وتكلّم بشرط الفجيعة:

– لن تنال الحجر إذا لم تنحر !

ومضت قبضة القزم بخيوط الضوء . كان الحجر يستجيب لنداء النجم البعيد فيومض ويومئ ويغمز بفيض الضياء . ولم يفهم كيف يقدر الحجر الملطخ بالسواد أن يتدفق وينهمر بهذا الفيض العنيد من الضوء . وبرغم القبضة المضمومة فوق جسد الحجر إلاّ أنه استمّر يتسلل من بين الأصابع ، يخرق قبضة الطّين ، ويتلألأ بالشعاع اللعوب . هجم على القبضة المتوهجة ، ولكن الدّليل وضع في يده المدية بدل الحجر . قال : « لن تنال الحجر إذا لم تنحر » .

عقب ذلك ألقى إليه بالشّاة .

Twitter: @alqareah

كانت مكبّلة بقيد سميك ، متوحش ، من مسد . اليد الأماميّة مشدودة إلى الساق الخلفية ، واليد الأمامية الأخرى مقيّدة إلى الساق الخلفية الأخرى . وكان بصره هو مشدوداً إلى مكان آخر ، إلى يد أخرى ينبثق منها الشعاع . فلم يقاوم ، ولم يعترض ، ولم يحاجج . وجد يده تغرس السكين في النّحر دون أن يفارق الوميض المعلق ببصره . ندّ عن الضحيّة أنين موجع ، وانهمر من النحر سائل في حرارة النّار . غمر يديه ، وحرق أصابعه ، فزلزلت الأرض زلزالاً ، وتصدّع جدار الدهليز. تساقطت الحجارة ، وانهمر التراب . نزل النّور فرآها : تجندلت عن عرشها الدهري ، وفقدت شكوتها الخالدة ، وتاه بعيرها الأبدي ، فاستلقت على ظهرها تنتفض كعصفور ، تعاند زحف الظلمات ، وتغالب مرارة النزع الاخير. استبّد الشحوب بوجهها الوديع ، في عينيها اختفت ابتسامة النجاة ، وحلّ في مقلتيها الفراغ . سقطت من يده المدية الفظيعة ، وسقط إلى جوارها على ركبتيه . في ذلك الاوان جاءه الصوت . نزل من سماء لاوجود لها كنبوءة مجوسيّة قديمة . حلّ كزلزال عهد قريب ، فتكلّمت به الاشياء ، ورددته الحجارة وجدران الدهليز :

«ألم تعلم أن المخلوق لابد أن ينحر أمّه إذا أراد أن يفوز بالكنز ؟».

Twitter: @alqareah

جـ – الحسناء

سطع الضياء . توهّج الكوكب المعلّق في الأعالي البعيدة وكشف عن جوف من نار . فزّ إليه نور الحجر الأسود فاشتعل من لقائهما الشرر. تزلزلت جدران الدهليز ومادت . تساقطت حجارة حصى وتراب من السقوف . دمدم جوف الأرض تحت قدميه بأنين خفّي . تحّول الضياء إلى ألسنة من لهب لها لون التّبر . ظلّت تتلامع وتتلاعب وتداعب البصر . استجابت لها جدران الدهليز فتراقصت واكتسبت لون المعدن الأصفر . تصايح المردة في الخفاء ، وعلت همهمات الجّن . ثم .. ثم تراجع الكوكب المعلّق واختفى . لايدري عّما إذا كان الكوكب قد هجر منزله القديم في الأفق وتلاشى ، أم أن نور الجدران النحاسي هو الذي أعماه ومنعه من تبيّن البرج . الجدران استعارت الانوار . مضت تسطع بضياء كلهب النّار في مواقد الحدّادين السّحرة . انتظر أن يهدأ الوميض ويخفت ، ولكنه مضى يتغامز ويومئ بإشارات مبهمة .في الركن فوجئ بالرفيق الكريه يستعيد هيئته القديمة . لا يعرف متى ولا كيف تحّرر من جلد الحيّة واستعاد ملامح المخلوقات الأنسيّة . تمدّد في القامة . وتراجع امتداد الوجه ، واختفت التجاعيد والانياب ونظرة «تانمضال» * اللئيمة ، فعادت له ملامح الإنس ، واستردّ قليلاً من وقار الحكماء ، ولكنّه لم يتخلّص من قامة القزم تماماً .

---

* «تانمضال» : حرفيّا «إبنة الأرض» أي الحيّة . (تماهق) .

Twitter: @alqareah

تواصل الزلزال .

انطفأ الضياء السّاطع ، ولكن ألسنة اللهب التي تشتعل في الجدران بددت العتمة ، وهزمت سلطان الظلمات . في امتداد الدهليز، في ذلك الافق المجهول الذي سطع فيه نور السماوات طويلاً ، تبّدى شبح كئيب . كوم يتشح باسمال سوداء كأنه استقطع من الظلمة . يستر الحجاب بدنها من قمة الرأس حتى اسفل القدمين . تدب ببطء «تانمضال» ومسلكها الذي يخفي مكيدة ازلية ، فتبدو ، في سعيها كأنها تزحف ، أو تتدحرج . هدأت الزلزلة . اقتربت لفافة السواد . تجرجر اسمال الظلمة على الأرض فيذكّر حفيف ثوبها بالفحيح الكريه ، الخالد، الذي اقشعرّت له ابدان الصحراويين منذ الازل . وكلّما اقتربت أكثر كلما علا الحفيف المريب ، وازداد تداخلاً مع فحيح المكيدة . اقتربت شبراً آخر ، وآخر ، و .. وجد نفسه يفز إلى الوراء بقفزة واحدة. استبدّت به القشعريرة ، واستيقظ فيه عداء الأجيال ، فغلبه الفزع. ولكن الرفيق الساحر الذي عرف حيل التحّول ، وتستّر في جلد الزاحفة القديمة ، تصدّى للشبح بعكاز الاطواق النحاسيّة . ولم يدرك سّر الاطواق إلاّ عندما بدأ العراك . فقد رآها تتلوّى بمرونة بدن الزاحفة اللئيمة ، وتلتف على جسد الهامّة الوحشية بمهارة ثعابين الأدغال . لم تعد العصا عكّازاً من نبتة الخيزران تتزيّن مفاصلها باطواق نحاسية خرساء، ولكنها تحوّلت إلى حيوان شرس ليس له مرونة كائن الأغواء

Twitter: @alqareah

فحسب ، ولكن استعارت أيضاً رأسه وانيابه ولؤمه ومسلكه في النزاع. وقد تلاحم الخصمان في الومضة التي كشفت فيه الهامّة عن وجهها . وسوف لن يستطيع حتى سلطان مملكة النسيان أن ينزع من رأسه ذلك الاشمئزاز الذي تملّكه عندما تبيّن ملامح ذلك الوجه . كان مستطيلاً ، شاحباً ، محروثاً بشقوق وباء قديم ، محفوراً بآثار الدمامل والقروح ، وفي قلب تلك الكتلة من البشاعة تلمع مقلتان خبيثتان تومضان باللؤم الخالد . كانت عجوزاً كريهة لها ملامح حيّة أيضاً . ولا يعرف لماذا وجد شبهاً بينها وبين المخلوق الذي يقف بجواره الآن ، ويشيّع عصاته السّحريّة في وجهها الذميم ، مستعيراً دور الخصم. أم أن المخلوق لابد أن يشاجر قرينه ويتخذ منه خصماً إذا شاء أن يقهر في نفسه ، عدوّاً ؟ ألا يؤكد السحرة القدماء أن مبارزة المخلوق مع القرين ، مع المخلوق الآخر الذي يسكنه ، هي أشرس المبارزات في سفر الخلق ؟ ألم يعلّم «آنهي» الأجيال أن العراك الحقيقي هو العراك مع الوحش المجهول الذي لا يعرف أحد كيف استطاع أن يتخذ من النفس وطناً ؟ وكان يمكن أن يشقى كثيراً لو لم يجد تفسيراً لحماس السّاحر وتحليه المذهل بالبطولة طوال المبارزة .

تقاتلا دهراً كاملاً بقياس زمان يقع أسير الظلمات ، ويتسلّط عليه سلطان النسيان . في المشادّة الأولى حرق الساحر بعصاته لباس الهامة الخفيّة ، فانكشفت الهويّة ، وتبدّت الساحرة «تيرزازت» في بدن

Twitter: @alqareah

السّعلاة ، ولكن المقاتل لم يقنع بانتصاره فمضى يهوي بالعصا بوحشية مخلوق يقاتل مخلوقاً يسكنه ، ينز منه العرق ، ينفث انفاس الفحيح ، يتقافز في الهواء على طريقة الفرسان القدامى ، زاعقاً بصيحات الحماسة. في تلك المشادّة قاتلت الساحرة ببسالة أيضاً . تتلقّى ضربات الاطواق برأسها ، وبدنها ، وتقفز نحو الخصم بعناد بطولي محاولة أن تختطف من يده الحجر السّري .

في المشادّة الثانية بدأ الخصمان يتضاءلان ويفقدان جسديهما .

تجّردا من الثياب والألبسة ، وتعريا من جلديهما . صارا عاريين ، مجلوّين ، صقيلين ، يلمع جسداهما تحت اضواء الجدران الناريّة . في هذه الجولة رأى كيف يتضاءل المخلوق ويفقد بدنه ، وطنه ، ويصير ابناً ينتمي إلى وطن الخفاء والرؤى الخفيّة . في الجولة الثالثة تمخّض إيقاع العراك عن التّحول كما تمخّض إيقاع الشكوة الرتيب عن الحجر الاسود . لم يعد الساحر قزماً فحسب ، ولكنه فقد قامته وعافيته وملامحه وبدنه الإنسي . عاد حيّة تزحف ارضاً ، تتلوّى حول العصا ، وتقاتل دفاعاً عن الحجر الأسود .

الخصم أيضاً انقلب حيّة ، ورأى كيف يتبّدى كل شيء على حقيقته ، ويعود كل مخلوق إلى أصله .

استمّر القرين يقاتل القرين حتّى اصاب السّعلاة الاعياء . كفّت

Twitter: @alqareah

عن التحوّل والتنكّر . توقّفت عن تلك اللعبة التي راقت لها منذ الطفولة فاحترفتها واتخذتها يوماً وسيلة انتقمت بها من أبيها «آكّا» . ادركت أن الضّلع يظل ضلعاً ، مهما تحايل وحاول أن يتفوّق ، كذلك الساحرة لن تستطيع أن تغلب الساحر الذي علّمها السحر .

ولكن الساحر لم يتوقف عن سحق بدن الخصم حتى بعد أن استسلم ، واعترف بالهزيمة ، وعاد يقف في مواجهته مستعيداً بدن حسناء لم تر الصحراء لبهائها مثيلاً . فكيف لا يركع المقاتل أمام الحُسن؟ كيف لا يستسلم ، ولا يلقي السّلاح أمام الإغواء ؟ ولكن من أين له أن يعلم أن من صنع الاغواء بيديه ، وبثّه فتنة في نفوس النساء ، لن يؤخذ بحيلة صنعها بنفسه يوماً ؟

مضى الجلاّد يدق رأس الحسناء بلا توقف . كانت تتلقى العصا المطوقة بدوائر النحاس بأنين فاجع . تتقي الضربات بيديها ، تحمي وجهها البهي بذراعيها ، ولكن عصا الساحر وجدت سبيلاً إلى كل مكان من جسدها البديع . ففزّ الدّم ، واغتسلت بالنزيف . توقفت عن البكاء . عندما يتفاقم الوجع ويتعاظم الألم ، لا يعود للدموع معنى . الدموع وُجدت لتعبّر عن الألم البدئي الذي يصيب البدن ، ولكنها لم تُخلق لتعبّر عن الفجيعة . رأى أن الحسناء لم تعد تتوجّع بضربات لم تعد تحسّ بها ، ولكن في عينيها وجع آخر ، خفيّ ، تعلمه هي وحدها ، وربما يعلمه السّاحر الذي علّمها السحر . فهل هو خوف من المصير ؟ هل هو

Twitter: @alqareah

حساب لما سيحيل إليه العقاب ؟ هل هو فزع من مخاض التحوّل ؟ لا يعرف ما الذي دفعه لأن يتدخل . يقيناً أن السبب ليس شعوره بالشفقة ، لأن النسيان أنساه هذه الاحساس أيضاً منذ بدأ السفر . كل ما يعرفه أنه وجد نفسه يصيح : « الرحمة ! الرحمة ! الرحمة» . التفت إليه الساحر بوجه لم يعرفه أبداً . حدّق فيه بعينين لم يرهما من قبل، و.. هوى بالعصا على وجهه . وقعت الضربة على الجبين . اصابه دوار . ترنّح ثم سقط . لا يدري كم غاب . ولكنه وجد الجرح ينزف عندما أفاق من غيبته ، ووجد الساحر ينحني فوق الأرض . امامه تمددت الحسناء بعد أن فقدت جسدها البديع . تضاءلت وفقدت الاطراف . حدث التحوّل الأليم وعادت الصبيّة حيّة تسعى . لم تحتفظ من وعائها القديم بغير العينين . ولولا هذه النظرة الفاتنة ، لولا هاتان العينان المداورتان ، لما ادرك أن المخلوق الذي يتلوّى على التراب بين يدي الساحر، هو نفسه ذلك المخلوق البهيّ ، المكابر ، المرفوع إلى الأعالي بقامة المردة . تابع عمل الساحر فرآه يركع فوقها . يهشّ « تانمضال» نحو تجويف العصا . يتمتم بالتمائم السحريّة ، ويرسم بسبابته رموزاً غامضة في الهواء . تابع زحف «إبنة الأرض» نحو كهفها الجديد ، نحو مثواها الاخير ، نحو جوف العصا المطوقة بحلقات النحاس . تتباطأ في زحفها وتتلكأ ، ولكنها لا تلبث أن تمضي . توقفت قبل أن تدخل رأسها في فوهة التجويف . ألقت حولها نظرة شاملة . نظرة طويلة . نظرة فاجعة جعلته يستعيد

Twitter: @alqareah

التعبير الذي نطقت به عيناها عندما كانت تتلقى ضربات الجلاّد ، وفهم أن ذاك الوجع لم يكن سوى نبوءة ستؤدي إلى هذا المصير الذي تواجهه الآن . قرأت القدر ، وعرفت أن التحّول سينتهي بها إلى الجوف ، إلى الفوهة ، إلى الظلمة ، إلى الفناء . ثم .. ثم اغمضت عينيها . تشجّعت . ادخلت رأسها ببطء وحذر . بدأت تلج الجوف ، وتمضي في ظلمة التجوّف والمجهول . توارت وعادت سليلة الجنيّة إلى منفاها القديم . صارت رسماً شاحباً على جدار الكهف ، ومنحت نفسها غذاء يمد من امتلك العصا بالعافية والسّر والحياة . انتصب امامه الساحر بقامة ماردة ، وملامح تفيض شباباً وعافية وحياة . وإذا كانت التجاعيد المهولة قد اختفت حال استيلائه على الحجر الحكيم ، فإن بشرته لم تتشرّب النضارة ، ولم تستعد الحياة إلاّ بعد أن استولى على الحيّة . ولكن ما ادهشه ولم يجد له تفسيراً هو هذا الشّبه العجيب بين المارد والحيّة من جهة ، وبين المارد وبين الحسناء الضائعة من جهة أخرى . فقد ظلّت مقلتاه تومضان بنفس البريق الغامض الذي ومضت به عينا الحسناء ، وكان خصلة مميّزة في مقلة الحيّة أيضاً . فهل السّرّ في وميض المقلة وحده ، أم في التعبير الخفي ، الحكيم ، القديم ، الملهم ، الذي ميّزها عن غيرها من المخلوقات منذ أن اختطفت السّر الأول من يد الجدّ الأوّل ليمنحها تفوقاً نالت به حيلة تبدّل به جلدها وتحل في ابدان الكائنات ، وتحترف التّحول ولا تبيد ؟ أم أن وجه الشّبه بين المخلوقات الثلاث

Twitter: @alqareah

(الساحر، الحسناء، الحيّة) يكمن في الناموس الذي قضى بجعل الضّد لا يدخل في جسد الضّد فحسب ، ولا يستمد منه العافية والحياة والنضارة فقط ، ولكنه يستعير منه المسلك أيضاً ؟.

انتصب في وجهه الرفيق بقامة المردة ، ونضارة الفتيان ، ونظرة الحيّة ، وقال بلغة اوضح من أي لغة أخرى :

– الآن يقدر الوادي أن يمضي بنا إلى الأبد ، ويتلوّى كما يشاء ، الآن يستطيع القبلي أن يبكي ، ومن حق الريح أن تولول . فأنا الذي نلت كنزي (وهزّ عكّازه في الهواء) ادعو رفيق السّفر أن يتقدّم ويأخذ كنزه !

استلقى إلى الوراء ، واطلق قهقهة جنونية زلزلت المغارة ، فتداعت الجدران وتفتتت . ازداد وميض الجدران ، وتصاعد في بدنها الحريق . بدأ الهباء يتساقط كرذاذ المطر . هباء اصفر ، معاند ، لعوب ، شقي . استمرّ الدّليل يقهقه ، ومضت الجدران تهتز وتتداعى وتتفتت .

تواصل هطول الهباء .

تكدّست أكوام الهباء ، وصنعت على الأرض سيوفاً لمّاعة كسيوف الذرّات التي يقيمها القبلي في بحر الرمال العظيم . سيوف تومض ببريق كالرعد ، كالنبوءة ، كالوعيد . ومضت جدران المغارة الحمراء تغذيها بالفتات، بالذّرات ، بالهباء . ولم يكن عليه أن ينتظر

Twitter: @alqareah

طويلاً حتى يدرك أن الانهيار قد.تمخّض عن التّبر كما تمخّضت شكوة المخلوقة الوديعة عن الحجر الحكيم .

ولكن كان عليه أن ينتظر طويلاً حتى يفهم أن الساحر الذي امتلك الحيّة ، قد أخذ منه الحياة ، ولم يكن الهباء الذي تركه له سوى خدعة سمّاها الخلق كنزاً ، وكان عليه ، كي ينالها ، أن يمد يده إلى المدّية ، ويجر النصل على الرقبة ، وينحر .. أمّه ! .

Twitter: @alqareah

القسم الثّاني

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

١٠ – الحيّة (ب)

« ومثل ما يقولون : الحيّة تدل على العدوّ ، وفي موضع آخر يقولون هي كاتم السرّ ، وفي موضع آخر يقولون تدلّ على الحياة » .

ابن خلدون

«المقدمة»

* * * *

« .. فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوأتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة » .

القرآن الكريم

سورة الأعراف ، الايات ١٩ ، ٢٢

* * * *

« تنال السماء نفسك ، وتنال الأرض جسدك »

هوراك ، «مراثي إيزيس»

Twitter: @alqareah

(١)

تململ جبارين اولاً .

تطاول قرص النار واعتلى الجبال . كابر أكثر فاجتاز القمم . اطل على الوديان ورأى أن يحرق الكائنات التي تعتصم بالبطون . سكب اللهب في «آلون» فولول ، مع الصبح ، كل مصاب . استعارت اشجار الطلح حيل القنافذ فتكاثفت كل شجرة ونسجت من اوراقها فروة حكيمة . انطرحت الاعشاب واستجارت من نار السماء بامتداد الأرض كأنها تحاكي الحية . فرّت الطيور ، وهربت الفئران في الشقوق والجحور . توارت الذئاب ، وغابت قطعان الودان في افواه الكهوف . وإذ ارسلت الشمس رسالتها للأرض ، واخبرت أن لا عاصم من نارها ، فإن الحجر وجد الشجاعة كي يبدع للمخلوقات من بدنه حصناً . نال جبارين نصيبا من القصاص الخالد ، وتلقى الفيض ، فتململ وسعى . زحف على بطنه وبحث عن صلد يصد به ويل القيلولة . اخترق الحصن، تخطى خط الدائرة . اجتاز الحرم ، ودخل مملكة ابناء الليل . سحق دبيب الفأر ، ومحاختم القنفذ على الرمل . تحرر من القمقم وجاور مملكة الحية . لامس الأثر ، فاقشعر وتلقى إيماءة الخطر ، أطلق صيحة فروسية ، وفز بقفزة من انتوى أن يعارك الجن ، كأن أحيل حيوانات البرية قد بعثت في الأثر ، وأخرجت من مخبائها ، في

Twitter: @alqareah

الظلمات السفلى ، ناباً ، لم يهب أهل الصحراء شيئاً مثله ، ودسته في عجيزته . انتصب وانهمك يهمهم بالتمائم القديمة . تفقد المكان فوجد أنه خرق خط الدائرة في فراره من فيض النار فتولاه الجن وقد تخفوا في جوف الحية . ها هو الأثر الفظيع . آثارها على التراب وحدها تكفي لإرهاب القبائل . الغضون التي تحفرها بجسدها وهي تنساب ، كالسيل على الرمل ، تكفي لإنزال الفزع في قلوب الفرسان ، وتكفي لإصابة «إيركايتادم» * بالشلل . اقتفي الأثر . تابع كائن المكيدة . سار وراء البدن الذى تجرد من الأيدي والأرجل ليسجد للأرض ، ليقترب من الارض ، ليصبح جزءاً من الارض . ليستمد من الأم السفلى القوة . ليستعير من البدن الذى خلقت منه كل الأبدان سلطاناً لا يقارن بسلطان. تابع العلامة المطبوعة على الأديم وهو يعاند قشعريرة الخطر ووساوس المجهول حتى انقطع الأثر . اختفى . غاصت وليدة الأرض في الارض ، عادت ابنة الأرض إلى جوف أمها الأرض . توارت المخلوقة الوحيدة التي لم تعترف بأبوة السماء كبقية الخلق ، فكانت الارض لها أباً وأماً . ذهبت الزاحفة التي التقطت السر من فم الأرض ، وقطعت لسانها الى شطرين خوفاً من أن يغلبها الفضول فتذيع سر الأرض .. سر الارض ..

الأرض انجبتها كي تستعيد بها مخلوقاً آخر . دمية أخرى . دمية

---

* إيركايتادم : الرعاع ، الدهماء . (تماهق) .

Twitter: @alqareah

ابدعتها من الاوحال ، من عجين الطين عقب سيول سخية ، ولكن مارداً من الجن خطف الدمية البديعة من بين يديها ، وطار بها إلى وطن الزعيم في «تارات» . ولولت الارض . اشتد بها السقم والظمأ . ناحت طويلاً حزناً على وليدها الفقيد . في تلك الاثناء كان «وانتهيط» يتسكع في الخلاء فسمع المناحة. رآها تفقد نضارتها وحسنها . تابع تحولات الشقاء على وجهها . مضت تتيبّس وتتغضّن وتهرم وتهرب منها الحياة . أقبل وانتهيط ووقف على رأس الارض التي استحالت صحراء . سألها عن حالها فروت له قصة الدمية . قال اللئيم في نفسه : «لابد أن تكون دمية خارقة تلك الدمية التي تجعل الأرض تنوح» . تفكر قليلاً . هرش عمامته مرتين ، ثم أنحنى نحو الارض الجدباء وقال بلؤم السحرة الاوائل : « أنا أعرف حيل الزعيم أكثر من كل الكائنات . فهل تعرف الرقعة الجليلة ما فعله الزعيم حتى استطاع أن يستولي على الدمية؟» . توقفت الأرض عن الأنين الخالد ، ورفعت إلى «وانتهيط» وجهاً شاحباً ، أماته الحزن ، وسألت بلهفة من طمع في النجاة بعد يأس : «ماذا فعل ؟ ماذا؟» . هرش وانتهيط رأسه مرة أخرى قبل أن يجيب ببرود الحكماء : «لقد نفخ فيها» تعجبت الأرض كثيراً . وتزلزلت طويلاً ، ثم استفهمت : «حقاً أني لا أفهم . ماذا يستطيع الزعيم أن ينفخ في دميتي؟» . قال وانتهيط :«انت لا تعرفين حيل الزعيم يا أرضي الجليلة ! لقد نفخ في الدمية من نفسه . اعطاها من نفسه فصارت تمشي وراءه وتدب على قدمين ...» . هتفت

Twitter: @alqareah

الارض العطشى : «هل قلت تدب على قدمين ؟» ولكن وانتهيط تجاهل السؤال ومضى يقول : «.. وما عليك إلا أن تنفخي فيها من نفسك أيضاً إذا شئت أن تستردي دميتك الضائعة» قالت الصحراء الشقية : «وكيف السبيل الى ذلك؟» . قال وانتهيط :«استطيع أن استرجعها من المملكة ، ولكني لا استطيع أن ادخل الحرم» . هتفت الرقعة الجليلة : «ولكن لماذا؟» . نكس وانتهيط رأسه واعترف : «لا اخفي عليك أني اختلفت يوماً مع الزعيم . فطردني ، واصدر أمره الجائر إلى المردة فحرّموا عليّ دخول حرم القمم» . قالت الصحراء : «وما الحيلة ؟» . قال وانتهيط: «سأخفف همك وانتقم لك إذا صنعت لي بدناً يقدر أن يدخلني الحرم خفية عن عيون العسس» . تعجبت الارض : «وهل تنفع الابدان والاستار مع من لا تخفى عليه خافية ؟» . أجاب وانتهيط اللئيم : «ليس الزعيم من يقف على الابواب ، ولكنهم اتباعه من اخيار المردة . واذا ابدعت في صنع البدن كما ابدعت في خلق الدمية ، فإني سأعرف كيف اخدعهم ، وسأجد السبيل الى الدمية التي تتسكع الآن هناك على قدمين» . صمتت الرقعة العارية ، ثم سألت بعد حين : «وكيف ترى هذا البدن؟» . هنا انطلق وانتهيط يصف الجسم الذى سيدخل به الوطن البعيد المعلق في الأعالي : «الانسب أن يكون منساباً ، مرناً ، رقيقاً ، لطيفاً ، صقيلاً ، ناعماً ، بلا أرجل ، بلا أيد ، بلا عظام ، بلا رأس ، سهل الالتواء ، يستطيع أن يتكتل ، ويسترخي ، ويناور ، ويداور ، ويستدير ،

Twitter: @alqareah

ليستحيل كتلة واحدة . كُرة واحدة . يزحف أرضاً ، يلج الشقوق والجحور . لابد أن يكون بدناً تافها في حجمه ، ولكن لابد أن يمتلك سلاحاً خارقاً للدفاع عن النفس» . سكت وانتهيط . رمق الارض التي ارتفع من جوفها النواح . ظلت الأرض الظمأى تنوح دهراً قبل أن يقدر اللئيم أن يستمهلها ويستفهم عن سبب فجيعتها الجديدة . لحظتها قالت المسكينة : «انت تريد أعجوبة ! اعجوبة! اعجوبة ! . أيها الشقي ، أن خلق كائن جديد أيسر من ابتداع البدن الذى تريد ؟» . أبتسم وانتهيط ابتسامة اللؤم الخالد ، وهز منكبيه استخفافاً قبل أن ينطلق . ولكن الارض الشقية استوقفته ، وطلبت أن يهبها مهلة . عاد يتبسم ، ثم اقتعد الارض . هجع على صدرها دهراً . سمع انينها الفاجع وهي تتمخّض كما تتمخّض كل الاناث . كما تتمخض كل الكائنات ، قبل أن تصنع الاعجاز وتنجب الحياة . لإنجاز الأعجوبة كان وانتهيط شاهداً . عاش المخاض الدهري ، وسمع المواجع ، ورأى بنفسه كيف سخرت الارض حكمتها الأبدية ، واستعانت بالأحاجي والمعادن والألغاز الخفية ، حتى استطاعت ان تبدع ، أخيراً ، الحياة ، التي اطلقت عليها اسم «الحية» لا لأنها استغرقت في خلقها الدهور ، ولا لأنها انفقت في وضعها أحيل الحيل ، ولا لأن مخاضها فاق في الوجع اي مخاض سواه ، ولكن لأن الكائن الذى ابتدع بهذا العمل الفاجع ، وخرج من جوف الأرض ، من جوف الظلمات ، إلى ملكوت الضوء، كان فريداً في نوعه ، وفي

Twitter: @alqareah

تكوينه ، وفي سعيه ، وفي مسلكه ، وفي عقله ، وكان جديراً بأن يفوز باللقب الجليل : «الحية» ، لأنه يحمل في جوفه سراً إسمه : **الحياة !**

تخفّى وانتهيط في بدن الحية وانطلق الى «تارات» . تسلّق القمم العمودية الملساء بأعجوبة لا يقدر إنجازها إلا من تخفى في بدن الحية . استغفل العسس واجتاز البوابات والأبواب . اخترق الحرم المعلق ، ووجد دمية الطين تسعى بين الأحراش ، وتدب على قدمين . تستّر وراء علّيقة شقيّة تشبثت بالصخر بعناد بطولي . تمهّل هناك وأنهمك يعد الخطة ويحبك الأحبولة . وعندما فرغ من عمله خرج إلى دمية الطين في بدن الحسناء . كان بدن الحية هو الجسم الوحيد الذي تمتع في جبلّته بخصال من المرونة واللطافة والطاعة بحيث يستطيع أن يتحول بسهولة ويصير جسماً آخر . وقد رأى وانتهيط اللئيم أن بدن الحسناء هو أنسب الابدان لاستدراج الدمية الضالة واستعادتها من منفاها في الفضاء الى صدر الأم التي صنعتها من أكوام الوحل وألواح الطين ، كما رأى قبلها ان الجسم الذي يتبدّل ، ويغيّر جلدته دوماً ، هو الجسم الوحيد الذى لا يفنى ولا يبيد ، لأن سراً إسمه **الحياة** قد بُثّ فيه منذ البدء .ظهر ببدن الانثى في ذلك اليوم ، تسكع بين الانهار والاحراش بدلال لا تتقنه غير الحسناء ، لا تتقنه غير الحية ، لا يتقنه غير وانتهيط . وما لبث الكائن الذي أباده التوحّد ، وهدّه الاعتزال ، أن هرع الى الأنثى وقبّل قدميها ، وتوسل أن تبقى الى جواره ، وألا تتركه أبداً . ولكن الثالوث الذي يتنكّر في بدن

Twitter: @alqareah

الحسن (الانثى ، الحية ، وانتهيط) أبى أن ينزل عند رغبة الإبن الضال إلا إذا التزم بالشرط الفاجع . تساءل مندام (وهو الإسم الذي اطلقه الزعيم على الدمية)* عن الشرط فتحرك وانتهيط في احشاء الحية ، واومأت صاحبة السر للحسناء لتملي إرادة اللئيم . فمدت الانثى اصبع الغنج والدلال ، واشارت إلى تلك العشبة الصحراوية العجيبة التي يقال أنها كانت السبب في الفتنة القديمة التي نشبت بين الزعيم ومريده «وانتهيط». كانت نبتة «آسيار» قد انقذت حياة الزعيم عندما تخلّى عنه جنده وفرّوا ، فبقى يقاتل الغزاة وحيداً ، فأصابه الوباء المميت ، فلم يهرع لنجدته وينقذه من الهلاك إلا الصحراء النبيلة التي سخّر حياته دفاعاً عنها ، فأنبتت له العشبة السحرية ، فلم تشفه من الوباء فحسب ، ولكنها صارت علة وجوده ، وسرّا من أسرار عافيته وخلوده . فسنّ ناموساً صارماً يحرّم على المخلوقات الاقتراب من النبتة السرية ، ويمنع على الاعوان والمريدين تناولها منعاً باتاً . وكان وانتهيط المريد الوحيد الذي خالف الناموس ، وانتهك التحريم فنال الجزاء . فيُروى أن الزعيم جرّده من امتيازاته ، وحرمه مرضاته ، ولعنه أمام محفل الجن وجمع المريدين ، ثم أمر بطرده من الحرم الى الأبد .

والآن عندما أقبل وانتهيط متخفياً في بدن الحية ، في بدن الحسناء، لتدبير المكيدة ، لاسترداد الدمية الشقية التي نفخ فيها الزعيم

(*) مندام : راجع رواية «المجوس» ، الجزء الثاني ، القسم الرابع ، الفصل الثامن المعنون بـ «اللثام».

Twitter: @alqareah

من انفاسه ، لاستعادة كوم الطين الذي قدح فيه الزعيم شرر السماء وجذوة الأعالي ، الآن ، عندما دخل الحرم المحرم متسللاً ، متنكراً ، لا لإرضاء كبرياء الارض كما ظنت الأرض ، ولكن إشباعاً لجبلّة الكيد ، وإرضاء لحسد اشتعل في جوفه منذ تلقي اللعنة ، وحرم من نعم الحرم ، وعرف انه حسد بطبيعة لن تقف عند حد ، ولن تعرف طعماً للسكينة ما لم تحجب السكينة عن كل الكائنات ، وتمنع عنها نعم الاعتزال ، وتحرمها من متعة الزهد ، ولذة السكون .

ندّت عن الدمية شهقة موجعة ما أن فهمت الاشارة ، ورأت أن الحسناء تقوده إلى نبتة الحرام ، وتضع تذوق «آسيار» صداقاً للصداقة ، وشرطا للاقتران الابدي . ولكن الحسناء تغنّجت ، رقصت ، غنّت ، و.. مدّت يدها وقطفت ورق العشبة . وضعته في فمها وبدأت تمضغه بتلذذ ، واشتهاء ، وإغواء . اعطته ورقة فتمنّع ، وتقهقر ، وخاف غضبة الزعيم . لاحقته الحسناء بالعشبة ، ولم تكف عن الملاحقة حتى اذاقت الدمية البلهاء لقمة الحرام .

ارتجت القمم المعلقة ، وتزلزلت جبال الأعالي . فقعقعت السماوات بالرعود ، وتمزقت استار الفضاء بشرر البروق . تنادى الجّن ، وتصايح المريدون في انحاء الحرم . طاف النذير ودعا للاجتماع في حضرة الزعيم .

لم يطل الاجتماع ، ولم تتأخر اللعنة .

Twitter: @alqareah

همهم بها انفار الجن فتناقلتها القمم ، رددتها الحجارة وتغنّى بها الطير . طافت السماوات ونزلت الى الأسافل . سبق النّبأ الدمية البلهاء إلى الأرض ، فكانت الرقعة الجليلة هي الكائن الوحيد الذى ابتهج وملأ الخلاء بزغاريد الفرح. ولكن فرحة الأرض بعودة الابن الضّال لم تكتمل . إذ وجدت ان الشوق الخالد كان من طرف واحد ، بل أن الإبن لم يواجه شوقها بالنكران والبرود فحسب ، ولكنه دبّ على ترابها ببدنه وحده . دبّ غريباً ، كئيباً ، حزيناً ، ورأسه في السماء . كأنه لم يعرف أمّه ، كأنه لم يعد الى صدر الأصل الذي خلقه يوماً من فناء . كأنه لم يدرك أن هذا البدن الذى يتباهى به إنما أخذ وتكون من هذا الأديم الظامىء . من هذه الذرات العطشى ، من هذه الاوحال الوضيعة . مضى يدوس على السلف بكبرياء الأغراب وغطرسة الجاحدين . يرفع رأسه الى السماء كأنه لا وجود لشيء سواها . وكان على الأم ان تنوح طويلاً ، وترقبه طويلا حتى تفهم سرّ الشقاء .

تابعته خفْية ، وارسلت خلفه جواسيس الطير . وكان عليها أن تصبر دهراً آخر حتى يأتي الطير بالنبأ : ولاء المخلوق الذي يدب على قدمين ليس للاسافل ، ولكنه للأعالي . ولاء الدمية ليس للوعاء ، ولكن للانفاس التي تشده إلى السماء ، ولاء الإبن الضال ليس للأم التي غذته من جسدها ، وصنعته من لحمها ، ولكن لأب بثّ فيه نار السرّ ، وبذر فيه شرر الغموض . ولهذا فإنه ضال مرتين . مرّة ذاق طعم التيه وفقد

Twitter: @alqareah

الطريق الى صدر الأم ، ومرة ذاق طعم اللقمة الحرام ، فطرد من الحرم ، ونزل الى ارض تولاه فيها سلطان النسيان ، فأنساه علاقته بها . فلا تطعني في مسلكه قبل أن تفجعي في أمره ، لأنه ، يا أمنا الرحيمة ، مخلوق شقي . معلق بين سماء لن ينالها ، وأرض تنكّر لها . فمن حقك أن تنوحي عليه لأنه لن يجد السبيل اليك . جدير بك أن تولولي بنعيه لأنه لن يعود مهما دبّ على ترابك . ولن يعترف بك مهما انعمت عليه من طيب ثمارك ، ومهما شرب من سلسبيلك ، لأن من تنفس هواء الأعالي لن يعرف السكينة في الأسافل ، ومن أودع قلبه في الحرم لن يهنأ له بال في أرض . فما اشقاه ، يا أمنا الأرض ، لأنه أضاع وطنه الأول، ولم يبلغ في سفره الوطن الآخر . ما أشقاه ، يا أمنّا الأرض ، لأنه ضائع في الأبد كما ضاع يوماً في الازل . ما أشقاه ، يا أمنا الارض ، وما أشقاك ، أنت ، بسببه !

هكذا تكلم الجواسيس .

هكذا أخبر الطير .

(٢)

بعد أن جنت الرقعة الجليلة الخيبة من الوليد الأبله ، شاءت أن تغدق من فيض حنانها على كائن يكون له أهلاً ، فلم تجد غير الأعجوبة التي دبرتها من لدنها ، وابدعتها من همومها ، وحنينها وفجيعتها لتستعيد

Twitter: @alqareah

بها الإبن الضال . تركت الدمية البلهاء تهيم على وجهها . عقبها على التراب ، ورأسها مشيع الى العُلى . بدنها يدب على صدر الأم ، يلامس الصحراء ، ولكن قلبها ينزف حنيناً للمقام الاول ، ويفيض حسرة على الوطن الضائع ، ويعاني وجعاً سببته مسيرة التيه . لم تلجأ الصحراء للاستحواذ على المخلوقة الحكيمة بحثاً عن العزاء وحده ، أو طلباً لملء الفراغ الموحش الذي تركته الدمية الضائعة التي خسرتها إلى الأبد ، ولكنها تنازعت الحية مع وانتهيط بسبب الخصال . فلم تعرف الصحراء كائناً واحداً منساباً ، مرناً ، رقيقاً ، لطيفاً ، صقيلاً ، ناعماً ، بلا أرجل ، بلا أيد ، بلا عظام ، بلا رأس ، سهل الالتواء ، يستطيع أن يتكتل ، ويتكور ، ويناور ، ويداور ويخترق الأرض ، يعيش في الجحور والحفر. وبرغم هذا البدن التافه الذي صار مثالاً في الرخاوة والمرونة والاسترخاء، إلا أنه يملك سلاحاً افتك من كل الاسلحة التي عرفتها الصحراء . وهذا السلاح ليس السم الزعاف كما سيعتقد البلهاء من احفاد الدمية البلهاء ، ولكنه الدهـاء . ولكـن هل كان الدهاء هو الامتياز الوحيد الذي رفع البدعة فوق بقية المخلوقات ؟ لا ، ليست الحيلة، ولا الدهاء . هناك خصيلة أخرى لمن تجد إليها الكائنات طريقاً . هناك سرّ أعظم لم تعرف الموجودات السبيل الى التحايل عليه. هناك التدبير الذي فاق كل التدابير ، هناك الاعجاز الذي أعجز الصحراء نفسها فلم تجد له تفسيراً ولا تدبيراً . هناك الشرك المدهش الذي اوقعت في أحابيله

Twitter: @alqareah

الأيام ، وقهرت بسطوته سلطان الزمان .

هذه الحيلة ادهشت ارض الصحراء .

فعندما أنهمكت الرقعة الجليلة في إبداع الأعجوبة لم تظن (مثلها في ذلك مثل كل السحرة والمبدعين) أنها ستفلح الى هذا الحدّ ، ولم تتوقع أن يخرج المخلوق بهذه العبقرية ، ويتمتع بمثل هذه المواهب ، فتفوقت على نفسها من حيث لا تدري كما أكّد وانتهيط . ولكن الاعجوبة الحقيقية حدثت عندما عاد الساحر من رحلته في الأعالي متستّراً بالبدن العجيب ، بالحيّة . فرأت الأرض كيف تبدل «تانمضال» ابنة الأرض ، جلدها . وعندما غلبها الفضول وتساءلت عن معنى هذا العمل ، تضاحك وانتهيط وأجاب نيابة عنها : «إنها تبدل جلدها . إنها تجدد نفسها . إنها تبدع الحياة» . عاد يقهقه بصوت تصدعت له جبال «آلوّن» . قالت الصحراء : «عجباً ! ولكني لم اودع فيها هذا السر» . هنا كشف وانتهيط عن السر . قال وهو يتلوّى بالضحك : «هذا سر نالته من الرحلة . هذا أمر استولت عليه من القمة . هذا ترياق خطفته من يد الدمية البلهاء . الزعيم أراده لدميته المدللة ، ولكن الدمية لم تعرف للسّر مقاماً ، فمددت يدي وخطفته من بين يديه . نلت منه ما أراد الزعيم أن يكون وقفا عليه وحده . نلته بمساعدة مخلوقك الاعجوبة . نلته بمساعدة الحية . نلت .. نلت ..» تبدل وجهه . جحظت مقلتاه . دبّ فيه شحوب . الشحوب استحال الى ظلال من توتر واحتقان

Twitter: @alqareah

وسواد . أُخرج من كمّه عكازاً موشىّ باطواق الخيزران . لوح به في الهواء . حدّق في الفراغ كأنه يقرأ في قرطاس الافق نبوءة فاجعة . أكمل بلغة العرافين : «نلت الحياة . نلت الحياة .. نلت الحياة..» عاد يهز العصا في الهواء . انحنى نحو الارض . ركع على ركبتيه . مضى : «..وهي لابد أن تبدّل جلدها كي تبدع السّر ، كي تبث الانفاس في التميمة . كي تصنع المعجزة . كي تخلق الحياة . وهي لن تستطيع أن تحقق الحياة إذا لم تقهر عدواً خفيا إسمه الزمان . بلى . لقد اتخذت منها قريناً أبدياً ، وجعلت لها في عصاتي مقاماً خالداَ ، لأنها بدّلت البدن البائد ، وقهرت الزمان الذي لا يقهر ..». هنا سمع الساحر سؤال الأرض ينطلق في الخلاء : «كيف استطعت ان تبذر في مخلوقتي هذه الروح ؟» . قهقه وانتهيط مرة أخرى . ثم مسح عينيه الدامعتين وأوضح: «ألم أقل لك ، ايتها الرقعة المبجلة ، أني خطفت السرّ ؟ ألم أقل لك أني تخفيت في بدن القرينة الحسناء وأكلنا « آسيار » معاً ؟ ها – ها – ها ..». احتارت الارض : «ولكنني لا اذكر اني انبت عشبة بهذا الإسم !» هجع الساحر الى جوارها . لامس صدرها الذي حرقته نيران الجلاد الخالد . قال لها : «هذه عشبة تنمو في قمم «تارات» . ويروي حكماء الجن أن العشبة نالها مكافأة منك يوم حارب الغزاة وحيداً بعد أن تخلى عنه جنده وفرّوا غرباً نحو بحر الأوقيانوس . فهل نسيت حقاً أنك صنعتِ له «آسيار» لإشفائه من الوباء الذي أصابه ؟ هل نسيت حقاً كيف بعثت

Twitter: @alqareah

له جندا من الجن ليقاتل بهم الغزاة مكافأة له على الشجاعة والنبالة والثبات ؟ أم أنك ، يا صحراءنا الكبرى ، لا بد أن تنسي جودك في كل مرّة تفعلين فيها خيراً ؟». سكتت الرقعة الجليلة ، الخالية فعم الدنيا السكون . ولكن الساحر وجد نفسه يفيق بنبرة صوت جديد: «أعرف انك لم تنسي بسبب ضعف الذاكرة ، ولكن لإن ناموس النبل هو الذي يقضي أن تودع الارض عطاياها بيد النسيان إذا شاءت أن يسمى ذلك جوداً»

الصحراء لم تجب فتمادى في الدنيا السكون .

(٣)

مداهنة المخلوق المكابر لم تنطل على الرقعة الوديعة ، ولم تمنع وقوع المشادة .

الرقعة الجليلة استغفلت «وانتهيط» . تركته حتى اعياه السفر ، فهجع ونام . تسللت إلى العصا ذات الجوف واختلست منها الاعجوبة . صنعت لها من قلبها الكبير مخبأ ، واخفتها ، بعيداً ، في جوفها . ذلك أن الارض التي راق لها كثيراً ما صنعت يداها ، رأت أن استرداد العطية هو العدل اذ اخفقت في التعرف إلى المخلوق البائس الذي عاد به وانتهيط في رحلته المجيدة إلى «تارات» .

ولكن الساحر القديم فقد صوابه عندما نهض ووجد عصاته فارغة

Twitter: @alqareah

من اللب ، من الوهج ، من السر ، من **الحياة** . هام في الخلاء . ناح في الفلوات . مزق لثامه النبيل . حطم صدره بقبضته . ضرب رأسه على جدران الكهوف . ملأ الصحراء الوسطى ولولة ونحيباً وبكاء . اصابه النحول ، وراح يفقد بدنه . بدأ يتضاءل ، ويتضاءل حتى استحال خيالاً وكاد أن يختفي . حزنت الرقعة الجليلة اسفاً على مصيره ، ولكنها لم تهبه الأعجوبة . زحف وانتهيط على صدرها يحاكي الأعجوبة ظنا منه أنها فازت بالحظوة بسبب الامتثال الذي جعلها تلثم الثّرى ، وتمشي عليه زحفاً ، وتتخذه وطناً أبدياً . أكتأبت الرقعة وهي تشاهد المحاكاة ، ولكن كآبتها لم تبلغ حداً يجعلها تعيد السر المخبوء في جوفها إلى المكابر . هنا توصل الساحر القديم إلى تلك الحيلة التي اتخذها ناموساً أبديا استمر منذ ذلك العهد .

صعد السفوح وتطاول في المرتفعات . رابط لقطعان الودّان المقدس ، ونال من القطيع طريدة . أخذها الى الرقعة الجليلة ونحر الشاة النبيلة . غمر التراب بالدّم ، فذاقت الارض الظمأى طعم نداوة لم تعرفها منذ آلاف الاعوام . سال الدّم ، وعرفت الصحراء ناموساً إسمه القربان !

لم تتمالك الرقعة نفسها فبكت ، واخرجت من جوفها الكائن الذي يمتلك في جوفه السّر ، و .. قدمته للداهية . دسّه وانتهيط في جوف عصاته الجوفاء ، فاستعاد قامته وعافيته و .. حياته الأولى . وضع

Twitter: @alqareah

العصا على منكبه ومضى .

ولكن النزاع لم ينته عند هذا الحّد ، لأن الأرض التي صنعت من جوفها للسّر وطناً لم ترتوِ بالدّم ، بل أن ظمأها ازداد ، وشقاءها تضاعف، واستولى عليها خواء فاجع ادركت أنها لن تجد للخلاص منه سبيلاً إلاّ إذا استعادت الاعجوبة من كف الساحر .

(٤)

ورد في «آنهي» أنها ناحت على «تانمضال» الفقيدة دهراً . وعندما نال منها الزمان ، وشارفت على اليأس ، اهتدت إلى حيلة صارت ، فيما بعد ، أمثولة الأجيال ، ومثالاً سار على هديه السحرة .

مدّت يدها إلى «تادرارت» ونقشت على الواحها الهائلة الفخ العظيم الذي بقي مطبوعاً على صخورها حتى يوم الخلق هذا . يتبرك به الرعاة ، يعبده الجنّ ، ويأتيه السحرة من الصحاري المتاخمة للادغال ليستعيروا منه سلطان السحر ، ويستمدوا من صورته التمائم والطلاسم.

الفخ هو الذي سرق اللب من وانتهيط ، وأعاد «آبا»* الضائع الى البيت ، إلى الوطن ، الى حرم الأمّ . لم يعد إلى الحرم في الحال ، ولكن مراسيم الميلاد اقتضت أن تتدفق الوديان بالسيول طويلاً ، وتمتلىء البحيرات في ارض تارات بمياه كثيرة ، قبل أن يحل الميعاد الذي تمتثل فيه «تانمضال» الضّالة وتقع في الشرك . ولم تنس أن تتمتم طوال الوقت

* ابا (أو «إيبا») : هو الروح ، وهو العدم أيضا بـ (تماهق) .

Twitter: @alqareah

بـ «تانمضال ، تانمضال ، تانمضال» لأن الساحرة تعرف أن الفخّ لن يكتمل إذا لم تنطق بالأسم . لم تكتف الرقعة الجليلة باقتناص ضالّتها ، ولكنها دبرت لها حصناً أبعد منالاً هذه المرّة . أخرجت من جوفها طينا نفيساً ، شوته بفيض الجلاد السماوي ، وصنعت منه الوعاء . أقامت قلة فخار دائرية الشكل ، بيضوية في صورتها ، وكست بها «آبا» . صنعت منها قشراً لـ «اللب النفيس» . حفرت لها في جوفها السفلي البعيد ، الاظلم ، مخبأ . حفرت انفاقا ومسالك ودهاليز ومتاهات ، وأخرجت الى النور اثقالها . همت أن تدس في المتاهة الظلماء كنزها ، ولكنها استدركت. تعلمت الحيلة ، ورأت أن تلجأ الى التمويه وإضاعة الأثر . صنعت من الفخار صورة الحسناء ووضعتها في الجرة ، ثم تفكرت وانتظرت طويلاً حتى اهتدت الى التّبر . استخرجت من احشائها ذرات المعدن اللعوب ونثرتها في الجرة . اطمأنت الى عملها فأخذت الكنز وخبأته في جوفها. في الدهليز . في المتاهة السفلية الظلماء . تمددت الرقعة الجليلة بعد تعب طويل ، وسرى في بدنها الصفاء . ذلك الصفاء الذي اطلق عليه سحرة الصحراء وعرّافوها ، فيما بعد ، إسم «السعادة» . ولكن هيهات أن يتمتع بالصفاء من اتخذ من وانتهيط خصماً ! هيهات أن تكتب الديمومة لنصر تحقق في عراك مع من لم يرد أن يعترف بالهزيمة ! وهيهات أن تفلح حيلة ، أو تنطلي على من صنع الحيلة ، وابتدع سيرة الحيل من أولهـا !

Twitter: @alqareah

(٥)

وانتهيط سخّر ذلك الفريق من البلهاء الذي رأى أن الحياة في طلب الكنوز .

البلهاء دسّوا رؤوسهم في الاسافل وعرفوا الطريق الأسفل . البلهاء بحثوا وعثروا على الدهليز . البلهاء طلبوا فوجدوا السبيل إلى المتاهة الظلماء . البلهاء وجدوا لأن من جدّ وراء التبر لن تخفى عليه خافية . البلهاء ذهبوا وراء البريق المزيف فقادوا وانتهيط الى اللب ، إلى «تانمضال» ، إلى «آبا» الذي لا يقاس بشيء لا في الصحراء ولا في السماء ، ولا يقدر بثمن لا في الصحراء ولا في السماء .

يدخل وانتهيط الى الحرم السفلي مهتديا بالبلهاء ، مستنيراً بالفيض السماوي ، بالقبس البكر الذي زرعه الزعيم في سلالتهم عندما نفخ في الدمية الاولى من انفاسه . في هذه المرّة تمادى الساحر في رسم الحيلة فاستبدل القربان. لم يستبدله في عيون البلهاء ، وإن استبدله في عين الارض ، وفي عين الحقيقة . عرف أن نحر الودّان المقدس لا يكفي لاسترداد أمر نفيس كالحياة ، فطفق يمسخ أقارب الباحثين عن الكنوز وذويهم ، ويحولهم الى أنعام وديعة . يمسخ أب هذا الى تيس ، وأم ذلك إلى معزى ، وولد ذاك الى جدي شقي قبل أن يضع في أيديهم المدية ويأمرهم بجرها على النحر . وكانوا ينحرون ذويهم دائماً كي يفوزوا بالكنوز .

Twitter: @alqareah

وعندما كان الدم يتسلل إلى عروق الأرض ليلّين قلبها ، ويجعلها تتنازل عن العطية ، كان وانتهيط يحرص أن يترك للبلهاء كنزهم المزيف، ويأخذ لنفسه الكنز الآخر ، الكنز الحقيقي ، «آبا» ، الحية .. الحياة . الحياة . الحياة...

(٦)

.. ظلت سلالة البلهاء تتهمه بالخديعة ، وتنعته في تراثها بالساحر اللئيم، ولكنها لم تتوصل للسّر ، ولم تعرف كيف خدعها ، ولا أين حدثت الخدعة ، ولن يكتب لهذه القبيلة البليدة أن تدرك السّر أبد الدهر ، لأن من ختم على قلبه بالبلادة منذ البدء ، لن يكتب له أن يقف على السّر إلى الأبد .

هذا ما ورد في وصايا الاولين ، وتناقلته الأجيال في رموز حفرها السحرة على صدور الجبال ، وصارت ، مع تدفق الزمان ، شرائع للحياة ، وناموساً للتيه ، اطلق عليه الكهنة إسم «آنهي» .

Twitter: @alqareah

١١ - العابرون

« فجاءني العقل والنفس ، وجاءني العلم والمعرفة . فقال لي مولاي : جزها إلي عابراً . أنت عابر كل شيء ، وألقها إليهم ، وأعهد إليهم أن يبتنوا بها بيوتاً ، فإنها هي مبلغهم ، ليفارقوك وتفارقهم ، فما هي بيتك ، ولا أنت من سواكن بيوتها أبد الآبدين » .

م . ع . النّفّري

«المواقف والمخاطبات»

* * * *

« وجعلت أمام بني الرّكابيين طاسات ملآنة خمراً واقداحاً ، وقلت لهم: أشربوا خمراً ، فقالوا : لا نشرب خمراً لأن يوناداب أبانا أوصانا قائلاً : لا تشربوا خمراً أنتم ولا بنوكم إلى الأبد ، ولا تبنوا بيتاً ، ولا تزرعوا زرعاً ، ولا تغرسوا كرماً ، ولا تكن لكم ... ، بل اسكنوا في الخيام كل أيامكم ، لكي تحيوا أياماً كثيرة على وجه الأرض التي أنتم متغربون فيها » .

سفر إرميا (٣٥ : ٥ ، ٨) .

Twitter: @alqareah

(١)

أهل التّيه يأتون دائما .

لا يفلح الجدب في اعتراضهم ، ولم يوقف القبلى اسفارهم . لم ترهبهم قلة الزّاد ، ولم يعترفوا بالظمأ . اعتنقوا ديانة الاسفار ، فصار لهم التجوال وطناً. ويقول العرّافون والسحرة القدامى أن الهجرة امتياز موقوف على أهل الصحراء . ولولا هذه العقيدة ، لما كان أهل الصحراء أهلاً لأن يحملوا لقب أهل الصحراء . وسبق أن ورد في «آنهي» المفقود أن المدى المديد لم يقبلهم في أرضه الواسعة إلا بعد أن رأى أنهم لا يجدون في الاستقرار لذة ، ولا يعرفون لهم غير الاسفار دينا ، لأنهم يرفضون أن يخدشوا وجهها بالفؤوس ، أو يحرثوا صدرها بالمحاريث كي يبذروا حباً ، أو يزرعوا زرعاً ، أو يغرسوا كروماً ، كما يفعل الفلاحون وأهل الواحات ، ولكنهم آثروا أن يسكنوا الخيام ، ويأخذوا من الارض ما تعطيه لهم عن طيب خاطر ، لأنهم ضيوف تائهون نزلوا في رحابها ، ولا يليق بالضيف أن يمزق بدن المضيف كي يغتصب منه طعاماً . وقد نالوا بهذا المسلك النبيل مكافأة . اغدقت عليهم الصحراء بسخاء . نالوا التّرفاس ، وأكلوا آغرارام * .شموّا عبير الرتّم ، وعرفوا السكون . ذاقوا انفاس ريح الشمال المبلولة بالنداوة ، وفي القلب نزلت سكينة . فماذا يبتغي الغريب في ارض الغربة أكثر من هذا النعيم ؟

(*) ترفاس : الكمأ . أغرارام : عشبة صحراوية تؤكل نيئة .

Twitter: @alqareah

أوليسوا أغراباً ساقتهم الاقدار الى ارض الاغتراب والمنفى ؟ ألم تلقنهم الاقدار نفسها تميمة التمائم عندما أوحت لهم بوساطة الرؤى قائلة أن أنبل الضيوف وأقربهم الى قلب السماء هم اولئك الذين لم ينسوا مبدأ الضيافة على الأرض الغريبة ، وساروا دائماً وفق ما يمليه ناموس الأغراب؟ ألم تلهمهم بالمسلك الذي يحرم تمزيق وجه الأرض بالمحاريث، أو طعن جسدها بالفئوس الفظيعة ، أو تقطيع اطراف الاشجار الخضراء ، أو قتل شاة الودّان النتوج ، أو تبديد الماء في الفضاء، أو ... ؟ ألم تخبرهم على لسان الكهنة الأخيار ، أن تلك الافعال هي رذائل يرتكبها العبد الرذيل الذي ارتضى حياة الاستقرار ، ولكنها لا تليق بعابر السبيل النبيل ؟

آمنوا بالناموس فاحتقروا الفلاحة . أخذوا بوصايا الكهنة الاوائل فاستنكروا الحراثة والزراعة وانتهاك حرمة الأرض العذراء . اتبعوا المسلك الذي يليق بالأغراب في الارض الغريبة فسنوا شريعة تحرّم إتلاف الشجر الاخضر ، وتعاقب كل من أفسد في الأرض الغريبة ، أو أراق السلسبيل في الفضاء ، أو أهرق دم الشاة النتوج ، أو كسر أطراف الشجر الاخضر . أما من شاء أن يخرق الناموس ، ويخالف الوصايا ، ويشمر عن ساعديه وساقيه ، ويحترف الفلاحة وحرث الارض بالمحراث ، فقد نزعوا عن رأسه اللثام ، وجردوه من النبالة ، وقطعوا أصله من سلالتهم ، وحرموا ذريته من الانتماء الى ملتهم . لأنه ارتكب

Twitter: @alqareah

الخطيئة ، وخالف الناموس ، واقترف الخيانة . ولما كان جزاء الخائن في محو أثره من القبيلة ، ومن الصحراء ، ومن الحياة ، فقد توصل سحرتهم الى أن حرمان الذرية من الانتساب الى الملة هو السبيل الوحيد لإنزال قصاص المحو في حق الخائن . ولكن الصحراء لم تعرف خيانات من ابناء القبيلة المهاجرة إلاّ نادراً جداً . وحتى إذا حدثت خيانة فإنها تصير علامة ، يوماً مشهوداً ، تاريخاً تستشهد به الأجيال . فتقول القبيلة في ميراثها الطويل : «هذا حدث في العام الذي تركنا فيه فلان إبن فلانه وسكن الواحة» ، أو «هذا حدث في العام الذي سبق وقوع العار الذي ارتكبه فلان بن فلانه عندما خان وبدّل سكينة الصحراء بخمول الواحات » أو «هذا حدث بعد عامين من فقدان القبيلة لفلان ابن فلانه الذي هجر الصحراء ودخل الواحات البعيدة» . وكانت الشاعرات يجدن الفرصة للعن الخونة بالأشعار . واشعار الشاعرات الموهوبات هو ما يخشاه «الخونة» في القبيلة أكثر من خشيتهم للعار نفسه . لأن الغريب الذي دخل ارض الأغراب يوماً ، ولم يجد ما يتسلّى به في اسفاره الطويلة غير الاشعار هرع لمساعدته الزمان فسنّ ذلك التقليد الذي صار تراثاً يتوارثه الصحراوي من جيل الى جيل ، فكفت الاشعار أن تكون لغة الصحراء ، بل صارت الحياة نفسها . ثم سار بها الأمر فأصبحت أسمى حتى من الحياة . إذ ما لبث الزمان أن خلق منها هاجساً إلهيّا أعلى تحول يوماً إلى إله . فإذا ارتكب ابن الأغراب فعلاً رآه ناموس

Twitter: @alqareah

القبيلة عاراً ، فإن إبن التيه لا يخشى أن يتلقّى أي قصاص جزاء هذا العار، ولكنه على استعداد أن يغيب في باطن الارض ، ويتمنّى أشد التمني أنه لم يولد ، ولم يطأ الصحراء ، إذا عرف ان هذا العار سوف يدخل في الاشعار ، ويتحول بيتاً في افواه الشاعرات . إنه يدفع حياته وهو في غاية الفرح إذا كان ذلك سيشتري له سكوت الشاعرات . ويروي «آنهي» الضائع أن الشعر في تاريخ القبيلة قد حصد من الأبطال والنبلاء أكثر بكثير مما حصدته الاوبئة والمجاعات وسيوف الغزاة . ويروي الكهنة أن عهوداً كثيرة مرت بالقبيلة سنّت فيها شرائع تمنع الفتيات من قول الشعر بعد أن اكتشف السحرة أن الاشعار صارت تشكل خطراً يهدد القبيلة بالزوال . ويقال أن الرواة اجمعوا أن لا شيء أعسر من تحريم الشعر . والتجربة أثبتت أن نظم الاشعار في القبيلة تواصل سراً ، في ذلك الزمان ، برغم صرامة الحظر ، وبرغم قيام الكهنة باستئصال ألسنة عشرات الشاعرات اللائي غلبتهن مواهبهن فدفعن إلى «آغرم نودادن » بالعشرات من أشجع الفرسان وأكثرهم نبلاً .

والخوف من الاشعار هو سبب هلاك ذلك «الخائن» الذي تتحدث عنه تلك الرواية التي تتناقلها القبيلة إلى اليوم . فيقال أن «بو - بو» ارهبته الاهوال وخاف الظمأ والوباء والجوع ، فترك ابنه الرضيع في احضان إمراته وفرّ إلى الواحة . عاش هناك سنوات ، غاص في الارض وتطاول في النخيل . طعن الطين بالفأس وانتهك حُرمة التراب . تنعّم

Twitter: @alqareah

بطعام الارض ، ولكنه فقد سكون الصحراء في قلبه . نال نعم الطين ولكنه لم يستمتع بالخيرات لأنه نالها من الارض غَصْباً ، فافتقد السكينة وشبّ في قلبه الحنين . تجوّل في الروابي المجاورة حيث تنتهي حدود الواحة وتبدأ شظوط الصحراء . تغنّى بالمواويل القديمة ، وعزّى نفسه باشعار تمجد التخلّي ، وتمدح النبل والزهد والبطولة . ولكن الأغاني توقظ الأشجان ، ولا تزيد الإبن الذي أتى الصحراء غريباً ، إلا الشقاوة والاحزان . عاد إلى كوخه المشيّد من سعف النخل ، وأخذ من سرجه القديم رقعة من جلد الغزال . خطّ عليها رموزاً بـ «تيفيناغ» موجهة الى الزعيم . قال له أنه سيقطع نحره إذا لم يغفر له ويأذن له بالعودة . خرج الى سوق الواحة وسلم الرقعة لأول مسافر إلى الصحراء النائية . أنتظر «بو – بو» ولكن الرد المنتظر لم يأت . رسم رقعة أخرى ، فلم يتلق رداً أيضاً . غالب الحنين زمناً ، وعارك كبرياءه زمناً آخر ، ولكن الشعلة الخفية ، الحنين الفاجع ، الشوق الى الوطن المدهش ، إلى السفر والسكون ، هو الذي غلب في آخر الأمر ، فوجد «بو – بو» نفسه يقايض الارض والنخل والزرع وكل ما ملكت يمينه في الواحة مقابل جمل يعبر به المسافة ، ويمضي به الى الوطن . تبدّت مضارب القبيلة قبيل المغيب . هرع لاستقباله الصبيان . تجمهروا حول المهري المتعب فنزل عن السرج ووزع عليهم حبات التمر . رأى في احد الصبيان علامة خفية رجف لها قلبه . تقدم منه وسأله بوقار النبلاء : «ميكايلن؟»*

(*) ميكايلن : من هم أهلك ؟ (تماهق) .

Twitter: @alqareah

فأجاب الصّبي وهو يجرّد الحبة من التمر ويدس النواة في جيب جلبابه : «أنا أبن تميما» . ارتجف قلب الأب ، واحترق الصدر بالنار ، ولكن الوقار كان أقوى حتى من عاطفة الابوة . أراد أن يداعبه فمضى يسأل : «ولكن من هو أبوك ؟ ألا تعرف لأبيك إسماً ؟» . هنا قال الصبي : «أبي هو من قالت فيه الشاعرة ...» . وانطلق ينشد . في البداية انشد الهجاء الفظيع إنشاداً . وعندما انتهى من التهام حبة التمر ، حك شعر رأسه الذي يشطر رأسه الى نصفين على طريقة عرف الدّيك ، وأخرج من جلبابه نواة التمر ، طفق يمضغها ويتغنى بالقصيدة التي تلطخ أباه بالعار الأبدي . ما ادهش الأب هو الطريقة . . فقد تلذذ بالأبيات ، بالعار ، بالهوان، كما تلذذ بالرحيق الذي يمتصه من النواة . القصيدة تحدثت عن هجرته. قالت الشاعرة أنه استبدل السيف بالمعول ، والمهري النبيل بالحمار البليد ، ونجوم السماء الوضيئة بسقف الحيطان الظلماء ، ولم تر القبيلة فارساً القى بنفسه الى الموت هرباً من الحياة ، كما فعل هو «بو – بو» ظانا أنه .. تحدثت الانشودة الفظيعة عن أفعالٍ كثيرة ، ومخازٍ أكبر ، ولكنه لم يتابع الأبيات .

أناخ الجمل ، وقفز في السرج . انطلق في الخلاء مصمماً أن يختفي الى الأبد .

بعد يومين عثر الرعاة في الوادي المجاور على جثة فارس مفتوح العينين ، مقلتاه تحدقان في الفراغ ، ظهره يسنده السرج ، لباسه تلوث

بدم تيبّس ، ولكن الدم في نحره كان ما زال ندياً .

(٢)

تبدّى الجبارين كما يتبدّى لكل المهاجرين الأبديين .

تمادى القرص ، عبر إلى العرش . سكب فيض النار فكتم انفاس الصحراء ، وأمات الريح . اختنق الوادي وحلت القيلولة . ركض الفيض في الوادي كما تركض السيول . تدفق عبر المنحنيات والالتواءات واعتلى الصخور. داهم الطلح واقتلع الاعشاب البرية الميتة . تراكضت الزواحف واعتصمت بالحفر والجحور . تنادى الطير في الاعالي واحتمى بالاوكار المعلقة . التف حول رجليه لسان الفيض وداعبه بمسلك ثعبان الادغال قبل أن يعبر ويمضي عبر مجرى الوادي . تابع لعبته الشقية وهو يداعب الحجارة في طريقه ويشاكس الاشجار . يوقد فوق رؤوس الحجارة شعلة سماوية اللون ، ويحز سيقان الطلح فتسبح فروة الشجرة في الفراغ . ينزع فروة الشجرة ، ويضعها على قامة الصخرة . يجعل للحجارة الخرساء شأناً ، ويأخذ الحياة من الطلحة المكابرة . يحيي الاموات ، ويميت الأحياء . يعيد خلق الاشياء والكائنات وفق ناموس الهزء والسخرية . يدور حول نفسه ، يتحلّق ، يرقص ، يبتدع في خلق كائناته ، ليبعث في الافق خلقاً يدبون على الاقدام . يحاكي كهنة الجن فيأتي الى الصحراء بألوان لم تعرفها الصحراء . يبعث القوافل من المجهول ، ويشيد الأبنية الخرافية في غمضة عين . يقيم

Twitter: @alqareah

اسواقاً تكتظ بخلق لم ترهم عين ولم تسمعهم أذن ، ولم يخطروا بقلب بشر ، ثم يجعل من الأفق البائس وطناً لكل هذه القيامة . ولكنه يستدرك ، ينشر حوله بسمة السخرية ، ويمحو من الصحراء ما خلق ، ويمضي الى الامام ، عبر امتداد الوادي ، بكبرياء إله قديم . ابتسم جبارين أيضاً . راقته المخلوقات التي ابتدعها الإله الساخر ، وتمتع برؤية حسناء نبيلة كانت تتجول في السوق المجهول . تتلحف بـ «تابركامت» مشبعة بلون ارجواني ، تتلامع خواتم الفضة في أصابعها وتحدجه من حين لآخر ، بنظرة فضول تنطق بوعد . العينان اكثر ما أثاره في الحسناء. كانتا كبيرتين مثل عيني غزالة ، كحلاوين مثل عيني غزالة ، وديعتين مثل عيني غزالة ، واعدتين مثل عيني غزالة . التفتت إليه . توقفت . كأنما أرادت أن تخبره بسرّ . ولكن اللعوب لم يمهله . خسف بها الارض ومحاها من الصحراء ، من الافق، من الحياة ، مرة واحدة وإلى الأبد . قبل أن تختفي رأى أنها شيعته بنظرة حزينة ، كأنها تودعه إلى الأبد . كأنها تريد أن تقول أنها لن تستطيع أن تخبره بالسّر لأنها لا تستطيع أن تتمرد على إرادة الإله . كأنها تقول أنها ستتلاشى ، ستمضي الى مملكة المجهول لأنها لا تنوي أن تخالف الناموس . ناموس الاشياء ، ناموس الخفاء ، ناموس الفناء ، ناموس السراب .

عندما حدث المحو أكتأب ولعن السرّاب . ولكن الكائن اللعوب واصل لعبته . مضى عبر امتداد النهر الميّت ، بلغ المنعطف حيث ينحرف

Twitter: @alqareah

الامتداد وينكسر الوادي شمالاً . هناك ادرك ضالته . هناك استقبل المهاجر كضيف نبيل . في البداية أقام له مهرجاناً لا يقل جمالاً عن مهرجانات القبائل التي تقيمها في تارات ابتهاجاً بفك التحريم عن الحرم. بعث الفرسان من المجهول ، وأتى بالمغنيات من أبعد الممالك ، والقى بالجمهرة على السفح . رقصوا له وغنوا . تراكض في وجهه الفرسان ، وتحلقوا حوله . زغردت الصبايا وناحت الشاعرات بمواويل الاشجان . ولكن..

ولكن المهاجر كان المخلوق الوحيد الذي تجاهل الفرح ، ولم يعبأ بالمراسم. رمق المهرجان ساخراً ، ومضى في سبيله .

اغتاظ السراب ، ورأى ان لا مبالاة المهاجر تشكيك في مواهب اعترف له بها الجن قبل الإنس . محا المهرجان بإشارة عابرة . تبدد الفرسان ، وتلاشت الحسان ، وسكتت الشاعرات عن الغناء . تفكر اللعوب مهلة ثم اهتدى الى حيلة جديدة . قام واعترض المهاجر بالفيض. رأى أن ينزل به القصاص فدفع في وجهه بالسيل . تدفق النهر القديم بمياه لم يعرفها منذ دهور طواها النسيان . ولكن المهاجر العجيب لم يعبأ . خاض في الغمر ، ورفس الفيض ، ولم ينحن ، ولم يرتو من ظمأ السفر الطويل . مشى بوقار النبلاء ، رأسه مشيع الى الافق البعيد على طريقة العابرين الاجلاء الذين ادركوا السر فلم يطلبوا في الاسفار كنوزاً ، ولم يبحثوا في الارض عن «واو المفقودة» . على وجوههم

Twitter: @alqareah

تصميم، وفي عيونهم ابتسامة ساخرة .

السراب لم يستسلم .

قام وطارد المهاجر من جديد ، صمم أن يجرب النزال هذه المرة، فاندفع نحو خصمه ، والتحم معه في مشادة . امسك به من ساقيه ، فصلهما عن البدن ، شيعهما في الفضاء ، ثم القى بهما جانباً . رأى أن ما فعله حسن ، فالتفت الى خصمه ، ولدهشته وجده لا يعبأ . في عينيه نفس التصميم، في عينيه نفس الابتسامة الساخرة . وبصره معلق بالأفق المجهول ، يضع على منكبيه عكاز القصبة الذي تلمع على مفاصله اطواق من معدن النحاس .

أحس الكائن اللعوب باليأس لأول مرة في تاريخه ، وعرف انه يجابه مخلوقاً ليس كبقية المخلوقات .

(٣)

العراك مسح من رأس جبارين سيرة الحسناء ، وأعاده الى الصحراء .

تابع الخصمين وهما يلتحمان في البعد ، في الأفق الآخر ، حيث ينحرف الثعبان الذي يشق الجبل إلى نصفين ، وينكسر صوب الغرب في انعطافه الثاني . الالتحام ألهاه عن بورو . عن الأثر الموحش الذي خلفته «تانمضال» على التراب . عن الضريح المنتهك في الجوار . عن دم تعلق

Twitter: @alqareah

بثياب القرين النائم . و .. عن ندبتين انحسر عنهما لثام بورو : ندبة في الجبين ، حديثة العهد ، تخثّر دمها ، وتيبّست عليه ذرات رمل ، حامت حولها أسراب الذباب . و .. ندبة أخرى ، أقدم عهداً ، عميقة ، قاسية ، أصابت الرأس فشجّته ، حصدت الشعر ، وشقت في اللحمة طريقا اقشعر لعمقه وقساوته بدن جبارين ، فانحنى فوق الجسد الطريح ، وتأمل العلامة الفاجعة طويلا .

حام حول الجسد ثلاث مرات . رفع رأسه الى الحية التي سكنت جلمود الاسلاف ، وراحت تشاهد الأفق على طريقة العابرين الأبديين.
مضى ببصره الى حيث سددت نظرة السر والسخرية والتيه فوقع نظره على الكنز . على ضريح الاسلاف . على «ادبني» الذي اعتلى السفح ، وامتدت إليه يد الجن ليلة البارحة . يقيناً أنهم الجن . فبالأمس ، عند الغسق ، جرى العراك مع عتاتهم بسبب كوم الحجارة نفسه . بسبب الكنز . بسبب الضريح . ولولا تدخل المارد «بوشا» لأصابهما الهلاك . وها هم يتنادون في ظلمة الليل ، ويزيحون الحجارة عن فم الضريح . فهل نقلوا كنوزهم الى موقع جديد بعيداً عن متناول الانس ، أم أن اغراباً من أهل السحر اقتحموا الحرم ليلاً ، وعرفوا كيف يفكون الطلسم ؟

تذكر العلامة فعاد الى بورو . ركع فوق رأسه . تابع انفاسه . صدره يعلو ويهبط مثل صدر طفل وديع . انفرج الجفن الأيمن عن حدقة

Twitter: @alqareah

تبدّى فيها البياض مثل خط القبس البكر في غيهب الفجر . خيط من العرق انبجس من دغل الشعر المفلفل ، المزروع بشيب كنثار الفضة ، وجرى عبر طرف الجبين الأيمن . اخترق هلال الحاجب ونزل حتى بلغ الجفن . لمع بوميض غامض قبل أن ينكسر ويدور الى الاسفل ليسيل فوق الخد . هناك يرابط الكتّان . هناك يتلقفه اللثام ، ويمتص نداوته بلهفة التراب الظامىء ، بنهم الأرض العطشى التي حرمت من السيل ، فاختنقت بالحنين ، وحملت للندى نداء الأزل .

عاد يتفقدّ الوسم .

انهمرت على الأخدود خصيلات شعر تخللها الشيب . ازاحها فعادت تستر الجرح القديم بعناد . استنجد باللثام . شدّها بالكتان ولكنها طفقت تتوثب وتتحفز كأنها تتوعد الكف التي كشفت السر . الآن تبدى الشرخ كاملاً . شطر الجمجمة إلى شقين . تمدد عند قمة الرأس وأتسع في الحجم . في حين تضاءل ونحف في نهاية اللسانين حتى تبدد في كلا الطرفين . بدا ، على هذا النحو ، مثل نحر ذبيح ، مثل ثغر قبيح لحيوان مجهول . مثل كعثب الانثى، مثل تكشيرة جنّ في ظلمة الليل . مثل .. مثل بسمة وعيد من جماجم الاموات، بسمة وعيد من جمجمة بورو .. بسمة .. اشتعل البدن بقشعريرة . اسدل الكفن على فم الجمجمة . أخفى تكشيرة الوعيد بقطعة الكتان ، فرأى كيف سبقت خصلات الشعر لاخفاء فم التجويف . تألقّ فيها الشيب تحت شعاع

Twitter: @alqareah

القيلولة . فغمزت بالإشارة ، وقالت باللغة الخفية : ألم أخبر أن تحترس ؟ ألم أشر بالابتعاد عن وطن السّر اينما وجد؟ ألم أحذّر من الاقتراب من موقع كل خفي ؟ ألم أناد بتجنب الاشياء التي تسيء المخلوق إن عرفها ؟ الم أعاند في إخفاء الأثر وستر السّر ؟ ألم أكن أكثر رحمة بك وأكثر شفقة عليك من نفسك على نفسك ؟

فزّ فزعاً . فزّ كأن اللئيمة المطبوعة على جدار الجلمود قد تحررت من الأسر ولدغت عقبه .

في تلك الومضة تململ بورو ، وبدأ المهاجر يهزم الخصم اللعوب، ويتحرر من الغمر ، في الطرف الآخر من الوادي .

(٤)

ظن جبارين أن المسافر قد نجا . ولكن اللسان اللعوب لاحقه بعناد الأبطال . أشعل في الرقعة حريقاً إلتهم الاحراش السفلى ورؤوس الاشجار العالية . امتد الحريق الى اطراف المهاجر . اشتعل جلبابه بالسنة النار . حامت فوق رأسه ذيول الدخان . بدأت اسماله تتهاوى وتتشتت . الكم الأيمن انفصل عن الثوب وتبدد مع ذيول الدخان ، والكم الأيسر رفرف بيأس واستنجد بفروة طلح لم تصلها ألسنة اللهب . تمادت النار. استسلمت لجنون أشرار الجن فامتدت الى الامام ونالت البدن. اخترقت الجسد فامتلأ الوادي برائحة الشياط .

Twitter: @alqareah

الشياط انتزع بورو من رقدته ، وأخرجه من الدائرة .

هب واقفاً . وجهه موسوم بخيوط العرق ، والذباب ما زال يحوم حول الجرح الأسفل ، تفقد الوادي بنظرة غائبة . أنهار اللثام وتكوّم عند قدميه، لم يهرع إليه ، ولم يشده حول رأسه . رفع عينيه الى قرينه وحدق فيه بعينين ساهمتين كأنه يشاهد مخلوقا آخر يراه لأول مرّة . ثم انحنى وراقب القيد الذي يحيط ببدنه ويكبل يديه ورجليه . راقب الطوق الذي خطه «بوشا» بالمدية كي يجعل له حصناً يقيه غارة الجنّ . تأمل الحلقة التي آمنته من خوف ، ورأى أثر الغزوة التي قامت بها الكائنات البرية في الليل . هذا مخلوق أقبل الى مهجع الانس طمعاً في فتات الخبز ، وهذه «تانمضال» انفصلت عن مخبائها المثبت في الجلمود ، تحررت من الأسر ، من الشرك ، ونزلت تسعى وتطلب رأس الفأر . خلفهما تدحرج الكائن الذي يصنع من بدنه المسلح بالأشواك حجر الزاوية في بنيان الثالوث . يأتي كرة مستديرة ، حاملاً في جوفه نبوءة تومىء بلغة المخلوقات السرية قائلة أن سر تلك الدائرة المحفورة على التراب ، من سر هذه الدائرة المشيدة من كوخ الاشواك ، وإذا أقبلت كرة الشوك تتدحرج ليلاً ، فإنها لا تأتي لتتصيد طعاماً يسد الجوف كما تفعل بقية المخلوقات الليلية ، ولكنها تجيء لتنتظر العلامة ، ترابط لتشهد ميلاد القبس . تتصبر وتنتظر تحرر كائن السر من ملكوت الأسر . تستطيع ان تكمن في المخبأ دهراً كي تنال رأس الحية مرة واحدة . كي

Twitter: @alqareah

تختطف الرسالة مرة واحدة . لأن المخلوق ليس في حاجة لنيل السر مرتين . وليس في الصحراء كلها من عرف قدر الحية وادرك شأنها الخفي مثل القنفذ . وهو الحيوان الوحيد الذي تخافه الزاحفة الخالدة ، ليس تقديراً لمواهبه القتالية ، ولكن لأنه الوحيد الذي ادرك السر ، وعرف كيف يستدير ويصنع من جسمه حلقة مبهمة .

عندما هم بالخروج من حرم الطوق انهمك بورو يتمتم بالتمائم . ولم يتوقف عن التمتمة حتى عندما هرع الى الامتعة وبدأ يصب الماء من فم القربة .

صب الماء في وعائين نحاسيين مطليين بمعدن القصدير . حملهما بحذر ونزل عمق الوادي مهرولاً .

تابعه جبارين .

ترنّح وكاد يقع مرتين . تألق الماء تحت شعاع القيلولة ، فاحس جبارين نحوه بشفقة . بدا بائسا برأسه الحاسر ، وبشرته النحاسية التي تميل الى الرماد ، ولهفته الأبدية في معاندة الزوال والخروج الى الظامئين، حاملاً في يده وعاء من قصدير يحوي سائلا عجيباً لا يصير ، بالنسبة للظامىء ، سبباً للحياة ، ولكنه يصير الحياة نفسها .

استعاد اليوم الذي نزل فيه ضيفاً على بورو . وتذكر المراسم الجليلة التي سن بها الميثاق ، ووطّد عهد القران . تساءل : كم عابر سبيل

Twitter: @alqareah

ظامىء يا ترى أسره بورو بالماء ، وصنع منه أخاً ، صنواً ، قريناً ، إلى الأبد ؟ كم مهاجر من قبائل الانس ، وكم مسافر من قبائل الجن ، أعاد له بورو حياة ضائعة ، فسلسله ، بذلك ، بأغلال لن يجد للتحرر منها سبيلاً إلى الأبد ؟ . وها هو الآن يكرر نفس الحيلة مع التائه الجديد . ها هو يتقدم منه ويرش بدنه بماء الوعاء الأيمن ليطفىء نار الحريق . ها هو يبدأ الطقوس : ينطق بالصك قبل أن يختمه بمداد السلسبيل . يترنم بأسفار العهد قبل أن يضع القيد في رقبة المهاجر . يتمتم بالتمائم التي لن يحدث بدونها رباط ، ولن يلتئم بغيرها شمل المخلوقات .

ها هو يحكم الوثاق ويقدم الوعاء .

ولكن هل ينتمي التائه الجديد الى ملّة تعتنق شريعة الحياة وتؤمن بناموس الاحياء ؟ . هل يعترف القادم الجديد بأغلال العهد ويعرف للدّين ديناً؟

(٥)

يشطر أهل الحكمة المسافرين الى ثلاث ملل ، ويقسمون الملل الثلاث الى ثلاث فرق أخرى .

الملة الأولى : قوم يغزون الصحراء في افواج محمومة ، في مواسم معلومة ، كأنهم ، في إقبالهم ، على ميعاد . كأنهم يداهمون الخلاء بموجب إتفاق خفي ، أو وفق عهد قديم ، صادق عليه اسلاف

Twitter: @alqareah

الملة في زمن مجهول لا يذكره أحد ، واورثوه للخلف مزبوراً على رقع نفيسة من جلود الغزلان ، فينطلق الأبناء ليداهموا الأرض البكر ، فلا يلبث أهل الصحراء أن يكتشفوا أن الارض قد امتلأت بالاشباح التي يتناهبها السراب نهاراً ، وتتخفى في الظلمات ليلاً . يزحفون من الغرب، من ناحية البحر المحيط ، كأن الأوقيانوس المجهول هو الذي يلدهم ، كأن الاوقيانوس يلفظهم ويدفع بهم الى الصحراء مسلحين بكلمة السر . وبرغم انهم لا يأتون الا في امواج تتلاحق ، إلاّ أنهم لا يتنقلون في جماعات ، ولا يلتئمون في فرق على طريقة تجار القوافل ، ويأبون إلا أن يخرجوا فرادى . ولكن دهاتهم يعلمون أن توحدهم كاذب ، وعزلتهم مزيفة ، ورحلتهم محاصرة بالأعداء مهما اعتزلوا في الخلاء ، وسفرهم محفوف بالخطر مهما تكشفت لعيونهم الصحراء عارية من الخلق . لأنهم يعرفون أنهم واقعون تحت رقابة عيون لا تنتمي الى قبائل الجن التي تترصد كل من انتوى طلب الكنز ، ولكنهم مطاردون بقوى تفوق الجن سلطاناً وشراً ولؤماً عندما يتعلق الأمر بالبحث عن الذهب . فهم ملاحقون بذويهم من أهل الانس ، وكل مسافر من هذه الملة يقلب الآية ، ويحول ليله الى نهار ، ونهاره الى ليل، منذ أن يبدأ رحلته في طريق الصحراء . فيسهر ليله خوفاً من أن يستغفله ذوو الكيد ، فيتلقى من أيديهم طعنة غادرة وهو يغط في النوم . وهي لعبة قديمة أتقنها طلاب الكنوز حتى تحولت الى تقليد أصبح جزءاً

Twitter: @alqareah

من تراثهم . ويقال أن الكناز يلجأ الى هذه الحيلة في حالين . الاول : إذا عرف من الجواسيس (الذين يتم شراؤهم باسعار عالية قبل بدء المسيرة) أن الخصم توصل الى امتلاك نسخة أصلية من نفس الرقعة التي بحوزته ، فيصمم لإضاعة الأثر ، أن يتخلص من الخصم لإتلاف الرقعة. الحال الثاني : إذا علم الباحث (من خلال الجواسيس ايضاً) أن الخصم حاز رقعة أصلية فشل في الحصول عليها . وقتها لا بد أن يدبر مكيدة للتخلص من الخصم قبل أن يبلغ موقع الكنز . فإن لم يتمكن من طعنه بالمدية ليلاً ، سبقه الى أقرب منتجع ، وتنكر في ثياب عرّاف ، ودس له السّمّ في وجبة الطعام . وإذا لم يهتد الى نجع يستطيع الخصم أن ينزل عليه ضيفاً ، جمع في طريقه الرعاة ، واشتراهم بالمال ، كي يلعبوا دور قبيلة من الرّحل ، يستطيع المسافر أن يأمن إليها ، ويلتجيء إليها للقرى . يندس فيما بينهم ويدس له السّمّ أيضا . فإذا عجز الباحث عن العثور على الرعاة ، جد في طلب قطاع الطرق (الذين لا تخلو منهم رقعة في الارض أبداً) وأكتراهم للإغارة على الخصم ، وانتزاع الرقعة النفيسة بسلطان السلاح .

هذه الاخطار أجبرت كثيرا من الكنازين أن يخرجوا في حماية فرق كثيفة من الفرسان المدججين بالسيوف والحراب وأعواد النشاب . ولكن الكنازين لم يكونوا جميعاً ميسورين الى الحد الذي يقدمون فيه على انفاق الاموال على أوغاد لا يكتفون بما يأخذونه من أجر نظير

Twitter: @alqareah

اتعابهم ، ولكنهم يطمعون في اقتسام الثروة ، وأخذ حصتهم من التبر عند استخراج الكنز . وكثيراً ما سالت الدماء ، وزهقت الارواح ، بسبب الخلافات التي تنجم عند استخراج الكنز . هذا أجبر الكنّازين على الاعتماد على النفس ، والتصرف خلسة ، وعلى انفراد ، والتحرّك في السرّ ، عملاً بوصايا الكهنة القدامى الذين رأوا أن كل ما عُرف حلت به اللعنة ، والكنوز نفسها تتفسّخ ، ويستحيل تبرها الى تراب ورماد إذا أفشي سرّها ، وانكشفت لعيون الاغراب قبل أن ينطق فوقها بالتمائم ، ويسفح عليها دم القرابين . فآثروا العمل بوصايا الكهّان الاسلاف ، واستعانوا على مكائد الخصوم بسلاح الكتمان وحده .

هذا جعل أهل الصحراء يتشاءمون كلما بدأ الموسم ، وتدفقت الصحراء بالباحثين عن الكنوز . فيقولون أنهم لعنة تجلب على الارض البكر عللاً واوبئة لم تعرفها في تاريخها . معهم يأتي الشر والدسائس والكراهية ، والاحقاد ، فيتزعزع في الصحراء السكون ، وتفقد السكينة ، فتتنادى الرؤى السماوية ، وتهاجر . تجتمع قبائل الجن وتتشاور. تشتبك مع الأشرار في المعارك ليس حماية لثرواتها وكنوزها فحسب ، ولكنها تقاتل الغزاة دفاعاً عن وطن الرّؤى السماوية ، وإنقاذاً للبكارة الخالدة .

ويروق لبعض اهل الحكمة أن يدرج تجّار القوافل في نفس المعجم الذي تنتمي إليه ملّة الباحثين عن الكنوز . حجتهم في ذلك ما يتناقله

Twitter: @alqareah

الرواة عن القوافل من خرافات تجعلهم لا يختلفون كثيراً في مسلكهم وطباعهم عن ملّة الكنازين . فهم أيضاً يتناحرون ، ويدبرون الشرور في الخفاء ، ويكيدون لبعضهم البعض كيداً . وبرغم أنهم يجلبون بعض البضائع النادرة الى الصحراء إلا أنهم يريقون على ترابها من الدماء ، ويدخلون إلى حرمها من المكائد ، ويزرعون في أرضها من المفاسد ، ما يجعل نعمهم تتحوّل الى نقم ، ونفعهم يصير شرّاً ، وترياقهم يستحيل إلى سم زعاف .

ويقول أهل الحكمة أن الأمر لم يكن ليصير إلى هذا السوء لو لم تدخل الى الحرم الملّة الثانية الأسوأ خلقاً ، والأشرس مسلكاً : الغزاة وقطاع الطرق .

ولا أحد يعرف حتى اليوم ما الذي دفع بغزاة أبعد الامم لغزو قارة عارية من الخلاء ، وتشتيت قبائلها ، والتنكيل بأهلها ، وحرق اشجارها ، واتلاف اعشابها ، غير شهوة المخلوق القديمة في نشر الهلاك والعدوان ، ونزعته الأصيلة في تعميم الخراب . ولا أحد يعلم ماذا يمكن أن يحل بالصحراء ، وبكائنات الصحراء ، لو لم يتصد لهم الزعيم في الزمان القديم ، مستعيناً بجيوش من الجن تزلزلت بهم الجبال ، ودفعت بهم إليه الوديان والسهول ، وخرجوا من المغاور والكهوف ، وفزّوا من كل فجّ .

وكان ديناً على أهل الصحراء أن يحفظوا ، في قلوبهم ووصاياهم للأجيال ، امتنانهم لأهل الخفاء ، وهم الذين اعتادوا أن

Twitter: @alqareah

يقاوموا مثل هذه الغزوات الجنونية بالانسحاب ، وهي حيلة حربية تعلموها من الصحراء التي عودتهم أن تتولى عنهم قهر الأعادي الاغراب بالظمأ تارة ، وبالجوع أخرى ، وبالأوبئة ثالثة . ولم تسلّط على الغزاة جند الخفاء إلاّ في تلك السنوات التي تمادت فيها الجحافل الغازية ، وظلت تتدفق وتتدفق بلا توقف ما أن ذاعت في الصحراء سيرة الكنوز ، وما أن اشتم هؤلاء الأغيار رائحة التبر . وقتها استنفرت الصحراء قوى الخفاء ، واستنهضت الهمم فتدخل الجّن .

وبرغم أن الاعداء منوا بالهزيمة ، وردوا على اعقابهم ، إلاّ أنهم خلفوا وراءهم خلقاً كريهاً ، انتهك قداسة الأرض ، وسفك الدم ، ونهب الثروات ، وأباد الانعام ، وأتلف النبات ، وقطع على المسافرين طريق الاسفار . وقد مرّت بالقارة آماد شلت فيها الحركة ، وبطل فيها المسعى ، وصارت الحياة مهددة بالتوقف ، ولولا الحملات التطهيرية التي قادها الزعيم ، وتولاها جند الجن ، لتمكن الأشرار من قطع وريد الحياة ، ولحوّلوا وطن الآلهة والرؤى السماوية إلى وطن شقي من الفناء .

وإذا كان القدر قد شاء أن يجعل من الملتين السابقتين سيفاً مسلطاً على رقبة الصحراء ، وابتلاها برذائلها كقصاص على خطايا أهلها ، فإنه رأى ان يرحمها بالفئة الثالثة . جاءوا من جهات الدينونة الأربع ، ركعوا لها أرضاً . سجدوا وقبلوا التراب كما يليق بالمريد أن يفعل في حضرة الحرم . تنقلوا في سهولها بوجوم العُبّاد ، صعدوا جبالها بخشوع الزهاد ،

Twitter: @alqareah

استنشقوا زهور رتمها بلهفة المشتاق ، وتأملوا الاشارات الغامضة المرسومة فوق قلاع الترفاس بصبر العرافين ، وراقبوا الكوكب المسحور وهو يتحول بدراً وكأنهم عشّاق . لم يقتلوا الغزلان ، ولم يؤذوا إنساً ولا جاناً .

ينزلون بوجوه واجمة ، شاحبة ، صارمة ، ولكنها تتوهج بسكينة غامضة . عيونهم ترصد الآفاق المجهولة ، ولكن فيها تستقر سكينة ، وتشع بألق خفيّ . ابدانهم نحيلة ، ضامرة ، كأنها ترجمان لمعتنقهم الذي يرى في الطعام عدواً يبلّد اللّبّ ، ويفسد المزاج ، ويقسّي القلب. وهو مسلك راق للصحراويين كثيراً ، ورأوه لائقاً لعشيرة اتخذت من التجوال مذهباً ، وجعلت من الوصول الى الواحة المفقودة رسالة مقدسة. كانت هذه الملّة المدهشة تتغنى بفضائل الجوع ، وتنوح بمواويل مديح للسغب ، ولا ترى فيه أداة لتهذيب النفس وترويض نزعتها الأمارة بالسوء ، ولا وسيلة لصقل الموهبة ، أو تشذيب العقل المثقل بأوزار اللحم، المكبّل بهّم الدينونة الدنيا ، ولكنهم يرون في الصيام عن الطعام رسالة سماوية تحرّر الملاك الذي يرفرف في الصدور (كما يسمون الروح) من أغلال الأسر ، وتفتح له في الابدان البليدة آفاقاً إلى ملكوت النبوءة . والنبوءة غاية من غايات المسافر ، وشرط من شروط كل من انتوى أن يهتدي إلى الواحة المفقودة .

وبرغم تبجيل الجوع ، وعبادة الصيام الدهري من قبل هذه

Twitter: @alqareah

الطائفة إلاّ أن الصحراويين لم يتوقفوا عن استضافتهم ، ولم يكفوا عن نحر الانعام على شرفهم ، بل رأوا في هذا المسلك نبلاً وبراءة وشهامة شجعتهم لاستقبالهم بمظاهر احتفاء تفوق كثيراً المظاهر التي اعتادوا أن يقابلوا بها غيرهم من العابرين. فما أن ينادي المنادي ، ويعلن النذير عن الوصول حتى تندفع لملاقاته الجموع . يخرج الفرسان والصبيان والحسان . يتحركون عبر العراء وهم يرقصون ويغنون ويتبارون بالسّيوف . يخرجون جميعاً لأنهم تلقوا الإشارة في نداء النذير عندما نادى : «يا أهل الصحراء اسمعوا البشارة ! يا أهل الصحراء أقبل عليكم ضيف سيعقب مجيئه السيل . يا أهل الصحراء أتاكم من الممالك البعيدة مخلوق لا يطلب تبراً ، ولا يبيد حيواناً ، ولا يقطع أصل النبات . يا أهل الصحراء غنوا وابتهجوا فقد أقبل زائر قلبه في السماء وبدنه على التراب. يا أهل الصحراء : لقد رأيته بقلبي قبل أن تراه عيني . زارني في خبائي ببدن من ضياء ، وتلا فوق رأسي النبوءة . يا أهل الصحراء كونوا من القوم الاخيار وصدقوا نبوءة السيل ، لأن «آنهي» قد أخبر في أقدم الازمان أن المجهول لم يحدث أن خيب رجاء من خرج في طلب واو ، ولم يكذّب له نبوءة ..» . يتحوّل المنتجع كله إلى عاصفة من الفرح . يتم استقبال المسافر على مشارف المضارب . يقاد بالزغاريد والمواويل والاغاني الى خباء سارع بإقامته العبيد . بعدها يتحرّك لاستقباله الحكماء. يتقدمهم الزعيم ويليه كبير السحرة ، ثم طوائف العرافين

Twitter: @alqareah

والمنجمين والعطارين الأقل شأناً . يبدأ العبيد في نحر الذبائح ، وتشعل مواقد الشواء . وفيما يشرع الزعيم في محاورة المسافر بالحكم الغامضة والعبارة المستورة ، يبدأ السحرة والعرافون بحثهم عن السيل الموعود في عظام الحيوانات المنحورة . وحدث كثيراً أن اهتدوا الى نبوءات أخرى أعظم شأناً وأكبر خطراً اثناء بحثهم عن نبوءة السيل .

ويرى الحكماء أن تنحر الاضاحي احتفاء بضيف لا يأكل لحماً هي عادة ليست رذيلة . ويظنون أن الزائر خيراً يفعل إذ يسيء الظن بجوف لا يشبع فيلقمه بحبات الحصى وقطع البعر كلما طلب طعاماً ، لأن البطن لن تشبع إلا بالتراب . ويقولون أنهم يبالغون في تقديم الطعام الفاخر لا لإرضاء الجوف ، ولكن لامتاع العين . وينظرون بإعجاب الى اولئك الذين ينجحون في قمع البطن ، ويقاومون الشهوة الى المأكل اللذيذ ، ويقتاتون بخبز الشعير وحبّات التمر وكوب من لبن النوق . ويقولون أن زواراً كثيرين اعترفوا أن هذا الامتحان العسير قد قربهم اشباراً إلى الوعد ، إلى الكنز ، إلى الواحة الضائعة .

لهذه الملّة النبيلة أضاف أهل الحكمة نفراً انتموا لقبائل الجّن ، ورأوا ، لسبب أو لأخر ، أن يخرجوا إلى الضياء ، ويتنكروا في مسوح أهل الصحراء . فكانت النجوع تستقبلهم أيضاً ، ولكن دون أي ضجيج . بل يجمع الرواة أن الوجوم هو اللغة الوحيدة التي اعتاد أكابر القبيلة أن يخاطبوهم بها . فينبري السحرة لمحاورتهم بلغة الرموز .

Twitter: @alqareah

ويتبارى العرّافون ليقرأوا في عيونهم وتصرفاتهم وإيماءاتهم أسرار المجهول . وبرغم اختلاف علاقتهم بالطعام عن ملّة الباحثين عن الواحة المفقودة ، وتفضيلهم لحوم القرابين عن أي طعام آخر، إلا أنهم لم يسرفوا في المآكل ، ولم يعرفوا بالنهم، بل أن بعض أهل المعرفة يؤكد أنهم اشتهروا بالشهامة، وكثيراً ما هرعوا لمساندة الضعيف، واغنوا فقراء أفاضل إذ جاءوهم في غفلة بجرارٍ من الذهب الأبريز، ومدّوا قبائل بالجند ضد قبائل أخرى معتدية. بل لم يتأخروا عن تزويد قبائل الصحراء بأشجع المقاتلين عندما اضطرت لمحاربة قبائل معتدية تنتمي إلى أهل الخفاء انفسهم. ولا زال الصحراويون يلهجون بفضلهم في تطهير الوطن البكر من دنس الغزاة وقطاع الطرق .

(٦)

المهاجرون يولدون في الصحراء وهم يمتطون دواباً ، أو يقبلون مشيا على الاقدام . وآخرون يمشون راجلين ، ولكنهم يرافقون القوافل ، ويستعيرون منهم دواباً يركبونها بين الحين والآخر . وهؤلاء هم السحرة الجوّالون غالباً . يتنقلون برفقة التجار ، يقرأون الغيب للقبائل الشقية ، يبيعون الترياق المضاد لسموم الحيّات ومكائد النساء . يتمتمون بالتعاويذ على رؤوس المعلولين اليائسين من الشفاء ، يبيعون العقاقير ، ويبطلون مفعول كل سحر . يصنعون من معدن النحاس ذهباً مزيفاً يرشون به التجار البلهاء مقابل شراء الدابة التي يتبادلون ركوبها طوال الرحلة ، فلا

Twitter: @alqareah

يكتشف التاجر زيف العملة إلا بعد أن يكون الساحر قد تخلف في أبعد نجع . أما إذا رأى رائي القبيلة افقاً ينسد بعتمة تلاعب بها اللعوب ، وارتسمت في الأعالي غيمة الظهيرة ، فإنه يصيح بالنذير أن ينادي بالنفير . لأن عتمة الغبار لا بد أن تخفي وراءها جحفلاً من جحافل الغزاة .

فئة الافراد الراجلة وحدها تجلب الأمان . بل أنها تتجنب المرور على النجوع دائماً . وحتى إذا خرجت لاستقبالها الجموع ، واصرّت القبيلة على القيام بمراسيم الضيافة ، فإن افراد هذه الفرقة يصابون بالحرج، وتفشي عيونهم ذلك النوع من الحياء الذي يعانيه كل من انقطع عن الناس ، واعتزل في الخلاء طويلاً . ولكن هناك مخلوق واحد لا يكف عن شق الصحراء ، ولا يتوقف عن الاسفار ، لا ينتمي إلى أي ملّة من الملل ، ولا ينتسب الى أي فرقة أو طائفة .يسعى راجلاً ، وقد يمتطي جميع انواع الدواب (وإن أجمع الحكماء أن الأتان البيضاء هي دابته الأثيرة) . يتنقل وحيداً ، فلا يخلو منه مكان ، يتخفى متى شاء ، ويتبدّى متى شاء له أن يتبدّى . نال من مواهب السّحر ، واكتسب من فنون التنجيم والعرافة ، ما جعله إن غفل عنه المخلوق ، ونسى النطق بإسمه ، حضر . وإن تنبه ، ونطق بإسمه ، حضر أيضاً ، كأنه الجن ، كأنه القدر .

قبائل كثيرة ارهبتها هذه المواهب السحرية ، فرأت فيه رسولاً سماوياً جديراً بالاضاحي ، وجزءاً من تلك القوة المجهولة التي تستحق

Twitter: @alqareah

أن تتقى بالعبادة . وأكثر ما أفزع القبائل مسلكه في تقمص جلود الأفاعي ، وحيله في التنكر بالدخول في بطون الحيات . وعلّ اتقانه للمسلك السحري ، وتماديه في العاب التنكر ، وسلطانه المريب في استعارة الابدان الغريبة ، هو ما شجع أهل الخلاء أن يجعلوه في ملاحمهم وأناشيدهم ، قريناً لأحيل حيوانات البرّية ، وينصبوا «تانمضال» له شارة .

Twitter: @alqareah

١٢ - الدائرة ب

«يقال خطّ الدائرة واحد أكثر من سائر الخطوط ، لأنه خطّ تامّ فيه الكّل»

ارسطو

«ما بعد الطبيعة»

* * * *

«قيل في الخطّ غير المستدير أنه ناقص ، وقيل في المستدير أنّه تامّ ، وكذلك الأمر في الجسم المستدير وغير المستدير » .

ابن رشد

«تفسير ما بعد الطبيعة»

Twitter: @alqareah

(١)

غمر عمامته الزرقاء بالغمر . انطفأ اللسان الشقي . اختفى السائل اللعوب . تنفّس بدن المهاجر بالبخار ، وناح بفحيح الحمد والامتنان . رأى بورو قرينه المشاكس وهو يتراجع ، ويتدفق الى الوراء . اندلق على الارض . تسكع فوق فرشة الحصى . أقام فوق المسافة عرفاً سماوي اللّون . ابتدع بركة من الغمر الشفاف . صبّ فيها سيلاً من السلسبيل المبهم فتماسك فيض الماء المزيف ، وتكاثف في بحيرة كبيرة زرقاء . تقدم بورو من البحيرة ، وانتهر قرينه اللعوب بتمتمة . ثم رفع سبابة يده اليمنى وهو ما يزال يمسك بيسراه الوعاء الآخر ، ورفع سبابته في وجه السراب مهدداً . فسمع قرينه الشقي يقول :« انتظر ، لا تسبّني في سرّك حتى تدرك النوايا ، لقد سعيت أمام المهاجر فحسب . لم اصرعه ، ولم اذله . تمّرغت قدّام وجهه كي اعطيه الأمل . لو لم أهبه املاً لما وجد قوة يصل بها إليك . لقد قدته إليك . فانتظر . لا تتوعدني بسبابتك . لا تلمني، ولا تلعن قرينك في سّرك !» . ثم تناول حجراً مثلث الزوايا ، رفعه فوق الغمر بمهارة السحرة ، وشرع يخلق منه بنياناً مرصوصاً على حافة البحيرة الزرقاء . ابتسم له بورو ورجع الى ضيفه . وقف قدّام المهاجر بخشوع الكهنة . قدّم له الوعاء بوقار السحرة .

Twitter: @alqareah

تناول المسافر الوعاء بكلتا يديه أيضاً . قاوم رجفة غزت اليدين ، ثم انتقلت الى الشفتين المشققتين المتلهفتين للفوز بقطرة ندى . ولكن المهاجر أغمض عينيه ، ورأى بورو كيف يبدي الظمآن إرادة البطولة كي لا يكسر كبرياء الأكابر ويهين ناموس الحكماء . ظنه لم يخطىء إذ سمع الضيف يقول:

– على الرجل أن يتعلم كيف يتريث إذا اشتهى شيئاً أكثر مما ينبغي !

وافقه بورو بإيماءه قبل أن يتلو تميمته :

– هذا السائل ، قريني ، عطيتي ، دمي . جئت أقدمه لضيفي ومولاي . أنت أيضاً أخي ، قريني ، إذا ارتويت من مائي !

انكسر الوقار وانهار كبرياء الأكابر .

فلم ينتظر المهاجر مضيفه حتى يكمل تلاوة الشعيرة القديمة ، فاستسلم لحمى ألّمت به . انتابته رعدة عنيفة اهتز لها كل بدنه . ارتجفت يداه فاندلقت قطرات الماء على الارض . سقط على ركبتيه أرضاً ، وغمر شفتيه في الماء . لم يغمر شفتيه وحدهما . لم يخف وجهه في الماء الذي اكتسب لون الاناء وانطفأ وصار كالقصدير لوناً . ولكنه غطس في الوعاء برأسه . بلل عمامته الزرقاء حتى الاذنين ، حتى أيقن بورو أن الضيف قد نسى المراسيم النبيلة ، وخالف الوصايا الأولى ،

Twitter: @alqareah

وسلم أمره للهوى . ابتسم . ولكنه لم يشعر بحياء . لأن بورو أول من ادرك أن التائـه لـم ينكسـر أمـام الهـوى ، ولكنه أراد أن يحيا ، فهبّ للحياة. والمسافر الذي أخذ منه الظمأ يستطيع أن يركع على ركبتيه ، أو يسقط على وجهه ، أمام القطرة ، دون أن يقتـرف العـار، ودون أن يعذبـه الظن بأنـه خالف «آنهي» ، أو استهـان بناموس الأكابـر .

منذ أكثر من عامين التقى تائهاً عرّافاً في الخلاء المؤدي إلى غابة الحجارة قال أنه يئس من التنقل ، والهجرة أعيته ، فقرر أن يمضي إلى «اغرم نودادن» ويستريح . كان يترنح طوال اللقاء ، ويردد تلك اللحون الشجية التي تتغنى بها المغنيات الساحرات على مشارف المملكة كي يستدرجن العابرين . دعاه بورو إلى وجبة الغداء ، فرفض الدعوة وقال أن التائه إذا قرر أن يستريح وينزل إلى «آغرم نودادن» فلن يحتاج إلا لجرعة من الماء تبقي على قواه ليعرف السبيل ويدخل الحرم وهو يميز الضياء من الظلمات . ثم تحدث عن الظمأ كثيراً ، وأخبره أن المسافر الذي أعتاد أن يحمل زاد الماء في الاسفار ، لا بد أن يعرف الذّل ، إذا نضب الزاد ، وعانى من العطش . ينكسر مهما تحلى بالبطولة ، ومهما حاول أن يتشبه بالفرسان ، لأن من أعتاد أن يمضغ «تابا»* لا بد أن يفقد صوابه إذا افتقد العشبة . والمسافرون الذين تعودوا أن يحملوا زاداً في

(*) تابا : عشبة التّبغ .

Twitter: @alqareah

الصحراء هم أكثر الخلق تعرضاً للهلاك . أما الذين تخلّوا عن هذه الرذيلة ، وخرجوا للعراء عراة من كل حمل ، فإنهم حتى وإن عرفوا قسوة الظمأ ، إلا أنهم يحتفظون بوقارهم أمام القطرة المجيدة ، ولا ينكسرون أمام الإناء حتى لو تركته قدامهم أياماً . ولكن السّرّ لا يُدرك إلاّ بعد أن يأكل الزمان لحم المسافر وتنال الأيام منه نصيباً ، ويأتي الاوان الذي يتحرر فيه من احاسيس العار والبطولة والنبالة ، فلا يبقى لها نفس المعنى عندما يكون العابر قد قطع المسافة ، وأشرف طريق العبور على بلوغ النقطة التي بدأ منها .

ولا يلتجىء الأوائل للتقتير في الجرعة تمشياً مع النّاموس ، أو تجنباً لإصابة الظمآن بالداء ، ولكن قمعاً للإغواء ، وقتلاً للشهوة . ولا يستطيع أن ينسى ما أصابه عندما تاهت بعائره ودخلت حدود الحمادة ، فتبعها وتاه وراءها . نضب المعين ولكنه لم يترنح ، ولم يفقد إحساسه بالمكان إلا بعد أن قطع مسافة أيام كثيرة . نال منه الظمأ وبدأ يدخل مملكة أخرى ، ظلماء ، موحشة ، لا علاقة لها بمملكة الحمادة . هنا ، في المملكة الموحشة ، طلع له شبح غريب الأطوار . كان يتبدى ، ويتجسد، ثم لا يلبث أن يتبدّد ويختفي . إذا خطا نحوه ومشى إليه تقهقر وهرب ، وإذا توقف اقترب منه الشبح وتقدم إليه . اشتدت حلكة الظلمة فيئس . جلس ورفع رأسه نحو السماء . بحث عن الجلاد في عرشه فلم يبصر سوى العتمة . عاد الشبح الى الظهور ، تبـدّى على

Twitter: @alqareah

بعد خطوات . ظهر فجأة بقامة ماردة . انحنى فوقه . مد له فم القربة . تحسسها بيده فوجدها رطبة ، ندّية ، مبتلة بالحياة . لم يصدّق . ظنّها دعابة أخرى من دعابات المخلوق الخفي . قواه لم تخنه ، وعقله ما زال قادراً على التمييز بين الظلمة والضياء ، بين الليل والنهار ، بين الانس والجان ، بين الشبح والانسان . ولم يدرك أن الثقة في القوى العقلية أكثر مما يجب رذيلة من رذائل أهل الخلاء إلا فيما بعد . استجمع آخر ما تبقى في بدنه من قوة وهجم على القربة . امتص من فمها جرعة . جرعة كبيرة ، باردة ، لطعمها لذة لن ينساها مدى الحياة ، وسوف يبقى طعمها العجيب في فمه إلى الأبد ، حتى أن لعابه لا بد أن يسيل كلما استعاد لها طعماً في البال .

ولكن الشبح لم يسمح بغير تلك الجرعة ، فنشب العراك . هجم على القربة فتراجع الشبح وابتعد بها خطوتين . اندفع اليها بجنون العطشان فدفعه الشبح بمنكبه . ترنح وسقط . وما أن نهض ووقف على قدميه حتى انتهى المخلوق الغامض من احكام الرباط حول فم القربة . تقدّم وحاول أن ينتزع سير الجلد من فم القربة فتلقى لطمة قاسية على فمه . ترنح ولم يسقط . استجمع القوى مرّة أخرى ، وانقض على الخصم . صرعه أرضاً . داس على بدنه بقدميه ، وهم بأن يقضي عليه الى الابد ، ولكن الوقت لم يسعفه . كانت لهفته إلى الجرعة أقوى ، فوثب وتلقف القربة التي سقطت بجوار رأس الخصم . اخذها بكلتا

Twitter: @alqareah

يديه ، احتواها بذراعيه . ضمها إلى صدره . وبدأ يفك خيط الجلد باسنانه . و .. لم يدرك ما أصابه بعد ذلك . قبل أن يسقط ذلك الجدار الكثيف من الظلمة قدح في رأسه زند ، ومزق الشرر جدار الظلمة كما يمزق البرق زحام السحب ، ثم سمع دمدمة مثل قعقعة الرعد البعيد. واعقب ذلك سكون .

عندما عاد له الصواب وجد نفسه مرميا في العراء . موثوق اليدين والساقين . بجواره يجلس عجوز يتلهى بمضغ «تابا» . يبصق لعاب العشبة من حين لآخر ، ويبتسم بغموض طوال الوقت . وفي الحال سال لعابه ما أن استعاد طعم جرعة الماء . وبرغم انه عاد الى الصواب وقد ارتوى ، وبرغم انه لم يعجب كيف حدثت هذه الاعجوبة ، إلاّ أن حنينه لتلك الجرعة الكبيرة الباردة الخفيّة التي تلقاها من الشبح المجهول ، كان اقوى من كل شيء . أزاح العجوز اللثام عن وجنتيه وفمه فتبدّت غضون بشرته الرمادية عميقة ، سميكة ، خشنة ، كأنها لحاء الاشجار الهرمة . بصق لعاباً معتماً في أرة صغيرة وأهال عليه خليطاً من التراب الممزوج بالحصى وقطع الحجارة . أخرج من جيبه حبة نطرون . قلبها في ضوء الغسق فلمعت بفتنة التّبر . قضم منها بصوت مسموع وأعادها الى جيب جلبابه . تلذّذ بمضغها مغمض العينين . مضغها على طريقة الرعاة . فلا أحد استهوته هذه العشبة منذ دخلت الصحراء مثل الرعاة. لا أحد وجد فيها تلك المتعة المجهولة مثل الرعاة . لا أحد عرف لها سراً

Twitter: @alqareah

كما عرفه الرعاة. بصق اللعاب مرة أخرى ثم التفت إليه .سأل : «هل تريد المزيد من الماء ؟» . أومأ بورو برأسه علامة النفي . ابتسم الراعي . وشعر هو بالحرج . تهيأ له أن العجوز الغامض يعرف كل شيء ، يعرف أنه خاض شجاراً وحشياً كي يسلب القربة من يد انقذته من هلاك . تحوّل إلى حية وعض اليد التي سقته سلسبيل الحياة . منح جرعة تنزّلت من السماء فطمع وسعى للاستيلاء على القربة . ولو لم يتلق ضربة القصاص على رأسه لأباد خصمه بأظافره في سبيل نيل القربة . وها هو يعود من الغيبوبة دون أن يحس بالظمأ ودون أن يشعر بأي حاجة الى الماء . يعود ليجد نفسه مقيد اليدين والساقين ، ملقى في العراء ، فوق رأسه يتربّع عجوز خفيّ يتسلى بمضغ «تابا» ويبتسم له تلك الابتسامة الغامضة التي توحي بأنه على علم بكل شيء .

بعد صمت طويل تكلم الراعي . سأل : «أأدهشك ان تجد نفسك مقيداً أم أدهشك أنك ارتويت ؟» أومأ برأسه ، وأشار الى القيود في يديه . تظاهر العجوز بأنه لم يفهم . تعلق بأفق مغمور بضياء الغسق وقال: «لن تفلحوا ما ظننتم أن الصحراء خلقت لكم وحدكم » . بصق اللعاب . اضاف :« أراد بك إبن الخفاء خيراً فمنعك من تجرع المزيد ، ولكنك أسأت الى نفسك قبل أن تسيء اليه . نعم . أعلم أنه هو الذي قيدك حتى لا تفلت وتسيء إلى نفسك. فليس الظمآن وحده المجنون في عرف الجان ، ولكن المجنون هو الانسان . فأعلم أيضاً أنه أراد لك الحياة

Twitter: @alqareah

عندما منعك» . بصق اللعاب . زحف نحوه وفك له قيده . انطلق صوب خلاء مديد مغمور بأشعة الغسق . تابعه حتى اختفى ، فلم يعرف حتى اليوم عما إذا كان الراعي نفسه من أهل الخلاء أم من أهل الخفاء .

(٢)

بورو أراد أن يحاكي ناموس الخفاء النبيل عندما رأى أن يمنع الضيف ، فسحب من بين يديه الوعاء . سحبه بتمهل ، ووقار ، وتأنيّ أهل الخبرة الذين دربهم التجريب كيف يشدون رسن البعير في المنحدرات الوعرة وهو محمّل بالاثقال والاعباء . سحبه بسلاسة الرّحل الذين عرفوا أنهم إذا لم يسوسوا الدّابة بالرفق ، فإن أدنى خطأ في السياسة ، وأقل غفلة في التدبير ، لن تذهب بالبعير وحده ، ولن تضيع البضاعة وحدها ، ولكنها ستجر القافلة وراءها الى الهاوية ، وستجعل من الرحلة الطويلة القاسية أمثولة في بلادة الخلق وخسران السفر .

وبرغم الحكمة في المنع . برغم الرويّة في ترتيب الرفض . برغم التصبّر في الوفاء بالناموس ، إلا أن ما حدث بعدها لم يكن خرقاً للناموس فحسب ، ولا مخالفة للشرائع وحدها . ولكنه كان إخلالاً فظاً بأخلاق النبلاء ، وتشبّهاً وضيعاً بمسلك العبيد .

فما أن انتهى من سحب الوعاء ، ولامس طرف الاناء صدره حتى رأى كيف تمدّدت رقبة المسافر وسعت وراء الاناء ، وعندما يئست

Twitter: @alqareah

من إدراك الماء ، ارتفعت الى أعلى . ارتفعت ببطء ، وتمهّل ، ووقار .
كأن الضيف تعمد أن يحاكي اسلوب المضيف في أداء المراسيم . ولكن
ما رآه بورو خالف كل أمر مرسوم ، ولم يرد في أي ناموس من نواميس
الأجيال : عينان جاحظتان ، غاضبتان اختفى منهما كل سواد ، وزحف
في بياض المقلتين أحمرار عيون المجذوبين عندما يبلغ بهم الوجد مداه .
ثم بدأتا تضيقان ، وتضيقان ، وتضيقان حتى بدا له أن المجذوب قد
اغمضهما . ولكنه لم يغمضهما . بين الرموش المسبلة انبثق بصيص من
ضوء . انشقّ الجفنان المطبقان على بياض ضئيل . في الشق تبدّى البياض
كقبس بكر يمحو سلطان الظلمة بيد الفجر . بوثبة الفجر الأول . في
تلك الومضة لم يلحظ كيف بدأ التحول في وجه الضيف ، لأن لثام
الأكابر ذا اللون الأزرق انسدل على الوجنتين وكاد يستر حتيّ الفم
وربما لم يلحظ ما حدث لأنه انشدّ الى العينين ، واغفل كل عضو آخر .
ولكن ما تذكّره من المواجهة ، وكتب له القدر أن يعيش في قلبه الى
الأبد ، هو الباب الذي انفتح ما أن فتح المسافر عينيه . هو الغم العجيب
الذي انشقت عنه الصحراء ، فوجد نفسه يقف في نفس الوضع ، في
نفس موقف المواجهة ، ولكن في موقع آخر ، وفي ارض أخرى ،
وتحت سماء أخرى ، وفي زمن آخر . اختفى قرص الجلاد الابدي ،
وهربت الصحراء من الصحراء ، وتوقف تتابع الليل والنهار ، اختفى
الألق اللعوب وفقد السراب إسمه ، وتبعه الضياء لأنه لم يجد ما يفعله

Twitter: @alqareah

في خلاء خلا من البدر والشمس والنجوم ، و .. نزلت ظلمة . نفس الظلمة التي تسكب لوناً رمادياً ترى فيها الاشياء بلونها الأصلي دون أن تفهم بأي حيلة تم ذلك . وخرج من المجهول نفس الوادي المكسو بالاحراش والنباتات الرمادية . لم يلبث في الوادي هذه المّرة إلا ومضة عابرة . كما لم يسمع من مداعبات الجن في الدهليز سوى دمدمة خاطفة . نفس الكف التي خطفته من الصحراء وطوحت به في هذا الوادي الموحش انطلقت الى الأمام بجنون الريح ، بجنون الجن ، ولم تتوقف حتى ألقت به في حمى العراك ، فرأى الحسناء مرّة أخرى تتوجّع، وتسترحم الجلاد ، ولكن الكف عبرت الاستعطاف ، وتباطأت عندما تدخّل ليطلب للحسناء الرحمة ، وتوقفت الكف تماماً عندما هبّ فيه الدليل بوجه مستعار من «تانمضال» ورفع في وجهه عكاز الاطواق النحاسية بتلك الغضبة المجوسية التي تلقّى فيها الوسم على الجبين ، ليصير علامة أخرى تنضاف إلى ذلك الوسم القديم المحفور على رأسه .

ندّت عن بورو شهقة فزع . تراجع الى الوراء خطوة . خطوتين . ندّ عنه تساؤل : «انت؟» دون أن يخرج من صدره . خرج صوتاً ، همهمة ، ولكن التساؤل الذي حمّله دهشة امتدت في الزمان اجيالاً ، لم يستقم في العبارة ، والصوت لم ينتظم في الكلمة . ربما ادرك عجز العبارة عن التعبير ، وربما سلم بأنه سيبدو مضحكاً لو لجأ الى استعمال اللغة في المملكة التي هجرها الزمان ، وهربت منها الشموس والاقمار

Twitter: @alqareah

والنجوم . هنا نطق الدليل بلسان «تانمضال» ، أو نطقت «تانمضال» بلسان الدليل : «هل ظننت أنك عبرت إذ نحرت؟» . لا يدري تماماً إذا سمع العبارة بأذنيه أم انها نزلت كوحي المجذوبين في قلبه . اليقين أن العبارة بقيت معه ، عاشت في قلبه كما عاشت فيه المواجهة نفسها .

كانت العصا السرّية ما زالت مرفوعة فوق رأسه . والحق أنه لا يدري عما إذا هوت على الجبين أم لم تهو ، لأن هناك ، في الارض الأخرى ، تحت السماء الأخرى ، لا ينتاب البدن نفس الاحساس ، والوجع في وادي الظلمة لا يلبث أن يستقر في مكان آخر . وهو لا يدري أيضاً لأنه اغمض عينيه استعداداً لتلقي الجزاء ، فسمع هأ هأ ة تعقب العبارة هيء – هيء – هيء – هيء .. هأهأة لئيمة ، مكتومة ، خفية . ثم فتح عينيه فوجد الدليل ما زال يشيع العكاز في الهواء . فوق رأسه . ووجد نفسه يستعيد احساسه ، ووزنه ، وبدنه . وما أن حدث ذلك حتى تمدّدت الارض ، وعادت الصحراء الى الصحراء ، فوقها ركض السراب راقصاً ، مبتهجاً بعودة الصحراء ، بالميلاد . السماء أيضاً عادت الى السماء ، وهيأت في صدرها للجلاد عرشاً . فتقدم القرص ، واخذ مكانه على العرش . التحول نال المسافر ايضاً .

بدأ يتحرر من الجوف اللئيم ، ويستعيد هيئته الاولى .

من يديه افلت الوعاء .

Twitter: @alqareah

سقط على الارض . توقع أن يهوي التائه وراءه ليشبع نهمه . ليلعق ما تبقّى من الماء في قاع الاناء . ولكن المهاجر الذي استعاد وقاره انتصب بكبرياء الأكابر ، وتجاهل الماء الذي أريق تحت قدميه . لم يتجاهل سقطة الوعاء فقط ، ولكنه تجاهل الظمأ نفسه . كأنه لم يعرف العطش ، ولم يركع على القطرة منذ قليل . كأنه لم يركع ولم يحل فيه مخلوق آخر . كأن سلطاناً أقوى من كل السلاطين أخرج مخلوقاً من بدن وانزل في البدن مخلوقاً آخر ، كأن من هأ هأ منذ قليل وتلفظ بـ : « هل ظننت أنك عبرت إذ نحرت؟» كان مخلوقاً آخر من ملكوت آخر . أم انه حقاً من ملكوت آخر ؟ هل المسافة الفاصلة بين ملكوت الصحراء والملكوت الآخر ، البعيد ، الأبعد من البعد نفسه ، يمكن أن يقطع في رمشة العين كما قُطعت ؟ وهل يستطيع ساحر مهاجر أن يطيح بسلطان الأيام مهما أوتي من سلطان السحر بضربة واحدة ؟ ثم .. ثم ماذا أراد أن يقول بعبارته الغامضة ؟. هل وضع في يده المدية ، وأمره أن يجرها على النحر المقدس لا لكي يأخذ بيده في عبور الوادي ، الدهليز ، الظلمة ، وإنما لكي يخدعه ويشمت به ؟ هل خدعه اللئيم ملك اللؤم وسلطان الخديعة ؟ هل وعده له بالنجاة كان أكذوبة أخرى ؟ أم ..

لوح المهاجر بعصاة الاطواق النحاسية في الفضاء . رسم بها رمزاً مجهولاً أمام وجهه . إشارة خفية من إشارات السحرة ، أمسك بها بكلتا يديه. تمتم بالتمائم بلغة مجهولة ، ثم رفعها مرّة أخرى . أمسك بها

Twitter: @alqareah

من رأسها ، من عقفتها ، وأومأ بقفاها أمام وجهه . أشار الى جبينه . إلى العلامة التي تتوج جبينه . تكلم بلغة أهل الخلاء :

– ارضعتني من دمك إذ ارويتني من مائك ، فأنا قرينك بالحق . ولكن أن أكون قريناً لا يعني أن أقبل الدّين . سوف أردّ الدّين ، فأذن لي أن أمحو . دعني أريك أيها القرين ... أيها القرين ..

ردد لفظه «القرين» ثلاث مرات ، بلهجة لئيمة ، ذات معنى . ثم تقدم الى الامام . مضى في جانب الوادي الآخر حيث وقف جبارين ينتظر وصول الضيف . في قلب الوادي تشققت الارض ظمأ . تغضنت جلدتها ومزقتها التجاعيد . في العمق ، في مسافة تقترب من كوم تراب استقدمته طلحة لتحمي به جذعها ، وتصنع منه سداً يحصنها ضد غارات القبلى وعدوان السيول ، توقف . توقف بجوار جدائل طويلة احتفظت بالنضارة برغم الجفاف. تمتد وتتمدد مع امتداد العراء . تلتصق بالأرض الى مسافات طويلة . تفتّش عن النداوة . . تطلب الماء . تبحث عن الظل . تستجير من نار السماوات بحمّى الاحراش الميتة . وبرغم اللهفة ، برغم حمّى الحنين ، برغم الولولة والاستنفار ، برغم القيامة التي ملأت بها النبتة قعر الوادي ، إلا أنها كانت أوفر النباتات حظاً في النجاة. أكثر الاعشاب فوزاً بالنضارة والحياة . بل ربما عاد الفضل في الفوز الى هذه القيامة نفسها . فحتى الصحراء ، حتى الخلاء الميت ، يتخلى عن النبات الذي استسلم للمصير ، ورضى بالهلاك قدراً ، وتهب لنجدة كل

Twitter: @alqareah

عشبة جعلت من المقاومة سبيلاً . ويبدو أن هذه الشريعة ليست ناموساً استعارته الصحراء من الخلق ، ولكنه الناموس الخفي للاشياء . استعاره الخلق من الصحراء . تعلقت بضفائر النبتة الثمار . كرات في حجم بيض النعام . بعضها احتفظ بالاخضرار ، وكرات أخرى شحبت ، واصفرت وسرى اليها الذبول . جسم مدور وغامض ككل الاجسام الخفية التي تنكفىء على نفسها وتحتفظ بسرّها في جوفها . بلى . بلى . هذا هو سر جلالها ونبلها وقداستها . الانكفاء الى الداخل . الالتفاف الى الجوف . العودة الى الينابيع . إنها لا تبحث عن السرّ خارج نفسها كما تفعل الاجسام الاخرى ، الاجسام البلهاء ، اللامعة ، التي تستنزف نفسها في المحيط الخارجي ، إنها تلتف حول نفسها كالحية ، تستدير كالقنفذ لتصنع من بدنها الكمال . هنا الفتنة . الكائنات المستديرة تستهوي لهذا السبب . تستهوي لأنها تكتفي بنفسها ، ولا تطلب شيئاً خارج الدائرة . وسر غموضها ، سرّ حكمتها يكمن في الانكفاء . هكذا هي الشمس ، هكذا هي السماء ، هكذا هو البدر . وتمائم السحرة، والحية . والترفاس والقنفذ والنبوءة . وإدبني والكنز . والافق الصحراوي، والصحراء نفسها . نعم . هكذا هي الصحراء نفسها . وكرة الحنظل في الوادي لا بد أن تستثمر الجوار ، وتستمد السرّ من الخلاء . ولا بد أن تنام في جوفها على سرّ . ها هو المسافر يخطو نحوها ليقرأ رموز التميمة ، ويكتشف النبوءة . وها هي الكرة تحاكي الكائنات

Twitter: @alqareah

المستديرة وتتكور على نفسها . ها هي تشد القوس وتتوغل في المجهول . ها هي تبدأ الرحلة من المملكة الاخرى ، من الارض الأخرى التي تسبق البداية ، لتبلغ مطافاً يعود بها الى نفس الملكوت في النهاية . فما دامت الارض التي تسبق البداية هي نفس الارض التي تعقب النهاية ، فإن البُلغة حق ، والوصول يقين في المنتهى . والمسافة بين المملكتين لا بد أن تسلك طريقاً دائرياً .

فمن غير الساحر يستطيع أن يعاند الرموز ، ويقرأ النبوءة ، ويفهم المسلك ، ويفك الطلسم في الجسم المدور ؟

من غير الساحر يستطيع أن يستخرج الكنز من كرة العلقم ؟

Twitter: @alqareah

١٣ - القران

نَكَ أمان

نك الهين

نك تزوليت

نك آمَضَال

نك ، كيّونان ، إيلَلْ *

«أغنية بورو»

---

* أنا الماء

أنا الجان

أنا المعدن

أنا التراب

أنا ، هو انت ، أيها السّراب !

Twitter: @alqareah

(١)

انحنى فوق كرة اصغر حجماً من جاراتها .اختلط في بدنها اللون الأخضر باللون الاصفر . فوقها ارتسمت خطوط كثيرة ، كثيفة ، متداخلة . رفعها المهاجر عن الارض . تركها معلقة في الجديلة الأم ، وطفق يقلبها بين يديه . شيعها الى أعلى فغمرها فيض النار . تركها تحجب عنه عين الشمس . اغمض عيناً وراقبها بعين واحدة . ثم انزلها وعاد يقلبها بين يديه . تأمل الرموز المخطوطة على جلدها . انهمك في القراءة . غاب في السماء الأخرى ، والأرض الاخرى ، حتى تراءى لبورو عرّافاً يتوغل في الملكوت ويقرأ النبوءة في عظام الأضحية . اخيراً انزل الكرة الفاتنة على الارض . مسح عنها طيناً علق بها ، وأعادها إلى حضن الأم الممدّدة على التراب . قال :

– لا أريد أن اخطىء . لا أريد أن اسقي قريني سُمّاً بدل البلسم .

اقترب بورو :

– لا أفهم قريني ، لم أفهم لغة مولاي !

– إذا كان الحنظل ذكراً فهو ترياق العلّة ، وإذا كانت الكرة الخفية أنثى فهي سم وداء !

– حقاً ؟

Twitter: @alqareah

– الانثى قاتلة حتى لو اختبأت في كرة علقم !

– حقا ؟ ولكن كيف استطاع مولاي أن يعرف الذكر من الانثى في كرة لها نفس البدن واللون والحجم ؟

– هذه حرفتي .

– هل قريني الجليل عطّار ؟

– إذا انصرف المخلوق الى التجوال فإن التفريق بين ذكر الحنظل من انثاه هو أيسر ما يمكنه أن يعرف دون أن يكون في حاجة الى احتراف مهنة العطار .

– فهمت . ضيفي عرّاف . هذه لغة أهل السّحر .

– هيء – هيء – هيء ..

ثم انتصب وهدّد بورو بسبابته :

– يجدر بك أن تحترس . الانثى سمّ ، الانثى في كرة الحنظل أيضاً سمّ وعلّة !

انحنى على جديلة أخرى . اختار كرة تجاور عشبة مجهولة أماتها العطش . قلّبها بين يديه . في بدنها أيضاً اختلط اللون الاخضر باللون الاصفر . عليها ارتسمت نفس الشبكة من الخطوط . غمرها في فيض النار أيضا . أغمض عيناً وراقب الرموز بالعين الأخرى كما فعل في

Twitter: @alqareah

المرّة الاولى . انزلها وانكبّ عليها . غاب في الارض الأخرى . دخل المملكة . نال الالهام . عاد بالنبوءة . قال :

– هذه ! هذه كرة الترياق !

قطع القطعة من أصل جديلة الأم بعناية قابلة ماهرة تقطع حبل الحياة السّري لتستقبل الجنين ، وتحرّر المولود من الرّحم . سعى في الوادي محني الهامة. وجد لوحاً حجريا غمرته السيول الفائتة بالوقش وقش الأحراش . وضع فوقه الكرة بحرص . انكب عليها كأنه يعاود قراءة المخطوط . ثم فلقها الى نصفين بضربة واحدة من العكاز . انحنى على القمقم المشطور الى ضلفتين متساويتين تتعلق حبات البذار بجوفيهما المكشوفين على فيض النهار . أشار له بيده أن يقترب دون أن يرفع رأسه عن الكنز ، كأنه خشي إذا غفل عنه ، أن يصيبه السوء ، أو يمسخه أهل الخفاء الى رماد كما تعوّدوا أن يفعلوا مع كنوز التبر . وعندما أقترب بورو ووقف فوق القمقم المشطور كان السّاحر ما زال منهمكاً في قراءة التعاويذ المجهولة . تفقد الكرة فوجد المحيط الدائري قد انتهك وانفتح الجوف الخفي عن شريحتين ناصعتين من شحم تخللته بذور النبتة السرية . فأين السّر المستتر ؟ أين تلك الفتنة التي تحلت بها الحنظلة عندما كانت كرة دائرية مستديرة ، مدورة ؟ أين الإغواء الذي يحيط بمحيطها عندما كانت نبوءة غامضة تسكن وطناً إسمه المجهول ؟ أين نبل الزعماء في مسلكها ؟ أين القداسة في مراسمها ؟ أين الكمال

Twitter: @alqareah

السماوي في صمتها ؟ أين الحكمة في لغتها ؟ أين **الإله** في لا مبالاتها ؟ أين اختفت الهالة ؟ إلى أين سار الساهور ؟

ولكن الكرة ظلت تستلقي فوق اللوح الحجري باسترخاء عذراء انتهكت وفقدت بكارتها . تستلقي عارية الجسد ، صدرها مفتوح على سماء ينتصب فيها قرص الجلاد سلطاناً ، فخذتاها منفرجتان ، مكشوفتان على امتداد الفضاء ، فتوحي المذبحة بالبلادة ، واليأس ، والباطل .

ويبدو أن الساحر الذي لا تخفى عليه خافية ادرك خيبة بورو فبحث له عن العزاء :

- كل شيء خرج من السّر ودخل دائرة الخلق وعرفته المخلوقات بطل وهزل وصار الى زوال . هذا مبدأ السحر الاوّل .

مضى بورو يتأمل الذبيحة ، يبحث عن السّر الضائع في القربان فلم يستجب للعزاء ، اضاف الساحر :

- يخطىء السحرة الذين يظنون أن العين تصيب بالسوء لأن شرها أكثر من باقي اعضاء الانسان ، ولكن السّر ليس في الشرّ ، ولكن السّر في المعرفة ! فكل ما خرج من وطنه في السّر ، في البعيد البعيد ، في المملكة الاخرى ، ودخل الى دائرة الضياء التي يسطع فيها كوكب الشمس وتتسلط فيها عيون الخلق ، أصيب بوباء **الباطل** ، وعانى من

Twitter: @alqareah

داء **الزوال** . فهل تطلب من الصبية العذراء أن تعطيك من نظرتها نفس البراءة التي وهبتها لك قبل أن تفقد عذريتها ؟ انت تخالف الناموس إن طلبت ذلك . تخالف ناموس السحر ، وناموس الصحراء .

انتصب واستقام . علّق عكازه على منكبه الأيمن . تنفس بارتياح. قال وهو يتابع فراغ العراء :

– هذا حال الكرة ايضاً . حال كل الدوائر المسكونة بالسّر الأول.

سحب نفساً عميقاً . عاد من رحلته في الافق المغمور بلعاب السائل اللعوب . التفت الى بورو وألقى بالأمر :

– اقترب ! لو اصابت كل المخلوقات علّة لمجرّد أنهم عرفوا سر الدوائر عند خروجها من الوطن ، لما قضى أحد في الصحراء حاجة !

(٢)

وطأ المواقد كثيراً ، وداس الجمر مراراً ، وذاقت النار منه اليد والقدم والشفة ، ولكنه لم يذق ناراً أقسى من نار الكرة . من نار الخفاء . من نار العلقم !

الوجع في النار يصيب العضو الذي احترق ، ولا ينتقل إلى باقي الأعضاء قبل أن يصير مسّاً يصيب الرأس . بعدها تبرأ الآلام . أمّا نار الحنظل فهي مسّ منذ البدء ، تشتعل في الرأس كشرَر البروق ،

Twitter: @alqareah

فيستجيب البدن كله بالاوجاع . سمع عن قساوة العلقم من الرعاة ومن العطارين ، ومن السحرة العابرين ، فظن دائماً أنها قساوة تصيب من تجاسر وتناول النبتة في الجوف . فالسحر إذا طال به الزمان ، فإنه يحيا ويتحول الى علّة ، إلى حية تسعى في بطن المخلوق ، ولا تخرج من الجحر إلا بحريق أقوى ، بقوة أقوى ، بسم أقوى مرتين من السم الذي تنفثه في جوف البدن . والناموس الضائع يقول أن الشفاء من الداء القديم كالمجد لا يُنال إلا اذا زهد المخلوق في روحه وارتضى لنفسه الفناء. وقول القدماء : «آيرن تامولي يمتيت»* يصلح لأن يقال عن العلل أيضاً . ولكنه لم يظن يوماً أن تتساوى ملامسة العلقم بعقب القدم أم بطرف اللسان . بل ما شعر به ، عندما حشا له قرينه السّاحر قدمه في بطن الكرة المشطورة ، كان أقسى من ابتلاع جمرة ملتهبة رأى أن يجربها مرّة عندما انقطع في الخلاء طلبا لبعير ضال ، فقابل مهاجراً غامضاً ظل يتسلى بابتلاع قطع من الجمر الاحمر طوال جلستهما الليلية حول النار . وقد أراد ان يحاكيه في غفلة منه ، فانتظر حتى خرج المهاجر الى العراء لقضاء حاجته فتناول قطعة جذابة ، متوسطة الحجم ، ظلت تلمع في الظلمة بوميض مغرٍ كذرات التبر ، فالتقمها . القاها في فمه فهب كالملدوغ . لم يحتملها في الفم فابتلعها . لم يحتملها في حلقه فدفعها باللعاب الى اسفل . إلى الجوف . نزلت كنصل السكين . نحرت باطن

(*) «من أراد نيل المجد فليمت» (حكمة منقولة عن آنهي) .

Twitter: @alqareah

النحر وجرت الى الأمام . لم يحتمل النزيف ففزّ وركض في الخلاء . ركض طويلاً ، طويلاً . وعندما أعياه الركض وانطفأ الحريق في جوفه سقط على وجهه وحاول أن يتبين ضجيجاً طارده طوال الوقت . تصنت فسمع القهقهة تقترب ، وتقترب ، وتقترب . ادركه المهاجر وهو ما يزال يحاول أن ينتهي من ربط تكة سرواله الفضفاض . ويبدو انه انطلق وراءه قبل أن يفرغ من قضاء حاجته . وها هو يجلجل بالضحك فوق رأسه بأعلى صوت . ضحك طويلاً ، ثم .. ثم اختفى . ولم يدرك سرّه إلا عقب اختفائه المريب . عرف انه معتوه من قبائل الخفاء اضطرته الوحشة أن يبحث عن تسلية فلم يجد أحداً يهزأ به غيره .

وبرغم أنه ظل يتقيأ الدّم بعد ذلك أياماً ، إلا أنه يستطيع أن يجزم الآن ، وهو يقف فوق احشاء الكرة الخفية ، أن الوجع الذي يشتعل في بدنه الآن اقسى من الالم الذي انتابه عندما ابتلع قطعة الجمر بما لا يقاس . فأي سر في العلقم ؟ أي سرّ في الكرة ؟ أي عناء كتب عليه أن يعيش في سبيل الشفاء من خدش عابر على الجبين ؟

لم يكن يدري أن عليه أن يتريّث كي يعلم أن السّر في مكان آخر .

(٣)

نزّ منه العرق في خيوط بللت ثيابه كلها . تفصّد العرق من رأسه ، من الشعيرات ، ونزل على صدغيه وجبينه ورقبته . غمر عينيه وفمه

Twitter: @alqareah

وسار الى اسفل . أحس ببدنه يفور ، ويغلي ، ويحترق . نار الخلاء كلها انتقلت الى جسده ، وسكنت اطرافه . الحريق الأعلى الذي اشعله القرص الجلاد في السماوات ، سكبه على الصحراء ، وجعله يسكن بدنه . حلقه جفّ ، وجوفه تيّبس . وفمه امتلأ مرارة لم يعرف لها طعماً قبل اليوم . مرارة اماتت اللسان ، وامتصت اللعاب ، وحرقت الحلق ، وافقدته حاسة التذوق . همّ بأن يتكلم فاسكته الساحر بإشارة من عكازه. زحفت نحوه الظلمة ، وتراءى له الدهليز الموحش . فقد التوازن ، فترنّح ، وكاد يسقط ، فاسنده القرين بمنكبه . فتح عينيه ، ولكن الظلمات تضاعفت ، وازدادت كثافة . همهم الجن في سقف الدهليز ، وند عن الجدران أنين فاجع . في الافق البعيد ، في مكان ما ، تبدّت بقعة الضياء . الحسناء أيضاً خرجت الى الوجود . وقبل أن تبدأ مراسم العذاب، ويرى الحسناء وهي تتوجّع تحت ضربات القصبة المطوقة بالنحاس ، سمع قرينه يقول :

– هل ظننت الشفاء من إصابة العصا أمراً سهلاً ؟

ظن أنه لن يقدر على الكلام . ظن أن الترياق افقده النطق الى الابد ، فتعجب كثيراً وهو يسمع نفسه يقول :

– أصبت في حياتي بما هو اسوأ من العصا إصابات بعدد شعيرات رأسي ، وشفيت في أيام وليال دون أن احتاج إلى هذا العذاب .

Twitter: @alqareah

– تلك إصابات لم تكن بالعصا .

غمغم بضيق :

– لم أفهم ..

– تلك لم تكن عصا الخيزران . السر في العصا .

– بالحق ؟

– سوف أشرح لك عندما انتهي من القران !

– القران ؟

لم يجب الساحر على التساؤل .

عادت الظلمة تتكاثف . ضاق الدهليز السفلي . اتسعت بقعة الضوء قليلاً . نزلت العصا ، تلقت الحسناء أول ضربة ، توقع أن يسمع انين الوجع ، ولكن العكس هو الذي حدث . قهقهت الحسناء بأعلى صوت . وكلما تلقت ضربة جديدة كلما علا صدرها النافر بالقهقهات.

قهقهات وقحة ، كريهة ، منكرة ، لا تليق بحسناء .

تكلّم القرين مرة أخرى :

– انت اغضبتني . لو لم تغضبني لما نلت الأذى . ما كان ينبغي أن تغضبني !

– الأذى ؟

Twitter: @alqareah

– ضربة العصا . الجرح في الجبين .

– لم افعل شيئاً يستحق القصاص . طلبت إنزال الرحمة بالحسناء.

– هذه خطيئة !

– خطيئة ؟ هيهات أن تدخل لغة السحرة الى رأس الرعيان !

– تدخّلك كاد يفسد كل شيء .

– يفسد كل شيء ؟ هيهات أن تدخل لغة السحرة إلى رأس الرعيان !

– لاستخراج الكنز ناموسه كما يمتلك اصطياد الغزلان ناموساً .

– فلتعاقبني الصحراء إذا رأيت أن أخالف ناموساً من النواميس .

– طلب الشفاعة للحسناء خطيئة كان يمكن أن تهلكنا .

– اعترف لمولاي أني لم أعرف .

– الفوز بالكنوز مجازفة كبيرة . كبيرة جداً .

– اعترف للقرين الجليل أني لم أعرف .

– انتظر . انتظر حتى ننتهي .

بدأت الظلمات تتراجع ، وتنقشع . ولكن بقعة الضوء لم تتسع .

Twitter: @alqareah

بقيت نقطة جذابة معلّقة في الافق ، ظلت تبعث ضياء شاحباً كضياء القمر ، ولكنها لم تختف ، ولم تذب في الفيض الذي غمر الظلمات . تضاءلت الحسناء وتضاءلت . فقدت بدنها الفتان واكتسبت بدناً آخر يلتصق بالأرض ، ويبدو أكثر فتنة . فقدت اطرافها البلهاء ولملمت نفسها في بدن واحد طويل ، مرن ، املس ، لا رأس له ولا رجل ولا يد ولا عظام . يتلوى حول نفسه ويتكوّم . يفز إلى أعلى ، ويغوص في الاسفل. يقفز في الهواء بوثبات بارعة ، ويتخذ من التراب بحيرة للاستحمام والسباحة . رآها ايضاً تبتسم له ابتسامة اللؤم والفتنة والاغواء ، ثم تشطر لسانها الى نصفين ، قبل أن تبدأ رحلة أخرى مجهولة في جوف العصا المجهولة . أحس بالدوار فهرع إليه قرينه السراب . رفعه الى العلى بسلطان مارد . سافر به في الفضاء حتى فقد وزنه . طاف به أرضاً أخرى ، تتمدد تحت سماء أخرى ، ودخل به واحة ترقد على سيوف من المياه الزرقاء . تنبت فيها بساتين لم يرها حتى في تارات زمن التحريم . في البساتين رأى كيف تتداخل الانعام مع انصاب الحجارة ، والمخلوقات تتقمص اطياف الجن وتستعير ابدان الطير واجسام الزواحف . اثاره القران ، وراقت له التحولات . نزل الى «واو» كي يعرف السر ، ويجرب التحول . دخل البستان فتلذّذ بعبير الرّتم . سار خطوات أخرى فوجد نفسه في دغل من شجيرات الفصيص . التقط ثمرة ترفاس شقّت الارض وبرزت الى النور . كانت من النوع الابيض ، الفتّان .

Twitter: @alqareah

تمتع برائحتها وداعبها بين يديه ، ونفض عنها ذرات الطين ، ثم نهشها . نهش منها قطعة نيئة ، صغيرة . أحس بانتشاء يفوق الانتشاء الأبله الذي يعبده الرجال عندما يستسلمون للنساء . في تلك الومضة اعترضته احراش القصب ، فزحف على بطنه كي يجتاز الدغل . تحول الى حية وانساب بين اعواد الخيزران الناشيء ، أحسّ بالسعادة فابتسم بشقاوة ..

(٤)

كان الساحر ما يزال يسلط عكازه الخفي على الجرح عندم تراجعت الحمى وعاد إلى نفسه ، الى الصحراء ، الى الحياة . تكلم المهاجر بالبشارة :

– الآن استطيع أن أقول أني رددت الدّين وساعدت قريني في أن يشفى من لدغة الحية .

– لدغة الحية ؟

جلسا بجوار اللوح الحجري . اقترب الساحر من كرة العلقم المشطورة . تفقدها بالعكاز . استحال جوفها الناصع الى لون كئيب في سواد الفحم . تمتم:

– السّمّ !

قال بورو وهو يتحسس جبينه الذي اختفى منه الجرح :

– ولكني لا اذكر أن حية لدغتني .

Twitter: @alqareah

ابتسم الساحر . قلب العصا بين يديه . لمعت الاطواق تحت اشعة الجلاد الأبدي . قال :

- إذا أصابتك العصا فقد لدغتك الحية . هذا سرّ القران !

تقدم نحوه خطوة . انحنى فوق رأسه ، حدّق في عينيه فتذكر بورو هاتين العينين . تذكرّهما حالاً . هما نفس العينان اللتان رآهما في الحيّة المرسومة على جدار الاسلاف . الحية العظيمة التي تنتصب على الصلّد وتومىء الى الغروب ، نحو الكنز . استولت عليه قشعريرة واحس بخطر الحمى من جديد . ولكن الساحر ضيّق عينيه فخبا فيهما البريق الغامض . قال :

- من اليوم أنا هو انت ، والحية الحسناء ثالثتنا . الحية الحسناء ، بورو ، وانتهيط . القران لن يتم اذا لم يكتمل في الثالوث . وللدائرة يروق الانكفاء على المثلث كما يروق لها أن تحتوي التقاطع .

انتصب واقفاً مره أخرى . رفع عمامته الزرقاء الى أعلى ، اضاف كأنه يخاطب الشمس .

- ولكن الناموس قضى الا تصيب حية بأذى بعد اليوم .

نطق بالنبوءة بجلال يليق بالنبوءة ، ثم اعقب النبوءة بنبوءة أخرى:

- إذا خنت العهد فلا تلومنّ إلا نفسك !

Twitter: @alqareah

١٤ - الظل*

" HORRIDAS NOSTRAE MENTIS PURGA TENEBRAS, ACCENDE LUMEN SENSIBIS" (*)

***

« ما نحن إلاّ ظلال تثقل كاهل الأرض »

ديوغين (الكلبي)

بيت من قصيدة مفقودة

***

« ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّل .. »

القرآن الكريم

---

* « اللّهم أجرنا من الظلال الفظيعة ، واوقد النور في افكارنا » (نص لا تيني لكيميائي من القرون الوسطى) .

Twitter: @alqareah

(١)

انتابت بورو الحمّى قبل أن يبلغا الطلحة المجاورة للجلمود المقدّس.

اعترضتهما أكمة موحشة من النوع الذي يتخذه الجنّ وطناً ، ولا يقترب منه صحراوي دون أن يتخلّى عن كل شيء ويغرق في تلاوة التعاويذ . فوق الأكمة انتصبت أثلة هرمة ، بجذعها السّمين أحاطت طبقات من اللّحاء ، الاعراف فقدت اوراقها فتساقطت إلى الأسفل ، وتجمّعت عند الجذع القديم بعد أن امتصّت كل ذرّة ملح جادت بها الأرض المجاورة . اختطفت حتى الأملاح التي طاف بها الريح ، أو أقبل بها القبلي من الاوطان البعيدة . استولت حتى على الكمّ الزهيد من الملح الذي يتنفّس به الهواء . فالأثل هو صياد الملح ، ومصاص كل ملوحة في الصحراء . والجن الذين اجمع السحرة انهم افتقدوا الملح في بلادهم الخفية ، لم يجدوا منجماً يمدهم بحاجتهم الخالدة منه ، فالتجأوا إليه واتخذوه معقلاً . وبرغم أن الصحراويين لم يدركوا سبب اللعنة التي حرمت جيرانهم في الخفاء من نعمة الملح ، إلا أنهم رووا أساطير كثيرة لا تحاول أن تجد تفسيراً لهذه اللعنة بقدر ما تسهب في ذكر الوقائع التي تؤكّدها . فلم يحدث أن نزل مخلوق انتمى لعشيرة الخلاء على منتجع أهل الخفاء وقُدّم له طعام من اطعمتهم الشهيّة إلاّ وخلا من الملح .

Twitter: @alqareah

حتى أصبح خلو الطعام من الملح هو العلامة الوحيدة التي تميّز قبائل الخلاء عن قبائل الخفاء . ويستطيع الضيف أن يعرف بها إلى أيّ فئة ينتمي المنتجع الذي نزل عليه ضيفاً ، هل هو من أهل الخلاء أم من أهل الخفاء ؟ . وكان الاعتقاد الذي ساد الصحراء في زمان «آنهي» الضائع ، أن الجّن امتنعوا عن استخدام الملح لعلّة في طبيعتها ، وتحدّث الأوائل عن هذه العلّة طويلاً ، وفي أكثر من وصيّة ، ولكن الذي ثبت فيما بعد أن أهل الخفاء لم يمتنعوا عن تعاطي الملح في اطعمتهم (التي تفوق في لذتها اطعمة أهل الخلاء بما لا يقاس) حرصاً على العافية ، ومراعاة للحميّة ، وزهداً في طيب المأكل (الذي لن يكون طيباً ولا شهياً بدون هذه المادّة السريّة) ، ولكن اطعمتهم خلت منها لأنهم افتقدوها وضلّوا الطريق إلى مناجمها كما ضلّتها قبائل صحراويّة كثيرة ظلّت تقايض القوافل بكل ما تملك مقابل أن تنال حفنة واحدة من التربة السحريّة . ويقال أن اللعنة التي حرمتهم من هذه النعمة انزلها على رؤوسهم الزعيم من عليائه في قمم «تارات» وذلك إثر غضبة من غضباته المجوسية التي كانت تنتابه لأسباب أرجعها البعض إلى داء السويداء ، وأرجعها آخرون إلى المحنة التي تعقب نفاد «آسيار» في مواسم الجفاف .

ومهما كانت الأسباب إلا أن المؤكد أن مملكة الخفاء خلت من كنوز الملح ، ولهذا السبب طلبوه في اشجار الأثل . ومع تدّفق الأيام استولوا على الشجرة ، وجعلوا منها وطناً . ولم يكن غريباً أن يصاب

Twitter: @alqareah

بورو بالحمّى عند الأكمة التي تنتصب على رأسها الأثلة الهرمة حرساً . لأن العقل يقول أن الشجرة التي نذرت نفسها لاستجلاب كنوز الملح من أبعد الممالك وأعمق الامكنة لابد أن يقف على رأسها الجن عسساً أيضاً كما تقف هي عسّاساً على كنزها النفيس .

فهل داس بورو على قدم أحد العسس ، واستفزّ مارداً من قبيلة الخفاء حتى يتعّرض لاعتداء جديد ؟ .

(٢)

الحمّى أيضاً سلالات وعشائر ، ومنازل .

حمّى تنتمي إلى سلالة الوجد يغذيها الغناء ، وتثيرها أشجان اللحون يطير فيها المجذوب . تَعِد بالخروج إلى مملكة الواحة ، ولكن العصفور لا يتخلّص من القفص ، ولا يجتاز الحدود ، ولا يعبر إلى الصحراء الاخرى التي تظلّلها السماء الأخرى . ولكنها حمّى نبيلة . تمنح العزاء ، وتساعد على إتمام القران . وحمّى تنتمي في الأصل إلى الاحزان . الهّم لها وقود . والسكون فيها لغة. وقساوة الوجه تعبيرها الذي يصلح القلوب ، ويمحو الوجع من افئدة العشاق . وحمّى أخرى ليست بنت بيتها ، يُرجعها أهل الحكمة والعرافة إلى اصل أبعد مجالاً من الأرض ، يخرج في حدّه من مملكة الصحراء . فشدّد العرّافون على صلتها بالأعالي كثيراً . بعضهم قال أنها مستعارة من برج عطارد المسمّى

Twitter: @alqareah

في معجمهم بـ « كوكب النّحس » ، والبعض الآخر أكّد على علاقتها بكوكب الزهرة ، وفريق ثالث زعم أنها تستمد سرّها من القمر عندما ينتقّل في منازله ويصير بدراً . ومهما اختلف العرافون والمنجّمون وأهل الحكمة حول وطنها ، إلاّ أن أجماعهم على هويتها المستعارة من الأكوان الخفيّة هو يقين . هذا اليقين لم يعطها القداسة فقط ، ولم يحطها بمراسم الإجلال فحسب ، ولكنه جعل لها رهبة في قلوب الأغراب كما جعل لها لهفة في افئدة العشاق .

بها يعترف الزعماء ، وينحني أمامها السحرة والأكابر . فهذه العشيرة المهيبة (عشيرة الزعماء والسحرة والأكابر) لا تعترف بالصغائر، ولا تولي اهتماماً بالشئون الارضية ، ولا تنحني إلاّ أمام الرّؤى السماويّة ، والنبوءات المنزّلة ، ولا ترتضي أن تقبل في مجلسها مخلوقاً لم تفتح له «واو» ابوابها ، ولا تستقبل في المجمع من لم يدرك السّر ، ولم يسقط صريع الحمّى ذات البروج .

وإذا اختارت الارادة الخفيّة مخلوقاً ، وخصتّه بنوبة حمّى من هذه الفئة، انقلبت الحياة في المضارب : تزغرد الصبايا في المروج ، تغنّي الحسان لحون الشجن . تعزف الشاعرة على «إمزاد» اشعار الحنين تتراقص النساء حول مواقد النيران ، ترشو العجائز الصبيان بقطع التّمركي يركضوا بالبشارة إلى مجمع الحكماء . يتلقّى الحكماء البشارة. يتقاطرون إلى خيمة الاجتماع . يأمرون بنحر القرابين .

Twitter: @alqareah

يستدعون الفرسان الاشدّاء . يأمرونهم بأن يأتوا بالمحموم مقيّداً . يأتي الفرسان بالمحموم مقيّداً من يديه ورجليه . يلقون به في زاوية الخباء ويخرجون . لأن الشريعة تقول أن المحموم للمجمع وحده لا يشاركه فيه أحد . يختلي به الحكماء طوال الليل دون أن يعلم أحد في القبيلة شيئاً عن طبيعة هذه الخلوة . البعض يقول أنهم يبدأون في استنطاقه ومساءلته عن السماء الأخرى التي تنام تحت ملكوتها صحراء أخرى . يبدأ الزعيم بالمساءلة ، ثم يليه السّحرة ، ثم الأكابر . وآخرون يؤكدون أنهم يتخذونه لوحاً يستقون منه النبؤات وأنباء السيول ، واهوال الجدب والأوبئة . وفريق ثالث يدّعي أن كل الأخبار التي تناقلتها الأجيال عن «واو» الضائعة إنما انتزعت من أفواه المحمومين . ويذهب آخرون إلى أبعد فيقولون أن ما ورد في «آنهي» الضائع أيضاً أُلتقط من ألسنة المصابين بهذه الفئة من الحمّى التي اطلقوا عليها فيما بعد إسم «حمّى الخروج» .

ومهما اختلفت الاقوال ، وتناقضت الآراء ، إلاّ أن سرّها بقى مجهولاً ، كما بقيت مراسم الاستنطاق نفسها سرّاً آخر ظلّ حكراً على الزعماء والكهنة وأهل السّحر .

(٣)

تحت الأثلة سقط بورو . تدحرج خطوات على الرمضاء . بدأ يتلوّى وينفث الزّبد . سفح عرقاً غزيراً . أُصاب ثوبه بالبلل . ظلّ ينتفض ويتلوّى ويرتجف . ثم .. ثم فزّ فجأة . قفز وتعلّق برقبة الساحر . دارت

Twitter: @alqareah

مقلتاه في محجريهما وغاب منهما السّواد . أمسك بقلادة التمائم المعلقة في رقبة المسافر . غمغم بكلام مبهم . ندّت عنه صيحة مكتومة . ولكنه استطاع أن يجد طريقه إلى اللغة أخيراً :

– اصدقني القول : لماذا وضعت في يدي المديّة وأمرتني أن أجّرها على النّحر ؟

لم يصب الساحر العجب . لم يدفع عن نفسه المحموم ، لم يدافع عن نفسه . وضع يده في كمّه بتمّهل الكهنة . أخرج مدية فظيعة مدسوسة في غمد موسوم بالتعاويذ ، ومرسوم بالرموز والتمائم . جرّدها من الغمد فلمع نصلها في الفيض المنهمر . نطق بحكمة الأوائل :

– ما يفيد المخلوق أن يعلم أمراً إن علمه أصابه بالهّم والسوء ؟

اشتدّت الرجفة في بدن المحموم . اهتزّ وارتج فانتقلت رجفته إلى السّاحر. أجاب المحموم وهو يقذف بالألفاظ مع قطع الزّبد :

– الهّم أصابني يوم فقدت المخلوق الوديع . السّوء ركبني منذ اختفت وحكمت الاقدار بالفراق .

ردّد المسافر بصبر العابرين :

– لا يفيد المخلوق من أمر إن عرفه اصابه بالسّوء .

ترنّح المحموم ، ولكنه لم يسقط . تشبثت يداه بنحر المسافر وقال بعناد طفولي :

Twitter: @alqareah

- ألم تعلم وأنت عليم بكل شيء كيف تنكرت يوماً في جلد تيرزازت كي انزل إلى « آغرم نودادن » وألقاها ؟ ولكن آمغار اعترضني. ولو لم يعترض آمغار طريقي لا لتحقت بها ، وبقيت في مملكة الودّان إلى الأبد .

- حسناً . سأخبرك ماذا يجول في رأسك . انت ظننتني اخذت منك البراءة كي أعرف الطريق إلى الكنز . أنت ظننتني سرقت الحجر الأسود كي يدلني على الموقع . انت ظننتني دفعتك إلى نحر المخلوق الجليل قرباناً لكنز لن يفلته التّراب إلاّ بسيول من الدّم . انت ظننت كما يجب عليك أن تظّن . انت ظننت كما تظن كل المخلوقات التي لا تعلم عن طبيعتي شيئاً . المخلوقات التي تلعنني كل يوم دون أن تعرف جبلّتي ، دون أن تدرك سرّي . أنا لا اريد الآن أن انكر أمامك السبيل الذي خُلقت من أجله . بلى . بلى . أنا تلك الطبيعة التي تفعل شرّاً ، ولكنه شرّ لابد أن ينقلب إلى خير . هل تفهم ما يعني أن يكون الفعل محكوماً بضدّه ؟ ولكن هيهات أن تفهم ذلك . هيهات أن يفهم الإنسان هذه الأعجوبة لأنها لا تتم بين ليلة وأخرى . وبلاء الإنسان أنه ضعيف الذاكرة ، ينسى بين يوم وليلة . ولو وُجدت تلك الفئة القليلة التي لم يصبها سلطان النسيان ، لأدركت حكمتي وسبّحت بحمدي .

تشنّج المحموم ومضات أخرى . ترنّح مرتين . ازداد تشبثاً بخناق الساحر . غمغم .

Twitter: @alqareah

– أنا لا أدّعي أنّي أفهم كثيراً . أنا أعرف أني لا أعرف شيئاً . ولكن الصوت البعيد ، البعيد ، يقول لي ويعيد أني فقدتها إلى الأبد إذ جررت على نحرها ومديتك الفظيعة . الصوت يقول ويعيد أني لن أجدها حتى لو تنكرت في بدن تيرزازت ، حتى لو رافقتك مرّة أخرى إلى الاوطان الأخرى . آ – آ – آ – آ – آ ....

ظلّت الآهة تعلو ، وتعلو . تسكعت مع التواءات ، آلّون العظيم ، تلقفتها الجلاميد الجبلية . نفخت فيها من روحها ، من روح الاسلاف ، واعطتها وصية للجّن . طاربها المردة بسرعة المردة وسلّموا البلاغ إلى آمغار في المملكة الظلماء . قال المهاجر بتصبّر الزعماء :

– لو قدرت أن تفهمني لتبيّن لك الأمر يوماً ، وإلى أن يجيء ذلك اليوم ، لا املك إلا أن افتح لك صدري ، واضع في يدك المدية ، نفس المدية ، كي اهيء لك أن تنتقم . أليس الانتقام ، في عرف الإنسان، هو دين أقدس من كل الأديان ؟

وضع في يده المدية الموسومة بالرموز . شقّ ثوبه وكشف له صدره . هتف بغضبة دهماء لأول مرة :

– هيّا . أرني بلاهة الإنسان ! هيّا ! اعطني البرهان على قداسة الانتقام في شريعتكم ! هيّا ! إطعن وقدّم الدّليل على الجهل بالاشياء ، بالأعاجيب ، بنواميس الاقدار ، بخفايا الايام ، بنبوءة الزمان ، بالطبائع .

Twitter: @alqareah

بطبيعة الطبائع . هيّا ! إعطِ الدليل كما اعطاه الاشقياء من قبلك . وأعرف أن الجهل بطبائع الاشياء هو السبب في شقائك . في تيهك ، في حنينك ، في ظمأك ، في فجيعتك ، في كل ما ملكت يداك !

تناول المحموم المدية . حدّق في الخطوط العميقة ، المعتمة ، الغامضة ، التي تمزّق النصل الشرّه . لفظ قطعة من الزّبد ثم قال دون أن يرفع رأسه عن السلاح:

- ولماذا لا تفعل خيراً منذ البدء ؟

- لأني أخاف أن ينقلب إلى الضّد في مسيرة الزمان . أنا أحسب حساب الزمان .

- وهل من الملزم أن ينقلب الأمر إلى الضّد ؟

- ليس للمخلوق أن يعترض سير الزمان حتى لو كان ساحراً . المنقلب بيد الزمان . ومشيئة السحر من مشيئة الزمان ، والساحر الموهوب يسلك السبيل قبل أن يأتي به الزمان يوماً . السحر يقول أن كل أمر لابد أن ينقلب إلى ضدّه . لست أنا ، يا مسكين ، من وضع الشريعة الأولى .

- لن أفهم هذه الشريعة ، كما لا أريد أن اعتنق لها مذهباً ، لأنّي لن استطيع أن أؤمن أن السّيل الذي يجري في الصحراء ليحيي النبت الميّت ويبعث الحياة في الأرض ، يمكن أن ينقلب إلى شرّ .

Twitter: @alqareah

- ها أنت ترتكب نفس الخطيئة التي ارتكبتها عشيرتك الشقيّة في أجيال وأجيال . ها أنت تعطى الدّليل الاول على انتمائك لقبيلة فتك بذاكرتها النسيان . أعلم ، إذن ، أن السيل من طبيعة هي لي خصم . وهو لا يأتي إلاّ لغاية الخير ، ولكن خيره لابد أن يصير إلى شرّ . لن يستطيع البلهاء أن يدركوا السرّ ، ولكن السحرة به أعلم لأنهم يرون البعيد ، ويعرفون أن العبرة **بالمنقلب** . فمِلْ بأذنك إليّ يا ولدي وأسمع الوصيّة : إحترس إذا أقبل السّيل . احترس وتذكّر مسلك « موخامّد»* عندما يجوع . انت تعرف أنه يملأ الوديان عويلاً إذا شبع لأن الشبع لابد أن يأتي بعد المجاعة !

في ذلك الأوان كان المحموم ينشغل بأمر آخر غير الوصايا والخطايا والطبائع . كان ينكب على النّصل ، يحدّق في الوَسْم . في الرموز . في رسم الحيّة . كانت تنتصب على ذيلها . تلوّى بدنها في العُلى . تتمدّد في الفراغ . في نظرتها غموض السّر . في عينيها وميض التّبر . استعاد وقائع السّفر . اطاح بسلطان النسيان . تذكّر ان الدليل سلبه الكنز . أخذ الحيّة ، الحياة ، وترك له كوم التّراب. كوم الهباء . هو حقاً أبله . الإنسان حقا أبله ، لا لأنّه لم يدرك الناموس كما يدّعي الدّعّي، ولكن لأنه لم يدرك أن الكنز في الحيّة ، وليس في التّبر . لقد خدعه حقاً ، ونهب منها الحيّة ، الحياة ، وترك له كوز الرّمل . فما أغباه!

---

* موخامّد : إسم مستعار يطلق على الذئب .

Twitter: @alqareah

ما أغباه ! ما أغباه !

رفع النصل إلى أعلى . رسم رمزاً في الفضاء كنبوءة حقيقية، و..
هوى . هوى بالنصل الشّره على صدر السّاحر . انتظر . انتظر أن يغيب النصل في اللحم . بل النصل غاب حقاً . لم يكن ما انتظره غيبة النصل في قفص الصدر ولكن السقوط . انتظر أن يهوي السّاحر ارضاً ليطفيء شهوة الانتقام . ولكن الساحر لم يركع ، والنصل أيضاً أرتدّ . ارتدّ إليه دون أن تلوّثه قطرة دم . الأعجوبة اشعلت فيه فتيل الغضب . نفث دفعة جديدة من الزّبد الناصع . سفح نداوة لا يعرف أحد من أي نبع أستعارها. شيّع يده إلى قمة أعلى من رأسه . و.. هوى . هوى بالنصل الغامض ، المعتم ، الشرس ، على صدر الخصم الخصم لم يركع . المدية اختفت ولكنها عادت . ارتدّت إليه دون تتشوه بقطرة دم . سمع قهقهة كريهة، منكرة ، مخنوقة . تراجع إلى الوراء . في تلك اللحظة أقبل جبارين راكضاً . صاح بأعلى صوت :

– الظّل ! الظّل ! الظّل ! عليك بطعن الظّل ! هل نسيت أنّك تقاتل ساحراً ؟

ترنّح المحموم . سقط على ركبتيه . فزّ واقفاً بوثبة الابطال . جال بعينيه باحثاً عن الظّل . دارت عيناه في المحجرين . في المقلتين غاب البياض تماماً . جبارين قدّر أن غياب البياض هو الذي أصاب قرينه بالعماء . صاح به مرّة أخرى :

Twitter: @alqareah

- إنّه من سحرة الادغال . سحرة الأدغال وحدهم يتخفّون في ظلالهم . إطعن الظّل !

بدأ المحموم يوجّه الطعنات للظّلال . ظلال الأثل ، والطلح ، و«آشك مقّرن » * . يتقافز هنا وهناك ، يسقط على الأرض ، ثم ينهض من جديد ، ليوجّه الطعنات المميتة . ولكن السّاحر لم يصَب ، ولم يسقط ، لأن المحموم لم يكتشف أن خصمه كان بلا ظلّ ! .

(٤)

التخفّي في الظّلال حيلة ابتدعها سحرة الادغال الأوائل . ثم انتقلت إلى كانو . نقلها الدهاة الذين تنقّلوا مع القوافل وزحفوا إلى الشمال عندما انتعش التّبادل ، وانتشرت المقايضة ، وصارت التجارة ناموساً جديداً عمّ الصحراء ، وبدّل في اركانها الحياة .

قبل دخول هؤلاء الدهاة إلى الصحراء لم يعرف أهل الخلاء حيلاً غير التّنكر في ابدان المخلوقات البريّة : كالودّان ، والغزلان ، والحيّات ، والأرانب ، والفئران . وأشتهرت فئة قليلة من السحرة بالتحّول إلى اشجار أو أحجار أو آكام . سارت الحياة على هذا الحال أجيالاً . وعندما ذاع صيت المقايضة ، ودّب في الصحراء الأغراب ، زحف بعض المغامرين إلى الصحاري السفلية برفقة القوافل . وهناك ، في الواحات المخيفة المتاخمة لممالك الأدغال ، عرفوا كيف يجرون الصفقات التجارية

---

* أشك مقّرن : الاعشاب البرية المشابهة للاشجار ، ولكن ليس لها صبر الشجر الصحراوي على الماء فتزول مع حلول مواسم الجفاف .

Twitter: @alqareah

المثيرة مع أهل تلك الأوطان ، وبدّلوا النطرون وأكداس الملح بالتّبر الأبريز . عادوا بالقوافل المحملة بالكنوز ، وعبروا بها إلى ممالك الشمال ، واشتروا بالثروة ، باكياس الهباء الاصفر ، احمال الحبوب والأقمشة والزيوت ، ونعماً شهيّة أخرى . النّعم كانت دياراً وحساناً وغلماناً وطوابير من العبيد . ذاقوا طعم الشهوات ، وظنّوا أن الحياة تنتظرهم في احضان الجواري . فسرى بهم « وانتهيط » ليلاً ، وعبر بهم الصحراء من جديد ، ظنّاً منهم أنهم يسعون كي ينموا ثرواتهم ويتمتعوا بالحياة قبل أن تفتح الهاوية فمها، (قبل ما تظلم الشمس والنور والقمر والنجوم ، وترجع السحب بعد المطر ، في يوم يتزعزع فيه حفظة البيت ، وتتلوّى رجال القوّة ، وتبطل الطواحن ، لأنها قلّت ، وتظلم النواظر من الشبابيك ، وتغلق الأبواب في السوق ، حين ينخفض صوت المطحنة ، ويقوم لصوت العصفور ، وتُحَطّ كل بنات الغناء . وأيضاً يخافون من العالي ، وفي الطريق أهوال . واللّوز يزهر ، والجندب يُستثقل ، والشهوة تُبْطُل ، لأن الإنسان ذاهب إلى بيته الأبديّ ، والنادبون يطوفون في السّوق . قبل ما ينفصم حبل الفضّة ، أو ينسحق كوز الذهب ، أو تنكسر الجرّة على العين ، أو تنقصف البكرة عند البئر ، فيرجع التّراب إلى الأرض كما كان) * . فمن تذوّق لذّات اعطاها التّبر لا يعترف بسلطان هذا المعدن ؟ من جرّب التنقّل بين احضان سراري اشتراهن بما له ، بهبائه الاصفر ، ثم يتخلّف عن طلبه حتى لو طار إلى جزائر واق

* سفر الجامعة (١٢ : ٦.٢) .

Twitter: @alqareah

الواق ، حتى لو التحق بواو التي تتستّر بمملكة الخفاء ؟ من رأى في منامه الكابوس الذي ينتظره ولا ينطلق ليقطع الصحراء ركضاً على قدميه ؟ مَنْ تخيّل ، ولو في الرّؤى ، الهاوية التي قضى القدر أن يلقيه في فمها يوماً ، ويبحث عن عزاء في اللّهو ، واللّعب ، والعبث ؟ مَنْ مِنْ هؤلاء المغامرين أبصر شبح الظلمات في سرّه ولا يلتحق بالرّكب المتجه جنوباً ، نحو مناجم معدن يشترى أنبل الحسان ، ويذلّ الأبطال، ويقيم مدناً من فراغ ، ويزيل ممالك لم يكن لها مثيل في السلطان ؟ وكان لابد للسادة أن يتخذوا في الطريق حاشية تخفّف عنهم همّ السفر ، وتزيل عنهم وحشة السبيل الطويل . ثم مضى زمن آخر احتاج فيه التجار إلى جند لحماية قوافلهم من غارات اللصوص وقطاع الطرق . ومضى زمن آخر . عبست فيه الأيام ، وتكدّرت علاقتهم بأهل التّبر . أدّى تهافت القوافل على المناجم ، وزيادة الطلب على التّبر ، إلى استيقاظ روح الجشع في افئدة الأمم الجنوبية ، وعرفوا قيمة التّراب الذي بين أيديهم ، فرفعوا الأسعار اضعافاً في البداية . وبرغم أن تجار القوافل دفعوا لهم ، وقايضوهم بكل ما أرادوه من بضائع ، إلاّ أن النهّب أدّى إلى استنزاف الثروة ، فتراجع المنسوب المستخرج من المناجم ، وتململ الأهالي ، وخافوا من الأفلاس . ادركوا أنهم سيُحرمون من الرخاء والرفاه والنعيم إذا نفدت ثروة التّراب .

هنا جاء دور السحرة .

Twitter: @alqareah

السّحرة أشاروا على تلك القبائل أن تستفيد من ثروة أخرى ، وتلجأ لاستخدام السّحر لإنقاذ الثروة ، والتقليل من استنزاف التربة الصفراء . أذن لهم الزعماء بالتدخّل . وفي عشيّة واحدة تنكّروا في ابدان المخلوقات الليلية ، وتخفّوا في جلود السّنانير والماعز والكلاب والجمال والحمير ، واستطاعوا أن يستعيدوا من التّجار في ليلة واحدة بضاعة باعوها لهم في أسابيع .

وعبثاً حاول التجّار البلهاء أن يعرفوا سرّ هذا البلاء . وكان عليهم أن يفقدوا أحمالاً كاملة من الذهب قبل أن يهتدوا إلى حيل السّحرة . حاولوا في البدء أن يستميلوا أكابرهم بالعطايا ، ولكن الكهنة رفضوا الرشوة بعناد الزهّاد ، وسلّطوا مزيداً من المخلوقات الليلية على قوافل التجّار .

لم يجد التجّار منقذاً من البلوى غير سحرة الصحراء .

دخل سحرة الصحراء المملكة السوداء برفقة القوافل . وبرغم أنهم لم يجدوا الطريق ممهّداً لكشف حيل سحرة الجنوب ، إلاّ أن تجربتهم الطويلة في استعارة ابدان الكائنات البريّة لم تساعدهم على كشف حيل خصومهم فحسب ، ولكنّها مكّنتهم من القضاء عليهم جميعاً في زمن قصير . كانوا يجتمعون في الظلمة ليعدّوا الخطّة . لأن الناموس الضائع علّمهم أن لا شيء يستقيم بدون تدبير ، بدون إعداد ، بدون شورى ، بدون خطّة . يختلون في خلوة ليبدأوا غمغمة طويلة

Twitter: @alqareah

تنتهي بخروجهم في جيش مخيف . خرجوا للماعز في ابدان ذئاب ، وافترسوا الحمير بانياب السباع ، وطاردوا السنانير الشقيّة بالضباع ، وسلّطوا على كل دابّة جاءت للاختلاس دابّة أخرى أقوى منها ، تناقضها في المسلك ، وتفوقها في الحيلة ، وتعاديها بالطبّاع . ابادوا العدّو ، ونهبوا الذهب ، وسلبوا السّبايا . قرع سحرة الادغال طبول الاستنفار . نزحوا إلى الغابات ، وطلبوا العون من آلهتهم ، ومن كهنتهم المعتزلة . قالوا لهم أن المشادّة لم تعد في سبيل الدفاع عن الثروة ، ولا عن النفس ، ولكن عن حياة يتهدّدها الزوال .

من هناك ، من الأدغال الخفية ، عادوا بحيلة التخفّي في الظّلال !

(٥)

الظلّ !

مملكة الخفاء ، سرّ الملكوت ، أرض الحقّ التي آثرها على الضياء ، واختار أن يتخذها وطناً وحيداً لا شريك له .

الظّلّ !

الضّدّ الغامض الذي يلعنه البلهاء جهاراً عملاً بوصايا ورثوها عن عشائر البلهاء . ولا يدرون أنهم يسبّون الملكوت الذي ستؤول إليه الباديات .

الظّلّ !

Twitter: @alqareah

اغنية سماوية مجهولة لم يعرّف سرّها سوى العرّافين والسحرة . هؤلاء اودعوها قلوبهم منذ البدء ، وتعلّموا أن يحتموا بها من عدوان الخلق وشرور الضياء .

تسلّلوا إلى أوطانها ، لأنها لم ينسوا الوصيّة التي ورثوها عن الناموس المفقود إذ يقول : « إذا أردت أن تحيا ، فأختف ، ثم اختفِ ، ثم اختفِ .. » ، وتعاليم السحر تؤكد أن سّر كل أمر في ضدّه . في نقيضه. في نفيه . رأوا كيف تنهزم القبائل عندما تنتصر في الغزوات ، ورأوا أيضاً كيف تنتصر القبائل عندما تنهزم . تعلّموا أن ينصتوا لصوت الصحراء فعلّمتهم أن النعيم في الترحال ، والخلاص في الاعتزال ، والحياة في العتمة ، في الظّل ، في الاختفاء ، في التخلّي عن الحياة .

دانوا للظّل ، للعتمة ، للعزلة ، بالحكمة ، وبأسرار الحرفة ، بأسرار السحر . استظلّوا بالكهوف ، وهربوا من نار الشموس ، ونار الخلق ، لأنهم ادركوا أن لا حياة لمخلوق يدبّ بين الخلق ، ولا خلود لأمر أفتضّ بكارتهالضياء.

الظلّ !

إليه التجأ الجنّ منذ أول الزمان ، لأن أهل الخفاء كانوا أكثر حكمة ، وأكثر تعلّقاً بالناموس ، وأكثر إدراكاً للسّرّ من الدمية البليدة التي ابتنتها الرقعة الجليلة من كوز الطين ، فرضيت بالتراب قدراً ،

Twitter: @alqareah

وجعلت من لباسه مصيراً ، وأبت أن تخرج من القمقم ، وتنفذ إلى دينونة الخفاء الواسعة . بقيت الدّمى أسيرة الأرض لهذا السبب ، وحلّق الجنّ ، وكائنات السّر ، في الأعالي ، طافوا البروج، وعبروا الأكوان ، ودخلوا حرم الواحة المفقودة ، وعادوا من المعراج في غمضة عين !

الظّلّ ! .

فيه وجد أهل السّر لقية . في ملكوته رقدت كرة دائرية مطفأة الصورة. قيل في الرموز الحجرية القديمة أنها كانت تحوي في جوفها سّر النقائض كلها!.

فكيف لا تصير مملكة الظلّ نعيماً للسحرة الدهاة ؟ وكيف لا يتخذونها وطناً وهم الذين آلوا على انفسهم أن يحاكوا **الاله** ؟

(٦)

حلّ المساء . نزلت العتمة. رأى جبارين أن يحاوره . سأله عن العتمة :

– هل يقدر المخلوق المشدود إلى التراب بأوتاد الطيّن ، أن يخرج، ويسكن الظّلّ ؟

احتضن الساحر ركبتيه المرفوعتين . راقب غيهب المساء بخشوع الكهنة . تمتم بتعويذة مجهولة . رمق جبارين باستخفاف . اجاب :

– انت قلت ذلك . ألم تصرخ بقرينك أن يطعن الظّل ؟

Twitter: @alqareah

– الحق أقول : إنّي كنت أشكّ . ولكنّي اليوم أيقنت .

– هل ايقنت أن المخلوق لا يصاب بضربة المِدْيَة إذا صار كلّه ظلاًّ؟

– ايقنت بوجود السحرة الذين يسكنون الظّلال .

تدخّل بورو :

– عرفنا حيل الخروج من القمقم والاختباء في الظّلّ ، ولكنّا لم نعرف ساحراً يتخلّص من الظّلّ .

إبتسم المهاجر . تناول عكازه . تحسّس عقده النحاسية بحنين غامض . قال ساهماً :

– الساحر الحقيقي ليس الساحر الذي يختبيء في ظلّه ، ولكنه الساحر الذي يخبّيء ظلّه ! .

هتف جبارين وبورو بصوت واحد :

– يخبّيء ظلّه ؟

رسم المسافر رمزاً على التراب بعصاه . ثم رفع العصا نحو الأفق. خطّ بها علامة أخرى في الفراغ . سكت حتى خيّل لجليسيه أنه لن يجيب على السؤال . ولكنه تكلّم أخيراً من مقامه في الأفق :

– سرّ الساحر في ظلّه . قدره في ظلّه . مصيره في ظلّه . وسيظل في دائرة الخطر ما ظلّ الظّلّ مكشوفاً ، مفتوحاً على الخلاء .

Twitter: @alqareah

عندما توصّل الاوائل إلى الحيلة وحرّروا **السّر** من كوم التراب ، ودعوه عتمة الظّلال ظنّوا أنهم حققّوا الإعجاز وأخفوه عن عين الشّر إلى الأبد. ولكن كما وجدوا هم الحيلة ، وجد خصومهم حيلة أخرى اهتدوا بها إلى الوطن الجديد . انكشف الموقع فبطل السحر ، وتبّددت الاعجوبة . وكان على الأجيال التالية أن تبحث عن وطن آخر تخفي فيه السّر . ونحن الذين توصّلنا إلى الأرض الجديدة . واخفينا فيها أنفس ما في الحياة ، واخفينا فيها الحياة نفسها ، يسمّوننا دهاة . إن المشوار يقضي أن تدفع الحياة ثمناً كي تهتدي إلى سبيل الملكوت الذي يقدر أن يكون حصناً لكائن يرفرف في الصدور ، للمخلوق الذي نسميه في لغتنا **عصفوراً** ، **روحاً** ، وتسمونه في لغتكم **حياة** .

أوقد جبارين ناراً . وتهيأ لإعداد العشاء . سأل بورو :

– ولكن أين يمكن إخفاء طيف كالظّل ؟

لوّح الساحر بالعصا في وجهه وقال بغموض :

– في القمقم !

– في القمقم ؟

ظنّ بورو أن جوابه كان استهزاء ، ولكن الساحر مال إليه ، وقال له وهو يلّوح بالعكاز في وجهه :

– هنا . هنا . أليس هذا قمقماً أحكم من كل القماقم ؟ هل نسيت الاخطار ؟ هل غابت عنك الأهوال ؟ هل غلبك النسيان ونسيت

Twitter: @alqareah

رحلة الكنز ؟

داعب الاطواق النحاسية بكلتا يديه . تجهّم ، تكلّم عن الهّم :

– ولكن كيف يكون الإنسان إنساناً إذا لم ينسَ ؟ ماذا سيفعل كائن يخفي في صدره كنوز الأرض وسرّ السماء في منفاه الجديد لو لم يغلبه سلطان النسيان ، ويصبه باللعنة التي قطعت صلته بالوطن الأول ؟ هل كنت أنا ، الساحر البائس ، استطيع أن اخدعه وأسرق الحيّة من بين يديه مقابل أن أترك له هباء تراب يسميه كنزاً ؟

اقترب منه بورو . مال نحوه حتى وضع شفتيه في طرف اللثام الذي يغطي الأذن . استولت عليه الرجفة ، وبدا أن الحمّى تهدّد بالعودة من جديد . غمغم :

– هل الحيّة ...

– هئ – هئ – هئ .. ها أنت تغلب السلطان أخيراً . هئ – هئ .. ها أنت تتفوّق على نفسك وتستعيد وهج الوطن . هئ – هئ .. نعم . نعم . هنا الحيّة . هنا السّر . هنا الحياة . هئ – هئ .. الحيّة . الحياة. إنها أنا . العصا هي أنا . أليست خدعة موفقة أن يخبئ الإنسان نفسه في جوف قطعة قصب ، في عود الخيزران ؟ هيء – هئ – هئ . اعترف أنها حيلة يتفوّق فيها المخلوق على نفسه ! هئ – هئ .. ظلّي في يدي ! ظلّي ...

تكاثفت في الأفق الظّلال ، واكتمل في الوادي نزول العتمة .

Twitter: @alqareah

١٥ - النّبوءة

« يزعمون أن ابا جعفر المنصور نزل في بعض القُرى ، فقرض الفأر مسحاً له كان يجلس عليه ، فبعث به ليرفأ ، فقال لهم الرّفّاء : إن هنا أهل بيت يعرفون ، بقرض الفأر ، ما ينال صاحب المتاع من خير أو شرّ ، فما عليكم أن تعرضوه عليهم قبل أن تصلحوه ؟ . فبعث المنصور إلى شيخهم ، فلمّا وقعت عينه على موضع القرض ، وثب وقام قائماً ، ثم قال : من صاحب هذا المسح ؟ . فقال المنصور : أنا . فقال : السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، والله لتلينّ الخلافة أو أكون جاهلاً كذّاباً »

أبو عثمان الجاحظ

« الحيوان »

***

« يقول الله : ويكون في الأيام الأخيرة أنّي اسكب من روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبابكم رؤى ، ويحلم شيوخكم احلاماً . وعلى عبيدي أيضاً وإمائي اسكب من روحي في تلك الأيام فيتنبأون »

اعمال الرّسل

(٢ : ١٧ ، ١٨)

Twitter: @alqareah

(١)

في مزود المهاجر تتخبأ قطعة من اللّحم .

يخفيها المهاجر في جراب السّرج مثل تميمة . كأنّها حرز يحتمي به من عدوان أهل الخفاء الاشرار ، لأنّه يحصّنه من العار إذا بات ليلة ونزل عليه عابر آخر ضيفاً . عندها يتهج . يتهج لا لأنّه سيبدي جُوداً يتنقّل مع المسافرين في الصحراء ليبلغ أبعد الأمم ، ولا لأنّه سيفوز بالصّيت الذي يرمي في سبيله الأبطال بأنفسهم إلى التهلكة ، ولكن لأنه سيتقاسم مع عابر آخر لقمة تقدّست منذ أن تخلّى عنها الجدّ ورفض أن يأكلها ، فتحوّل إلى آمغار ، وسكن الوطن السفلي في «آغرم نودادن» . سيتقاسم مع مهاجر آخر ساقته إليه الأقدار ، مع اللقمة ، مع جرعة الماء ، خطاباً صام عنه طويلاً ، هو في جلال اللقمة ، ولا يقل ، في القداسة ، عن جرعة الماء . فإذا كان الصمت لغة الخلاء ، فإن الاسترخاء تحت ضياء القمر ، والمحاورة الطويلة التي تستمر حتى قُبيل الفجر ، هي تاج الاجتماع ، ونعمة اللّقاء . وبرغم اليقين الذي يعتنقه كل المهاجرين ، ويرون فيه أن كل ما هو كائن اليوم ، وما سيكون أيضاً غداً ، هو من قديم قد كان ، وأن الجديد لا مكان له تحت الشمس ، إلاّ أنهم لا يتوقفون عن الحوار ، وألسنتهم تتلذّذ بالإخبار ، لأن التخاطب ليس وسيلة لتبديد الوحشة في ناموسهم ، في شريعة السّفر ، ولكن الخطاب ، اللغة ، تبادل الكلام ، هو حيلة لصنع ذلك البرهان الذي يؤكد لهم أنهم

Twitter: @alqareah

ما زالوا على قيد الحياة ، والزوال الذي ظنّوا أنه أخذهم ، أمهلهم ، ولم يستغفلهم بعد . تجود الأقمار بضيائها ، فيسكن الليل في بدن الصحراء ، والصحراء تتمدّد ، وتسترخي ، بعد أن هجرتها الكائنات ، وآوت إلى بيوتها ، تتأمل القبّة العليا ، تقرأ النبوءات في وميض الكواكب النائية ، وتتصنّت لثرثرة المهاجرين . المهاجرون يستلقون على ظهورهم بعد أن تمتّعوا باللقمة . يرقبون القمر ، يتسلّون بمتابعة اشقياء الجّن الذين يتراكضون في العراء كالجديان . يتبادلون الأسئلة ، يتلذّذون بالكلمات، بالألفاظ ، بلفظ الألفاظ ، بالنطق . يتحوّل الصوت نفسه إلى جسد حقيقي ينطلق مع أنسام المساء ليدب ، ويتسكّع في العراء ، لأن الصمت الطويل ، الصيام المزمن عن اللّفظ ، يغذّي الحنين ويحوّل الثرثرة الليلية البريئة ، الكسولة ، التي لا غاية لها ، إلى نشيد شجيّ له سلطان الشعر، وسحر اللحن ، وعذوبة مواويل الغناء .

يهاجر الليل ويهاجر المهاجرون . يمضي ويمضون لتشييعه في بروجه بالثالوث : الماء ، قطعة اللحم المجفّف ، والمحاورة . بالثالوث تُبنى العلاقة ، ويُشيّد القران ، وتتجدّد الحياة . ولكن العابرين لابد أن يتبادلوا خطاباً آخر قبل أن يسرقهم سلطان النوم . لابد أن يمدّوا أيديهم إلى العظام ليقرأوا فيها أخباراً أخرى لن يأتي بها الخلق ابداً . المهاجر يعرف أن النبوءة هي الخطاب الخفيّ الذي أرادت له الأقدار أن تجعله له لغةً منذ خلقت اللغات .

Twitter: @alqareah

(٢)

عظمة الكتف كانت من نصيب بورو.

لم يدفعها إليه الحظ، ولم تهبها له المصادفة، ولكنه لاحظ القطعة المجفّفة عندما أخرجها جبارين من مزوده . تابع قرينه وهو ينكبّ على اللحم ويقطعه بالمدية . ورأى العظمة عندما القى بها جبارين في القدر الملئ بالماء الممزوج بحفنة من النعمة . بحفنة نفيسة من الملح . وضع جبارين الطبق أمام الضيف بمراسم تليق بالساحر . فمدّ بورو يده في العتمة واستولى على العظمة، على الكتف، على لوح النبوءة . تظاهر بمشاركة الضيف، ولكنه جرّد اللّوح من اللحم خفيّةً، وألقى بنصيبه أمام السّاحر . أحتفظ بالعظم ناصعاً، عارياً من كل بدن، في راحة يده اليسرى . رمق العابر خلسةً، فوجد الدّاهية يتسم بغموض العرّافين . ردد تميمة الحمد بصوت مسموع، وتراجع إلى الوراء . من وراء جلمود انتصب فوق القمة تبدّى رأس القمر . فوقه طاف ساهور شاحب ،ولكنه حمل آيات عهدٍ، ووعد بالإلهام . رسم فوق الجبل قوساً خفيّاً كالهلال البكر، ولو لم يفسد الساهور الشاحب طهارته لظلّ هلالاً وليداً . تابعه وهو يرتفع، ويتكوّن، ويولد، حتى خرج من آخر المنازل، وأكتمل في دائرة كبيرة، خفية، ذات حدود صارمة . ولكنها جادت بفيض حميم، مفاجيء، اغرق الوادي الكئيب في غمر من ضياء . تابع الكوكب سفره . وتابع هو مسيرته . شدّد قبضته على

Twitter: @alqareah

العظمة وراقب الدائرة الكبيرة ، الخفيّة ، ذات الحدود الصارمة . تعلّق بالكرة المعلقة في الفضاء الفاجع الذي تشبّه بقمم تادرارت اللامبالية ، المكابرة ، التي تخلّت عن العراء السفلي منذ أن رفعت رأسها إلى أعلى.

وهب الكائنات السفلى ظلالاً . انتشرت الظلال عبر امتداد الوادي . استعار حيل السّحرة وأسكن الاشجار في العتمة . في السّر ، في الـظّلال . رأى الطلح يهرب من صلبه في الجذع ، وينزل ليتخفّى في الظّلّ .

في القرص قرأ نداء غامضاً ، وفي الجوف تململ حنين حميم .

انتهى العشاء . التفت إليه الضيف . في عينيه رأى دموعاً .

(٣)

استلقى الأقران الثلاثة بعد اختتام القران .

جباريِن هجع في مجاورة الطلحة ، ناحية الشّق الجنوبي للجبل، وبورو تمدّد ضدّاً ، عبر امتداد الوادي ، في مجاورة الضيف . راقبوا الميلاد كلّهم . تابعوا الوليد المستدير وهو يتحرّر ، ويخرج من المنازل الخفيّة ، ليجد طريقاً خفياً ، جديداً ، إلى منزل خفيّ ، جديد . تحمّموا بفيضه في خشوع الكهّان . دخلوا مع الدائرة الفضيّة إلى دائرة الأبراج، وخافوا أن يفسدوا البراءة إن هم هتكوا الحرم ، وتفوهوا بكلام. رأوا أن السّمر لن يحلو ، واللّغة ستفقد سرّها ، والأنباء لذّتها ، إن لم يطوفوا المنازل ، ويحلّقوا في الملكوت ، مع القرص الوديع اولاً .

Twitter: @alqareah

بورو أوّل من أنهى الطواف ، وسبق إلى النزول .

نطق بنبرة كسولة ، مجهدة ، نائية ، كأنها قيلت في كهف ، أو بُعثت من دهليز :

- يُقال أن الأرض ستسيل هذا العام .

لم يعلّق أحد . فبقيت العبارة معلّقة في فضاء السكون زمناً ، ثم انطلقت تتسكع في الوادي . تعلّقت بالشجر ، تمسحت بالحجارة والجلاميد الصخرية . تسلقت السفوح ، اعتلت حيد الجبل ، بلغت افواه الكهوف ، استجاب لها الجنّ ، وهمهموا احتفاء بالنّبوءة ولكن العبارة مضت تتطاول في الأعالي ، تتعلّق بتلابيب القمم . هناك انتُهرت. تلقّت وعيداً في صيغة سؤال لم يكن في حاجة إلى ترجمان . رددت القمم الجنوبية والشمالية معاً ، في وقت واحد وبصوت واحد ، وباستنكار واحد ، يحمل في لهجته ذلك الوعد الخفيّ، ذلك الوعيد : « الأرض ستسيل هذا العام ؟ » . ودفعت بالاستنكار ، بالوعد ، بالوعيد ، إلى اسفل . أعادت العبارة إلى اهلها . ارتدّت النبوءة لتسقط في أذن قائلها . عادت من منفاها غريبة وجريئة ، ولكن بورو لم يعرفها . ظنّ أنه تلقّى سؤالاً بدل الاستنكار . تلقى سؤالاً من الساحر ، أم من أهل الخفاء، فأراد أن يرد على التساؤل بإيضاح :

- الرعاة الحكماء يقولون ذلك !

Twitter: @alqareah

شدّد قبضته على العظم . شدّدها كما شدّدها يوماً على الحجر . ضمّها الى صدره . جرّها على القفص . الجهة اليسرى من القفص . حكّها على بيت يسكنه عصفور النور . حكّها كأنه يريد أن يبلغ الحريق الذي يشتعل في البيت ويهدد العصفور الوديع . حكّها كما يحك عرجون نخل بعرجون نخلٍ ليشعل ناراً تلتهم النار الأخرى التي تشتعل في جوف القفص . زحف نحو الساحر دون أن يدري . مال على اذنه وهمس له بصوت لم يعد له :

– إقرأ لنا النبأ في العظم !

رفع الساحر رأسه . اسند بدنه إلى مرفقيه . التفت فوجد أن العظمة في وجهه . تحجب دائرة الفيض ، تحمل في قلبها رموز المجهول . تتبعثر آيات الزمان في بقعها الخفية . ينطق الوشم في لوحها الناصع بلغة الخفاء . تسكب عليها الدائرة السابحة في منازل الفضاء فيض الفضة فتزداد الرسوم في وجهها وضوحاً في اللون والصورة ، وغموضاً في ناموس الرؤيا ولغة التفسير .

النّبوءة مطفأة كالحجر الحكيم . تعتصم بالظلمات ، تخبيء نفسها في جوفها ، فتحتجب عن الرائي ، في حين تكشف وجهها للعميان ، فيراها الكّهان بعين أخرى أحدّ بصراً من عيون كل الرّائين :

عين الإلهام !

Twitter: @alqareah

هذه العين لم يأت بها سحرة اتخذوا من رؤوس السنانير لهم طعاماً ، ودم الحرباء شراباً ، كي يتعلّموا الحيل ، ويتقنوا التخفّي . هذه العين لم تدخل المملكة العارية من تخوم الجنوب لأنها لم تكن حيلة ، بل كانت بنت بيتها ، ولدت في المتاهة ، وشقّت لنفسها طريقاً مضاداً ، ومضت ، من هذه البقعة ، لتغزو القارّة ، وتمضي إلى كل القارات . ولدت ، وشبّت ، وانفتحت على النّور في مملكة العراء ، لأن الانقطاع ناموسها ، والصيام لها شرط أوّل . ويرى الحكماء أن تلك الطائفة التي تفني العمر في طلب الواحة المفقودة هي أكثر الطوائف قدرة على استكشاف الغيب ، ومواهب كّهانها لا تقارن إلاّ بالأنبياء. عرفت الحمادة أحد هؤلاء . كان جوّالاً منذ طفولته ، لم يعرف له طعاماً غير العشب . وفي مواسم الجفاف يستبدل النّبات بحبّة واحدة من التّمر ، يتخذ من ضلفتها إفطاراً ، ويتناول نصفها الثاني على الغداء ، وغلاف النّواة له عشاء . وإذا التقى عابراً آخر ، استضافه بالتمرة ، واكتفى هو بالنّواة . كان يدقها بين حجرين حتى تصير هباء في نعومة الدقيق . يسفّها مثل السّويق . بُنية هذا المهاجر كانت ضامرة مثل عود قصب ، ولكنه امتلك عيناً كانت ترى صاحبها وهو بين الماء والطين ، ثم وهو نطفة ، ثم وهو مضغة ثم وهو جنين ، ثم وهو يتقلّب في ظلمة الجوف ، ثم وهو يندفع إلى اسفل ، وينبثق من الغيهب كالنّور. ويروى كثيرون أنه كان يرى ابعد من هذا الزمان . كان يبصر الاحوال في امتداد الازل ،

Twitter: @alqareah

ولكنه يؤثر الصمت إزاء هذه الرؤيا ، ولم يكشف سّرها لمخلوق أبداً . ولولا ساعات الاسترخاء التي يقضيها لاسترداد الانفاس بعد سفر طويل ، لما عرف أحد شيئاً عن الرّؤى في زمان الازل . كان يتمدّد تحت كوكب الضياء ، يحدّق في الوجه المدوّر بعين غائبة . يدندن بإلحانٍ مجهولة لم يعرفها أهل الخلاء ، ولم يترنّم بمثلها أهل الخفاء . الحان فاجعة، ولكنها شجية . في هذه الألحان (التي سمعها كثيرون) عرف الخلق سيرته في الأزل ، وادركوا سّره الأوّل . فقد كان مهاجر الدهر قبل أن ينبثق مع فيض النور ، طائراً سكن بدن « مولا – مولا » . ثم تقلّب في الزمان ، ودار في البروج ، وعاد إلى الأرض في بطن ودّان . تقلّب به الزمان مرة أخرى ، وطافت به الأيام ممالك أخرى ، فوجد نفسه ينزل إلى وطن الرّؤى السماويّة في جذع طلحة . ويجمع كل من عرفه أن عينه كانت ترى بوضوح أكثر ما غاب عن عيون الخلق ، وتتحدّث عن اصغر سّر من أسرار الزمان في سيرة الأبد . فهو يرى ما سيؤول إليه كل أمر . ويدرك بُعداً أبعد ، فيرى المنقلب . رأى نفسه ميّتاً ، والرّؤى المدسوسة في اجسام الضوء تتحلّق حول جسده وتصنع له الكفن ، وقبل أن يختفي ذلك العابر أخبر ، في إحدى الاغاني الشجنيّة ، أنه سيعود بعد زمان طويل في بدن حيّة ! ولكن الطوائف التي لم تحترف الانقطاع، ولم تعش الاعتزال إلى النهاية ، ولم تبلغ عينها حدّاً ابعد من يوم الممات ، نالت قدراً من الكفاءة أهّلها لرؤية الخفايا ، وقرأت الرموز في مسلك

Twitter: @alqareah

الطّير ، وفي عظام الانعام ، ونامت فوق مدافن القدماء لتخبر عن سيرة الغيّاب الذين رافقوا القوافل ، أو تاهوا بحثاً عن واو ، أو ذهبوا في حملة، أو اشتركوا في غزوة .

ولم يعد وجود موهوبين ابدعوا حتى في هذه الطائفة المتواضعة . فعرضت القبائل كهاناً جاءوا بأنباء المجهول دون أن ينظروا في عظم ، ودون أن يطاردوا أسراب الطيّر ، ودون أن يلتفتوا إلى المقابر . ولكنهم كانوا قلّة بحيث صنع منهم الحكماء علامات تؤرخ لأحداث ، وأنصاباً وسموا بها تقلّبات الأيام في الصحراء .

ثم جاءت عهود أخرى تنقّلت فيها وفود هؤلاء الانبياء إلى الدواخل ، كما تنقلّت افواج السّحرة قبلها من دواخل الادغال ، وغزت صحاري الشمال، فحدث التمازج في الرّؤى ، وقوى الاختلاط في معرفة الدينونة الخافية ، كما حدث تمازج قبلها في صلات الدّم ، واختلاط تقوّى بطوابير السّبايا ، واحضان الحسان .

(٥)

– ما أخبر به الرعاة حقّ . الوديان ستفيض بالسيول !

لم يخبر بالنّبأ إلاّ بعد صمت طويل .

تناول العظمة من بورو وقلّبها بين يديه . تحسّس رأسها المدوّر بأصابعه. خنقها بطوق صنعه من الإبهام والسّبابة . ثم تفقّد الجسم المثلث

Twitter: @alqareah

الذي يخرقه عرق يشطره إلى نصفين غير متساويين . لأن العرق يلتزم أحد الجانبين ليترك فضاء فسيحاً لبقع العتمة ، للخطوط الخفيّة ، للنمنمات الغامضة ، للآيات ، للنبوآت . اعتدل الساحر في جلسته . مضى ينحني فوق كنزه . فرّكه بين يديه، ثم بدأ يرفعه ببطء شديد إلى أعلى . اعتلى به حِجْره . اجتاز به شبح جلمود الاسلاف . بلغ به السّفح . تسلّق به الحيد المتجه شرقا ، تنقّل معه بين مقابر القدماء المنتشرة على السفوح ، استوقفه عند الاكوام الحجرية المستديرة ، وتوقفا معاً عند أفواه الكهوف المحفورة بأساطير الأوّلين ، تمرّغا في رماد خلّفته نجوعهم الفانية ، ركعا عند الرسوم ، ونزلا ضيفين في مملكة آمغار . خرج لهم آمغار من المغارة العليا . تقدّما إلى الأمام . صعدا العمود الاملس ، دخلا حدود الحرم . تنادى جند الزعيم بلغة الجنّ . تحوّلت الحجارة إلى مردة وعمالقة ، وركض الزمان بالنّبأ ، لأن اللّوح بلغ المكان ، والرفعة وقعت في الكّف ، وفيض الكائن المستدير السابح في الفضاء انسكب على اللوح ، واصاب قطعة الرقعة ، ولم يبق للناموس إلاّ أن يخطّ الرّؤيا ، ويرسم الوعد في القرطاس .

رفرف عصفور الطفولة في صدر بورو فاقترح :

– هل اوقد لمولاي ناراً !

لم يجبه العرّاف ، في حين انتهره جبارين بإيماءة صارمة .

Twitter: @alqareah

غاب الجليس في المعبد طويلاً . ظلّ يقتعد قاع الوادي . يشيّع أمامه لوح الأجيال . يشيّعه في الوضع الذي يحجب فيه اللوح قرص القمر . ولكن القرص لا يحتجب . بدن القرص يتبدّد في نثار الفضّة ، في هباء الفضة ، والهباء يذوب في الفضاء ، المسافة تصيّره فيضاً من ضوء ، سيلاً من ضوء ، يتدفق في الخطوط ليحوّلها إلى لغة ، ينسكب في البقع المبهمة ليجعلها حروفاً ، يتسلل في الصور ليبعث فيها الحياة ، ويبتدع الرّؤيا .

توغل السكون في الصحراء . توغلت الصحراء في السكون .

أخيراً عاد الكاهن من ملكوت المعبد .

تفوّه بالعبارة الصغيرة :

– ما أخبربه الرعاة حقّ . الوديان ستفيض بالسيول !

أعادها ثلاث مرّات دون أن يلتفت لأي منهما . ومكث مدّة أطول وهو يحتضن اللوح بين يديه وينكبّ فوق حجره . لم يبتهج أي منهما بالنبوءة ، لم يلاقيا البشارة بما يليق ، ليس إجلالاً لوجوم الكاهن المكبّل بأغلال الرؤيا ، ولكن لأنهما عبرا معه إلى السماء الأخرى ، التي تظلّل صحراء أخرى ، وتأخرا في العودة إلى صحراء التّيه التي تظلّلها سماء التّيه .

Twitter: @alqareah

(٦)

مدّ بورو يده لاستعادة اللّوح ، ولكن الكاهن تجاهله . قال بغموض :

– الآن تستطيع أن توقد لي ناراً .

مضى بورو يمدّ يده بعناد الاطفال . سأل ببراءة الاطفال :

– وما حاجتك إلى النّار بعد أن قرأت اللّوح ؟

تطوّع جبارين واشعل النّار . زحف الكاهن نحو الموقد . هبّ بورو واقفاً . صاح بصوت رددته الكهوف العليا :

– إيّاك أن تلقي بالعظم في النّار ! العظم كان من نصيبي . العظم عظمي!

سأله الكاهن بتصبّر الحكماء :

– وما حاجتك به ؟ ألم أقرأ لك النّبأ ؟ ألم تعرف البشارة ؟

– أريد أن احتفظ به . أريد أن اتباهى به أمام الأقران . أريد أن أحدّق فيه كما حدّقت فيه منذ قليل لأتعلّم كيف تُقرأ النبوآت .

– لن تتعلّم قراءة العظام لا في عظم ولا في عشرات العظام .

– هذا شأني ! اعطني عظمتي ! .

شدّد الكاهن قبضته على العظم . التفت إلى بورو لأوّل مرة منذ

Twitter: @alqareah

بدأت الطقوس . حدّق فيه بعين الساحر . بعين الكاهن . بنفس العين التي رأت ما لم تره عين ، وطافت آفاقاً لم تسمع بها أذن . نفس العين التي فكّت غموض الرموز ، وكشفت الإبهام عن بقع الظلمة . قال بتسامح النّبلاء :

– اعترف بالحق . لماذا لا تعترف بالحق وتخبر بأنك لا تريد أن تتعلّم الخفايا ، ولكنك أردت أن تذهب باللّوح إلى آخرين كي تستخبر عن الخبر الذي لم أخبر به . فلماذا تريد أن تعلم دائماً الأمر الذي يسيئك علمه ؟

استولت على بورو الرجفة . شرع يخطو دون أن يبرح مكانه . تهدّل لثامه عن فمه فومض ، تحت ضياء القمر ، على شفتيه زبد . أعاد الكاهن جملته الغامضة :

– لماذا تريد أن تعلم دائماً أمراً يسيئك علمه ؟

ثم ألقى بلوح النبوءة في النّار .

Twitter: @alqareah

١٦ – القمر

« تقدّم ، تقدّم ، يا صديقي ، نور القمر »

هوفمان

« إكسير الشيطان »

Twitter: @alqareah

(١)

آسوفض * بدأ فجراً .

ظنّ بورو انه أوّل من استيقظ ، ولكنه فوجيء بالمهاجر يتربّع في عتمة الفجر الأوّل كشبح من اشباح الجنّ . يتمتم بالتمائم ، ويراقب الأفق المطفأ الذي بدأ ينشق بقبس بكر ، خجول يجّد في فصل السماء عن الصحراء ، ويومئ ، بحياء العذارى ، بالبشارة ، بالبكارة التي ستجعل الجلاّد الخالد يخرج من قمقمه الخفيّ ، ويولد مستبدّاً ، صارماً ، في سلطان النّهار . والساحر إذا هاجر فلا بد أن يستعطف المارد بالتعاويذ ، ويدبّر له عقالاً متيناً من التمائم والعزائم والطلسمان ، إذا شاء ألاّ يفتك به في منتصف الطريق . وقد اعتقد أهل الصحراء أن المسافر الذي يكتفي بالتمائم إتّقاءاً لشّر الجلاّد قبل السفر هو أكثر فئات المسافرين شجاعة ، لأن الاعتماد على علوم السّحر وحدها في مواجهة الجلاّد كثيراً ما خذل الدهاة ، فعادوا إلى النّاموس القديم الذي استخدمه كل من أوتي من علم السّحر قليلاً ، وحسبوا أنفسهم من ضعاف النفوس الذين لن تكتب لهم النجاة إلاّ إذا سفحوا الدّم ، وتقرّبوا إلى الإله المستبّد بنحر القرابين .

ولكن الصحراء ظلت ، على مرّ الدهور والأجيال ، ترى هذه

* أسوفض : تشييع المسافر . وهي كلمة مشتقّة من « أسوف» أي «الخلاء» . وقد قضى التقليد أن يشيع المضيف ضيفه مسافة تستغرق ثلاثة أيام ذهاباً .

Twitter: @alqareah

الفئة التي تهيم على وجهها ليل نهار ، تدبّ دون توقف ، وتقطع المتاهة في كل الجهات، تحترف السفر ، وتتخذ من الرحيل ديانة ، دون أن تقدّم للقرص المهول قطرة دم واحدة قرباناً . فكان يطيب للخبثاء أن يتندّروا وينعتوا هؤلاء المهاجرين بـ « ابناء الشمس » الذين لا خوف عليهم من العطش ، أو « أبناء الجنّ» الذين لا يخشون الظّمأ لأنه لا وجود له في ناموسهم . في حين يرى بعض الكهنة أن السحر الذي قهر أهوال الخلاء ليس في الطلسمان أو التمائم ، ولا في الذبائح والقرابين ، ولكنه في الشجاعة . وهو سرّ ينام في صدور الفرسان قبل أن يعرفه السحرة . فمن جُبن واستزاد من الزاد والماء والاعباء مات في منتصف الطريق جوعاً أو عطشاً أو بلدغ حيّة ، أو على يّدعدوّ غازٍ ، أو قاطع طريق ، أو بمكيدة من أشرار الجنّ . ومن تجلّد واستهان بالأعادي ، ورفع راية التحدّي ، وخرج إلى العراء عاريا ، بلا زاد ، بلا ماء ، بلا مؤونة ، بلا دابّة ، فقد غلّب الجلد ، وهزم المسافة ، وانتصر على أهوال الخلاء .

ولكن جواب الفريق المضّاد كان جاهزاً : هل يستطيع مخلوق أن يتحلّى بهذه الخصال دون أن يكون هو نفسه الكبير الذي علّم السّحرة السّحر؟

(٢)

آسوفض يبدأ بوجوم الكهّان ، وصمت المآتم . يتدثّر بوشاح منسوج من ظلال النزع الاخير ، من تلابيب الليل المقهور ، لأن الفجر

Twitter: @alqareah

البكر ، له ، دائماً ، ميعاد مفضّل . في هذا الاوان تنقطع الكائنات عن الكائنات ، وتتشبّه كل المخلوقات بالأعجوبة التي ابتدعت بها الصحراء ناموسها يوماً عندما ارتضت أن تصنع من بدنها العاري وطناً للرّؤى السماويّة ، وخلقت من السكون لغة وحيدة للخطاب . في الاوان المقدّس تستسلم الكائنات في المحراب، وتسلّم أمرها للحرم . تستعير حكمة الحيّة فتشطر لسانها إلى نصفين كي تقمع النفس الامّارة بالسوء ، بالكلام ، بالجعجعة ، بالبلبلة ، بقول الجهل ، بالدّنس ، كي تخفي سرّها، وتكتفي بالاستماع . بالتصنّت للوشوشة الجليلة التي خلفّها الإله قبل أن يهجر الوطن ، ويتركه لنجاسة الخلق .

في هذا الاوان تخرس حتى الاشياء .

تستيقظ ، تتمطّى ، تشيّع غلالات الظلال ، وتتهيّأ للميلاد . ولكنها تمتنع عن الخطاب . تكتفي بالإيماء ، بالإشارة ، لأنها تعرف أن ما خرج من الفم ، مثل ما طلع إلى النور ، حاقت به اللعنة ، وطوّقه السّخط ، وفقد سرّه . ومن فقد سرّه في الاوان المقدّس فقد في النّهار ظلّه .

هذا هو النّاموس .

هذا هو القصاص .

الحجر يتجسّس على الحجر ، والطير يعتصم بالكُنّ المخبّأ في أعلى

Twitter: @alqareah

صخرة ، يدفيء بيضة خرساء ، أو يلزق ريشه بالفراخ الشقيّة حتى يكتم فيها الصوصوة . الطلحة تستطلع الافق بجلال العُبّاد . تترقّب الميلاد بوجوم كاهنة طعنها الزمان بكل الاهوال ، تلبّى نداء نسمة الصّبح ، فتتمايل ، ولكنها تمتنع عن الغناء . تكتم نغماً شجياً كاد ينفلت ، وتكتفي بترويض الموّال في السّر . حتى الحيّة خرجت من الجحر ، ولكنها كانت المخلوق الوحيد بين كائنات البريّة الذي لم يكن في حاجة ليقمع في نفسه الرغبة في الثرثرة ، وتدنيس الفضاء بالقول المجهول ، لأنها ادركت السّر قبل الكائنات جميعاً ، فقطعت لسانها إلى شطرين . انتصرت على نفسها ، فآمنت الحياة من كل خطر .

الخطر هو ما أدّى بالناموس لتحريم النطق . ومنع التفوّه بالأسماء التي تنتظر دعوة الدّاعي لتلبّي النداء . فالكلام الذي اكتسب مسلكاً غدّاراً لابد أن يجرّ إلى مستنقع الدّنس .

والمسافر إذا عرف الدنّس ، بلغ المستنقع الكريه قبل أن يطل رأس الجلاّد، وتطلع الشمس ، فله الويل ، ولن يجد من يحميه من سوء المصير.

(٣)

النّار في الموقد أيضاً لا تجرؤ على البلبلة .

تلتهم العيدان بصوت كتيم مخافة أن تجرح الصّبح الخجول ،

Twitter: @alqareah

مخافة أن تنتهك الطهارة ، فيجفل القبس ، ويفرّ الفجر من مساحة الأفق.

تبقى الاصوات محبوسة في القماقم حتى يخرج الجلاّد من مملكته . بعدها تنتقل السلسلة من محيط البّر ، وتدخل إلى البيوت . يبدأ مأتم آخر أكثر صمتاً وخفاء . تتقدّم الكاهنات ويقفن عسساً على الأثر . على خطو المسافر المحفور في التّراب ، يمنعن قضاء حوائجه كلّها . لا يُرفّ له ثوب ، ولا يرتق له لباس ، ولا يصلح له نعل ، حتّى يأتي اليوم الذي يزغرد فيه الأفق بالبشارة ، ويزفّ للنجع نبأ العودة . ثم تمضي الكاهنات الى الأمام ، ويضعن في سلسلة التحريم حلقة اخرى ، يمنعن الزينة عن النساء ، وينهرن الحسان عن مشط الشعور ، أو حبك الجدائل. وقد تقلب الكاهنات الساحرات الناموس إذا ودّعن مهاجراً معاديا أردن له الخراب ، فيأمرن الصبايا بالفرح ، يمشطن لهن الشعور ، يجدلن لهن الضفائر ، يدلّكن لهن الاجساد برحيق الرّتم . يزغردن فوق رؤوسهن ، ويذهبن إلى الخباء ليرتقن ثوبه ، ويصلحن نعله ، ويهرولن وراءه ، ويمسحن أثر عقبه على التراب . ويتمتمن بالتميمة المجوسية القديمة : ويل لمن سافر وخلّف وراءه الفرح بدل المناحة ! ويل لك يا من لم يخف حوائجه بعيداً، وترك أهل الكراهية يعملون فيها رتقاً وإصلاحاً ورفّاً ، انت لن تبلغ ارضاً ، ولن تجد طريقاً ، ولن تدرك بئراً ، ولن تنزل نجعاً ، ولن تعرف وطناً ، لأن من كرهك قد حكم أن يسبقك تيه ، ويلاحقك

Twitter: @alqareah

تيه ، ويدور حولك تيه ، ويدخل في جوفك تيه ليصير لك قدراً الآن ، وغداً ، وإلى يوم ينفصم حبل الفضّة ، أو ينسحق كوز الذهب أو تنكسر الجرّة على العين ، أو تنقصف البكرة عند البئر ، فيرجع التّراب إلى الأرض كما كان * .

(٤)

ما أن وُلد النّور ، وتبّدى ، من وراء قمم الضفّة الشرقية ، أول سوط ، أوّل لسان في كتلة السّياط ، مبشّراً بانفساخ الطلسمان ، حتى بلبلت النّار في الأرة بلسان اللّهب ، وهشّمت ضلوع العيدان بطقطقة مسموعة . غنّت « مولا – مولا» في السفوح ، ثم اندفعت إلى الموقع ، وحطّت على الطلحة وهي تتغنّى ببشائرها الخفيّة . اهتزّت فروة الشجرة ، ولبّت نداء النّسيم ، فردّدت ، مع «مولا – مولا» انشودة النهار . في مكان ليس بعيداً ، في الناحية الجنوبية من عمق الوادي ، عوى « موخامّد» بشكوى فاجعة . فجأة فزّ المسافر . بدأ يطوّق خصره بقطعة كتّان باهتة كانت له لثاماً قديما . سار وراء المخلوقات . تشبّه باولياء الأمر الذين حقّ لهم أن يمتلكوا الصحراء . قال بنبرة عُبّاد استغفلهم النوم فأقعدهم عن العبادة :

– استغفلنا الوقت ! يجب أن ننطلق قبل الشروق .

أحسّ بالدّنس يتمدّد ويستبّد . انتحر السكون بمدية البلبال ،

---

* سفر الجامعة : ١٢ : ٦ ، ٧ .

Twitter: @alqareah

فتوارى الحرم ، وفقدت الصحراء البكارة . يئس من استرجاع براءة تلقّت الطّعن مع ميلاد الحياة ، وأيقن ، من جديد ، أن الأبله هو من طمع في الاستيلاء على عصفور الفجر ، في امتلاك القبس الوديع ، المشوق، الغامض ، بعد ميلاد النهار .

تكلّم بلغة السحرة لأوّل مرّة :

– ما أن يهجع المخلوق ، ويسلّم عظامه للأرض ، طلباً للراحة حتى يقع في الفخّ . تهيء الأم الارجوحة ، وتهدهده كوليد ، تغنّي له الاغنيات مستعينة بذرّاتها ، حتى تستدرجه للإغفاء . فإن استمرأ الأمر ، واخذه الإغفاء ، استغفلته ، واستعادته إلى حضنها ، ليجد نفسه تراباً كما كان . هئ – هئ .. إنها داهية . ادهى الأمهات . اعترف اننا ما تعلّمنا السّحر إلا منها !

تناول العكاز . امسك به من نهايته . تحسّسه بأصابعه . صنع به دائرة في الهواء . دائرة أخرى ، ثلاث دوائر . في اثناء تدوير العصا في فضاء الصّبح ، كانت سياط الجلاّد المحبوكة من ذرات التّبر تسطع في الاطواق النحاسيّة ، مما جعل بورو يتخيّل الدوائر المدهشة حلقات حقيقية من الذهب استعارتها الاطواق من الدائرة الأم . من كنز الشعاع. من حلقة القصاص والاستبداد .

أنطلق المسافر .

أنطلق خلفه القرينان .

Twitter: @alqareah

(٥)

جبارين رافقهما ليدرك ناقته .

قطعوا الشوط الأوّل . تلوّوا مع الوادي في التيّار المضادّ لمسير السيل . اجتازوا العنق الأوّل فتدفق الشعاع ودهمهم السراب . عبث بتلابيبهم . رفعهم إلى أعلى . جعلهم يدبّون في الفراغ . رسم رموز السحرة في الأفق ، وداعبهم ببسمات غامضة ، جرى قدّامهم مسافات. وعاد كي يغمرهم بفيض النّار . استشاط الهواء . استغاث التّراب وتحمّم في الرمضاء . في الفضاء فاحت رائحة الشياط . رائحة الحطب وهو يقدح الشرر ويوشك أن يودع روحه في هبّة اللّهب . تلألأت الحجارة بالوميض وتسابقت في إظهار الحُسن والتباهي بالجواهر الخفيّة . وَلْوَلَ الطيّر وفرّ إلى اوكارٍ مجهولة . أقبل سيل النّار وجرى في الاتجاه المقلوب. دفعهم بلسانه النّهم فاستسلموا وصاروا له قشاً وَوَقَشاً . قطعوا المسافة الثانية ، ودخلوا المنعطف الثالث .

أنتصف النّهار .

تبّدت النّاقة في البعد وقد ادركها السيل اللعوب ، فتعلّقت بفروة طلحة إنقاذاً لنفسها من الغرق .

من حلقة القصاص فاض الكنز ، وتمادى الوهج . طوّق جسم الناقة بهالة دائرية مثل ساهور القمر . استعارت لوناً من التّبر ، ولوناً من

Twitter: @alqareah

قبس الفجر ، ولوناً من غيهب الغروب . تلاحمت الالوان الثلاثة وانجدلت في إبداع حبكة حبل المسد . تراقصت في ارتجاف غامض كأنّها أُصيبت بمسّ من حفيف لطيف . ثم غلبها السّخاء فجادت بالتقاطع الصّارم . تولّدت العلامة في مخاضٍ لم يستمر طويلاً . رأى جبارين ، كما رأى القرينان ، كيف طغى اللون المستعار من الغيهب اولاً، وفاض على بدن الدّابة كأنه عمود نزل من السماء . يتمدّد ويتردّد. يتمدّد ويتردّد ، ولم يتشجّع ويقطع الدائرة إلاّ بعد أن اجتازوا الأكمة ، واقتربوا مسافة أخرى . لم يتأخر لا لون القبس ، ولا لون التّبر، ففاضا فيه معاً ، فأضاف اتحادهما في العمود المجيد لوناً جديداً هو لون السماوات . أمّا الخطّ الآخر ، الافقي ، فلم يتأخر كثيراً . لم ينبثق انبثاق الفجاءة ، ولكنه تولّد في مخاض أقل، وارتسم بنفس الالوان ، في مهلة أقصر . اكتمل التكوين ، وانتقلت علامة « تانيت » من سيماء بائسة ، بليدة ، مطبوعة بالنّار على الفخذ ، إلى إشارة جليلة مرسومة بكفّ الخفاء على قرطاس الفضاء وعلى رقعة من فضاء . أحاط المجهول العلامة بالطوق الدائري الصّارم ، فاحتوى بدن الناقة وامتلكها ، في قبضة أقوى من سلسلة طولها سبعون ذراعاً ، لإنها قبضة مستديرة ، لم تستمد من معادن الأرض سلطانها ، ولم تحبكها أيدي السحرة الاصغر شأناً ، ولم تقبل أن تتلقى لوناً من الوان الباطل الاسفل ، لأنها لم تنتم للأرض اصلاً. أستمرّت مضيئة ، لمّاعة ، وامضة . ولم تتراجع ، وتبدأ في التلاشي إلا

Twitter: @alqareah

بعد أن اقتربوا من الناقة مسافة لا تزيد عن المائة خطوة .

ساعتها اندفع المهاجر ، وهرول نحوها . وقف في مواجهتها . حدّق في عينيها . ثم دار حولها وهو يعيد بلا توقّف : « هذه الناقة ..» . مدّ يده وتحسّس الوبر على جسمها . تقدّم من الفخذ ودس سبابته في جوف العلامة . في لحمة التقاطع . في السبيل الذي حفرته النّار على بدنها . كانت نهاية السيماء العمودية داميّة . فوق الدّم تجمّع سرب من الذباب . وعندما نزل الساحر بيده إلى اسفل فزّ السرب ، وتفرّق الذباب. في زاوية الجرح ، في دغل الوبر ، رأى جبارين قُراداً يلعق الدّم وقد تخفّى نصفه في الدغل . لامسه الساحر بسبابته ، ولكنه لم ينتزعه . ترك الحشرة الكريهة تلعق الدّم ، ومضى يمرر سبابته ويردّد عبارته الغامضة :«هذه النّاقة..». في تلك الومضة رأى جبارين في عينيه وميضاً. العينان ضاقتا في البداية . غاب منهما السواد . شقّان مثبّتان في محجرين . بعدها بدأتا تتبدّلان . انفتحتا ببطء شديد . وبدل أن تنفتحا عن مقلتين ، رأى فيهما مقلة ذهبية تومض وتتوثبّ وتتوعّد بالخطر . تدوران في محجريهما فينبعث منهما شرر كالسهام المسمومة التي تتسلحّ بها قبائل الادغال . شرر في لون التّبر عرف فيه الوميض الذي تفيض به عيون الحُسّاد عندما تلاقي الحاجة في نفوسهم هوىً . وعندما تلقّى الإلهام ، وعرف أن المقلة هي مقلة حيّة ، توقّع أن يرى الناقة تخرّ إلى الارض وقد صرعتها العين ، ولكن الساحر استعاد مقلته ، وأعاد

Twitter: @alqareah

بغموض : « هذه النّاقة .. ».

عندما مدّ له يده مودّعاً قال له :

– ظننت أنّك لم تتملّك شيئاً منذ عهد الضّب !

شيّعه جبارين بنظرة شقية ، ثم قفز إلى الناقة ، وانتزع من لحمها القُراد.

(٦)

في المسافة يتخفّى السّر الذي يجعل المسافر يستمريء التّراب .

فالمساحة تتواصل ، الأرض التي تتمدّد ، العراء الذي يتوالد ، ويتوالد ، ويتوالد ، كأن في عناده حلّ وعد مجهول ، ولا ينوي أن يتوقف ، أو ينكسر ، فيدينه المولى المجهول حانثاً . هذه المساحة التي لا تتراجع ولا تنعطف ، ولا تلتفت إلى الوراء ، ولا تتمهّل لالتقاط الانفاس، ولا تنتوي أن تتنحىّ عن ملاحقة الافق ، فتنبثق البقعة من البقعة ، وتولد الرقعة من الرقعة ، ويتواصل المدى في المدى ، فتتكوّن من المساحات مسافة . المسافة تتدفّق مع سيول السراب إلى الأمام ، لتصبّ في يمّ الأفق. يلتهمها الافق بلهفة العشاق ، يطويها في جوفه ويركض بها إلى الأمام كأنها بشارة المجهول . يمضي بها إلى الأمام الذي ليس له حدّ ، ولن يكون له حدّ يوماً لأنه مشدود إلى القوس ، والقوس جزء من الدائرة ، والدائرة لا تعترف بالمسافة ، لا تعترف بناموس الزمان والمكان، لا تعترف بشريعة الأعلى والاسفل ، السماء والأرض ، الضياء والظلمة،

Twitter: @alqareah

لأنها خالدة في الزمان والمكان ، لأنها احتوت الأعالي والاسافل ، السماوات والصحاري ، الانوار والظلمات ، فخلقت لنفسها ناموساً لا تنوي أن تخالفه إرضاء للمسافر . والمسافر يلهث ، يهرول ، يهرجل ، يلجأ لـ « توف نازّال»* ولكنه لا يتوقّف . لا يتمّهل ، لا يلتقط ، نفساً ، لا يتجرّع ماء ، لا يستطعم لقمة ، ولا يتنسّم عبيراً بريّاً ، ولا يتمتّع بصفاء المملكة التي تتمدّد أمامه عارية في بهاء الحسناوات الجنيّات ، لأنه أودع البصر للخلاء ، فتلقفه الأفق في غمضة عين . شدّه إليه . قاده بسلطان القوس . وسار به إلى المجهول الذي لا يعترف بالناموس ، وبالقدرة الخفيّة يجد المسافر أن قلبه قد صار في الدائرة . وإذا بلغ دار رأس المسافر ووجد نفسه في قيامة الدائرة ، فيتمادى في الهرولة ويتمادى ، ولا ينزل الصحراء حتى يسقطه الإعياء ارضاً . يسقط قبل أن تفتح الأبواب ويدرك اليقين . وقتها يسلّم الارض بدناً متعباً ، ينزّ عرقاً ، ولكن الينبوع فيه قد شحّ ، لأنه ترك عصفوره الخفيّ في وطن آخر . وعندما ينتهي السباق ، ويعود المسافر من السفر ، يستثقل الوعاء ، ويستنكر على البدن أن يستمرئ التّراب .

لقد أنسته الرحلة أن اللّوم لن يلقى على الولد الرضيع الذي فاق من سبات فتعلّق بثدي أمّه وشاء أن يبقى في الحضن إلى الأبد ، ولكن اللوم في رقبة عصفور النّور الذي طاف المسافات ، وجرّب الضياء ، ثم

* توف نازّال : حرفيا « المفضّلة على الرّكض » ، وهو نوع من الهرولة التي تقي المسافر من الاجهاد ، ويقطع بها المسافة في وقت أسرع .

Twitter: @alqareah

عاد إلى القيد وسكن القفص طوعاً .

(٧)

زحف الغيهب على الأفق فاحتجب الاغواء ، وانتقل الوطن إلى مملكة السكون .

توقف المسافران .

هجع المسافران .

تمدّدا على الارض . أعادا امانة حملاها طويلاً . تلقّى التّراب طيناً خرج منه يوماً وأغترب ، فهرع التّراب إلى التّراب . ولكن العصفور الذي يرفرف في الصدور مضى يقطع المنفى ، يحلّق في فضاء الدائرة . تشكّى التراب إلى التّراب ازداد به التصاقاً ليخبره عن اوجاع الرحيل ، وفواجع الطّواف ، فقبَلَ التراب شكواه وشدّه إليه ليبدع له من حضنه عزاءاً . اندسّ كوم الطين في الرقعة . غاب في المحيط ، غاص البدن في البدن ، احتمى الجزء بالكل ، الفرع بالأصل، وراود العشيقان أمل في الاّ يفترقا إلى الأبد . ولهذا السبب نبض القلبان بالحلم الجسور الذي رأى للعصفور مصير التيه الابدي حتى لا يعود إلى القفص ليفسد خلوة العاشق بالمعشوق ، ويختطف ، من جديد ، الحبيبة من حضن الحبيب .

ولكن قبساً غامضاً ، مطفأ ، حزيناً ، تسلل إلى الصحراء ، وأعاد، مع دفقة الضياء الخجول ، عصفور النور ، فأفسد المكيدة . دبّ الدّفء

Twitter: @alqareah

في الطّين ، فتململ المسافران في هجعة المساء . عاد بورو إلى المنفى اولاً . فتح العين وأبقى الجسد المجهد ممدّداً على الجسد الصبور ، الوفيّ ، الذي لم يُكتب لخلوته الدوام مع الجزء الذي انفصل عنه وتغرّب . تلقّت المقلة فيض الضوء . الفيض الشاحب، المطفأ ، الذي سرح في الخلاء بدهاء السائل اللعوب ، تدفق في الوادي ، فاض به الوادي فتعلّق بالصخور والحجارة . تلكّأ عند افواه الكهوف، فأفزع الجنّ ، شقّ طريقه ، تطاول في الأعالي ، اعتلى السفوح الملفوفة بظلال الغموض ، مضى مسافة أخرى . ادرك القمم في طرف الوادي المقابل . تحمّم بورو بالفيض الشاحب ، المطفأ ، الحزين . تابعه وهو يسعى إليه ويلتف حوله كثعبان الادغال . يحتويه ككفن فضّي ليواري بدناً أعياه السفر ، اعيته الاسفار، وتاق أن يلقى العصا إلى الأبد ، ويعود إلى وطن خانه بالعبور ، ليلتصق به ، ليتوحّد به ، ليتبدّد فيه مرّة واحدة وإلى الأبد . فعندما ترتفع العمامة الفضية ، الدّائرة المجبولة بالنّار المطفأة ، بالنور النبيل ، الشاحب ، عندما تخرج هذه الاعجوبة من ملكوتها ، وتجود بضيائها على الصحراء، تتقاسم مع الرقعة عطيّة تستقطعها من جسمها ، لتعزّيها في عذاب النهار ، وتمسح عن جسدها فجيعة القصاص الخالد . يطل الكائن الوديع ويسكب عليه قرباً من ضياء يختلف بما لا يقاس عن الضياء الآخر، ضياء النهار ، الذي حبك الجلاّد من خيوطه سياطا يجلد بها الوطن وكائنات الوطن . يجيء بالعطيّة ولا يطلب قرباناً مثل بقية الآلهة ،

Twitter: @alqareah

يغدق بالفيض الخجول ولا يرتجي المقابل ، فتتعلّم منه القبائل ، قبائل الخلاء وقبائل الخفاء ، مبدأ الجود ، فتتسابق الأجيال إلى النّاموس، لتحفر في تعاليمه الأحكام التي تشيد بالقمر ، وتضعه إلهاً فوق الآلهة، لأنه الوحيد الذي جاد على الصحراء بنعمته دون أن يطلب في المقابل قرباناً.

تُثبّت الاجيال هذه الوصايا في النّاموس ، ليس اعترافاً بنبل العمامة الفضية المستديرة ، ولكن لأن الأجيال ذاقت مرارة القصاص على يد الجلاّد ، فأوردت في الناموس المفقود نصوصاً انقذت الشفاه بعضها من الضياع ، وروت الواح الحجارة نتفاً أخرى تتحدّث عن سيرة سيول الدّم التي سقى بها أهل الخلاء الوطن العاري في سبيل أن تسترضي المستبّد وتجعل قلبه يلين ويمنع عنهم ناره .

في البداية نحروا الانعام ، قطعاناً من الأنعام . كانوا يجرّون الدواب إلى السفوح الجبلية حيث ينام الاسلاف في دوائر « ايدبنان» ، ويجرّدون المدى النحاسيّة الفظيعة ، ويجرّونها على رقاب المخلوقات الوديعة . ثم يقعدون فوق الصخور المغسولة بالدّم ويرفعون ايديهم إلى إلاله المستبّد ، ويردّدون وراء السحرة : «تيمسي أرمسين تيمسينّم » * . ولكن الجلاّد لم يلتفت للدعاء ، والإله المستبّد لم يرحم . زادته القرابين نهماً ، وهيّجت في أتونه الاضاحي شرهاً مجهولاً لم يعرف له حتى السحرة سبباً ، فتمادى واشعل في الصحراء حرائق .

* تيمسي ارمسين تيمسينّم : يا نار امسكي نارك ! (تماهق) .

Twitter: @alqareah

تيّبست غابات الرّتم ، واكتأبت ادغال الطّلح ، وماتت الحياة في احراش النبات . ذهب السحرة إلى أخبية الاجتماع . تناطحوا حول عظام القرابين ، اختلفوا في التفاسير وإن اتفقوا في قراءة الرموز . تعاندوا طويلاً ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى الحل الوسط إلا في الصباح . من هناك خرجوا بعيون حمراء اجهدها العناد والتحديق في رسوم العظام وطول السّهر . انقسموا إلى مجموعات . بعضهم ذهب لينام على اضرحة « ايدبنان» ليستشير الاسلاف . وآخرون ركضوا وراء اسراب الطيور ليقرأوا في مسلكها النبوءة . وفريق ثالث نزع لباسه إلى آخر قطعة وسار عاريا إلى البحيرات . رمى بنفسه إلى الغمر ليحاور في القيعان البطّ البري ، ليعود منه إلى القبيلة بالخبر الذي جعل الإله يرفض القربان .

عادوا يتجادلون في الخباء بمجرّد أن التمّوا في الاجتماع . ولكنهم ، كعادتهم دائماً ، لا يخرجون من المجمع إلاّ وقد اتفقوا على أمر . اتفاقهم هذه المرّة أعفى الانعام الأليفة ، ووقع خراباً على رأس الجدّ المقدّس : الودّان !

اطلقوا النذير ليبشّر القبائل بمرسوم الحكماء . لم ينطق النذير بنص المرسوم لأنه لم يُعرف له نصّ كما لم يعرف نصّ لمراسيم السحرة ولا لنواياهم ، ولكنه نادى الفرسان للتجمّع ، وحثّ الرّسل على الانطلاق إلى القبائل الأخرى للمّ شمل الأبطال الذين عرفوا الغزوات ، وصنعوا

Twitter: @alqareah

بسيوفهم ورماحهم ملاحم الحملات ، وصدّوا الغزوات . وكان السّحرة يعرفون دائماً كيف يستدرجون المقاتلين . فقد جرّبوا أن التلويح بالحملات له في نفوسهم وقع أقوى من طبول الخطر ، ومن نفير الأبواق، ومن وَلْوَلة النساء ، لأن الرّجال الذين لم يزد انتقام الإله نار الشهوة في ابدانهم إلاّ اشتعالاً ، كانوا في استنفار دائم إذا تعلّق الأمر بتنظيم الحملات على الأدغال لاستجلاب السبايا . وقد لقّنوا النذير هذه المرّة بنصوص حذّروه أن يصيبها باجتهاد كما يروق للنذيرين والمبشّرين أن يفعلوا . ولم يمض على النّداء مطلع قمر واحد حتى ازدحم العراء بالفرسان . جاءوا متمنطقين بالسيوف والرماح والسهام . يرتدون لباسهم الازرق الذي جرّبوا أنّ هيبته وحدها كانت سبباً في هزيمة اشدّ القبائل الغازية شراسة وشجاعة ومهارة في استخدام السيوف .

انتظرت حشود المحاربين إشارة الزعيم لبدء الحملة .

ولكن الزعيم لم يعط الإشارة ، ولم يخرج إلى المحاربين من الخباء. كان محاطاً بمجلس السحرة ، يجادلهم بصوت علا وعلا لأول مرّة حتى وصل إلى آذان الفرسان المحتشدين في الخارج . سمعه كثيرون يقول انه لن يقبل بنحر الجدّ استعطافاً للجلاّد ، لأن الناموس لن يرتضي أن ينحر إله تقربا لإله آخر ، وهو لن يشارك في المذبحة حتى لو تمادى الجلاّد واطلق حريقاً يلتهم الحجارة أيضاً ، لأنه لا ينوي أن يروي « آنهي» للأجيال أنه رضي أن يرتكب الخطيّة ، ويحمل دم الودّان المقدّس في

Twitter: @alqareah

رقبته حتى لو حوّله الجلاّد الشّره بناره إلى رماد . ودعاهم أيضاً أن يحترسوا ، فقال أن الحكمة الخفيّة تقول أن من يبدأ بنحر الجدّ المقدّس فسوف لن يتوقف حتى يجد نفسه في المنتهى ينحر اولاده وبناته . علت الهمهمة ، واحتدم الجدل ، ولكن الزعيم افلت من الخباء ، وسار إلى الرابية . هناك رفع يديه إلى السماء ولعن السحرة بصوت عالٍ . وهجر القبيلة منذ ذلك الخلاف ، وتولّى زعامة قبيلة نبيلة من قبائل الجنّ .

أمّا السحرة فتولّوا قيادة الحملة على الودّان بأنفسهم . تحلّوا بخصال القادة الحكماء فكتموا أمر المذبحة ، ولم يفشوا السّر ويكشفوا مكيدتهم إلا بعد أن بلغوا الجبال . ساعتها اعطوا امراً صارماً بمطاردة الإله الجبلي وقالوا أن الصحراء لن ترى الخلاص من لعنة الجفاف إلا إذا سُقيت ارضها بسيل من دم الودان ، وسياط الجلاّدلن تكف عن إشعال الحرائق إلا إذا أكلت قطعاناً من لحم الجدّ القديم . تردّد فرسان كثيرون يومها ، وارتفعت اصوات تؤيد الزعيم ، فسارع الدهاة إلى الحيلة . انبروا يدغدغون في الفرسان ذلك النزوع الخفي إلى ارتكاب الشرّ الذي لا يعرفه غيرهم ، وغذّوا في نفوسهم نهماً مجهولاً سبّاقاً إلى التخريب ، دون أن ينسوا الطعن في موقف الزعيم . قالوا انه خان القبيلة من حيث ظنّ أنه كتب لها الخلود بالدفاع عن إلهها الجبلي ، وغاب عنه أن التضحيّة بالمحرّم هي السّر الذي اقرّته شرائع الأوّلين ، والقربان الحقّ لا يكون قرباناً حقّاً ما لم يحتل أعلى درجات القداسة . وإذا كان الودّان

Twitter: @alqareah

إلها تركه لنا الأجداد فما أجدره أن يحمي القبيلة من غول الفناء ، ويقدّم نفسه قرباناً لإله أعلى منه واقوى سلطاناً، اسوة بما تفعله بقية الآلهة كما رأينا في ممالك الادغال

صدق حدس السحرة .

فما أن انتهوا من التحريض حتى بدأت الحملة .

في ذلك اليوم أُبيد الإله الجبلي ، وقطع السيف سيرة الودّان في الصّحراء.

ويُروى أن املاً لاح في ذلك التاريخ البعيد . عبس الافق ، تجهّمت السماء ، وتوارى الجلاد خجلاً . ابتهج السحرة ، وعقدوا المهرجان . أمروا أن تقام الأفراح ، وتقرع طبول البشارة . تسابق الفرسان ورقصوا بالمهاري في العراء . غنّت لهم الصبايا مواويل الأشجان ، وردّدت الشاعرات اشعاراً في مديح الانتصار .

لم يطل الانتظار .

مضت الشّمس تتوارى حتى ظنّها العقلاء قد انطفأت إلى الأبد . ولكن المطر لم يتدفق إلا بعد أمدٍ طويل ، ولم يتوقف إلاّ بعد أمد طويل أيضاً . استمّر ينهمر حتى ارتوت حجارة الجبال فدفعته إلى الاسافل ، هناك نهل منه تراب الوديان ، وشربت الارض لتطفئ ظمأ الأزل . مضت تقعقع بالويل وتنتحب حتى فقد الخلق حساب الأيام لأنهم لم

Twitter: @alqareah

يعودوا يميزون بين الليل والنهار بسبب الظّلمة . اختنقت الوديان بالسلسبيل أخيراً ففاضت ودفعته إلى الأسافل . ارتفع فوق الضفاف فبلغ السّهول . جرف أنعام القبائل ومّد يداً تتعطش للقصاص إلى الولدان والصبايا . اختطف الصبيان والعذارى وساقهم قرباناً لإلهه المجهول . تشتّت العشائر وفرّقت السيول شمل القبائل . فرّ أهل الصحراء إلى جزائر أقامها بحر الرمال العظيم ومكثوا هناك . في حين فرّت عشائر أخرى واحتمت برؤوس الجبال الزرق . تعبّد السحرة وصاموا عن الطعام والكلام حتى مات اغلبهم جوعاً ، ولكن البلاء لم يتراجع ، والظلمة لم تنقشع ، والجلاد لم يظهر . ولا أحد من رواة الماضي ، أو حكماء الناموس ، أورد هوية الساحر الذي صمّم أن يتولّى الأمر بمفرده، فاعتكف في الكهوف زمناً ، ثم خرج من هناك هيكلاً عارياً من العظام . وقف فوق شعفة الجبل ورفع كلتا يديه إلى السماء وخاطب الإله الذي تخفّى « :«تيمسي . تيمسي . أرّد تيمسينّم » * . ونزل من هناك إلى السفوح بجسده الهزيل ، العاري ، ونحر طابوراً كاملاً من الصبايا الأبكار .

توقّف المطر ، وانقذ السّر القبيلة من الزوال .

بعد الامتحان يئس السحرة واوقفوا القرابين . بدأوا يمجّدون القمر في صلواتهم ، ويروّجون في القبيلة لديانة جديدة ترى أنّه يستحق

---

* تيمسي . تيمسي . أرّد تيمسينّم : يانار . يانار . أعيدي نارك (تماهق) .

Twitter: @alqareah

العشق . أمّا الشمس فقد حرّموا ذكر إسمها منذ تلك الفجيعة ، واطلقوا عليها إسم «الجلاّد»، لأنها دخلت دائرة الاعداء الخالدين ، وصارت عضواً في العشيرة التي تحمل الاسماء المستعارة مثل الساحرة «تيرزازت» و « موخامّد » و «تانمضال»* .

---

* « تيرزازت» : الأرنب . « موخامّد» : الذئب . « تانمضال » : الحيّة !

Twitter: @alqareah

١٧ - الحجرب

« هذا هو الحجر الذي احتقرتموه ، أيها البنّأوون ، فصار رأس الزاوية»

اعمال الرّسل

(٤ : ١١)

***

« ولّما كان هيرودس مزمعاً أن يقدّمه كان بطرس في تلك الليلة نائماً بين عسكريّيْن ، مربوطاً بسلسلتين وكان قدّام الباب حرّاس يحرسون السّجن . وإذا ملاك الرّب أقبل ، ونور أضاء في البيت . فضرب جنب بطرس وأيقظه قائلاً : قم عاجلاً . فسقطت السلسلتان من يديه . وقال له الملاك تمنطق والبس نعليك . ففعل هكذا . فقال له البس رداءك واتبعني . فخرج يتبعه . وكان لا يعلم أن الذي جرى بواسطة الملاك هو حقيقي ، بل يظّن أنه ينظر رؤيا .» .

اعمال الرّسل

(١٢ : ٦ ، ٩)

***

« قالوا : من الاشياء ما كان صوتها خفيّاً ، فلا يفهمه عنها إلاّ ما كان من شكلها ».

الجاحظ

«الحيوان»

Twitter: @alqareah

(١)

سأل بورو :

- هل كان الحجر نطروناً ؟

المهاجر لم يجب ، فتفكّر بورو في النّطرون . النطرون أيضاً يستدير في البدن ، يحاكي الملح شكلاً ، ولكنه أنبل من نعمة الملح ، يتخفّى في العتمة ، ولكن جوفه يضيق بالوميض . يمضغه السحرة مع «تابا» ، أو غيرها من الاعشاب ، فيقيهم شرّ الخلق . يشربونه مخلوطاً بالماء فيغسل الامعاء من الأظافر المميتة ، ويشفي المصابين بالمكيدة السحريّة المعروفة بـ « ضربة المخلب» . تدرّه الساحرات في المستحضرات ، وتمزجه بالعقاقير ، فينقذ المجذوبين من الوجد المزمن ، ومن اسقام الحنين ، والماليخوليا السوداء ، وداء العشق ، والتعلّق بالنساء المجهولات . وهي علل دخلت الصحراء وانتشرت بين القبائل مع افواج السحرة القادمين من ممالك الادغال . في حين استخدمه الاسلاف في غسل الاموات ليبقى على البدن معافى في عودته من المنفى ، ويحميه من الديدان والحيّات والزمان ، في عودته إلى وطنه الأوّل الذي خرج منه . هذه المزايا جعلت النطرون أنفس الاحجار ، وانبل المعادن . يستخرجه الدهاة من مداخن مجهولة ويبادلونه بخيرات تساوي

Twitter: @alqareah

ثروات.

تكلّم المهاجر . تكلّم بعد أن خاله بورو نائماً فيئس من تلقّى الجواب . هام مع السائل الفضّي الذي يتدفق فوق الخلاء . يستر المسافات بغلالات منسوجة بخيط الغموض . يطوف العراء بالرحمة فلا يميت المسافر ظمأ ، ولا يحرق الحجارة بالنّار ، ولا يفتك بالطّلح ، ولا يصيب «مولا – مولا» بالهلاك، كما يفعل ضياء الجلاّد.

ولكن المهاجر لم يكن نائماً . وصمته لم يكن سكوتَ من غلبه الإعياء، فاستسلم لإغفاء . ولكنه تريّث السحرة عندما يريدون أن يتجنّبوا مسالك الحمقى . الساحر يتعمّد أن يبتعد عن الجواب حتّى يقترب من السؤال ، حتى يدخل في مملكة السؤال ، ولا يرى في التأنّي انتقاصاً ، ولا يتحرّج أن يتمسّح بأبواب المملكة كالمتسوّل ليستعطف العسس والحجّاب . ولا يتراجع إلى الوراء إلاّ بعد أن ينتزع الاذن بالصبر والحلم واللغة والتمهّل وبقية التمائم . تبدأ بعدها الخطوة الاولى . تبدأ رحلة تمر عبر وادي الظلمات ، لأنها رحلة مثيلة لرحلة الفوز بالكنز ، بالحيّة ، بالحياة . رحلة الفوز بالجواب ، بالسّر ، **بالمعنى** . ولو سافر كل مجيب وراء السؤال إلى المملكة الخفية ، لما عانى الخلق من غموض المسألة ، ولا تخبّط الحمقى في قمقم الجهل ، ولاحار توّاق في إدراك المعنى ، ولتقلّب الجميع في فردوس المعرفة ، ولتنعّم كل الخلق بكنز المعنى .

Twitter: @alqareah

عاد الساحر من وادي الظلمات بجواب رحل في طلبه طويلاً ، وذلّل في سبيله اهوالاً :

– الحجر لم يكن نطروناً .

– هل كان جوهراً نفيساً ؟

– انفس من كل جوهر نفيس !

– حدثني عن الحجر !

ابتسم الساحر بحلم السحرة . وغفر لبورو تسّرع الخلق ولهفتهم، تلك اللهفة البلهاء التي تفسد لذّة الجواب ، ولا تقترب بهم إلى اليقين بقدر ما تبعدهم عن موقع الكنز ، وتحرمهم من دخول الفردوس ، فردوس المعرفة ، فردوس المعنى . ظلّ الساحر هامداً . يهجع على قفاه . عيناه مغمضتان ، بدنه التصق بالارض في التحام حميم ، لم يتململ ، لم يتقلّب من الجنب الايسر إلى الجنب الأيمن ، أو من الجنب الايمن إلى الجنب الأيسر كما يفعل متعبون نالت منهم المسافة . ولكنه تكلّم عن الحجر ، عن سّر الحجر ، ببرود أثار إعجاب القرين .

قال أن الحجر كان في الماضي البعيد عندما كانت الحجارة كلها ما تزال رطبة ، لوحاً طينياً ، قطعة من الطيّن الرّخو ، الاملس ، المبلل بمياه السلسبيل . ولكنه كان محروماً من البهاء لأنه محكوم عليه بالموت في ناموس الزمان . كان بهيّا في وداعته ، مرونته ، ورخاوته ، وصبره

Twitter: @alqareah

الجليل. ولكن هذه شروط لا تكفي لنيل البهاء الآخر . البهاء الخفيّ المنكفئ إلى الجوف ، لأن الآوّلين لم يقيموا معه عهداً بعد .

تدفّق الزمان . تراجع الغمر . ارتفعت الظلمة واقبل الضياء . وكفر الجدّ بالحياة في بساتين «واو» وانتهك حرمة الحرم ، فوجد نفسه خارج البستان . ارتدى اللثام عقب الخروج ظنّاً منه أنه يستطيع أن يخفي عاره . أقام في الصحراء وجعلها وطناً لسلالته العجيبة . ولكن السلالة اكتشفت أن الحياة يعقبها زوال ، والآباء يفنون في الابناء ، والابناء يبيدون في الأحفاد ، ولا يبقى للاوّلين ذكر في ذاكرة التّالين ، ولا للتالين ذكر في ذاكرة الذين يعقبونهم ، والنسيان هو السلطان ، والفناء هو النّاموس المنزّل الذي لا يستقيم في وجهه ناموس . فجعهم بطلان كل شيء ، وارهبهم غول الزوال ، فكرهوا أن يحيوا ، وتمنّوا لو لم يولدوا ، لو لم يوجدوا ، فناحوا زماناً ، ويئسوا زماناً ، ولكن لا النواح صار لهم عزاءاً ، ولا اليأس انقذهم من مصير الباطل . فلم يجدوا حيلة تبقي ذكرهم ، وتحمل رسالتهم ، وتحدّث الأجيال بسيرتهم ، غير لوح الطّين .

نزلوا إلى الوادي وأقاموا معه العهد . بصموه بفجيعتهم ، وبثّوه بغربتهم ، وحدّثوه عن قساوة الحال ، وبكوا بين يديه ، وتوسّلوا إليه أن يكون رسولاً يحمل نبوءتهم إلى الاجيال ، ويخبر احفاد الاحفاد أنهم لم يكونوا وهماً ولاهباء ، ولا ظلاً بليداً ، ولكنهم دبّوا على قدمين

Twitter: @alqareah

مثلهم، وعشقوا الحسان مثلهم ، وألقت بهم اشجان الالحان في ممالك الوجد مثلهم ، وتنسّموا أزاهير الرّتم مثلهم ، وذاقوا طعم الترفاس مثلهم، ولكن الخروج من الوطن هو مارماهم بالهّم ، وغضبة سلطان الحرم هي التي كتبت على جبينهم مصير الزوال ، حتى عدّهم اللاحقون طيفاً من الاطياف ، أو وهماً أبدع في تصويره السراب .

قَبِلَ الطين الوصيّة ، وسافر بها في الزمان . أخذ من النهار زاداً من ضوء فانكفأ عليه واخفاه في الجوف ، واختلس من الليل وشاحاً من الظلمة تنكّر فيه، واخفى فيه سرّه . ثم انطلق في دوامة الزمان . اصابه التحّول الأوّل . تصلّب فيه البدن ، واصابت صورته التبّدل . نزع وعاء الرخاوة ، والمرونة ، والميوعة ، واستبدله بآخر يليق بكائن أراد أن يتولّى الأمر ، فأخذ على عاتقه وزراً خشيته السماء ، وامتنعت عن حمله الجبال. انطلق مرّة أخرى في دوامة الزمان . قطع مسافة طويلة أخرى قبل أن يستبدل بدن الصلصال ، الثوب القديم، بآخر جديد . اصابه التحوّل وبلغ مقام الحجر . تكوّر مسدلاً على نفسه ستاراً منيعاً من العتمة، في حين اخفى الوهج بعيداً ، وامعن في التكتّم على السّر ، على الوصيّة . ولكن البلاء الأكبر هو أنه اكتشف أن الاخلاف نسوا لغة الاسلاف ، فلم يفهموا من الوصية الجليلة رمزاً واحداً . والابناء إذا نسوا لغة الآباء فإن الضياع صار لهم حياة ، والتّيه يصبح لهم ناموساً ، والبلاهة هي لهم المسلك . ولولا السحرة لما عرف أحد في الصحراء للحجر

Twitter: @alqareah

الحكيم هويةً ، ولما فهم له أحد لغة ، ولما ادرك له أحد سراًّ .

الاخلاف لم يخونوا الاسلاف لأنهم جهلوا لغة الحجر فحسب ، ولكنهم خانوا مرة أخرى لأنهم اضاعوا الحجر نفسه .

كرّر الساحر العبارة ثلاث مرّات قبل أن يتوقف ويركن للصمت. دمدم صدر بورو بأنين مكتوم ، ولكن الساحر عاد إلى سيرة الحجر :

- الحقّ أن الحجر حاول أن ينقل الوصيّة للاحفاد ، فخاطبهم طويلاً ، طويلاً ، ولكن الأجيال لم تفهمه ، لأنّ الزمان الذي قطع صلتهم بالسلّف انساهم اللغة الاولى أيضاً ، فوجد الحجر نفسه غريباً ، يتدحرج في ارض غريبة، ويتكلّم بلغة منسية ، فلا يجد اذناً صاغية ممن بُعث لهم رسولاً .

كائن وحيد استطاع أن يفهم لغة الحجر هو : الماء ! فقد اعتاد هذا الكائن أن ينساب بين الصخور بمرونة الأفعى ليداعب الحجارة ، ويلامس الحصى ، ويدغدغ اصول الشجر ، ويشاكس الجلاميد فيحفر تحتها اخاديد ، ويشقّ دروباً ، ليتجسّس على الكائنات السفلى . في هذه الاسفار اهتدى إلى الحجر . داعبه ، لاطفه ، دغدغه ، ثم احاط به وغمره بالفيض . تأوّه الحجر وبرطم بغموض . انتفض السائل الشقيّ وتنحّى جانباً . غاب في التراب . نفذ من جانب آخر . وخاطب السماء عجباً وألقاً . تلقّى جواب السماء قصاصاً . احترق بالشعاع ، واصابه

Twitter: @alqareah

الجلاّد بسياط النّار حتى فقد بدنه ، وتبدّد بخاراً في الفراغ . طاف المجهول ، وعبر المكان والزمان ، وعرف زوالاً لم يعرفه سواه ، ووقف على السّر في الأعالي ، ثم عاد إلى الاسافل ، وسقط على رأس الحجر مطراً . التحم بالحجر المنسيّ . المهمل ، الغريب ، وحاوره باللغة القديمة، بلغة الأبد . انطلق الحجر يروي سيرته ، ويبثّ لسان الماء شكواه عن المنفى والشقاء. قال للماء أن اقسى امتحان يبتلى به كائن أن يقبل أمانة لا يجد لها أهلاً ، وليس هناك ما هو أكثر فجيعة من أن تكون رسولاً ، ولا تجد كائناً آخر يتلقّى رسالتك . فقال له الماء أن هذا حال كل الكائنات التي فقدت لغة التخاطب . الأرض فقدت لغة السماء فتغرّبت عنها ، الانسان فقد لغة الودّان فتغرّب . الودّان فقد لغة الشجر فتغرّب ، الشجر فقد لغة الحجر فتغرّب . ظلاّ يتكلمان كثيراً ، يتحاوران ويرطمان زماناً لا يقاس بوحدة المخلوقات الفانية . تضاءل بدن الحجر وتضاءل جسد الماء، تلامع بدن الحجر بالوميض ، كما تألق جسد السلسبيل بالضياء . صارا يسيران نحو فقدان الوعاء . أصاب بدن الحجر داء التلاشي ، ونالت جسد الماء علل الاحتجاب . ولكن اللغة المشتركة كانت لهما رباطاً ومصيراً ، فمضيا يثرثران معاً . ورآهما السحرة في التحامهما فأثار الوفاء اعجابهم ، وقالوا أن الماء والحجر هما الكائنان الوحيدان اللذان يفقدان جسدهما ، ويسيران نحو الزوال ، عندما يتكلمان كثيراً . ويعترف السحرة اليوم أن الفضل يرجع للماء في استنطاق القرين التّائه ،

Twitter: @alqareah

وإرشادهم للغة الخفية . نسيت أن أخبرك أن دهاة هذه الملّة قد توصّلوا إلى فهم لغة الماء قبلها بوقت طويل . احترفوا قراءة النبوآت في هدير السيول ، وزخّات المطر ، وثرثرة الجداول التي تنهمر من رؤس الجبال . وقد رأيتهم في تاسيلي بنفسي وهم يتوسّدون اذرعهم ليتجسّسوا على الينابيع السفلية . ونزلت ضيفاً على احدهم في إحدى رحلاتي لتفقّد الأتان في تلك الجبال . كان يجلس على جلمود على ظهر السّفح ، بجواره يرطن الماء في ينبوع يتدفق من الأعالي ، يتصنّت بخشوع الكّهان ، حتّى أنه لم يهرع للقائي ، ولم يستقبلني بوعاء الحياة كما يقتضي ناموس الخلاء ، فشككت في أمره ، وظننته شبحاً من أهل الخفاء

قرأت التمائم لإزالته ، ولكنه لم يتبّدد ، ولم يختفِ ، فأيقنت أنه من أهل الخلاء . بحثت له عن الاعذار وقلت لا شك أنّ أنّه أعمى . جلست بجواره ، ركعت ورأيت أن أنهل من النبع لأطفئ الظمأ ، فاوقفني بإشارة صارمة من سبابته . انتظرت وقتاً آخر ، ولكن الساحر غاب في دنياه ولم يلتفت إليّ . يئست فذهبت لأرتوي من ماء نبع آخر . لم أجد نبعاً في المسافة التالية ، كما فقدت السبيل إلى الآبار القديمة بسبب العجاج . بعد يومين ادركني الساحر راكضاً ، يحمل خبزاً وتمراً وشكوة ماء . أخبرني بما خبّره النّبع . أخبرني بما خبّره الماء . انبأني بكل بلوى لحقت الصحراء خلال السنوات التالية . الجدب . غزوات القبلي، غزوات الغزاة . الاوبئة . رحيل الزعماء وكبار السحرة إلى الأرض

Twitter: @alqareah

الأخرى التي لم يشاؤوا أن يعودوا منها إلى وطن الرّؤى . وقد عاشت الصحراء تلك المصائب ، وتلقّت كل اللعنات التي قرأها الساحر في ثرثرة جدول تاسيلي . ولا أخفي عليك أنّي عدت إلى تاسيلي لا لتفقّد الأتان هذه المرّة ، ولكن للالتقاء بالساحر القديم . طُفت السلسلة كلّها، وفتّشتها شقاً شقاً ، حجراً ، حجراً ، واديا ، واديا . طلحة ، طلحة ، ولكن الكاهن العظيم اختفى . يئست ورحلت . في الطريق قابلت نبيلاً من قبائل الجنّ أخبرني أن الداهية قد رحل مع من رحل من الزعماء وكبار السحرة إلى الأرض الأخرى ، فأسفت كثيراً ، لا لفراقه، ولا لأن موت الدّهاة يقابل موت قبيلة كاملة ، ولكن لأنّي كنت متلهّفاً لتعلّم لغة الماء .

سكت المهاجر . تكلّم بورو :

– أعد الحجر إلى مولاه ! رُدّلي حجري!

– هيهات . الحجر تكلّم كثيراً ، والحجر إذا تكلّم كثيراً فقد بدنه، وتبدّد في الفراغ مثل قرينه الماء !

– لم اسمعه يتكلّم قط !

– وهل يعني ألاّ تسمعه أنه لا يتكلّم ؟ وهل تسمع للزمان صوتاً ؟ أو هل ترى له صورة ؟ هل تسمع دبيب الفناء ، أو ترى له صورة ؟ وهل تسمع للخفيّ صوتا ، أو ترى له صورة ؟ وهل سبق ورأيت الزعيم الذي

Twitter: @alqareah

يعتصم بالأعالي ، أو سمعت له صوتا ؟ ومع كل هذا فإن غياب الاصوات والصور ليس برهاناً يلغي وجود العتاة .

تكلّم بورو بيأس الاطفال إذا ذاقوا مرارة التجريب ، وعرفوا خيبة الامتحان :

– لقد نلته مرتين . مرّة فقدته بالطيش فنلت الجزاء ، ومرّة اعاده لي الكائن الوديع في الرحلة ، فخطفته من بين يديّ . رأيتك ..

قاطعه الساحر :

– لا انوي أن اخفي عنك شيئاً . لقد القيت به في الظلمة فهدانا إلى الكنز . برطم بالتمائم القديمة ، بتمائم الاوّلين الذين يحمل كنزهم في جوفه . فأنار لنا السبيل ودلّنا على الكنز الآخر ، كنز الاعماق السفلى ، كنز التّبر الذي تقف عليه الحيّة عسّاساً ! هئ – هئ – هئ .. أو .. أو الحيّة التي يقف فوق رأسها التّبر حرساً ، إذا شئت الحق . هئ – هئ – هئ ..

– اعرف . اعرف . لقد فزت **بالكنز** وتركت لي التّراب . لقد خطفت **الحية** . وتركت لي الهباء !

– لم اخفِ ذلك أيضاً . لأنّك لا تعرف أنّي لو لم افعل ذلك لفقدت جسدي أيضاً ، وتبدّدت في الفراغ كالماء ، كالحجر الحكيم إذا تكلّم بالنبوءة ، أو انضممت إلى قافلة الغيّاب الذين استمرأوا الارض

Twitter: @alqareah

الأخرى ، الصحراء الاخرى ، وآثروا ألاّ يعودوا . هئ – هئ .. لو لم أقم مع الحية عهداً ، واربط مصيري بمصيرها إلى الأبد ، لما وجدتني بجوارك ، ولما عرفتني مهاجراً ابدياً في الصحراء ، ولما لعنني الخلق حسداً ، وسمّوني « وانتهيط » * لأنّي افضّل أن أتخذ من الأتان دابّة بدل جِمَالكم الحمقاء !

– ظننت أن الحمير أحمق دابّة عرفتها الصحراء .

– هئ – هئ – هئ .. يا لكم من حمقى مثلكم مثل جِمالكم . ولو لم تكونوا حمقى لما تقاتلتم على التّراب ، على التّبر ، وتركتم الكنز الحيّ ، الحيّة . ولكن هذا سرّ كُتب عليكم ألاّ تدركوه إلى الأبد . إلى الأبد . إلى الابد ! ها – ها – ها – ها ..

قهقهته المهولة افزعت بورو ، ولكنها لم تمنعه أن يسأل بعناد الاطفال :

– ولكن اجبني على سؤال : هل يجوز ، بحساب العقل ، أن يحدث **كل ما حدث** في ليلة ؟

أجاب الساحر بنفس الروح العدوانية التي تملّكته فجأة :

– هذه بلاهة أخرى من بلاهاتكم . **ما حدث** كان يمكن ألاّ يحدث حقاً لو حسبناه بقياس العقل كما يطيب لكم أن تفعلوا ،

* وانتهيط : صاحب الأتان . (تماهق) .

Twitter: @alqareah

وسامحني ، أيها القرين الشقّي ، أن أقول لك أنكم لن تفلحوا ما دمتم تقيسون كل ما حوته الدائرة المطوّقة بقوسي السماء والصحراء بحساب العقل . هذه الحماقة انستكم لغة الطير ، وجعلتكم تضيّعون انفسكم إذ فقدتم لغة الحجر الحكيم ، واهلكتكم إذ اعمتكم عن **المعنى** المحشور في الدائرة ، وكتبت عليكم تيهاً لا عودة منه إذ أضعتم بعد هذا كله الناموس إلى الحياة : **آلهي** . وتريد بعد هذا كله أن تفهم كيف دخلنا وادي الظلمات ، و**عبرنا** بعد أن **نحرنا** ، **فزنا** بعد أن **تهنا** ؟ ها – ها – ها . . .

جلجل بضحكة أخرى . ضحكة مُنكرة ، ماكرة ، كريهة ، ظلّت تتردد طويلاً ، طويلاً ، في فراغ الصحراء .

(٢)

لم يدرك بورو ماذا أصاب المهاجر الوقور . لم يفهم السّبب الذي بدّل فيه المزاج ، ورماه بالسويداء وروح العدوان . أراد أن يستفهم كثيراً، ويستعلم ممن أوتي علماً ، عن الدائرة ، والمعنى والظّلّ ومملكة الودّان ، واحوال الارض الاخرى التي يأبى من دخلها أن يخرج منها ، ولكن الضحكة المنكرة ، الماكرة، الكريهة ، افزعته ، فتابع العمامة الفضيّة الخجولة وهي تميل إلى المغيب، فقرأ فيها علامة غامضة مدّته بالعزاء .

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

١٨ - البكاء

«إن علامة وفاء المرء ودوام عهده ، حنينه إلى اخوانه ، وشوقه إلى اوطانه ، وبكاءه على ما مضى من زمانه » .

المسعودي «مروج الذّهب»

* * * *

«البكاء صالح للطبائع ، ومحمود المغبّة ، إذا وافق الموضع ، ولم يجاوز المقدار ، ولم يعدل عن الجهة . ودليل على الرّقة ، والبعد عن القسوة ، وربما عُدّ من الوفاء ، وشدّة الوجد بالاولياء ، وهو اعظم ما تقرّب به العابدون ، واسترحم به الخائفون» .

الجاحظ «البخلاء»

* * * *

Twitter: @alqareah

(١)

عاد بورو يحمل في ثيابه وباء السّويداء* .

في اليوم الاوّل أصابه الاكتئاب فتجهّم وتعلّق بالصمت . في النهار التالي بدأ يرطم لنفسه : «من اهتدى إلى لباسي في الكهف فرتقه؟ من وجد نعلي فأصلحه ؟ من محا أثري على الارض يوم سفري؟ من لاحقني بالزغاريد والأغاني والضحك يوم خروجي ؟ من أمر الصبايا أن يصبغن خدودهن بـ «تفتست» ويمشطن شعورهن في جدائل ؟ من ... من ادرك أن بورو إسمي المستعار فاهتدى إلى إسمي الخفّي ؟» . ينهض ويدور قدّام الموقد ، ثم يترنحّ ، يدق صدره بقبضته ، يسرح في الخلاء مسافة . يعود الى الموقع . يطوف حول جلمود الاسلاف . يغمغم لنفسه بالجواب : «تيرزازت من اهتدى إلى لباسي في الكهف فرتقه ، تيرزازت وجدت نعلي فأصلحته . تيرزازت محت أثري على الارض يوم سفري. تيرزازت لاحقتني بالزغاريد والاغاني والضحك يوم خروجي . تيرزازت من أمر الصبايا أن يصبغن خدودهن بـ «تفتست» ويمشطن شعورهن في جدائل كي يصيبني السوء . تيرزازت ادركت أن بورو هو إسمي المستعار ، واهتدت إلى إسمي الخفّي» . ثم استبدل تيرزازت بـ «وانتهيط» فعلّق في رقبته كل ما أصابه من سوء . لاحقه جبارين بوعاء الماء . رشّه بنثرات على وجهه ، وقرأ

(*) نوع من الماليخوليا .

Twitter: @alqareah

على رأسه تمائم تعلّمها من ساحر مخيف نزح من الادغال واستوطن الحمادة . ولكن حال القرين ازداد سوءاً . اشتكى من مزاح الجنّ ، وقال أن أشرارهم احاطوا به مع حلول الغسق ومدّوا له السنة من نار ، واستنفزّوه برؤوسهم المقطوعة التي ينزف منها دم ازرق . في المساء طلب من قرينه أن يعصب له عينيه باللثام حتى لا يرى وجوههم الكريهه، فبدّلوا الاسلوب ، وقهقهوا في اذنيه ، وافزعوه بقهقهات مُنكرة ذكّرته بقهقهة الساحر في الخلاء . وبلغت بهم الوقاحة حداًّ جعلهم يلقون في كُمّه حيّه غاضبة تتوعد بالفحيح ، وتتأهب لحقن العدّو بالنّاب المسموم ، ولكن الحيّة لم تلدغه . تذكّر القران ، وسمع صوت الساحر وهو يتحدّث عن العهد الذي أقامه بينهما على ألاّ يمدّ يده لقتل حيّة ما دام حيّاً . فانفلت ضاحكاً . ضحك ضحكاً منكراً ، كريهاً ، حاقداً ، تحوّل إلى قهقهة ابتلعت قهقهات الجّن واسكتتها . ثم رآهم يستعيدون رؤوسهم ، ويبتلعون السنتهم النارية ، ويتوارون .

ساعتها وجد جبارين نفسه مجبراً أن يقيّده بحبل المسد .

(٢)

السويداء شرّ غلب الصحراء ، وحار في أمره السّحرة منذ القدم.

يقول الدهماء أنها داء جلبه القبلي مثل الوباء ، مثل الاوبئة

Twitter: @alqareah

الاخرى . من ممالك الجنوب ، فولّدوا من هذا اليقين تميمتهم التي تُقرأ على رأس المصاب وتقول : «ريح جاء بك ، ريح يذهب بك » . ولكن الحكماء رأوا رأياً آخر .

قالوا أنها لعنة جلبتها تيرزازت عندما دخلت الصحراء رسولاً يحمل النبأ الشّرير ، واصابت بها أخيار القبائل ، لأنهم شكّوا في أمرها ، وشكّكوا في صدق النّبأ . وبرهاناً على السيرة نبّهوا إلى اقتصار العلّة على الاخيار ، لأن الملعونة أرادت أن تقتص من أهل الحكمة الذين كشفوا لؤمها ، فجعلت السويداء من نصيبهم وحدهم من دون الدهماء وعامّة الخلق . ويقول آنهي أن هذا المرض الخبيث كاد يقتصر - طوال تاريخه - على إصابة امزجة الخاصة حقاً . وكان الزعماء والسحرة وعشّاق البحث عن «واو» أكثر الفئات التي عانت منه . وما زالت الأجيال تتداول سيرة زعيم آزجر عندما اصيب بالوباء فاحتجب زماناً ، ثم كره النّاس ، وزهد في السلطان ، وأمر جنده الجن أن يبتعدوا به عن البقع المأهولة بالخلق ، فأخذوه إلى الجبل ، وتدرجوا به في قمم «تارات» حتى بلغوا به الحلقة السابعة ، فأقام هناك ، واتخذ من الاعالي وطناً إلى يومنا هذا . ويقال أن السويداء لازمته طوال الايام . ولولا «آسيار» تلك العشبة النبيلة التي انقذته من وباء آخر في القدم ، وحمته من ويلات الهرم والشيخوخة عبر الزمان ، لفتكت به نوبات هذا الوباء المميت . وإذا استطاعت السويداء أن تنال من الزعماء ، وتجعل اولي الأمر

Twitter: @alqareah

يزهدون في أحبّ أمر إلى الانسان (السلطان) ، فكيف يصعب عليها أن تهزم الشعراء ، أو النبلاء ، أو الباحثين عن الواحة المفقودة ؟ الشعراء وأهل اللّحون عانوا من وجدٍ كثيراً ما قادهم إلى ممالك الجنّ فلبثوا هناك ولم يعودوا ، والنّبلاء تخلّوا عن اولادهم ، وهجروا زوجاتهم ، واعتكفوا في الكهوف على طريقة الكّهان ، أو اعتزلوا في الخلوات كالعابرين الأبديين . أمّا طلاّب «واو» فكان نصيبهم من الحمّى أسوأ الجميع . كانوا يندفعون من الجبال عندما يطول بهم البحث وتضربهم اللعنة ، ويلقون بانفسهم إلى الاسفل من أعلى شعفة فتتدحرج ابدانهم عبر سفوح مفروشة بحجارة شرسة لها انياب الوحوش ، تنهش لحومهم، وتهشّم رؤوسهم ، وتمزّق اجسادهم كأن سكاكين الأعادي هي التي قطعتها ، ولكن البسمة الغامضة لا تفارق شفاههم ولا عيونهم حتى عندما يغيبون ويتركون الاجداث الهامدة وراءهم .

أمّا الساحرة تيرزازت فتدافع عن نفسها وتقول أنّها لم تفعل شرّاً ، ولم تأت بوباء ، وإن جاءت بالنّبأ الحقّ . وتقسم بـ «وانتهيط» الذي علّمها السّحر أنها لم تستهجن أن يلعنها الخلق ، لأن اللعنة هي أقل جزاء يصيب من أخبر بالحقيقة وبشّر المخلوق بالخبر اليقين ، وذلك لأنها بطبع الناس أعلم ، فهم لا يستمرئون إلا الكذب ، وتجد لهم العذر أيضاً ، لأنهم لم يعرفوا ناموساً غيره في كل حياتهم الفانية . والفناء ، نبأ الزوال والتلاشي ، هو اللعنة التي أتت على ما تبقى من حكمتهم ، ودمغت

Twitter: @alqareah

افعالهم بالكذب إلى الابد في الوقت الذي أصيبت فيه امزجتهم بالسويداء . بلى . بلى . السويداء هي قدر كل من وقف على السرّ، على الحق ، على النبأ اليقين ، وانصت لنداء الارض الأخرى التي تظلّلها سماء أخرى . الزعيم يرى في هذا الحدّ مملكة أبهى من مملكته البائسة ، وسلطاناً اعظم شأنا من سلطانه فيهيج بالشوق ، ويجيش صدره بالحنين ، فيكره من والاه ، ويزهد في سلطانه الشقّي . والشاعر يسمع لحوناً لم يسمع لها مثيلاً لا من حناجر شاعرات القبيلة ، ولا من مغنيات القبائل المجاورة ، فيقع في وجد لا رجوع منه ، لأنه لا ينتمي إلى الصحراء ، ولا يقاس بقياس ناموسها . والفارس النبيل يرى حساناً لم تجد بجمالهن الصحراء يوماً فيفقد عقله فيهيم ، ويخرج إلى المغاور ظاناً أن المملكة الأخرى هي في مكان ما هناك . أمّا فريق الاشقياء الذي لم يكف عن طلب واو ففئة تستحق أن تنال إعجاب الشرفاء حقاً ، لا لشجاعتها أو لبطولة في مسلكها ، ولكن بسبب عنادها بالذّات . هذا العناد الذي يجعل «وانتهيط» نفسه ييأس ويفكر جديا في أن يبدّل من أمره ، ويغير سيرته ويبدأ من جديد . هذا الفريق يرحب بالسويداء لأنها ترمي به إلى الحدّ ، فيجد نفسه في أقاصي اليأس . لا يسمع لحوناً ، ولا يرى سلطاناً ، ولا يلتفت الى حسان ، ولكنه يرى ما يجب أن يراه . ما كان يجب أن يراه . يرى أن «واو» التي أفنى العمر وبدّد الحياة بحثاً عنها هي أقرب من حبل الوريد ، في حين تبدو ، طوال الرحلة البلهاء ، في مكان آخر أبعد

Twitter: @alqareah

من سرنديب * . فيرمون بأنفسهم من الاعالي ليعطوا ابدانهم طعاماً للصخور ويطبعوا شفافهم بابتسامة الحقيقة . ابتسامة من ادرك اليقين ووقف على صحة النّبأ الذي كذّب به المكذّبون . فطوبى لهم ، تقول تيرزازت في مديح الواويين، لأنهم عرفوا أخيراً في قبس سمّاه البلهاء سويداء ، أن لا طلب يجدي ، ولا اعتكاف يفيد ، ولا صيام ينفع ، ولا غنى يحقق الفوز ، ولا أمجاد تأتي بالأمان ، والحكمة لا تعزّي بقدر ما تضاعف الهمّ ، ولا حيلة ابداً تهدي الى سواء السبيل . فطوبى لمن وقف في ظلمة السويداء على الخبر اليقين ، ورأى أن يتولى الأمر ، فعبر البرزخ ، وتوارى ، تاركاً بسمة تسطع كقبس الفجر فوق كوز الطين .

(٣)

تغنّى المصاب بانشودته عن «الارض إذا تبسّمت» ، وردّد مواويل التّيه ، واشعار الاحزان والاشجان . ولكن الهمّ لم يتنحّ ، والوباء تمكّن وتمادى ، فلفظ المعلول زبداً ناصعاً ، وازداد كآبة .

أكتأب يوماً آخر .

في اليوم الثالث بلغ الحدّ ، اعتلى البرزخ ، فلاح له القبس . من هناك ، من مملكة اليقين ، عاد بالخبر ، وكلّم قرينه بالنبوءة :

(*) سرنديب : موقع بالهند يقال أنه كان مهبط آدم . يقول المسعودي : «وأهبط اللّه آدم بسرنديب ، وحواء بجدّة ، وإبليس ببيسان ، والحيّة بأصبهان » . «مروج الذّهب» .

Twitter: @alqareah

– اقتل النّار في الموقد وتعال نستنير بنار أخرى .

لم يفهم القرين فكرّر المصاب دعوته :

– حرّرني من قيد المسد وتأهب للنّواح .

ظلّ جبارين ينحني فوق رأسه ، يحدّق في وجهه ببلاهة المجاذيب. أوضح المصاب :

– هل نسيت الوعد يا قرين ؟

– الوعد ؟

– ازحنا التراب معاً ، وكشفنا عن الرموز المخفية معاً ، واعطانا الاجداد عطيّتين : عطيّة تسكن في بيت مدوّر ، تقع ناحية مغيب الشمس ، لها باب مسبوك من ذرّات التّبر ، تحرسها «تانمضال» ، في جوفها كنز الظلمات . وعطية أخرى تشرق عليها الشمس ، تقع على يسار الجلمود ، سنكشفها عندما نسدّد الدّين وننوح كما ينبغي أن ينوح من ضحك كثيراً . لقد غلبنا الضحك في ذلك اليوم يا قريني ، فأصابنا القصاص ، والآن جاء ميعاد البكاء الذي قضت الاحكام ان يعقب كل ضحك . هل نسيت آنهي ؟ هل نسيت وصيّة النّاموس؟ فهيّا ، تأهّب . وتعال نملأ بالدمع افواهاً ملأناها من قبل بالضحك الكريه !

هرش القرين عمامته . أهال تراباً على النّار بنعله ، هرجل في العراء مسافة . دار حول الجلمود مرتين . طاف حول الطلحة أيضاً .

Twitter: @alqareah

تقدّم أخيراً وحلّ وثاق القرين بيدين راجفتين . اعتدل بورو في جلسته . ترنّح يميناً ويساراً . لاحظ الشقاء في عيني جبارين . اقترح :

– يجدر بنا أن نبدأ بالغناء . الالحان تستفزّ الدمع .

اغمض عينيه ، وغالب عتمة مفاجئة ، رفع إلى القرين مقلتين غاب منهما السواد واضاف بلفظ متعثّر :

– تذكرّ واو . إذا تذكرّت واو غنّيت ، وإذا غنّيت طويلاً فتح لك الحزن باباً إلى الدمع ...

كانت واو تقف على تخوم منفاها الخالد منسيّة ، معزولة ، شقية ، تنتظر عشّاقاً نال منهم الحنين ، ولكن الزمان أبى أن يأتي بهم إليها . ترسم الاقدار للقاء ميعاداً في المجهول ، ولكن الاقدار لا تتدخّل لإفساد مكيدة الزمان ، فيتسلّل الزوال ، ينصب للعشاق فخاخه ، يرمي بـ «وانتهيط» في طريقهم ، فيقودهم بعيداً ، ليدخلوا واحة أخرى ، في ممالك أخرى . فما اشقى الطّالب ، وما أبعد المطلوب !

(٤)

في البكاء سرّ لم يتجلّ إلاّ للسّحرة .

في الزمان الاوّل كان الصحراويّون يفرحون كثيراً ، يرقصون كثيراً ، ويضحكون كثيراً ، ظنّاً منهم أن الفرح شارة الحياة ، والرقص عنوانها ، والضحك لها شعار وراية وناموس . ولكن البلايا كانت

Twitter: @alqareah

تصيبهم عقب كل فرح ، والاسقام من نصيب كل من غنّى ورقص وابتهج . ويروق للعلل والاوبئة أن تهرع الى بيوت الضاحكين الذين رأوا أن الضحك هو دين الاحياء فثابروا على العادة ، وملأوا اشداقهم باشدّ القهقهات جسارة ووقاحة ، خاصة في المناسبات التي يعود فيها الفرسان من الخلاء وقد أصابوا الطرائد الوفيرة . أو في تلك الليالي النادرة التي ينالون فيها عشاء فاخراً ، ويتحلّقون حول مواقد النّار ليتباروا بالأحاجي ، ويتبادلوا الأشعار . كانت المعيشة صعبة ، ولكن الحياة سهلة، لأنهم لم يخلطوا ، في ذلك الزمان المجيد ، الاشياء بظلال الاشياء، ولم يقلبوا الآيات ليجعلوا من العيش حياة ، ومن الحياة عيشاً . تأملوا الرّتم وهو يتفتّح ويتفتّق في مواسم الازدهار ، وطلبوا الترفاس لينالوا منه نعمة العبير ، ويتلذّذوا بشذاه ، وتمّددوا في الامسيات ليراقبوا رحلة القمر في سكون جماعي . لم يدّبروا الغزوات الى الادغال للعودة بالسبايا ، ولم يرتّبوا قوافل التجارة ليجلبوا هباءِ التّبر . لم يشتهوا شيئاً ليس في متناول اليد ، ولم يذهبوا وراء رزق حجبته عنهم السماء خلف قوس الافق ، فتمتّعوا بخلو البال ، وتنعّموا بالهدوء ، وعرفوا أن الحياة هي ألا تمتلك اسباب الحياة ، وعرفوا أن السعادة في ألاّ تعرف السعادة ، والمعرفة ألا تعرف شيئاً عن المعرفة ، والحكمة ألاّ تعرف شيئاً عن الحكمة . زهدوا في اسباب المعيشة فنالوا الحياة ، ابتعدوا عن الامتلاك ففازوا بالسكينة ، رجعوا عن التكسّب والعناء فكسبوا في

Twitter: @alqareah

الارض نعيم السماء .

ولم يكدّر عيشهم إلاّ تلك العلل والاسقام التي تصيبهم كلما أرادوا أن يفرحوا بالنّعم ، فرقصوا وضحكوا ضحكاً متواصلاً ، صاخباً، عنيفاً . جرّبوا أن البلاء ينزل على رؤوسهم عقب كل حفل من هذه الحفلات . والامراض تصيب الكبار ، كما تفتك بالصغار بعد كل اجتماع علا فيه الضحك كثيراً . فكّروا طويلاً في سّر هذه الغضبة المجهولة ، ولكنهم ، في ذلك الزمان البعيد ، لم يقدروا أن يهتدوا الى السّر ، لأنهم كانوا قد جرّبوا أيضاً أن كثرة التفكير تجلب الهّم ، والهّم يقود الى دهليز مهول اطلق عليه السحرة فيما تلا من زمان إسم «المعرفة» . وفي دهليز المعرفة تختنق السعادة ، ويُعرف الشقاء .

عاركوا الامراض طويلاً ، لأنهم لم يقدروا أن يمتنعوا عن الفرح ما داموا على قيد الحياة ، وما دامت الحياة تمنّ عليهم بالسعادة والسكينة وخلو البال . عاركوا الامراض ، وعانوا من الاحزان والاوبئة الخفيّة حتى كادت العلل تهدّد نسلهم بالانقراض . بعدها توقفوا عن الضحك وهرعوا إلى الجبال . هناك نحروا الذبائح ، وسفحوا دم القرابين .

بعد أيام دخل الصحراء ذلك الرّسول المجهول .

جاء مع حلول الغسق راجلاً ، ملفوفاً في الثياب الزرقاء . يعلّق يديه النحّاسيتين على عصا صقيلة من السّدر كانت تستقر على رقبته

Twitter: @alqareah

لتوازي المنكبين العريضين . في حين لم يلحظ أحد نعليه ، ولم يجزم أهل الفضول عما إذا كان يرتدي «تمبا» أم جاء حافي القدمين ، لأن الجلباب الفضفاض الذي كان يفيض عن قامته ، يتدفق على الارض ، ويسيل بعيداً كما يليق بثوب رسول نبيل . في الليلة الأولى تحدّث طويلاً عن «وانتهيط» ، وقال أن سبب بلاء أهل الصحراء أنّهم يجهلون مسلك عدوّهم القديم الذي اعتاد أن يهرع إلى كل بيت ارتفع فيه ضحك ، لأنه اول من يعلم أن هذا الصوت المدهش لا يعلو في مكان خلا من الوليمة أبداً . فيركب اللئيم دابته ، ويذهب الى هناك ليفسد على الضاحكين فرحهم ، ويقلب سعادتهم شقاء . «بلى . بلى . ما الاسقام التي أصابتكم ، والاوبئة التي فتكت بكم ، إلاّ مكائد دّبرها العدوّ إذ تغافلتم عن خططه واسمعتموه نداء الفرح» . ثم فاجأ المجمع بأن طلب أن يأتوه بكل من ألمّ به مرض ، أو رقد مغلوباً بعلّة ، أو سقط عقب نوبة ضحك وقد اصابه الدّاء . حملوا له المرضى والمعلولين وكل من اصابه مكروه عقب حفل ضحك فيه كثيراً ، ففاجأ الجمع مرة أخرى بطلب آخر : «لا ينجو من علّة من لم يبك عليه أهله» . فجاءوه بذوي المصابين. هنا استعان ببعض الاشدّاء ، فقيّد ذوي المرضى بامتن الحبال واشرسها ، ثم شمّر عن ساعديه النحاسيين ، وأخرج من كمّه مدية فظيعة لم ير الصحراويون لها مثيلاً ، وهجم على المعلولين و .. بدأ المذبحة . تنقل بينهم وهو يمزّق اجسادهم بلسان السلاح الشّره ، حتى

Twitter: @alqareah

خاله المجمع مصاباً بمسّ الجنّ ، في حين حسبه آخرون دعيّا ، كذّاباً ، جاء لينفّذ فيهم مشيئة «وانتهيط» نفسه . أفزع نزيف الابناء الامهات المقيّدات بحبال أشرس من سلاسل الحديد فولولن ، وأطلقن عويلاً فاجعاً طويلاً . جاءت العجائز والصبايا وبدأن النّواح أيضاً . ولكن الرسول لم يأبه للمناحة ، بل يقال أنه ابتسم بارتياح ، وشمّر عن ساعديه الملوّثين بالدماء وأمر الاشدّاء أن يسدّوا آذانهم بالوبر والصوف ويتأهبوا لمشاهدة مزيد من الدّماء . انقضْ على فريق آخر من المرضى ومزّق اللباس عن صدورهم وظهورهم . انكبّ على اجسادهم العارية ، وجّر المدية على ابدانهم . ولولول ذووهم وراءهم . ولكن الزائر الغريب لم يوقف سفك الدّم برغم توسّلات الشيوخ ، ووعيد ذوي المرضى بالانتقام، بل أنه تمادى في المذبحة . اشعل ناراً ، ودسّ في جمرها المدية الفظيعة . تركها هناك حتى التهب رأسها واستعار لسانها الشّره لون الجمر ، فانتزعها من النار واطفأها في ابدان المرضى ، في رؤوسهم ، في صدورهم ، في ظهورهم ، في وجوههم . اطلقت الرؤوس دخاناً علا إلى السماء ، وغزت الانوف رائحة الشياط . رائحة الأبدان المحترقة ، ورائحة الشعور المشتعلة بالنّار . ارتفع النحيب ، وردّ الزائر اعتداء مهدداً المعتدين بنصل المدية المشتعل . استمرت المناحة . ورفع الرسول ساعديه الملّوثين بالدّم في ظلمة الليل وصاح :«يقيناً أن وانتهيط سيختنق يأساً هذه الليلة ، ولو كان فيه ذرّة من بطولة لفكّر كيف يداري عاره

Twitter: @alqareah

بالانتحار» . ثم اختلى بالزعيم ، وأسّر في أذنه بأقوال صارت شريعة في الصحراء ، أعادتها الاجيال ، ووردت في متون الناموس المفقود . القول الاول يقول :«من ملأ شدقيه ضحكاً لن يطول به الحال حتى يملأهما دموعاً» . القول الثاني يقول :«لا يدخل وانتهيط بيتاً علا فيه النحيب قط». القول الثالث يقول :«لا تدخل السعادة بيتاً علا فيه الضحك» . في اليوم التالي اختفى الزائر .

زاره الشيوخ مبكراً ، ولكنهم وجدوا الخباء خاليا . بحثوا في الوديان المجاورة فلم يجدوا أثراً . تدكّروا مسلكه الغريب ، وايقنوا ، بعد جدل طويل ، أن ضيفهم لم يكن إلاّ رسولاً من قبائل الجنّ . ولكنهم لم يبخلوا عليه بالدّعاء والابتهال عندما اكتشفوا ، بعد اسابيع ، أن مرضاهم قد تعافوا ، والعلل التي استوطنت بيوتهم ، وخرّبت ابدانهم ، قد اختفت.

أ – النّار

رأوا في النّار الرّؤى ، وقرأوا في اللّهب نداء ، واستلهم سحرتهم من ألسنتها نبوآت ، قبل أن يستقبلوا رسول الجنّ ، وقبل أن يكتشف لهم فيها ترياقاً للاوبئة ، وبلسماً يشفي من العلل . يقطعون مسافات شاقة ليأتوا بالحطب. يأتون به محملاً على الجمال ، تدرك الأعواد التي استقطعت من السدر والرّسو والطلح والرتم إلى أي مصير تسير ، فلا تجد الاعراف البائسة غير لحوم الدّواب تدفن فيها يأسها ، تنهش ابدان

Twitter: @alqareah

حاملها لتنتقم . تنزف الجمال كما نزفت الاغصان من قبل عندما امتدّت اليد واستقطعت العضو من جسم أمّه غصباً ، تتكوّم الاعضاء في مداخل البيوت ، وتنتظر مصيرها بصبر الحجارة ، يأتي الخلق ليتحلقوا حول المواقد . تلقى في المواقد الاعضاء التي شُبّه لهم أنها ذبلت ويبست وفقدت دفء الحياة . يحكّون عراجين انتزعت من نخيل الواحات ، ليحصلوا على السّر ، على الوميض ، على الشرر ، على قبس الحياة الغامض . من التحام العرجونين ، من اتحاد العضوين ، من احتكاك الذكر بالأنثى ، يستمر المخاض العنيف ، الحميم ، طويلاً . ولكن الالتحام لا بد أن يلد الحياة أخيراً . يفزّ الوميض المبهم اولاً ، ثم يسري الدفء في القش المدفون تحت أعضاء الشجر . يتوهج في لسان شره ، يلتهم أعواد القش ، يرفع لساناً قانيا بلون الغسق إلى الاعضاء الأصلب عوداً . تتوجّع الاعضاء بأنين مكتوم . تطقطق فزعاً . يدركها اللسان الشرس ، الغامض، فتنتحب وتنزف ما تبقّى من دمها . تنزّ من أبدانها رطوبة خفيّة. تجود برمق أخير . برمق الحياة الأخير . تذرف دمعاً سخيا . الدمع يتبخّر في لسان الوحش ويصير دخاناً يصعد ، يسير إلى أعلى ، ليحدّث السماء بالقصاص ؛ ليبشّر الجلاّد الأبدي بميلاد خصم على الارض ، ينافسه في القساوة ، ويفوقه في السلطان ، ولكن المتحلقين حول الموقد لا يسمعون الشكوى ، ولا ينصتون لصوت النّواح ، لأن لون اللسان ، وتلاعب اللسان ، ودفء اللسان ، ألهاهم عن النداء وانساهم تشكّي

Twitter: @alqareah

الاعضاء . ولأنهم يتأملون بذهول كيف انجب الحطب ، الشاحب ، كيف انجب العرجون الميّت ، لساناً نهماً التهم العرجون ، وأتى على الحطب . يعود الرعيان بالقطعان من الخلاء ، تتسع الحلقة حول الموقد . تلتحم العائلة حول اللسان . تتأمل فيه اللون المستعار من بدن الغسق . تتابع جهاده في الاعضاء ، تشاهد لعبته مع انسام المساء . ترى فيه لؤم السراب ، وشقاوة الجداء ، ومرونة الحية ، ومثابرة الخنفساء ، وإغواء التّبر . بلى . بلى . الإغواء هو ما يشدّ في اللسان اللعوب . الاغواء هو ما يستغرق الخلق ، وينسيهم نعمة الدفء ، واسترخاء البدن بعد شقاء النهار . الاغواء يستمر ، يتصاعد ، يتضاعف ، حتى بعد أن يلتم الخلق حول اللقمة فيتمدّد الدّفء ويسري في الجسد . الفضول لا يتوقف ، والاهتمام باللسان لا ينطفىء ، لأن المخلوق الذي يدرك أن دفعة الدّفء التي نالها من اللقمة الجليلة إنما تلقّاها من اللسان الخفيّ الذي يتراقص في وجهه بإغراء . وكان لا بد أن يمضي زمان حتى يكتشف المخلوق أن سرّ اللسان ليس في الدّفء الذي يهبه للقمة تعطيه بدورها الى الجسد ، وإنما في قدرته الخفيّة على ابتداع اللقاء وتقوية الالتئام في الحلقة ، وجذب المخلوق الوحيد ، التائه ، الى المخلوقات ، وجمع المخلوقات في العائلة ، ولحم العائلة في القبيلة ، ولحم القبيلة في العائلة . وقد لاحظوا أن ذلك لم يحدث قبل أن يتألق في محيطهم وميض اللسان السرّي فكان أن ذهبوا إلى أبعد كعادتهم عندما يستهويهم أمر بطبعه الخفّي . تسلّلوا وراء

Twitter: @alqareah

اللسان ، تمايلوا معه نحو اليمين ونحو الشمال ، غمزوا بعينه حيناً ، وتغنجوا في قدّه حينا آخر . استعاروا مسلكه ، وتلبّسوا خصاله ، وتنفّسوا الانسام على طريقته . فعلوا كل ذلك لا لكي يقفوا على سرّ سلطانه على الحطب ، أو قدرته على محو الكائنات ، وتحويل اجسامها الى رماد وهباء ، ولكن لكي يصلوا إلى سرّ سلطانه على عصفور النّور الذي يرفرف في الصدور. وكان لا بد أن تجود السماء بامطارها زمناً طويلاً ، وتتدفق الوديان بسيول كثيرة زمنا آخر ، ويدفنوا اجيالاً في مدافن الاسلاف ، كي يجتازوا وادي الظلمات أخيراً ، ويبلغوا موقع الكنز . هناك يتبدّى السّر في تميمة بسيطة التركيب ككل الأسرار النبيلة. يعلمون أخيراً أن اللسان لا يملك على العصفور أي سلطان ، لأن عصفور النور في مأمن من كل السلاطين ، واللسان لا يغفل شيئاً كي يشدّ عصفوراً إلى ملكوت عصفور آخر غير ما يفعله لقدور المأكولات . فالحرارة التي تسهم في طهو الطعام ، وتجذب حملة الاقفاص كي يجتمعوا حول الموقد ، ويلحموا أجسادهم ببعضها ، هي نفسها الحرارة التي تنتقل ، بالاحتكاك والالتئام ، إلى البرزخ البعيد لتصيب عصافير النور في حصونها . وجدوا أن اللسان رسول جاء يحمل نبوءة أخرى غير تلك النبوءة الشريرة التي تخرّب وتبيد وتحوّل كل شيء الى رماد وهباء . نبوءة أخرى تجمع الخلق ، وتلحم القبائل ، وتبعث في ابدانهم وليداً منسياً إسمه : المحبّة .

Twitter: @alqareah

فكّر السحرة في رسالة الرسول ، ورأوا أن اللسان لا بد أن يخفي ترياقاً للعلل والاسقام طالما لم يعجز في أن يجد الشفاء للعصفور الخفّي الذي حيّرتهم اسقامه ففشلوا دائماً في أن يجدوا لها الدواء .

منذ ذلك اليوم صار حرق الاعضاء بلسان النّار بلسماً لمداواة كل من تلقّى ضربة جنّ ، أو عانى من الحمّى ، أو غلبه العشق ، أو سقط ضحية لمكيدة من مكائد «وانتهيط» .

ب - المِديَة

قبل أن تجد المدية طريقاً الى الصحراء عانى الصحراويون من إرهاب الجنّ .

في البدء وضعوا ناموساً للجوار ، واقاموا عهداً بقيت متونه خفيّة حتى اليوم ، ولكن ما تناقلته الاجيال يؤكد أن زمن السلم بين سكان الخلاء وأقرانهم استمر طويلاً ، وشهد عهوداً توّجت فيها علاقة القبيلتين بالمعاشرة ، ومزج الدماء بالتزاوج والمصاهرة . وبرغم أن الروايات اختلفت في شأن الطرف المسئول عن إفساد العهد ، إلا أنها اجمعت أن انتقام الجنّ من اخوال ابنائهم كان قاسياً في الزمن التالي . فدأب أهل الخفاء على الخروج لهم في ابدان استعاروها من مدافن الاموات . يتبدّون في قامات ماردة تتمدّد وتمتد إلى السماء ، أو يطلعون من الظلمات بوجوه مكشوفة ، عارية من اللحم ، مثل الجماجم . ويروق

Twitter: @alqareah

لهم حينا آخر أن يقطعوا رؤوسهم بسكاكين الحجارة ليطلعوا لأقرانهم برقاب تنزف دماً له لون أزرق . بالفزع أجهضوا النساء الحوامل ، واماتوا الصغار ، واوقعوا الشيوخ والعجائز في نار الحمىّ . أمّا الرجال فتولوّهم بسلاح آخر . رجموهم بالحجارة ، وضربوهم بأشرس الهراوات ، ونالوا منهم بقبضاتهم . وكانوا إذا انفردوا بخصم من الخصوم في الصحاري المهجورة طلعوا له في صورة حيّة لها رأس إنسان لينزلوا في قلبه الفزع . فإذا اصابه الخوف ، وغفل عن قراءة التعاويذ كما يحدث لكل من أصيب بنوبة فزع ، قاموا إليه وقيدّوه بأشرس حبال المسد ، يسقونه بول الإبل ، وفي روايات أخرى بول زعمائهم وأكابرهم . ثم يعلقون جسده في سقوف الكهوف مقلوباً . بعدها تبدأ مراسم القهقهة . يزعقون فوق رأسه ، ويملأون اذنيه ضحكا كفيلاً بأن يجيء له بالوباء ، أو يقوده الى الهلاك . لأن حكماء الجنّ ، كانوا دائماً أعلم خلق الصحراء بفظاعة الضحك وقدرته على إنزال الشّر بأكثر المخلوقات براءة . وهم أوّل من جرّب أنهم ما قهقهوا في وجه إنسان إلا وسعى إليه السّوء .

بعد القهقهات يحلّون وثاقه ويرحلون ، لأنهم على يقين أن خصمهم لن يرى خيراً ما بقى على قيد اللعبة التي يقدّسها أهل الخلاء ويسمّونها حياة .

وما ادهش الصحراويين حقّاً أن الجنّ لم يخطئوا التقدير أبداً .

Twitter: @alqareah

فما أن يجد المصاب السبيل الى القبيلة حتى تشتعل في جوفه النّار ، ويسقط صريع الحمّى . يأتيه السحرة ليبرطموا على رأسه بالتعاويذ ، ولكن هيهات أن ينجو من بئس المصير مخلوق ارهبه الجنّ ، وضحكوا على رأسه . استطاعوا بهذه الحيلة ، أن يقضوا على اشجع فرسان القبيلة ، حتى هددوا اسلالة النبلاء بالزوال .

ويقال أيضاً أنهم أول من استعمل السّم .

في تلك الازمان ابادوا عشائر كاملة بهذا الوباء . فكانوا يتسللون إلى الاطعمة المكشوفة ليدسّوا فيها سمومهم الفظيعة ، حتى إذا أكل منها بلهاء الصحراء في الصباح ، سرت في دمائهم ، وفتكت بأحشائهم ، وتقيأوا عفناً وقيحاً ودماً أزرق . وقد فشل السحرة في اكتشاف سرّ هذا الدّاء أيضاً .

ولم يعرف أهل الصحراء الامان إلا عندما عرفوا المدية .

المدية انتقمت لهم من الجنّ ، فرتّب زعماء القبائل حملات تأديبية ضد طغاة الخفاء ، وقتلوا منهم في زمن قصير جيوشاً تفوق في عددها ما فقدوه على يد الاعداء في أجيال وأجيال . ولم تتوقف المذابح ضد اعداء الخفاء إلا بعد أن تعب المحاربون ، وثأروا لاسلافهم القدماء . ولكن الجنّ استغلوا موطنهم في العتمات والظلال ، فرابطوا لإعدائهم في البرزخ الغامض الذي يرد إليه كل من استفزته الالحان ، واخذه الشجن،

Twitter: @alqareah

وغاب في الوجد . هذا المخلوق يأتي إلى وطن السّرّ عاريا من الحديد ، مجرّداً من لسان المدية المسموم ، طفل لا حول ولا قوّة . بدنه يتقلب في البرزخ ، وقلبه يتأهب لدخول واو . فيا له من عصفور مسكين ، وما أسهله من لقية ، يتربصون به عند الحدّ ، يدخلون جوفه . يستدرجونه باللحون ، يدخل مملكتهم ، يتوغل في مدنهم بكمّين معزولين من السلاح ، يوقف كهنتهم الألحان الشجيّة ، ويأذنون للسعالي كي تتولّى أمره . تتكأكأ فوق رأسه السّعالي ، تضحك في اذنيه ضحكاً منكراً يكفي لأن يطرحه في الفراش دهراً إذا لم يطرحه في القبر في الحال .
وقد ظلّت الاسقام التي تصيب اولئك الذين سقطوا في الوجد غامضة ، ولم يكتشف السحرة أنها عمل من اعمال الجن إلاّ بعد زمن طويل . فما كان منهم إلا أن احتكموا إلى المدية مرة أخرى ، حتى إذا صرعت الألحان رجلاً طال به الحنين إلى الارض الأخرى هرع إليه السحرة ، وجرّوا على بدنه نصل المدية . ففي النّصل ، في رأس اللسان النّحاسي الصارم ، تسكن التميمة . تستقر التمتمة المبهمة التي تستمد سلطانها من الظلمة ، من الخفاء ، من نفس الظلمة ، ومن نفس الخفاء ، ومن نفس الوطن الذي انتمت إليه قبائل الخفاء نفسها . والإلهام الذي أتى بالسّر ، بالإغواء بالشرر الذي يومض ويتلألأ في لسان النصل إذا استفزه الضياء ، لم يكن ليولد لو لم يتولّد من نفس العجنة ، من نفس الطين ، والسحرة فازوا في المشادّة لأن ناموس السحر هو الذي علّمهم أن يستخرجوا

Twitter: @alqareah

ترياق الشفاء من سمّ الحيّة ، ليقيموا بنيان الدستور الذي يقول أن النقيض لا يفهم إلا بالنقيض ، وسرّ الضدّ يكمن ، دائماً ، في الضدّ ، والساحر الذي استقام له السّحر لا يخفي نفسه ، إلا في ظلّه .

جـ - الحزن

توقّفوا عن الفرح البليد .

عرفوا أن الضحك شؤم ما ظلّ المخلوق مهدّداً بالفناء ، وايقنوا أن الرقص خيانة ما لم يتلحّف بوشاح الوقار ليصير قرباناً إلى السماء . وادركوا أن الفرح كلّه بدعة بلهاء ما بقى له الهّم خليفة ، وما ظلّ النّدم له وريثاً اخيراً .

استنفر السحرة اخيار القبائل ، وخرجوا إلى الخلوات ليتشاوروا مع ظلالهم الفظيعة ، وقرأوا أنباء الوجوم في لا مبالاة الجبال ، والاكتئاب في صرامة العراء ، والهّم في استسلام الصحراء لسياط الجلاد الخالد ، وعادوا من المعبد بالخبر اليقين . عادوا بديانة جديدة شارتها الوقار وعقيدتها حزن . القوا للزعيم بالبشارة ، وجاءوا الى المجمع بعشاق الاسفار والاعتزال ، والمهاجرين الذين احترفوا البحث عن واو ، واستنطقوهم عن طبيعة الحال وعناء الطلب ، وفجيعة السؤال ، فردّ أهل الزهد ، واخبروا بلغة الغموض أن الزّاد اصغر من المسافة ، والحيلة أعجز من السبيل ، والوقت المسخّر للطلب انفس من أن يضيع في

Twitter: @alqareah

الجعجعة ، فكيف بالقهقهة المنكرة ؟ ومضوا فأجمعوا أن من روّج للفرح في مسيرة الطلب إنما يقلب الوباء على رأس القبيلة ، وقصاصه أن يرجم بالحجارة ، ويدفن حيّاً إبعاداً لطير النحس من سماء القافلة . وانبرى مهاجر معمّر اجتاز المائة وروى كيف تُوّجت رحلته يوماً بالبلغة، وظنّ أن الطلب انتهى أخيراً بنيل المطلوب . فنهضت أمامه في الافق الفسيح الواحة المفقودة . نبتت من الارض فجأة كأن السراب اللعوب هو الذي نسجها من وشاحه وبنى جدرانها المهيبة من حيله ومكائده . تلألأت فيها الاضواء ، وتعدّدت الألوان ، وارتفعت فيها البساتين فوق قامات الاسوار ، وشاهد الطير وهو يحلّق فوق هامتها . استمّرت تتبدّى، وتخرج من وطن المجهول . ينجلي عنها الغيم ، وتتضح فيها الملامح كلما تقدّم إلى الامام ، واقترب مسافة أخرى . أخيراً واو ! أخيراً انتهى المشوار ، أخيراً ستنفتح في وجهه ابواب المستحيل ليدخل مملكة سافر في أثرها الصحراويون منذ خرجوا الى المنفى ، ونزلوا الصحراء . أخيراً سيرى ما لم تره عين ، ويسمع ما لم تسمعه أذن ، ويتلذّذ بالخاطر الذي لم يخطر على بال بشر . أخيراً ... ولكن طيراً غامضاً رفرف فوق عمامته . رفع إليه عينيه فادهشه . كان له ملامح إنسان . عينان تشتعلان ذكاء وحكمة . وانف صغير انيق في صورة منقار صغير ، ووجنتان شاحبتان اجهدهما السفر. ملامح أليفة وحميمة لا يعرف أين عرفها ومتى التقى بها . ظلّ يرمقه بنظرة توهّجت بإيماء صامت ، بلغة غامضة .

Twitter: @alqareah

كأنه أراد أن يخبره بأمر جسيم . بل كاد ينطق بتحذير . التحذير هو الأمر الوحيد الذي لا يحتاج إلى نطق ، إلى بلبلة ، إلى ضجيج . استهواه الطائر ، فانقاد له ، وتابعه . وفي ومضة كالشرر انطلق الطائر يغنّي . رفع إلى شعاع الجلاّد منقاره الافطس ، انفه الأفطس الصغير وانفرجت صلفتاه القانيتان فسمع المهاجر لحناً لم تجد به حناجر المغنيات الصحراويات . ولم تهمهم به أفواه الكهوف ، ولم تتباه به شاعرات الجنّ ، سمع لحناً أذهلت حلاوته الصحراء ، وحيّرت نبرته أهل الخفاء ، وشدّ إيقاعه انتباه الجلاّد فسحب سياطه ، وتوارى خلف الغيم . لحن خطفه من الصحراء وطاف به سماوات أخرى تتبدّى اسفلها صحراء أخرى . لحن انساه أنه يقف على باب البوابة الأخيرة التي قايضها بالحياة نفسها ، وكان عليه أن يبذل جهداً بطوليا كي يستعيد قلبه من سلطان الاغنية ، ليجد أن واو (التي وقف على بابها منذ قليل) قد اختفت من الصحراء ، والرحلة كلها ، اللعبة كلّها ، انتهت إلى باطل . وجد المسافة خالية ، قاسية ، فاجعة . فوقها يتدفق السائل اللعوب ، يطلع له لساناً ساخراً ، ويقهقه بلا صوت .

رفع رأسه الى أعلى . بحث عن الرسول ، فاكتشف أن الطائر المذهل قد اختفى . لسعه الجلاد بلسان النّار في العينين ، فأشاح بوجهه وطأطأ ارضاً . انتهى الوحي ، وضاعت النبوءة ، وتبدّد الحلم كما تشتّت الأمل . تساءل عن هوية الرسول : أهو «مولا – مولا» ؟ أهو «سخرك

Twitter: @alqareah

ايراظن»* ؟ . أهو .. لا . أيعقل أن يكون عصفوره السّجين في القفص؟ ولكن من أين للعصفور الخفيّ هذه الاغنية ، هذه الاعجوبة ؟ أم أن وانتهيط هو الذي دسّها في فمه كي يرمي به في ارض أخرى ، وسماء أخرى ، ليجعل من سفر الاسفار باطل الاباطيل .

قال المعمّر المهيب أنه سقط على الارض ، وتمرّغ في التراب ، وناح بأعلى صوت . ولم يتم روايته حتى استعاد نفس السيرة . وقع على ركبتيه في المجمع ، تلوّى على الارض ، ورفع عقيرته بنواح فاجع .

فزّ كبير السحرة من زاوية الخباء ، لوّح بمديته السحرية الموسومة بالتمائم ، وصرخ : «الغناء ! الغناء ! السّر في الغناء . لن تعرفوا خلاصاً ، ولن تدخلوا «واواً» ما ظللتم تعبدون الالحان وتسجدون لإله الغناء» .

جاهد كبيرهم لإقناع المجلس ، ولم ينفضّ الاجتماع حتى نجح في سنّ الشرائع التي تحرم الفرح البليد ، وتجّرم اللّهو ، وتجعل من الاشعار واللحون والأغاني لغة تعرّض كل من جرؤ على تعاطيها لقصاص الكهنة. تجّهم الرجال أكتأبت النساء ، قطب الصبيان ، اختفت البسمات. توارت اسنان الصبايا ، اختنقت اصوات الشاعرات . سكتت اوتار «إمزاد» . اصيبت الطبول بالخرس. ولم يجد من غلبته ضحكة ، أو تفجّر في صدره ينبوع الفرح ، مفراً من الفرار والالتجاء الى الخلاء

(*) سخرك ايراظن : «حرفيا» رسول الضياع إلى الصغار ، وهو طائر ملوّن ، صغير تقول اساطير الطوارق انه لا يظهر في منتجع حتى يخطف طفلاً ويقوده إلى التيه .

Twitter: @alqareah

البعيد ليدفنها هناك كما يفعل عندما يتوغل ليقضي حاجته، أو ليطلق رائحة .

تحوّلت الحياة في الصحراء إلى ضرب من الحداد .

د - الاغاني

خلال الزمان الرهيب الذي خضع فيه أهل الصحراء لشرائع السّحرة ، وتوقفوا عن الغناء ، فقدوا من الخلق أكثر من مما فقدوه في ظلّ إرهاب الجنّ ، وأكثر مما فقدوه زمن طغيان الاسقام والاوبئة ، وأكثر مما فقدوه في صدّ الغزوات عن الصحراء ، أو في زمن شنّ الحملات على قبائل الادغال لاستجلاب العبيد والسبايا . كانوا يلتقون في ليالٍ يتجلّى فيها الطوق الوديع ، معبودهم القديم ، يلتحمون في الميعاد الذي يكتمل فيه الإله الفضّي ، ويستوي بدراً . يتشبّه به الفرسان فيتحلقون في دائرة ليصنعوا باجسادهم طوقاً بهيا . تأتي العذارى بخطوات نبيلة ليتشبهن به أيضاً . يتحلّقن بجوار الأبطال . يصنعن من اجسادهن الشهيّة طوقا آخر أكثر بهاء . فيغزو انوف الفرسان شذى ازاهير الرّتم المنبعث من اجسادهن . يسود السكون طويلاً ، يتمدّد السكون . يتوالد . يصير حرماً أقدس من كل الحرمات . يختلس العشاق النظر الى المعشوقات . تختلس المعشوقات النظر الى العشّاق . يرفعون ابصارهم الى أعلى، نحو المعشوق الذي علّمهم العشق ، فيقوم لهم الإله بدور الترجمان . تتأجّج الصدور بالوهج ، وتضيق بالحنين . وإذا تأجّج الصدر بالوهج

Twitter: @alqareah

وضاق القفص بالحنين فلا حيلة تجدي ، ولا سبيل يفيد ، ولا لغة تجيء بالخلاص . يصير اللحن وحده الحرم . والاشعار لا تستقيم إلا إذا سارت في النغم ، في الموّال ، في الايقاع ، في الصوت المرتّل . ولكن ماذا يفعل العشاق إذا كان الصوت المرتل قد صودر بشرائع السحرة ، ووضع عليه أبشع تحريم ؟ لم يكن الصحراويون ليستسلموا بسهولة ، ويلتزموا بالشرائع لو لم يكن القصاص الذي وضعه السحرة أكثر قساوة من الحكم نفسه . ولأن الدهاة يعلمون أن البطش بالبدن ، وحرق الوعاء بألسنة النّار الوان من العذاب لن تردع العاشق الصحراوي ، فابتدعوا العقاب بغول «العار» . كانوا يلقون القبض على كل من تجاسر ورفع عقيرته بالغناء ويجردونه من لباسه . يضعون القيد في يديه . ويشدّونه الى ذيل جمل ، ليطوفوا به بين المضارب عاريا تماماً . وكان العشاق لا يحتملون العار ساعة واحدة . فيذهبون الى بيوتهم ، يرتدون أبهى ثيابهم، يهجعون في جلال عند الركائز ، ويستلّون من أكمامهم المدى الرهيبة ليغرسوها في صدورهم ، أو يجرّونها على الرقاب لينحروا أنفسهم .

لم يخالف أحد هذا الناموس ابداً .

استمّر الناموس زمانا رأى فيه الزعماء والأكابر شبح الفناء يحوم حول قبائلهم مثل سعلاة من سعالي الجنّ . تنادوا من كل القبائل كما تعوّدوا أن يفعلوا عندما يتهدّد الوطن خطر ، وتحوم جحافل الغزاة على

Twitter: @alqareah

تخوم الصحراء لتخطط للأنقضاض . تشاوروا طويلاً ، تجادلوا طويلاً ، نحروا الذبائح طويلاً ، قرأوا في عظامها النبوآت زمناً أطول . استعادوا الجبلّة ، وتداولوا في طبع المخلوق المجبول على النغم . قالوا أن الركون الى التراب ، والاختفاء من الصحراء الى الابد ، أهون على هذا المخلوق من التخلي عن الاغنية يوماً واحداً . تدخّل العقلاء الذين سخروا الحياة لوضع حجر الأساس في الحياة ، تدخل العقلاء الذين آلوا على انفسهم أن ينيروا سبيل الأجيال بوضع النّاموس ، بوضع آنهي . قالوا بلغة استعاروها من الناموس نفسه ، أن الحياة نفسها أغنية . الحياة لعب ولهو وتفاخر بالاموال والاولاد . وعندما نرتضي أن ينفرد السحرة بالزمام ويضعوا للقافلة شرائع تحرم على العاشق أن يرتّل لهفته الى المعشوق بلغة السماء فإننا لا نخالف ناموس الارض «آنهي» فحسب ، ولكننا نخالف ناموس السماء التي جعلت من الحياة نفسها لهوا ولعباً وغناء . وانتهوا إلى أن التحريم مكيدة من مكائد السحرة ، دبّروها مع الاعداء لإفناء القافلة بحجّة أن الافراح تلهي عن البُلغة والوصول الى سدّة واو ، وتجلب على القبائل البلاء .

بعد عراك استمر اياماً ، وفي رواية أخرى ، اسابيع كاملة ، توصلوا الى اتفاق يقوم بموجبه الزعيم يصحبه نفر من الأكابر ، لمحاورة السحرة ، والتصدّي للمكيدة بلغة السيف ، إذا فشلت المحاججة بلغة العقل .

Twitter: @alqareah

المشادّة الاولى لم تنته إلى اتفاق .

في المشادّة الثانية تبدّى اللّين في موقف السحرة .

المشادّة الثالثة هي التي انتهت الى العهد الذي كان منعطفاً في تاريخ القبائل ، وشهد التحوّل في لغة أهل الصحراء الغنائية ، وأخرج الالحان من دائرة الفرح البليد ، إذ خطف اشعار الارض ، اشعار الصحراء الكبرى ، وطاف بها سماوات أخرى ، وصحارٍ أخرى ، ليعود من هذه الممالك لغة غنائية أخرى شجية ، حزينة ، شجنية ، لأنها ارتوت من ينابيع «هرو»* ، وتحمّمت بانفاس «امناي»** ، وعرفت معنى العشق في وطن «تانيت»*** .فنزلت في حناجر العذارى ، وسكنت اصوات الشاعرات ، ترنيمة الهية ، وابتهالاً سماوّياً ، وتلاوة لاوجاع المنفى الارضي .

هذا هو الشرط الذي وضعه السحرة في نصوص ذلك العهد .

يستطيع العشاق أن يتغنوّا بالمعشوقات ، وتستطيع الشاعرات أن تترنم باللحون والفرسان والاقمار ، ولكن الآلهة لا بد أن يدخلوا الى المحراب . الآلهة لا بد أن يذوقوا حلاوة اللقمة ، ويكون لهم من الوليمة نصيب . والاغنية ، في النهاية ، لا بد أن تكون قرباناً للآلهة ، قبل أن

(*) هرو : إله المطر .

(**) امناي : إله الريح (القبلي) .

(***) تانيت : إلهة الجمال والعشق والإخصاب .

Twitter: @alqareah

تكون لهواً يتلّهى به «إيركايتادم»* . الاغنية لا بد أن تطوف السماوات الاخرى كي تعرف معنى العشق في «تانيت» ، ولا بد أن تولد في حبّة المطر لتحبل بمبدأ الحياة ، ولا بد أن تستحم بالقبلي لتقف على السرّ ، على الضدّ ، على النقيض القديم الذي أقسم أن يمتص النداوة من حبّة المطر ، ويستبدل مبدأ الحياة بمصير الزوال ويعترض كل بداية ليجعل منها نهاية . ولكن الفرح الابله لا مكان له في هذا الحرم .

الاقتراح ارضى الطرفين . ولكن كيف السبيل إلى تحميل الأغاني التي تسكن الاصوات كالأطياف بأسرار الآلهة ، وإلهام الخفاء ، ووزر ضاقت به السماوات والارض ؟

ذ – القران ب

انكبت الشاعرات على الاشعار . حاولن ، بحماس ، أن يرسمن مراسم الزفاف بين الضدّين الحميمين . اجتهدن في تدبير حيلة تزاوج بين السماء والارض ، حيلة توفق بين المملكتين في علامة القران ، تستدرج المسافة الصارمة ، تلغي البرزخ ، تطوّع الحدّ المستحيل ، وتجعل من الوطنين الواقفين على نقيض ، وطناً واحداً يستقر مجيداً في الالحان .

عن المسافة ثار جدل شغل كل القبيلة .

ففي حين سهرت الشاعرات وابصارهن مشدودة للإله الفضّي

* إيركايتادم : الاغرار ، البلهاء ، الغُشم .

Twitter: @alqareah

طلباً للإلهام ، واستجداء للنبوءة التي تجعل من دفقة الشوق وميضاً من قبس ، وتصنع من زفرة الفجيعة ، زفرة الأرض ، نذراً للآلهة ، موّالاً تتغنى به السماء . حين تعلقت اهداب عيونهن المزبورة بالكحل بضياء الإله الليلي الوديع ، كان الشعراء القدامى يتحلقون حول نساء من طراز خاص ، ابتدعت اناملهن يوماً كل زخرف وزينة وعلامة ونمنمة ، لأصابعهن المجبولة بالوحي يرجع الفضل في رسم كل ختم أو إيماءة أو إشارة اختطت على رقعة أو خيطت على وسادة ، أو انطبعت على لباس، وجلبت للصحراوي متعة لا تختلف عن تلك المتعة التي نالها من الغناء . كان الشعراء القدامى يحاولون أن يستثمروا خبرتهم الطويلة في معاندة الاشعار ، ويستفيدوا من مهارة الجنيّات في التطريز واستعمال الخيوط المتعددة الألوان في النمنمة ، لإنجاز الزفاف ، لدحر المسافة ، وإيجاد اللغة التي تجمع بين السماء والارض في اغنية .

في ذلك الوقت عكف الصبيان الذين توّجوا رؤوسهم بالعمامات قريباً (فحق لهم أن ينتسبوا إلى الحرم ، ويعدّوا انفسهم من أهل اللثام) ففتّشوا عن النغم الخفيّ ، عن الاشارة السرية الغامضة التي لم تكن الطفولة التي هجروها إلا ارجوحة لها ، والحان المهد لم تكن إلا صدى لها ، واغاني الصبا والبراءة لن تكون لها إلا وطناً ، ولا بد أن يسترجعوا هذا التراث ، لا بد أن يدسّوا رؤوسهم في الزمن الذي مضى ، كما يدس الباحث عن الترفاس رأسه في التراب ، إذا أرادوا أن يعبروا

Twitter: @alqareah

الظلمات ، ويصلوا الى الخيط السرّي الذي سيخرجهم من المتاهة ويقودهم إلى الكنز ، إلى التميمة التي ستبتلع تميمة السحرة ، وتبطل مكيدتهم.

ويُروى أن الشيوخ انفسهم لم يتخلفوا ، فاسهموا بآراء مجيدة ساعدت في انجاز اللغة الغنائية الجديدة ، ولكن الناموس المفقود اعترف أن المعتزلة الباحثين عن واو هم من وضع حجر الزاوية في بنيان الاغنية الصحراوية عندما بثّوا في اللحون النزعة الوجدية التي صارت ، فيما بعد ، سمة ميّزت الحان الصحراء . وأوّل ما فعله الواويون هو تطويع المسافة . احتكم أهل السّر إلى السّر ، وعادوا من الوطن الذي يبدو للدهماء أبعد من سرنديب في حين يراه أهل السّر أقرب من حبل الوريد، وعادوا من هناك بالنّبأ ، بالنبوءة ، بالبشارة . لأن السفر ، البحث الابدي عن الواحة الضائعة ، علّمهم أن المسافة الى السماء الاخرى والارض الأخرى كموقع عصفور النور من قفصه ، يمكن أن تقاس بأي مقياس إلا مقياس المسافة . وبلوغ الاوطان الأُخرى ، في الازمان الاخرى ، يستوجب تطعيم الالحان باصوات لا تدين بميلادها لناموس الزمان ، ولكن لسلطان الإلهام . الإلهام هو زاد مهاجر خرج في طلب واو . الإلهام هو عزاء عاشق سافر للالتقاء بالمعشوق ، الإلهام هو قبس الصبح في ليل من اطبق عليه الهّم ، وعانى من كابوس السويداء .

جاء دور المحترفات اللائي كتبن الاشعار باناملهن على الالبسة

Twitter: @alqareah

والمفروشات وسروج الفرسان . جاء دور شاعرات يتكلمن بأصابعهن ، ولا يعرفن من الخطاب إلاّ رسمه المجّسم . جاء دور ساحرات كن كاهنات في رسم النبوآت كما كنّ بارعات في ختم كل ما يقع بين ايديهن بطابع البهاء . انكببن على قصائد الاشعار . وانهمكت اناملهن الرقيقة في نمنمة نسيج غنائي فريد حلّ فيه عصفور السماء الأخرى ، وقرينه المستعار من الارض الأخرى ، ورفعن الصحراء ، وسماء الصحراء ، إلى وطن الرّؤى ، لتعرف العشق في حرم «تانيت» ، وتطوف متاهات لا تقاس بحساب الزمان أو المكان لتتحمّم بانفاس «امناي» ، تعبر برازخ ، وتجتاز حدوداً ، لتولد في رحم «هرو» نطفة يتشرّب شذاها زهر الرّتم ، ويستعير الترفاس منها الأريج ، وينسج منها القران وشاح الحياة .

هرع الجميع الى حرم الميلاد ، رسمت القبيلة أخيراً مسيرة الغناء في ثلاثة الحان كبرى صارت قالباً حوى كل ترنيمة ، وناموساً أخضع كل زفير شاء أن يستقيم في لحن : فإذا زفّوا عروساً غنوّا لها على إيقاع «تهيجالت» * الحان الحداد ، وصاحبوا رحلتها إلى مخدع القرين بالأغاني المشبعة بروح الجنائز كأنهم يزفونها إلى إله من آلهة السماوات الاخرى . وإذا اجتمعت الصبايا لتروي،عاشقاً غلبه الوجد من نبع الالحان رددن له انغام الاشجان ، وزاوجن الشجن بروح الفقدان ، لأن

(*) تهيجالت : طبل لا يقرع إلا في الافراح . وهو قصعة من الخشب ، تحوي ثلاث قطع من جلّ الإبل ، مغطاة بإحكام برقعة من جلد البعائر .

Twitter: @alqareah

العاشق إذا هاج في قلبه الوهج ، وعرف العشق ، فلا بد أن يعرف الفقد إليه طريقاً . أما نزعة الضياع الخالد ، والتوق إلى الحزن ، فلم تتجلّ إلاّ في أغاني «اساهغ» * التي جعلها الواويون حكراً على المهاجرين وعشاق الاسفار ، فصارت لهم أنشودة إلى اليوم .

(٥)

بورو بدأ الرحلة من نهايتها ، وروّض الانشودة في الموّال . راود اللحن طويلاً قبل أن يستقيم «اساهغ» . اطلق انيناً أليماً ، مكتوماً ، يخنقه شجن مجهول ، ثم انطلق يعلو ويعلو في ترنيمة كأنها نحيب . ردّد جبارين وراءه النشيد . ارتفع في الفضاء نواح المنفى ، واستمعت رؤوس الجبال ، تخلّت القمم عن لامبالاتها القاسية ، وانحنت نحو الاسافل في ذهول . تململ العصفور في جوف جبارين فتكلّم في صوته اغتراب الواويين ، ونطق اللحن في فمه بلسان الاجيال . رفع النغمة بمهارة مسافر قديم ، لتلتقي في تخوم الممالك الاخرى مع حنين بورو ، فتعانقا في معراج لا يخضع لقيد المكان ، ولا لسلطان الزمان ، ذاب الصوت في الصوت ، والتحم العصفور بالعصفور ، في البرزخ الذي لا يعترف بالبدن ، وعرفا الطريق الى قران آخر . نزلا ضيفين في حرم «تانيت» فتعلما لغة العشق ، وحممهما «هرو» بماء الحياة ، واعترضهما «امناي» وذكرهما بأمر الاضداد ، وقال أن المخلوق إذا صعد نزل ، وإذا نزل

---

* اساهغ : الموّال .

Twitter: @alqareah

صعد، والقبلي يتولّى الامر في النهاية فيغسل الشقاء بترياق النسيان .

الشجن غلب كل الكائنات في «آلوّن» فناحت الجنيّة في الكهف المجاور، وازدادت رؤوس الجبال انحناء ، وتناقلت المخلوقات الاغنية ، تلقّفتها مولا – مولا اولاً . صدحت بها في الأعالي كنبوءة . منها تلقفتها الجنّية التي تسكن الكهف المجاور . فرددتها وهي تنوح . سمعتها الحيّة في وطنها السفلي فتمايلت مع النغم المغمور بإلهام الآلهة . تمايلت حتى استعادت تفاصيل النفّي الاول ، وفجيعة الرحلة فغلبتها العبرة ، وفزّت من عينها الذهبية دمعة كبيرة . ثم واصلت الأغنية طريقها عبر الوادي . من الحية خطفها القنفذ ، من فم القنفذ تلقاها «موخامّد» من انياب «موخامّد» انتزعتها «تيرزازت» وهربت بها إلى «آغرم نودادن» .

بلغ اللحن الذروة فانتقل ليصب في النهر المجاور . في الوادي العميق الذي يجري فيه السيل ليل نهار . في الضفة وقفا كعاشقين فصل بينهما السيل المارد . عصفور بورو يرفرف في جانب ، فيلبّي عصفور جبارين النداء فيردّ على القرين بغناء أهل العشق . سقطا في الوجد معاً . تمايلا وتمايلا وتمايلا ، حتى اقتلعا الجنيّة من المغارة . نزلت إلى الوادي تولول وتمزق وجهها بأظافر السعلاة . وما أن تبدّت حتى تبدّل الإيقاع . وجد القرينان الآن عروساً يزفونها، وجد المجذوبان قرباناً يغذي الهّم ، ويستعطف الآلهة . وكان على الجنية ، السعلاة التي اندست في الكهف، ودبّرت المكيدة لبورو ، فألقت عليه شبح السويداء ، أن تدفع

Twitter: @alqareah

ثمن مكيدتها . ظلّت الجنّية تنتحب وتولول وتمزق وجهها بأظافرها الكريهة ، ولكن اللحن لم يرحمها ، مضى بها ، أنزل على وجهها مسوح الحداد ، وبدأت مراسم الجنازة . لا بد أن ينحر القربان بحدّ التميمة ، بنصل اللحن المسخّر للآلهة .

زفّ القرينان جنيّتهما ، احترق وشاح السويداء ، قعقعت الرعود، لمعت البروق . مادت الارض . تزلزلت الجبال . ووجد القرينان انهما يقفان على بوابة واحة مجهولة .

(٦)

لا يذكران متى حدث الفراق ، ولا كيف .

بورو انطلق إلى الشرق .

وجبارين سار إلى الغرب .

بورو توغل في أعالي الوادي ، ووجد ، عندما عاد الى الصحراء، أنه يهجع في بقعة تكاثفت فيها اشجار الطلح ، حوله ترتع نوقه الثلاث، وحُواره المشاكس يداعب وجهه بشفتيه الخشنتين . في رأسه صفاء السماء ، وجوفه تحرّر من الظلمة ، وعرف قلبه ضياء الطفولة ، حتى أنه لم يصدق أنه عانى من بطش السويداء .

جبارين أيضاً هام في عمق الوادي غرباً ، سار في السبيل المعاكس، نحو الاسافل ، هناك لسعته سياط الجلاّد فصحا . وجد نفسه

Twitter: @alqareah

يرقد في عراء مكشوف ، امامه تمدّد سهل فسيح . تابع امتداد السهل فرأى في نهايته قمماً مستقيمة ، جليلة ، هائلة ، تعبر الفراغ بكبرياء ، وتتطاول في الأعالي كأنها تفتّش عن وطن مجهول في مساحة الفضاء . خيّل له أنه تاه ، ورمى به «سخرك إيراظن» في خلاء بعيد ، ولكنه فوجىء بشبح صارم يقتعد بجواره القرفصاء ، ويحدّق فيه بوعيد . يمسك في يده اليمنى سوطاً شرساً من النوع المخصص لتأديب الجمال القريعة . فوجىء بوشاح العتمة ما زال يلف الصحراء والجلاّد ما زال يتململ ويتمطى وراء الافق . اكتشف أن السوط الذي لسعه لم يكن سوط الجلاّد ، ولكنه سوط الشبح الصارم . أحسّ بألم في منكبه الأيسر فخمّن أنها لسعة الثعبان المفتول من ألسنة النّار . فهل هو شبح من اشباح الإرهاب أم مارد من قبائل الجنّ ؟ جلس . اعتدل . تبادل مع الغريب نظرة طويلة . عبث الشّبح بخاتم في بنصره الأيمن . يديره في البنصر بأصابع اليد اليسرى فيومض ببريق غامض رغم العتمة ، ظلاّ يتبادلان النظر طويلاً . أخيراً تكلّم الشبح ، تلكّم بلغة مجهولة لم يسمع لها مثيلاً. رطانة مسلية تولّى فيها حرف الـ «خ» دور الزعامة حتى بدا له أنها تخلو من بقية الحروف . لم يستجب للرطانة فتكلّم الشبح بـ «تماهق» أخيراً :

– هل تنتمي لقبائل الطين أم لقبائل النّار ؟

هزّ عمامته سلباً ، ولكنه خشى أن ينتقل المخلوق العجيب إلى لغة

Twitter: @alqareah

أخرى أكثر غموضاً ، فنطق :

– لم أفهم .

– هل انت جان ؟

هزّ عمامته نفيا . ادار الشبح خاتمه المبهم في بنصره بعصبية . تلفّظ بالوعيد ، ولكن بلهجة لم يفقد الوقار :

– ما الذي جاء بك إلى هذه الرقعة ؟

كاد جبارين أن ينطق بالاعتراف . كاد يقول أنه غنّى ، وناح ، فطّوحه الغناء إلى اوطان أخرى ، فهل هذا وطن من الاوطان الأخرى التي قيل في «آنهي» أنها تنام على صحراء أخرى ، وتنحني فوقها سماء أخرى ؟ . ولكن الشبح سأل :

– ألم تدر أن هذه ارض حُرّمت على اجناس الإنس كما منعت على ملل الجنّ ؟

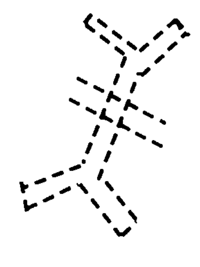
– وكيف لي أن ادري ؟

تخلّى عن العبث بالخاتم . عاد الى السوط . أمسك بطرفه العلوي بيده اليمنى ، وتحسّس اللسان الشرّه براحة قبضته اليسرى . قال بهدوء يخفي وعيداً جديداً :

– جئت رسولاً كي أخرجك من الرقعة . لا اخفي عليك .

Twitter: @alqareah

في المشرق تمرّد الجلاّد على قيد الظلمات . تململ في أسره وبدأ يرفع رأسه المستدير . سبقته إلى الصحراء الاشارة ، وتولّد في ابدان الكائنات القبس. القبس الخفي هو الذي سطع على فص الخاتم ليريه الشارة . كانت محفورة بصفوف من الاحجار الملونة التي لم ير لها مثيلاً قبل اليوم . كل خط من خطوط العلامة يتجسّد بصفين مزدوجين من الذرات الحجرية ، كل ذرّة لها لون يختلف عن لون الذرّة التي سبقتها ، وتليها ذرّة لها لون ثالث يختلف عن اللونين السابقين ، وعلى هذا التنسيق تمضي النمنمة البديعة حتى تكتمل في جسد الرّسم :



اطلق الشبح الأمر الصارم :

- إخرج !

ولكن جبارين لم يسمعه . استغرق في تأمّل العلامة ، وغاب عن الرقعة أعاد الشبح :

- أخرج !

وفزّ واقفاً . نهض جبارين أيضاً . قال الشبح كالمعتذر :

Twitter: @alqareah

– ما أنا إلا رسول !

لوّح بالسوط في الفضاء فرسم دائرة ناريّة . اومأ له بيده اليمنى مشيراً إلى سبيل الخروج ، فلمعت العلامة المدهشة في فصّ الخاتم بوضوح .

(٧)

تقابلا عند الجلمود كأنهما كان على ميعاد .

تبدّى بورو في افق الشرق ، في نفس الوقت الذي افلت فيه جبارين من قبضة المنعطف ، وتولّد من التواءة الوادي في نقطة انكسار المجرى نحو الغرب. تقدّما بخطوات بطيئة ، واثقة ، مكابرة كأنهما مهاجران وقوران من ملّة المهاجرين الواويين . التقيا عند الموقع . توقّف بورو على مسافة خطوات . توقّف جبارين أيضاً . تبادلا نظرة طويلة . تحرّك بورو نحو الجلمود المقدّس ، تحرّك جبارين صوب الطلحة الطيبة . طاف بورو حول الجلمود . دار جبارين حول الطلحة . تقدّم بورو من القرين . تقدّم جبارين نحو القرين . حدّق بورو في وجه القرين . حدّق جبارين في عيني القرين . صمتا طويلاً . تكلّم بورو اولاً :

– الجنيّة نحرت نفسها بالمدية ! الغناء ردّ مكيدتها الى نحرها !

وابتسم . رأى جبارين ابتسامته في مقلتيه ، فابتسم له أيضاً . علّق على النبأ :

Twitter: @alqareah

- اعرف . لقد دفنتها بنفسي .

- أخذت معها الدّاء . أنا الآن بورو الذي تعرفه .

- اعرف . رأيت ذلك في عينيك !

فتح بورو ذراعيه ليعانق القرين ، ولكن جبارين حذّره بسبابته :

- احترس ! الفرح سيردّنا إلى دهليز لم نخرج منه إلاّ تواً .

تناول بورو طرف لثامه المتدلي ، سدّ به فمه . غمغم بكلام مبهم ، ولكن عينيه استمرتا تضحكان . فتح جبارين ذراعيه ، تلقّى القرين في حضنه . تعانقا طويلاً ، ثم قررا أن يلهوا . شيّع جبارين بدن قرينه إلى اعلى ، القى به في الفضاء ، ولكن بورو لم يسقط ، بل هبط الى الارض واقفاً . اطلق صيحة حماس ، وعاد ليلتحم بالقرين . حاول أن يصرعه ارضاً بمساعدة ساقه اليمنى ، ولكن جبارين تخطّى الفخّ بقفزة في الهواء . اطلق صيحة بطولية أيضاً .

استمّرا يتصارعان حتى استوت الظلمة ، واستولت على الوادي .

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

١٩ - الكنز

« قال له نيقو ديموس : كيف يمكن الانسان أن يولد وهو شيخ ، ألعلّه يقدر أن يدخل بطن أمّه ثانيةً ويولد ؟ أجاب يسوع : الحقّ ، الحقّ أقول لك : إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت اللّه » .

انجيل يوحنّا

(٣ : ٤ ، ٥)

* * * *

« كنت كنزاً مخفيّاً فخلقت الخلق ليعرفوني »

حديث قُدسي

* * * *

« وقال اللّه لتفض المياه زحّافات ذات نفسٍ حيّة »

التكوين

(١ : ٢)

Twitter: @alqareah

(١)

بعد العشاء هجعا . تمدّدا على ظهريهما ، وراقبا الانواء . كانت تومض بإلحاح في غياب القمر . «طالمت»* تبرك في المركز كركيزة . و «إيدي»** يحملق في الارض كأنه يتوثّب للخروج من مداره والفرار الى منازل أخرى. «أشّيت أهظ»*** تتنادى ، تتكتّل ، تلتحم في عنقود من البريق ، تتهامس في سرب دائري ، تصنع بابدانها الفتّانة طوقاً منيراً ، تتلاصق أكثر ، تتمتم بسرّ الطوق ، بسرّ الدائرة ، بلغة الوميض ، تحجم عن لغة الكائنات تأففاً وترفعاً . لأن دفقة من فيض الضوء تفوق في قدرتها على التعبير الف لسان من ألسنة الكائنات . «أشّيت أهظ» ، سرب الصبايا السماويات يعرفن ذلك ، فيكابرن كثيراً ، ويتفاخرن كثيراً، ليس بلغتهنّ السرية فحسب ، ولكن بجمال فيضهن أيضاً .

تأخر الإله ، فتابعا مسيرة الانواء . قال بورو :

– في عيون «اشّيت أهظ» قرأت بشارة !

تمتم جبارين :

– في عيون الفاتنات دائماً بشارة !

(*) طالمت : النّاقة .

(**) إيدي : الكلب .

(***) اشيت اهظ : بنات الليل .

Twitter: @alqareah

– غداً سنفرح كثيراً . سنضحك كثيراً !

سحب نفساً عميقاً . استدرك :

– سنفرح بقلوبنا . سنضحك بقلوبنا .

ضرب صدره بقبضته واضاف :

– إذا جعجع الضحك هنا فلن يسمعه اشرار الانس ولا أشرار الجنّ .

وافقه جبارين :

– الفرح كالإسم لابد أن يُخفى عن الأُذن كما يُخفى الوجه عن العين خوفاً عليها من شرّ العين .

– هل تظن أن الصحراويين اختلقوا اللثام لهذا السبب ؟

– أنا على يقين . الاوائل كانوا حكماء كثيراً . الاوائل لم يغفلوا شيئاً أبداً ، ولم يفعلوا شيئاً بلا سبب .

– هنيئاً لهم . ليتني ولدت مع الاوائل . كنت سأكون سعيداً لو حظيت برفقتهم .

تابع جبارين نجماً يهوي . فرح بالكنز الذي ستفوز به الارض . قرأ تعويذة قربان ليسهّل أمر النبع . صمت . عاد الى محاورة القرين :

– وماذا ستفيدك رفقتهم إذا كان لاذكر لا للاوّلين ولا للآخرين

Twitter: @alqareah

الذين سيكونون بعدهم ؟آنهي يقول : «سينسى الابناء أباً نسى أباه» .

أجاب بورو بعد صمت :

– ظننت دائماً أن حظهم من السعادة كان أكبر . ولو خيرت لاخترت زمانهم . ولكن جبارين خيّب ظنّه :

– هذه أمنية الاجيال . هذا حال كل الاجيال . أنا أيضاً راودتني الامنية اغمض عينيّ لأجد نفسي في الزمان القديم . أهل واو أيضاً ينفقون حياتهم بحثاً عن هذا الزمان .

– هل تقول حقاً ؟ أهل واو أيضاً ؟

– أين يمكن أن يجدوا «واواً» إذا لم يجدوها في الزمان الاوّل ؟

– لم يخطر في بالي هذا أبداً . انت حكيم . أنا فخور لأن قريني جبارين رجل حكيم .

– في الحكمة همّ كبير . هم الحكمة أكبر من كل همّ .

– هل تظنّ ذلك ؟ لماذا ترى هذا الرأي ؟

هبّت نسمة شمالية وديعة . استنشقها جبارين فملأت صدره بنداوة الشمال . النداوة ايقظت الحنين للشمال ، للوطن ، للحمادة . تأوّه بشقاء . تلوّى على التراب . ثم عاد فهدأ . تعلّق بالانواء . قطع حوار الارض . غاب في حوار النجوم .

Twitter: @alqareah

(٢)

للاستطلاع خرج «إيدي» . تنقّل في منازل السماء . طاف الفراغ الأعلى . تفقّد الصحراء البهيّة من مداره السماوي ، فبدا العراء الخالد ، من هناك، أكثر عراء وعزلة وبهاء . تأمّل بدنها الممدود ، المكشوف ، فرأى أن القارّة الكبرى ، الوطن الوحيد الذي اعتاد الحرمان ، ففاز في الرهان مرّة أخرى . استحق أن ينال مكافأة السماء من دون الاوطان جميعاً . عاد «إيدي» بالنبّأ واخبر قبيلة الكواكب . التحمت ابدان «اشّيت أهظ» . تهامسن بلغة الوميض . ابتهجن . اطلقن زغاريد الفرح بألسنة الوميض . أبصر «آمنار» إشارة العذارى فقرأ النبوءة . هبّ من منزله ورقص بسيل من الضياء . تلقت «طالمت» البشارة ففزّت من مقلتها دمعة ابتهاج كبيرة ، ولكنها لم ترقص مثل «آمنار» ، ولم تزغرد بلسان الضياء مثل «أشّيت أهظ» ، لأن سلطان الزمان وضع في سيقانها قيوداً لن تجد منهم خلاصاً إلى الابد ، وكتب عليها أن تجثم على اربع ، وتمضغ لقمة العليق المسحور ، لا تبتلعها حتى تعود إلى فمها من جديد . المخلوق الصحراوي يتوجّع توقاً إلى «واو» ، يقطع المسيرة وبصره معلّق بالانواء ، في صدره يتململ عصفور الشوق ، في حين تتململ الناقة لقطع المسافة في الاتجاه المضاد . تتحرّق للإفلات من اغلال المسد ، تتوثب للعودة إلى النعيم ، إلى العراء الفسيح . إلى العلّيق الأرضي المعطّر بشذى التراب ورائحة الطين . تابع جبارين «طالمت» وهي تتقلّب

Twitter: @alqareah

في سجنها السماوي ، ورأى دمعة الابتهاج في مقلتها اليمنى ، فتقبّل البشرى بامتنان . فزّت من عينه اليمنى أيضاً دمعة كبيرة ، ليس تلبية للنداء ، ولكن لأن يأساً ألم به في أن يفك القيد ويتبادل مع الناقة المكان.

(٣)

كما تومض الانواء بالاشارة التي تهدي القوافل إلى السبيل ، كذلك يقدح مجمع الأعالي زند القدرة ، ويبعث بالرّسل الى الهاوية السفلى لا للكشف عن الكنز ، ولكن للإيماء الى الموقع الخفّي ، بعدها يجيء دور الظّمأ . يقبل القبلي رسولاً لإله الجنوب . يأتي محمّلاً بانفاس الضّد ، بانفاس الغناء ، يسبقه عجاج ينزع به من يد المسافر زاد المبدأ ، زاد الضدّ الاوّل ، زاد الحياة ، ينزع به الماء ! يضيّع المسافر الطريق . يتبدّد العجاج ، ولكن غيماً أشدّ عتمة من ظلمة العجاج يتنزّل ، ويستولي على المدى . لا يعود المسافر يحتمل الاستواء فوق الدّابة . يترجّل عن السرج ، لا يترجّل حقاً لأنه لم يعد قادراً على الصمود، ولكن لأن روح المكابرة تفقد سحرها ومعناها عندما يقبل الظمأ ، وتدنو ساعة فرار العصفور من قفصه الارضي . الظّمأ لا يهزم الفروسية والإدّعاء والمكابرة والترفّع عن صدر الأم الاولى فقط ، ولا يقتل الحياء الكاذب وحده ، ولكنه يصحّح الاوضاع كلها ، ويعيد للاشياء ذلك الجوهر المفقود الذي زيفته اللعبة ، ونفته الاكذوبة عن وطنه الاصلي ، وانسته الحياة لغته الاولى . يبدأ المسافر في نزع الاوزار التي لم يحملها

Twitter: @alqareah

إلا لأنه وجد الاخرين امامه يحملونها . يبدأ في التخلص من اثقال قيدّه بها الحياء الكاذب . يتحرر من العمامة اولاً ، يبدأ رحلة الخلاص من اولّها فيطيح بشارة الكبرياء اولاً . تتزحزح الصخرة التي تسد فمّ المغارة الظلماء ويتبدّى للعصفور بصيص ضياء . تستمر الرحلة . تمضي المسافة بالمهاجر . تصير هي المهاجر ويصير المهاجر هو المسافة . يتبادلان الادوار، لأن الميعاد الذي يستبدل فيه المسافر دوراً مع المسافة قد أزف . تسير المسافة بالمسافر. يقطع شوطا في الابد ، فيقترب (ويا لغرابة الحال) الازل . يتبدّد الزمان في الابد الابدي فيتولّد الازل من المنفى ، ويعلم الكائن البائس (الذي احتجب فيه العقل بالنسيان ولم يعد يستطيع أن يعلم شيئاً بعد) أن الزمان إذا تمدّد في الابد استدار في قوس الخلود ليلتحم بالازل . الاستداره هي السّر . الدائرة هي الحلقة المفقودة . حلقة الخلود . ولكن المسافر الذي تخلّى الآن عن كل شيء ، عن اللباس ، ورسن البعير ، والصحراء ، والعقل ، وسلّم الزمام للصحراء التي قرأت السّر منذ أول الدهر ، منذ تعرّت وصارت صحراء ، هذا المسافر يقف الآن في الحدّ ، يقترب من برزخ السّر . فمنذ تخلّى ، ومنذ تحرّر ، ومنذ تزلزل وعاء الظلمات ، ورفرف العصفور تأهباً للسفر ، وهو يسمع الغناء يتردّد ، غناء غامض ، حزين ، بالكاد يسمع من فرط البعد ، يسميه الواويون :«لحن الإلهام» ، في تلك الساعة يسجد المسافر على ركبتيه . في تلك الساعة يحل الصفاء ، ويقترب اللحن ، وينزل الوحي.

Twitter: @alqareah

الوحي يسري في اعضاء لم يعد يحس بوجودها . يبدأ الحفر . لا يعي ، لا يعقل ، وإلاّ لما حفر ، ولكنه يستمر في الحفر . لا يختار الموقع ، ولكن الموقع هو الذي اختاره . وكلما ازداد تدفّق الفيض ، المسّمى إلهاماً في لغة الواويين ، كلما اقترب العصفور من فوهة الدهليز . وكلما اقترب العصفور من فوهة الدهليز ، توغل البدن في بطن الارض . في حضن الأم . في جوف العجنة الاولى . في مأوى يسميه أهل الباطل قبراً ، ويسميه المهاجرون بئراً ، ينبوعاً ، كنزاً . تقترب الرحلة من النهاية خطوة أخرى ، أو تقترب النهاية من الرحلة خطوة أُخرى ، فيقترب البدن من الكنز شبراً آخر . وحتى عندما يفلت عصفور النور ليلتحق بالفيض ويصير نوراً قبل الأوان ، ويكتمل الإلهام ، ويقف السّر على سّر السّرّ ، ويحل في البدن السّلام ، فإن مسافرين آخرين سوف يأتون قريباً ليسيروا على هدي السيرة، ويستخرجوا من جوف الاسافل سلسبيلاً مخلوطاً بالطّين ، وبهياكل من عظام لم يسعفها الزمن لتصير طيناً ، ولم يكفها الأمد لتتبدّد وتعود تراباً كما كانت يوماً .

(٤)

زحف بورو على ركبتيه . غاب داخل الشقّ . سمع جبارين همهمته وهو يتهجىّ النبوءة . سافر . حلّ في القوس المشدود . دار مع دورة الدائرة . تواصل الزمان في الزمان . وانتقل المكان من المكان . التأم الابد بالأزل ، ودار في مدار انتهى في مملكة لا تعترف بحدود

Twitter: @alqareah

الزمان ولا المكان . هناك تسلّم الرقعة ، وعاد بالوحي المبثوث في عبارة الاسلاف :

- أج أساّهت تيكّال إيو يسد جمّضد تفوك ، تقّلد آفلاّ كراضت. إتجرُوَد آنو داج اسلسل ملّن * .

كرّرها بورو ثلاث مرّات .

لم ينتظر جبارين خروج القرين من الغار . لم ينتظر عودة القرين من ملكوت الأرض الأخرى ، المظلّمة بسماء أخرى . تلقّى السّر . تلقّف الكنز المدفون في الاشارة ، وانطلق . انطلق ، لأن من تلقف رقعة الكنز لا ينتظر رفيقاً ، ولا يعترف بأخ ، ولا بأب ، ولا بأم . من اختطف رقعة الكنز لا يملك إلاّ أن ينطلق ، أن يفّر ، أن يختفي ، فلا مكان لإنتظارٍ ، ولا لصلة رحم ، ولا لعلاقة قران ، في ناموس الكنوز .

وقف في مواجهة الجلاّد الذي اطل فوق قمم ضفّة الوادي الأخرى ، تباطأ الجلاّد . حدّق في جبارين بعين الشعاع ، قرر أن يتمهّل قليلاً طمعاً في مشاهدة ميلاد الضدّ ، الخصم ، العدوّ الذي سيسلبه السلطان . جبارين أيضاً حدّق في عين النّار بجسارة الأبطال ، وتحدّي من استنصر بالسلاح الوحيد الذي يستطيع أن يقهر سلطان الجلاّد ، وينهي سيادة النار على الخلاء . حدّق في القرص حتى دمعت مقلتاه ،

---

* «إقطع مسافة سبع خطوات إلى حيث تشرق الشمس ، أصعد إلى أعلى ثلاث خطوات آخرى، ستجد بئراً تحت لوح ابيض» . (تماهق) .

Twitter: @alqareah

ثم بدأ يخطو ، يخطو خطوات واسعة ، ويعدّ بصوت عال ، منتظم ، ملحون ، كأنه غناء ، كأنه نداء : «إيّن . أسّين . كراض . أكّوز ، سمّوس. سضيس ، أسّا» . توقّف . حدّق في عين الجلاّد مرّة أخرى . حدق في الشعلة بصرامة الكهّان ، فتزحزح الجلاّد من موقعه في القمة. زحف شبراً إلى أعلى ، فغمر الكاهن المكابر بحزمة من نار . ولكن الكاهن تجنب الفخّ في آخر ومضة . استدار يميناً ، وواجه قمم الضفّة الأخرى ، فأصابت الحزمة منه العمامة ، وانزلقت ألسنة النّار على منكبيه . الكاهن لم يعبأ ، غاب في معابد بعيدة ، متمتماً بتمائم مبهمة . من الشق خرج القرين . تقدّم نحو القرين . مشى باحتراس الرعاة عندما يرمي الحظ في طريقهم ببهمة غزال ، فيحبسون الانفاس ، ويخطون على رؤوس الاصابع ليباغتوها نائمة . بلغ المكان الجليل فتوقّف بجوار القرين . تعبّد في الحرم أيضاً ، تمتم بالتمائم . واختلس نظرة وعيد إلى سلطان السماء ، فرماه الجلاّد بحزمة مماثلة من خيوط النار . تلقّاها بمنكبيه ، وعرض عنها في جسارة مماثلة أيضاً تضامناً مع القرين . انتهى الكاهن من مراسم القربان . تحرّر الكنز من أسر الازل . زال عنه خطر الزوال . شبح التحوّل ، لعنة التفسخّ التي تلاحق كل الكنوز الارضية ، تراجعت سعالي المجهول . ارخت قبضتها عن اللقيا ، فافلت الأرث من دائرة الوهم ، من دائرة الظلمة ، من دائرة الرماد ، من دائرة الخيال ، وصار ميراثاً يحق للأحفاد أن يتلقوه من يد الاجداد .

Twitter: @alqareah

تحرّك الكاهن . قطع المسافة . اجتاز البرزخ الاوّل . عبر الدهر الاوّل في الخطوة الأولى ، زغردت الصبايا . رقصت المهاري . غنّت الشاعرات مواويل البحث عن «واو» توقف ، انصت للغناء المجيد ، فاض الصدر بالاشجان ، رفرف العصفور في القفص . فزّت من العين دمعة الحنين . ولكنه تجلّد . تصبّر ، ارتجف ، ولكنه صمد صموداً بطوليا . لم يستسلم للاغواء . لم يجذب . لم يترنّح . لم يقع في سلطان الوجد . فخرج من امتحان الخطوة الاولى بطلاً . تمسّك بحكمة الكهنة ، واستمد الشجاعة من صلابة السحرة ، و .. تقدّم . قطع المسافة الثانية . اجتاز برزخاً آخر . عبر الدهر الثاني في الخطوة الثانية . انتظر عاصفة أقوى من الزغاريد . انتظر حشداً أكبر من المهاري . انتظر أن تتغنّى الشاعرات بمواويل شجنية أشجى وأشهى . ولكن ما حدث لم يجر له في حساب . فادرك أن التزوّد بحكمة الكّهان لا يكفي لاستخراج الكنوز . ادرك أيضاً أن شجاعة السحرة لا تكفي لاستعادة ميراث استعادته الارض ، ووقع في قبضته سلاطين الاسافل دهوراً . ادرك أن جبروت السحرة الذين ينازلون مردة الجن فيغلبونهن ليس مستعاراً من إقدام الفرسان ، ولكن من موهبة تلقّوها من السماء . وادرك أخيراً أن كل ما لم تعطه السماء هو هباء وباطل ، باطل ، باطل . . .

تزلزلت الجبال كلّها ، مادت الارض وانتفضت كأنها تنوي أن تلفظ احشاءها . هبّت عاصفة . اظلمّت السماء في ومضة . قعقعت

برعود لم يسمع بمثلها . تمزّق غيمها البهيم ببروق كسياط النّار . سمع دمدمة خفية ، الدمدمة تحوّلت إلى بلبال ، البلبال تحوّل ضجيجاً عاتياً . وقبل أن يستولي الضجيج على كل صوت آخر خُيّل له أنه سمع صوتاً ، نداء ، تحذيراً ، يقول : «باهو آواغ إيمدا باهو»* . فهل كان النداء هتاف القرين ، أم انه إلهام غامض ؟ . بعدها ابتلعت البلبلة كل الاصوات. أحسّ بيدين من حديد تمسكان بمنكبيه ، أغمض عينيه . تذكّر النداء الغامض ، فداس على قلبه ، وسحق كوز الطين ، وتعلّق بالعصفور وحده. لا يعرف كم مضى من الزمن ، ولكن العاصفة بدأت تتلاشى عندما فتح عينيه ، والبلبلة الجنونية مضت تبتعد مع العجاج . صمتت السماء . توقفت الارض عن الدمدمة . تبيّن القرين بالجوار . سمعه يتمتم: «هنيئاً لك . الرّهان كان اصعب مما ظننت» . ولكن الكاهن كان يفكر في المسافة التالية . في البرزخ الأخير . في اهوال السفر الاخير . وكم كانت دهشته كبيرة عندما استجمع آخر ما في الارادة من تصميم وتقدّم . ساعتها هبّت عليه عاصفة الزغاريد التي تمنّاها في المسافة الثانية، واحتشدت جيوش الفرسان ، وهرجلت راقصة ، غنت الشاعرات اشعاراً لم يسمعها من قبل ، واقبل إليه رسل كل زعماء الصحراء ، لأنه استطاع أن يستعيد كنز الاسلاف من قبضة الاعداء . ساعتها عرف أن الفرح الحزين ، فرح البرزخ الأخير ، ليس إغواء المسافة الاولى .

---

* باهو آواغ إيمدا باهو : باطل . كل ما تراه باطل (تماهق) .

Twitter: @alqareah

(٥)

الفوهة طوق من الصّلد المصقول .

هنا ، في الاسافل ، يقبع السّر الذي وقع عليه خيار السماء . إليه أشارت الانواء . حوله حام الرسول «إيدي» . نحوه سعى التائه عندما رفرف طائر السّر ، وفزّ العصفور من القفص ، وخرج كائن الضوء من المعقل ، تحرّر من العقال ، من طوق الطين لينتقل الطوق الى الصلد ، بأظافره حفر العلامة الاولى . ووضع حجر الزاوية دون أن يدري ، حتى أنه لم يبخل على أهل السبيل بالطوق ، فترك لهم عظامه قرباناً ، ومضى الى وطن لن يحتاج فيه إلى هيكل العظام .

بعدها تناوب أهل السبيل على الحفر .

تأتي القوافل . تتوقف في الحضيض ، يصعد المسافرون إلى الحرم، يقرأون التمائم السرّية ، ينحر الكهنة أنعاماً على الضريح . يحفرون نصيبهم بمعاول الحجارة ، يقطعون شوطاً أبعد . يتحلّقون حول الطوق عندما يحل الليل ، ويهل الإله . تحت ضياء الإله يبلبلون بالتعويذة الجماعية التي اجمع السحرة على فعاليتها ، وصارت تقليداً تولول به القبائل في الامسيات . ينوحون على الموقع كما ينوحون على القبر . ينوحون ليطردوا الشّر ويفسدوا على «وانتهيط» مكيدته . ثم يحمّلون القافلة اثقالهم وينطلقون ليتركوا أمر الشوط التالي للمسافرين الذين

Twitter: @alqareah

سيأتون بعدهم . يمضون بعيون دامعة ، يتحسّرون ، لأنهم يعلمون أنهم لن يشهدوا ذلك اليوم المجيد الذي سيضرب فيه أحد المسافرين ضربة واحدة فيفجر الحظّ في وجهه ينبوعاً طلبته الاجيال ، ويئست من الوصول إليه قبائل ، وحلم بنيله مهاجرون لا يحصى لهم عدد ، ولا يعرف لماضيهم تاريخ . الحظّ معتوه ، الحظ مثل القدر ، غريب الاطوار، يروق له أن يسخر من أهل الحزم . وكثيراً ما وهب هذه الضربة النبيلة لأوغاد ابعد ما يكونون عن النّبل والقداسة ، وأقرب ما يكونون الى الدنس والنجاسة . ويقال أن الضربة القدرية التي فجّرت نبع «عين الفرس» * كانت من نصيب مغامر شرّير جاء من جهة بحر الاوقيانوس بحثاً عن كنوز التّبر . ويُروى ان الحظّ لم يخن المغامر على كل حال ، فوهبه ثلاث جرار رماديّة مليئة بالمعدن اللعين ، وجدها المغامر الكريه بعد أن تفجّر السلسبيل في زاوية الحفرة ، تحت حجر من الصوّان الصقيل . كما تروى روايات أخري عن آبار كثيرة منعت نفسها عن أجيال وأجيال ، ومنحت نفسها لمغامرين أو عابثين ، أو انذال ، أو حتى مجانين.

يستمر الحفر اشواطاً . وقد يستغرق اجيالاً . وما أن تحين الساعة ، ويستوي الأمر ، وتهوي الضربة القدرية على الصلد ، حتي تجود الاعماق بفيض احتجب في جوفها طويلاً ، وطلبته الاجيال طويلاً ،

---

* عين الفرس : نبع بواحة غدامس . (الصحراء الليبية) .

Twitter: @alqareah

وانتظرته القبائل طويلاً . ينتشر الخبر . تعم البشارة . تحملهما «مولا – مولا» إلى كل الصحراء . تُبتهج القبائل ، تزغرد العذارى ، تتغنّى الشاعرات بمواويل الطلب وفجيعة الوصول . ترقص المهاري في العراء . تعزف المغنيات الحان الاشجان ، وتقرع العجائز الطبول . يلتئم الحكماء في خيمة الاجتماع ، ويتحلّق الفرسان حول الزعيم . يأمر السّحرة بجلب الانعام ، ويغمدون المدى النحاسية في النحور ليغسلوا ايديهم بدماء القرابين .

يحج الخلق الى الموقع . تغيّر القوافل السائرة الى الجنوب خطّ السّير. ويبدّل تجّار الشمال الطرق المؤدية الى ممالك الشمال . تتحوّل مسالك العبور ، وتنقلب كل السبل . لأن اكتشاف حلمة جديدة للأرض هو الحدث الوحيد الذي يستطيع أن يحرّف السير ، ويشق الطرق الجديدة ، ويبدّل حياة العابرين.

أثر الحبال ما زال محفوراً على الطوق . لمسات المسد الشرس ما زالت مطبوعة على عنق الفوهة . اخاديد الحبال المعتمة ، الصقيلة ، الغامضة ، لم تكن لتتجاسر على نحر الصوّان ، ونهش الصّلد لو لم يقف لها الزمان سنداً . لم يكن حتى المسد النّهم يجرؤ أن ينشب ناباً ويجرح الحجر الخالد لو لم يعتمد على تشجيع الثعبان الخفي الذي يحيل كل شيء الى هباء ورماد .

ولكن هذا الثعبان ، المسمّى في لسان الصحراء زمانا ، لا يمهل

Twitter: @alqareah

إلى الأبد لأنه وجد اصلاً كي لا يعترف بالأبد ، كي يزيل خصماً اختلقه الخلق وسمّوه الأبد . فالزمان الذي وهب لا بد أن يجيء يوم يسترجع فيه كل ما وهب . وهذا اليوم ليس بعيداً أبداً مهما طال بحساب أهل الصحراء ، لأن قياس الزمان لا يقارن بقياس الدّمى التي تثقل كاهل الارض .

الزمان ينهي الامر على طريقته . على طريقتين : فإما أن يستعيد الكنز ، ويسحب الماء من القيعان ، أو يزيل القبيلة كلها ، ويحوّلها هباء لا وزن له ولا جسم ، فتعود الدائرة الى البقعة التي انطلقت منها يوماً ، ويعود التراب تراباً كما كان ، وكأن الدمية التي قطعت الصحراء شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً بحثاً عن التبّر ، أو غزواً للادغال ، واثقلت الارض كيفما راق لها أن تثقل ، تصير الآن كأنها لم توجد ، لم تكن . وقتها يتنفس «آمناي» ، في انفاسه يهب القبلي حاملاً ذيول الغبار . يذرّ الغبار في افواه الآبار . فتحتجب الافواه . تهاجر المياه ، تتمدّد في عروق الاسافل . تعود لتسكن الخفاء . إذ من يدري من أين يأتي الماء ؟ أو إلى أين يذهب الماء ؟

(٦)

بورو ركع عند الحافّة ، وانهمك يزيل التراب بحماس ، وجبارين ركن الى الطوق . تحّسس العنق الرشيق ، الاملس ، الذي ينافس جيد الحسناء في البهاء ، والاغواء . تابع القوس وهو يتقوّس ، وينكسر بكبرياء

Twitter: @alqareah

الأكابر ، ينعطف بدهاء السحرة ، ينكسر في نقطة لا وجود لها في المسافة ، ينعطف في مساحة خارج المكان ، ويستدير في برزخ لا يعترف به الناموس ، ولا تقرّه إلا شرائع مستعارة من الارض الأخرى ، من الصحراء الأخرى . فهو ، في مسلكه الحكيم ، لا يتشبه إلا بالأفق الصحراوي الحكيم ، ولا يحاكي إلا الزمان الذي غلبت حكمته كل الكائنات . الزمان وحده يملك هذه المزّية . الزمان وحده ينحرف في حدّ خارج الرؤية ، فلا تراه عين ، ولا يخطر على بال مخلوق ، ليخطّ زاوية الدائرة ، ينحدر من الذروة ، وينساب ، خلسة ، إلى الوراء ، ليوصل حدّه بما انقطع من أمره ، يلمّ ماضيه في مستقبله ، ويلحم مستقبله بحاضره ، يتحلق بصرامة ، ويحكم إغلاق حدّ لا اركان له . لأن الدائرة إذا التأمت ، وانكفأت على نفسها ، حوت كل الاركان ، واحتوت كل اطراف الزمان .

انحنى فوق الهاوية . كانت موحشة ، مظلمة ، مغرية ، تنطلق الى الاسفل بلا قاع . تهوي الى المجهول . ولكن غموضها يوحي بسرّ لا طاقة لها لا بالتكتّم عليه ، ولا قدرة لها على البوح به . غموضها يوحي بهذه المشادّة بين الامرين . بين الضدّين . بين حمل لا يحتمل ، وتوقع معاناة الحال الاسوأ إذا تجاسر وتنصّل منه . والمعاندة في هذا الحال ليس حالاً ابتدعته الهاوية ولكنه حال عرفه كل وعاء احتوى في جوفه كنزاً مخفياً .

Twitter: @alqareah

تناول حجراً . القى به في الهاوية . تصنّت . حبس الانفاس . اشار لقرينه أن يتوقف عن معاندة اكوام التراب ، فتصنّت بورو أيضاً . تصنّتت الصحراء ، تصنّتت الكائنات . القبائل بفرسانها وسحرتها وزعمائها وصباياها . تصنّتت قبائل الجنّ أيضاً . تصنّتت كل الانعام ، تصنّت الزمان بجلالته . حتى إله النّار والضياء تصنّت . تصنّت وغضّ الطرف في خشوع حتى خُيل للقرينين أنه سيتوارى إجلالاً وربما خوفاً... بلغ الحجر الوطن اخيراً، ارتدّت الاشارة . هاجرت لتقطع نفس المسافة . لتجتاز نفس الحدود ، وتعاند نفس الاهوال التي عاندها الحجر واجتازها في سفر الهبوط . قطعت الاشارة المشوار ، انهت سفر الخروج ، فسمعت المخلوقات ، سمعت الارض والسماء ، الثرثرة . التمتمة ، التميمة ، حوار العاشقين الشقيين . الكّل سمع شكوى الحجر إلى الماء ، وشكوى الماء الى الحجر . ثم حلّ سكون ، ففهم الكلّ أيضاً أن الصديقين القرينين ، المعشوقين ، قد غابا في عناق طويل .

هنا قالت السماء للأرض : :«أسمعت ؟» ردّت الارض : «بلى . سمعت» قال الجنّ للجن :«أسمعت؟» فرد الجنّ على الجنّ : «بلى . سمعت» . قال الساحر يخاطب الزعيم : «أسمعت» . اجاب الزعيم : «بلى . سمعت» . قال آمغار للساحرة تيرزازت : «أسمعتِ ؟» فردّت الشقيّة باكية : «بلى . سمعت» . قال الودّان يخاطب بوشا : «أسمعت؟» ردّ بوشا : «بلى . سمعت» قال الزمان يخاطب إله النهار :

Twitter: @alqareah

«أسمعت ؟» . ردّ الإله باكيا أيضاً : «بلى . سمعت» . هنا قال جبارين يخاطب القرين :

– أسمعت ؟

– ردّ بورو بخشوع :

– سمعت !

تبادلا نظرة طويلة . في مقلة بورو تلألأت ضحكة ، ولكن القرين حذّره بإيماءة صارمة . كمّم بورو فمه بلثامه . انتصب . استمر يخاطب القرين بعينيه . نهض القرين . التحما في عناق آخر . ثم صاحا بأعلى صوت. واشتبكا يتصارعان .

(٧)

في القيلولة هجعت الكائنات .

هجعا تحت الطلحة أيضاً .

قال بورو :

– رأيتك ترتجف عندما هبّ العجاج ، فكدت أيأس !

سحب جبارين لثامه على عينيه . انصت لهرجة الذبّاب . تكلّم :

– أحسست بيدين من حديد تقبضان علي . الاولى من هنا (أشار بيده اليمنى إلى منكبه الأيسر) ، والأخرى من هنا (وربت باليد اليسرى على منكبه الأيمن) ، فكدت أيأس مثلك . انتظرت أن اطير في الهواء ، واختفى مع أهل الخفاء ، ولكن صوتاً تكلّم في أذني . لا أنسى أن

Twitter: @alqareah

الصوت هو الذي ثبّتني . كان صوتاً ... هل كان ذلك صوتك ؟

بورو لم يجب . طرد ذبابة لجوجة ، وعاد يقول :

– قلت لك أني لم اندم عندما اخترتك قريناً .

صمت . قاوم الذبابة . أكمل :

– اليوم ازددت يقيناً . انت تعرف ما معنى ان يفوز بقرين من لا قرين له . من لا أخ له ، ولا أب ، ولا أمّ .

انتظمت انفاس جبارين . ولكن بورو لم ييأس :

– عندما كنت صغيراً سمعتهم يتحدّثون همساً عن أخ لي لم اعرفه !

تململ القرين . سأل :

– لم تعرفه ؟

ولكن بورو تجاهل السؤال . قال بلسان الامهات عندما يسردن البطولات لاولادهن في ليالي الشتاء :

– قالوا أنه حاول قتلي !

– حاول قتلك ؟

– لم يحدّثني أحد بالحّق . ولكنّي لم اقدر أن أنسى ما يدور حولي وانا صبيّ .

Twitter: @alqareah

– ألم يردعه أبوك ؟ أين الأب ؟

حامت حوله الذبابة . نهشت ساعديه العاريين . لم يقاومها . قال:

– لا ادري . كنت صغيراً . لا استطيع أن اتذكر شيئاً . سمعتهم يقولون أنا كنا وحيدين في المرعى . شجّ رأسي هناك بالحجر ، وهرب . دفنني في التّراب . وعندما أخرجوني نسيت كل شيء ، ولم أعد استطيع أن اتذكر ..

سكت . سكت جبارين أيضاً .

غفا بورو ، ولكن جبارين استمرّ يتململ . ارتفع شخير القرين . زحف جبارين حتى انحنى فوق رأسه . كان يحجب عينيه بطرف اللثام العلوي . اللثام التفّ حول الرأس ، فبقيت الذروة حاسرة ، يشطرها الاخدود القديم الى نصفين . كان الشّدخ مفتوحاً ، قبيحاً ، له هيئة كعشب الانثى ، يومىء بإغواء غامض . تشبّثت بجانبيه حبّات الرمّل ، وحلزونات الشعر المفلفل . حدّق فيه طويلاً . رأى الحجر يهوي على قمة الرأس . يهوي ، ويهوي ، ويهوي . في البدء تناثرت قطرات كثيفة ، لزجة ، مقززة . ولم ينزف الموقع إلاّ بعد أن تهشّم الصّلد . سال المجرى بالسائل المتخثر ، اللزج ، الذي يفوح برائحة غريبة . عليه نزلت أسراب الذباب ، وبدأت تلعق بشراهة .

انتقلت الذبابة من ساعد النائم ، وحطّت على الاخدود . كشفت عن لسان مدبّب ، وبدأت تلعق بشراهة .

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

٢٠ - الخروج أ

«وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل اخيه وقتله . فقال الرّب لقايين : أين اخوك هابيل ؟ فقال : لا أعلم . أحارس أنا لأخي؟. فقال : ماذا فعلت ؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الارض »

التكوين

(٤ : ٨، ١٠)

* * * *

« .. وكان قتله شدخاً بحجر »

المسعودي

«مروج الذهب»

Twitter: @alqareah

(١)

في السنوات الاولى احتمل كثيراً . فما أن سمع الزعيق ، ودخل ليجد ضيفاً في الخباء حتى بدأت التنازلات . زحزحه من مقعده منذ اليوم الاول ، ومضى يهشه في خلاء بارد ، موحش ، مثل معزة شقية . هرعت إليه جارتهم العجوز وهمست له بالبشارة . قالت له بلغة العجائز أن من حقه أن يبتهج لأن «آيل – بيل»* آثره على بقية الأقران وجاء له من الاوطان البعيدة بدمية صغيرة ستكون له لعبة وفخراً ورفيقاً سوف يساعده في ترويض الجداء في المراعي . دخل إلى الخباء راكضاً . سمع زعيق الدمية في الزاوية ففز قلبه تلهفاً وشوقاً . كانت الأم مسجاة عند الركيزة . مغمضة العينين . وجهها تغضن وامتقع وهرم حتى تخيل أنه يرى شبحاً لإمراة أخرى . حولها تحلقت نساء متشحات بالاردية السوداء . وعندما تبدّى لهن اشارت له العجوز أن يقترب . تقدم خطوة، وتوقف عند الركيزة في الجانب الموالي للموقد . تناولت صرّة صغيرة ، خرق ملفوفة في لفافة ، هدهدتها بين يديها ، داعبتها وبصبصت لها بشفتيها ، ثم قدمتها له . ظنها تمازحه . ابتسم . تمتم في حياء : «ولكن أين الدمية ؟» . قطبت العجوز . عقدت حاجبيها ، حدجته بصرامة فزعق الوليد في القماط . في تلك الطرفة رأى كائناً بلا

* آيل – بيل : الغرانق .

Twitter: @alqareah

جسم ، بلا ملامح ، بلا وجه ، بلا اسم ، ولا يمتلك من علامات الوجود إلاّ صوته .

في الليلة التالية بدأت التنازلات ، واستولت الدمية على مقعده بين الوالدين .

(٢)

كان الموقع مريحاً خاصة في ليالي الشتاء . يتوسط بدن الوالد من جهة وبدن الأم من الجهة الأخرى . محشور بين دفء الموقد من جانب المدخل ، وظهره يحتمي بدفء الركيزة في عمق الخباء . كان مقعداً ادفأ من عش الطير . ولم يعرف هذه المزيّة إلا بعد أن زحزحة الخصم ، وقعد في الجانب المقابل حيث يواجه الموقد في الطرف الآخر ، فاقداً دفء الاب والأم معاً ، عاريا من حماية الركيزة ، يتلقى غزوات الصقيع بظهره ، يرتجف ، ويستعين بانفاسه ليدفىء يديه كما اعتاد أن يفعل في الخلاء عندما تفاجئه امطار الشتاء .

في نفس الليلة أيضا تنازل اشباراً أخرى وتخلى عن المرقد بين الابوين ليحتله الضيف الغريب الذي لا جسم له ، ولا ملامح ، ولا إسم. الأم ربتت على رأسه وقالت له أن الأمر لن يدوم طويلاً . ولكن الأب الصارم الذي لم يعرف الدعابة ولم يتعلم المداراة أخبره أن الخروج سيدوم إلى الابد . وقال له أن عليه أن يتعلم ناموس الحياة من مملكة الطير

Twitter: @alqareah

:«هل رأيت فرخاً عاد إلى العشّ واندسّ تحت ريش الأم بعد أن طار ، ونزل في العش جيل الفراخ الجديد ؟» . كان بالامكان أن تستثير فيه العبارة القاسية ذلك الاحساس الغامض الذي جعله يدرك أن عليه أن يودع الرّخاء والدّفء ولذة الالتحام ببدن الأبوين ، ولكن العبارة ارهبته واشعرته في البداية بخوف مبهم من غول مجهول . ثم .. أحسّ أنه يقف في الخلاء المديد وحيداً .

تملكه يأس ، وبدأ يرتجف ، وينتحب بلا دموع .

(٣)

المكيدة أرهبته فكره الدمية ، والأم ، والأب والقبيلة . كره الجميع وكره معهم نفسه . احتفلوا . صرخوا في اذن الدمية بالإسم ، فاحتفلوا . اغرقوا اللقيط الذي جاء إلى البيت معلقاً على جناح «آبيل – بيل» ببخور كريه الرائحة زغردوا ، امسكوا به ليلقنوه الإسم البليد . قالت له العجائز الذميمات أن إسم أخيه الآن «دودو» ، وعليه أن يحفظ الإسم جيداً . افلت من ايديهن ، رمى في وجوههن حفنة من التراب . جرى الى العراء ، وبدأ يتقيأ .

احتمل العراء . احتمل الحرمان من البدنين الحميمين . احتمل فقدان الدفء ، ولكن صراخ الليالي حرمه النّوم واصابه بالصّداع . لم يتوقف عن الزعيق منذ اقتحم الصحراء ، كأن افعى لدغته ، أو نال مسّاً

Twitter: @alqareah

من جّن . لم يرضه أن يفوز بالمقعد الذي يتوسط الوالدين ، ولم يعجبه المرقد المريح بينهما في الليل الصقيع ، ولم يرق له الغطاء الوثير المحشو بوبر الإبل الذي انتزعه منه ، ولم يكفه أنه زحزحه من كل البيت ، وطرده الى العراء ، ليتركه هناك وحيداً ، مهجوراً ، يلسعه برد الشتاء ، وتعوي حوله الذئاب .

ايقظه في إحدى الليالي فزحف نحوه . ازاح عنه الغطاء وانحنى فوقه . حاول أن يتبينه في الظلمة ، حاول أن يقف على سّر المخلوق الذي لا ملامح له تحسّس جسمه اللزج ، المبتل ، المقزّز ، دون أن يعرف ما الذي يريد أن يفعله . أحسّ المخلوق بالخطر فازداد زعيقه حدّة . فزّت الأم من النوم فوجدته شبحاً يجثم فوق جسم الوليد . تمتمت بالتعاويذ . غمغمت :

– من ؟ من ؟ بوبو ؟ ماذا تفعل هنا ؟ لقد افزعتني !

غمغم بـ «لاشيء . لا شيء» وزحف نحو المدخل . عاد الى فراشه الذي لا يهنأ بدفء الخباء إلاّ نصفه ، أما النصف الباقي فيستلقي في العراء .

في إحدى الامسيات سأل الأم :

– ماذا يريد ؟ ما الذي يجعله يبكي بهذا الصوت القبيح ؟

قالت وهي تنهمك في رتق ثوب مكدّس في حضنها :

Twitter: @alqareah

– يشكو !

اتسعت عيناه . سأل بدهشة :

– يشكو ؟ ألم يعجبه كل ما ناله ؟

– لا ادري ، ربما يشكو من ألم ، وربما لم يعجبه المكان !

– لم يعجبه المكان ؟ إذا لم يعجبه المكان فلماذا لا يهجرنا ويعود من حيث أتى ؟

ابتسمت . رمقته خلسة . عادت الى الثوب . اختفت البسمة الحزينة . اختفت البسمة وبقى الحزن . قالت :

– ليته يستطيع . الوليد إذا أتى فلا يقدر أن يعود من حيث أتى أبداً . فالمكان الذي خرج منه يشبه «واو» ، إذا خرجت منها اختفت الى الابد .

تنهدت بيأس ، غمغمت : «هيهات . هيهات ..» .

بعد زمن ذكرّها بالوعد . قال لها أنها وعدته بأن خروجه من المكان لن يدوم طويلاً ، فمتى يمكنه أن يعود ؟ دارت ارتباكاً ببسمة الحزن . داعبت شعره الذي يشطر رأسه كعرف الديك ، فاشتكى قبل أن يسمع جواباً :

– أبي قال أني خرجت إلى الابد .

Twitter: @alqareah

– ألا تريد أن تصير بطلاً ؟

– قال أيضاً أن فرخ الطير لا يرجع إلى العش إذا خرج .

– لا يصير الصبيان رجالاً إلاّ إذا صاروا أبطالاً ، ولا يصير الرجال ابطالاً إلا إذا خرجوا الى الصحراء !

– قال أيضاً أن من حق الجيل الذي نزل أن يزيح الجيل الذي سبق ويطرده من العش .

– لا يتجنب الخروج الى الصحراء إلاّ الجبناء . فهل انت جبان ؟

لم يتفاهما في ذلك اليوم . تحدّثا بلسانين مختلفين لأول مرّة ، وخشيا معاً أن يكون الانقطاع في اللغة علامة الفراق ، والاختلاف في اللسان هو إشارة الخروج .

(٤)

يومها ادرك انه فقدها ، ففقد كل شيء . فقد الأب في زمان لا يعرفه ، وافقده الانقطاع حبّ الاقران ، وازاحه «دودو» من الموقع الحميم ، وفقد اخيراً أقرب مخلوق فلم يتبقّ إلا أن يتوغل في العراء ، ويسلم نفسه لقبضة الغول . في الخلاء تسلّى بمخاطبة الجديان . وفي الليالي طوقته النجوم وحاورته بألف الف لسان . وكما كانت السماء سخيّة في السلوى ، وجد في الصحراء الف عزاء . حدّثته الاشباح المنحوتة على صدور الصخور بسير الاوائل ، واخبرته المدافن

Twitter: @alqareah

المستديرة بناموس الزمان وحكمة الدوائر . ووعده قوس الافق بـ «واو» الخفية التي حيرت الاجيال . ولا يدري متى يتقضّى النهار ويأتيه الليل بجيش النجوم . يدخل المملكة البهيجة ليتفقد احوال الخلصاء . يستبق موكب الملك الحميم فيستفهم عن أمره سلطان الاستطلاع «إيدي» . تحتجب كوكبة الصبايا فيسأل «طالمت» عن سبب الغّم . يرى حزناً في وميض «آمنار» فيتلقى الخبر من فم القمر . واذا طلع موكب الملك فإن الحوار سيطيب والسهر سوف يطول والانباء سوف تأتيه من أبعد فجّ .

في الليالي تأخذه القبة العليا ، وفي النهار تستعيده الصحراء ، وينعم بحنان الشق الأسفل . سلم أمره للقطب المستدير فوجد انه خرج من البيت حقاً. لم يندم . لم يأبه . لم ينتبه للمدى الذي وصل إليه في سلسلة التنازل . لم يأته حتى عندما وجد أن «دودو» استولى على نصيبه من الطعام فلا يتلقى إلاّ ما يتبقى من وعاء «دودو» ، ولا ينال إلا ما يفيض عن حاجة ذلك المخلوق النهم . هذا المسلك من قبل الابوين شجعه في تدبير مكيدة يسلم بها الدمية الكريهة لملوك الجّن !

غاب الأب في سفر ، وخرجت الأم لقضاء حوائج عند الجارات، فتركته في عهدته . انتظر الأم حتى اختفت في اول خباء وهجم على التمائم . انتزع من معصمه صرّة الشيح . فك رباط الخيط بعناية . افرغ المسحوق في حفرة وملأ الصرّة بحفنة تراب . ربطها بعناية وأعادها الى المعصم . ثم فرّك يديه واطلق ضحكة غريبة لن ينساها

Twitter: @alqareah

ابداً . ضحكة كريهة استغرب أنها خرجت من حنجرته لأنه كان على يقين أن الصوت لم يكن صوته . فرك يديه وحام حول الدمية . حول عنق الدمية . هناك تتلألأ تميمة بهية ، محفوظة في مثلث فاتن من معدن الفضة ، تلقاها دودو من الأم عندما ملّ أكوام اللباس الذي يحيط ببدنه ، وتمّرد على الحصن المنيع ، وهّب واقفاً بمساعدة الركيزة .يومها فرحت كثيراً . قبلته ، داعبته . لوّحت به في الفراغ . ضحكت في وجهه ، ثم اختفت في الزاوية وعادت من الصندوق بتلك العطية النفيسة . ثبتتها في خيط جلدي ، وعلقتها في رقبته لإرهاب الجن . ساعتها زفر انفاساً كفحيح الحيّة ، واشتعل في صدره حريق كحريق القيلولة ، وفز من عينه وميض لو رأته الأم لأغمي عليها فزعاً . ولكن فرحتها بخطوة «دودو» الاولى في طريق الخروج اعمتها عن كل شيء .

طاف حوله ثلاث مرّات . تفقده من كل جانب . هرش عرف الدّيك فوق رأسه . في تلك الطرفة توقف الشقيق عن اللعب . حبس حتى النفس . طفق يتابع بوبو بفضول لم يعرفه في الاطفال . ابتسم له ، ولكن الطفل تجهم ، تبدّل في وجهه اللون ، ثم انطلق باكيا ، اسكته بحبّة تمر . وداعب وجهه حتى بلغ التميمة . قلّبها في راحته . اهتدى إلى سرّها . داس بإبهامه على الضلع السفلي في المثلث ، تزحزح الغطاء، وتبدى الكنز . تناول اللفافة واغلق الغطاء بإحكام ، فتح اللفافة فغزت انفه رائحة خفية . كانت رقعة جلد مشذّبة الى حد صارت فيه

Twitter: @alqareah

في رقة اوراق الحلفاء . ارتسمت عليها علامات وخطوط ورموز . وضعها في فمه . مضغها فوجد لها طعماً خفياً مثل رائحتها . مرّت ومضة ، ومضتان ، وأقبل الجند . سمع الدمدمة اولاً . هدير غامض يشبه ضجيج اقدام قطعان الاغنام في سكون المغيب . اقتربت الدمدمة . اقبل الهدير . تصحبه همهمة مبهمة . وصلوا . يركبون عجاجة ماردة رأسها في السماء وذيلها ينساب على الارض . اقتحموا المضارب المجاورة . تباكى الصغار ، تصايح الرجال . حجبوا المضارب المجاورة تماماً . اقتحموا الخباء . طار الخباء . استغاث «دودو» . زعق بفزع ومدّ إليه كلتا يديه طلبا للنجدة ، ولكنه قبع في الزاوية ولم يهرع لنجدته فاستبدلوه . سلّطوا عليه ذرات الرمل ، ولكنه رأى كيف خطفه مارد ملثّم . ووضع وليداً آخر مكانه . توعدّه المارد بسبابة هائلة الحجم ، واشار له بالسكوت . فامتثل . وسكت .

(٥)

ولكن من غير الأم يستطيع أن يكتشف سرّ الإبن ؟

في البداية أرجعت التبدل في مسلكه إلى الحمّى ، وخالت اطواره وتقلّب مزاجه إلى وباء السويداء . ولكنها بدأت تشك بعد انقضاء اسابيع . لاحظت أن النوبة إذا ألّمت به فإن الصحراء كلها لا تسعه . يرتجف ، يلفظ زبداً . يغيب السواد من مقلتيه ، ويبدأ يئن بصوت ليس له . إذا اعطته حلمة الثديّ عضّها حتى يفزّ منها الدّم ، وإذا غنّت له

Twitter: @alqareah

اغانيه المفضلة زعق ورماها بحجارة أو تراب . وإذا حاولت أن تتناوله في حضنها لتصنع له من ذراعيها أرجوحة عضّ يديها باسنان لها مفعول مسموم كأنياب الحيّة ، فيصيب الأم الداء ، وتستدعي الجارات ليعالجن العضّ بالمراهم وعقاقير الادغال . حدث ذلك مرتين ، وفي المرة الثالثة بدأت تترنح وتردّد : «آواغ كلا وجّغ دودو»* . ترنحت كثيراً . ورددت النبوءة طويلاً ، ثم قفزت إليه كأنها تلقت إلهاماً . هجمت على معصمه وانتزعت الصرة . قطعت رباطها باسنانها فانهال منها الغبار . القت بالصرّة في فزع . كأنها اكتشفت أنها صرة مليئة بأظافر السّحر وليست صرة تحمل تعويذة . ولّت إلى الوراء خطوة . ولكن الإلهام دفعها إلى الامام مرة أخرى . احتوت رقبة الوليد بين يديها كأنها تنوي أن تقتله خنقاً . جرّدته من التميمة الفضية بحركة خبيرة . ولول بالصوت المجهول فلم تلتفت إليه . ضغطت على الضلع السرّي فانفرج المثلث عن الفراغ . القت بالمثلث الاجوف ارضاً . وصرخت بأعلى صوت :

– دودو يمسكل ! **

ركضت نحو خباء الساحر برأسٍ عارٍ كأن أهل الخفاء الذين استبدلوا «دودو» قد استولوا عليها .

(*) هذا لا يمكن أن يكون دودو .

(**) دودو أستبدل .

Twitter: @alqareah

(٦)

عندما تأهب الساحر للعراك ، وبدأ التحدّي ، لم يتوقع أن تكون المشادّة بتلك القساوة . في اليوم الاوّل اعتكف في العراء وتحصّن بالتعاويذ . في مساء اليوم التالي استبدل السلاح ، واحتمى بمديتين ، وبدأ الطواف حول خبائهم . كانت الظلمة وحدها كافية لبعث الوحشة ، واستفزاز الجنّ . وقد زاد غياب الأب خارج النجع البيت اعتزالاً ، فصاروا يتخوفون ويتوقعون من أشرار الخفاء عدواناً في كل حين . وما أن بدأ الساحر يهرول حول الخباء حتى تضاعف الخوف ، وازداد الاحساس بالوحشة . كان يئن انيناً موجعاً . يغمغم بتمائم مجهولة بلغة مجهولة أيضاً . يطعن الفراغ بإحدى المديتين . ويخفي المدية الأخرى في كمّ جلبابه . ولا يعرف متى توقف الساحر عن الطواف ، لأنه استيقظ مبكراً ، وتأهب للخروج بالجداء الى المرعى ، فلم يجد سوى آثار قدميه التي حرثت دائرة مثيرة حول الخباء .

عقب المغيب اقبل مرّة أخرى . استنفر القبيلة ، واستعان بابطال مسلحين بالسيوف . وقف قبالتهم . قرأ تميمة بتلك اللغة المجهولة ، أعقبها بموال حزين ، ثم طعن الهواء بنصل المدية ، واعطى الاشارة . بدأ الغزو . هرول . التزم درب البارحة . هرول خلفه الفرسان . طعنوا اعداء الخفاء بالسيوف . ازداد رسم الدائرة عمقاً . اطلق الساحر صيحة جنونية وصرع محارباً مارداً . الفرسان التحموا بالمردة ايضاً . تصايحوا . اشتد

Twitter: @alqareah

العراك . غابت الأنصال الفظيعة في الابدان الخفية . سقط الجرحى . ارتفعت السيوف الى الاعالي ، قدحت شرراً في الظلمات . قبّلت وميض الانوار الغامض . ذاقت طعم الالهام ، فعادت الانصال مسلحة بعطية السماء ، بالرؤى ، بالنبوآت ، ونزلت إلى اسفل ، اقتحمت استار العتمة . اقتحمت الخفاء ، اصابت الأعادي المتخفين بالخفاء . فسقط قتلى . أصيب بعض ابطال القبيلة بجراح ، ولكن الغزو انتهى بالفوز .

لم يبق من العراك إلاّ المعقل الاخير .

في الليل ، بعد المغيب ، اقتحم الساحر الخباء . لم ينس الدائرة الدامية قبل الدخول فمشى في المسلك حافيا ، وردّد التمائم حتى أكمل الطوق . وما أن تبدّى في ضوء النّار بعينيه المحمرتين ، ولثامه الممزّق الملوّث بغبار الطين ، حتى ندّت عن ابن الجنّ صرخة اقلقت المنتجع ، وازعجت كل الكائنات في الصحراء . لم يكتف الجني بالصراخ الجنوني ، ولكنه رفس النار بقدميه ، واستلقى ببدنه إلى الوراء ، وتقيأ أكواماً من زبد اصفر مشبوه اللّون ، وطفق يتلوّى . اما الساحر فأخرج من الكمّ إحدى المديتين ودسّ نصلها في جمر النار . شمرّ عن ساعديه ، خاطب المجهول بعينين مجنونتين :

– إبكِ يا شقيّ ! إبكِ ، فلن تجد من ينجدك من النار يا ابن النار ، لأن قبيلتك أصابها الغلب ، واهلك نحُروا ، ولم يبق في نجعكم إلا الثكالى يملأن الصحراء بالنواح ! إبكِ لأن أمّك الجنية تنتظرك هناك .

Twitter: @alqareah

نعم . أني أراها جاثية على ركبتيها في مدخل الكهف ، تعفّر وجهها وشعرها بالتّراب ، لأنها تعرف أن الاوان قد حان ، وعليها أن تستعيد وليدها الأبله ، وتردّ الوليد الذي خطفه أبوك إلى أمّه !

تناول المقبض . أخرج المدية من النّار وقد ارتوت من سّر النّار . من المقبض المرسوم بالرموز السحرية تدلّى لسان ناري بلون سلطان النّار، سلطان النهار . تقدم من وليد الجن الذي استعر بنواح مستعار من مملكة الخفاء . توقع ساعتها أن تهرع إليه الأمّ ، وتحميه من لسان النّار ، ولكنها وقفت في الزاوية ، تنتظر ما سيحل بابن الاغراب ، وتتلهّف متى سيغلب الساحر ، ويعيد لها ابنها الضائع من قبضة الأشرار .

توقف الساحر فوق رأس المخلوق الشقيّ ، حدّق في الفراغ . غاب في الفراغ . في البعد . في المكان الأبعد من المكان . في ظلمات أبعد من الظلمات . في مجهول أبعد من المجهول . وحتى عندما انزل لسان النار على ظهر الوليد الشقيّ لم يعبر الى الوراء ، ولم يعد من المتاهة .

(٧)

عاد الوالد من السفر بعد عودة «دودو» من الأسر بيومين . عاد وجاء معه ذلك المخلوق الذي سبّب القطيعة ، وساعد في أن يبلغ الخصام نهايته . جاء ببهمة غزال تنافس الرؤى في الرشاقة والنعومة والبهاء .

Twitter: @alqareah

أخرجها من «تسوفرا»* ، مقيدة السيقان بحبل مفتول من شعر الماعز . فكّ لها القيد ، وصنع من الحبل وهقاً في رقبتها . وشدّ طرفه الاخر إلى الركيزة . اقترب من الطيف الوديع ، بهرته العينان الكبيرتان . بهره الكحل في عينيها . لا . ليس الكحل هو ما شدّه إلى هاتين العينين . ففيهما ومض الألق . ألق خفّي فيه نداء مجهول . ألق فيه إغواء ينافس إغواء الانواء ، يفوق إغواء الحسناء ، فأخذت العين المدهشة من الغيد كحلاً ، ومن العذارى البراءة ، ومن الليل غموضه ، ومن النجوم الاغواء ، ومن الخلاء حزناً ، ومن رؤوس الجبال الكبرياء ، ومن قوس الافق صرامة ، ومن الحية ذكاء ، ومن الرّتم سرّه . والبدن .. البدن أيضاً نال من كل شيء . البدن بألوانه الثلاثة (البياض الشاحب ، والرملي الاصفر ، والسواد الفاحم) استعار المرونة من سيوف الرملة ، والانسياب من جسد الحيّة ورشاقة القدّ من صبايا الصحراء ، وعفاف القوام من عذاراها أيضاً . وفي العدو حاكى سهام الصيادين ، ولم يكف عن المحاولة حتى تفوّق على الصيادين ، وغلب سهامهم ، ونافس مطايا الجن ، وطار في الفراغ بلا جناحين . فلم يتمن شيئاً في الصحراء كما تمنى أن يمتلك بهماً ، ويمسك غزالاً بين ذراعيه . ولا يستطيع أن ينسى كيف باغت بهماً نائماً تحت رتمة في اول عهده بالرّعي . رقدت تحت كوز رمل اعتلته الشجرة . انحنت فوقها الشجرة ، وداعبتها بخصلات شعرها السبط حتى كادت تخفيها عن البصر في تحالفها الخفيّ مع عتمة

(*) تسوفرا : جراب من الجلد .

Twitter: @alqareah

الفجر . انحنى فوقها يومها أيضاً . حدق في الخطوط الغامضة التي رسمتها الالوان الثلاثة فوق بدنها حول عينيها المغمضتين . كانت انفاسها تتلاحق . جسدها الوديع يعلو ويهبط بإيقاع متواصل . كأنها تلهث . كأن حراب الصيّادين تلاحقها في الاحلام . الصيادون النهمون يطاردون القطيع . القطيع يتراكض . يسابق الحراب ، يغلب السهام . يتفوق على مطايا الجن ، على الّريح ، يطير . يقفز في الفراغ . يتطاول في الأعالي ، في الحرم ، ولكن الوليد لا يحتمل الايقاع . سيقان الوليد أكثر رخاوة من أن يحتمل مطاردة تطول أكثر مما يسمح الناموس. ناموس السماء الذي جبل الخلق ، وناموس الارض الذي سن شرائع الولادة . قامة الأم تتحول الى برق . القطيع كله حزمة من البروق . لا تلامس التراب إلا كي تلتئم في الفراغ . ولا تلتئم حتى تتفرّق وتتنافر من جديد . وهو ، الوليد ، لم يعد يقوى . والصيادون لا يتعبون ، يستعينون بظهور الدواب ، ولا يتعبون ، لأنهم تركوا وراءهم اولاداً ، والاولاد ينتظرون الطرائد . ينتظرون البهم الصغار ليقبّلوا في عيونها الكحل ، ويعانقوها طلباً لسّر البهاء ، وبحثاً عن كنز الألق . يأتي الكبار ليضعوا في جيدها لسان المدية . يتدفق النحر ، ويسيل الكحل من العينين مع الدموع.

اقترب بشفتيه من اذن الطيف المنهك ، وهمس له : «لا تخف . انت في أمان من الصيادين» ، أراد أن ينقذ الطيف من الاحلام . من

Twitter: @alqareah

كابوس الرؤيا . من قبضة الصيادين ، فرأى أن يربت على رقبته ليوقظه ، ولكن الطيف فزّ قبل أن تلامس الكف الشعر الرملي الناعم ، وذاب في الأفق في طرفة عين .

وكما ذابت تلك البهمة في ذلك اليوم ، جاءت الأم اليوم أيضاً وخطفت الطّيف الجديد من بين يديه . ازاحته بحركة خشنة ، فرأى الكحل يسيل مع الدموع في عيني الطيف اليوم . فاضت من عينيه الدموع أيضاً . مسحهما وكمن في زاوية الخباء . راقب الأم وهي تحل وثاق الطيف ، وتأخذه بين يديها . لم تداعبه . لم تربت على بدنه المرن، لم تكحل عينيها من كحل عينيه . ولكنها ذهبت به الى الزاوية الاخرى من الخباء . وانزلته في حجر «دودو» . قالت أنها تهبه الغزال مكافأة . لأن حبه لأمّه جعله يفرّ من قبضة الجّن ويعود إلى الأم .

جف دمع العين ، ولكن دمعاً اقسى فاض في صدره . لم يتملكه الاحساس الاوّل بأنه وحيد (لأن ذلك الاحساس لم يفارقه منذ ذلك اليوم) ، ولكنه كرهها . كره الأم ، وكره الأخ ، وكره الأبّ . كرههم جميعاً حتى استولى عليه الغثيان .

التفت وراءه وبدأ يتقيأ بصوت عالٍ .

(٨)

آه ، لو قدر لهما أن يعرفا كم أحبهما !

Twitter: @alqareah

آه ، لو استطاع أن يمتلك لسان الشاعرات لقال لهما ما ادهشهما وجعلهما يوقفان الشجار إكراماً له ، ويحّب بعضهما بعضاً تصديقاً لرؤيا رآها لهما ، وإكباراً لفيض نبيل تنبأً لهما بمصير منزه عن رذيلة الخصام.

آه ، لو قام من فراشه الموحش ووجد أن في فمه تتحرك عضلة بمرونة تلك العضلات التي تتحرك في افواه العقلاء ، لحّدثهما بلغة هؤلاء الحكماء عن سّر يعاني في كل ساعة كي يكشف لهما عنه ، ولكن العضلة لا تنطلق ، واللسان لا يطيع . فسار السّر إلى أبعد . توغل الكنز الى الاسافل ، لأن السحرة يقولون أن الكنز يزداد سيراً في الخفاء كلما طال مكوثه في الارض ، وهو عجز عن الحيلة التي يكشف بها عن كنزه لهما ، فابتعدا في اتجاه ، وابتعد هو في الاتجاه الآخر . سافرا الى صحراء أخرى وسافر هو إلى صحراء مضادة . افترقا في مسافة قاسية قبل أن يأتي «آبيل – بيل» بالدمية التي تحولت ، فيما بعد ، سعلاة بشعة زادتهما عماء على عماء ، وخطفتهما الى حيث لم يعد يراهما ، رمتهما إلى مملكة من ممالك الجن فاحتجبوا ، ووقعوا خارج مجال الرؤية . ولم يعرفا أيضاً أن توقه لأن يكشف لهما عن كنزه لم يبرد ، وشوقه في أن يبوح لهما بسّره لم يفتر . بل حدث العكس . المسافة ضاعفت الشوق ، واشعلت التوق ، فصار لا أمل له إلاّ أن تطيعه العضلة ، ويستقيم في فمه اللسان لينبش الخفاء بسلطان القول ، ويخرج لهما بكنز يفسد مكيدة

Twitter: @alqareah

من كاد لهما ، وسلّطهما على بعضها بقدرة السّحر . كنزه وحده يستطيع أن يبطل السحر ، ويعيد لهما الطير المفقود الذي فرّ ما أن اقترنا، وعرفا بعضهما ، فصار لهما الخصام لغة منذ عرفهما . ولم يدركا ، كما لم يدرك هو أيضا وقتها ، أن الخصام ينجب خصاماً ، وبذرة الكراهية إذا زُرعت في زاوية خباء ، فلا بد أن تزدهر كل زوايا الخباء بالكراهية .

ولكن لا سبيل لافهام الآباء بما يتخبأ في صدور الابناء . لا سبيل لتنبيه الكبار لسّر ذلك السّر ، ذلك النداء الذي يجوس في قلوب الصغار. ولو تحاملوا قليلاً ، وفتشّوا قليلاً ، واختلوا الى عصفورهم لا إلى رؤوسهم المكابرة ، الفارغة ، لالتقطوا النداء الفاجع قبل أن تقع الفجيعة، وتلقوا الوصية قبل أن يفرّ الطائر ويضيع الى الأبد .

ولكن المكيدة نجحت ، والسّحر تمكّن ، والكراهية اينعت ، والطائر فّر وضاع ، فضاعا هما في خلاء ، ووجد نفسه هو في خلاء آخر .

(٩)

يقال في القبيلة أن سبب الخسارة هو نزوعه الى الاعتزال . ولو رأت فيه هذا الجّن من أول يوم لما ارتضت أنْ تدخل عليه الخباء . ولكن النبل هو ما أغواها فيه ، كما أغواه فيها الحسن سواء بسواء . لا . ليس النبّل وحده ما غرّها ، لأن المرأة لا تحتقر مخلوقاً كما تحتقر الرجل

Twitter: @alqareah

النّبيل ، ولكنها عشقت فيه صيتاً ذاع عقب بطولاته في حملات القبيلة على قبائل الادغال . لأن ما يفسده النبل ، في رأي المرأة ، يصلحه الصّيت . ولم تفهم أن الرجل إذا تعشّق العزلة ، وحنّ للانقطاع ، هانت عليه البطولة ، وتخلى عن استعمال السيف ، وزهد في الاله الذي لم تعبد المرأة سواه : الصّيت !

نشب الخلاف . وعلا في البيت صوت الشجار . أراد أن يعتزل بها في أبعد بقعة عن الخلق ، وأقرب نقطة إلى «واو» ، وأرادت ان تلتحق بركب القبيلة ، لأنها لا تنوي أن تتخلى عن المخالطة ، ولا تتنازل عن معاشرة صديقات تمتعت معهن بالمشوار منذ فتحت عينيها على الصحراء ، ولا ترى أن من حق القرين أن يجعلها تقتنع بالتوقف عن الحياة في بداية الحياة لمجّرد أن مرض البحث عن «واو» قد ألمّ . اجل . لقد رأت كما رأت لها القرينات والصديقات ، أن على الرجل إذا ادركه الحنين ، واشتاق الى الخلوة ، أن يتحلّى بالشجاعة ، ويسلك طريقه لوحده ، لأن ناموس الطلب يقول أن «واو» هي المكان الوحيد الذي يذهب اليه المخلوق وحيداً . فهي لا تعترف برفيق سواء أكان أباً أو أماً أو أخاً أو قرينة . فليتركها ، إذن ، ولينطلق ، فهي لا تريد أن ترافقه حتى إلى «واو» .

ولكن الفاجعة أنه كان يعرف ماذا يريد برغم علّة الحنين . والدنيا

Twitter: @alqareah

تعرف أن الرجل إذا عرف ماذا يريد فلن يوجد مخلوق يمكن أن يفوقه في العناد . وإذا اصطدم عناد رجل يهدهد في قلبه اعتزالاً ، بعناد إمرأة لم تر في القران إلا طقوسه الجليلة ، وظنت أن العرس قرين للقران ، فلا بد أن ينشب الخلاف ، ولا بد أن يعلو في البيت صوت الشّجار . وإذا علا صوت الشجار ، وبلغ آذان أهل الحقد والحسد والكراهية ، فلا بد أن تتحرك الابدان ، وتركض الألسن ، وتهرع جموع السوء الى الخباء . تتظاهر بإطفاء الحريق ، في حين تجاهد ، في الخفاء ، بمدّه بالحطب ، لتغذي نار الكراهية .

والأب اوّل من خسر الرّهان عندما ظنّ أنه يستطيع أن يجمع بين «واو» وإمرأة ، فخسرهما معاً . فقد الطريق إليهما معاً . ضيعهما بضربة واحدة . وعاد من اللعبة بالشجارِ وحده . في المرحلة الأولى لم يسلم بالهزيمة . فواصل الحلم وتعلق بالسكون ، وبحث عن العزاء في الخلاء. يسافر الى ابعد صحراء متظاهراً بمطاردة إبله الشاردة . ولا يعود إلا بعد أن يتغسّل بسلسبيل الحياء . نعم . بالحياء . بذلك المبدأ النبيل الذي يتلبّس المعتزلة وحدهم . يشعل في وجوههم وهجاً ووقاراً وبهجة ، يلقي على مسلكهم روح الطفولة ، ويجعلهم من الخلق في خوف ، فلا يطيقون البقاء في النجوع ليلة واحدة . ولا يسكنون حتى إلى أكثر القرينات سكينة . هذا الحياء جعله في عراك مع نفسه قبل أن يعارك مخلوقة وعدته بالطائر الغامض عندما رضيت به قريناً ، ففوجىء بأن الطائر طار

Twitter: @alqareah

قبل أن يتلذّذ بطعم القران ، ولم يبق له إلاّ أن يحتمل العجز ويخفي الدمع المتحفز كلما عاد من رحلة الاعتزال في الخلاء .

(١٠)

إذا تسمّم بدن الزمان بالكراهية تخامل ، وتثاقل ، وتقاعد ، وأبى أن يتزحزح .

حبل الغيم بامطار وفيرة ، وجرت الوديان بسيول سخية ، وحبك الريح على سيوف الرمل أكثر الغضون غموضاً ، ولكن أيامه لم تهرجل، وزمنه لم يعرف الشيخوخة ، والميلاد استرخى وتكاسل وتشبث بحرم التكوين ، ولم تلتقط الرقعة البيضاء من الدّبيب الخفّي إلاّ ثغاء الجديان ، ونهم «دودو» ، وغياب الأب ، ووحشة لم يقدر أن يقهرها اولئك الغرباء الذين تتابعوا على الخباء ، وقالت الأم أنهم أقارب شتّتهم حياة الصحراء . في المراتع يترك الجديان تتطاول في قامات «آشك مقّرن» ، ويستلقي على قفاه . يعيد على نفسه السؤال الذي ولد مع ميلاد أهل الصحراء ، وصار لهم هاجساً يلاحقهم من صرخة الميلاد الى ساعة الممات : « نكّا نيض واغ مينّفْلد»* . «دودو» جاء محمولاً على جناحي «آبيل – بيل» من ارض الادغال ، وقرينه «همّا» دخل بيت ابويه مشيعاً على قرني ودّان . وهو ؟ هل اتت به قوافل الاغراب كما تدعي الساحرة العمياء التي قالت أن الابن لن يدخل للأبوين بيتاً ما لم

(*) من أين جئنا ؟

Twitter: @alqareah

يأت به الاغراب ؟ فمن هم الاغراب ؟ وإلى أي ملّة ينتمون ؟ ومن أين يأتون ؟ وإلى أين يذهبون ؟ ولماذا لا يتوقفون عن السفر ؟ وما منفعة أن يحملوا على اكتافهم الصغار ليوزعوها على البيوت ؟. يستغرقه الفراغ. يسلبه صفاء الفضاء . يغيب في مسافة لا تحد بمقياس المسافة . يتيه في المتاهة . تنكسر صرامة المتاهة . تنحني في قوس اشدّ صرامة ، يتبدّى في الاسفل قوس آخر . يتقدم القوس من القوس ، ينجذب شطر الحلقة الى الشطر الثاني . ينشد النصف الى النصف . يتقاربان ، يتلامسان . يلتحمان . يصيران كُلاً واحداً . يلتئمان في دائرة . يرى نفسه حبّة تراب في قلب الدائرة . وكلما اقتربت القبة العليا لتلتصق بالقبة السفلى ازداد إحساسه بالضآله . ولا يتوقف التضاؤل عند حدود حبّة التراب . إنه يزداد ويتضاعف حتى يفقد الاحساس ، ويحل فيه يقين غامض بأنه هو القبّة العليا ، وهو القبة السفلى ، هو القبة إذا اجتمعت بالقبة . هو .. الدائرة . من هناك التقطه الاغراب . من الالتحام الحميم خرج ليتولاّه الرّسول العابر . الرسول يسير على هدي القدماء ، يطوف ، يعبر ، يدخل به البيوت . لا يدخل أي بيت ولا يعطي مولوداً لأية أمرأة ، ولكنه يتمهل ، ويحوم ، وينتقي . يحوم حول الأخبية ليلاً كأنه مبعوث من أهل الخفاء . يتلصص في ضوء القمر ، ويحترس كثيراً حتى لا يخطىء الغار فيضع الكنز في كف الجنيّة . يمضي في التشبه بالاسلاف الحكماء . ينتقي . ينتقي ربّة البيت التي سيسلمّها كنزاً . ينتقي الحسناء التي ستتلقى

Twitter: @alqareah

السّر في الخلوة . يتريّث حتّى تتحرر من العسس . ينتظر حتى تفرغ من القرين ، يخرج القرين . يغيب خلف الرابية . هناك يتولى أمره السراب. يخلو السبيل . يخرج من وراء الأكمة . يقبل على الخباء بمظهر العابرين الخالدين . يتظاهر بالتعب ، وربما بالزّهد ، تستعر عيناه بوميض الواوين . ولكنه لا يكشف للرّبة عن كنزه الخفّي ، ولا يقرأ على رأسها النبوءة إلاّ في آخر اللّيل .

(١١)

في المدخل يغرس سيفاً أو رمحاً أو مدية . يرتفع لسان النّار . يتمايل كبدن الحية . يتطلّع إلى السلاح في فضول النساء . يميل صوب المدخل . يمّد لساناً عنيداً ، نهماً ، يريد أن يلعق النصل ، أن يداعب حدّ السلاح . كي يستدرجه للقول ، كي يفوز منه بسرّ الزائر . ولكن السلاح لا يعبأ . ينتصب في كبرياء المهاجرين . يتشبه بـ «إيمسكني»* ، يقف علامة في باب الحرم ، يحاكي الحيّة ، فيقف عسّاساً على الكنز .

في الأرة يشتد بالنّار التوق إلى السّر . تبرطم في العيدان ، تتلون، يحتقن فيها اللسان باللون الازرق ، تنفّس عن الغيظ بحشرجة الجنيات الغاضبات . تفشى الغلّ في الاطراف اليابسة ، تفتك باليابس ، وتدمي الاخضر ، تنتحب الاعضاء الحيّة . تمهل الاعضاء الحيّة ، ولكنها تدميها

* أيمسكني : نصب حجري يومىء الى الطريق ، أو يدل على مواقع الآبار .

Twitter: @alqareah

وتجعلها تنزف دماً ، تلسعها باللسان بخفة الوميض ، ثم تحجم وتتراجع كأنها حيّة . يترتفع نحيب الكائن الحيّ وينزف في عروقه مزيداً من دم . يستغيث . يتشكى . يجاهد كي يفهم الجلاّد بأنه لا يستطيع أن يخبره بالأمر لا لأنه لا يدري شيئاً عن السّر ، ولكن لأن الناموس شاء شيئاً آخر إذ خلق له لساناً آخر يختلف عن لسان الجلاد . يتمادى الجلاّد . يزداد جنوناً ، شراسة ، نهماً ، يتحول حية لئيمة تنفث انفاس الفحيح مع لسانها الازرق . يسلط على البدن البائس سماً مبثوثاً في طرف اللسان الازرق . فيند عن الضحية نداء عالٍ . يسمع النداء من مخبائه في زاوية الخباء . ويتخيل الدم الرمادي اللزج الذي يلفظه العود النديّ مع زفرة النداء . يستشرس لسان السم الازرق ، فيتدفق النزيف ، ويعلو النداء ، يتداخل مع صوت الزائر الوقور المتربع قدّام النّار . يبتلع صوت الغريب . وينطق بلسان الساحرة : «في الصحراء لا يعرف الوليد أباه إلاّ ميتاً» . تستفهم النار عن النبوءة . لا تدرك النار الاشارة . تحترق النار بنار الفضول . تتجّسس على الجليسين . تتخبط . تمدّ لساناً إلى أعلى ، ولساناً إلى العراء ، ولساناً صوب الخباء ، ولساناً صوب الأمّ ، ولساناً صوب الشبح الوقور . ولكن الشبح يطعمها حطباً بدل السّر . فيتمادى فيها الفضول واليأس والجنون . يتلفّظ أحد الجليسين بالصوت . يهيم الصوت طويلاً . يتداخل مع نداء الزوال في صوت العضو الحّي ، يمتزج بشهوة النّار ، يحوم حول نبوءة الساحرة . ثم يولد في العبارة ، في

Twitter: @alqareah

الايماءة . في الرسالة . يحل الصمت . الجليس يتصنت . العراء يتصنت. النار فرغت من العضو العنيد ورأت أن تتصنت . العضو الحيّ تصنت أيضاً لأنه باد وزال ولم يعد يستطيع إلا أن يتصنت . هو أيضاً تصنت . رأى وجه الساحرة الممّزق بالتجاعيد ، وسمعها تعيد النبوءة : «في الصحراء لن يعرف الوليد أباه إلا إذا مات» . ولكن الجواب يخنق صوت الساحرة . يتمطّى الجواب ، يتثاءب ، يتخامل ، يعبر المسافة إلى الجليس أخيراً . في الاسفل تبدأ النّار في الاحتضار ، فتغفل عن اللقاء . لا تلحظ سفر الجسد نحو الجسد . لا تلحظ اقتراب المسافر الظامىء من فوهة البئر . ولا تستيقظ من غفلتها إلا عندما تستفزّها اللهفة في الانفاس. انفاس نهمة كفحيح الحيّات ، مندفعة كغزوة القبلي . معاندة كالماء . حارّة كلسان النّار . ولولا النهّم والاندفاع والمعاندة والحرارة لما استطاعت أن توقظ لسان النّار من ركام الرماد .

تمادت الانفاس .

قاوم اللسان . لم يجد عود الحطب . تشبّث بقطع الجمر . لعق فيها السّواد . استحال السواد أيضاً إلى وهج . تمسّك بالوهج . التحمت النّار بالنار ، تغذّت النار بالنار . ولكن الخصم انكسر ، وتبدّى السّر مثل الالهام عندما تصاعدت الانفاس ، والتّم الفريقان في قران محموم . اختنقت النّار ، ولفظت انفاسها الاخيرة .

Twitter: @alqareah

(١٢)

يكني – كني . يكني – كني . يكني – كني *.

في الايام الأولى قصد المقابر السفلى ، فوجد أن يد طلاّب الكنوز قد سبقته وامتدّت إليهم . بناء المدافن من الاسافل بقى مرصوصاً بحجارة مختلفة الاحجام . الحجارة الكبيرة تلاصق الاحجار الكبيرة . والحجارة الاصغر حجماً تجاور الاحجار الاصغر حجماً . حجارة أخرى اصغر حجماً ، تماثل حبّات الحصى في الضآلة ، تستقر في الثغرات بعناية مدبّرة من يد خبيرة بالبنيان . نفس اليد لم تكتف باختيار احجام الحجارة ، ولكنها اختارت للحجارة ألوانها أيضاً . رتبت الالوان ترتيباً يختلف من قبر إلى آخر . في المجموعة السفلى ابتدأت اليد البنيان بحجارة بلون العتمة ، وساقت الصفوف الرمادية السفلية لتلتف حول عنق المدفن كله . في حين اقامت الدرجة الثانية بألواح حجرية نحاسية اللّون ، كأنها استعارت لونها من الجسد . من الرّفات الذي ينام في جوف الدائرة . أما الطابق الثالث فتتعدّد فيه الألوان ، كما تتعدّد فيه انواع الحجارة ، واحجامها أيضاً . وهكذا يمضي البنيان . يتحلق حول نفسه . ولكنه لا ينكفىء على نفسه إلاّ بعد أن يطوف الصحراء . ينفتح على الدائرة الكبرى . يعبر البرازخ . يجتاز الحدود . ويعود الى نفسه ، يكتمل في الحرم ، ينكفىء في دائرة مهيبة ، ويكتفي بنفسه مرة أخيرة

(*) تسكّع . تسكّع . تسكّع .

Twitter: @alqareah

وإلى الابد .

حول المدافن تتناثر الاسلحة الحجرية ، ولوازم البيوت : سكاكين. ألواح طحن الحبوب ، فئوس . اسنان حجرية لرماح . حبّات مثقوبة زينت صدور الحسان قبل أن يرقدن ويندثرن في التراب . تمائم حجرية زبرت عليها «تفتست» آلهة وغيلاناً .

بعض اللوازم وجد مكاناً في البنيان ، فتشبّث بموقع بين الحجارة ، ليشهد زوال الإله ، ويرى كيف تنهش الديدان لحمه ، وتفقأ عينيه ، وتلعق دمه ، فتندهش كيف استطاع هذا المخلوق البائس أن يتفوق يوماً على الجبال ، ويستقطع منها حجارة ، من الحجارة يبتدع لنفسه لوازم وادوات فتطيعه . تندهش كيف طوّع الحجر ، ونصّب نفسه إلهاً على الارض ، ثم يعجز عن تدبير حيلة صغيرة تنجيه من بطش الديدان ! ولكن أغلب اللوازم اطاح بها اللصوص ، وطرحت ارضاً . نهبوا بعضها، وتركوا البعض الآخر . أما أعالي المدافن فطالها التخريب حتى أن بعض المقابر صار مجرد اكوام من الحجارة . أخذ طلاب الكنوز والمغامرون قلل التبر ومصوغات المعدن الاصفر ، وتركوا الهياكل المقدسة مطروحة في القيعان . تحت معاول الحفر تهشمت الجماجم ، وتفتت الاعضاء العظيمة ، وعبث اللصوص بأطراف صانها التراب ، ونالت إجلال الأرض . عند حضيض «إدبنان» تبعثرت شظايا الهياكل ، وبقايا عظمية مفتتة ، اخرجها المغامرون مع ما استخرجوه من الثروات ،

Twitter: @alqareah

وتركوها في العراء لتجلد بسياط الإله الجلاّد حتى وهي عظاماً رميمة .

ولكنه لم يجرّب أن يعرف أباه في بقايا الهياكل وشظايا العظام . بحث عن الاطراف السوية ، عن القطع الملساء التي نوّهت بها الوصية . عن المعصم ، أو الساق ، أو الجمجمة ، أو أي طرف لم تستطعمه الارض ، واستطاع أن ينجو من شراهة ذرات التراب . في المدافن السفلى عثر على الكنز الذي لم يجد له مثيلاً في كل المقابر الأخرى . هناك ، في سفح المرتفع المطل على قاع الوادي ، قام النصب النبيل المشيد بحجارة الصّوان . كان مبنياً بقطع ملساء ذات حجم متفاوت ، ذات لون واحد ، معتم ، ولكن سلالة الحجارة من طينة جبلية أخرى لا تنتمي الى الانواع المستجلبة من جبال الحمادة . الساحرة اخبرته فيما بعد بأن القطع الرمادية الملساء جاءت من الجبال الزرق . وعندما استفهم كيف استطاع الاسلاف أن يحملوا هذه الربوة ، وينقلوها من السلسلة الزرقاء النائية الى قلب الحمادة ، حملقت في الفراغ بعينين يستولي عليهما البياض ، وقالت باستنكار : «الجنّ . الجنّ . ماذا يفعل جبابرة الجنّ في الصحراء إذا لم يهرعوا لعون اقرانهم ، ويحملوا لهم أي جبل شاءوا إلى أي مكان شاءوا ؟ أم أنك تشكّك في قدرة الجنّ على زحزحة الجبال يا شقي ؟» . لم يجبها على السؤال . بل تجاسر وردّ على السؤال بسؤال :« ولماذا يأتون بالحجارة من الجبل الازرق ؟ ألا تكفي حجارة الحمادة لبناء مقابر تكفي لدفن كل أهل الصحراء ؟» . ناحت الجنيّة

Twitter: @alqareah

. تمايلت الساحرة القديمة . تلألأت عيناها بوميض برغم العماء . قالت : « إيـ – يـ – يـ – يـ – يـ – يه .. ماذا تعرفون انتم عن الحجارة ؟ ماذا ترون في الحجر غير سلاح تقتلون به ، أو رحى ترحون بها ، أو ماعوناً تأكلون فيه، أو قطعة تمسحون بها مؤخراتكم ؟ ولكن اعلموا أن ما جهلتموه ، يا بلهاء ، عن الحجارة لم يفت آباءكم . ما لم تدركوه في الحجارة ادركه اسلافكم . والنّار التي وجدوها في حجارة الجبل الازرق هي سرّ واحد من الف سرّ يتخبّأ في الصّلد » . هتف بنبرة لا تليق بحرم الساحرة : «النّار ؟» لم تنتبه . راقبت القوافل العائدة بالمتاع من الرحلة البعيدة . راقبت جبابرة الجن وهم يتقدمون القافلة ويسيرون خلفها أيضا . رأتهم بالعينين الفارغتين . لأن العين العمياء اصيبت بالعماء بسبب طلب النبوءة، وطول التحديق في الممالك التي لا يبلغها البصر . قالت : «حجارة النّار وقف على الزعماء وكبار الكهان . الزعماء وكبار السحرة لا يرقدون إلا تحت حجارة تخبىء في جوفها النّار» . ارتجف ، استولى عليه فيض كشجن الاشعار ، فارتجف . رأى القوافل أيضا تعبر العراء ، عائدة من غزوة الجبل البعيد ، يقودها جبابرة الجن المخبأون تحت أكوام الحجارة السوداء ليقيموا بها نصباً للزعيم ، للساحر ، لكبير الكهّان . هتف مرة أخرى : «وهل كان أبي زعيماً ؟ أم أنه ساحر كبير؟». عادت الساحرة من رحلتها . التفتت . امسكت بمعصمه . نطقت بأمر قاطع :«تكلم ! هل تقبّل العظم دمك ؟ هل شرب العظم

Twitter: @alqareah

الراقد في بيت الحجر الازرق من دمك؟ هل تظن ، يا شقي ، أنك تقدر أن تخدعني لأني عمياء ؟» . حاول أن يفتش عن برهان ، ولكنها لم تمهله ، ألقت بأمرها الصارم :«اعطني الدّليل . هات العظم » . فتحت راحة يدها الآخرى دون أن تتخلى عن معصمه . بل ازدادت قبضتها توتراً وصلابة حول المعصم الممزق بالخدوش والجراح . تسلل باليد الطليقة إلى رقبته .تحسّس صدره ، التقط رأس الخيط . تعلّق بطرفه . سار وراءه إلى الاسفل . بلغ السُّرّة ، هناك اختبأت صُرّة ملفوفة في خرق الكتّان . تناول طرف الصرّة في قبضته. ازدادت الرجفة توتراً . جرّ التميمة إلى أعلى . جرّها باحتراس ظمآن ذهب بعقله الظمأ ، فوجد نفسه معلقاً على فوهة بئر ، يقبض على حبل يتدلى منه دلو ، في الدّلو يبرق ماء حقيقي . فكيف لا ترتعش اليد التي تمسك بهذه الثروة ، وتستخرج من الاسافل كنزاً بهذا الجلال ؟ . حاول أن يفك اللفافة بيد واحدة ، ولكن الرجفة غلبت . رأته الساحرة بعين النبوءة فحرّرت معصمه من الأسر . استعان باليد الاخرى . ازال لحافاً اجتمعت فيه خصائص القماط بخصال الكفن ، مزايا الميلاد بعلل الميعاد ، نداء الازل بوجوم الزوال . ينتصر ناموس الدائرة في لمحة بصر ، فيعيد رسم طريق الاشياء ، وينقلب في مسيرهِ شرع الصيرورة . يقبل الابناء في فناء الآباء، ويولد الآباء اطفالاً في احضان الابناء . يعود الاسلاف ، الاجداد ، احفاداً في احضان الاحفاد . وها هي الدائرة تأتي له بالسلف ملفوفاً في

Twitter: @alqareah

قماط . ها هي الدائرة تعيد رسم الاشياء ، وتبدّد خرافة المستحيل ، تحيي العظم الرميم ، وتبعث بين يديه أباً يتقبّل جرعة الدّم ، ويعلن ، بذلك ، أمام الانس والجّن ، أنه سيقف له حارساً وحاميا ومولى . تدور الدائرة مرة أخرى . تحاول أن تخفي الأثر . تعيد الإبن وليداً ، والأب والداً . تحيل الحّي عاجزاً ، وتعطي سلطان الحياة للكائن الذي زال . تبعث الزائل حيّا ، وتوقفه حارساً لحماية من ورث الحياة وتولى من بعده الأمر . تنصّب من تخلّى عن كل أمر ولياً ، وتجعله يتولى أمر من رضى بأن يتولّى عنه الأمر .

انتهى من إزالة اللحاف ، تبدّت الوصية . لمعت قطعة الكنز في حجره . عادت بعد أن دخلت سُمّ الإبرة ، وعبرت برزخ التّراب . ظلّت ناصعة برغم التّراب . ظلّت صقيلة برغم التّراب . ظلت مكابرة برغم التّراب . وبرغم التّراب أيضاً ظلّت على قيد الحياة . ولو لم تبق على قيد الحياة لما فتحت فماً ظامئاً ، وتجرّعت قطرة الدّم . وجدها في ركن الضريح الازرق بعد بحث استمر طويلاً . وجدها بعد أن فتّش دوائر المقابر السفلى كلهّا وكاد ييأس . أحس بالخواء ، وأيقن كم هو شقيّ . أحس بمرارة ، وعرف أن ذلك لا بد أن يكون مصير كل إنسان وحيد . فقد العلامة الدّالة على السبيل ، فأدرك سّر التّيه. استعاد لوعة المهاجرين الواويين وهم يتفجّعون : «نكّا نيض واغ ما ناموس» * . ولم يبق له ، بعد أن رفض كل الاولّين دمه ، إلا أن يتفجّع على طريقة

(*) من نحن ؟

Twitter: @alqareah

الواويين ، دون أن يطمع في بلغة تفتح له أبواب الارض المفقودة . ولكن اليأس يتبدّد بقبس الإلهام دائماً . فـ «وانتهيط» الذي صبّ في جوفه هذا السّمّ لا يملك إلاّ أن يمضي بحثاً عن ضحية أخرى ، فيعقبه الوحي . تذكّر انه طاف حول الضريح المهيب مراراً ، وهّم بأن يتسلق الجدار كثيراً ، ولكن أمراً كان يحدث في كل مرّة حتى ظن أنه فتّشه ، وانتزع منه عظماً بائداً ، سقاه قطرات ما لبث أن رفضها ففاضت وسقطت على الارض . عندما اقترب من البنيان في المّرة الاولى افزعته حيّة . توقف عند الجدار ، تحسّس الصوّان الازرق ، الاملس الصقيل ، قبل أن يتشبث بنتوء ويحاول الصعود . في تلك الطّرفة صمّ اذنيه النداء المخيف . فالفحيح هو الصوت الوحيد الذي لا يُعرف مصدره إذا علا ، كما أنه الصوت الوحيد الذي يلفّه بالقشعريرة ، ويربكه إلى حدّ يرمي فيه أرضاً كل ما ملكت يداه . سقط يومها أرضاً أيضاً ، ولكنه لم ير الحيّة ، ولم يجد لها أثراً أيضاً . في المرّة الثانية وجد كُنّاً وديعاً محبوكاً بالرّيش والقش . في داخله ثلاث بيضات مرقّطة ببقع رمادية ، ولكنه لم يعثر على الطائر . تابع الحفر في مراقد أخرى ، وغفل عن البنيان الذي يخفي الكنز . ولا يشك الآن أن تلك الغفلة كانت مكيدة من مكايد «وانتهيط» . والعش أيضاً كان فخّاً من افخاخه ، أمّا الحية المجهولة فقد كانت رسولاً من رسله منذ زمن لا يعلم له أحد بداية . ويومها ، عندما وقع في اليأس ، وظنّ اللئيم أنّه قضى عليه عندما تنبأ له بمصير الواويين ،

Twitter: @alqareah

فانصرف ، وتخلّى ، يومها ، فقط ، نزل القبس ، واستعاد الذاكرة . عاد الى البنيان . استخرج اللّقيا . حجر مستطيل ، ناصع ، مصقول ، أملس. يطابق معصمه في العرض ، ويقل عن عظمة الذراع طولاً . قلبّه بين يديه. تجرّد من الغبار ، تخلّص من كابوس كتم انفاسه اجيالاً . خرج من دهليز الظلمة . تألق بكبرياء ، فوجد أنه برهان ينتمي إلى عشيرة الاسلاف ، وليس حجراً يثقل كاهل الارض . حلّ في جوفه فيض مبهم يعرفه كل من التقى كائناً سيصير له معه شأن . الفيض المبهم الذي ينعته السحرة في لغتهم بـ «النبّوءة» . التقط السكين الحجري بيد راجفة . جرّ السّكين على راحة اليد . تركت في اللحم وسماً غامضاً . تمدّد الوسم . كبر الأثر . تدفّق الرمز بالحياة . اتسعت رقعة الفيض . اهتدت إلى المسارب الخفية التي تمزّق الكفّ . سلكت المجاري . لزمت الاخاديد كما تفعل السيول ، نزلت الى الاسافل . انطوت على الرّسالة ، ونزلت . هوت . سقطت في الهاوية ، بلغت البرهان . التقم السّلف الرسالة بلهفة الّرضيع . التقط الحلمة بشوق الظمآن . بدأ يرضع بنهم . توقّع الخيبة . ظن أن رسول الأجيال سيرفض الرسالة ، ويدفع العطية كما فعلت كل الرّمم الاخرى ، ولكن الفيض المبهم لم يخيّب له ظناً . النبوءة الخفّية لم تتململ في جوفه إرضاء للصدفة . رأى كيف امتص العظم الدّم كله . لم يدع قطرة واحدة تفلت . في البداية سرت الحياة في البدن القديم في خط واحد مستقيم . ولا يعرف كيف ولا متى توقف الخطّ عن الامتداد،

Twitter: @alqareah

وعاد ينتشر في الجسم في كل اتجاه . ولا يعرف أيضاً كيف استقرّ كل هذا النّشاط في بقعة غامضة ، كبيرة ، مستديرة الاطراف . لم يدر شيئاً لا عن النبوءة ، ولا عن الدائرة ، في ذلك الزمان . ولو لم تحدّثه الساحرة عن الرموز عندما قرأت الرسالة ، لما ادرك من أمر البقعة شيئاً .

ولكنه إن نسى الدائرة ، فإنه لن ينسى إحساس ذلك اليوم ، حتى أنه لا يستطيع أن يستعيد تلك الذكرى دون أن يختنق ، ويشعر برغبة في البكاء . لقد رأى كائناً مارداً رجلاه تلامسان الأرض ، ورأسه يغيب في السماء . لم يخاطبه . لم يومىء له . لم يبادله كلمة واحدة . ففاض فيه الاطمئنان . الاطمئنان الذي فقده عندما صدّه من أحبّ ، وزحزحته الكراهية من موقعه الآمن ، ليجد نفسه وحيداً في العراء . الآن لم يعد وحيداً . هذا ما أتى به الشبح . هذا ما يذكره ، ولن ينساه إلى الأبد . تمتم بصوت لم يعرفه : «أبي !» . فزّت من عينه اليمنى دمعة حارّة كالنّار. رفع يده الملوّثة بالدّم ليمسحها . مسح الدمع ولكن راحة اليد غسلت الوجه بالدّم .

عندما فتح عينيه ، كان مارد البشارة قد اختفى .

(١٣)

لم تتخلّ الساحرة عن معصمه إلا بعد أن نالت الوصية . لاحظ أن يدها ارتجفت أيضاً . احتوت الرّسول بين يديها ، وتطلعت الى الافق بعينيها الفارغتين . تمتمت لنفسها : «أصابع الجبابرة ـ أصابع الاوّلين . ما

Twitter: @alqareah

أطول قامات الاوّلين . كانوا أطول قامة من مردة الجنّ . ها هو البرهان!». ثم تحسّست البقعة . لامست الدائرة باصابع مرتجفة . تحدثت عن الدائرة . قالت كلاماً كثيراً لم يفهمه . تحدّثت عن النبوءة أيضاً ، ولم يفهم أيضاً ، لأنه انشغل بقامات الاولين ، القامات التي تلامس الارض ، وتغيب في السماء . وجد نفسه يسأل :«هل يعقل أن يكون هذا إصبع مخلوق ؟» لم تجبه . قالت بصوت مخنوق :«لن تكون وحيداً بعد اليوم يا ولديّ الشقيّ !» . رأى في عينيها وميضاً . تبلّلت العينان الفارغتان بنداوة فأدرك أنها تبكي .

ظنّ قبل اليوم أن السّحرة لا يبكون أبداً .

(١٤)

تنعّم بزيارة العملاق مرتين بعد المرّة الاولى .

خرج له المّرة الثانية في المرعى ، بعد الغروب . انتهى من تجميع القطيع الشقيّ ، وتأهب للعودة الى المضارب ، ولكن الافق احتجب بالقامة الماردة فجأة ، وبدأت تعلو ، وتعلو ، وتعلو ، حتى غابت في السماء . تحركت الى الامام ، فتحرّك خلفها . انقاد خلفها ، ابتعدت عن القطيع ، اشرفت على النجع . نسى القطيع ، واشرف على النجع ايضاً. مشت القامة في العتمة دون أن يستطيع اللحاق بها أو الاقتراب منها . كأنها تراعي المسافة ، وتتحرّز أن يجتاز الخط الذي يفصلهما . تخطّت اخبية كثيرة ، وقادته الى البيت ، طافت حول البيت فطاف

Twitter: @alqareah

وراءها . وعندما اختفت وجد أن سلطان الظلمة قد استولى على الصحراء . أحسّ بالخواء . ركض الى البيت وهو يصيح :«أبي ، أين انت؟ أبي ، أين انت ؟» . ولم يكف عن النداء حتى عندما دخل الخباء، وأبصر أباه قد عاد من السّفر . كان يجلس قرب المدخل ، في الزاوية ، بعيداً عن النار ، كأنه راع غريب . في عينيه لاح الخجل النبيل الذي يترأى في عيون الباحثين عن «واو» ، وكل من عشق الوحدة ، فاعتزل طويلاً . وقف بجوار الركيزة . تطلّع الى الأب . حدّق في عينيه . عاد يهتف : «أبي ، أين انت ؟» . انتهرته الأم . لم يسمعها . كركر «دودو» بضحكة . لم يسمعه . تساءلت الأم عن مصير الجديان . لم يجبها ، لأنه لم يسمعها أيضاً . ولم يعلم أن الذئاب فتكت بالقطيع الشقّي إلا في اليوم التالي . قيّد الأب يديه ورجليه بحبل متوحش محبوك من مسد فظيع . مزّق الثوب على جسده ، وانزل عليه سياط الجزاء . فلم يعرف هل استحقّ القصاص لأنه ترك القطيع للذئاب ، أم لأنه تشبه بأهل الوجد فتطاول على الحرم ، واعتدى على الأب .

(١٥)

في المرّة الثانية زاره اثناء غياب الأب .

فرغ من المدافن السفلية ، فصعد المرتفعات الشمالية ، وتسكّع بين مقابر المواقع العليا . نجا من الاحساس بالضياع ، وعرف الأمان منذ عرف الجّد ، ومنذ صنع من الاصبع العملاق تميمة تلتصق بجسده .

Twitter: @alqareah

ولكنه لم يتوقف عن البحث . لم يتوقف عن البحث لا لطمع في نيل سلف آخر ، ولكن إرضاء لشهوة الاكتشاف ، وسعيا في طلب المجهول. ادرك أن الباحثين عن الكنوز لا يطلبون الذهب طلباً للثراء وحده ، ولكنّهم يطلبون سرّاً آخر لا يكمن في الهباء ، ولكنه يتخبّأ في الطلب نفسه . والدليل على ذلك أنهم يستمرون في البحث حتى لو وجدوا منه اثقالاً ، ولا يتوقفون عن السعي إلاّ عندما تتوقف بهم الحياة . نفس الحال يصيب الواويين . فيقال أن كثيرين عثروا على الواحة الضائعة ، ولكنهم خرجوا منها طوعاً ليعاودوا البحث عنها من جديد . بلهاء القبيلة ، الذين يسمّون انفسهم «عقلاء القبيلة» ، قالوا أن هذا المسلك الغريب هو خصلة جنونية من خصال صارت تميّز الواويين عن غيرهم من الخلق . ولكن السحرة والعرافين وحدهم ادركوا أن الواويين يتعمدون أن يخرجوا من البقعة السماوية لا دفعاً للسكينة ، أو رفضاً للسلم ، أو خوفاً من الفاجعة ، ولكن لأنهم ادركوا أن السّر ليس خارج الطلب ، والوطن المفقود نفسه يقع في مسيرة البحث ، في مكان ما في المسير ، وليس في مكان آخر خارج هذا المجال . وينهي السحرة نبوءتهم : « .. الواويون أول من عرف أن الطلب إذا توقّف ، توقفت اللعبة ، وإذا توقفت اللعبة توقفت الحياة » . يسخر العقلاء من النبوءة ، ويسخر منها اقرانه أيضاً . لا لشرّ في نفوسهم أو حماساً لموقف الحكماء ، ولكن لأن الوقت لم يأت ، وقوس الزمان لم ينعطف في دورته ليبلغ بهم الحرم

Twitter: @alqareah

الذي سيجعلهم يفهمون الايماء الغامض الذي يسكن لغة السحرة دائماً . هذه اللغة التي سحرته واستهوته ، وايقظت فيه التوق دون أن يجد للاغواء تفسيراً . وعندما بدأ بحثه ونبش القبور ، وشارك الاوائل حياتهم الاولى ، ذاق حلاوة الطلب ، رغم قساوة السبيل ، وعرف سرّ الواويين.

احسّ انه ينتمي الى عشيرتهم ، لأنهم أقرب الخلق إليه . وصمّم أن ينضمّ إلى فريقهم ، ويسلك سبيلهم عندما ينكسر خط الأفق ، ويستدير قوس الزمان ، فيجيء الاوان ليستقرّ في ارض الميعاد .

واليوم عندما خرج له العملاق في الارض الجديدة ، ادرك أن العمالقة القدماء لا يعودون من المجهول ، ولا يتبدّون للاحفاد بلا سبب . فبأي رسالة خرج المارد من القمقم ؟ . ولكن المارد لا يتكلم . لا يومىء، لا يتلاعب بالإشارة . شقّ الفراغ بقامة الجبابرة فتوارى الأفق الملفوف في غلالة الغسق . قاده كما فعل المرة الماضية . نزل المرتفع وعبر به الاخبية . طاف به حول البيت ثلاث مرّات ثم تبدّد . فقد الامان ، استبدّت به حمىّ . زفر مع الانفاس زبداً ، وغزا المقلتين بياض شامل . ركض حول الخباء . غمغم بكلام مبهم . هدّد بقبضته اعداء مجهولين . دخل الخباء . لم ير الأم المكوّمة عند الركيزة . لم ير «دودو» الذي

Twitter: @alqareah

تشبّث بها في فزع . وقف في المدخل . صرخ بأعلى صوت :«أين أبي؟ أين أبي ؟ أين ؟ أين ؟ أين» . حدّقت فيه الأم طويلاً . تمتمت : «إيمّسكل. إيمّسكل . إيمّسكل !» * . سمعها . تقدّم منها خطوتين . انحنى فوق رأسها . أسقط رذاذ الزبد على وجهها . قال بصوت غريب : « أنت السبب! أنت ! ألم تستبدليني ؟ ها – ها – ها .. ألم تستبدليني ؟ ها .. ألم تستبدليني ؟» . انطلق يقهقه بضحك كريه .

في نفس الليلة زاره الساحر . سمع دمدمة الاقدام حول البيت ، فعرف أن الساحر قد بدأ غزوته ، وجاء الى الخباء بحملة من الفرسان . نهض ، أعد الموقد ، اشعل النّار . اطعمها حطباً سخياً . زحف إلى زاوية الخباء الأخرى . كان البيت مهجوراً . الأم أخذت «دودو» وتركت البيت . ها – ها – ها . توقف عن الضحّك . بحث عن المدية . عثر على المدية . تأمل لسانها الشّره على ضوء النّار ، لمع لسان النار في لسان المدية . ما اشبه لسان المدية بلسان النّار ، ما اشبه لسان المدية بلسان .. الحيّة ! ها – ها .. ما اشبه لسان المدية بلسان .. الانسان ! ها – ها . الألسن كلها متشابهة . الألسن كلها مسمومة . نعم . السّم فيها هو ما يغري . هو ما يغوي . لسان الحيّة . لسان المدية . لسان النّار . لسان الإنسان ! ها – ها – ها ..

عندما جاء الساحر ، وانزل لسان المدية المتوهج على ظهره

(*) أستبدل . أستبدل . أستبدل .

Twitter: @alqareah

ليحرق الجّن، غزت انفه رائحة الاحتراق ، ولكنه لم يحس الوجع أبداً .

(١٥)

«دودو إيجمض . دودو أيجمض . دودو إيجمض » * .

غنّت له اغنية الخروج . هدهدته بيد عرفت دبيب الدهر ، وجرّبت غدر الزمان ، وتوقعت الفراق دائماً . فزّت من عينها دمعة وهي تعدّ له زاد الخروج الاول الى المرعى ، إلى الصحراء ، إلى الوطن، لأنها تدرك أن الوليد إذا خرج من البيت ، فإن هجرته ستطول ، والوطن إذا أخذه مرّة ، فلن يعيده لها إلى الأبد . فليس في الصحراء من يعرف مسلك الصحراء مثل الامهّات . بينها وبينهن ، دائماً ، نزاع حول الابناء، يصل حدّ العداء ، فهن من يتعب في الحصول على الكنز . يحصلن عليه من الغرانق ، أو من الودّان المبجّل ، أو يأخذنه من المسافرين الاغراب ، ويخبئنه في أبعد مكان خوفاً عليه من غول الصحراء ، يخبئنه في الجوف ، في البطون ، حتى إذا استوى الأمر ، وحان ميعاد الخروج ، انكفأن عليه ، خبأنه ، صنعن له من الاحضان جوفاً ، حتى لا تقع عليه عين الصحراء فتخطفه منهن . في الحضن يغدقن عليه بالحنان ، والهدهدة ، ويصنعن له من الحجر ارجوحة ، ويترنمن بالمواويل الشجيّة . كل ذلك لإبعاد شبح الصحراء ، وإغرائه بالبقاء .

ولكن الوطن العاري الذي اعطى الوليد سرّا يحمله الطير ،

---

* دودو خرج . دودو خرج . دودو خرج . «تماهق» .

Twitter: @alqareah

ونبوءة يوحي بها الودّان ، وشوقاً في قلب المسافر ، أقسم أن يأخذ ما أعطى . ولا يفعل في سبيل هذا الفعل إلاّ أن يصمت وينتظر . لأنه يعرف سرّ الزمن ، ويدرك أن شرع الدائرة لا بد أن يزحزحه من البيت ، ويدحرجه في العراء ، ويأتي به إليه أخيراً . اليوم يخرج إلى المرعى ليرى ويكتشف ويعرف ، وغداً يعرف إمرأة فيخرج وراءها مرّة أخرى ، يهجر بيت الوالدين ليلتصق بها * . وإذا التصق بإمراته فإن الوطن يتنفس الصعداء . لأن الولد جرى على ناموس أبيه ووقع في الفخ . من هذا الفخّ يبدأ سفر العودة الى الجانب الآخر من الدائرة . «دودو» أيضاً خرج . تزحزح من الموقع الآمن بجوار الركيزة ، وحمل كسرة الخبز في المخلاة ، ورافقه أول مرّة الى المرعى . شيعته بنظرة فجيعة ، ومشت وراءه مسافة طويلة وهي تغني موّال الوداع .

ابتهج «دودو» بالخروج ، وانطلق في العراء بحماس مهاجر واويّ، شيّد له السائل اللعوب في الافق «واواً» من خيوط السراب ، ولم يدر أن الوطن لم يمهله يوماً واحداً ، فنصب له شركاً في يوم الخروج الاوّل .

(١٦)

في المرعى جاع «دودو» مبكّراً . أخرج قطعة الخبز في الساعات الأولى . كان يسير وراءه . يتغنى بلحون المهد ، يحشو رأسه في

* جاء في سفر التكوين : «يترك الرجل اباه وامّه ليلتصق بإمرأته ، ويكونان جسداً واحداً»(٢:٢٤) .

Twitter: @alqareah

التراب. يتباهى بنعله الجديد المستقطع من جلد الجمل . تستوقفه الألسنة الرملية المفاجئة التي تشطر المسارب الجبلية ، تعترض بنات الارض ، وتجاور سيوف الوديان . ترفع فوق رأسها غلالات من غبار عندما تنفخها انفاس القبلي ، ينحني فوق ابدانها اللعوبة . يلامس الهباء . يتلذذ بنعومة الهباء . يربت على التجاعيد الخفية . تستوقفه تجاعيد أخرى . يلاحقه بالنّداء : «تعال ! انظر !» . يعود الى الوراء . يتفقّد اللقيا . يجد الأثر . البطن المسنّن ، المقزّز ، اللئيم ، مّر من هنا حديثاً . فقطع على الوليد الطريق في يوم الخروج . هرع إليه ليأخذه بعيداً . ليسلك به سبيل التيه . طبع له الاشارة على بساط الاغواء . ترك له الرسالة على مسحوق الذهب المزيّف .

وعده حارس الكنوز الخالد ، منذ أول خطوة ، بأن يقوده الى مواقع الكنوز . جاء ليغريه بالكنوز . جاء رسولاً من الوطن أم من «وانتهيط» ليريه درب المخلوقات التي سبقته . درب المخلوقات التي انقادت الى الكنوز فقبضت الهباء والرّيح .

حذّره بسبابته :

– إحترس ! إنها الحيّة !

– الحيّة ؟

– تدس جسمها في الرمل هكذا (غرس عصاته في التراب حتى توارت) تخرج رأسها وتنتظر هناك .

Twitter: @alqareah

– ماذا تنتظر ؟

قهقه بوبو عاليا . عاد يحذّر :

– تنتظر الاشقياء امثالك الذين لا يعرفون أين يضعون أقدامهم . تنتظرهم لتلدغهم !

– تلدغهم ؟

– إذا لدغت الحيّة ولداً عاد إلى بطن أمّه .

– .. إلى بطن أمّه ؟

– ولن يعود إلى الصحراء أبداً ، فاحترس !

سبقه مرّة أخرى . ركض الى الجناح الأيسر .

انحرفت ثلاثة جداء في وادٍ يهوي الى المنحدرات السفلية . أعاد الجداء الى القطيع ، فسمع النّداء : «تعال ! انظر !» . هرول الى الوراء . وجده ينحني فوق كُنّ مشيّد بالحصى . يحتمي بحجر منتصب إلى أعلى كأنصاب الاولين . في الكُنّ بيضتان ملونتان ببقع رمادية غامضة . عندما اقترب اكتشف المحار فعرف أن الشقي كسر البيضة . فوق رأسيهما حلّق الطائر على ارتفاع منخفض يرفرف بجناحيه بقلق ويصوصو بشكوى موجعة . التفت إليه :

– لماذا كسرت البيضة ؟

ابتسم بخبث . في عينيه لمع ألق غامض . قال :

Twitter: @alqareah

– اردت أن اعرف لماذا هي مستديرة .

– لماذا هي مستديرة ؟

– اردت أن أرى ماذا يتخبأ في الكرة المستديرة .

– وماذا يمكن أن يتخبأ في البيضة يا شقي ؟

اصابه شحوب مفاجىء . امتقعت فيه الوجنتان . ازداد الوميض في العينين شراسة . عضّ على شفته السفلى . غمغم :

– لا اطيق شيئاً مستديراً . لا أطيق .

هجم على البيضة الثانية . هرسها بين اصابعه . فزّ منها المحار . سال بين اصابعه ممزوجاً بشظايا القشرة المبرقعة بالعلامات المعتمة ، الغامضة .

فوق رأسيهما جُنّ الطائر . نزل نزولاً عمودياً حتى ظنّ بوبو أنه سيهوي على رأسيهما بالمنقار . أخفى رأسه بيديه . عاد وارتفع . ارتفع نحييه . ابتعد عن النصب . هرول . لحقه دودو . هدّده بسبابته :

– ابتعد عنّي يا شقي .

– ها – ها ..

– هل جئت لترعى الجديان أم لتخرّب الاعشاش ، وتكسر بيض الطّير يا شقي ؟

– ها – ها – ها ..

Twitter: @alqareah

- ستنال عقاباً . سوف ترى . الطير سيشكوك إلى الجّن !

- الجنّ ؟!

- وسيأخذك الجنّ إلى مملكتهم مرّة أخرى .

- على صدري تميمة ستحميني من الجنّ !

- لا تنفع التمائم إذا أغضبت الطيّر !

- حقاً ؟

- هل جئت لتساعدني في الرعي . أم جئت لارعاك مع الماشية يا شقي؟

حدجه بغضب ، وركض خلف القطيع .

(١٧)

في القيلولة استفزه مرّة أخرى .

أكل زاده في الطريق ، وعندما حان الغداء ، بكى وقال انه جائع. ولم يتوقف عن البكاء إلاّ عندما استولى على زاده .

كان يرمقه من بين الدموع . يمسك الخبز بكلتا يديه . يحفر حافتها باسنانه في شراهة المعز : راقبه بفضول . تفحصه بأمعان ، بدهشة، ثم بخوف . شجّعه :

- كُلْ . كُلْ . لماذا يزعجك أن تأكل زاد أخيك إذا كنت قد أكلت زاده من زمن بعيد ؟ ماذا يضيرك أن تأكل خبزه إذا كنت قد

Twitter: @alqareah

أكلت عنه الغزال ؟ هل تذكر الغزال ؟ ها – ها .. كُلْ . كُلْ .

زحف نحوه . من فمه تدلّت خيوط اللعاب . في عينيه شهوة لا يدركها إلا من عرف الحرمان طويلاً . حشرج :

– كُلْ . كُلْ . ماذا يعني أن تأكل خبزه إذا كنت قد أكلت أمّه . ثم أكلت أباه . أكلت الأم والأب قبل أن تستولي على الغزال . هل تذكر الغزال ؟ ها – ها .. أنا لن أنسى الغزال !

ازداد البريق في عينيه وميضاً . ومضت خيوط اللعاب أيضاً . بلغت الارض . امتصها الرّمل الظّامىء . غاب السواد من الحدقتين . اختنقت في حلقة العبارة :

– لم يشبعك الغزال . لم تشبعك الأم . لم يشبعك الأب . والآن جاء دوري . تريد أن تأكل لحمي . نعم . نعم . تريد أن تأكلني . ولكن هل يشبعك لحمي إذا لم يشبعك الغزال ؟ هل اشبعك إذا لم يشبعك الغزال ؟ ها – ها ..

عضّ على شفته السفلى . عض بقسوة . فزّ الدّم . خيط صغير في حجم رأس المدية . لم يتوقف دودو عن المضغ . لم يتوقف بوبو عن الكلام :

– انت أكلته لأنك لم تر الدموع في عينيه . انت أكلته لأنك لم تر الكحل في رموشه . أنت أكلته ، لأنك لم ترقدّه . انت أكلته ، لأنك

Twitter: @alqareah

لم تعرف سرّه . انت أكلته ، لأنك تعلم أن أبانا جاء به لي . شدّه إلى الرّكيزة فجاءت أمك واعطته لك . اعطته لك فأكلته . فلماذا أكلته ؟

انبجست من عينه اليمنى دمعة . لم تفزّ كما يفز الدّم ، ولكن بللاً أصاب المقلة في البداية ، ثم اتسع مجال النداوة حول المقلة المغمورة بالبياض . العروق المتوترة ، المشحونة بالدّم، شاركت العين فجيعة الجفاف ، فمدّتها بنصيب النّدى كأنها تداري عنها لعنة الجدب ، وتساندها في حملة . لم تسقط الدمعة . ظلّت تتعلق بالرموش بعناد بطولي . تهتز شجرة الرّتم مع انفاس القبلي ، فتومض ، كجوهرة ، تحت سهام شمس القيلولة .

دسّ يده في المخلاة . أخرج الحجر . نفس الحجر الذي استخدمه في تمزيق يديه لإرواء الاسلاف بالدّم . جرّ المدية الحجرية على ساعده . نزّ الدّم . ابتهج . ابتهج كما ابتهج دائماً عندما يجرح نفسه ليتقاسم دمه مع الآباء . مع الاوائل . سقطت الدمعة على الارض فتمتم بصوت مجهول :

– كُلْ . كُلْ . كُلْ لحمي . أشرب من دمي . لماذا لا تشرب من دمي كما شربت دم الغزال ؟

توقف «دودو» عن المضغ . ابتسمت عيناه . على شفتيه أيضاً نبتت ابتسامة . ابتسامة غامضة ، ولكنها شرّيرة .

Twitter: @alqareah

(١٨)

عرف الحقيقة فلبس التّراب .

حفر جحراً ، واندسّ . جرّب كل حيلة لينجو من شرّ الخلق ففرّ. فرّ إلى الخلاء وانقطع هناك . ولكنّهم لا حقوه وارادوا أن يشربوا دمه . اعتلى حجراً ورفع رأسه الى السماء ، توسّل الحيلة ، وطلب النجاة . سقطت من عينه دمعة تسليم . وما أن ابصرت السماء دمع التسليم حتى كافأته بالإلهام . نزلت الدمعة وامتصها التراب . نزل وراءها . لم يجدها. حفر بحثاً عنها . حفر دون أن يعلم انه يؤدي مشيئة الإلهام . حفر طويلاً ، أقام لنفسه جحراً دون أن يعلم أنه شيّد لنفسه وطن النجاة. صار له الجحر منزلاً . والحجر المرفوع على الجُحر ، المرداة المشيّعة على الوطن ، المفتوحة على الفضاء ، حرماً يتعبد فوقه في مواسم الدّفء، ويوجّه منه تمتمات الامتنان الى السّماء . اقبل المطاردون ، فوجدوا العلامة . قالوا هذا قبر ، وهذا الحجر شاهده . سمعهم يتشاورون . لم يظنوا أن مخلوقاً يتجاسر على النزول إلى الاسفل ، إلى الظلمة ، قبل ما ينفصم حبل الفضّة ، أو ينسحق كوز الذّهب ، أو تنكسر الجّرة على العين ، أو تنقصف البكرة عند البئر ، فيرجع التراب الى الارض كما كان * ، لم يظنوا أن يجرؤ المخلوق البائد على النزول الى جوف الارض قبل أن يبيد . لم يدر الاشرار أن دمعة التسليم

(*) سفر الجامعة (١٢ : ٦ ، ٧) .

Twitter: @alqareah

شفاعة. لم يدر الاشرار أن دمعة التسليم تقيم الموتى من القبور ، وتبعث الحياة في العظام وهي زميم . جاء الحكماء . استشاروا الحكماء . ولكن أي مكان للحكمة مع التسليم ؟

تحدّث الحكماء . قالوا أن العقلاء سيبيدون إذا لم يرتووا من دمه . القبيلة ستبقى بدون سحرة ، وبدون زعماء ، وبدون عقلاء ، إذا لم ينالوا الضّب ويشربوا دمه . أمروا أن تفتش الصحراء شبراً شبراً ، ولكن لم يخطر ببالهم أن يكون القبر ملجأً لكائن حيّ . فانصرفوا ، وبحثوا في مكان آخر اعتاد أن يرتاده الاحياء .

بعد أن سنّ شريعة الجحور ، حاكاه خلق كثير . جاءت الحيّة ، ونزلت الى الارض ، ثم تبعتها «تيرزازت» ، ثم الفأر ، ثم «موخامّد» ثم.. اهتدت اجيال الواويين الى الحيلة . فهربوا الى الكهوف ، واعتزلوا في الدواميس والظلمات . فافتخر بعزلته . تباهى بأنه اول من دخل بطن الصحراء ، وشيد من الترّاب وطناً .

صار كنزاً مخفياً يسعى في طلبه الطامعون في الخلود منذ اختار الظلمات وطناً . ولكنه لم يتوقف عن الصلاة . يخرج في مواسم الدفّء ، ليرفع الى السماء بصر الرجاء ، ويذرف دمع التسليم .

(١٩)

يستغرقه الخشوع . تتوغّل به المسافة ، يغيب في الفضاء ، يغيب فيه الفضاء ، يخرج . يختفي الصّنم . تتلاشى المرداة ، يتنزل السلام .

Twitter: @alqareah

يجتاز برزخاً . يبدأ التخلي . يعبر حداً آخر . يتخلص من الاوزار . يبتعد . يقترب من التسليم . و كلما ابتعد وتخلى ، كلما اقترب من مملكة التسليم . يتخلى عن نفسه ، ولكن الطامعين في الخلود لا يكفون عن الطلب ، ولا يتخلفون عن ملاحقته . يستغفله أهل الطلب في ميعاد العبادة ، فيصير له ناموس التخلي فخاً . تسترجعه يد الطمع قبل أن يهنأ بدخول المملكة .

عرف أن الشرّه سيصل إليه حتى لو غاب في سابع ارض ، وتوارى في سابع ظلمة ، ما حمل في بدنه دماً . قرّر أن يتخلّص من الدّم، فقطع شريان الدّم . لم يقطعه بحجر ، ولم يستفزه بالشوك كما يفعل البلهاء ، ولكنه اماته بالجوع . توقف عن مضغ الازهار ، وصام عن العشب إلى الأبد . ولكن المخلوق الطمّاع لم يصدق ، لأن الطمع في الخلود وباء إذا أصاب المخلوقات فلن يقف في طريقها شيء ما ظنت أن فيه تكمن النعمة . نعمة البقاء ، نعمة الأبد . فشقوا الارض بأظافرهم ، ونزلوا وراءه الى مملكة الظلمات ، ونالوه . نالوه شبحاً كئيباً ، هرماً ، حوّله الصوم خيالاً ، والبسته الظلمة بدناً من السواد . ولكن الخلق لم يبال .

قرّر أن يتبدّل ، ويجرّب القوّة .

تدرّب دهراً . تدرّب على التشبّث بالحجارة . والالتحام بالألواح ، حتى توصل الى أن يصير مع الحجر كلاً واحداً . بعدها أعتلى

Twitter: @alqareah

المرداة ، رفع بصره الى أعلى ، ثم إلى أسفل ، ثم صنع بجسده دائرة كاملة. انتصب بغرور . واطلق صيحة الأكابر : « آسكفيغ إيغفين إيسلي، وهيديكس ولا إعلي» * . انطلقت الصيحة . انتقلت بلسان العراء الى رؤوس الجبال الزرق . رددتها الجبال الزرق بفزع . سمعها الطير . طار بها الى الاعالي . ترددت في السماوات . سألت السماوات الدائرة الخفية : «أسمعت ؟» . تكلم التسليم في المملكة الخفية : « لا هو مني ، ولا أنا منه» . نقل الطير الخبر . تلقاه أهل الطلب كبشارة أو نبوءة . خاطبوا النّصب المشيّع فوق رأس المكابر : «أسمعت ؟» . أجابت المرداة بخجل العذارى : «تبرأت منه . أمره ، بعد اليوم . مباح» . بطل الحصن ، وفسدت التميمة في الحال . مدّ طلاّب الخلود يداً أعياها الطلب ، فوجد الضّب نفسه في الشرّك .

(٢٠)

في البداية انتفخ ، واستدار ، حتى صار مثل «آجيوير» ** . وعندما يئس من جدوى الحيلة ، تصلّب ، وتكلّم كل عرق فيه بالنداء المنكر الذي كان سبباً في إبعاده من دائرة التسليم : «آسكفيغ إيغفين إيسلي ، وهيد يكّس ولا إعلي» . ولا يعرف بوبو كيف تملص من بين يديه وبلغ النّصب برأسه . فما أن قبض عليه بين يديه حتى ابتعد به عن المرداة ، عن فوهة الحفرة ، عن فم الهاوية ، عن معقل النجاة . ابتعد به

---

* إذا أعطيت رأسي للحجر ، فلن يخرجني حتى المولى . «تماهق» .

** آجيوير : شكوة صغيرة الحجم تستخدم لمخض الحليب .

Twitter: @alqareah

لخبرة في مسلك الضّباب ، ومعرفة بحيلهم في الوصول إلى الأنصاب .
ولكن المكابر استطاع أن يبلغ الحرم ، ويلتصق ببدن النّصب برغم الاحتراز . تمدّد مع امتداد الضلفة السفلى للحجر . التحم بها ، غاب فيها . اصبحا بدناً واحداً . كلاّ واحداً . وكلما شدّ بوبو الذنب الخشن، وحاول أن يوقف زحف المخلوق المكابر في الحجر ، في صلب الحجر ، كلما ازدادت الطريدة ابتعاداً وغياباً ، كأنّ الحجر هو الذي يكيد له ، ويمّد لساناً خفياً ليجذب نحوه المخلوق الذي استنجد به ، كلما تشبّث هو بذنبه ، وجاهد في شدّة الى الجانب المضادّ . ثبّت قدميه على صدر النصب نفسه ، وجذب بكل ما اوتي من قوّة . سمع كيف طقطقت فقرات العمود في ظهره ، وفزّ منه عرق غزير ، وسمع أيضاً كيف قعقع الحجر ، فظن انه سيتصدّع ، وسيتفتت الآن الى شظايا . ولكن الكائن المكابر لم يتراجع الى الوراء شعرة . بل انتهز فرصة الاسترخاء التي اعقبت الجهد الذي بذله في الجذب ، فتقدم الى الامام ، وقطع مسافة أخرى في طريقه للدخول في صلب النصّب . توقّف عن الجذب ، وادرك أن العنف في الجذب سوف يؤدي الى انقطاع الذّنب من اصله دون أن يزحزح الضّب من موقعه في الحصن . هذا حدث معه مراراً . إذا استعمل القوّة بقى المكابر في معقله ، وعاد هو الى البيت بالذّيل .
أحد الرعاة اخبره مرّة : «لو كان العهد الذي بين المكابر وبين الحجر هيّناً هل تراه يجرؤ على أن يطلق ذلك القسم ؟» أجل . من عاند الضّب

Twitter: @alqareah

وحده يستطيع أن يدرك أن العهد بينهما أقوى من كل شيء . ولم يطلق القسم المنكر إلا بعد أن أيقن أن الحجر أقدر على حمايته من كل كيد . ولكن الحكمة خانته ، والتكابر خذله إذ ظن أن لكيد المخلوق ، لكيد الانسان ، حداً .

كفّ عن الشدّ . زفر لهاثاً متتابعاً ، ولكنه حاذر أن يسترخي . ظلّ يشدّ متمايلاً الى الوراء . شد بيمناه ، واخرج وهق المسد بيسراه . أخرجه من مخلاته المعلقة على منكبه الأيمن . لم يلجأ لمساعدة «دودو» الذي وقف فوق رأسه . لا زهداً في تلقي العون ، ولا رفضا للاستعانة بذوي القربى ، ولا تباهياً بالاعتماد على النّفس ، ولكن لأن الخروج علّمه أن يستغني عن كل شيء خارج البدن . علّمه أن يحوّل جسمه بيتاً متنقلاً . العصا في اليد اليمنى . وجرعة الماء معلقة على المنكب الأيسر ، والمخلاة على المنكب الأيمن . في المخلاة ملقاط الشوك ، وشطر الحجر (قبل أن يكبر ويتزود بمدية نحاسية) ، وحبل المسد أو الحبل المفتول من شعر المعز ، و .. كسرة الخبز . فهل يحتاج الرعاة لخير أكثر من هذا ؟ وهل يحتاج الانسان في الصحراء كلها ، لخير أكثر من هذا؟. إذا خرج الذئب ردعه بالصيحات البطولية . ولوّح له بالعصا . وإذا اعترضته حيّة حاربها بالعصا . وإذا عضّت الاشواك عقبه انتزعها بالملقاط . وإذا جفّ فيه الحلق بلّله بجرعة السلسبيل . وإذا عثر على كنز من كنوز القدماء شدخ يديه ، وروى الرّمس من دمه .

Twitter: @alqareah

وإذا جاع التقم كسراً من الخبز ، وإذا ساقت إليه الصحراء ضباً صنع له فخاً بالحبل . لم يحمل هذه الكنوز ليفارقها عندما يبيت . لو فعل ذلك لفقدت التعويذة معناها ، ولفسدت التميمة كلها . ولكنه إذا قعد ، قعد وهي فوق ظهره ، وإذا نام ، نام وهي ملتصقة بلحمه ، وإذا تحرّك ، تحرّكت معه . لأن الاعتزال علّمه أيضاً أن «وانتهيط» آلى على نفسه أن يفسد أي أمر عرفت إليه الغفلة طريقاً ، فإذا سها ، وخرج الى العراء لقضاء حاجته دون أن يأخذ معه العصا ، تدخّل «وانتهيط» في الحال ، وبعث إليه الحيّة . وإذا ترك شكوة الماء معلقة في رأس الطلحة ، وركض ليردّ الجدي الشقي إلى حشد القطيع ، تدخل «وانتهيط» مرّة أخرى ، وبعث له بـ «سخرك إيبراظن» ، فيذهب وراء الطائر الى الخلاء ، فيعطش ، ويعجز ، ويضيع . تعلّم أن على المعتزل أن يراعي ناموس الاعتزال . فإن تيقظ وتعلّم الاستنفار ، وجعل من نفسه قافلة متنقلة ، نزع الغفلة ، وفاق «وانتهيط» سلطاناً وقوّة.

أحكم القيد في أصل الذنّب . كان الوهق مهيأ أيضاً تحسّبا لمثل هذا اليوم ، فلم يبذل جهداً في إحكام الرّباط ، فرغ من الفخ . تهيأ لانجاز الكيد .

أمسك بطرف الحبل . تزحزح بجسمه الى الوراء . رفع دودو صوت الفزع : « ماذا تفعل ؟ سوف يغيب في الجُحر» . لم يردّ . أرخى الحبل قليلاً . توغل الجسم المكابر في الهاوية . توقّف عن الزّحف . كأنه

Twitter: @alqareah

لا يصدق ما يحدث . كأنه ادرك المكيدة . زحف خطوة أخرى . كاد يغيب . لم يبق مرئياً منه إلاّ الذّنب . استرخى الجسم المكابر . بدأ يستعد للقفز النهائي ، للغياب الأبدي في غيهب الظلمة . بدأ ينفصل عن الحصن . عن البدن الاعلى . بدأ يتخلّى ، يخون العهد . ضمر الجسد . تجرّد من الانفاس الكريهة التي حوّلته من ضّب رشيق إلى قربة منفوشة . لم يسترخ حالاً ، ولم يتخلّص من الأنفاس مرّة واحدة ، وإلا عرّض نفسه للخطر ، ولكنه فعل ذلك بشك ، وتوجّس ، وتدريج . كان يدرك أنه تورّط في مبارزة ، وكان يدرك أيضا أنه لن يخرج منها بطلاً إذا لم يحترس . إذا لم يترصّد مسلك الخصم . استعدّ للوثبة الأخيرة . استعدّ للدور الحاسم . استعد الخصم أيضاً . ففي هذه الخطوة سيمنى أحد الطرفين بهزيمة . و .. في أقل من طرفة العين . فزّ الجسم ، وابتلعه الدهليز ، ولكن ، في نفس الومضة أيضاً ، كانت اليد قد شدّت الحبل بحركة عنيفة ، فوجد الضّب نفسه في العراء . جرجره «بوبو» في العراء وهو يقفز في الهواء ، ويطلق صيحات البطولة .

ألا يحق للإنسان أن يبتهج إذا برهن أن كيد الخلق أقوى من كل كيد ؟

(٢١)

تباهى بوبو طويلاً .

يقفز في الهواء ، يمزّق حرم السكون بصيحات الفرسان . يقهقه .

Twitter: @alqareah

يدور حول طريدته . يداعبها . ينتصب الخصم . يرفع رأسه إلى أعلى . يملأ جوفه بالهواء . ولكن الرأس لا يدرك النصب ، والبدن لا يلتحم بالجحر . تنفس ولم يقرأ حساب الاسترخاء . أجل . السّر في الاسترخاء كان منذ الازل . الاسترخاء أزال الممالك . الاسترخاء أفنى الامم . الاسترخاء أباد كل ذي سلطان . الاسترخاء داء أقوى من كل وباء . الاسترخاء غرّربه ، وسلّمه للعراء . والآن يستطيع أن ينتفخ ما شاء . الآن فليمتلىء هواء أو سماً ، غيظاً أو حلماً ، فالأوان قد فات ، ونبوءة : «آسكفيغ إيغفين إيسلي ، وهيد يكس ولا إملي» بطلت بالاسترخاء ، وها هو يتلبّس الفراغ بعدما كان يلبس حجراً . ها هو يتلوى في أشراك الكيد ، بعد ما تحدّى مملكة التسليم بالنبوءة المنكرة . وها هو الخصم ينفخ في وجهه انفاس الشماتة ، ويتكلم بالاستفزاز : «ها – ها .. لقد غلبتك . ها – ها .. غلبتك .» . فلمن يتوجّه باللّوم ؟ لمن يتوجه المعتزل بالإدانة إذا كبا ووقع ؟ من يسائل من توحّد وانقطع وخرج وتعمد أن يعتمد على النّفس ؟ من أين يستمد العزاء إذا لم يستمده من نفسه ؟ ولكن هل يفيد العزاء إذا وقعت الواقعة ، وغدر الزمان ، وطاف المنادي بنداء الميعاد ؟

تألقت المقلة بدمع فاجع . ولكن بوبو مضى يتقافز . يصيح . يردد اشعار الملاحم والحملات . يتغنى بمواويل البطولات . فلم يلحظ الدمع المرير . لأن شرع الاشياء قضى ألاّ يلحظ الجلاّد دمع الضحيّة .

Twitter: @alqareah

«دودو» وحده اكتشف العلامة .

لم يقفز في الهواء . لم يستفز حرم السكون بصيحات الهرج ، ولا بأشعار البطولات . تابع الكنز بعينين غائبتين منذ خرج من بطن الحجر . لم يرف له جفن . لم يطرف . لم يرفع البصر عن الوميض . ظلّ يلاحق الضحية طوال المراسم . وكلما توقف بوبو عن الجذب ، اقترب من الكنز ، وانحنى فوقه ليراقب العرقوب عن قرب .

كان ظهر الضّبّ موشّى بالذهب ، مشطوراً بوسام من نثرات التّبر ، يمتد من اول فقرة في عمود الظهر ، إلى آخر فقرة تلاصق الذنب، حيث استقر طوق المسد .

هتف دودو أخيراً :

– انظر ! ألا ترى ..

لم يكمل . مدّ إصبعاً مرتعشاً نحو الأسير . ركع بوبو على ركبتيه. تمتم :

– آ – آ .. لم أر هذا من قبل . آ – آ – آ ...

مسّد بسبابته على الوسم . انتفض الأسير . هدّده بفحيح أقبح من فحيح الحيّة . انتفض بوبو أيضاً . ابتعد . قال دودو بنبرة غائبة :

– هذا الوسم هو الذي دلّني عليه .

Twitter: @alqareah

– دلّك عليه ؟

– رأيته عندما سقط فوقه سيفُ الشمس فظننته سكيناً .

رفع إليه عينين مخيفتين . تكلّم بصوت غريب :

– انت لن تنكر أني أوّل من رآه . لقد سمعتني عندما صرخت :«انظر!» .

مسح بوبو عرقاً فزّ من الجبين . في عينيه لمع بريق . تنقّل ببصره بين الأسير وبين دودو . ثم التفت شمالاً ، وراقب الفراغ بعينين فارغتين . تكلم بنبرة غريبة أيضاً :

– هل تظن أن «انظر» تمسك ضباًّ ؟

– الضبّ ضبّي . أنا أول من رآه !

رفع بوبو رأسه الى أعلى . هتف :

– انظر ! هناك في السماء ، يحلّق الطّير . هل تستطيع أن تأتيني به ؟

– الضّب مخطط بالذّهب . الضّب المخطّط بخيط التّبر ضبّي !

عضّ بوبو على شفته السفلى . غمغم :

– هل تريد أن تأخذ الضّب كما أخذت الغزال ؟

حاول دودو أن يقبض على الأسير ، ولكن الضّب توعّده

Twitter: @alqareah

بالفحيح فابتعد . قال :

– أنا أول من رآه . هذا الضّب مخطط بالذهب . هذا الضّبّ ..

– لقد أخذت الغزال . أبي ربطه إلى الرّكيزة . فجاءت ، وفكّت رباطه واعطته لك . اعطتك الغزال .

– سأنحره بالمدية ، وسأشرب من دمه .

– ها – ها .. لن تنحره . سآخذه الى أبي . سأقول له أن ينحره ويشرب الدّم . وسوف يعمّر مثل السّحرة ، أو الزعيم ، أو «وانتهيط» .. سيعيش طويلاً ، طويلاً .

لم يلحظ بوبو الزّبد الذي نزّ من فم دودو . ولم يلحظ أيضاً الوميض الغامض الذي تألق في حدقتيه . بدأ يرتجف . ثم قفز وخطف الحبل من يد بوبو . ركض في العراء . فرّ بالكنز . جرجر الأسير وراءه وهو يركض . تحت سياط الجلاّد الخالد لمع الوسم الذهبي ببريق خفيّ . بوبو لم يصدق . لم يفق . عاوده الاحساس الموجع بانه وحيد . وحيد . وحيد . نفس الاحساس الذي فاض في جوفه عندما تزحزح أول يوم من موقعه الدافىء قرب الركيزة ، ووجد نفسه في مدخل يتنفس برداً ووحشة وفراغاً . أحسّ أن الأب تخلّى عنه ، والأم تخلّت عنه ، وهاجروا مع القبيلة طلباً للكلأ ، وتركوه وحيداً ، يائساً ، مهجوراً . تنفّس في وجهه برد الشمال ، ومدّت له الظلمة لساناً موحشاً ، وقهقه

Twitter: @alqareah

فوق رأسه جبابرة الجنّ . بدأ يختنق ، شهق كأنه يلفظ انفاساً أخيرة . مدّ عنقه . جاهد لالتقاط الهواء . تمتم بيأس :«أبي!» . لم يظهر الأب في الافق . لم يتنزل العملاق من صلب السّماء . ولكن القبس المبهم كلّمه بالإلهام . وثب . هبّ كالعجاج . جره كالرّيح . ادرك دودو قبل أن يدرك القطيع . اعترضه . قال بصوت ليس صوته :

– هات الحبل !

شدّد دودو قبضته على الحبل . اخفى يده وراء ظهره . اشتعلت عيناه بالنّار . اشتعل بوبو بنار أخرى . تقدّم بوبو خطوة . تراجع دودو خطوة . تقدم بوبو خطوتين . تراجع دودو خطوتين . في الجوار انتصب الأسير . توقف عن الفحيح . راقب المواجهة بعين واحدة . في العين الأخرى تخفى سرّ آخر .

ردّد بوبو :

– هات الحبل أحسن لك !

ردّ دودو وهو يتراجع :

– لا .

– لقد اخذت الغزال .

– سآخذ الضّب أيضاً . أنا أوّل من رآه !

– أخذت كل شيء . أنت أخذت ..

Twitter: @alqareah

اختنق بالكلام . انحنى على الارض . التقط حجراً . تقدّم . تقدّم. لم يستمر الاشتباك طويلاً . هوى على الرأس بضربات عنيفة ، وحشية ، متتالية . ترنحّ دودو ، وسقط . تخلّى عن الحبل ، ولكنه لم يتوقف عن الضّرب . مضى يهوي بالحجر ، ويهوي ، ويهوي . في القلب نار ، وفي العينين ظلمة ، وفي الجوف حقد أشدّ سواداً من كل الظلمات . لم ير لسان الحجر الذي يشبه لسان المدية ، لم ير الاخدود المحفور في الرأس ، لم ير الدّم وهو ينبع من الاخدود . لم ير شظايا اللحم وهي تتناثر فتلوّث وجهه ، ويده ، وثيابه . لم ير شيئاً غير الظلمة . الظلمة . الظلمة .

(٢٢)

.. الجان طارده طويلاً . لا يذكر متى بدأت المطاردة . يقيناً أنهّا بدأت منذ زمن بعيد ، بعيد ، لأنه قطع الحمادة راكضاً ، تقطّعت انفاسه كما تقطع نعله . نهشته حجارة الحمادة الجنوبية ذات الانياب ، ففزّ الدّم من قدميه . لعقت الحجارة الشّرهة الدّم ، ولكنه لم يتوقف عن الركض. استيقظ فيه غضب ما لبث أن صار حقداً . كره الحمادة ، وسبّ العراء ، وبصق في وجه كل مسافة خالية . لأول مرّة يتحوّل في عينيه الحرم الى مساحة كئيبة ، بليدة ، قاسية ، لا طلحة ، لا وادٍ ، لا مرتفع ، لا حضيض، لا سفح يعد بكهف أو مخبأ . عراء عارٍ ، مكسو بحجارة كأنياب الذئاب ، تمتد بلا حدّ ، وتتوالد الى الأبد . في جوفه تململ نداء

Twitter: @alqareah

غامض يدعوه للمواجهة . ولكنه تجاهل الالهام طوال الطريق ، وسأل نفسه كيف سيواجه ذلك الوجه البشع . فالجان كان نادراً بالقياس إلى ما عهده في ابناء هذه القبيلة الخفية من خصال . لم يكن مارد القامة ، ولم يتمتع بروح الدعابة كبقية الاقران . كان في قامة مخلوق من مخلوقات اهل الخلاء . يميل الى البدانة . حاسر الرأس . لم يكن رأساً تماماً ، ولكنه جمجمة قبيحة عارية من اللحم والشعر والآذان ، ولكنها لم تكن فارغة من العينين . بل العكس . ففي مقدمة هذه الدائرة الكريهة المثيرة للإشمئزاز ، استقرّت جمرتان من نار ، كانتا في لون الجمر ، وصرامة اللهب ، وجنون لا يليق إلاّ بجنّ . لا يذكر كيف بدأ الأمر بوضوح ، ولكن المجهول دبّر لهما اللّقاء الاوّل في زمن بعيد ، بعيد ، بعيد . قبل أن يتمرّد على ملكوت النسيان ، ويقع أسيراً شقياً مكبلاً بأغلال الذّاكرة . قبل أن يحتل مكاناً عند الرّكيزة بجوار موقد النار . قبل أن يتنعم بدفء الابوين ، وقبل أن يتمتع بجمال الصحراء . اقبلا معاً من الوطن الاول ، ونزلا ، معاً ، ضيفين في القماط . حلّ معه في الحضن ، ورضعا ثديا واحداً ، ورقدا في فراش واحد ، وتراءت لهما رؤى سماوية واحدة . كان له نفس البدن المائل الى البدانة ، ونفس الجمجمة الكريهة ، ونفس النظرة النارية ، ينطفىء النهار فيطلع له في الظلمة . يخاطبه بلغة مجهولة لم يفهمها يوماً ، ويكلّمه بإشارات غامضة . ولم ينس أن يتوعده بعينيه الناريتين في كل زيارة قبل أن يتبدّد ويتخفىّ . وما أن دبّ على قدميه ،

Twitter: @alqareah

وتعلّم رطانة الخلق ، حتى خان العهد ، ووشى به إلى الأم . أصاب الأم فزع ، وهرعت به الى الساحر ، غنى السّاحر مواويله ، وناح طويلاً ، وغاب مع قبائل الجنّ في الحمىّ . وعندما عاد ، عاد يحمل للأمّ النبوءة . قال بعينين غائبتين : «لا يولد الانسان ، إذا لم يولد معه الجان . من منّا لا يسكن في صدره جان ؟ من منّا لا يحمل القرين الخفيّ ؟» .

بعدها نشب بينهما الخصام .

في اوّل ليلة بعد الخيانة رجمه بالحجارة ، ولوّث وجهه بالعفن وفضلات العراء . وفي ليلة أخرى جاء بحبل فظيع وحاول أن يخنقه وهو نائم ، ولو لم يتدخل الأب ، ويخرج له المديه النحاسية ، لقضى عليه في تلك الجولة . ثم بدأت المطاردات ، واستمرّت منذ ذلك الوقت. يحدث له أن يتغيّب . يتغيّب طويلاً حتى يظن أنه رحل والتحق بقبيلته الشقية ، ولكنه لا يلبث أن يعود ، ويهجم عليه بروح أكثر شراسة من أي ليلة مضت .

وفي ليلة من الليالي ، عقب مطاردة حامية ، خرجت له الحيّة . انتصبت في جهه ، وقالت له : «اعطني كرائي أخبرك بسرّ» . قرأ التمائم ، وهرب . لم يعرف شيئاً عن العهد بين وانتهيط والحيّة ، وبرغم ذلك فرّ من وجهها بفضل الإلهام . في مرّة أخرى خرجت له وأعادت نفس النبوءة :«اعطني الكراء ، اخبرك بسرّ» . ففرّ من وجهها مرّة أخرى . ولكنها لم تخرج له في الملاحقات التالية .

Twitter: @alqareah

انتظرت طويلاً لتخرج في المرّة الثالثة .

في هذه الليلة خرجت . خرجت بعد أن تعب وملّ وأصابه اليأس. انتصبت بجواره . هرولت الى جواره . تلوّت بقدّها الفتّان . قالت بإغراء :

– ما أعجب الانسان ! يشقى كثيراً من حيث يستطيع ألا يشقى أبداً .

– الساحر قال أن الانسان لم يولد إلا ليشقى .

– الساحر أبله آخر . فاعطني الكراء ، اخبرك بالسّر .

استغاث فيه نداء ، وحذّره الوحي أن يحترس ، ولكن اليأس تكلم أخيراً :

– ماذا تريدين كراء ؟

– إذا اعطيتني الكراء نجّيتك من شرّ الجنّ .

– ماذا تريدين ؟

– ظلّك !

– ظلّي ؟

– لا أريد أكثر من ظلّ بائس . فهل هذا كثير ؟

لم يتفكّر . لم ينصت للنداء ، لم يلتفت لصوت الوحي . اليأس

Twitter: @alqareah

غلب . نطق بالموافقة :

– الظلّ ظلّك منذ اليوم .

قعقعت السماء . تزلزل العراء . هبّت عاصفة . السماء حلّت في الارض ، والارض ارتفعت الى السماء . أختفى الليل . اختفى النهار . و.. اختفى الجان . اختفى الجان . اختفى الجان .

توقف عن الركض أخيراً . انهار في ركن انتمى إلى مملكة خارج الممالك . خاطب نفسه بالبشارة : «لقد اختفى الجان» . فسمع صوت الوحي يقول : «الجان اختفى ، لأنّك اختفيت قبله . أنت الآن كائن لا إسم له ، لا إسم له ، لا إسم له» .

(٢٣)

أحسّ بالتّراب أولاً . تلوّى . شدّد قبضته على الحصى . لا مس بدن الوطن بكل طرف . بكل حسّ . تمتّع باللّمس . تلذّذ بحبيبات الرمل ، تعشّق الحجارة التي ظنّ دائماً أنها قاسية ، موجعة ، وحشية . هذه الجلاميد الجامدة أعادت له الاحساس بالحياة . أيقن أنه لم يذهب . لم يضع . لم يختف مع جلاّده في مملكة المجهول . فتح عينه بحذر . فتحها ببطء شديد فرأى ، في الافق ، الإله الفضي شاحباً ، وحيداً ، حزيناً . فتح العين الأخرى فوقعت على جسم تكوّم بالجوار . تمتم بتعويذة . تذكّر الجلاّد الذي اختفى . فزّ بفزع ، قهرته الأوجاع . ناح .

Twitter: @alqareah

تحامل . زحف الى البدن المجهول . تحسّس الجسم . تفقد الرأس . غمر السائل اللزج أصابعه . رفع الرأس الى الضوء . لم ير جمجمة الجان . لم يجد نظرته النارية . ولكن دودو هو الذي حدّق فيه بهذه النظرة الفارغة . فهل ... استولت عليه رجفة . عادت الحمّى من جديد . إذن المطاردة لم تكن إلا هروباً من كابوس أكبر . هرب من غول النهار ليقع في يد غول الليل . والآن ها هو ينجو من غول الظلمة ليقع في نفس الفخّ الذي فرّ منه . بدأ يئن . ويئن ، ويئن . نهض . شيّعه من يديه . وضعه على ظهره كما تشيع الضباع حيران الإبل . رأسه يرقد على عنقه من الوراء .يداه تتدليان حول منكبيه بمرونة غريبة . قطرات الدّم اللّزج تغمر رقبته ، وتسيل على منكبيه ، وتسقط على ساعديه قبل أن تهوى إلى الارض .

بلغ النّصب .

ارتفع الإله الغامض ، فرش له العراء بفيض فضّي كئيب . تفقّد الحجر . وجد الأثر . انتصر السّر . وكتب الغلبة للخصم . انتصر من هُزم ، وهُزم من قهر . انتصر الناموس الأول . تكلّم في الصحراء شرع النقائض المميت . لا تظنّن أن من غلب قد غلب ، ولا تظنّن أن من هُزم قد هُزم . ففي الغلبة هزيمة ، وفي الهزيمة غلبة . ها هو المغلوب ينجو من الفخّ ، ويصير غالباً . وها هو الغالب يصير شقياً ، خائباً ، يحمل شارة الهزيمة على منكبيه .

Twitter: @alqareah

حفر تحت النّصب . حفر طوال الليل . انتهى قبيل القبس . كان خندقاً مستديراً ، عميقاً . يقف على رأسه نصب الضّب علامة ، وتحيط به أكوام الحجارة كقبور الاولّين . حمل البدن إلى جوف البدن . أعاد البدن الى البدن الذي خرج منه . اودعه في الجوف بحذر . ثنى الساقين الى الفخذين ، وثنى الفخذين الى الفخذين . ثم حشر النصف الاسفل الى النصف الاعلى . تكوّر البدن ، واستدار ، وصار الى الوضع القديم. احتواه الخندق ، وضربت حوله الدائرة حصاراً . غطّاه بالحصى والحجارة وأكوام الغبار . تحت الضوء الشاحب رمته عين البدن بنظرة خفية ، فارغة ، ولكنها مخيفة .

توقف عن ردم الحفرة . تراجع إلى الوراء ، تحرّك نحو الشمال ، في الاتجاه المضادّ للمنتجع . لم يفكّر في اهوال السفر . لم يشغله غول العطش . لم يحيره التّيه . ولكنه فكّر في سبيل ينال به الاسم الجديد . في الأفق ، تبدّى القبس ، وبشّر بميلاد يوم جديد .

Twitter: @alqareah

٢١ - الخروج ب

« وجبل الرّبّ الإله من الارض كل حيوانات البريّة ، وكل طيور السماء ، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها . وكل ما دعا به آدم ذات نفس حيّة فهو إسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البريّة . واما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره » .

التكوين

(٢ : ١٩ ، ٢٠)

* * * *

«اختلقوا الإسم ، كما يبدو ، سلفاً . ومختلقوه انطلقوا من المبدأ الذي يقول انه ما دام الاسم موجوداً ، فلا بد أن يوجد الشيء أيضاً » .

هنريك سينكيفتش

«في سبيل الخبز»

Twitter: @alqareah

(١)

في النهّار الاوّل تنفس الشمال بالبحري ، فانشرح الصّدر ، وقطع المسافة مهرولاً .

في النهار الثاني أكتأبت الصحراء ، ومات فيها الهواء . أكتأب أيضاً ، وماتت في صدره بهجة الامس . دبّ السراب ، وبدأ لعبة اللّعب. تباهى ، أمامه ، بتفوّقه . أبدع الممالك ، وخطّ ، في الافق ، واحات أبهى من «واو» . زرع في الخلاء الفاجع زرعاً ونخلاً ، وفجّر في الارض اليباب ، المرت ، سيولاً وينابيع . رفع عشبة بائسة تستجير من نار الجلاّد برمضاء العراء ، وصنع منها شجرة اطول قامة من الطّلح ، واشدّ كبرياء من نخل الواحات . انزل طلحة حقيقية من أعاليها ، شطرها إلى نصفين ، واطاح بها ارضاً . يحيل الصحراء كلها إلى بستان يفوق بساتين الواحة المفقودة في الاغواء والبهاء ، ثم تنتابه السويداء ، فيمحو ما بنى ، ويخسف الارض . يزيل البساتين ، ويبدّد السيول . يهلك ما دبّر بحيلة ساحر ، ويحيل النعيم الى فناء بقدرة إله .

سأله حكماء الجنّ : «لم تفني ما تبني ؟ لم تبدّد ما تقيم ؟» فأجاب: «وهل يمهل الفناء بنياناً ؟ وهل يستقيم شيء ما لم يتبدّد ؟ ثم هل تظنّون أني ابدعت شيئاً إذا ابدعت ؟ لا . أنا لم اتقن عملاً ، ولم أبدع

Twitter: @alqareah

أعجوبة . كل ما فعلته هو أني حاولت أن أحاكي الصحراء ، واتعلّم اللّعب» . سأل حكماء الجنّ:«عجباً ! هل تريد أن تقول أن الصحراء هي التي علمتّك لعبة اللّعب؟» . أجاب :« وهل في الصحراء ساحر يستطيع أن يغلب الصحراء في اللّعب ؟» . قال الجن :«ولكن لماذا تقود ضحاياك دائماً إلى التّيه ، إلى الهلاك ؟» . أجاب :«ناموس اللعب هو الذي قضى أن تبدأ اللعبة في المكان الذي ينتهي فيه اللّعب» تمايل المسافر . هرب من امامه السيل ، ذابت سيقان النّخل ، وتبدّدت البساتين، زال النعيم ، وتبدّت في مكان آخر واحة أخرى لم ينلها إلاّ من وجد الشجاعة كي يتخلّى عن كل الواحات . ابتسم حكماء الجنّ . قال كبيرهم :«أني أرى البنيان قد زال ، والبستان تبدّد ، والينبوع جفّ ، واللّعب كله قد أكتمل» . قال آخر :« أرى شبحاً يغالب الافق . فهل ما أرى هو باطل من أباطيل السّراب ، أم هو أتان الداهيّة ؟» .

(٢)

في البرزخ انحنى فوقه الشّبح . لامس جبينه بعصاة الاطواق النحاسية ، وسقط طرف لثامه الازرق على وجهه . غالب الظّمأ . غالب الظلمة . غالب الغياب . حرّك شفتيه . ولكن لم يسمع السؤال أحد سواه . ابتسم الشبح . تكلم :

– إذا اعطيتني كرائي أعدت لك الحياة .

Twitter: @alqareah

بذل جهداً بطوليا . تمتم :

– ماذا تريد ؟

– أريدك أنت . أريد إسمك !

– إسمي ؟

– كنت سأطلب شيئاً آخر ، لو لم يسبقني إليه أحد آخر .

بذل جهداً بطوليا آخر . غمغم :

– تذكرت . الحيّة . الحيّة اخذت ظلّي !

– ها قد عدت . أني أراك تدخل وطن اللّعب .

– من انت ؟

– أنا من يصير شرّه خيراً إذا فعل شرّاً ، ولكن لا يفعل الخير أبداً حتى لا يصير شرّاً .

– لم أفهم ...

– تجارتي التجوال في الصحراء ، وتجميع الظّلال .

– الظّلال ؟

– وإذا لم أفز في طريقي بظّل ، اكتفيت بالإسم . اقتناء الاسماء أيضاً تجارتي .

Twitter: @alqareah

جاهد الظلمة . غمغم :

– الماء . أنا لا أريد إلاّ جرعة الماء !

– ستنال الماء إذا جُدت بالكراء .

غالب اشباحاً أخرى ، في ارض أخرى ، عاد الى وطن اللعبة أخيراً :

– وماذا تفيد الاسماء ؟ ماذا تفيد .. الظّلال ؟

انتصب الشبح . هأ هأ اولاً ، ثم قهقه بضحك منكر . انحنى إليه مرة أخرى :

– وهل يفيد في ساحة اللّعب شيء آخر غير الظّلال والاسماء ؟

ناموس الساحة هو الذي تكلّم فيه عندما قال :

– الكنوز !

– لا أرى كنزاً أنفس من ظّلٍ أو إسمٍ .

– ألا تطلب التّبر ؟

– التّبر كنز لكم ، وليس كنز السحرة !

– ولكن كنز الظمآن ماء ، اعطني الماء !

– الكراء أوّلاً .

Twitter: @alqareah

– وهل يهون كراء امام كنز الماء ؟

(٣)

حمله على دابّته حتى بلغ به حضيض واحة شمالية معلّقة في الجبل . ودّعه قائلاً : «طريقانا سيفترقان في هذا المكان . سأمضي شرقاً ، وستحل انت ضيفاً على أكابر يملكون من الماشية جيوشاً» . اخفى ابتسامة بطرف اللثام قبل أن يسلّم امره للخلاء .

لم يتأخّر الأكابر .

ارسلوا له الرّسل قبل أن يبلغ اول بنيان . حملوا له الماء . انتظروا حتى ارتوى . ثم تحلّقوا . ضربوا حوله حصاراً . هرولوا . تمتموا بتمائم لم يفهمها . حفروا باقدامهم حول قامته دائرة . شعر بالدّوار . ولكنهم لم يتوقفوا . من افواه الكهوف العليا نزل شيخ وقور . طاعن . مقوّس . توقف الرّسل عن الهرجلة . انتظروا الشيخ بخشوع العُبّاد . طأطأوا الرؤوس . وصل الشيخ . وقف خارج الدائرة . سأل :

– الإسم ؟

غالب ظلمة اشّد من ظلمة الظمأ . سكت طويلاً . كرّر الشيخ السؤال . أخيرا قال :

– إيجمض إيغفين * .

– هل فقدت إسمك ؟

(*) حرفيا «خرج من رأسي» .

Twitter: @alqareah

هزّ رأسه علامة الايجاب . هزّ الشيخ رأسه علامة الفهم . التفت إلى الرّسل . هتف :

– الكهف ! الكهف ! الكهف !

هجم عليه الرّسل . قاومهم . كانوا في قوّة الجنّ . غلبوا . حملوه إلى كهف كئيب . قيّدوه . اقفلوا مدخل الكهف بالحجارة . نزلت ظلمة أخرى . ظلمة في الصدر . ظلمة في الرأس ، ظلمة في البصر . ظلمة ، ظلمة ، مملكة من الظلمات . سمعهم يبتعدون . رفع صوته بالنّداء . لم يجيبوه . لعنهم بأعلى صوت . اختنق . أحس بأنه وحيد فاختنق . وحيد ، وحيد . وحيد . لا يستولي على المخلوق شرّ الانقطاع عندما يكون وحيداً في الخلاء ، ولكن البلاء لا يتمادى إلا عندما تطبق الجدران على انفاس الانسان .

الجدران هي الانقطاع الذي لا يحتمل .

من كوم الحجارة الذي سدّوا به الفوهة انطلق سهم نحيل من الضّوء . يتسلل من زاوية الغار كقبس الفجر ، فيفسد على الظلمة لونها، ويحدّ من استبداد السّواد . ولكن السهم لا يخترق الجدران الفاجعة إلاّ في النهار ، أما في الليل فتستعيد الظلمات السلطان على مملكتها ، فيستنجد بإله الليل . ولكن الإله الليلي اعتكف في منازله ، ولم يخرج إلى الصحراء طوال ثلاثة أيام . وطوال هذه الايام الثلاثة حاول أن يفكّ

Twitter: @alqareah

القيد . أدمى المسد فمه ، وأكل يديه ورجليه دون أن يفلح في فكّ القيد. يئس وانتظر أن تقطع إليه الظلمة مسافة أخرى ، انتظر أن تتمدّد ، وتمتد ، وتسطو على العصفور . ولكنهم جاءوا في صباح اليوم الرّابع ، واخرجوه .

غمروا وجهه وبدنه بالماء . ولم يسمحوا له بالارتواء إلاّ بعد أن تبلّل وقطرت من ثيابه خيوط الماء . اقبل رسل آخرون يدقون دفوفاً ، ويرفعون اصواتهم بغناء . ضربوا حوله طوقاً ، رقصوا وهم يدقون الارض باقدامهم . غنّوا . بدّلوا الالحان ، وتبدّل الايقاع وراء الالحان . زعق بعضهم باصوات كزغاريد النساء . ترنّحوا ، تمايلوا ، ولكنه لم يترنح . ولم يتمايل ، ولم يردّد الألحان . ظلّ يتابعهم ، يدورون حوله ، ويدور هو حول نفسه . أحسّ بالدوار . تعثّر فتلقّفه أحد جبابرتهم بين يديه . تقدّم نحوه عجوز قصير القامة ، نحاسي البشرة ، يمسك في يمناه بمدية شرّيرة . رسم على صدره تقاطعاً بالمدية فتوقّف المغنّون عن الغناء . سكتت الطبول . رسم الساحر إشارة «تانّيت» مرّة أخرى . لم يطبعها على صدره ، ولكن لسان المدية زبرها في شعاع الشمس على صدر الفراغ . التفت الساحر إلى الحشد . أومأ برأسه . تقدّم منه ثلاثة أشدّاء . أطبق اطولهم قامة على صدره بذراعيه . وتشبّث ثانيهما بيده اليمنى . وأمسك ثالثهم بيده اليسرى . حاول أن يفلت من أيدي المردة ، ولكن هيهات . ايديهم اصلب من معدن الحديد ، وقبضاتهم أقوى من قبضات

Twitter: @alqareah

الجّن . تقدّم منه العجوز. فتح فمه فرآه خاليا من الاسنان مثل افواه كل السحرة . انتظر امراً جسيماً . استيقظ فيه هاجس خفّي . استبدّت به رجفة . رأى كيف غاب السواد من عيني الساحر . تهيّأ لتلقّي اللسان الشرّير . اشتّم رائحة الشياط . شياط البدن عندما يلسعه لسان المدية المصقول بلسان النّار . اغمض عينيه . كزّ على اسنانه . ولكن الساحر تلقّف اذنه اليمنى ، وصرخ بأعلى صوت :«كر – ر – ر – ر .. كيونان جبارين» * . تلقّف الاذن اليسرى ، وصرخ فيها بنفس الصوت ، وبنفس الإسم . ثم تركه ومضى .

بعدها حملوه إلى كهف الزعيم .

وجده يتربّع على نطع ناصع ، يهشّ أسراب الذّباب بذيل كثيف من شعر ناصع أيضاً ، مثبّت على يد من السّدر . جاء أحد الخدم يحمل وعاء . وضع الوعاء ، ففاحت رائحة شهية . ثم تقدّم من الموقد . نثر فوق الجمر مسحوقاً ، فاستعرت النّار بلسان نهم ، فاحت في المكان رائحة كريهة .

رفع الشيخ الطرف السفلي من لثامه وانزله على العمامة فوق الرأس . كشف عن لحية جليلة مرصّعة بالبياض ، تتدلّى على الصدر بغزارة الوبر . أغار عليها الذباب فحاربه بالذيل الناصع . داعب حافة القصعة بسبابته وأومأ له أن يقترب . لم يقترب . لم يجد ما يداري به

---

* انت تُدعى جبارين .

Twitter: @alqareah

الحياء ففرّك يديه . تمتم :

– ظننت أني لن أخرج !

أبتسم الزعيم . راق له الاعتراف ، ولكنه لم يرفع رأسه عن زخارف القصعة . مضى يتابع التمائم المحفورة على الحواف . استبّد السكون . انتهكه أنين الذباب . اخيراً تكلّم الزعيم :

– نحن لا نحبس المخلوق بلا سبب .

اختلس إليه نظرة خفية . ضبطها الشيخ ، وقرأ فيها السؤال . قال:

– فعلنا ذلك كي نغسلك من الوباء .

– الوباء ؟

– رأيناه عندما القى بك إلينا ، فادركنا ما حدث .

اختلس إليه نظرة أخرى . ولكن الشيخ ترصّدها فالتقت العيون . قرأ الاستفهام مرة أخرى . اوضح :

– هل تظنّ أنّك الوحيد الذي غرّر به ونزع إسمه ؟

رسم بالسبابة والأوسط تقاطعاً مزدوجاً على التراب . أحاط العلامة بطوق . أجاب على السؤال :

– لقد ألقى لنا خلقاً كثيراً في الماضي . وكانوا كلّهم بلا أسماء .

ضاقت عيناه . كفّ عن الحرث . سأل دون أن يرفع رأسه :

Twitter: @alqareah

– ولكن هل تذكر شيئاً ؟ خبّرني : هل قال لك شيئاً عن الخير والشّر ؟

ثم أقبل إليه بعينيه الصغيرتين مشجّعاً . عاد جبارين يعصر يده اليسرى بيده اليمنى ، ويعصر اليمنى باليسرى . طأ طأ . حاول أن يتقهقر. أن يعبر ظلمة الكهف ، أن يدرك الرحلة . قال :

– اظنّه قال اشياء كثيرة . اظنّه تحدّث عن الخير والشّر أيضاً . ولكن هل هو شرّير يا مولاي ؟

اسدل الزعيم الستار على وجهه . اختفت اللحية الثريّة ، ولم يبق من الوجه سوى العينين والوجنتين . رفع ركبتيه حتى وازتا وجهه المستور باللثام . أحاطهما بذراعيه ، فبدا ، في هذا الوضع ، شبيهاً بطفل شقّي . تعلّق بالأفق المغمور بفيض السراب . قال :

– من يجرؤ أن يرمي مخلوقاً بالشّر كمن يتباهى أمام الخلق بوفاء الخّل . فكلا الامرين ، يا ولدي ، حماقة . حماقة لأن الخير قد ينقلب إلى شّر حقاً ، ومن الشّر قد يولد الخير ، بنفس الناموس الذي يحوّل الخلّ الوفّي عدوّاً ، والعدوّ النّبيل إلى خِلّ .

اشتعل جبارين بالحماس :

– نعم . نعم . اظنّ أنيّ تذكرت شيئاً . لقد ذكرّني مولاي . قال أنه يفعل الشّر لأنه على يقين أنه سينقلب الى خير ، ولكنه لا يفعل الخير أبداً خوفاً من أن يتحوّل إلى شرّ .

Twitter: @alqareah

– الداهية !

– هل هو داهية ؟

– ما أقوى حُجّته !

– ماذا يقول مولاي ؟

– قلت أن حجّته أقوى حُجّة . ولولا قوّة الحُجّة لما استولى على الصحراء . ولكن هيهات أن تفهم يا صغيري . ولكن دعنا من الداهيّة وحدثني عن تجارتك .

– الرعي . الرعي يا مولاي . لا أعرف تجارة غير معاشرة القطعان .

– حسناً . لا يحسن أن يتحدّث صاحب القطعان مع راعي القطعان عن الرعي قبل أن يسقيه ماء ، ويطعمه خبزاً .

دعاه إلى تناول الطعام . بعدها قال له أنه لا يستحي من أن يعترف بأنه اودع قلبه في قطعانه منذ غدر به الزمان ، ووجد نفسه شيخاً ، فأقام في الجبل ، وركن إلى التسليم . قال انه رفض عرضاً مغرياً من أحد التجار لمرافقته إلى الادغال لاستجلاب التّبر . رفض لا زهداً في المال ، ولا تعفّفاً من نيل الثروة ، ولكن بسبب التعب ، وخوفاً من اهوال الطلب. اعترف ايضاً أن النبوءة حذرته من الرحلة ، واوحت له بأن يقتني الاغنام ، لأن تربية القطعان هي التجارة الوحيدة التي تليق بالشيوخ الشرفاء .

في النهاية فزّت من عينه دمعة وهو يقول : « أعلم أنّي لا اكتريك راعيا إذ أوكل إليك أمر غنامي ، ولكنّي أنصبّك وصيّاً على قلبي » .

Twitter: @alqareah

٢٢ - الخروج ج

«جلس في يمين العظمة في الأعالي ، صائراً أعظم من الملائكة بمقدار ما ورث إسماً افضل منهم » .

بولس الرّسول

«الرّسالة إلى العبرانيين»

* * * *

« يزول الإنسان ، ويبقى إسمه » .

إ . أ ...

Twitter: @alqareah

(١)

ليس غريباً أن تكون «مولا – مولا» أول من يأتي بالنّبأ . فالصحراء نفسها اختارتها ملاذاً عندما أرادت أن تفر من كيد الخلق . في المرّة الاولى تخفّت في برعم الرّتم . في الحبّة المستطيلة التي تقل حجماً عن حبّة الشّعير فلا تكاد تُرى استعارت ألوان قوس قزح في لون واحد فجعلها تعدّد الألوان تتشبّه بقطرة المطر فتخرج من فردوس الألوان بلا لون . ولكن ما أن يحين الميعاد ، وتستوي الفصول ، وتستقر الانواء في منازلها ، حتى تتفتّح الحبّة ، تتبّسم البرعمة الخفية ، وتكشف عن ثغر ناصع . تتفتّق عن جديلة خماسية الاطراف ، تولد من فمها البشارة ، وتنثر في وجه الحياة طيب الوعد . تستنشق الكائنات شذى الاعجوبة الذي لم تسمع به أذن ، ولم يتشممه انف ، ولم تذقه رئة ، ولم يخطر ببال مخلوق . ولكن أهل الشّرّ جدّوا في الطلب . وإذا جدّ الخلق في طلب شيء فلا بد أن يجدوه مهما أمهل الزمان ، ومهما اخفى المكان . عرف أهل الكيد الطريق ، وادركوا سّر الزهرة . بدأوا الحملة حالاً . اجتثّوا الشجرة من الجذور ، وازالوا الرّتم من الوجود ، سعيا وراء الصحراء . ولولت عذارى واو غماً ، ناحت صبايا الجنّ من فرط الهول، تنحت الجبال الزرق من موقعها وزحفت جنوباً ، فزعت قطعان الغزلان وفّر الكحل من عيونها . ولكن الصحراء نجت من المكيدة . تسلّلت من

Twitter: @alqareah

مملكة السّر في ليل أحتمى بفيض الإله الفضّي ، ودخلت في بطن أعجوبة أعجب شأناً من زهرة الوعد ، واشدّ منها سخاء ، وأكثر قدرة على الاختفاء : جوف الترفاس .

هناك ، في وطن الاسافل ، في وادي الظلمات ، تنقلّت الصحراء في الألوان ، عبرت البرازخ ، طافت الممالك ، واجتازت كل حدّ . توغلّت في بحر السّر ، وعرفت المجهول ، ووقفت على أمر كل أمر خفيّ . عادت بالحكمة ونالت مواهب السحر والكهانة ، وتحلّت من الزهد بمزيد ، ولكنها لم تحتمل أن تبقى أسيرة ابدية للظّلال ، فطلبت الكشف . جاء الميعاد . تراكضت الانواء . بحثت الافلاك عن مستقّر لها . بلغت النجوم منازلها . رسمت الاقدار إشارتها بطلسم الشّهب . تململ في الاعماق الكنز الخفي . تكوّن . تكوّر . بحث عن الوطن . قعقعت السماوات . مزقتها البروق . تزلزلت الارض بالمخاض . تشقّقت وخرج من جوفها الوليد . كان مجبولاً من طينة أخرى ، لأنه جاء من وطن آخر ، من نعيم آخر . ربما من «واو» . وربما أبعد من واو . هذا الوطن المجهول هو الذي ميّزه عن كل شيء في الارض ، له لون ، ولكن لا يُدرك لطعمه سّر ، له بدن مدوّر ، ولكن لم يعرف لعبيره قرين أو شبيه. هو كائن حّي ، ينمو ، ويتكوّن ، ويستدير ، ولكنه الكائن الوحيد الذي لم تعترف ببنوّته شجرة واحدة في الارض كلهّا . فاحتار الدهاة. قالوا أنه لو لم يأت من المجهول ، لو لم يلد نفسه من نفسه ، لهان أمر

Twitter: @alqareah

التخريب . ولكن كيف السبيل لقطع أصل ما لا أصل له ؟. فكّروا طويلاً . تسكّعوا طويلاً . تمسّحوا بالانصاب طلباً للوحي . ولكن أساطينهم لم يهتدوا إلى الحيلة إلاّ بعد أجيال . فقد جرّبوا أن الثمرة الخفيّة لا تظهر إلا في البقاع البكر التي لم تمسسها اليد . فإن عبثت المخلوقات بأرض ، وخدشت حياءها بمعاولها أو محاريثها أو أظافرها الكريهة ، هرب منها الترفاس ، واصيب ترابها بالعقم . فقال أساطين الشّر :«تعالوا نحرث الارض ، ونمزّق التّراب ، ونقلب عاليها سافلها ، علنّا ندرك سرّ الصحراء» . بقروا بطن الارض ، وانتهكوا فيها الجوف ، ففرّت الصحراء من الصحراء وبحثت عن ملاذ آخر . بحثت طويلاً . بحثت أمداً أطول من المرتين السابقتين . تريثت كثيراً قبل أن يقع اختيارها على مولا – مولا وطناً أخيراً .

يقول «آنهي» أن العهد تمّ لخصال في «مولا – مولا» . فهو أيضا طائر غامض ينتمي الى وطن الخفاء . لم يسبق لأحد أن عثر له على عشّ، أو على بيض ، أو على فراخ ، كما لم يعثر عليه أحد ميتاً أيضاً . مولا – مولا كالترفاس لم تعرف أباً ، ولم تولد من أمّ . ولكنّها أنفردت بخصال أخر : اولها قدرتها على التخفّي ، واستحالة نيلها بوسائط الصيّد . فقد جرّب أهل الكيد أن يرموها بالحجارة ، أو يصيبوها بالسهام، أو يوقعوها في أفخاخ ، ولكنهم فشلوا فيئسوا . تمّ العهد ، ولم تجد الصحراء مستقراً لها إلاّ في الوطن المتنقل ، فطاب لها المقام ،

Twitter: @alqareah

وجعلت من مولا – مولا رسولاً أيضاً . إذا تجمعت جحافل الاعداء ، وشيّعت رايات الغزو ، اقبلت مولا – مولا الى الزعماء بنبوآت التحذير. وإذا حلّ على الخلاء الوباء أوحت للسحرة بالتعاويذ ، وإذا ادبر الحظ ، وتجهّم الزمان ، ولاح في الافق غول الجدب ، هرعت مولا – مولا بالرسالة الى مجمع الحكماء وقرأتها على رؤوس العّرافين والسحرة . وإذا جاء الطلق إمرأة ، واشتدّت بها آلام المخاض ، جلبت مولا – مولا لها العزاء ، وقالت لها أن آلام الولادة بلسم لمن ينجب بطلاً ستفخر به القبيلة ، وتتباهى به الصحراء .

أمّا إذا سقط مهاجر سافر إلى بلاد الادغال ، أو وقع تائه نال منه الظّمأ ، فإن مولا – مولا اول من يعود للقبيلة بالنّبأ . وأول من ينوح في مداخل الأخبية فيقرأ العّرافون ، في المناحة ، النّبأ اليقين .

(٢)

استلقت في زاوية الخباء ، وراقبت مسلك الرّسول . رفرف في المدخل بإلحاح . ظلّ معلّقاً في الفراغ كأنه يتأهّب للإغارة على دودة . ولكن رأسه لم يكن مشدوداً إلى أسفل ، إلى التراب ، وإنما إلى ركيزة البيت . يتلامع تاجه الناصع تحت شعاع الصبح ، منقاره المنفرج يرتجف ، وعينه الظلماء لا تتنحّى عن التّفتيش في ظلمة الخباء . استعانت بمرفقها . مدّت رقبتها إلى الامام . حدّقت في الجسم المعلّق . سمعت رفرفة الجناحين وهما يعاندان الفراغ ، ويقاومان إغواء الهاوية ، رأت رجفة

Twitter: @alqareah

البدن كله . لم يكتفِ سلطان الرجفة بالاستيلاء على المنقار ، ولكنه استبدّ بالّريش ، بالساقين ، بالمقلتين الخفيتين ، القلقتين . حدّقت في المقلتين فانتفضت . ندّت عنها شهقة مخنوقة ، ارتدّت الى الوراء . احسّت بوهن . استبدّت بها رعشة ، ارتعاش الرسول انتقل إليها . بدأت الأوجاع . الصّداع . آلام الجوف . الغثيان . المخاض . المخاض . المخاض !

ولكن الرسول لم يمهلها ، فاطلق النّداء . نداء ملحون ، شجّي ، يفيض بالاحزان والاشجان ككل نداء في الصحراء . في الطرفة الاولى غابت في ظلمة أشد سواداً من ظلمة الكهوف . تخبّطت في الجوف طويلاً ، لم تعجز عن الرؤية فحسب ، ولكنها عجزت عن المشي أيضاً . عن الزحف ، عن الحركة . أرادت أن تصرخ . أن تطلب النجدة . ولكن اللسان مات في حلقها . فقدت الاحساس بالانتماء إلى البدن ، يئست . وما أن يئست حتى انشق الافق عن القبس . القبس اضاء النّصب الوحيد . فوق النّصب انتصب الضّب . في الاسفل تكوّم «إدبني» في دائرة حديثة العهد . تفقّدت الحجارة فتبيّنت في النداء نداءاً موجعاً ، بعيداً ، كأنه أنين الاموات الذين يروي «آنهي» أنهم يتأهبون للعودة إلى حياة القبيلة . أنصتت . ماذا ؟ همدت . توقفت عن الحياة.حولّت نفسها إلى أذن لا تسمع فقط ، ولكن تبصر أيضاً . تواصل النداء في النداء . علا أنين من توارى في نبوءة الرّسول . لم تصدّق . حاولت أن تنهض . استولى عليها خور الكوابيس . انهارت . تشبّثت

Twitter: @alqareah

بالرّكيزة . افلتت من يدها الركيزة . مادت الصحراء . اختفى الرّسول . حلّت ظلمة اشدّ ظلاماً من ظلمة الكهف . استعانت باللسان . اللسان كان العضو الوحيد الذي لم يخذلها . استجابت للنداء بنداء اشدّ : «آ – آ – آ – آ – آ ...» . اقتحم النداء النجع كلّه . اجتاز القبيلة . طاف الوطن . بلغ الاموات في المقابر . هرعت الى الخباء الجارات .

(٣)

قبل أن تأتي مولا – مولا بالنبأ دبّ الرجال في كل صوب . في اليوم الأول خرج الأب لوحده . ظنّ أن الشقيقين تاخّرا بسبب طيش الجداء وشقاوات التيوس . تفقّد العراء المجاور . نزلت العتمة فنزل اودية أبعد . هناك ركع على الارض ، وتوسد الحصى . تصنت طويلاً ، فلم يسمع سوى أنين السكون الخالد . قطع الوادي . أعتلى الرابية . تأخر الإله الليلي النّبيل . غاب بدن الصحراء في لفافات العتمة . رفع رأسه . اومأت له النجوم بإشارات مبهمة . تمنى لو كان ساحراً أو عرّافاً فيقرأ الإشارة . يئس من انباء الانواء . استنجد بالخلاء . بالظلمة . اسفل الرابية تلاحقت اطياف الجنّ . كانوا يتلاحمون ويتفرقون . يتلاصقون ويتلاحقون ، يتدفقون في افواج لا تنتهي . فأين يذهبون ؟ أم أنهم ينتظمون ويحشدون صفوفهم انخراطاً في حملة ؟ تمنّى مرّة أخرى . تمنىّ لو كان مخلوقاً من أهل الخفاء . لو انتمى لقبيلة الخفاء لما خفي عليه أمر ، ولما احتاج لأن يشقى بحثاً عن الشقيقين الشقيين .

Twitter: @alqareah

نزل المرتفع . اختفى أهل الخفاء . عادوا إلى مملكة الخفاء . فما اسعدهم . يتبدّون متى شاءوا ، ويختفون متى طاب لهم الاختفاء . قضى الليل كله في البحث . ظهر القمر متأخراً . بعد طلوع الإله عثر على بقايا القطيع . الذئاب أهلكت أكثر من نصف القطيع . عاد بالمعز . بلغ النجع مع طلوع القبس . وجدها في الانتظار . حمل قربة ماء . عاد الى الخلاء . خلفه انطلق طابور طويل من الرجال . بدأ البحث الكبير . استمر البحث ثلاثة أيام . اثناء غياب الفرسان نزلت مولا – مولا النجع . حامت حول الاخبية . رفرفت في مدخل البيت ، تحمل فوق الرأس تاجاً، وفي المنقار النبوءة .

(٤)

تحلّقت حول رأسها العجائز والنساء . تبادلن نظرات لئيمة تقول أنهن عرفن الحبل الكاذب ، وجرّبن معاندة نساء جاءهن المخاض ، وانجبن ابناء لم يولدوا ، لأن التوق إلى الولد أكثر مما ينبغي مخاطرة مخالفة للناموس الذي يحذّر من الرغبة في أي شيء أكثر مما ينبغي ، فيأتي جند الجن ، ويختطفون الاولاد قبل أن يفتحوا أفواههم بصرخة الاستهلال عقابا لهن على الاشتهاء .

ولكن الأم التي فقدت وليدين ، وتلقّت الوحي في نداء مولا – مولا ، تلقفت النظرة اللئيمة فتلوت على الارض ، وارتفع صوتها بعويل منكر ، وبدأت تتوسّل أن يرسلن في طلب السّاحر . لم تبعث العجائز

Twitter: @alqareah

في طلب الساحر . ظنّن أنّها تتوحم ، ورغبتها ما هي إلا مزاج ميّز الحبالى دائماً ، ولكنها استماتت والتحمت معهن في عراك بالايدِي ، وقالت أنها ستنفضهن عن جسدها جميعاً ، وتذهب إليه بنفسها إذا لم يأتّين به إليها . غزا البياض مقلتيها . تفصد على جبينها العرق . لفظت زبداً ، فظننّ أنها تحتضر ، وتريد أن تسر للساحر بوصيتها الأخيرة .

جاء الساحر .

هدأت . عرفت السكينة . تبدلت . ابتسمت للساحر . طلبت منهن أن يتركن الخباء ، لأنها تريد أن تتحدّث إليه على انفراد .

(٥)

لم تعرف القبيلة ما دار بينهما . ولكن تدابير الساحر لم تفت أهل الفضول . انطلق إلى خبائه ما أن تلقّى الوصيّة . أُخرج من امتعته قلاّدة مهيبة من التمائم . كانت مدسوسة في مثلثات ومربعات من جلد الغزال . على الجلد استقرّت اوسمة قديمة طبعتها ألسنة المدى ، وألسنة النّار . عُلقت القطع في خيط جلدي أيضاً . مجدول بمهارة ، شذّب الزمان فيه اللّون ، وحوّله الاستعمال إلى خيط باهت ، صقيل ، غامض . استبدل لثامه الشاحب بلثام جديد ناصع البياض. استبدل «الرّفيغت» * أيضاً. ارتدى سروالاً ناصعاً أيضاً. ثم علّق الأحجبة الجلدية في رقبته . أُخرج من ا لجراب مدية محفوظة في غمدِ موسوم بحروف «تيفيناغ». ثبّت

(*) الرّفيغت : جلباب فضفاض من الكتّان الابيض .

Twitter: @alqareah

المدية في الذراع ، فأخفاها الكُمّ الفضفاض .

خرج .

انطلق إلى تجمّع الماشية . اختار جديا اسود اللّون . قيّده جيداً . وضعه على منكبه . انطلق صوب وادي الجنّ . خلفه سار الصبيان . من مداخل الاخبية تابعته النسوة . عندما أشرف على الوادي توقّف . التفت. هدّد الصبيان بنظرة صارمة فانفضوا وتشتّتوا . نزل الوادي . قطع الوادي . صعد سفح المرتفع . توقّف قبل أن يبلغ الشعفة . انزل الجدي . جلس على جلمود. تفقّد الخلاء . تصنّت . أنصت لمحاورات الجنّ في الوادي . اطلق الجدي شكوى حادّة . قام . وضع الجدي على منكبه الأيمن . صعد . بلغ الشعفة . دخل عراء مكشوفاً يعد ببادية فاجعة. قطع مسافة . في طريقه نبتت ثلاثة قبور مستديرة. القبور بدت في العراء العاري كئيبة معتزلة ، منسيّة . تمتم بتميمة . انحرف يساراً . قطع مسافة قصيرة . تبدّى النّصب . لمع وميض . اقترب . شاهد الحكيم القديم ينتصب على المراده . يتعبّد . يراقب الأفق المغمور بغلالات اللّعوب . تعلّق بالافق . غاب في الافق . عاش في الافق . ما أنبل الأفق . ما أبدع الافق . فما سرّ الافق ؟ ما الذي يغوي في دنياه ؟ أهو الوعد ؟ أم الابد ؟ أم المسافة ؟ أم واو الفقيدة ؟

اقترب . دحرج حجراً بنعله فانتبه الكاهن . لمع وسامه الذهبي مرّة أخرى . التقت عيناهما . تبادلا نظرة . حدّق الكاهن في عين

Twitter: @alqareah

الكاهن . وقرأ الكاهن نوايا الكاهن . تحدّثا بلا صوت . وما حاجة الكاهن إلى صوت عندما يلتقي بالكاهن ؟ انقطع اللقاء . قفز الضّب . غاب في الفم الارضي المظلم ، يجرجر وراءه حبل المسد . ما زال الحبل الشرس يلتف حول الذنب .

انزل الساحر حمله . ثغا الجدي بصوت أليم . تقدّم من الكوم المستدير المستلقي في حضيض النّصب . رأى عيناً فارغة من خصاص الحصى ، وسمع انيناً لأول مرّة . أنيناً نائياً يشبه شكوى السكون عندما يتشكى من وحشة السكون . تصنّت . تفقّد نبرة الأنين بحاسة الأذن . سمع أنيناً نائياً آخر . أنين الحُبلى عندما يشتدّ بها المخاض . طاف حول الدائرة . قرأ التمائم . توقف . أخرج المدية . جرّدها من الغمد . لمع النصل . أومأ اللسان بإشارة خفيّة ، شرهة . تقدّم من الضحيّة . جرّ اللسان الشّره على النحر . حشرج القربان . فزّ من نحره دم أسود . سال على حجارة القبر . امتصته الارض المفروشة بسجّاد من حبيبات الحصى . لوّث الساحر يديه . رشّ النّصب بقطرات سخيّة . رشق المدية الدامية فوق رأس القبر ، بجوار النّصب . تعلّق بقوس الافق . غاب هناك زماناً . عاد . بدأ يزيح الحجارة . ارتفع الأنين . أزاح اكوام الحصى . اقترب الأنين . أخرج تراباً مخلوطاً بحجارة . وضع يده على الكنز . تحسّس البدن . أحاط البدن بكلتا ذراعيه . أخرجه بحذر . ولكن الجريح اطلق صرخة موجعة ، طويلة ، كأنها نداء مجهول ، كأنها فجيعة

Twitter: @alqareah

الوليد في بكائية الاستهلال .

في ذلك الوقت كانت الحُبلى تتخلص من حملها الخفيّ في الخباء وتطلق صرخة الخلاص ، لأنها انجبت ولداً لم يأتِ به «آبيل – بيل» محمولاً على جناحين ، فلم يره أحد سواها . كما لم ير أحد ذلك الشبح المريب الذي جاء متستراً بغيهب المساء ، يحمل بين ذراعيه بدناً ملوّثاً بالدّم والغبار .

(٦)

«واسّوفغ ، واهيد إيجمضن سناتت تيكّال» * .

الاغنية ملحونة على نسق «أساهغ» . تغنّت بها الأم وهي تضع وليدها في حجرها . تنكفىء عليه ، تتمايل مع الموّال الشجني . كما تتمايل مع بدن الشكوة عندما تمخض الحليب . غنّت على رأسه طوال الشهور التي غالب فيها الآلام ، فلم يعد اللحن له ترياقاً للسّقم ، أو بلسماً ضد الوجع ، ولكنه به عرف الشفاء ، وفيه ذاق العافية ، ومن خلاله ادرك شيئاً إسمه الحياة . بعد الشفاء راق لها أن تداعبه بالسؤال المكرور :«ميسمنّك ؟»** فيتفكّر . يقطب حاجبيه كمن يحاول أن يتذكّر . يكتئب فجأة . يخفي وجهه بيديه ويردد باكيا :«لا اذكر . لا ادري . لا إسم لي . لا إسم» . في العراء بدأ الصبيان يعيّرونه . قالوا أنه

(*) أحبهّم إليّ ، من خرج منّي مرتّين .

(**) ما إسمك ؟

Twitter: @alqareah

فقد إسمه الاوّل عندما فقد نفسه . فقد إسمه عندما دفعه شقيق مزعوم في هاوية الظلمة . فكان يبكي ويهرع الى الأمّ . تهدهده . تسند رأسه على ركبتها . تتحسّس الاخدود في رأسه . تخنقها عبرة وهي تقول :«لا تصدّق الصبيان . انت لم تذهب إلى الظلمة . والأخ الذي يتحدّثون عنه لا وجود له».

يهدأ ، يعود إلى اللعب مع الاقران . يعود الاقران الى تعييره بفقدان الإسم ، فيعود إليها . يقول لها أن القرناء كلهم نالوا أسماء ، فمتى تأتي له بإسم . تبتسم له . تتحسّس الاخدود المدسوس تحت الشّعر، تنطق بالعزاء : «قريباً ستأتي مولا – مولا ، تحمل لك إسماً» . يسألها :«ما هو الإسم؟» . تجيب :«الاسم هو انت . من أنت بلا إسم؟» . يقتنع . يخرج الى العراء . يبتدع الالعاب مع الصبية . ولم تدعه يخرج الى أبعد . قالت أن الميعاد لم يحن بعد للخروج إلى المراعي ، لأنه اصغر من أن يعاند شقاوات الجداء . ولكن ميعاد الإسم لم يتأخر . اقبلت مولا – مولا بالإسم . كما اقبلت قبلها بنبوءة الميلاد ، فتأهبت القبيلة لتأدية المراسم .

(٧)

قبل أن تأتي مولا – مولا بنبأ الميلاد ، أتت «تيرزازت» بنبأ «إيبا»* . خرجت الى العراء بعد خروجهما إلى الرعى بقليل . ذهبت لترمي

(*) إيبا : العدم ، الوفاة ، التحوّل إلى روح .

Twitter: @alqareah

الفضلات فاعترضتها . وقفت في وجهها كأبشع سعلاة من سعالي الجنّ. نبتت من الارض ككل ساحرة كريهة . طلعت من الظلمة السفلى تحمل كل شؤم الارض السفلى . وقفت على رجليها الخلفيتين . انتصبت بقامتها إلى أعلى . تتدثر بوبر نحاسي اللون . ولكن وسماً ناصعاً مدهشاً اخترق بدنها ، فامتدّ من جانبي الوجه ، ونزل على الصدر ، واتّسع عند البطن ، وتمدّد حتى شمل الساقين الخلفيتين . رمقتها في تحدّ ، وإصرار ، وشرّ . فوجئت هي بالمواجهة ولكن الملعونة لم تفاجأ . تزحزح قلبها ، وسقط في مكان مجهول ، ولكن الساحرة ابتسمت كأنها رأت القلب الذي انخلع ، ورأت أين سقط . حاولت أن تحرك لسانها بالتعويذة ، ولكن اللسان أيضاً انخلع ومات . تراجعت الى الوراء خطوة ، فرأت المشئومة تنزل ساقيها الاماميتين ، وتقفز نحوها دون أن تتخلى عن ابتسامة الحقد والشماتة . سقط طبق الفضلات من يدها دون أن تدري . وهزّتها رجفة عنيفة دون أن تحس ، وانحنت على الارض دون أن تدري أيضاً . تناولت حجراً شرساً . القت بالحجر في وجهها ، دون أن تعلم من أين أتتها الشجاعة للقيام بهذه البطولة . أصابها الحجر الشرس في رأسها . شجّ رأسها . شرخ معتم تبدّى على شعفة الرأس . فزّ الدّم ورسم علاقة معتمة . تفتحّ الجرح . تبسّم بغموض الجراح المميتة . رأت بياض الجمجمة ، فعرفت أن الجرح كان عميقاً ، عميقاً ، عميقاً . ولكن الساحرة لم تترنّح . لم تفقد الوعي . لم تسقط كما سقط قلبها . بل

Twitter: @alqareah

ازدادت ابتسامتها إتساعاً ، وشماتة وحقداً . اختفى الجرح المميت في غمضة . تبدّد الدّم وتبخّر . اسندت بدنها كله على ساق واحدة . استدارت . دارت حول نفسها ، رقصت . اطلقت قهقهة منكرة . قهقهة كريهة تنبىء بأمر كريه . لم تحتمل النبوءة ، فسقطت ارضاً . تقيأت بصوت عالٍ . زحفت . استعانت بيديها . ظلّت تزحف نحو الخباء وتتقيّأ طوال الطريق . حاولت أن تستغيث ولكن الصوت لم يسعفها . بلغت الخباء . تشبّثت بالرّكيزة . اغمضت عينيها . تحرّكت الشفتان بحثاً عن التميمة . انتظرت أن تستعيد القلب الذي تحوّل حجراً وسقط بعيداً . وكان عليها أن تنتظر طويلاً حتى تسترد القلب والدم والانفاس . لم تيأس . غمرت يديها في جوف التراب بمجرد أن استعادت سلطانها على أعضائها . انطلق اللسان يقرأ رموزاً توارثتها الاجيال عن الاسلاف . ومضت اليد تدفن الشّر في بطن التّراب . تتحصّن بالأرض . تستجير بالأم ، حتى تقطع النبوءة قبل أن يقع المكروه. هي تعلم أن «تيرزازت» إذا أتت فلا بد أن تأتي بالنبأ المهول . وتعلم أيضاً أن الارض نفسها تعجز عن إيقاف أمر قرّره الخفاء ، ونادت به الساحرة الملعونة . ولكن الارض تشفع . الارض تلطّف البلاء ، وتخفّف الواقعة ، فأجيري يا أرض ، أجيري يا أرض ، أجيري يا أرض ، أجيري يا ...

كانت شاحبة ، ممتقعة ، شقيّة ، حتى أن جارتها ، عندما دخلت لزيارتها ، اطلقت صرخة فزع .

Twitter: @alqareah

(٨)

ضفرت له تميمة من النقيضين . أخذت من رسول الزوال نصيباً ، واخذت من طير البشارة نصيباً ، وصنعت له من الضدّين إسماً . اختارت من نغم المحبّة حرفاً ، ونالت من وطن «تيرزازت» حرفاً ثم حرفاً، وابدعت من النصفين ترنيمةً منمنمة بنمنمةٍ خفيّةٍ . انتهت من الاختيار . جاء دور الاغيار . استنفر الزعيم اركان القبيلة . تستّر الفرسان بالاقنعة الزرقاء . تسابقوا الى المهاري . ثبّتوا السروج . تباروا في اخفاء ابدان المهاري بما ابدعته حسان القبيلة من منمنمات ومقتنيات وزينة . تزلزلت الصحراء بالزغاريد . انتشر الفرسان في السهل كأنهم يتشوّقون للإنطلاق في حملة . خضّبت الحسان شفاههن وخدودهن بـ «تفتست». أرقن على اجسادهن رحائق من زهر الرّتم . تلحفن بأردية الأرجوان المستجلبة من اوطان المجهول . خرجن إلى العراء بوجوم نبيل. يحملن ضفائر في سواد الفحم على صدور مكابرة ، يخفين تحت الثياب الفضفاضة الة ذات وتر يتيم كأنه يتشبّه بمعتزلة الصحراء ، ولكنه يتكلّم لغة تقهر كبرياء السحرة . وتسقط الزعماء في الغيبوبة ، وتجعل الجنّ انفسهم يرقصون وينتحبون .

من طرف العراء الآخر تجّمع الصبيان . تساءلوا بفضول الصبيان : «من يزفون ؟ من هو العريس ؟ من هي العروس ؟» فرفرفت مولا – مولا على رؤوسهم . تغنّت بابيات مختارة من سفر النبوءة . قالت الاشعار

Twitter: @alqareah

الخفيّة أن الاسم دائماً عريس ، والحياة هي العروس . فليس من اقترن بأنثى من يستحق الزفاف ، ولكن الأولى أن ينال الزفاف ذاك الذي وُلد مرّتين.

اختلت به الأمّ في زاوية الخباء . عرّته من لباسه كأنه طفل رضيع . جاءت بقربة الماء . دلقت عليه السلسبيل . لسعه السائل النفيس فاطلق صيحة وجع . علّقت في رقبته تميمة جديدة . اجلسته على عرش من التراب في صدر الخباء . غرست إلى جواره مديتين . الاولى عن يمينه ، والاخرى عن شماله . اقبل السّاحر . وقف بجوار الركيزة . في السهل نطق الوتر الوحيد بلغة الاشجان والأنين . غابت الصحراء من الصحراء. ناح الجّن في الجبال الزّرق . ترنّح الزعيم في الوادي . فاض الحنين بالفرسان . لكزوا رقاب المهاري ، فانطلقت تحجل برشاقة الغزلان، ومرونة الريح . انتقلت العدوى الى الساحر . بدأ يرتجف . اقترب من العرش . ركع عند قدمي المخلوق الوحيد الذي خرج من الوطن ، ثم عاد إليه من جديد . مال على الاذن اليمنى . زعق بأعلى صوت : «كر – ر – ر – ر .... كيّونان بورو» * .

(نهاية الجزء الأوّل)

موسكو – باتايا (تايلاند) – وادي الآجال (الصحراء الليبية) – تون (الألب السويسري) .

١٩٩٢–١٩٩٣م.

(*) كر – ر – ر – ر أنت بورو .

Twitter: @alqareah

فهرس الجزء الاوّل

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

مؤلفات ابراهيم الكوني الابداعية

١ - الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) ١٩٧٤م
٢ - جرعة من دم (قصص) ١٩٨٣م
٣ - شجرة الرّتم (قصص) ١٩٨٦م
٤ - رباعية الخسوف : (الطبعة الأولى) ١٩٨٩م
أ - البئر (رواية)
ب - إخبار الطوفان الثاني (رواية)
جـ - الواحة (رواية)
د - نداء الوقواق (رواية)
٥ - التّبر (رواية) ١٩٩٠م
٦ - القفص (قصص) ١٩٩٠ م
٧ - نزيف الحجر (رواية ١٩٩٠ م
٨ - المجوس (رواية في جزئين) ١٩٩١م
٩ - ديوان النثر البّري (قصص) ١٩٩١م
١٠ - الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) ١٩٩٢م
١١ - خريف الدرويش (رواية - قصص - أساطير) ١٩٩٤.
١٢ - السّحرة (رواية في جزئين) ١٩٩٤م

* * *

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah



«ظنّ أن رسول الأجيال سيرفض الرسالة، ويدفع العطية كما فعلت كل الرّمم الأخرى، ولكن الفيض المبهم لم يخيّب له ظنّاً. النبوءة الخفّية لم تتململ في جوفه إرضاء للصدفة. رأى كيف امتصّ العظم الدّم كله. لم يدع قطرة واحدة تفلت. في البداية سرت الحياة في البدن القديم في خط واحد مستقيم. ولا يعرف كيف ولا متى توقّف الخطّ عن الامتداد، وعاد ينتشر في الجسم في كل اتجاه. ولا يعرف أيضاً كيف استقرّ كل هذا النّشاط في بقعة غامضة، كبيرة، مستديرة الأطراف. لم يدر شيئاً لا عن النبوءة، ولا عن الدائرة، في ذلك الزمان. ولو لم تحدّثه الساحرة عن الرموز عندما قرأت الرسالة، لما أدرك من أمر البقعة شيئاً».

@ketab_n

رسوم الغلاف
لفناني ما قبل التاريخ نفذها حسني رضوان
تصميم الغلاف حسني رضوان

